العصور

مجلة علمية محكمة، نصف سنوية
تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

المجلد الثاني
الجزء الأول
يناير ١٩٨٧م
جمادى الأولى ١٤٠٧هـ

دار المريخ
تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

قواعد النشر

١ ـ « العصور » مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن.

٢ ـ تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعة على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين على ورق مقاس ٢١ × ٢٩,٧ سم (A 4) وعلى وجه واحد فقط. ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية.

٣ ـ يراعى ألّا يتجاوز عدد صفحات أي بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أي في حدود ٧٠٠٠ كلمة) ، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألّا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صفحة (أي في حدود ١٢,٠٠٠ كلمة) .

٤ ـ يرفق الباحث ملخصاً لبحثه في حدود ٢٠٠ كلمة (مائتي كلمة) تتصدر البحث .

٥ ـ ترسم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بالحبر الصيني على ورق « كلك » حتى تكون صالحة للطباعة ، أمّا الصور الفوتوغرافية فيراعى أن تكون مطبوعة على ورق لمّاع ، وإذا كانت ملونة فلا بد من تقديم الشريحة الأصلية.

٦ ـ يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية ، وكذلك الألفاظ والعبارات التي يراد طبعها ببنط ثقيل ، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات .

٧ ـ يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة ، علامة الاستفهام ، علامة التعجب . . . إلخ) في كتابة البحث وبصفة عامة يتبع أسلوب الـ "MLA" Modern Language Association في الكتابة .

٨ ـ يفضل كتابة المصادر في صورة حواشي ، ولا يفضل رصد قائمة للمراجع في نهاية المقال .

٩ ـ أصول البحوث والمقالات التي تصل المجلة لا ترد ولا تسترجع سواء نشرت أو لم تنشر بالمجلة .

١٠ ـ يخضع تنسيق البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب .

١١ ـ لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية وتوزع في موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها في وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية .

١٢ ـ لا تقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التي سبق نشرها ، كما لا يجوز إعادة النشر في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في هذه المجلة إلّا بعد الحصول على إذن كتابي من رئاسة تحرير المجلة .

١٣ ـ تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية .

١٤ ـ تأمل رئاسة التحرير من السادة الأساتذة الباحثين والكتّاب الذين يرغبون في نشر بحوثهم ومقالاتهم في الأعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالإرشادات هذه ، لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على أداء عملها ، كما يساهم في خدمة أهداف المجلة ، وسنعتذر عن قبول أية مقالة أو بحث لا يلتزم مؤلفها بتلك التعليمات .

١٥ ـ يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الأخيرة بمطابقتها على الأصول ، مع مراعاة عدم إجراء أية تغييرات فيها تختلف عما ورد في الأصول ، سواء بالإضافة أو الحذف ، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما لو رأت رئاسة التحرير ذلك .

١٦ ـ تمنح إدارة المجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذي نشر به البحث أو المقال .

١٧ ـ توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى : دار المريخ للنشر ـ ص . ب : ١٠٧٢٠ ، الرياض : **١١٤٤٣** ، المملكة العربية السعودية .

المحتويات

القسم العربي

English Section

كلمة رئاسة التحرير

تصدر مجلة العصور في عددها الأول من عامها الثاني وهي تلتزم بمبدأ النهج العلمي الأكاديمي الذي اختارته لمسيرتها العلمية منذ البداية لتكون مجلة علمية أكاديمية محكمة تختص بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية ، ولتكون نقطة إلتقاء بين المؤرخين والآثاريين والمهتمين بشؤون الحضارة الإنسانية ، ولتسهم بدفع حركة البحث العلمي إلى الأمام ، وتشجع الباحثين في مجالات إختصاصاتها في داخل الوطن العربي وخارجه .

وبقدر الجهد المبذول في الحفاظ على الطابع العلمي الأكاديمي المتميز للمجلة ، والحرص الشديد في قبول البحوث ذات الأصالة والجدة وإحالتها إلى محكمين متخصصين في الموضوعات التي سيحكمونها ممن عرفوا بالنزاهة والدقة العلمية ، فإنها حظيت بتقدير المجالس العلمية في الجامعات ومراكز البحوث الأكاديمية . كما أنها نالت احترام عدد كبير من الأساتذة المختصين والباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية والآثارية والحضارية ، وبلا شك فإن هذا يدعم المجلة لتتبوأ مكانتها العلمية إلى جانب زميلاتها من المجلات العلمية العالمية .

وقد حظيت المجلة باستقطاب نخبة إستشارية من المؤرخين والمهتمين بالدراسات الحضارية والآثارية ، وقد أفاد هؤلاء المجلة في إعطاء ملاحظات دقيقة سيكون لها أثر طيب على سير المجلة العلمي والمستوى الذي تتوخاه في المستقبل . ولا ريب فإن الملاحظات والتعليقات التي تلقتها رئاسة تحرير المجلة ستلقى العناية الكبيرة وستكون دافعاً قوياً للوصول بالمجلة الى الأفضل . كما أن أولئك الذين تكرموا بإطراء هذا العمل العلمي والثناء عليه سيدفعوننا لمزيد من العمل العلمي المتميز ،وهي مهمة نرجو أن نستطيع القيام بها لتعميم المعرفة وفقاً لخطة المجلة التي تركز على المجالات التاريخية والآثارية والحضارة الإنسانية .

وتتقدم رئاسة تحرير المجلة بالشكر الجزيل إلى أولئك العلماء والباحثين الذين أثروا المجلة بكتاباتهم التي تعالج موضوعاتها جوانب متعددة من حقول المعرفة التي تهتم بها المجلة وتتطلع الى مزيد من العطاء العلمي النافع .

العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ٧ - ٢٤ (١٩٨٧)

بحوث

هيرودوت يتحدث عن العرب وبلادهم

للدكتور مصطفى كمال عبد العليم

ملخص البحث : اكتسب هردوت ، باعتباره من أقدم المؤرخين الكلاسيكيين ، أهمية خاصة كمصدر لتاريخ العرب القديم . وقد تضمنت أحاديثه معلومات عصره عن القوم الذين عرفوا باسم العرب ومناطق إقامتهم في شمال شبه الجزيرة العربية في مناطق تحف بالركن الجنوبي الشرقي لحوض البحر المتوسط . وكان يعرف أيضاً بوجود العرب في جنوب شبه الجزيرة ، ولا يجهل أمر البحار التي تحيط بها . وقد ركز اهتمامه على عرب الشمال وكشف عن جوانب مهمة من تاريخهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وتعرض لعلاقاتهم مع القوى المجاورة من آشوريين وفرس . وذكر من بين آلهتهم اللات وذا الشرى وهما من أهم آلهة الأنباط حتى أن البعض ظن أن عرب هردوت كانوا هم الأنباط بالرغم من أنه لم يذكرهم بهذا الاسم . ومع أن هردوت اهتم اهتماماً واضحاً بالنباتات العطرية والبخور التي كانت تجمع في جنوب شبه الجزيرة، إلا أنه لم يتحدث عن عرب الجنوب الذين عرفوا الحضارة والتنظيم السياسي من وقت مبكر . وبالرغم مما يوجه إلى هردوت من نقد لقصور معلوماته بشأن الكثير من حياة العرب سواء بالنسبة للشمال أو الجنوب ، إلا أنه يظل يحتفظ بأهميته كمصدر لمعلوماتنا عن العرب في تاريخهم القديم .

كادت أحاديث هردوت[١] أن تكون المصدر الرئيس لمعرفة أحوال الشعوب التي عاشت في وطننا العربي ؛ في العراق ومصر وليبيا وشمال افريقيا في القرن الخامس ق . م . برغم ما اعتور تلك الأحاديث من قصور وأخطاء صححتها المكتشفات الأثرية الحديثة بما اشتملت عليه من نقوش أمكن فك رموزها فأضافت الكثير إلى معلوماتنا عن تلك الشعوب . لذلك يجدر بنا أن نضع في اعتبارنا ، ونحن نقرأ هردوت ، أن ما أذاعه على مستمعيه من معاصريه إنما كانت معلومات عصره التي حصل عليها من خلال رحلاته أو مما سمعه من غيره . ولا نظلمه بإتهامه بعدم الدقة . ذلك لأنه حاول جهد

(١) ولد هردوت ، أبو التاريخ ، في مدينة هاليكارناسوس احدى مدن كاريا في آسيا الصغرى (تركيا) وذلك حوالي عام ٤٨٩ق.م في أسرة لوكسيس . وكانت تلك الأسرة على قدر لا بأس به من الثقافة والثراء واشتغل رؤساؤها بالسياسة . فكان نصيب ابن عمه شاعر الملاحم بانوياسيس الاعدام على يد طاغية المدينة وكان مصير مؤرخنا النفي فذهب ليقيم بعض الوقت في جزيرة ساموس ، احدى جزر بحر إيجة ، حيث كان يلتقي بتجارها فيسمع منهم أحوال البلاد التي يذهبون إليها . وكانت تلك الجزيرة أيضاً مركزاً من مراكز الفكر والثقافة . وهردوت فضلاً عن ذلك هو ابن للمدرسة الأيونية التي قامت في ميلتيوس (ملطية) في اقليم إيونيا على ساحل آسيا الصغرى . وقد خرجت هذه المدرسة بدراسة التاريخ من نطاق الخرافة والاسطورة إلى مجال البحث وتقصي الحقائق . وكان من نتيجة ذلك رحلاته التي قصها في أحاديثه . وقد حاول أن يلتزم بمنهج علمي قائم على النقد وتقصي الحقيقة ولذلك أطلق على تاريخه اسم تمحيص الأخبار Histories apodeixis ومع ذلك لم يوفق هردوت في الالتزام بهذا المنهج تماماً . وكان هدف هردوت ، شأن مفكري عصره ، استجلاء أحوال الفرس والشعوب التي ضمتها امبراطوريتهم بعد أن اجتاحوا الشرق القديم واحدقوا بالمدن الايونية في آسيا الصغرى وما تبع ذلك من غزو الفرس لبلاد اليونان نفسها . وقد أطلق شيشرون على هردوت لقب « أبو التاريخ » .

طاقته التحقق من الروايات التي سمعها فأخضعها للنقد والتمحيص ، ولا عجب إذا رأيناه يسمي تاريخه «تمحيص الأخبار» . وهو فضلاً عن ذلك ابن المدرسة الايونية التي خرجت بدراسة التاريخ من نطاق الخرافة والأسطورة إلى مجال البحث وتقصي الحقائق .

وقد تحدث هردوت عن العرب، فحاول أن ينقل إلينا تصوره لبلادهم ووصف بعض أحوالهم وتقاليدهم وجانباً من معتقداتهم الدينية ، وبيّن نشاطهم الاقتصادي . وكشف عن دورهم في تاريخ الشرق الأدنى القديم . بيد أن أحاديثه تلك أقل شهرة عن أحاديثه عن غيرهم من الشعوب، إذ أنه لم يخصص لهم فصولاً متصلة كما فعل بالنسبة للمصريين في كتابه الثاني وأسماها « الأحاديث المصرية »(٢) ، وعلى نحو ما فعل بالنسبة لليبيين فضمن كتابه الرابع فصولاً بعنوان « الأحاديث الليبية » .(٣) لذلك إذا أردنا أن نقف عند معلوماته عن العرب يتعين علينا أن نجمع فقرات من كتبه التسعة ونرتبها حسب موضوعاتها .(٤)

ومن الطبيعي أن نبدأ بالتعرف إلى الحدود الجغرافية لبلاد العرب كما تصورها هردوت . في الفقرة الثانية من الكتاب الثاني يطلق على سلسلة الجبال التي تمتد في مصر بطول ساحل البحر الأحمر اسم « الجبال العربية » ، ويقول انه توجد بتلك الجبال المحاجر التي جلبت منها الأحجار التي استخدمت في بناء « أهرام ممفيس » ، ويضيف القول بأن اللبان يأتي من المنطقة الشرقية لتلك الجبال . وهذا يعني أن هردوت كان يعرف أن اللبان مصدره البلاد العربية ، وسنقف على حديثه عنه بوصفه من أهم منتجات العرب . فهل تصور هردوت أن « الجبال العربية » تمتد بعيداً في اتجاه الشرق ؟

ومن ناحية أخرى كان هردوت يعلم بوجود بحار تحيط ببلاد العرب ، وكان يعلم أيضاً بأمر البحر الأحمر . وكان يطلق عليه اسم « بحر اروثري » . وكلمة اروثري تعني الحمرة . ولكن هذا الاسم لا يقتصر عنده وعند جغرافي الاغريق على البحر الأحمر وحده بل كان يطلق أيضاً على المسطحات المائية المحيطة بالجزيرة العربية . فهو اسم شامل للبحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي بل والمحيط الهندي أيضاً . وكان هردوت نفسه يطلق على البحر الأحمر اسم الخليج العربي وعلى الخليج العربي اسم بحر اروثري . من ذلك قوله في الفقرة الأولى من الكتاب الأول أن حكماء الفرس، في مجال اتهامهم للفينيقيين بأنهم كانو المتسببين في الحرب التي وقعت بينهم وبين الاغريق ، قالوا إن الفينيقيين أتوا إلى البحر المتوسط من البحر الذي كان يسمى البحر الاروثري واستقروا حيث هم الآن (ويقصد بالطبع فينيقيا) . ويزيد هردوت الأمر وضوحاً بما بينه في الفقرة الحادية والتسعين من الكتاب السابع أنه يتواتر عند الفينيقيين أنهم في العصور الغابرة كانوا يعيشون في بحر اروثري ، وهو عنده الخليج العربي ، ولكنهم نزحوا منه إلى ساحل سوريا .(٥) ولعل هذا يفسر ما ذهب إليه استرابون ، فيما بعد ، من أن بعض المؤرخين يرون أن أهل صيدا إنما جاءوا من الخليج العربي . وقد يغرينا هذا القول بأن نربط بين صور الفينيقيين وصور العمانية .(٦)

ويعود هردوت للحديث عن البحر الأحمر ، الذي يسميه اروثري ، وذلك في الفقرة الحادية عشرة من الكتاب الثاني ، فيقرر أنه يوجد في بلاد العرب غير بعيد عن مصر خليج يخرج من البحر الذي يسميه اروثري ، وأن هذا الخليج طويل

---

(٢) أحاديث هردوت عن مصر راجع كتاب هردوت يتحدث عن مصر (القاهرة ، ١٩٦٦) وقد ترجم تلك الأحاديث عن اليونانية المرحوم الدكتور محمد صقر خفاجة ، وقدم لها وشرحها في ضوء ما عرف من تاريخ الحياة المصرية المرحوم الدكتور أحمد بدوي .

(٣) أحاديث هردوت عن ليبيا ترجم بعضها وعلق عليها : مصطفى كمال عبد العليم في كتاب دراسات في تاريخ ليبيا القديم (بنغازي، ١٩٦٦ م) ، ص ص ٤٧ ـ ٥٤ .

(٤) يقع تاريخ هردوت أو بالأحرى أحاديث هردوت في صورته التي نعرفها اليوم في تسعة كتب. ولم يكن هذا التقسيم من عمل مؤرخنا، ولكنه من عمل علماء مكتبة الاسكندرية القديمة الذين قسموه على هذا النحو ونسبوا كل كتاب إلى إحدى عرائس الفنون والشعر والموسيقى musae . وقد أطلقت على بعض كتبه عبارات عامة مثل « الأحاديث المصرية » و « الأحاديث الليبية » الخ . . .

(٥) كان هردوت يطلق على البحر الأحمر اسم « الخليج العربي Arabios Kolpos » وأحياناً اسم البحر الإروثري Erythre Thalassa ، راجع مصطفى كمال عبد العليم ، « دور البحر الأحمر في تاريخ مصر على عهد البطالمة » ، في ندوة الدراسات العليا للتاريخ الحديث (القاهرة جامعة عين شمس ، ١٩٧٦) ، ص ٢٠ وما يليها . ولاحظ أن أروثرا تعني الحمرة . كما وأن ديودورس الصقلي كان يعني بالبحر الأروثري الخليج العربي عندما ذكر أن نهر الفرات يصب في البحر الاروثري Diod. 11. XIX. 100 .

(٦) Strabo, 16. 4. 27 .

وضيق جداً وأن اجتيازه يستغرق إبحار أربعين يوماً إذا بدأت الرحلة من رأس ذلك الخليج مع استعمال المجاذيف ، في حين أن اجتيازه عرضاً وفي أوسع مناطقه إنما يستغرق إبحار نصف يوم .(٧)

وواضح أن بحر اروثري الذي يخرج من الخليج إنما هو بحر العرب . أما الخليج الذي يخرج منه هذا البحر ، هو في الواقع البحر الأحمر .(٨) وعلى ذلك فإن الملاحين ، على عهد هردوت ، كانوا يقطعون المسافة من خليج السويس إلى مضيق باب المندب في أربعين يوماً. أما قول هردوت إن اجتياز الخليج أو البحر الأحمر في أوسع مناطقه عرضاً يستغرق إبحار نصف يوم فإنما يدل على خلط بين خليج السويس وبين البحر الأحمر الذي يلي هذا الخليج جنوباً .(٩)

وفي الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الثاني يذكر هردوت أن بلاد العرب تمتد حتى ساحل البحر المتوسط، وأن مناطق الساحل العربي هذه يقطنها السوريون .

ويثير اهتمامنا ما جاء في حديثه في الفقرة الحادية والتسعين من الكتاب السابع ،«وهذا الجانب ،من ساحل سوريا ، حيث استقر الفينيقيون القادمون من الخليج العربي في المنطقة التي تمتد جنوباً نحو مصر تعرف كلها باسم فلسطين» .

ومن المهم مراجعة ما أورده مؤرخنا في الفقرة الرابعة من الكتاب الثالث: « من حدود فينيقيا وحتى مدينة كادوتيس (غزة) فإن المنطقة تخص السوريين . ولكن الموانيء من كادوتيس وحتى مدينة ايونوسوس Iēnysos (وهي ميناء جنوب غزة ولا تبعد عنها كثيراً) ، يمتلكها الملك العربي ، والموانيء من هذه المدينة وحتى بحيرة سربونيس (المنزلة) والتي بجوارها يبدأ جبل كاسيوس تخص السوريين ، أما من البحيرة وحتى البحر فالأرض مصرية » .

ونتساءل من هو ذلك الملك العربي الذي كان يسيطر على ذلك الجزء من الساحل الذي يمتد من غزة وحتى مدينة ايونوسوس ؟ إذا سلمنا بما يقوله بعض المؤرخين بأن المقصود به هو ملك الأنباط فهل يعني ذلك أن تكون أرض الأنباط قد امتدت إلى ساحل البحر المتوسط وفي هذا الوقت المبكر ؟ وهل يكون هردوت بذلك هو أول مصدر أدبي يشير إلى الأنباط حتى ولو لم يكن قد ذكر اسمهم على وجه التحديد(١٠) ؟ غير أن هذا الرأي لقي رفضاً من الاستاذ وينيت على أساس أن الأنباط الذين نعرفهم ليسوا طائفة من عرب الشمال الذين ذكروا في نقش للملك الأشوري آشوربانيبال (٦٦٨ - ٦٣٣ ق.م.) اسم « نابایاتي Nabaiati » وليسوا هم نابايات Nabayāt الذين كانوا يهاجمون ددان ـ العلا ، وليسوا أيضاً Nebāyôt (Nebaioth) الذين جاء ذكرهم في التوراة .(١١)

وفي الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الثاني يتحدث هردوت عن تربة بلاد العرب فيقول إنها في سوريا تربة صخرية وصلبة بعض الشيء .(١٢) ولعل هذا ما دفع بالكتّاب المتأخرين إلى إطلاق اسم بلاد العرب الصخرية Arabia Petrae على مناطق سيناء وما يليها من أرض فلسطين ومناطق الأنباط حول البتراء وجنوب سوريا .(١٣)

---

(٧) راجع محمد صقر خفاجة ، وأحمد بدوي ، هردوت يتحدث عن مصر المشار إليه في حاشية ٢ ص ٨١ وما يليها .

(٨) **Herodotus,** Translated by J.E.Powell, (Oxford, 1949)p.113, no. 1.

(٩) راجع حاشية رقم ٤ .

(١٠) A. T. Olmstead, **History of the Persian Empire,** (Chicago, 1978), p. 88.

(١١) في سياق الحديث عن حرب نشبت حوالي عام ٦٥٠ق.م بين آشور بانيبال وبين العيلاميين أن الملك الأشوري قاتل عرب مملكة عربيي في الجوف الشمالي وهاجم يواطع بن حازايل ملك قدار (وسيد واحة ادوماتو = الجوف) وملك العرب . وفر هذا الملك إلى أرض Nabaiati مستجيراً بملكهم ناتنو Natnu . وقد أدار الاستاذ وينيت في كتابه مع ريد F.V. Winnett and W.L. Reed, **Ancient Records from north Arabia** (Toronto, 1970), pp. 99, 100 . مناقشة هامة حول Nabaiati عند تعليقه على بعض نقوش جبل غنيم (أرقام ١١ ، ١٣ ، ١٥) وانتهى إلى اعتبارهم قوماً آخرين غير الأنباط ورجح أن موطنهم كان في منطقة حائل . وواضح أن أولمستد (الحاشية السابقة) لم يتنبه إلى هذا المرجع . راجع C. A. H., Vol iii, p. 124 ،وفيما بعد جرت على عهد الملك الفارسي قورش ، بعد استيلائه على بابل ، محاولة لم يقدر لها أن تستمر لتنتظم أرض الأنباط في سترابية (ولاية) فارسية باسم « عرابابة » «Arabaya» انظر : A. T. Olmstead, p. 56 .

(١٢) يقول هردوت في هذه الفقرة : « وقد لاحظت علاوة على ذلك أن تربة مصر لا تشبه تربة بلاد العرب ، التي تقع على حدودها ، ولا تربة ليبيا ولا تربة سوريا (لأن السوريين يقطنون تلك المناطق من بلاد العرب في اتجاه البحر (ويقصد البحر المتوسط) فتربة مصر سوداء، ولكننا نعرف أن تربة ليبيا تضرب إلى الحمرة ، وأن تربة بلاد العرب وسوريا صخرية وصلبة بعض الشيء» .

(١٣) حاشية ١٦ فيما بعد .

ويقول هردوت في الفقرة الخامسة والسبعين من الكتاب الثاني : « ويوجد في بلاد العرب مكان يقع تقريباً تجاه مدينة بوطو . وذهبت إليه لأستجلي أمر الحيات المجنحة وهناك رأيت كميات ضخمة من الأعمدة الفقرية لتلك الحيات التي يتجاوز عددها الوصف . وكانت عظامها تتفاوت في الحجم . بعضها كبير ، وبعضها صغير ، وأخرى أصغر منها . وهي متجمعة في أكوام متعددة . والمكان الذي جمعت فيه العظام في تلك الأكوام ممر ضيق بين الجبال ، يؤدي إلى سهل كبير يلتحم مع سهل مصر . والقصة التي تروج هي أن هذه الحيات المجنحة تطير زمن الربيع من بلاد العرب نحو مصر . ولكن طيور أبي منجل تتجمع في ذلك الممر فتحول بينها وبين الدخول إليه وتجهز عليها جميعاً . ويقول العرب ، أنه من أجل ذلك كان المصريون يعظمون طائر أبا منجل ويحيطونه بكل الإجلال . ويتفق المصريون مع العرب في أنهم يعظمون الطائر لهذا السبب . . . » .

ومدينة بوطو التي أشار إليها هردوت في الفقرة السابقة ليست مدينة بوطو المعروفة ، بل يرجح أن تكون مدينة أخرى كانت تقع فيما وراء الفرع الشرقي للدلتا ربما بالقرب من البحيرات المرة .[١٤] أما الحيات المجنحة فلعلها كانت أسراب الجراد التي كثيراً ما تغير على مصر قادمة عبر الصحراء الشرقية في فصل الربيع[١٥] ، ولذلك لا نعول كثيراً على قول هردوت في الفقرة التالية ، السادسة والسبعين بأن الحيات المجنحة تشبه في شكلها حيات الماء فأجنحتها بلا ريش فهي تشبه على وجه التقريب ، أجنحة الخفافيش . وسنعود إلى قراءة أحاديث أخرى لهردوت عن حيّات ذات أجنحة .

ومن هذه الفقرات المتفرقة ، التي تشير إلى المناطق الجغرافية التي بدت لهردوت موطناً للعرب ، يتضح أن تصوره لبلاد العرب وحدودها الجغرافية تصور قاصر . ويبدو أنه كان يجهل كذلك خليج العقبة ، وظن أن للبحر الأحمر نفس اتساع خليج السويس . ولو أنه اهتم ، أثناء فترة إقامته في مصر بالتعرف إلى البحر الأحمر بنفسه لكان قد ترك لمن جاء بعده من المؤرخين والجغرافيين معلومات هامة على قدر كبير من الدقة ، ربما كانت قد تضمنت الحديث عن الساحل الغربي من الجزيرة العربية على الأقل .

ولعله من المفيد أن نشير إلى موضوعين تحدث عنهما هردوت ، يبدو أن هناك ثمة صلة تربط بينهما . وأولهما خاص بشق قناة تربط النيل بالبحر الأحمر . وهي القناة التي عرفت باسم قناة دارا (الملك الفارسي داريوش الأول) ، وثانيهما خاص باهتمام هذا الملك بإيجاد اتصال بحري مباشر بين فارس ومصر .

بالنسبة للموضوع الأول ذكر هردوت في الفقرة الثامنة والخمسين بعد المائة من الكتاب الثاني أن الفرعون نخاو بن ابسماتيك (وهما من ملوك الأسرة السادسة والعشرين) أمر، حوالي عام ٦٠٠ ق م بشق قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر ، ولكن هذا الفرعون أوقف العمل في حفر القناة التي هلك فيها مائة وعشرون ألف مصري إطاعة منه لنبوءة حذرت من أن هذه القناة ستكون لصالح البرابرة (الأجانب) ، وأن الملك الفارسي دارا أتم حفرها . وكرر الحديث عن قيام ذلك الملك بإتمام حفر القناة في الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الرابع . والمعروف أن الملك دارا قدم مصر عام ٥١٨ق.م .

وأما فيما يخص الموضوع الثاني فقد ذكر هردوت في الفقرة الرابعة والأربعين من الكتاب الرابع أن الملك دارا أرسل (حوالي عام ٥٠٠ ق. م) حملة كشفية بحرية قوامها اغريق ايونيون يقودها سكولاكس من مواطني مدينة كارياندا بإقليم كاريا بآسيا الصغرى إلى شمال الهند للكشف عن مصب نهر السند ، وأن هذه الحملة بعد أن نجحت في مهمتها ، اتجهت غرباً فاجتازت مدخل الخليج العربي وطافت حول جنوب الجزيرة العربية ، ووصلت في الشهر الثلاثين إلى موقع السويس الحالي .[١٦]

---

(١٤) راجع تعليق محمد صقر خفاجة ، وأحمد بدوي ، المرجع السابق ، على هذه الفقرة . وفي رأيهما استناداً إلى رأي الاستاذ وادل Waddel في كتابه عن هردوت ص ١٩٢ حاشية ٧ ، أن بوطو هذه ربما كانت بالقرب من البحيرات المرة ، وربما لم تكن تبعد كثيراً عن بحيرة التمساح .

(١٥) الحاشية السابقة .

(١٦) عن رحلة سكولاكس راجع :

A.T. Olmstead, p. 144 ff.; M. Cary, E.H. Warmington, **The Ancient Explores**, (A Pelican Book), (London, 1963), p. 77 ff.; N. Groom, **Frankincense and Myrrh** (London, 1981), p. 57 ff: R. Ghirsman, **Iran**, (London, 1978), p. 146 .

ويزيد الأمر وضوحاً لو أضفنا مصدراً آخر إلى هردوت . وهذا المصدر عبارة عن أربع لوحات خلد فيها الملك الفارسي عمله في حفر القناة . وهذه اللوحات موزعة على أماكن اختيرت قصداً على الجانب الأيمن للقناة . وتحمل كل لوحة على أحد وجهيها نقشاً لنص سجل فيه الملك أمره بحفر القناة باللغة المصرية كتب بالخط الهيروغليفي ، وعلى الوجه الآخر كُتب النص نفسه باللغات الفارسية والعيلامية والبابلية بالخط المسماري . والنص المصري أفضلها إذ تضمن تفاصيل العمل في القناة . وقد جاء به : « أنا الفارسي ، استوليت على مصر (بجنود) من الفرس ، وأعطيت أمري بحفر نهر يخرج من النهر الذي هو في مصر (واسمه بيرو) (وهو النيل) وحتى (يتصل) بالنهر Amer (لعله البحر) الذي يأتي من فارس . وقد حفر هذا النهر حسبما أمرت ، وأبحرت السفن في هذا النهر من مصر حتى فارس . وهذه كانت رغبتي » .(١٧)

وإذا ربطنا بين الموضوعين ، فقد يسهل تصور أن الملك الفارسي دارا الأول كان يهدف إلى إيجاد اتصال بحري بين الهند وفارس ومصر . وربما كان يهدف أيضاً إلى تحقيق أهداف استراتيجية واقتصادية .

ومما تجدر ملاحظته أن هردوت لم يهتم بإثبات مزيد من التفاصيل عن رحلة سكولاكس . ولو أنه اهتم بها بقدر أكبر ، وخاصة ما اتصل بها أثناء ارتيادها شواطىء جنوب الجزيرة العربية وعند اجتيازها باب المندب ، لكان في الإمكان التعرف على تلك المناطق وحركة التيارات المائية والرياح الموسمية ولما بقي كل ذلك شبه مجهول حتى فترة متأخرة من العصر الهلينستي . غير أنه يستوقفنا ما ذكره هردوت عن الزمن الذي استغرقته رحلة سكولاكس ، فقد كان عامين ونصف عام . ولعل الرياح الموسمية المعاكسة كانت مسؤولة عن إطالة أمد الرحلة بما سببته من إعاقة لسير السفن في بعض المناطق وخاصة منطقة باب المندب .(١٨) وربما كان موقف عرب جنوب الجزيرة المعادي سبباً آخر .

على أي حال فإن المؤرخين يقفون أمام رحلة سكولاكس على النحو الذي رواه هردوت بين مصدق ومتشكك . والذين يصدقون بالرحلة يستندون إلى أن سكولاكس كتب تقريره عنها باللهجة الايونية . وبهذه اللهجة نفسها كتب نيآرخوس(١٩) : وهو أصلاً من جزيرة كريت(٢٠) وكان الاسكندر قد كلفه بارتياد المنطقة بين مصبي نهر السند ونهر الفرات فضلاً عن أن الاسكندر عندما أراد أن يعرف الصلة بين الهند ومصر صحب معه إلى الهند مجدفين وبنائين للسفن من فينيقيا وقبرص ومصر وكاريا(٢١) . وكاريا ، بالطبع ، كانت موطن سكولاكس . فلعل الايونيين كانوا يحتفظون لديهم بنسخة من تقرير سكولاكس(٢٢) ولعل أحد مواطني كاريا الذين أتي بهم الاسكندر إلى الهند جاء معه بتلك النسخة .

ولعل الذي دفع البعض إلى التشكك في رحلة سكولاكس صمت المصادر الأدبية بعد هردوت عن الحديث عن اهتمام الاغريق بارتياد سواحل الجزيرة العربية وافريقيا . ولا تعود تلك المصادر إلى الاهتمام من جديد بأمر هذه المناطق إلاّ مع الاسكندر الذي امتدت فتوحه إلى داخل آسيا وسارت جيوشه على ساحل المحيط الهندي وعلى ساحل الخليج العربي المتاخم لايران .(٢٣) وكان من الطبيعي أن يهتم بمعرفة هذه

---

(١٧) عن قيام الملك دارا بشق قناة تربط النيل بالبحر الأحمر ولوحات الملك راجع بصفة خاصة :

G. Posener, «Le Canal Du Nil a la Mer Rouge avant Les Prolémées», **Chronique d'Egypte,** 13, 1938, pp. 259- 273, p. 271 ff.

ونقلت النص المصري من الترجمة التي رجع إليها كاتب المقال .وقد وضعت اللوحات في أربعة مواقع هي: تل المسخوطة ، سيرابيوم (بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة الكبرى) وكبريت بالقرب من البحيرة المرة الصغرى وموقع يبعد ستة كيلومترات عن شمال السويس . وقد تحدث النص عن مسافة طولها ٨٤ كيلومتراً وصفت بانها جافة يعوزها الماء . وفي رأي كاتب المقال أن هذه هي المسافة بين اللوحتين الأولى والرابعة هي فعلاً ٨٤ كيلومتراً أما المسافة بين السويس والبحيرة المرة الصغرى فقد جرى تعميق مجرى طبيعي كان يجري بينهما . راجع أيضاً ، مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ١٠ وقارن :

C.A.H. tv. pp. 25. 200; E. Herzfeld. **The Persian Empire** (Wiesbaden. 1968) p. 282.

(١٨) M. . Cary. E. H. Warmington. p. 79

(١٩) الحاشية السابقة .

(٢٠) W. W. Tarn. **Alexander the Great,** vol. 2 (London. 1979). p. 33.

(٢١) المرجع السابق ، الترجمة العربية الجزء الأول ، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم ، (القاهرة ١٩٦٣) ، ص ١٤٢ .

(٢٢) حاشية ١٨ .

(٢٣) و . و . تارن . (الترجمة العربية) جـ ١ ، ص ١٨٥ وما يليها .

البحار وبالطريق البحري بين الهند ومصر . فهو لذلك يبدو لنا وريثاً للملك دارا الأول . ولا نناقش هنا أنه كان يهدف إلى السيطرة على الجزيرة العربية أو أنه كان يريد الربط بين أجزاء امبراطوريته بطريق البحر أم أن هدفه كان المعرفة العلمية فحسب .(٢٤)

على أي حال إذا كان هناك ثمة شك يحوم حول رحلة سكولاكس ، فإن ثمة شكوك تحيط بحقيقة اتمام الملك دارا الأول العمل في شق القناة التي تربط النيل بالبحر الأحمر . والذي أثار الشك الأخير إنما هو استرابون ، الذي زار مصر مع الفتح الروماني لها في عام ٣٠ق.م . ذلك أنه بعد ان تحدث عن القناة وتوقف العمل فيها زمن الفرعون نخاو ، ذكر أن الملك دارا الأول شرع في العمل من جديد في حفرها ولكنه أحجم عن إتمام ذلك العمل لاقتناعه الخاطىء بارتفاع منسوب البحر الأحمر عن أرض مصر. غير أن استرابون عاد وذكر أن القناة كانت قائمة في عصر البطالمة . ونضيف أن الملك بطليموس الثاني فيلادلفوس سجل في لوحة أقامها عند بيثوم (تل المسخوطة) انه «حفر هذه القناة ليدخل البهجة إلى قلب أبيه الإله أتوم . . . وان أول القناة فرع النهر شمال هليوبوليس وان نهايته في بحيرة العقرب (البحيرات المرة) . . . »(٢٥) وهذا هو نفس المجرى الذي كان الملك دارا الأول قد أمر بشقه كما أسلفنا . وهذا في حد ذاته ، رغماً مما يثيره استرابون من شكوك ، دليل على أن الملك دارا أتم العمل بالفعل في تلك القناة ، وأن ما جاء في النص المصري الذي سجله ذلك الملك في لوحاته على طول القناة كله صحيح . ولكن هذا لا يمنع انه لظروف معينة أحاطت بالوجود الفارسي في مصر وللأحوال التي كانت تسود امبراطوريتهم ، أهملت القناة بعض الشيء ، فلما خلف البطالمة الفرس في حكم مصر ، بعد غزو الاسكندر لها ، كان لا بد ، وهم المهتمون بالبحر الأحمر ، أن ينشطوا الاتصال بينه وبين النيل فعملوا على إعادة القناة إلى العمل من جديد .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن أي قوة تسيطر على مصر لا بد وأن تهتم بأمر البحر الأحمر وصلته بالجزيرة العربية والمحيط الهندي .

ونخرج مما تقدم أن ثمة قصور كان يعتري معلومات هردوت عن حدود الجزيرة العربية . وقد يشفع له أن المعلومات الصحيحة لم تكن قد اتضحت تماماً له أو لمعاصريه بعكس ما حدث في العصور التالية ، وخاصة في العصر الهلنيستي ، عندما اتضحت المسالك والطرق نتيجة للكشوف الجغرافية المتلاحقة ورحلات التجار ومعلومات ربابنة السفن. ولعل هردوت في حدود معلوماته ومعلومات عصره ، لم يكن يرى في العرب سوى أنهم سكان المنطقة الممتدة من شرق مصر وحتى الخليج العربي . أما حدودها الجنوبية ومناطقها الداخلية فهذه أمور لم تكن واضحة له الوضوح الكافي .(٢٦)

فإذا انتقلنا بعد ذلك للحديث عن النشاط الاقتصادي الذي

---

(٢٤) W. W. Tarn, vol. 2, p, 394, No. 6 .

(٢٥) Strabo, XVII, 804 .

ومن الطريف أنه كان للربة اللات معبد في تل المسخوطة، انظر حاشية رقم ٤٥ .

(٢٦) هذا على عكس ما انتهت إليه معلومات كتاب العصر الهلينستي ومن بعدهم كتاب العصر الروماني مثل اراتوسثينيس وبلينيوس وبطليموس الجغرافي والذين تبينوا حدود الجزيرة العربية وطبيعتها فقسموها إلى أقسامها الثلاثة ؛ العربية الصخرية Arabia Petraea ، التي تضم سيناء وما يليها شرقاً من أرض فلسطين وجنوب سوريا وحيث كانت البتراء عاصمة الأنباط ، والعربية الصحراوية Arabia Eremon (= Arabia Deserta) وتشمل المنطقة الممتدة من خليج السويس وحتى الخليج العربي ، أما ما يليها جنوباً فهي العربية السعيدة Arabia Eudaimon (= Arabia Felix) وإن كان الاسم الأخير قد ضاق حتى أصبح إسماً على اليمن ـ عن أقسام بلاد العرب الجغرافية راجع ، محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، (الرياض، ١٩٧٧)، ص ٩٥ وما يليها؛ لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة (بيروت ، ١٩٧٩) ، ص ص ١٩٦ ، ٢٠٣ وما يليها . وقد يكون من المناسب الإشارة إلى :
R. H. Dougherty, The Sea Land of Ancient Arabia,(New Haven, 1942), p. 157 ff.

بخصوص تحديد الاقليم الجغرافي الذي أطلق عليه في النصوص المسمارية اسم أرض البحر Sea land . ويقول Dougherty إن اصطلاح العربية الصحراوية ينصرف إلى الدلالة على المنطقة الممتدة من خليج السويس وحتى الخليج العربي مكونة شبه برزخ يربط بقية الجزيرة العربية بقارة آسيا وهذا هو اقليم « أرض البحر » الذي أشار إليه الملك آشور بانيبال في حولياته . وهو يمتد من مدينة العقبة إلى مدينة باب ساليميتي Bâb-Salimêti على الخليج العربي . وقد أشرت إلى هذا المرجع للتقارب الزمني بين هردوت وبين النصوص الآشورية .

كان العرب يمارسونه ، نجد أنه ينبغي أن نتوقف عند بعض فقرات من حديث هردوت تتصل بما كانت الجزيرة العربية تنتجه من بخور ونباتات عطرية .

جاء في الفقرة الثامنة من الكتاب الثاني أن الأجزاء الشرقية من الجبال العربية تنتج اللبان . . وتزيد الفقرتان السابعة والثامنة بعد المائة من الكتاب الثالث الأمر تفصيلاً حين تحدث هردوت عن بلاد العرب التي تقع بعيداً في أقصى الجنوب أكثر من غيرها من البلاد(٢٧) ، وأنها أكثرها سكاناً و « هي البلاد الوحيدة التي تنتج اللبان والمر والقاسيا والقرفة واللادانوم » ويقول إن « العرب كانوا يبذلون الكثير من الجهد للحصول عليها وليس الأمر كذلك بالنسبة للمر » . ويمضي في قوله « وليحصل العرب على اللبان فإنهم يعمدون إلى حرق نبات اسمه استوراكس (الاصطرك) أو الميعة ، والذي كان الفينيقيون يجلبونه إلى بلاد اليونان . والدخان المتصاعد من حرق هذا النبات كفيل بإبعاد الحيّات المجنحة التي تتولى حراسة أشجار اللبان . وهذه الحيات صغيرة في حجمها ، متباينة في لونها ، وتتجمع حول أشجار اللبان بأعداد كبيرة . وهذه الحيّات هي نفسها التي تهاجم مصر » .

وفي الفقرة العاشرة بعد المائة من الكتاب الثالث يشرح هردوت طريقة حصول العرب على القاسيا(٢٨) (وهي نوع من القرفة) فيقول « ان العرب عندما يذهبون للبحث عنها كانوا يغطون كل أجسادهم بجلود الثيران وجلود غيرها من الحيوانات ولا يظهر منها غير الأعين . وتنمو القاسيا في بحيرة ضحلة تعيش فيها وحولها مخلوقات مجنحة تشبه الخفافيش وتصدر أصواتاً مزعجة وتقاتل بضراوة ، ويجب أن يبعدها العرب عن أعينهم وهم يجمعون القاسيا » .

وفي الفقرة التالية يصف هردوت طريقة جمع العرب للقرفة فيقول : « ولكن طريقة جمع العرب للقرفة فهي أشد عجباً . وليس في مقدورهم أن يقولوا من أين تأتي ولا الأرض التي تنمو بها ، فيما عدا أن البعض يؤكد ، وبشكل معقول ، ان القرفة تنمو في المناطق التي نشأ فيها الإله ديونوسوس (وهو إله الخمر عند الإغريق ، والبلاد التي نشأ بها أصلاً هي بلاد الهند) ويقولون أن طيوراً عملاقة تجلب من هناك الأعواد التي نعرف من الفينيقيين أن اسمها القرفة . وتحمل الطيور تلك الأعواد إلى أعشاشها التي تقيمها من الطين على سفوح الجبال شديدة الانحدار ، والتي لا يمكن للإنسان تسلقها . وتبعاً لذلك فإن العرب يعمدون إلى جمع كل الثيران والحمير وغيرها من دواب الحمل والتي تكون قد نفقت ويقطعون لحومها قطعاً كبيرة ويحملونها إلى مناطق الأعشاش ثم يبتعدون عنها . وعندئذ تهبط الطيور وتلتقط قطع اللحم الثقيلة في وزنها فتعجز الأعشاش عن تحمل ثقلها فتتحطم وتسقط على الأرض (بأعوادها) ، فيقترب الرجال ويجمعون القرفة . ومن هناك ينقلونها إلى بلاد أخرى » .

وفي الفقرة التالية يتحدث هردوت عن طريقة جمع اللادانوم « أما الليدانوم ، ويسميه العرب لادانوم ، فإن جمعه يتم بطريقة أكثر غرابة . فهم يحصلون عليه من منطقة كريهة الرائحة مع أنه من أطيب المواد العطرية رائحة . فهو يوجد لاصقاً مثل الغراء بدقون التيوس بعد أن تكون قد رعت في الأحراش. وتستخدم هذه المادة في تركيب كثير من العطور. ويقبل العرب على استعماله أكثر من غيره من أنواع البخور».

ويبدو أن شهرة الجزيرة العربية في إنتاج البخور والنباتات العطرية كانت أمراً شائعاً في العالم القديم حتى أن هردوت يقرر في مستهل الفقرة الثالثة عشرة بعد المائة من الكتاب الثالث أن شذا البخور والعطور زكية الرائحة يفوح من بلاد العرب . وكان اللبان هدية العرب للملك الفارسي ، الذي لم تخضع له بلادهم ، فكانوا يقدمون له ألف تالنت (وزنة) من هذه المادة الثمينة ،أي ما يساوي خمسة وعشرين طناً ونصف طن .

وقد أسلفنا قول هردوت في الفقرة السابعة بعد المائة من الكتاب الثالث أن العرب كانوا لا يبذلون جهد كبير للحصول على المر. ويبدو أنه من أجل ذلك لم يذكر في الفقرات التي أوردناها شيئاً عن زراعته أو جمعه . بيد أنه ذكر في الفقرة الثالثة والسبعين من الكتاب الثاني قصة طريفة ربط فيها بين المر وبين طائر الفوينكس (العنقاء) الذي لم يره إلا

---

(٢٧) قارن استرابون 13 .1 .2 .

(٢٨) قارن استرابون Strabo, 16. 4. 29 عن نمو القاسيا في المستنقعات ، وإن كان قد قال إن معظم القاسيا كان يأتي من الهند . وقد يبدو أن هناك بعض التناقض بين قوله هذا وبين ما ذكره في الفقرة ٢٠ من أن العرب لوفرة القاسيا عندهم كانوا يستعملونها كوقود .

مصوراً، ويقول إنه قريب الشبه جداً بالبشر في هيئته وحجمه وأن بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضها أحمر . ونقل هردوت قصة عن المصريين من أهل مدينة هليوبوليس بالرغم من عدم تصديقه لها . وتتلخص القصة في أن هذا الطائر يزور مصر مرة كل خمسمائة عام وذلك عندما يموت أبوه . فكان يصنع من المر بيضة بحجم يتناسب مع قدرته على حملها ثم يفرغ البيضة من محتوياتها ويضع أباه بداخلها ويحشو بالمر المكان الذي جوفه منها مع مراعاة أن يظل وزنها ثابتاً ، ثم ينقل بيضة المر ، وبها أبوه ، إلى مدينة هليوبوليس فيدفن أباه في معبد الشمس .[٢٩]

ونعود إلى ما ذكره هردوت في الفقرات التي نقلناها عنه والتي تتحدث عن الحيات المجنحة التي تتولى حماية أشجار اللبان ، ويتعين إحداث دخان بحرق نبات الاستوراكس لابعادها عن جمع محصول اللبان. ويبدو أن هردوت شغل بأمر تلك الحيات التي قال إنها تهاجم مصر في الربيع فاستطرد في حديثه يستقصي أمر الحيات والأفاعي ونقل عن العرب قولهم إنه كان من الممكن أن تغمر هذه الحيات ، التي تتجمع في بلادهم وتتكاثر بأعداد غفيرة ، الكون بأسره لولا أن ذلك لا يحدث لسبب معين ، وهو بالصدفة نفس السبب الذي يعرفه هردوت ويمنع تكاثر الأفاعي الخطرة ، ويقول إنه بلا شك من الصعب تجنب الاعتقاد بأن عناية الآلهة ، لحكمة ينتظرها الإنسان منها ، قضت بجعل المخلوقات الضعيفة والتي تذهب ضحية لغيرها، ولودة كثيرة النسل وذلك حتى يستمر نوعها، أما تلك الأنواع المفترسة البغيضة فقد قضت العناية الإلّهية بالحد من قدرتها على النسل وجعلتها عقيمة نسبياً . وفي الفقرة التاسعة بعد المائة من الكتاب الثالث يزداد هردوت استطراداً في الحديث في نفس الموضوع ، فقارن بين الأرانب البرية المولودة والتي تفترس صغارها ولذلك يكثر نسلها ، وبين اللبوة ، أشد الوحوش بأساً وفتكاً ، فإنها لا تلد في حياتها سوى شبل واحد ، لأنها عندما تلده تدفع برحمها معه . . .

ويمضي فيقول : « وبالمثل إذا تكاثرت الأفاعي والحيات المجنحة التي تعيش في بلاد العرب ، كما تقضي بذلك طبيعتها ، فإنه لن يكون في استطاعة الإنسان أن يعيش (آمناً) ، وعندما يجامع الذكر منها أنثاه تطبق الأنثى على عنقه ، بعد أن يكون قد انتهى من مجامعتها ولا تفلته إلا بعد أن تقضمه . وهذا ينهي حياة الذكر . غير أنه سرعان ما ينتقم الجنين لأبيه بأن يبقر بطن أمه ليخرج من رحمها . ولكن الأفاعي الأخرى التي لا تلحق ضرراً بالإنسان فإنها تضع بيضاً يخرج منه عدد ضخم من صغارها . وتوجد الأفاعي في كل بلاد العالم ، ولكن الحيات المجنحة تكثر جداً في بلاد العرب ، لأن في هذه البلاد كان تجمعها » .

ولعل ما ذكره هردوت خاصاً بالأسود يختلف مع الحقائق العلمية . وأما ما ذكره عن ولادة الأفاعي فهذا لا يتفق مع تلك الحقائق إذ أنه من المعروف أن الأفاعي تضع بيضاً ولا تلد . ومع ذلك فإننا نجد صدى لحيات هردوت عند طائفة من كتاب العصر الهيلنستي من ذلك ما ذكره ثيوفراستوس ، في كتابه «البحث في النباتات» عن الحيّات ذات العضة القاتلة التي توجد في الوديان العميقة المنعزلة التي تنمو بها القرفة وأن العرب قبل دخولهم إلى تلك الوديان كانوا يحمون أيديهم وأقدامهم ، وقال عنها أجاثارخيدس أنها حمراء اللون ، طول الواحد منها قرابة شبر وعضتها لا شفاء منها وخاصة إذا أصابت ضحيتها فوق خاصرته وتحدث به جرحاً بأن تقفز في الهواء . ويبدو أن ديودورس الصقلي أخذ بعض معلوماته عن هذه الأفاعي من أجاثارخيدس فيقول إنه في غالبية الغابات فواحة الرائحة الخاصة بالسبئيين عدد ضخم من الأفاعي لون البعض منها داكن الحمرة وطول الواحد منها شبر ، وعضتها لا شفاء منها على الإطلاق وتهاجم ضحيتها بالقفز إلى أعلى وتعضه أثناء ذلك مخلفة لطخاً من الدماء على جلده . ولا بد وأن تلك المعلومات تناهت إلى استرابون الذي ذكر أنه بأرض سبأ حيات طول الواحد منها شبر ، ولونها غير داكن ، في إمكانها أن تقفز مثل الأرنب ، وعضتها لا شفاء منها .[٣٠]

---

(٢٩) راجع خفاجة وبدوي ، وتعليقهما الطريف على هذه الفقرة .

(٣٠) عن الحيات القاتلة Theophrastus, **Enquiry into Plants,** (L. C. L.) IX, 5, 2 ؛ آجاثارخيدس فقرة ٩٨ من الترجمة التي أوردتها Groom ، المرجع السابق، ص ٧٠ وذكرها ديودورس 111,47.2 وقد عالجت Groom ، هذه النصوص في المرجع السابق، ص ٢٤٤ حاشية ٩، وقارن ص ٢٤١ حاشية ٨ وذكرها استرابون 16.4. 19 وذلك نقلاً عن ارتيمودوروس .

ولعله من الطريف أن نجد أيضاً لحديث الحيات المجنحة ذكراً يتردد عند المؤرخ اليهودي يوسف ، وهو بصدد الحديث عن قيادة موسى عليه السلام للجيش المصري إلى النوبة بعد إلحاح من الفرعون والأميرة التي تبنته إطاعة لوحي إلهي صدر إلى الفرعون . ويقول يوسف إن موسى تجنب النيل وسار إلى النوبة عبر أرض غصت بالحيات المجنحة فعبرها بفضل ما حمله معه من أسراب أبي منجل ، وهو أعدى أعداء الحيات ، ومن ثم أوقع الهزيمة بالنوبيين[٣١] . . . . وهذه قصة رواها يوسف من غير ما سند من التاريخ غير أن تكون ترديداً لما ذكره هردوت عن هذه الحيات وتصدي طائر أبي منجل لها . وعلى كل حال سنجد فيما يتبع من هذا المقال صدى آخر لأحاديث هردوت عند يوسف .

والمهم أن هردوت أبرز في حديثه الصعوبات التي كان على جامعي المواد العطرية الثمينة مواجهتها وقد يكون فيها بعض المبالغة وقد يكون مصدر قصصه التجار الأنباط الذين تعمدوا إشاعة مثل هذه الأخبار حتى لا يقدم منافسوهم على مشاركتهم احتكار التجارة في العطور والتوابل[٣٢] ، وربما يكون الفينيقيون، الذين نقل عنهم هردوت بعض أحاديثه، كما أسلفنا ، هم أيضاً مصدر أخباره لأنهم كما نعرف كانوا يضنون بمعلوماتهم عن البلاد التي يتّجرون معها ويكتمون أمرها عن منافسيهم من الاغريق .

وتترك أحاديث هردوت عن ثروة العرب في النباتات العطرية وعن حيّاته المجنحة وعن أفاعيه لتقرأ شيئاً عن ثروتهم في الحيوانات .

في الفقرة الثالثة عشرة بعد المائة من الكتاب الثالث يتحدث هردوت عن أغنام بلاد العرب فيقول : « وثمة شيء آخر تتميز به بلاد العرب ، وهو انفرادها دون سائر بلاد العالم بنوعين من الخراف لأحدهما ذيول طويلة لا يقل طول الواحد منها عن ثلاثة أذرع . وإذا تركت هذه الذيول لتتدلى على الأرض وتحتك بها ، فلا شك أن الضرر يلحق بها . لذلك حرص كل راع على أن يكتسب خبرة في أعمال النجارة ليصنع علباً من خشب تحفظ بداخلها تلك الذيول بعد أن تربط من أسفلها ربطاً محكماً . أما النوع الثاني من الخراف فذيولها عريضة يبلغ عرض الواحد منها ذراعاً واحداً . وفي رأي البعض أن معلومات هردوت عن هذا النوع معلومات صحيحة وذلك استناداً إلى الرسوم الصخرية التي تثبت أنها كانت موجودة بالفعل في بلاد العرب ، فضلاً عن أن هذه الأنواع من الخراف لا تزال تعيش في الصومال حتى الآن .[٣٣]

وتحدث هردوت عن الجمل وجاء ذلك عرضاً ولم يتحدث عن خصائصه . وقد ذكر في الفقرة الثمانين من الكتاب الأول استعانة الملك الفارسي قورش (كوروش) بالجمال في حربه مع كريسوس ، ملك ليديا بآسيا الصغرى ، وقد أنهى الملك الفارسي لصالحه معركة دارت أمام عاصمة خصمه ، سارديس ، بأن فاجأ خيل ليديا بهجوم بالجمال التي لم يسبق لها رؤيتها فجفلت منها كذلك عافت رائحتها . وبذلك استولى قورش على ليديا في عام ٥٤٩ق.م. وروى هردوت في الفقرة التاسعة من الكتاب الثالث أن ملك العرب ، ساعد قمبيز (كمبوجية) ملك الفرس في غزوه لمصر عام ٥٢٥ق.م. بأن زوده بعدد من الجمال حملت على ظهورها قرب الماء المصنوعة من جلود الجمال. وتحدث في الفقرتين السادسة والثمانين والسابعة والثمانين من الكتاب السابع عن مشاة عرب قاتلوا من فوق ظهور الجمال في جيش الملك الفارسي اكسركسيس (خشيارشا) (٤٨٦ - ٤٦٥ق.م.) في حملة في بلاد الاغريق في عام ٤٨٠ق. م . وتستوقفنا عبارة هردوت « وجعل العرب جمالهم في مؤخرة الجيش حتى لا تثير الرعب بين الخيل التي تزعجها رؤية الجمال » . وكرر هردوت الإشارة إلى مقاتلة العرب من راكبي الجمال ، الذين حشدهم الفرس بين قواتهم ، وهم يخوضون موقعة ثرمو بولاي ، التي انتصروا فيها على الاغريق وذلك في الفقرة الرابعة والثمانين بعد المائة في الكتاب السابع . وقد ذكر هردوت أن عددهم مع المقاتلين الليبيين من راكبي

(٣١) Josephus, Ant. II, 245 ، وناقشها أحمد عبد الحميد يوسف في كتابه مصر في القرآن والسنة ، (القاهرة ، ١٩٨١) ، ص ٩٢ وما يليها .

(٣٢) Olmstead, 294, cf . Groom, p. 60 .

(٣٣) Groom, p. 59, p 241, No 6 .

العربات بعشرين ألف مقاتل، وكان من الأفضل لو أن هردوت قدر عدد المقاتلين من كل عنصر على حدة . حتى نعرف عدد المقاتلين العرب . وواضح أن الملك اكسركسيس أفاد من خبرة سلفه قورش في الاستعانة براكبي الجمال العرب وضمهم إلى جنده في قتاله مع الاغريق .(٣٤)

وما دمنا قد ذكرنا ما قاله هردوت بشأن مقاتلي العرب من راكبي الجمال فلا بأس أن نعرض ما ذكره خاصاً بلباسهم العسكري إذ قال إن المقاتل العربي في الجيش الفارسي الذي حشده اكسركسيس لغزو بلاد الاغريق ، كان يلبس زيرا Zeira، وهو عبارة عن ثوب سابغ طويل يثبت في حزام . وذلك في الفقرة التاسعة والستين من الكتاب السابع . وكذلك تحدث هردوت في نفس الفقرة عن أسلحة المقاتل العربي في الجيش الفارسي إذ يقول إن سلاحهم القوس يضعونه على جانبهم الأيمن ، وهو كبير الحجم نوعاً ، كما وأنهم يتسلحون بالسيوف الطويلة .

وما دمنا قد عرفنا من هردوت بأمر مقاتلين عرب في جيوش الفرس فإنه من المناسب أن نتعرف من خلاله على علاقات العرب بالشعوب أو القوى المجاورة لهم وخاصة الاشوريين والفرس .

ذكر هردوت في الفقرة الحادية والأربعين بعد المائة من الكتاب الثاني أمر الحملة الفاشلة التي قادها ملك آشور سيناخريب(٧٠٥ - ٦٨٠ق . م .)ضد مصر فقال إن سيناخريب «ملك الأشوريين والعرب»، قاد جيشاً عظيماً نحو مصر، وأن الجيش العربي وصل إلى بيلوزيوم فانقضت الفئران ، التي سلطها الإله استجابة لتضرع الملك الكاهن كالسيل الجارف، فقرضت جعب سهامهم وأقواسهم وحمائل دروعهم فكان أن ولي العرب الأدبار وسقط منهم الكثيرون وأنه من أجل ذلك نحت المصريون تمثالاً للفرعون وفي يده فأر وكتبت عبارة على التمثال تقول « إن كل من ينظر إليّ عليه أن يتحلى بالتقوى » .

ويثير اهتمامنا أن هردوت قصر حديثه على المقاتلين العرب في جيش آشور ولم يشر إلى المقاتلين الآشوريين فهل يعني هذا أن سيناخريب كان يقود عرباً فقط ! وواضح أن مصدره كان المصريون وليست حوليات آشور . لذلك نتساءل مرة أخرى لماذا خصت مصادره المصرية العرب في جيش آشور ولم يشر إلى المقاتلين الآشوريين في الحديث عن تلك المعركة وأسقطت ذكر الأشوريين ؟ هل كان العرب في المقدمة فلما هاجمتهم الفئران انسحبوا فلم يظهر الأشوريون الذين أمرهم ملكهم بالانسحاب أيضاً من ميدان المعركة ؟

وكما أن المؤرخ اليهودي يوسف ؛ تأثر في تاريخه عن اليهود بهردوت كما أسلفنا وهو يتحدث عن الحملة المزعومة التي قادها موسى في أرض غصت بالحيّات المجنحة ،

---

(٣٤) يبدو ان استخدام العرب للجمل في القتال كان أمراً مثيراً للشعوب الأخرى من ذلك مثلاً ، نحت بارز على لوحة جدرانية محفوظة في المتحف البريطاني ، يصور جيش الملك الأشوري آشوربانيبال (٨٨٣ - ٨٥٩ق . م) يطارد عرباً كانوا يقاتلون وهم على ظهور الجمال . ويظهر في الصورة مقاتلان عربيان ، يمتطيان جملاً ينطلق بسرعة كبيرة ، وقد انصرف أحدهما الى قيادة الجمل في حين يوليه الآخر ظهره ويطلق من قوسه السهام على مطارديه من الفرسان والمشاة الآشوريين .

J. B. Pritchard, **The Ancient Near East in Pictures,** (Princeton, 1954),pl.No63,P.257, راجع الصورتين رقم ١، ٢ في نهاية المقال وثمة لوحة أخرى في المرجع السابق تحت رقم ٣٧٥ ص ٢٩٤ تصور فارسيين آشوريين يطاردان برماحهما الطويلة عدواً غير مسلح يمتطي جملاً ربما كان عربياً. هل يتناقض هذا مع ما ذهب إليه هردوت من أن الخيل تنفر من الجمال أم أن قوله مقصور على خيل الليديين؟ راجع صورة رقم ٣ في نهاية المقال ومن الطريف أن الملك الأشور شلمانصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق م .) سجل في لوحة Kurkh انتصاره في معركة قرقار عام ٨٥٣ ق . م . على خصومه الذين تجمعوا في حلف ضده تزعمته مملكتا دمشق وحماة وأحاب الاسرائيلي ملك السامرة ، وانضم إليه جنديبو (جندب؟) « ملك العرب » وكان من بين ما غنمه ألف جمل أو ألفا من الجمالة ولعل قوم جنديبو ، كانوا ، كما يرى البعض ، عرباً يقيمون بالقرب من دمشق ، راجع :

J.B. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** 2 nd ed. (Princeton, 1955), p. 279, D.W. Thomas, **Documents from Old Testament Times** (London, 1958) p. 47 ff.

وليس بالضرورى أن يكون هذا هو أول ذكر تاريخي للعرب على نحو ما ذهب اليه H.H. Ben Sasson, **A History of the Jewish People** (London, 1969), p 120 ff. وقد ذكر الملك الأشوري تيجلات بيلاسر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق . م .) في نقش من نقوشه أنه الحق الهزيمة بشمسي ملكة بلاد العرب ، ومن بين الخسائر التي أوقعها بها قتله ثلاثين ألف جمل Pritchard, p. 284 .

وقد تردد ذكر الجمال العربية في النقوش الآشورية كغنائم أو جزية يدفعها العرب لملوك آشور ، أنظر على سبيل المثال صفحات ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ من المرجع السابق .

فإننا نجده ، وهو تحت تأثير ما ذكره هردوت بشأن الفئران التي هاجمت جيش سيناخريب ، يفسر خلاص مدينة أورشليم (القدس) ، والذي تحدثت عنه التوراة : بأن رب اليهود أهلك مائة وخمسة وثمانين ألفاً من الاشوريين ، بأن ذلك كان بسبب إغارة عدد ضخم من الفئران هاجمت معسكر الأشوريين .(٣٥)

على كل حال فإننا لا نظفر من هردوت بمعلومات أخرى عن علاقة العرب بالآشوريين بالرغم من أهمية العلاقات التي كانت بين الطرفين . ولسنا هنا بصدد تتبعها لأننا نتعامل مع أحاديث هردوت ولا نتعرض لمصادر أخرى إلاّ إذا كان ذلك في نطاق مناقشة أقواله أو لتوضيحها . ولكن من المهم إبراز وصف هردوت لسيناخريب بأنه « ملك الأشوريين والعرب» . ولعل في هذا تفسيراً لما تحدثت عنه الحوليات الأشورية عن حملات ملوك آشور على منطقة (دومة الجندل) (أدوماتو) وما ظفروا به من ملكاتها من جزية شملت الجمال والذهب والأحجار الكريمة والتوابل والطيوب .(٣٦) وذكرت هذه الحوليات أيضاً قبائل « ثمودي والسبئيين » ونعرف من مصادر أخرى إقدام الملك الآشوري آشور أخادين على غزو مصر عام ٦٧١ق.م . مستعيناً ببعض العرب في عبور سيناء وصحراء مصر الشرقية وقد أمده هؤلاء بجمال تحمل قرب الماء فدخل مصر واحتل عاصمتها منف .(٣٧)

أما فيما يخص علاقة العرب مع الفرس فقد حدثنا هردوت كما أسلفنا عن جانب منها وهو بصدد الحديث عن مقاتلين عرب في جيوش ملوك الفرس ؛ قورش وقمبيز واكسركسيس .

ونتوقف أمام الفقرات من الرابعة وحتى العاشرة من الكتاب الثالث والتي خصصها هردوت للحديث عن الترتيبات التي أعدها الملك الفارسي قمبيز لغزو مصر في عام ٥٢٥ ق.م .

يقول هردوت : « عندما صمم قمبيز على شن الحرب ضد مصر ، ولم يكن يعرف كيف سيعبر الصحراء ، قدم إليه فانيس ، وهو من مرتزقة الاغريق في جيش الفرعون المصري أمازيس . وكان فانيس قد حقد على الفرعون ففر إلى الملك قمبيز وكشف له كل أسرار الفرعون وشرح له كيف ينبغي أن يكون زحفه إلى مصر . وحثه على أن يرسل إلى ملك العرب ليرجوه أن يوفر له طريقاً آمناً ، ذلك أنه من حدود فينيقيا وحتى مدينة كادوتيس (غزة) فإن المنطقة تخص السوريين وتسمى فلسطين . ولكن من كادوتيس ، وهي مدينة لا تقل اتساعاً ، فيما يبدو ، عن ساردیس

---

(٣٥) عن حملة سينا خريب بن سرجون على مصر وتحديد تاريخها ، انظر سفر **الملوك الثاني** : ١٩ ، ٣٥ ؛ .**C. A. H.** vol iii , pp. 102 ff., 278 ff حيث ناقش الكاتب تاريخ الحملة واحتمال عدم حدوثها على الإطلاق ، وأنها وقعت على عهد ابنه آسرحدون في هجومه على مصر عام ٦٧٥ ق.م . ، قارن عبد العزيز صالح ، **الشرق الأدنى القديم ـ مصر والعراق** ، ط ٣ (القاهرة ، ١٩٨٢) ، ص ٢٩٤ . وعن علاقة الآشوريين بالعرب بصفة عامة . محمد بيومي مهران ، **المرجع السابق** ، ص ص ٢٦٩ ـ ٢٧٨ ؛ لطفي عبد الوهاب يحيى ، **المرجع السابق** ، ص ص ٤٠٨ ـ ٤١٨ ؛ عبد العزيز صالح ، **المرجع السابق** ، ص ص ٥١٦ ـ ٥٢٣ . ومن المهم أيضاً راجع : . **C.A.H.** pp. 57 ff., 69, 71, 83 ff.; p. 123 ff ؛ عن تأثر يوسف المؤرخ اليهودي ، بهردوت في قصة الفئران انظر :

Josephus, **Ant.** X. 18- 22; J. H. Hayes and J. M. Millar, **Israelite and Judaean History,** (London, 1977) p. 13 .

(٣٦) من ذلك اهتمام الملك تيجلات بيلسر الثالث باخضاع القبائل العربية الكثيرة المنتشرة على الطريق التجاري القديم الذي كان يربط البحر الأحمر بالعراق عبر شمال الجزيرة العربية . وقد ظهرت في نصوص الآشوريين أسماء ملكات عربيات مثل زبيبي (زبيبة) وسمسي (شمس) ووصفت كل منهما بأنها « ملكة عربي **Sarat Aribi**» راجع عبد العزيز صالح ، **المرجع السابق**، ص ٥٢٢ وما يليها؛ محمد بيومي مهران، **المرجع السابق**، ص ١٤٤ .**C.A.H,P** 46 . وعن حملة آسرحدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق . م .) على شمال الجزيرة العربية واجتياحه أدوماتو (دومة الجندل) وأرض عريبي وأسر آلهتها راجع .J .B. Pritchard, p. 291; C.A.H., p.83ff وقد ذكر الملك سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق . م .) أنه عصف بقبيلة ثمود وقبائل عربية أخرى انظر .J.B Pritchard, p. 286 ، وذكر أيضاً جزية قدمها له اتعمارا It'amar (يتع أمر) السبئي . ويتساءل بعض المؤرخين عن المقصود بسبأ وهل كانت هناك حامية سبئية تقيم في شمال الجزيرة كانت مهمتها حماية طريق التجارة وقوافل سبأ وهي في طريقها الى الشمال أم أن آسرحدون وصل فعلاً الى سبأ نفسها في الجنوب انظر :

C.A.H, pp 46, 57, 85 f., 90 ff.

ولو كان هذا قد حدث حقيقة واهتم الملك الآشوري بتسجيل تفاصيل حملته لكنا قد ظفرنا بمعلومات لها نفس أهمية معلومات استرابون عن حملة أيليوس جاللوس الرومانية الى أرض اليمن .

(٣٧) عن حملة آسرحدون ومن بعده حملة آشور بانيبال على مصر، عدة مراجع من بينها :

C.A.H. iii, p. 282 ff; vol IV. p. 20: Pritchard, p. 294 ff.

(عاصمة ليديا والتي سبق واستولى عليها الملك قورش) فإن الموانيء البحرية حتى مدينة ايونوسوس (على ساحل البحر المتوسط جنوب غزة) يمتلكها الملك العربي ، والموانيء من هذه المدينة وحتى بحيرة سربونيس (المنزلة) والتي بجانبها يبدأ جبل كامسيوس فإنها تخص السوريين . ومن البحيرة وحتى البحر فالأرض مصرية . وفق هذا الطريق فقط يكون الدخول إلى مصر . وكل المنطقة من مدينة ايونسوس وحتى جبل كاسيوس وبحيرة سربونيس ، وهي ليست بالقصيرة ، وتقطع في حوالي ثلاثة أيام منطقة جافة بشكل مخيف . وأقص الآن شيئاً كان قلة ممن جاءوا إلى مصر قد لاحظته ذلك أن الأواني الفخارية المليئة بالنبيذ كانت ترد إلى مصر من كافة أرجاء بلاد الاغريق ومن كل فينيقيا على مدار السنة وتنتشر في شتى أرجائها ومع ذلك لا ترى منها آنية واحدة فارغة . فأين إذن ، وقد يتساءل أي إنسان ، عن هذه الأواني وماذا يحدث لها . كان أهل مصر يستهلكون (نبيذها) وكان على رئيس كل مكان جمع الأواني (الفارغة) وإرسالها إلى منف . وفي منف يملأونها بالماء وينقلونها إلى هذه الأماكن الجافة في سوريا . وهكذا فإن الأواني الفخارية الجديدة التي ترد إلى مصر تفرغ فيها (من نبيذها) وتحمل إلى سوريا (وقد ملئت ماء) وتضم إلى الأواني التي سبق وصولها . ولكن الفرس ما أن امتلكوا مصر حتى جعلوا الدخول إليها أمراً ميسوراً بأن أقاموا خزاناً للمياه هناك (عند مدخل مصر) . أما في الوقت الذي عقد فيه الفرس العزم على غزو مصر لم يكن الماء قد تم توفيره . وقد أرسل قمبيز بمعونته إلى ملك العرب ، كما نصحه ذلك الرجل من هاليكرناسوس (من مدن آسيا الصغرى) (وهو فانيس) ليمكنهم من العثور على الممر الآمن الذي ينشدونه لدخول مصر . وأعطى الملك الفارسي مواثيقه للملك العربي وتقبل منه مثلها . وللمواثيق التي يعقدها العرب نفس القداسة التي كانت لها عند غيرهم . وكانوا يعقدونها بالطريقة الآتية : عندما يرغب رجلان في تبادل المواثيق يقف بينهما رجل ثالث ، ويحدث في كف كل منهما بالقرب من الإبهام تجويفاً بحجر مسنون ، ثم يأخذ بعضاً من سترة كل منهما ويلطخ بالدم سبع حجرات موضوعة بينهما ، وأثناء عمله هذا يرفع الدعوات إلى الإلهين ديونوسوس وأورانيا . وعند الفراغ من هذه الطقوس يقدم العربي الشخص الغريب الذي تبادل معه أخذ المواثيق إلى أقرانه ويقر هؤلاء الأقران أن من واجبهم احترام ما عقد من مواثيق . ويؤمن العرب بديونوسوس وأورانيا وحدهما من دون سائر الآلهة ويرجلون شعورهم على نحو ما يفعل ديونوسوس بأن يجمعونها في مؤخر الرأس ويجعلونها حلقة كاملة ويحلقون شعر الصدغين . وديونوسوس عند العرب هو أوروتال ولكن أورانيا هي الثلات . وعندما تم تبادل المواثيق بين ملك العرب ومبعوثي الملك قمبيز . توصل الملك العربي إلى معرفة الطريقة التي تسهل دخول (الفرس) إلى مصر . وذلك على النحو التالي : عمد الملك إلى جلود الجمال فملأها بالماء وحملها على ظهور الجمال ثم ساقها إلى الأرض التي لا ماء فيها وانتظر قمبيز هناك . وهذا الذي رويته هو الأقرب إلى التصديق غير أن هناك قصة أخرى ، وهي أكثر بعداً عن التصديق ويجب أن أذكرها لأنها ترددت بالفعل وتقول القصة : « يوجد في بلاد العرب نهر عظيم يسمى نهر كوروس ويصب في البحر الذي اسمه اروثري . وقيل أن الملك العربي خاط انبوباً مصنوعاً من جلود البقر وجلود الحيوانات الأخرى وبدرجة كافية من الطول ليمتد الأنبوب من النهر إلى الصحراء فتجلب المياه عبره ، ويحتفظ بها من خزانات سبق حفرها (والمسافة بين النهر والصحراء مسيرة اثني عشر يوماً) كما وان الماء جلب أيضاً بثلاثة أنابيب إلى ثلاثة أماكن أخرى » .

هذه الفقرات التي نقلناها عن هردوت لها أهميتها بفضل ما تضمنته من معلومات تتعلق بطبيعة المناطق الصحراوية الجافة التي كان على جيش قمبيز اجتيازها لدخول مصر وإن ذلك لم يكن ميسوراً له لولا مساعدة يتلقاها من ملك العرب الذي كان في استطاعته إرشاده إلى الطريق الأمثل لدخول مصر وتوفير المياه للجيش الفارسي الزاحف إليها . وكنا قد نقلنا الفقرة الرابعة من الكتاب الثالث والخاصة بالمناطق العربية الشمالية والواقعة إلى الشرق من مصر ولكننا فضلنا أن نعيد ذكرها مرة أخرى في موضعها من حديث هردوت عن غزو قمبيز لمصر . ونعيد أيضاً ما سبقت الإشارة إليه أن هذه المناطق ، ربما كانت مناطق الأنباط وأن الملك العربي هو ملكهم . وقد يكون في هذا القول ترجيح لوجود الأنباط

من زمن باكر حتى ولو كانوا يعيشون في تنظيمات أو تجمعات لم تظهر أهميتها لمعاصريهم . ومن الطبيعي أن نضرب صفحاً عن قصة فانيس وخيانته لسيده فرعون مصر ونصيحته لقمبيز بالاستعانة بالعرب ليستدل منهم عن الطريق الصحيح لدخول مصر وليضمن تزويدهم له بالمياه . وليس لنا أن نتجاهل خبرة قمبيز في تعامله مع العرب أو أنه كانت له علاقة ببعض قبائلهم أو أنه كانت له على الأقل خبرة آسرحاوون وآشور بانيبال في اتباع سياسة التفاهم مع العرب ولتوفير الماء عند عبور جيوشهم إلى مصر . وأمامنا الفقرة الحادية والأربعون بعد المائة من الكتاب الثاني، والتي سلف ذكرها ، والتي تؤكد مساعدة العرب الفعلية للملك الأشوري سيناخريب في حملته الفاشلة ضد مصر باشتراكهم في وعلى كل حال لا بد وأن يكون قمبيز قد أدرك أهمية التفاهم مع العرب سواء أكانوا من الأنباط أو من غيرهم ، ليضمن على الأقل تأمين مؤخرة جيشه وتوفير المياه اللازمة له . وإذا كان لعرب الشمال اهتمام بحملة قمبيز فإن عرب الجنوب اهتموا أيضاً بتلك الحرب بين الفرس ومصر فقد سجلت طائفة من التجار العرب ، في نقش معيني ، شكرهم لربهم عثر والآلهة الأخرى لحمايتها لقوافل الجمال خلال الحرب بين مادي (الفرس) ومصر .[٣٨]

ونضيف إلى الفقرات السابقة والمتعلقة بالحديث عن الفرس والعرب ما ذكره هردوت في الفقرة الثامنة والثمانين من الكتاب الثالث : « وهكذا فإن دارا الأول (وهو عند الفرس كما أسلفنا داريوش الأول ٥٢١ ـ ٤٨٦ق.م.) نصب ملكاً على الفرس، ودانت له كل شعوب آسيا بالولاء باستثناء العرب ، وكان قد سبق لكل من قورش وقمبيز اخضاع تلك الشعوب ولكن العرب لم يدخلوا في طاعة الفرس ، ولم يدينوا لهم بالولاء بوصفهم تابعين أو أرقاء بل كانوا قد أصبحوا لهم أصدقاء عندما سمحوا لقمبيز بالمرور إلى مصر لأن الفرس لم يكن في مقدورهم غزو مصر ضد إرادة العرب » .

ويتحدث هردوت أيضاً في الفقرة الحادية والتسعين من الكتاب الثالث عن الجزية التي كان الملك الفارسي يحصل عليها من الولايات الفارسية وجاء فيها خاصاً بالعرب « تكوّن المنطقة الممتدة من مدينة بوسيدوم الواقعة على الحدود بين سوريا وكليكيا وحتى مصر الولاية الخامسة وتعطي للملك الفارسي فيما عدا منطقة العرب التي لم تكن تدفع أي ضرائب ثلثمائة وخمسين تالنت » . ويزيد هردوت على ذلك قوله في الفقرة السابعة والتسعين من الكتاب الثالث ، وهو بصدد حديثه عن الشعوب التي كانت تقدم هدايا للملك الفارسي ، (دارا الأول) ، إن العرب كانوا يقدمون له كل عام ألف تالنت (وزنة) من اللبان (أي حوالي خمسة وعشرين طناً ونصف طن أي ما يساوي ٦٦,٠٠٠ رطلاً انجليزياً) » . وحرق اللبان أمام الملك الفارسي إنما يدل على علو مكانته بالنسبة للبشر .[٣٩] ويبدو من حديث هردوت أن الملك الفارسي أراد أن يجعل من بلاد العرب ولاية قائمة بذاتها ولكن لأسباب معينة عدل عن ذلك .[٤٠]

هذا ما أورده هردوت عن علاقة العرب بكل من الآشوريين والفرس . وكم كان من المفيد لو أنه تحدث عن علاقتهم ببابل وملوكها . وبينما أسقط من أحاديثه كل ما يتعلق بالفترة الأخيرة من تاريخ بابل على عهد ملكها نابونيد، وعن إقامته في تيماء، وعن معركته الأخيرة مع، قوريش وسقوط بابل عام ٥٣٨ ق . م . ودور العرب في كل هذه الأحداث[٤١] ، نجده يهتم بإبراز بعض التشابه بين العرب والبابليين إذ يقول في الفقرة الثامنة والتسعين بعد المائة في كتابه الأول إنه عندما كان الرجل من أهل بابل يقدم على مباشرة زوجته ، كان يجلس أمام البخور ليتطيب وكذلك كانت تفعل زوجته وانه عندما يشرق الصباح كان لا يجوز لأحدهما مس أواني المنزل قبل أن يغتسلا ، وأنه في هذا يشبه أهل بابل العرب .

ويبقى بعد ذلك من حديث هردوت عن مساعدة العرب

---

(٣٨) عن هذا النقش راجع محمد بيومي مهران ،المرجع السابق ،ص ٢٢٤ وما يليها . وقد أورد آراء عدد من الباحثين حول تفسير النقش وتاريخ الحرب وعن المقصود باسم مصر وهل هي (مصرو) التي كانت في شمال غرب الجزيرة العربية ؛ انظر أيضاً : C. A. H, iii, p. 310 .

(٣٩) Olmstead, p. 217.

(٤٠) Idem, p. 244.

(٤١) انظر: A. R. Burn , Persia and the Greeks, 2nd ed (London, 1984), p. 48.

لقمبيز ، الملك الفارسي ، في الفقرات من الرابعة إلى العاشرة من الكتاب الثالث والتي سلف ذكرها ، ما قد يساعدنا على تبيين بعض التقاليد والمعتقدات الدينية التي كانت للعرب الذين خصهم هردوت بأحاديثه . فقد جاء في الفقرة الثامنة ذكر الدعوات التي كانت تتصاعد لكل من الإلهين ديونوسوس وأورانيا بوصفهما الإلهين اللذين كان العرب يؤمنون بهما دون غيرهما ، وذلك على حد قوله . وواضح أن الاسمين لإلهين من الاغريق لذلك يقرر هردوت أن ديونوسوس هو عند العرب الإله أوروتالت، وأن أورانيا عندهم هي الثلات . وسبق لهردوت أن ذكر في الفقرة الواحدة والثلاثين بعد المائة من الكتاب الأول ان الفرس أخذوا عن الآشوريين والعرب عبادة الربة أفروديتي - أورانيا ، وأن الآشوريين يسمونها موليتّا Mylitta ، وأن العرب يسمونها ألتّا Alitta ، في حين أن الفرس يعرفونها باسم مثرا .

ويفرض قول هردوت على المهتمين بدراسة لغة العرب القدماء وديانتهم الاهتمام بالتعرف إلى حقيقة الربة التي ذكرها مرة باسم الثلات ومرة باسم ألتّا في الفقرتين السابقتين ونتساءل هل المقصود بهما الربة اللات التي قدسها الأنباط؟

وقد ناقش الاستاذ ديسّو هذين الاسمين وقال: « لو صح أن هردوت قد أورد هذه الصورة ألثلات ، وكانت كتابتها صحيحة لاصبحت مرادفة لكلمة إيلثلات وهي ادغام وسط بين إلالاهات والادغام التام اللات » ويتساءل الاستاذ ديسّو بعد ذلك « عما إذا كان هذا الادغام قد وجد فعلاً زمن هردوت » . ويمضي في تساؤله « أي الصورتين نأخذ بهما أهي التتا أو الثلات وأيهما أصبحت اللات ؟ » ويجيب الاستاذ ديسّو : « اننا نضطر إلى قبول هذا الفرض لو كانت الالهة التي ورد ذكرها في النصوص السبئية على صورة اللات .(٤٢)

وقد شارك الاستاذ وينيت في مناقشة الصورتين اللتين وردتا عند هردوت ويقول إن ذكر هردوت لاسم اللات في صورة ألثلالات يثبت أن الاسم كان يستعمل على هذا النحو في فترة متقدمة من القرن الخامس ق.م. وهو الاسم القديم لاسم الثلات والذي يعني الربة، وهو بذلك يجيب على تساؤل الاستاذ ديسّو ويثبت صحة الصورة التي كتب عليها اسم اللات . ويضيف الاستاذ وينيت أن استعمال أداة التعريف أل في أول الاسم في ذلك الوقت كان سائداً في سيناء ، ولكنه يستبعد أن يكون سيناء هو موطن ربة تحمل اسم اللات ، ويثبت أن موطن اللات كان في سوريا ومنها انتشر إلى حوران ومن ثم إلى الأنباط وسيناء ولحيان ، ثم تعرف عليها عرب الجنوب فنقلوها إلى اليمن .(٤٣) وينتهي الاستاذ وينيت إلى أن اسم اللات يمثل في الواقع إدغاماً في الاسم الآرامي اللثيهيتا Altāheta بمعنى الربة .(٤٤) وبذلك - في رأيه - يكون هردوت قد ذكر اسم « الربة » فحسب دون أن يعني اللات التي نعرفها . ويمضي وينيت في القول إن المقصود باللات عند هردوت إنما هي الربة العزى .(٤٥)

ولكن نحن بدورنا - دون أن نحاول الدخول في مناقشات لغوية - نتساءل أليس من المقبول أن يكون هردوت قد أثبت ، عمن نقل عنهم ، اسم ربة بعينها كان العرب يعرفونها باسم اللات، وأن هذه الربة تقابلها عند الاغريق الربة أفروديتي - أورانيا أياً كانت الصورة التي وردت بها عنده التتا أو الثلات ؟

وينبه الاستاذ وينيت إلى اهتمام هردوت بأن يذكر في الفقرة الخامسة بعد المائة من الكتاب الأول أن معبد الربة أفروديتي في عسقلان هو أقدم معبد لتلك الربة وذلك في سياق محاولته إثبات أن اللات هي العزى .(٤٦) ونحن نرى أن هردوت إنما قصد الربة اللات وأنها قرينة افروديتي .(٤٧)

أما فيما يخص الإله أوروتالت العربي المقابل للإله

(٤٢) رينيه ديسّو ، العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، (القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ١١٤ وما يليها .

(٤٣) F. V. Winnett, «The Daughters of Allah», **The Moslem World**, vol. XXX, 1940, pp. 113- 130, p. 121 f.

(٤٤) Idem, p. 122.

(٤٥) Idem, p. 123.

(٤٦) الحاشية السابقة .

(٤٧) الحاشية السابقة. عن الربة اللات عموماً راجع : T. Fahd, **Le Pantheon de L'Arabie Centrale à La Ville de L'Hégire**, (Paris, 1968), p. 115 ff .

= F. V. Winnett, and W. L. Reed, **Ancient Records from North**

الاغريقي ديونوسوس ، فهو كما يرجح الاستاذ ديسّو(٤٨) ، الإله دوزاريس وهو الإلـه ذو الشري ، الـذي يقترن اسمـه دائماً باسم الـربة الـلات في مجموعـة آلهة الأنبـاط . وقد بذلت عدة محـاولات لمعرفـة أصل هـذا الاسم . ويرجـح الاستاذ وينيت أن يكون له أصل نبطي . وفي رأيه أن وجود حورف اللام في أوروتالت لا ينسجم مع الشكل العربي فإذا اسقطنا هذا الحرف فإنه يتبقى اسم أوروتات وبذلك يقترب من الاسم الـذي يـدخـل في تـركيب أسمـاء بعض ملوك الأنباط ، مثل اسم الملك حاريتات (الحارث) . وفي رأيه أيضاً أن هذا الإله إله للشمس .(٤٩) وطبيعي أن يكون قريناً للربة اللات إذا سلمنا أنها ربة قمر .

وفي الفقرة الثامنـة من الكتاب الثـالث ذكـر هـردوت ، تـأكيداً منـه لتقديس العـرب للإلـه ديونـوسوس أنهم كـانوا يـرجلون شعورهم على نحـو ما كـان يفعل هـذا الإله بـأن يجمعونها في مؤخـرة الرأس ويجعلون منهـا حلقة كـاملة ، وانهم كانوا أيضاً يقصون شعر الصدغين . وفي رأي البعض ان قص شعر الصدغين كان أحد الطقوس الذي تميزت بها الـديانـة العربيـة القديمـة . وأن هذه العـادة استمرت عنـد المسلمين عند الاحرام بالحج .(٥٠)

وواضح أن آلهة العـرب ، التي تحدث عنهـا هردوت ، كانت هي نفس الآلهة التي تعبد إليها الأنباط فيما بعد . فهل نعود إلى التساؤل ، استنـاداً إلى هذه الحقيقـة ، ونقول ان عرب هردوت كانوا في الواقع هم الأنباط أم نفترض أن الأنباط عنـدما حلوا بـالأرض التي كان يعيش فيهـا عـرب هـردوت واستقروا بها اتخذوا من آلهة هؤلاء القوم آلهة لهم ، وأولوها اهتمامهم حتى تميزوا بها وأصبحت علماً عليهم ؟

وجدير بالملاحظة أن هردوت وهو يتحدث عن ديانة العرب إنما كـان يضع نصب عينيـه ديانـة قومـه الاغريق .

وجرياً على عادته في مقابلة أسماء آلهة غير الإغريق ، مثل أسماء الآلهة المصرية ، بأسماء آلهـة الاغريق ، قـابل بين أسماء آلهة العرب وأسماء آلهة الاغريق . ذلك أنه لم يكن يتصور أبداً أن تتعبد الشعوب غير الإغريقية لآلهة ليست في مجمع آلهة الاغريق .(٥١)

هكـذا تحدث هـردوت عن العرب وبـلادهم ونشـاطهم الاقتصادي وعلاقاتهم مع القوى السياسية ومعتقداتهم الدينية بالقدر الذي سمحت به مصادره وما نقله عن رواة أخباره . ولا بد وأن يكون القـارىء قد أدرك أنـه أطنب الحديث في بعض فقرات كتبه وأوجز في البعض إلى الحد الذي كاد أن يفقدها أهميتها أو تحتاج إلى قدر كبير من المتابعة لإبراز ما أوجزه أو أهمله .

وقد أعربت جـاكلين بيرين عن تعجبهـا إهمال هـردوت الحـديث عن المجموعـات العربيـة في جنوب الجـزيرة ، والتي كانت قد عرفت الحضارة والتنظيم السياسي منذ القرن الثامن ق . م . في حين أنه اهتم بـالحديث المفصـل عن خراف العرب والنباتات العطرية والبخور وما إلى ذلك .(٥٢)

وإذا كان هردوت قد استقى معلوماته من التجار الفينيقيين فهل كتم عنه هؤلاء ما كانوا يعرفونه عن العرب وجماعاتهم القبليـة وممـالكهم في الجنـوب حتى لا يشـاركهم غيـرهم احتكار الاتجار في مواد البخور والعطور ونقلها إلى أسـواق البحر المتوسط مثلمـا تكتموا أخبـار المناطق الـداخلية في افريقيا وحجبـوها عن الاغـريق بصفة خـاصة حتى ينفـردوا بالوساطة في نقلها ؟ وعلى كل حال فمن المعروف لنـا أن الفينيقيين لم يتركوا تراثاً مكتـوباً يعتـد به عن أحـوال البلاد التي كانوا يتاجرون معها .

وكذلك من حقنا أن نأخذ على هردوت عدم اهتمامه بتتبع العلاقات بين العرب وبابل وبينهم وبين الآشوريين ، وكذلك

= **Arabia,** (Toronto, 1970), p. 170 ff .

وحيث يشير الكاتبان إلى نقش آرامي على إناء من فضة اهداه كانيو بار جشم Qainu bar Geshem ملك قدار إلى الربـة اللات في صـورة هانـئلات في معبد لها في تل المسخوطة شرق الدلتا ـ انظر أيضاً J. M. Cook, **The Persian Empire** (London, 1983) ,p. 65 .

(٤٨) حاشية ٤٢ .

(٤٩) F.V. Winnet, p. 123, No 32.

(٥٠) T. Fahd, p. 162.

(٥١) F. Chamoux, **The Civilisation of Greece**, English Translation London, pp. 279, 282 .

(٥٢) J. Pirenne, «Le Grèce et Saba», L'Academie des Inscriptions et Bel-les Lettres, Mai 1954, p. 113 .

كانت المستنصرية معهداً داخلياً ، وكان بها حمام للطلبة وحلاق ، ومطبخ ومخزن لمهماتها ومستلزماتها من الورق والحبر والزيت والمصابيح والصابون والملابس وأدوات الطبخ والمواد الغذائية ، وفيها خزان للماء كانوا يسمونه « المزملة » . وألحقت بها حديقة كان يقصدها المستنصر ، وينظر من خلال شباك في سورها إلى ما يجري داخل المدرسة لشدة غرامه بها ، ولكن بعض المؤرخين يشكون في وجود الحديقة . وكانت تزين المدرسة ساعة عجيبة الصنع وصفها المؤرخون ، ففي سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م أنشىء إيوان يقابل المدرسة يجلس فيه الطبيب وعنده طلبة الطب ، ويقصده المرضى فيداويهم ، وكانت الساعة قد أقيمت في حَائط ذلك الإيوان . ويدل وصفها على تقدم ميكانيكي عظيم أحرزه صانعها ، وهو نور الدين بن تغلب الساعاتي.[٢٩] وقد وصف الساعة أحد الشعراء (وقد توهم الدكتور حسين أمين في كتابه المستنصرية ص ٤١ فظنه أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي والراجح أنه حفيده الذي يحمل اسم جده ، وقد توفي الجد أبو الفرج سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م أي قبل ٣٤ عاماً من افتتاح هذه المدرسة . أما الحفيد فقد قتله المغول عند سقوط بغداد .

وعلي أي حال ، فقد أقيم حفل عظيم يوم افتتاح المستنصرية، في يوم الخميس الموافق ٥ رجب ٦٣١ هـ حضره الخليفة المستنصر ، وأرباب دولته والعلماء ومشايخ الصوفية وأعيان التجار والشعراء ، وكان يوماً مشهوداً ، قرئت فيه وقفية المدرسة التي تضمنت نظامها الأساسي ، ووزعت الخلع والهدايا على الأساتذة وعلى المشرفين على تشييد العمارة وعلى الحاشية . وقد أطنب الشعراء في وصفها ومديح مؤسسها . وقد تناول النظام الأساس تحديد عدد الطلبة باثنين وستين طالبا لكل مذهب ، ولكل فئة من هؤلاء مدرس وأربعة معيدين وإمام للصلاة . أما دار القرآن فيختار لها ٣٠ صبياً من الأيتام ، لهم شيخ يقرؤهم القرآن ، ومعيد يشرف على تحفيظهم . وتقرر اختيار عشرة طلبة لدار الحديث النبوي ، يقوم بتعليمهم شيخ عالي الاسناد يعاونه قارئان . كذلك يعين مدرس للنحو وطبيب حاذق يقوم على تدريس الطب لعشرة من الطلبة . وهكذا يكون مجموع طلاب المدرسة ٢٩٨ طالباً ، ومجموع أعضاء هيئة التدريس ٣٠ عضواً ، هذا فضلاً عن خازن الكتب الذي يعاونه مشرف ومناول ، وهناك أيضاً هيئة إدارية مكونة من ناظر ومشرف وكاتب وعدد من الخزنة والمعماريه وعمال المطبخ والحمام والبوابين . وكان الناظر من ذوي المكانة العالية ، وقد كان أحدهم قاضياً ، ويبدو أنه هو المتولي لإدارة المدرسة . بينما يتولى المشرف الإشراف على شؤون الطلاب ، وهذا أيضاً كان يختار من ذوي المنزلة العلمية . وكان للمدرسة أئمة وخطيب ومقرىء بالقراءات السبع ، وداع يدعو ومؤذن . ومن امتيازات مدرسيها ، أن يزود كل واحد منهم ببغلة كاملة العدة .[٣٠]

هذا وقد قسمت المدرسة لأغراض السكنى إلى أربعة أرباع ، لكل مذهب ربع ، بينما خصصت القاعات الداخلية للتدريس ، أما الأواوين الخارجية فكانت تقام فيها الحفلات والولائم للملوك وكبار الضيوف أحياناً[٣١] . وقد كان للمستنصر شباك يشرف على احدى قاعات التدريس ، حيث يجلس قربه لسماع ما يلقى في تلك القاعة من دروس[٣٢] . (انظر مخططات المدرسة في اللوحة رقم ٣) .

٢ ـ المعاهد الملحقة بالمدرسة

أما المعاهد الملحقة بالمدرسة المستنصرية ، فأولها

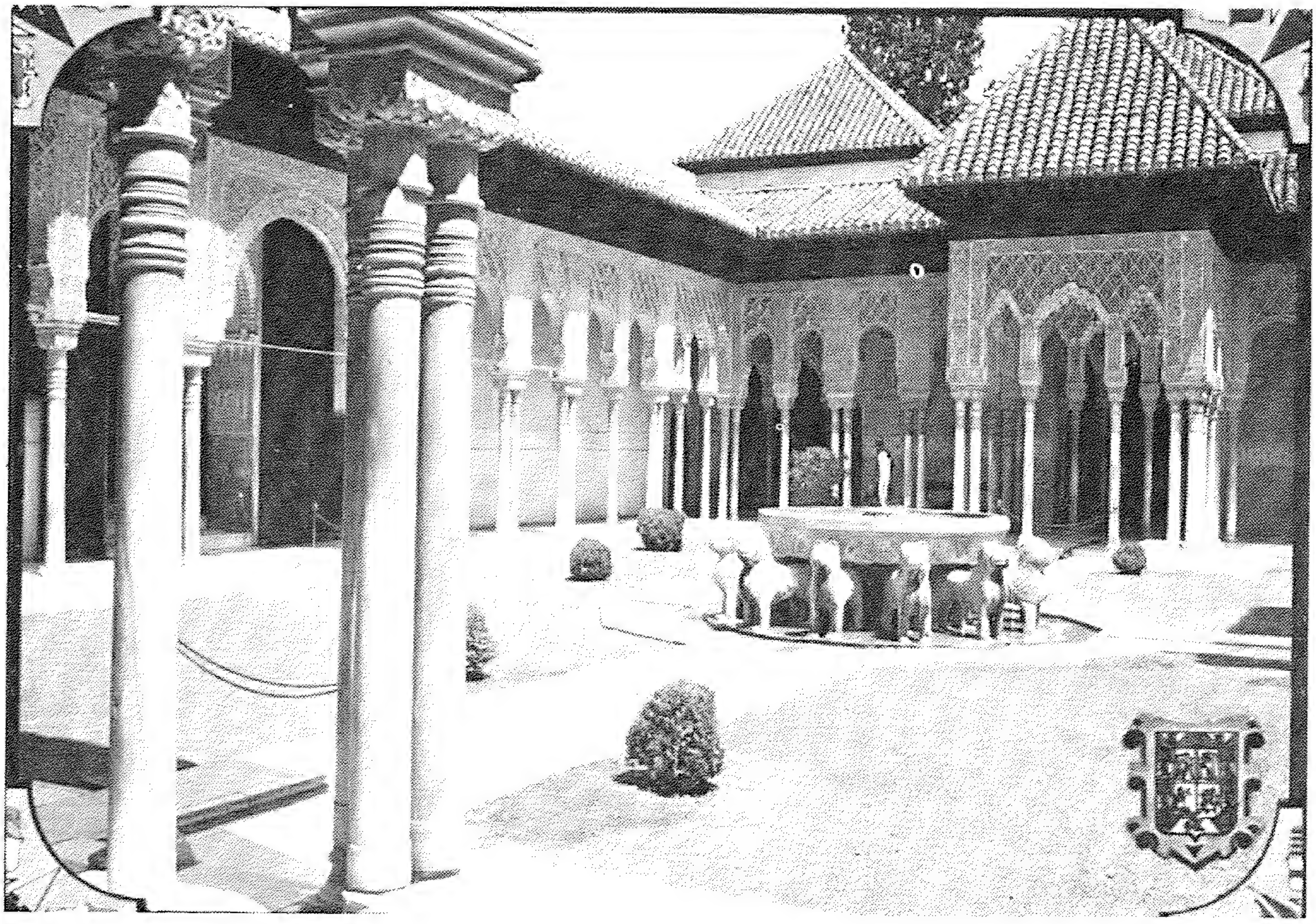
يوسف الدمشقي (ت ١٠١٩هـ) : **اخبار الدول وآثار الأول** (القاهرة : ١٢٩٠هـ) ، ص ١٨٠ ؛ والاربلي ، عبد الرحمن بن ابراهيم سنبط (ت ٧١٧هـ) ، **خلاصة الذهب المسبوك** (بغداد : ١٩٦٤) ، ص ٢١٢ ؛ وابن الطقطقي ، محمد بن علي (ت ٧٢٩هـ) ، **الفخري في الآداب السلطانية** (القاهرة : ١٩٦٢) ، ص٢٤٢ ؛ والألوسي ، محمود شكري (ت١٣٤٢هـ) ، **مساجد بغداد** (بغداد : ١٩٢٧) ص ٩٨ ؛ وزكي حسن ، **فنون الاسلام** (القاهرة : ١٩٤٨) ، ص ٥٤ ؛ وحسين امين ، ص ص ٣٠ ـ ٣٦.

(٢٩) ابن الفوطي : **الحوادث** ، ص ص ٥٦ ، ٨٢ و ٨٣ و ٢٠٣ و ٣٦٥ ؛ والسلامي ، محمد بن رافع (ت ٧٧٤هـ) ، **منتخب المختار** (بغداد : ١٩٣٨) ، ص ص ٣٦ و ٢١٣ ؛ والإربلي ، ص ٢١٢ ؛ والقزويني ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ) ، **آثار البلاد واخبار العباد** (بيروت : ١٩٦٠) ، ص ٢١١ ؛ ولسترانج ، ص ص ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، حسين امين ، ص ص ٣٦ ـ ٤٢.

(٣٠) ابن الفوطي ، **الحوادث** ، ص ص ٥٣ و ٥٥ ـ ٥٧ و ٥٩ و ٨١ ؛ والإربلي ، ص ٢١٢ ؛ الألوسي ، ص ٩٠ ؛ وحسين أمين ، ص ص ٤٢ ـ ٤٨ .

(٣١) ابن الفوطي ، **الحوادث** ص ص ٧٨ و ٨١ و ٨٩ و ٢١٦ و ٢١٧ ؛ وحسين أمين ، ص ص ٣٣ و ٣٥ و ٤٨ و ١٠٤ و ١٠٥ .

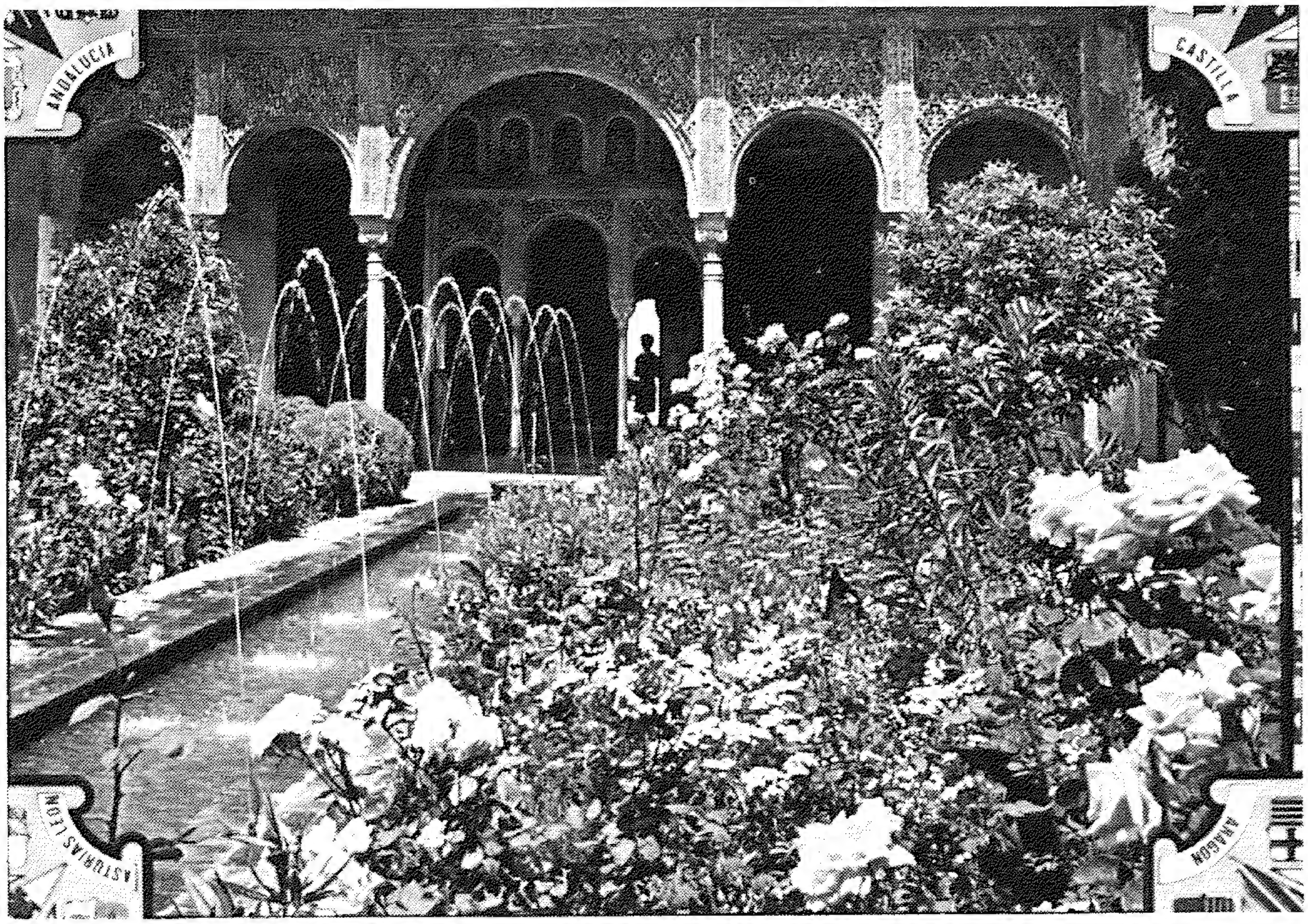
(٣٢) حسين أمين ، ص ٤٨ .



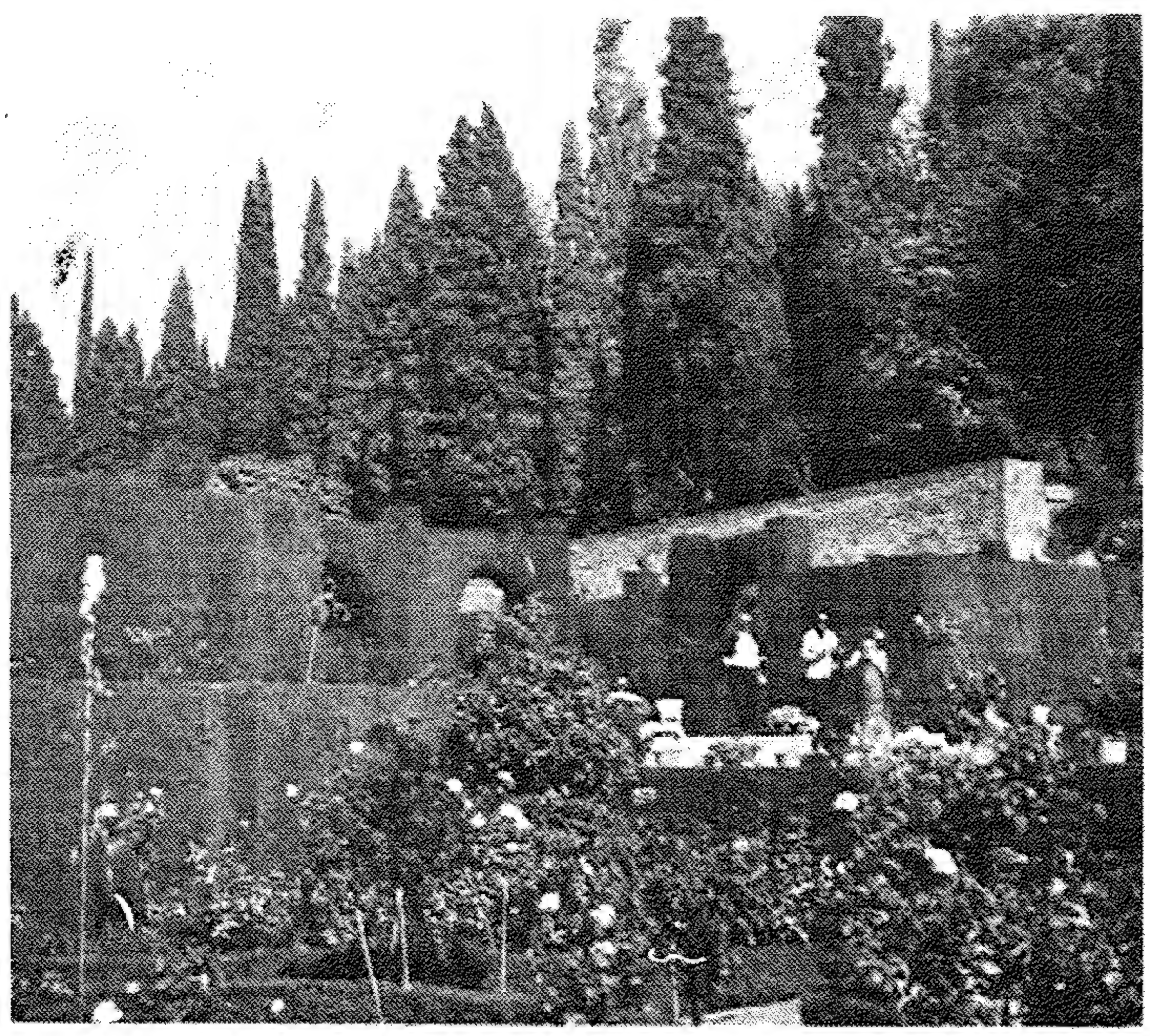
ساحة السباع



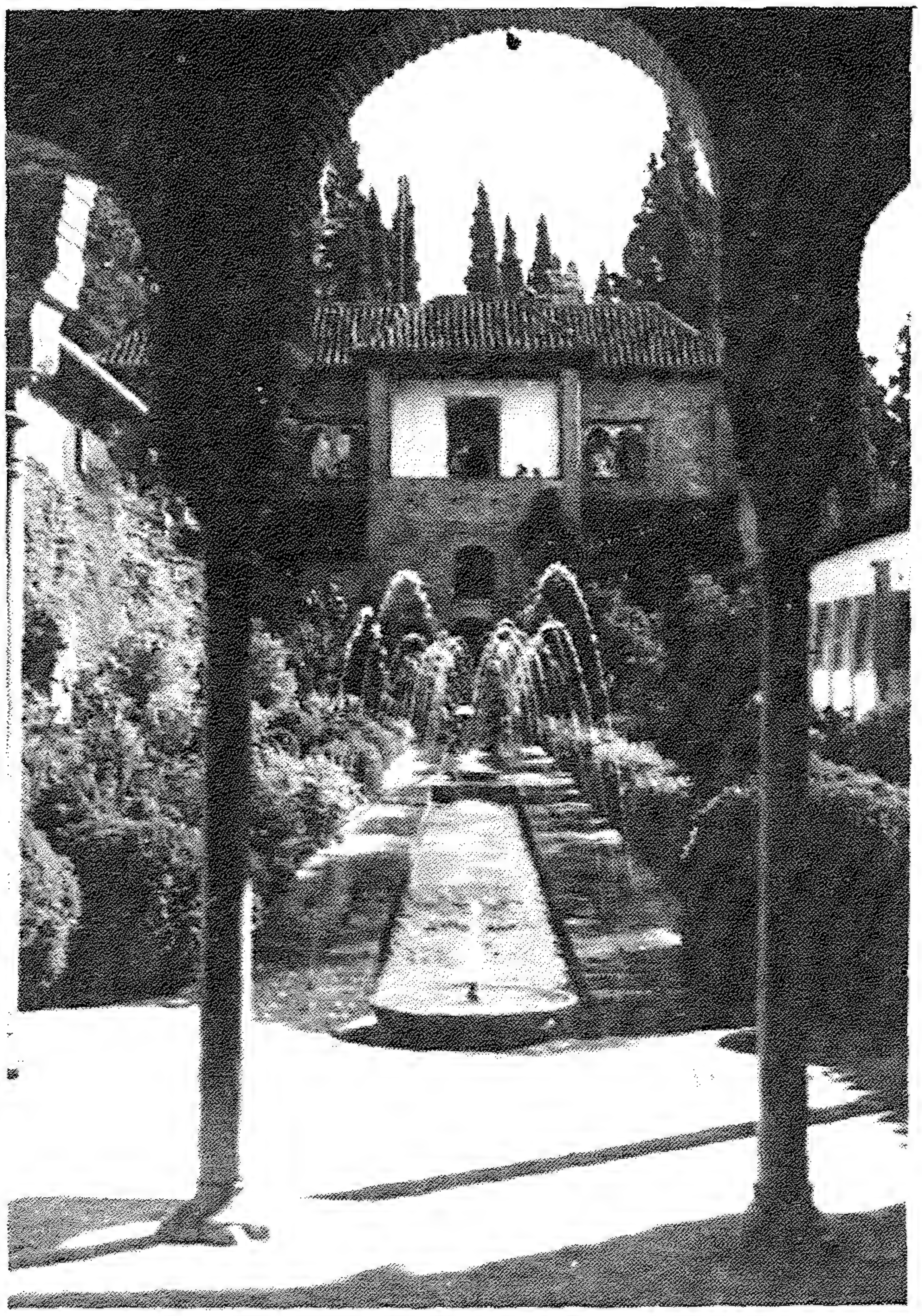
برج السيدات وجزء من حديقة البرطل



جنة العريف : ساحة الساقية

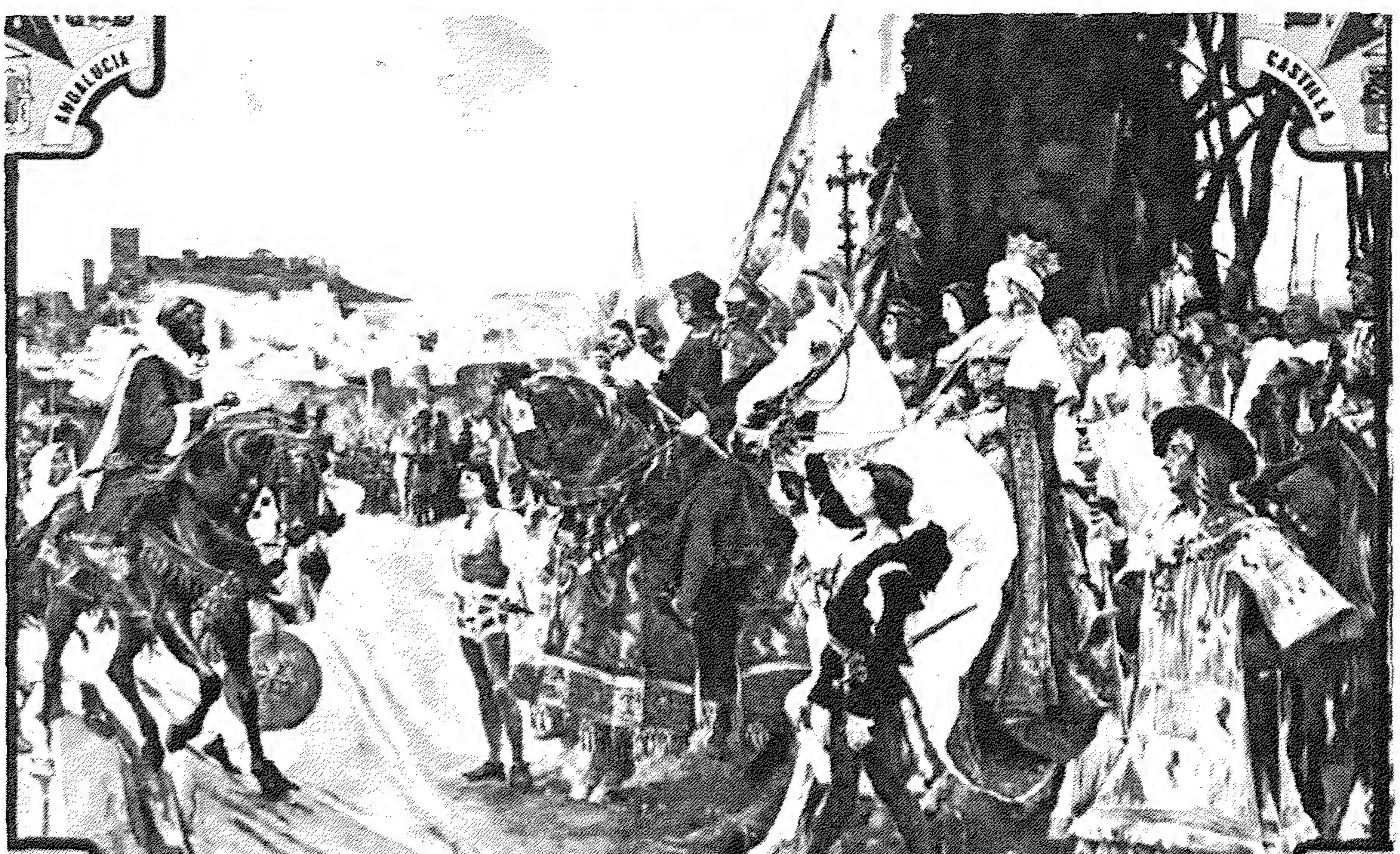


جنة العريف : الجنائن المعلقة



من نوافير جنة العريف

أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر
في غرناطة يسلم مفاتيح المدينة
الى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايسابيلا



العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ٧٥ ـ ٩٤ (١٩٨٧)

معركة قطوان ٥٣٦هـ/ ١١٤١م

أسبابها ونتائجها

للدكتور سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي

ملخص البحث : يرتبط تاريخ المسلمين ، في أقاليمهم الشرقية ، بالإسلام والمسلمين منذ أن فتح قادة المسلمين في الدولة الأموية هاتيك البقاع ، واعني بها تلك الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر جيحون ، في أواخر القرن الأول الهجري/ الثامن الميلادي . فقد أدخلت أقاليم ما وراء نهر جيحون وسيحون تحت المظلة الإسلامية ، فأضحى المسلمون بها يؤثرون في ما يقع إلى المغرب منهم ، ويتأثرون به سلبياً وإيجابياً . فأحداثه السياسية يكون لها أبعادها ؛ مثلها في ذلك مثل أحداثها العسكرية والاجتماعية والحضارية .

وقد ظل المسلمون في تلك الأصقاع هم أصحاب الشأن ، حكاماً لا محكومين ، وهم الغالبون ، لا المغلوبون ، رغم تغير الأوضاع السياسية ، من حيث تغير الدول والأمراء والحكام ، من القرن الأول الهجري ، حتى أواخر النصف الأول من القرن السادس/ الثامن للميلاد حتى الثاني عشر ؛ فقد دالت دولة بني أمية، وجاءت بعدها دولة بني العباس، ثم انتهى نفوذ الأخيرة الفعلي المباشر من على هذه الأراضي، ثم جاء الطاهريون ، فالسامانيون، ومن ثم القراخانيون ثم السلاجقة(*) . ومع ذلك ظل الوضع على حاله، لم يتغير، إذ بقي المسلمون أصحاب السيادة في تلك الديار، حتى كانت سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، حيث وقعت فيها معركة قطوان، فغيرت تلك الأمور رأساً على عقب، فأمسى المسلمون محكومين لا حكاماً. وانحسر الإسلام عن صده إلى أعماق أكثر في ما وراء جبال الطاي.

كان لأحداث تلك المعركة أسباب، ونتائج سلبية وإيجابية ، على المستويين الإسلامي والدولي ، فحاولت في هذا البحث التطرق، بحثاً ودراسة بقدر ما في وسعي بجهد المقل ، إلى هذه الحادثة الأليمة، علني أجد الأسباب ، لأخرج بنتيجة حسب علمي القاصر، يكون فيها فائدة لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة .

لذلك كان لزاماً علي أن اتطرق إلى أطراف النزاع ، فأتيت بدراسة مختصرة عمن له دور مباشر، وعلاقة وطيدة بهاتيك الموقعة المشهورة، والتي، فعلاً، كان لها ما بعدها. ومن تلك الأطراف تطرقت إلى دراسة وضعها : القراخانيون ، والقراخطائيون ،والسلاجقة ، وقبيلة قَرْلُق (أو قارلوق) .

وعلاقة كل واحد من هذه الأطراف بموقعة قطوان . ثم بحثت في أسباب ذاك النزاع ، ونتائج تلك المعركة ، لعلنا نستقي العبر ، ونستفيد من أخطاء وقع فيها أسلافنا، من خلال استقراء تاريخهم ، والتاريخ ما هو إلاَّ مرآة للماضي تبني الأجيال آمل المستقبل عليه !!

(*) في خلال السنوات التي تعاقب على حكم تلك الديار هاتيك الدول ، واحدة بعد الأخرى ، فقد ظل أمراؤها وسلاطينها يدَّعُون للخليفة بالولاء والطاعة ، وأنهم ما هم إلا ولاة على تلك الأصقاع نيابة عن خليفة العباسيين في بغداد. كما كانوا يدعون له في خطب أيام الجمع والأعياد ؛ ويذكرون اسمه على السكة المتداولة في بلادهم ، التي يحكمونها فعلياً ، وليس كما يَدَّعُون ، من كونهم ولاة للخليفة .

مقدمة :

يبدأ تاريخ العلاقة بين الإسلام والعناصر التركية منذ الفتح الإسلامي لأراضي إقليم ما وراء النهر، أيام دولة بني أمية (٤١ ـ ١٣٢ هـ / ٦٦١ ـ ٧٤٩ هـ)، خلال الربع الأخير من القرن الأول للهجرة / أوائل القرن الثامن للميلاد؛ ثم ما تلى ذلك من دخول أقوام منهم في هذا الدين، ومن ثم نشوء الحضارة الإسلامية في هاتيك البقاع من العالم الإسلامي. تلك الحضارة، وما حوته من ثراء ووصلت إليه من ازدهار في شتى مجالات الحياة، التي أضحت مطمحاً يرنوا ببصره إليها كل بدوي في السهوب الشمالية والشمالية الشرقية من العالم الإسلامي.

بدأت الهجرات القبلية التركية تتدفق إلى أراضي المسلمين، منذ ذلك الوقت، على شكل جماعات أو فرادى، بل وتعدى ذلك إلى ما وراء النهر وإلى ما دونه، بل وإلى وسط العالم الإسلامي حتى وصلوا إلى مصر. فتارة يباع الفرد منهم كما تباع السائمة، في أسواق النخاسة، ومرة تتعرض أراضيهم لغزو من الغرب، فيقع الكثير منهم في الأسر، فينتفع بهم الملوك والأمراء، خاصة ما يتعلق بوظائف الحرس الخاص لهذا الأمير أو ذاك السلطان. وقد نجد أن بعض الغزوات يقوم بها أحد الحكام عليهم لغرض أساس واحد، وهو أن يجلب أكبر عدد ممن منهم ليستمدهم لهذا الغرض، وما غزوة إسماعيل بن أحمد الساماني لهم في عام ٣٨٠ هـ / ٨٩٣ م[١] ضد قبيلة القَارلُوق[٢] في طلس[٣]، إلَّا أكبر شاهد على ما نقوله، وأحياناً يتفق حاكم أقصى بلاد الإسلام الشرقية مع آخر من الحكام أو الأمراء الأتراك الوثنيين، فيفرض على الأخير جزية، قد تكون تلك الجزية أشياء عينية؛ فيمثل العنصر البشري الشيء الكثير منها. كيف لا ! وقد كثر الأتراك لدى الخليفة المعتصم، لهذا السبب، الذي غالباً ما يكون ذلك نزولاً عند رغبته[٤]. وفي بعض المرات، قد يقوم الآباء ببيع ابنائهم إلى مسؤول كبير أو حاكم، أو أن يهدونهم إهداء، أملاً أن يلحقوا بهم في يوم ما، بعدٍ أن يترقى في منصب كبير لدى هذه الحكومة، أو ذاك السلطان.

كانت الحكومات الإسلامية تستعين بهم في جميع المجالات ومناحي الحياة فيها بشكل عام، والعسكرية منها بوجه خاص. وقد بدأ مجيئهم، إلى الجهات الوسطى من العالم الإسلامي، منذ أيام الخليفة العباسي **المأمون** وأخيه المعتصم من بعده[٥]. ثم توالت هجراتهم بعد ذلك حتى جاء وقت أصبحوا قادة جيوش، وحكاما، وملوكا، وسلاطين، لدول إسلامية[٦].

---

(١) إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٧م) من أعظم ملوك الدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥ هـ/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥م)، والتي حكمت اقليم ما وراء النهر حتى نهاية آخر ملك لهذه الأسرة، وهو المنتصر. أما خراسان فقد حكمته لفترات متقطعة.

(٢) يسميهم ابن الأثير، عز الدين أبو الكرم علي، **الكامل في التاريخ**، (دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ) ج ٩، ص ٢، «القار غلية». بينما نجدهم عند الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي، **أخبار الدولة السلجوقية**، تحقيق محمد إقبال (لاهور، ١٩٣٣م)، ص ٩٣٠ «قرلق»؛ وكذلك ورد بهذه الصورة اسمهم عند عماد الدين محمد بن محمد حامد الاصفهاني، في مصنفه، **تاريخ دولة آل سلجوق**، الذي اختصره الشيخ الإمام الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (بيروت : دار الأفاق الجديدة، ١٩٧٨م)، ص ٢٥٣؛ أما مصنف كتاب، **حدود العالم**، لمؤلف مجهول، ترجمة وتحقيق مينورسكي، (لندن، ١٩٧٠م)، ص ص ٩٧ ـ ٩٨ فقد أوردها «خلخ ـ Khallakh».

(٣) لمعلومات عن مدينة «طلس، طراز، قومي ـ طلس، أولوغ طلس» انظر «حدود العالم»، تحت هذه الأسماء في الفهرست وفي الصفحات المشار إليها في المتن؛ ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي، **معجم البلدان** (بيروت : دار صادر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م)، ج ٤/ص ٢٧، وهي مدينة تقع في وسط المسافة بين نهري «جو» و«سيحون» من مجرى الأخير الجنوبي.

(٤) هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م) ثامن خلفاء بني العباس، ويعتبره المؤرخون آخر خلفاء العصر العباسي الأول وهو عصر القوة.

(٥) هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٤ ـ ٨٣٣م). سابع خلفاء الدولة العباسية.

(٦) من الدول الإسلامية الذين يتمي ملوكها إلى العنصر التركي، الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٨٦م)، والدولة السلجوقية ٤٢٩ ـ ٧٠٠هـ/ ١٠٣٧ ـ ١٣٠١م «على اعتبار آخر أسرة حكمت من السلاجقة في آسيا الصغرى، عندما سقطت على أيدي الاتراك العثمانيين والا فدولهم الأخرى، قد سقطت قبل ذلك بقرون، فمثلاً دولتهم في خراسان انتهت بنهاية آخر سلاطينها العظام سنجر سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م؛ وفي العراق وكردستان سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م؛ وفي سورية سنة ٥١١هـ/١١١٧م»؛ =

ولست هنا في مجال البحث عن أسباب مجيئهم ، أو الخوض فيه ، فهذا شيء خارج عن نطاق ما أنوي بحثه هنا ؛ ولكن الذي يهمني هو الإشارة إلى زمن مجيء القراخانيين ، وإعطاء نبذة مختصرة عنهم ، وذلك لعلاقتهم الوطيدة ، ولصلتهم المباشرة ، بموضوع هذا البحث الصغير . ثم بعد ذلك نعطي نبذة صغيرة ومختصرة عن « القراخطائيين » ، وكيف جاءوا إلى ديار الإسلام ؛ ومن ثم كيف اخرجوا بعضاً من هاتيك البقاع وادخلوه ، ولأول مرة في تاريخ مسلمي الشرق ، تحت حكمهم الوثني ، نتيجة «لمعركة قطوان» موضوع بحثنا هذا .

القراخانيون

يرجع القرخانيون في أصلهم العرقي إلى العنصر التركي ، وينتمون قبلياً إما إلى أقوام اليَغْمَا ، وإما إلى القَارلُوقي ، حسب اختلاف الروايات التي بين أيدينا .[٧] وأغلب الظن أنهم من القَارلُوق لأن اليَغْمَا أحد فروع القارلُوق ، والذين بدورهم يتكونون من مجموعة من قبائل تركية ذات أحلاف كثيرة ، متمثلة بشكل رئيس في اليَغْمَا ، وتُخْسِي وتِشِغِل ـ Yaghma, Tukhsi and Chigil [٨] . وقد كانت هذه القبيلة تحتل المناطق الوسطى من حوض وادي نهر سيحون ، وتمتد شرقاً حتى السهوب الغربية للطاي ، وجنوباً إلى المناطق الواقعة بين واديي نهري سيحون وايلي ، ومناطق حوض وادي نهرجو في الشمال . وفوق هذا وذاك ، فإنه لمن الصعوبة بمكان تمييز قبيلة ، في أرض معينة ، عن قبيلة أخرى ؛ فقد يحتل عدد من الناس مكاناً معيناً ، وكل عدد منهم ينتمي إلى قبيلة غير القبيلة التي ينتسب إليها الآخرون . وهنا يحدثنا مصنف كتاب « حدود العالم » بأن قرية كبيرة ، أي مدينة[٩] ذات حجم متوسط ، كان يسكنها ثلاثة أنواع من القبائل التركية ، هم من اليغما ، والقارلوق ، والتُغُزْغُز[١٠] . وقد كان ذلك بسبب الاندماج والاختلاط الذي يقع بين قبيلة وغيرها ؛ فقد اندمجت قبائل اليَغْمَا ، وعددها حوالي ألف وسبعمائة فخذ وبطن ، إلى مجموعة التُغُزْغُز ، وأصبحوا حلفاً واحداً[١١] . كما انه من شبه المستحيل تحديد فترة حكم قبيلة ، لجزء معين من تلك البقاع ، عن الفترة السابقة أو اللاحقة لها . وهناك يقول صاحب كتاب « حدود العالم » مثلاً ، بأن مدينة كاشغر[١٢] كان يحكمها ملوك إما من اليغما ، أو من القارلوق .[١٣]

كان رئيس ، أو شيخ القراخانيين ، يحمل لقب ايلك[١٤] ؛ فقد انتشر الإسلام بين أمراء هذه القبيلة الكبيرة خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ؛ ويمكننا

والدولة الخوارزم شاهية (٤٧٠ ـ ٦٢٨هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٢٣١م) ؛ والدولة القراخانية ٣٢٤ ـ ٦٠٨ هـ / ٨٩٥ ـ ١٢١٢م ، هذا إذا اعتبرنا أن تاريخهم يبدأ سنة ٣٤٤هـ/ ٨٩٥م ، وذلك بوفاة رجل القبيلة ستوق ؛ وإلا فتاريخهم في هاتيك المنطقة ومنطقة ما وراء النهر تكتنفه سحابة من الغموض ، انظر أيضاً الحاشية رقم ٢١ ؛ ودولة المماليك في مصر (٦٤٨ ـ ٩٢١هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) ، والدولة العثمانية (٧٠٠ ـ ١٣٣٨هـ/ ١٣٠٠ ـ ١٩١٩م) .

(٧) لمعلومات عن قبيلة « اليغما ـ Yaghma » انظر « حدود العالم » ص ص ٩٥ ـ ٩٦ ، ٢٨٠ .

(٨) وردت معلومات تفصيلية عن : اليغما ، وتخسي ، وتشغل ـ Yaghma, Tukhsi and Chigil في المصنف السابق ذكره في الحاشية السالفة في الصفحات ٩٥ ـ ٩٩ ، و ٢٧٧ وبعدها في تعليقات المحقق والمترجم مينورسكي « Minorsky » .

(٩) المدينة المتوسطة الحجم هي : « خيرمكي ، أو خيركلي Khirm- ki, Khirakli » وتقع على الحدود مع التبت . انظر كتاب : حدود العالم ، ص ٩٦ . ولمعلومات إضافية عنها انظر حواشي وتعليقات المحقق ، ص ٢٨١ .

(١٠) « التغزغز » ، أو « التغزاغز » ، أو « الغز » مركبة من كلمتين تركيتين « توغز » وتعني تسعة و « اغز » وتعني قبائل . أي « القبائل التسع » . وهم قوم من القبائل التركية التي استوطنت المنطقة الواقعة بين منطقة كاشغر وخوطان . وقد كان أغلب ملوك الأتراك في سالف الأيام ، من هذه القبيلة المتعددة الفروع ، بطوناً وفخوذاً . وقصبة دولتهم مدينة تسمى « المدينية الصينية » « جينانجكت ـ Chinanjkath » وتقع الآن إلى الشرق من مدينة طرفان بحوالي ٤٥ كيلاً . انظر : حدود العالم ، ص ص ٩٤ ـ ٩٥ ، ٢٦٣ ـ ٢٧٧ ، لمعلومات عن هذه المدينة وقبائل التغزاغز .

(١١) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(١٢) مدينة كاشغر من أهم المدن التي عرفها التاريخ الإسلامي ، وهي تقع إلى أقصى الشرق من منابع نهر جيحون ، وإلى أقصى الغرب من نهر تاريم . وينتسب إلى العديد من علماء المسلمين حول هذه المدينة وبعض من علمائها ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ص ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ ، وهي التي وردت في مصنف « حدود العالم » تحت الأسماء التالية : « كاسغر ، أوردو ـ كاند ، خركاه » انظر فهرست الكتاب المذكور ، ص ٤٩٤ ، وبالذات ص ٩٦ ، ثم ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(١٣) انظر : حدود العالم ، ص ٩٦ .

(١٤) ايلك ILIG ، وتعني ملك ، وقد تطور حكام القراخانيين في هذه التسمية ، فأضحوا يلقبون انفسهم في بعض الأحيان بلقب « خاقان » ، وهذا اللقب يعني أعظم الملوك ، أو الملك الأعظم ، أو ملك الملوك ، كما سنرى فيما بعد ، انظر حاشية رقم ٥٢ .

الاستدلال على ذلك من رواية أوردها مصنف كتاب « الكامل في التاريخ » في هذا الخصوص ، حيث يقول بأن أول من أسلم من زعماء هذه القبيلة هو جد اسرة القراخانيين فيما وراء النهر ، ويسميه ابن الأثير سُتُقْ قَرَاخان(١٥) . كما ورد ذكر أول من أسلم من ملوك القراخانيين ، في بعض المصادر الأخرى ، على أنه جد بُغْرَاخان ، الفاتح الأول لمدينة بخارىٰ سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م(١٦) .

والذي يظهر لنا أن مصادرنا متفقة فيما بينها حول أول من أسلم من ملوك الخانيين ، فقد جاء جمال قرشي بصورة تختلف عن تلك التي رأيناها لدى ابن الأثير ، أي « ستوق » أو « ستق »(١٧) . أما عن دخول القبائل التركية في الإسلام ، فقد كانت تعتنقه بأعداد كبيرة جداً . فمثلاً يحدثنا ابن الأثير في هذا الخصوص ، بأن فوجاً من قبيلة التُّغْزُغْزْ دخلوا الإسلام ، وذلك في سنة واحدة هي سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م ، حيث أسلم منهم حوالي مائتي ألف أسرة .(١٨)

ومع ذلك فإن دخول أسرة القراخانيين في الإسلام ، كما رأينا ، يرجع قبل ذلك إلى الوراء بحوالي عقدين من الزمن ؛ فقد ذكرت المصادر التي أوردها بارتولد ، واستند عليها ، على أن سَتُوق بُغْرَاخان عبد الكريم ، وهو جد هذه الأسرة المسلمة ، كان قد اعتنق هذا الدين الحنيف قبل وفاته في عام ٣٤٤هـ / ٩٥٥م .(١٩) إذاً فقد أضحى دين أبناء هذا الرجل وأحفاده هو الإسلام منذئذٍ. وما يمكننا القول هو أن ستوق هذا ، كما يبدو لنا ، كان شيخاً متميزاً بين قومه، بدليل أن حفيده ، شهاب الدولة هارون بن سليمان (ولعله موسى) قد أمسى على رأس مملكة تحكم مناطق شاسعة الأرجاء ، متمركزة في المنطقة المحدودة بين بلاساغون في الشمال ، وكاشغر في الجنوب؛ فقد بدأت قوة القراخانيين تظهر في أول الأمر في المدينة الأولى وضواحيها ، ثم تدرجت ناحية الجنوب والجنوب الغربي ، إلى مناطق أوْزَكَنْد ، فالجنوب الشرقي منها إلى كاشغر(٢٠) .

---

(١٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩/ ٢ .

(١٦) V.V.Barthold, **Turkistan down to the Mongol Invasion** (London ,1977), p. 255، والذي نقل عن جمال قرشي وهو بدوره نقل عن «**تاريخ كاشغر**» (وقد ورد لهذا الكتاب ترجمة باللغة العربية) قام بها : صلاح الدين عثمان هاشم ، (الكويت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) .

(١٧) ولعل الباحث أو القارىء الفطن يعرف ذلك متى حذفت النقاط ، أو وضعت بشكل أو بآخر ، مثل : شبق ، شبوق ، سبوق ، ستوق ، ستق .. الخ .

(١٨) وردت عبارة ابن الاثير ، ج ٩/ ص ٢٥٨ ، ضمن إيراده لحوادث السنة المذكورة وهي سنة ٣٤٩هـ ، كما يلي « وفيها أسلم نحو مائتي ألف خركاه » . وخركاه تعني : سقيفة ، أو سرادق ، أو كوخ ، أو خيمة كبيرة . وهنا تعني «أسرة » ، وقد ذهب بارتولد في مصنفه المذكور في الحاشية ١٦، ص ٢٥٥ إلى القول بأن ما يقصده ابن الأثير بالأتراك هنا على انهم القراخانيين . ومن المعروف ان اغلب تلك القبائل التركية في الأصل كانت عبارة عن أقوام من البدو ، يعيشون عيشة التنقل والترحال ، وراء مواشيهم ، التي يعتمدون ، اعتماداً كلياً أو شبه كلي ، على منتوجاتها ، مثلهم في ذلك كأي مجتمع رعو . فيتبادلون بعضاً مما يزيد عن احتياجاتهم ، مع سكان المجتمع المستقر ، والمتمثل في أهل الزراعة من سكان المدن والقرى والأرياف . فإن كان المجتمع الأخير يمد البدو بالأسلحة والبضائع ، ذات الصبغة الصناعية ، التي يحذق صناعتها أهل المدن والقرى ، وما تنتجه حقولهم الزراعية ، من محاصيل غذائية ، كالفواكه والحبوب بمختلف أنواعها ، فإن البدو يتقايضون معهم بما لديهم من حيوانات ، كالجمال ، والخيول ، والبغال ، والحمير ، والأبقار ، والماعز ، والضأن . كما أن هناك أشياء أخرى، لدى البدو ، لها سوق رائج لدى المجتمع القروي ، كالجلود ، مدبوغة وغير مدبوغة ، والفراء ، وخاصة فروات الحيوانات التي يصيدونها ، مثل السنجاب ، والسمور ، والقندس ، إضافة إلى منتوجات الألبان ، التي تدرها حيواناتهم ، عماد اقتصادهم .

(١٩) تذكر الروايات التاريخية أن قبره في « ارتش » انظر كتاب : **حدود العالم** ، ص ٢٨١ ؛ وكذلك بارتولد ، **تركستان حتى الغزو المغولي** ، الوارد في الحاشية ١٦ ، ص ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، الترجمة العربية ، ص ٣٨٨ .

(٢٠) تقع مدينة اوزكند في أقصى نهاية اقليم فرغانة ؛ يقول عنها مصنِّف «**حدود العالم**» بأنها مدينة بين حدود فرغانة والترك ، ولها نهران يمران بضواحيها ، ص . ص ١١٦ ، ٢١١ . وقد ورد اسمها عند ياقوت في « **معجم البلدان** » ج ٥/ ص ٤٥٣ « يوزكند » .

(٢١) وإذا اعتبرنا بداية تاريخ أسرة القراخانيين ، فيما وراء النهر ، هو العام الذي انقرضت فيه دولة السامانيين نهائياً من هذا الاقليم ، فهذا يعني أن سنة ٣٩٥ هـ / ١١٠٥ م يمكن اعتبارها بداية التاريخ الرسمي لهذه الدولة ، وهي السنة التي قتل فيها آخر ملوك السامانيين ، اسماعيل بن نوح الثاني ، والذي لقب نفسه بالمنتصر . ومع ذلك فإن هذا التاريخ لا يمكننا اعتباره صحيحاً بالكلية ، لأن دولة القراخانيين قد بدأت فيما وراء نهر سيحون ، وقد مات شيخها وكبير قومها ، ستوق بن بغرخان عبد الكريم ، سنة ٣٤٤ هـ / ٨٩٥ م وخلفه ، على ما يظهر لنا ابنه موسى ، ناهيك عن كون دولتهم قد بدأ حكمها لما دون نهر سيحون منذ ٣٨٩ هـ /٩٩٩ م ، بعد أن احتلوا بخارى في آخر السنة المذكورة. وكانوا قد دخلوها قبل ذلك في فصل ربيع عام ٣٨٣ هـ / ٩٩٢ م ، وقبلها مدينة سمرقند . وقد بدأت دولتهم في الهيمنة على المنطقة الممتدة من بلاساغون إلى كاشغر قبل هذه السنة بما لا يقل عن عشر سنوات . انظر ابن الأثير ، ج ٧/ ١٦٠ . وقد استمر حكمهم بشكل مباشر لما =

بعد ذلك ، أخذ الخانات القراخانيون في التوسع غرباً ، على حساب أملاك الدولة السامانية . وبعد صراع مرير دام بين الطرفين حوالي خمس عشرة سنة ، حتى دخلوا في نهاية الأمر مدينة بخارىٰ في أواخر سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٤ م .[٢١]

دخل الحكام القراخانيون في نوع من التفاهم المتبادل مع جارهم المسلم القوي محمود بن سبكتكين الغزنوي . فقد توجت تلك العلاقة بزواج سياسي بين الاسرتين ، فتوطدت العلاقة الحسنة بينهما ، الأمر الذي جعل السلطان الغزنوي يطمئن على حدوده من الشرق والشمال الشرقي ، فتفرغ لفتوحاته المشهورة في شبه القارة الهندية ، بينما أضحت كافة أراضي ما وراء النهر تحكمها أسرة القراخانيين .[٢٢]

ظل القراخانيون يحكمون اقليم ما وراء النهر مستقلين دون الخضوع لأية سلطة خارجية ، حتى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٨٩م ، عندما جاء السلطان السلجوقي ، جلال الدولة ملكشاه ، فعبر نهر جيحون إليهم ، فاجتاح ذلك الاقليم ، حتى كاشغر ، ومنابع نهر سيحون ، وضم تلك الأصقاع جميعها إلى أملاك الدولة السلجوقية ، الا أنه فيما بعد أقر حكام القراخانيين ، وهم أصهاره ، على رأس حكم وإدارة شؤون ذلك الاقليم الواسع ، نيابة عن السلطنة السلجوقية ، وتحت مظلتها .[٢٣]

هكذا أصبحت الدولة القرخانية فيما وراء النهر تابعة للدولة السلجوقية ، أو تدور في فلكها ، في شكل مد وجزر ، حسب قوة السلاطين السلجوقية ، في فرض سلطانهم على خانات ما وراء النهر ، وغالباً ما يدخل السلطان السلجوقي الحاكم لاصلاح ذات البين فيما بين أفراد البيت الخاني ، لما كان يقع بينهم من تنافر وتباعد ، كما سنرى بعد قليل .

ظلت الدولة السلجوقية متماسكة ، قوية الجاه ، مهابة الجانب ، حتى وفاة سلطانها العظيم ملكشاه[٢٤] . بعد ذلك تفككت الدولة السلجوقية ، وبدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصالها ، نتيجة للحروب الأهلية بين أبناء وأحفاد هذا السلطان ، فضعفت بالتالي سيطرة الدولة على مختلف أقاليمها . ومع ذلك فلم يظهر ذلك الضعف ، وخاصة في الجهات الشرقية من الدولة ، إلّا بعد فترة تزيد على نصف قرن ، وذلك في أواخر سلطنة سنجر بن ملكشاه ، سيد الدولة ، وعميد البيت السلجوقي ، والذي وقعت « معركة قطوان » في أيامه . فكانت هذه المعركة بداية النهاية ، ليس بالنسبة له فحسب بل وكل ما يتعلق بحكم الدولة التي يمثلها سنجر في اقليم خراسان .[٢٥]

ظل السلطان سنجر يمارس نفوذه السياسي على أصهاره وأصهار أبيه من القراخانيين ، فتارة يذهب بنفسه إلى ذلك الاقليم ، ومرة يكتفي بإرسال من ينوب عنه ، لإعادة بسط نفوذه ، أو لتأكيده .[٢٦] فقد يكون ذهابه أو ذهاب من ينوب

وراء النهر حتى دالت دولتهم ، نهائياً ، على يد الخوارزميين عام ٦٠٧ ـ ٦٠٩ هـ /١٢١٢ م . وكانوا قد خضعوا لقوى خارجية لعدة فترات ؛ فتارة خضعوا للسلاجقة ومرة للقراخطائيين وكرة للخوارزميين . انظر الحاشية رقم ٦ .

(٢٢) هو أبو القاسم يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، من أكبر وأعظم سلاطين الإسلام ، الذين عرفهم تاريخ المشرق الإسلامي . وقد حكم الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٨٦م) قرابة ثلث قرن من الزمن (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ / ٩٩٨ ـ ١٠٣٠م) . وخير من كتب عنه أبو منصور محمد بن عبد الجبار العتبي في مصنفه « تاريخ اليميني » .

(٢٣) كان ألب أرسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) ، قد عبر نهر جيحون في سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م ، بجيوش جرارة ، ليفتح بها أراضي أصهاره القراخانيين ؛ ولكن وفاته في نفس ذلك العام أجلت مشروع السلاجقة هذا لأكثر من خمس عشرة سنة . وقد كان حاكمها من القراخانيين ، يدعى أحمد بن خضر ، ظالماً لشعبه ؛ لعوباً ، كثير الشر ، فاستغاث الاهلون ، وعلى رأسهم جل يدعى أبو طاهر بن عبد الملك الفقيه الشافعي ، بالسلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) ، الذي بادر إلى تنفيذ مشروع والده ، فانجزه بنجاح باهر . فقد دخل أراضي ما وراء النهر دون أن يجد مقاومة تذكر ، لرغبة السكان الشديدة في الانضمام تحت لواء ونفوذ السلاجقة . انظر ، البنداري « مختصر تاريخ آل سلجوق » ص ص ٥٧ ـ ٥٨ ، ابن الأثير « الكامل » ج ٨/ ص ص ١٤١ ـ ١٤٩ .

(٢٤) توفي السلطان ملكشاه في شهر شوال عام ٤٨٥هـ/ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٠٩٢م .

(٢٥) يعتبر السلطان سنجر آخر السلاطين السلاجقة العظام ، وقد حكم الجزء الشرقي من امبراطورية السلاجقة لأكثر من نصف قرن من الزمن (٤٩٤ ـ ٥٥٢هـ/ ١١٠١ ـ ١١٥٧م) . وكان يدور في فلكه ابناء اخوته في الأقاليم الغربية من دويلات السلاجقة ، وكذلك الخليفة في بغداد ، وما وراء النهر ، انظر الحاشية رقم ٢٧ . وقد كانت معركة قطوان ، موضوع هذا البحث ، بداية النهاية لعظمة وقوة هذا السلطان .

(٢٦) كان السلطان ألب أرسلان قد زوج ابنه وولي عهده من تركان خاتون ابنة طمغاج خان القراخاني ، ثم ان السلطان سنجر أيضاً تزوج من ابنة خان ما وراء النهر محمد بن سليمان خان . وهي التي أسرت على أيدي القراخطائيين في معركة قطوان . انظر الحاشية ٦٥ .

عنه إما بدعوة من أحد امرائه هناك ، عندما يتعرض هذا لخطر ، أو ان يذهب لإخماد تمرد ضده .(٢٧)

بعد عملية سنجر العسكرية الناجحة ، ضد محمد خان بن سليمان ، استطاع أن يعيد بسط نفوذه على أراضي ما وراء النهر ، فقد خلع هذا ، وولي ، بعد ذلك بمدة ، ابنه محمود بن محمد خان ، لكي يدير شؤون هاتيك البلاد نيابة عن سنجر ، حتى جاء القراخطائيون .(٢٨) وهنا لجأ حاكم ما وراء النهر ، كعادته ، بسيده السلجوقي ، فجاء هذا فتصادم الطرفان ، فكانت « معركة قطوان » الحاسمة .

القراخطائيون ومجيئهم إلى بلاد الإسلام

لقد سبق أن تكلمت ، باختصار شديد ، عن القراخطائيين في بحث سابق ، حيث ذكرت فيه بأن موطن هؤلاء القوم الأصلي كان يحتل الجزء الجنوبي من اقليم منشوريا «Lias- tung» الواقع إلى الشمال من شبه جزيرة « سولانجي Solangi »(٢٩) . وقد كان لهم صولة في دولة مترامية الأطراف ، إلى الجهات الشرقية من قارة آسيا، بما في ذلك منغوليا ، وشمال الصين ؛ إلاّ انه أطيح بهم ، في حوالي سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م على يد أسرة جديدة ، هي « أسرة چن Chin » ، فخلفتهم في حكم تلك الديار .(٣٠)

---

(٢٧) كان السلطان سنجر يضطر الى الذهاب بنفسه لتأكيد سلطته على اقليم ما وراء النهر ، من وقت إلى آخر ، كلما حاول نواب السلاجقة التمرد على سلطتهم من القراخانيين . فمثلاً في عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م ، خرج من خراسان لرد عادية قدرخان جبريل بن عمر ، الذي لم يتمرد على السلطة السلجوقية فحسب ، بل وطمع في أملاكها ، إلا أن سنجر حاربه ، وقتله ، وعين مكانه محمد بن سليمان . انظر ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، ج ٨/ ص ص ٢١٢ - ٢١٣ . وفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، أيضاً نجده يذهب لرد عادية صنيعته محمد بن ارسلان ، الذي تعدى على الرعية ، وتحدى سلطة السلاجقة . وفي عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٣م ، نجده يعبر نهر جيحون لنفس الغرض الذي ذهب إليه في عام ٥٠٧ هـ/ ١١١٣م . وما ذهابه في هذه السنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م ، وهي التي تمخضت عنها « معركة قطوان » إلاّ حلقة في سلسلة مجموعة من الأحداث المماثلة . حول هذا الموضوع ، انظر ابن النظام الحسيني ، **العراضة في الحكاية السلجوقية** ، ص ٩٦ ؛ ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، ج ٨ / ٣٣٠ - ٣٣١ ، ج ٩/ ص ص ٢ - ٣ ، الحسيني ، **أخبار الدولة السلجوقية** ، ص ٩٠ ، البنداري ، **مختصر تاريخ آل سلجوق** ، ص ص ٢٣٨ - ٢٤٢ .

(٢٨) بعد أن أزاح السلطان سنجر محمد خان عين مكانه شخصاً يدعى حسين تكمين؛ إلاّ أن الأخير هو الآخر توفي ، فاختار السلطانُ محمودَ بنَ محمد خان ، الذي استنجد بسنجر ضد القراخطائيين ، فوقعت في عهده « معركة قطوان » .

(٢٩) وردت كلمة «سولانجي Solangi» لدى: John of Planco Carpini في كتابه **History of the Mongols** Mongol Mission, Ed. C. Dawson., (London and New York, 1955) p.62. وهي ما تعرف في الوقت الحاضر بـ « كوريا » وتحتلها دولتان هما : كوريا الشمالية ، وكوريا الجنوبية .

(٣٠) كانت أسرة « ليو Liao » أو « خيطان Khitan » ، وهي التي يرجع إليها القراخطائيون من حيث الأصل ، قد حكمت الأراضي الواقعة إلى الشمال من النهر الأصفر ، وحتى جبال الطائي وبحر اليابان ، قرابة قرنين من الزمن (٢٩٥ - ٥١٩هـ/ ٩٠٧ - ١١٢٥م) . وقد عرفت هذه الأسرة في التاريخ بـ « أسرة ليو » . أما الأسرة الجديدة ، والتي أطاحت بها ، وحكمت تقريباً نفس أراضي الأسرة الأولى ، فقد كانت هي الأخرى من القبائل البدوية ، التي سكنت منشوريا ، ووادي نهر آمور ، وقضت على « أسرة ليو » . وقد استمر حكمها لفترة تزيد على قرن من الزمن (٥١٩ - ٦٣٢هـ/ ١١٢٥ - ١٢٣٤م) ، وقد عرفت في الأوساط التاريخية بـ « اسرة چنّ Chin » ، أي « الأسرة الذهبية - Golden Dynasty » ، كما عرفت أيضاً في مصادرنا الفارسية بـ « أسرة جورجه » ، وذلك نسبة ، كما يبدو لنا ، إلى أصلهم البدوي والقبلي . وقد أطيح بهذه الأسرة نهائياً ، على أيدي المغول ، في النصف الأول من القرن السابع هـ/ ١٣ للميلاد ؛ حيث بدأت حروب جنكيزخان لهم في السنوات الأخيرة من العقد الأول من نفس القرن ، ثم استأنفها من بعده ابنه وخليفته ، أكتاي قا آن (٦٢٧ - ٦٣٩هـ/ ١٢٢٩ - ١٢٤١م) حتى أطاح بهم في السنة المذكورة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) . لمعلومات عن هذه المواضيع انظر : الجويني ، علاء الدين عطا ملك **جهانكشاي** ، تحقيق الأستاذ المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزويني ، (طبعة ليدن ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٥٥هـ/ ١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣١ م) ، ج ١/ص ص ١٥٠ - ١٥٤ . وقد ترجم إلى اللغة الانجليزية بعنوان : **«The History of the World Conquests,** (Manchester: Manchester, University Press, 1958) By Prof. J.A. Boyle . وكذلك ، رشيد الدين ، فضل الله الوزير بن عماد الدولة ، **جامع التواريخ الجزء الأول ، من بداية قبائل المغول حتى نهاية حكم تيمور قا آن** تحقيق الدكتور بهمن كريمي ، (طهران ، ١٣٣٨ هـ) ش . ج ١/ ص ص ٢٣٤ وبعدها ؛ وقد ترجم جزء من هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية بعنوان : **The Successors of Genghis Khan** (New York, 1471), by: Prof. J.A. Boyle; K. A. Wittfogel, and Feng Chia - Sheng, **History of Chinese Society: LIAO 907- 1152**, Translated from chinese sources philadelphia, 1949: V. V. Bartold, **«Four Studies on the History of Central Asia»** (Leyden, 1962), Vol.I. pp 78-80: P. Brest. **The Mongol Empire, Genghis Khan: His Triumph and His Legacy,** (London, 1976), 51 - 60, 83 - 84: I. de Rachewiltz. **Pupal Envoys the Great Khans** (London, 1971), p.32: Dupuy, **The Military life of Genghis Khan of Khans,** (New York, 1969) 45-55: Fox, **Genghis Khan,** (London, 1936) ,p133-152; Douglas, **The life of Jenghis Khan,** (London. 1877), pp. 59-75: Phillips, **The Mongols,** (London, 1969) ,pp. 53-57, 69-71: J.J. Saunders, **The History of the Mongol Conquests,** (London, 1972), pp - 54-55, 74-76, Walker, **Jenghiz Khan,** (London, 1939), pp. 44- 70.

ولعل المرجع الأخير من أكثر المراجع تفصيلاً .

بعد أن أسقطت « أسرة ليو » ، لاذ أحد أمرائها بالهرب ، ونجا بجلده .(٣١) ولقد ولى بوجهه شطر الغرب ، مخترقاً الصحاري والجبال ؛ وكان يصحبه ، في رحلته تلك ، مجموعة من الأصحاب والأتباع ، اختلف في عددهم .(٣٢) إلَّا أن المصادر ، التي بين أيدينا ، تذكر بأن أولئك القراخطائيين جاءوا إلى منطقة أواسط آسيا في مجموعتين ، خلال سنوات العقد الثالث من القرن السادس الهجري / ١٣ الميلادي . كانت المجموعة الأولى قد اتجهت إلى النواحي الجنوبية الشرقية من مملكة القراخانيين فيما وراء النهر ، يريدون غزوها ، إلَّا أن ملكها استطاع أن يدحضهم ، ويشتت جموعهم ؛ وفوق ذلك يأسر قائدهم ، قبل أن يصلوا إلى كاشغر ، وذلك في سنة ٥٢٢ هـ/ ١٢٢٨ م .(٣٣)

أما المجموعة الثانية فهي التي جاءت ، وعلى رأسها ذلك الأمير القراخطائي الهارب ؛ إلَّا أنه لم يسلك ، بأصحابه وذويه ، الطريق الذي سبق واخذته المجموعة الأولى ، بل أخذ طريقه إلى الشمال الغربي ، عبر جبال الطامي ، باتجاه مملكة الفرع الآخر من أسرة القرخانيين في بلاساغون . ورغم ذلك فإن المصادر الصينية لا تشير إلا إلى مجموعة واحدة ، وهي الأخيرة ، والتي طرقناها في بحث سابق لنا .(٣٤)

ما ان شارفت سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م على النهاية ، حتى اضحى كورخان هذا على رأس دولة قوية ، ذات حدود مترامية الأطراف ، متخذاً من هاتيك المناطق الخصبة والمنبسطة ، والتي يحتل وادي نهر « جو » الوسط منها ، مركزاً لتلك الدولة الشابة الفتية(٣٥) . لذلك نجد أن دولة كورخان لا بد لها أن تتوسع ، حول مركزها بلاساغون ، إلى الشمال وإلى الجنوب ، ثم إلى الشرق وإلى الغرب من ذلك المركز .

---

(٣١) تسمية المصادر الصينية « يه ـ لو ـ ت ـ شه Yeh- lu Ta- Shih » وقد توفي في عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م وقيل بعد ذلك بحوالي أربع سنوات ؛ ولكن هذا التاريخ هو الأقرب إلى الصواب ، أما المصادر الإسلامية فتسميه بـ « كورخان » وهو الذي نجا هارباً ، ومعه عدد من أفراد أسرته ، ولجأ إلى الغرب . عن معنى اسمه انظر الجويني ، **جهانكشاي** ، الترجمة الانجليزية ، ج ١/ ص ٣٥٥ ، حاشية ٤ ، كذلك سعد حذيفة الغامدي ، **سقوط الدولة العباسية** ، ١٤٠١هـ ، ص ٨٩ .

(٣٢) تذكر المصادر الصينية ، الوثيقة الصلة بهذا الأمير المهاجر ليلاً إلى الغرب خوفاً على حياته من الظروف الجديدة ، تذكر بأنه خرج من الصين ومعه مائتا فارس مدججين بالسلاح ، انظر Bretschneider, **Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources** (London, 1467), Vol.I, p.212 حيث قام هذا الباحث « بريتسكنيدر » « بحوث » بترجمة جديدة وكاملة لبحث سابق عن القراخطائيين في الغرب ، وردت تفاصيله في تاريخ « أسرة ليو » بعنوان «On the Si Liao in the Liao History» أما الجويني فقد ذكر عددهم بأنه كان ثمانين شخصاً ، من أهل بيته وقومه ؛ ومع ذلك فقد ذكر هذا المؤرخ ، بانه قد ذُكِرَ في رواية ثانية ، بأن ذلك الأمير كان يصحبه عدد كبير يفوق هذا العدد ، حيث يقول بانهم عندما وصلوا حوض نهر « إميل » كان عددهم يبلغ أربعين ألف بيت « جهل هزار خانه » . ويعلل السبب في ذلك وهو تكاثر اتباع ذلك الأمير حيث إن أعداداً كبيرة من القبائل التركية قد جاءت ، فانطوت تحت سلطانه ، « **جهانكشاي** » ج ٢ / ص ص ٨٦ ـ ٨٧ ، الترجمة الإنجليزية ج ١/ ص ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ . وقد أورد «بويل» نقلاً عن «Wittfogel and Feng, Liao» وكذلك ما ذكرته المصادر الصينية المذكورة في الحاشية السابقة عند « بريتسكنيدر » « بحوث » بأن عددهم عندما خرجوا من الصين كان حوالي مائتين من الأهل والآل والاتباع ، وان هذا العدد قريب من العدد الأول الذي أورده الجويني ، « ثمانون نفر من أهله وقومه » وهذا باستثناء الاتباع . فإذا كان لدى كل شخص منهم واحد أو اثنان ، فإن المجموع يكاد يقترب من نفس العدد الذي ورده «Wittfogel and Feng» وهو مائتان .

(٣٣) كان يحكم هذا الجزء من أراضي ما وراء النهر الحاكم القراخاني محمد بن سليمان بن داود ، المعروف بـ : ارسلان خان (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠٢ ـ ١١٣٠م) لمعلومات عن ذلك ، انظر : ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، ج ٨ / ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، ج ٩/ ص ص ٢ ـ ٣ ، الحسيني ، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص ٩٠ ؛ بارتولد، **تركستان حتى الغزو المغولي**، الوارد في الحاشية رقم ١٦ ، ص ص ٣١٩ ـ ٣٢١ ، كذلك «بويل » في ترجمته لكتاب « جهانكشاي » ، ج ١/ ص ٢٧٩ حاشية ١٢ ، انظر كذلك : **«The Cambridge History of Iran»** (Cambridge University of Press 1969), Vol V, p. 148 .

(٣٤) لمعلومات أوفى من هذه عن تحركات « يه ـ لو ـ تاشي » انظر كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص ص ٨٧ ـ ٩٠ ، ثم ما ورد في حواشي هاتيك الصفحات من مصادر المادة ، وخاصة بريتسكنيدر «بحوث» ، ج ١ / ص ص ٢١٢ ـ ٢١٤ .

(٣٥) في هذا العام المذكور ، كانت دولة القراخطائيين تمتد من حوض « نهر قرا ـ إرتش » وأراضي القرغيز والنيمانيين في الشرق والشمال الشرقي إلى مياه « نهر سيحون » غرباً ، ومن السهوب الواقعة إلى الشرق من « بحر آرال » ، حيث توجد ممتلكات قبائل « قنقلي » في الشمال والشمال الغربي ، إلى منابع « نهري سيحون وتاريم » جنوباً . بذلك جهد المقل في تتبع حركة الأمير الصيني ، وذلك بقراءة مصادري الموجودة بين يدي ، حتى توصلت إلى هذا التحديد التقريبي ، والذي آمل أن يكون قريباً من الصحة .

أسباب معركة قطوان

يكاد يجمع المؤرخون الأقدمون والمحدثون ، الذين تطرقوا لذكر هذه الحادثة ، بأن السبب الكامن وراء هذه الموقعة الشهيرة ، هو استدعاء قبيلة القارلوق للقراخطائيين ضد أسيادهم الخانيين .(*) حول هذه القبيلة البدوية ، التي كانت تحترف ، كغيرها من القبائل البدوية التركية الأخرى ، مهنة الرعي لمواشيها ، بشكل رئيس ، حيث تكون عماد اقتصادها ، بل المصدر الوحيد لمعيشتها ، يحدثنا المؤرخون أنها كانت في الأصل هي صاحبة السيادة في هاتيك الربوع ، إلى أن جاء القراخانيون يتزعمون مجموعة من القبائل المنافسة ، وعلى رأسها « قبيلة التغزغز » ضد القارلوق . وهناك قوضوا حكمها ، واحتلوا مكانتها ، وبذلك ضمت الأراضي المحيطة بواديي نهري سيحون وجيحون ، فكونوا ما عرفناه قبلاً « دولة القراخانيين » . إلّا أن المستشرق الروسي بارتولد يناقض هذه الرواية ، مستنداً على أن بقاء القارلوق بين ظهراني الحكومة الجديدة ، بل والمميزات التي تمتعوا بها في ظل هذه الدولة ، ينافي ذلك ، وانه لزعم واهٍ « القول بأن التغزغز قضوا على قوة القارلوق .(٣٦) ومع ذلك ، فإن الذي يظهر لنا هو ان القراخانيين استبقوا تحت نفوذهم بعضاً ، وليس كل القارلوق ، فأصبحوا هم في ذات الوقت في عين المكانة التي كانت قبائل التغزغز ، أو بعض منهم ، تحتلها ، في ظل القارلوق، مع أن هؤلاء تمتعوا بمميزات في ظل القراخانيين .

ولعل السبب ، لتلك المميزات ، هو أن القارلوق كانوا يمدون أسيادهم باحتياجاتهم من الرجال البدو الرعاة ، فانخرطوا في السلك العسكري لهذه الدولة ؛ هذا بالإضافة إلى ناحية أخرى لا تقل أهمية عن امدادهم بالرجال ، وهي تأمين ما يحتاجونه من الخيل ، عماد النظام العسكري السائد في تلك الأراضي ، ثم لا ننسى الرقيق ، نساءً ورجالاً ، ناهيك عن مسألة مد يد العون لهم ، وذلك بالاشتراك معهم في حروبهم ضد أعدائهم ، متى ما احسوا أن أراضيهم أصبحت تتعرض لخطر غزو من قوى خارجية ، كالغزنويين ، والسامانيين ، ثم السلاجقة والخوارزميين فيما بعد . وفي مقابل هذه الخدمات نجد القراخطائيين قد تركوا القارلوق يسرحون ويمرحون في شتى بقاع مملكتهم عامة ، وفي أراضي ما وراء النهر خاصة ، وهم يرعون دوابهم ، التي أصبحت من الكثرة ما جعلها تكاد تخرج عن الحصر ، دون مضايقة من الحكومة ، أو من ينوب عنها . وبذلك أضحى أولئك البدو من رعايا الدولة القائمة ، سواء في ظل الفرع الشرقي ، في بلاساغون ، أم الغربي ، في سمرقند وبخارى .

ظلت هذه العلاقة الحسنة بين الطرفين سائدة ، حتى أواخر العقد الثالث من القرن السادس الهجري / ١٢ للميلاد ، وهي الفترة التي ظهر فيها القراخطائيون على مسرح أحداث تاريخ أواسط آسيا . وهنا وجد فرع الخانيين فيما وراء نهر سيحون ، إلى الشرق منه ، بأنهم أمسوا ضعفاء ، ولا يستطيعون الحد من اعتداءات تلك القبائل التركية ، وانتهاكاتها لمزارع الأهلين ، وممتلكاتهم ، الأمر الذي اضطر معه حاكمهم في بلاساغون الاستعانة بالغزاة الجدد ، القراخطائيين . فكانت النتيجة أن أطيح بهم ؛ فاحتل هؤلاء أراضي ذلك الفرع ، وتوسعوا في ممتلكاتهم ، إلى أن وصلوا ماء نهر سيحون .(٣٧) لذلك فإنه لم يكن قد بقي في أيدي القراخانيين إلّا ما دون نهر سيحون ، أي أراضي ما بين النهرين ، سيحون وجيحون ، مع أجزاء بسيطة من الأراضي المحيطة بمنطقة كاشغر ، وهي تلك التي كانت تحت حكم الفرع الغربي من الخانيين ، يحكمونها نيابة عن السلطة السلجوقية في مرو .

أما القارلوق ، الذين كانوا يقطنون داخل أراضي ما بين النهرين ، فإنه لم يظهر منهم ضد حكومتهم ما سبق وكان يفعله وعمله الفرع الشرقي منهم ضد حكومة الخانيين في بلاساغون ، بل على العكس من ذلك ، فإننا نجد الروايات

(*) راجع مصادر ومراجع البحث للاطلاع على ما ذهب إليه مؤرخونا المحدثون والمعاصرون الأقدمون .

(٣٦) بارتولد ، تركستان ، ص ٢٥٤ ، الترجمة العربية ، ص ٣٨٨ .

(٣٧) يبدو لنا أن الحاكم الأعلى لمملكة القراخانيين وقت ظهور القراخطائيين كان أرسلان خان محمد بن سليمان (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠٢ ـ ١١٣٣م) .

التاريخية التي بين أيدينا تكاد تجمع على أنهم كانوا يخطبون ود حكومتهم ، ويقدمون لها فروض الطاعة ، والولاء . ورغم ذلك قلبت لهم ظهر المجن ، كما سنرى هذا في نصوص سنوردها للاستشهاد بها من مصادر مادتنا ، رغم أن هاتيك المصادر ذاتها تظهر القارلوق بمظهر المتعاون مع الأعداء الوثنيين ، وتتهمهم بأنهم البادون بالشر ضد حكومتهم المسلمة .

تذكر مصادرنا بأن حيوانات القارلوق ، أخذت تنتشر في نواحي سمرقند بأعداد كثيرة جداً ، فأضحت تعتدي على الأهليين، فترعى مزارعهم ، وتتلف محصولاتهم الزراعية . وهنا يقول البنداري ، في مختصره لمصنف العماد الأصفهاني ، في هذا الشأن تحت عنوان (ذكر السبب في ذلك وانكسار سنجر في حربه مع الخطائية) بأنه « كانت خيول قرلق في نواحي سمرقند ، وقد وفرت أموالهم وانتشرت مواشيهم ، وانتشئت غواشيهم وحواشيهم . وخيفت مضرتهم ، وخشيت معرنتهم . فأشار الأمراء على السلطان سنجر بأن يتوجه لدفعهم ، ويتنبه لردعهم » .(٣٨) وهنا يضيف المصنف رواية، يستدل منها بوضوح تام وجلي ، بأن المسؤولية الأولى تقع على مستشاري سنجر وكبار امرائه ، في تحريض السلطان على البغي والعدوان ضد القارلوق، الذين حاولوا ، وبكل وسيلة مقبولة ومقنعة ، مراضاة السلطة القائمة ، وعلى رأسها سنجر ، والرضوخ لكل مطالبها ، بل ودفع أموال عينية جزيلة القدر ، تتمثل في ما يملكه القوم ويستطيعون بذله للسلطة القائمة . وفي هذا الخصوص يقول المصنف : « . . . ، والقوم مستمرون على الصلاح لو خلوا ، مستقرون على الفلاح على ما إليه دلوا . فمضوا إليهم وضايقوهم في مراعيهم ، وقايضوهم عن محاسنهم بمساويهم ، واسرفوا في سرقة نسائهم وذراريهم . فانفذوا إلى السلطان سنجر ، وبذلوا له الخدمة بخمسة آلاف جمل ، وخمسة آلاف فرس ، وخمسين ألف رأس غنم ، ليتمسكوا منه بأقوى ذمم وأوفى عصم ، وليأمنوا على أهاليهم ونسائهم وذراريهم » .(٣٩) لذلك نجد أن مسألة التعدي على ممتلكات القارلوق واضحة ، فالذي يبدو لنا أن السلطة ، ممثلة في الأمراء وكبار رجالات الدولة ، قد شرهت نفوسهم في ممتلكات تلك القبائل الرعوية ، وخاصة الحيوانات منها . لذلك نجد أن القارلوق يتحملون ذلك ويصبرون ؛ ويحاولون مراضاة الحكومة ؛ إلا أن الوضع لم يقف بالأخيرة عند مسألة المضايقة والتعدي عليهم في مناطق تجوالهم ورعيهم ، بل يتمادى الأمراء في غيهم ، فيسرقون أطفال القارلوق ونساءهم .(٤٠)

عندما وجد القارلوق أن الأمر تعدى ما يطيقون تحمله ، ساروا إلى رأس السلطة ، سنجر ، في محاولة أخيرة علّه يتدخل شخصياً ليصلح الوضع ، ولكن السلطان لم يفعل ، بل لم يعطهم أذناً صاغية . لذلك لم يجد القوم من سبيل سوى طريق الرحيل ، والهرب ، ينشدون الأمن والسلام والطمأنينة لهم ولأسرهم وأموالهم ، وقد وجدوا كل ما ينشدونه مهيئاً لهم لدى حكام وثنيين في داخل حكومة القراخطائيين الوثنة في بلاساغون ، كورخان ، الذي رحب بهم ، وأمّنهم على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم . « فلما لم يقبل (السلطان سنجر) خدمتهم ، ولم تحصل عصمتهم ، حملتهم الحمية على الاحتماء بالتحمل ، وآل بكبارهم الترحم والحنو على صغارهم على الترحل .

---

(٣٨) البنداري ، مختصر تاريخ آل سلجوق ، ص ٢٥٢ .

(٣٩) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤٠) من المعروف ان تجارة الرقيق ، وخاصة الأطفال ، ذكوراً وإناثاً ، والنساء صغيرات السن ، سياسة تجارية ناجحة في ذلك الوقت ؛ وذلك لكثرة الطلب عليهم ، ومن هذا الجنس بالذات . لذلك ، فقد كانت سرقة الأطفال والنساء من الأتراك ، ومن ثم بيعهم في أسواق النخاسة شيء كان موجوداً . فإذا قام بعض نواب سنجر وحكومة سمرقند بسرقة هؤلاء من « القارلوق » ، فقد كان القراخانيون الحكام يقومون بحرب شعواء ضد القبائل التركية البدوية ، فيتوغلون في أراضيهم ، مع الأسف ، لا لنشر الإسلام وتعميم روحه ومبادئه السامية بين أهالي هاتيك الربوع الوثنية ، ولكن ليقبضوا على أكبر عدد ممكن من أطفالهم ونسائهم ، ثم بعد ذلك يبيعونهم إلى الغرب الإسلامي . وحول هذه المسألة ، يذكر البنداري مختصر تاريخ آل سلجوق ، ص ٢٤٢ ، بأن أحمد خان (وهو على ما يبدو يعني محمد خان أرسلان) : « بأنه هو الذي كان له إثنا عشر ألف مملوك تركي ، وكان لا يترك غزو الترك ، يتوغل في بلادهم مسيرة شهرين ، وينتهي ظافر اليد قرير العين . انظر كذلك ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، ج ٩ / ٣ ؛ الحسيني ، **أخبار الدولة السلجوقية** ، ص ٩٢ . وهذا دليل واضح على ما كان يقوم به خانات ما وراء النهر ، وربما بأنهم كانوا لا يريدون إسلامهم ليظلوا على نفس النظام ، لتدفع الجزية اليهم عينية ، ممثلة في البشر .

ودخلوا إلى بلاد الترك قاصدين حضرة أوزخان صاحب خطاوختن ونغما» .(٤١)

على الرغم من أن القارلوق قد أضحوا تحت حكم كورخان وحمايته ، فالذي يظهر لنا أنهم وجدوا وضعهم كمسلمين تحت حكم تلك الدولة الوثنية لا يليق بهم ، مع أنهم وجدوا كل ما يتمناه المرء ، من أمن وسلام وحماية لأهلٍ ولأموالٍ من هذه الحكومة الوثنية . لذلك لم يكونوا قد فقدوا كل أمل في العودة إلى ما كانوا عليه سابقاً ، والبذل من أنفسهم لمراضاة سنجر . وهنا أدخلوا كورخان في هذه المسألة ، واستشفعوا به لدى السلطان السلجوقي ، فقام الأول وخاطب سلطان الإسلام بشأنهم ، واستشفع ، عنده فيهم ، فلم يشفعه فيهم . إذ أن السلطان أجاب كورخان برسالة غاية في التكبر والغطرسة ، اجابة بعيدة كل البعد عن السياسة والحكمة والتريث . فلم يكتف سنجر فقط برفض الشفاعة في مواطنيه المسلمين الذين انتهكت حرماتهم في وطنهم المسلم وعلى أيدي حكومتهم المسلمة ، تلك الشفاعة لهم التي تقدمت بها لهم حكومة وثنية ، ولا أن يرد رداً جميلاً ، ولو تحسباً لشيء قد لا تحمد عقباه ، بل نجده يزبد ويرعد ، ويتوعد كورخان بالدمار ؛ بل أنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فيأمر كورخان بأن يدخل في الإسلام بالقوة ، وأن لم يفعل فسوف يفرضه عليه بقوة واقتدار وإلاّ فالدمار الشامل له ولشعبه . وحول هذه النقطة بالذات يقول ابن الأثير : « . . . ، فكتب إليه كورخان كتاباً يتضمن الشفاعة في الأتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويهدده ان لم يجب إليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ في قتالهم بأنواع السلاح حتى قال انهم يشقون الشعر بسهامهم . . . » .(٤٢)

ومما يدل على صلف السلطان سنجر وكبريائه ، في تخاطبه مع كورخان ، أن وزيره لم يكن يرى ما رآه هو وامراؤه العسكريون ، فأعرب عن معارضته الشديدة لرسالة السلطان ، ولم يرض عنها(٤٣) . ومع ذلك لم يصغ إليه سنجر ، أو يكترث امراؤه بمقالة الوزير ولا برأيه .(٤٤)

وجد كورخان ، حسب الظاهر للعيان أن وسائل السلام قد سدت ، وأن السلطان سنجر لا محالة قادم إليه لينفذ ما توعده به في رسالته ، وعلى لسان سفيره ، الذي يبدو لنا انه هو الآخر قد أساء التصرف في أثناء وجوده في بلاط كورخان ، فقد وجدنا هذا الأخير يرد الإهانة فيأمر بنتف لحيته ، وإعطائه إبرة ، واجبروه بأن يشق شعرة من لحيته ، فلم يستطع ذلك على كل حال . وهنا قال له كورخان : « . . . ، كيف يشق غيرك شعرة بسهم وأنت عاجز عن شقها بابرة . . » .(٤٥)

ولا أشك في أن سنجر قد جانب طريق الحكمة ، ووسيلة الصواب ، في تعامله مع ذلك الحاكم الوثني القوي ، وخاصة عندما أراد أن يفرض الإسلام بالقوة عليه ، وهو ما هو فيه من المنعة والجاه ، وصاحب مملكة مترامية الأطراف محكمة البناء ، ويرأسها شخص مثل « يه - لوتاشي » . فروح الإسلام لا تقر مبدأ السلطان سنجر ، بل وتتنافى مع ما ذهب إليه تماماً ، فلم يسلك الرسول الكريم ، ﷺ ، هذا المسلك لا مع قريش ، ولا مع غيرهم ، وإن لنا في الرسول أسوة حسنة ، وفي قرآننا الكريم ما ينير لنا طريق الهدى والصواب ، قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ .(٤٦)ولأمرٍ ما خالفه الوزير الكبير، وحفيد ذلك الوزير الجليل القدر نظام الملك الطوسي .(٤٧)

---

(٤١) البنداري ، مختصر . . ، ص ٢٥٣ .

(٤٢) ابن الأثير ، الكامل . . ، ج ٩/ ص ص ٣ - ٤ .

(٤٣) كان وزيره آنذاك هو حفيد نظام الملك الطوسي ، الوزير المشهور في عهد السلطانين ألب أرسلان وملكشاه ، وهو : ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك . وقد عينه السلطان سنجر في جمادى الأولى سنة ٥٢٨هـ / آذار (مارس) ١١٣٤م ؛ وظل في هذا المنصب حتى وفاة سنجر . انظر . البنداري ، مختصر ، ص ٢٤٧ . أما عن نظام الملك ، فانظر الحاشية ٤٧ .

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل . . ، ج ٩ / ص ٤ .

(٤٥) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .

(٤٧) هو : أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق نظام الملك قوام الدين الطوسي الوزير السلجوقي ، (٤٠٨ - ٤٨٥هـ/ ١٠١٨ - ١٠٩٢م) لمعلومات عنه مثلاً : انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨/ ص ص ١٦١ - =

استعد كورخان للأمر غاية التأهب والاستعداد . وهنا لا أشك فيما ذهب إليه العماد الاصفهاني ، من أن القارلوق قد اطلعوا سيدهم الوثني الجديد ، على حقيقة أوضاع دولة السلاجقة الداخلية ، التي أخذت في الانحدار والتردي ، وفساد الإدارة على أيدي نوابهم ، القراخانيين فيما وراء النهر . لذلك فإن مسألة تحريض القارلوق للقراخطائيين أمر طبيعي ، على الأقل انطلاقاً من مبدأ الدفاع عن النفس ، فقد أطمعه القوم في امتلاك ما لديهم من أراضي ، غرب سيحون ، على الرغم من وجود حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى دليل وهي أن شخصاً في قوة وطموحات كورخان لا يحتاج إلى تحريض . « ان الممالك بخراسان وما وراء النهر مشمِّرة ، وان السعادة من سلاطينها متنمرة . وان سنجر قد تخالف عسكره ، وكسف معروفه منكره » .(٤٨)

هذه هي الأسباب لدى مؤرخينا التي دعت « لمعركة قطوان » في نظرهم ، ومع ذلك فإنني لا أجدها الأسباب الحقيقية والدوافع الكامنة ورائها ، وما نتج عنها من ضياع لأراضي المسلمين هناك ، رغم أنها قد تكون عجلت في حصول أمر كان لا بد له أن يقع لا محالة . فلو رجعنا إلى الوراء لأكثر من عشر سنوات ، لوجدنا دافع معركة حاسمة ، قدر الله أن تكون في « قطوان » ، قد بدأت منذ ظهر القراخطائيون على مسرح أحداث تاريخ وسط آسيا ، في أوائل العقد الثالث من القرن السادس للهجرة / ١٢ للميلاد . وقد سبق أن ذكرنا بأن أرسلان خان قد نجح في صد عادية قوم من أولئك الغزاة ، على مسافة ليست بعيدة عن مدينة كاشغر ، الأمر الذي جعل هؤلاء القوم ينضمون إلى بني قومهم ، برئاسة « يه - لو - تاشي » الذي أضحى على رأس دولة متماسكة قوية ، ومحكمة التنظيم ، تقوم سياستها على العدل بين كافة مواطنيها ، رغم الاختلافات المتباينة في النحل التي ينتمي إليها أفراد ذلك المجتمع ، تزيد على أربع ديانات مختلفة .(٤٩)

لذلك ، فإن دولة بهذه القوة يحكمها ملك مثل ذلك الرجل الحكيم ، لا محالة لن تقف طموحاته عند مياه نهر سيحون ، وهي ما تزال تعيش فترة شبابها القوي ، المليء بالحيوية ، والمنعم بالنشاط ، بينما يقع إلى الغرب منها أراضي ممرعة خصبة التربة ووافرة المراعي ، وبها ما بها من مدن ذات حضارة ورقي ، وتقدم علمي ، مثل بخارى وسمرقند ، ناهيك عن أقاليم أخرى في الشمال الغربي ، مثل اقليم خوارزم ، والغرب والجنوب الغربي ، كمناطق كاشغر ، وما وراء نهر جيحون إلى الغرب منه . كان كورخان قدسار ضد حكومة الخانيين في الشرق ، وأطاح بهم ، واحتل أرضهم واتخذ من قصبة ملكهم فيها عاصمة ومقراً لدولته ، وذلك في النصف الثاني من العقد الثالث من القرن السادس الهجري / ١٢ للميلاد . ثم بعد ان استتب لها الأمن وعم النظام شؤونها الداخلية ، اتجه قائدها إلى توسيع رقعتها ، فقام بمهاجمة القبائل البدوية في الشمال والشمال الغربي ، وعلى رأسها قبيلة قنقلي ، في السهوب الممتدة إلى الشرق من بحر آرال .(٥٠) كما قامت حكومة كورخان بحملة تأديبية لقبائل القرقير(*) في سهوبها الواسعة إلى الشمال والشمال الشرقي من ممتلكات دولة القراخطائيين .

وبناء على ذلك ، فإننا نجد بأنه لم يبق على حكومة بلاساغون سوى الاتجاه إلى الغرب والجنوب الغربي من أراضيها ، بعد عملياتها العسكرية الناجحة تلك . لذلك أصبح كورخان مهيئاً لأن يقوم بتوجيه جيشه إلى جهات أخرى ، وهذه الجهات لم تكن إلّا أملاك الدولة السلجوقية ، وممثليها في السلطة من نوابهم القراخانيين .

= ١٦٣ ، ابن خلكان ، شمس الدين ، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان ، (بيروت : دار صادر ، ١٩٦٨م) ، ج ٢ / ص ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٤٨) البنداري ، مختصر ، ص ٢٥٣ .

(٤٩) كانت الديانات السائدة في ممتلكات الدولة القراخطائية : الإسلام ، المسيحية (على المذهب النسطوري) ، والبوذية وغيرها .

(٥٠) قبائل « قنقلي » التركية تقع أراضيها شمال اقليم خوارزم وبحر آرال ، وإلى الشرق أيضاً من هذا البحر . لمعلومات عنها ، انظر : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ١/ ص ٣٣ . وقد كان لهذه القبيلة الهيمنة برجالها ، الذين انخرطوا في السلك العسكري للدولة الخوارزمية ، على هذه الدولة ، ومنهم تركان خاتون ، زوجة السلطان تكش وام ابنه محمد ، الذي ظهر المغول وقضوا على دولته في عهده ، انظر كتاب : النسوي ، شهاب الدين محمد بن أحمد المنشي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ حمدي (القاهرة ، ١٩٥٣م) ، وبخاصة ص ص ٩٩ - ١٠٠ .

(*) وتكتب أحياناً (القرغيز) .

اتجه كورخان ، يسير على رأس جيش له ، فيعبر به مياه نهر سيحون إلى الغرب ، وربما كانت هذه أول مرة له . وفي ضواحي مدينة خُجَنْد[٥١] ، في رمضان سنة ٣١ هـ / يونية ١١٣٧ م خاض معركة كبيرة ضد حاكم ما وراء النهر ، محمود بن محمد ، وحاز نصراً ساحقاً عليه ، ذلك النصر الذي أصعق منه جميع سكان ما وراء النهر . وهنا يصف لنا ابن الأثير ما أصيب به الناس في هاتيك البقاع من الخوف ، والرعب ، فيقول : « . . . ، واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد إلى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحاً ومساء وكذلك أهل بخارى وغيرهما من بلاد ما وراء النهر . . » .[٥٢]

لذلك ، فإن النتيجة الحتمية التي تفرض نفسها ، هي أنه لا بد أن تقوم حكومة مرو ، ممثلة في شخصية سلطان الإسلام بها سنجر ، بعمل ما ، ومحاولة صد ذلك الخطر الداهم ، على الأقل استجابة لدعوة الاستنجاد التي أرسلها إليه نائبه فيها . « . . . ، وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمده وينعي إليه ما لقي المسلمون ويحثه على نصرتهم . . »[٥٣] لهذا ، فإن الذي يظهر لنا أن مسألة القارلوق جاءت بعد معركة خُجَنْد ، فقامت كل من حكومة سمرقند ومرو بأعمال ضدهم ، الأمر الذي جعل وضع القارلوق يقفون في مكان ضد تينك السلطتين ، على الرغم من ان تلك الحكومتين كانتا في أشد الحاجة إلى أم الشعث ، وخلق جو من الود والتفاهم ، وكسب محبتهم وذلك بدفع الظلم وكف الأذى عنهم ، ليقفوا مع سنجر ومحمود في صراعهما المنتظر قدومه لا محالة ، مع دولة القراخطائيين .

كان من الأولى والأجدى ، وكما رأى ذلك وزير الدولة السلجوقية ، أن يقوم سنجر شخصياً بإصلاح الوضع الداخلي ، فيما يخص العلاقة بين القارلوق وإدارة نائبه محمود ، وأول ذلك أن يكف أذى الأخير وموظفيه ، واعتداءاتهم على مواشي القوم ، بل ومعاقبتهم العقاب الرادع ، عندما امتدت أيديهم إلى سرقة الأبناء والنساء . ثم بعد ذلك يستطيع أن يجعل للرعاة مناطق معينة ، تكون في منأى بعيداً لئلا يلحقوا الأذى بمزارع الفلاحين من مواطنيه . فهذا هو السبيل القويم الذي كان يتحتم على سنجر نهجه والسير فيه ، وهذا ، كما أسلفنا ما أبداه وزير السلطان المحنك ، لئلا يجعل من القارلوق طابوراً خامساً ، فما بالك بمسألة إجبارهم على الوقوف ضدهم مع خصوم السلطة الإسلامية . لذلك ، لا نجد غرابة في موقف القارلوق في قتالهم المستميت ضد سنجر ومحمود ، والذين كانوا عليهم في قتالهم أشد وأنكى من القراخطائيين أنفسهم ، كما سيرد معنا ذلك .[٥٤]

إذاً فيمكننا أن نخرج بمسألة واحدة ، وهي أن السبب الرئيس « لمعركة قطوان » هو مرحلة التوسع التي كانت دولة القراخطائيين تعيشها ؛ بعد أن وصلت إلى أقصى ما وصلت إليه من أطراف حدودها من الشمال والشرق، وعكس الحالة هذه لدى دولة السلاجقة التي بدأت تترنح للسقوط ، وليس أمر القارلوق إلَّا شيئاً عجل بذلك الزحف الغربي لكورخان .

استعدادات الطرفين لمعركة قطوان

حال السلطان سنجر السلجوقي دون الوفاق ، وسد سبل السلام مع كورخان ، وإن كان ذلك ، في نظرنا سيكون تأجيل شيء لا بد أن يقع ، ولو بعد حين . فلربما رأى الأول بأن الحرب مع كورخان لا محالة واقعة ، ولا بد له أن يرد عاديتهم ، والثأر للمسلمين في خُجَنْد . وقبلها استخلاص ما وراء نهر سيحون وبلاساغون من أيدي الوثنيين ، برغم انني أشك كل الشك في نوايا السلطان سنجر وحكومته العسكرية

(٥١) تقع على الضفة الغربية لمنطقة هذا النهر عندما يبدأ في اتجاهه إلى الشمال .

(٥٢) ابن الأثير، **الكامل** ، ج ٩/ ص ٣ . كلمة « خاقان » التي أطلقها هذا المؤرخ على محمود هذا ، كلمة تركية مركبة ، وتعني « ملك الملوك » أو « خان الخانات » وهي مرادفة لكلمة « قاآن » . لذلك ، فإن هذه الكلمة أو بالأحرى هذا اللقب ، لا يمكن أن يطلق على شخص مثل محمود هذا ، وهو حاكم تابع ، لا متبوع ، لأن « الخاقان » يكون تحت سلطته عدة « خانات » وهم ملوك ، وهو ملك عليهم ، إذاً يصبح ملكاً على الملوك التابعين له ، أو « خان الخانات » أو « خاقان » .

(٥٣) ابن الأثير ، **الكامل** ، ج ٩ / ص ٣ .

(٥٤) نفس المصدر السابق ، والجزء ص ٤ .

المستبدة في أن تكون هذه الفكرة قد طرأت عليهم ، وفوق ذلك كله الشك في إمكاناته . وشكي هذا بنيته على أمور كثيرة لعل منها :

١ ـ أن حكومة سلطان الإسلام ، وعلى رأسها سنجر وامراؤه ، لم تكن حكومة عادلة ، وهذا أمر واضح كل الوضوح من الروايات التاريخية التي بين أيدينا ، في كيفية إدارتها لشؤون مواطنيها .

٢ ـ ما تمخضت عنه « معركة قطوان » ، فقد كان مواطنو ما وراء النهر غير متحمسين للسلطان السلجوقي ولحكومته ، ناهيك عن مسألة قوته العسكرية ، التي بنى هالة جوفاء حولها ، جعل خصمه يتشدد في حشد جميع إمكاناته لمجابهة قوات سنجر التي بالغ الأخير في قدراتها العسكرية ، كما مر معنا .

٣ ـ ان أراضي المسلمين في الشرق من نهر سيحون قد سقطت في أيدي الحكام الوثنيين قبل « معركة قطوان » بحوالي عشر سنوات ، فلم نجد في مصادرنا أن هذا الأمر قد اقلق سلطان المسلمين في مرو! ، أو انه قد أحس في يوم من الأيام بأن مسألة الذب عن المسلمين وحماية البيضة الإسلامية مسألة يفرضها عليه الدين ، بحكم منصبه « كسلطان للمسلمين » . ولا أدل على ذلك إلا لجوء القارلوق المسلمين من مواطنيه إلى حكومية وثنية ، ينشدون ، وهم مسلمون ، السلام عندها ويستجيرون بها من حكومتهم المسلمة .

٤ ـ انه لم يأت في سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١م ليقابل كورخان في « قطوان » ليثأر للمسلمين في خُجَنْد ، فقد مضى على هذه أكثر من أربع سنوات فقد تجاهلها ، فنسيها ، ونسيت ، وإلّا لما ظل هذه المدة الطويلة ولم يرد عادية الغزاة . وهنا نقول بأن سنجر وحكومته ، قد جعلهم التاريخ يقفون موقف المعتدي على القراخطائيين ، وذلك لأمرين ، الأول : أن سنجر بدأ خصمه بالعدوان في رسالته المتعجرفة تلك ، كرد على رسالة كورخان المسالمة إليه . الثاني : أنه قد أجبر القارلوق على اللجوء إلى الخصوم ، بعد أن أخرجهم من ديارهم ، هاربين من سطوة حكومة سنجر وجبروتها ، وظلمها لهم ، وطغيانهم عليهم .

يبدو لنا أن رسالة سنجر تلك أملاها الأمراء العسكريون ، بدليل اعتراض الوزير عليها . فهددوا كورخان بحرب شعواء يقومون بها هم ، الذين جعلوا من أنفسهم فرساناً ، لديهم شتى أنواع الأسلحة الفتاكة ، وانهم « يشقون الشعر بسهامهم » . والفرق بين كورخان وسنجر واضح ، فالأول ، وجد بأن التهديد من هذا النوع لا يمكن أن ينال منه ، فالناس حوله ، وشعبه معه ، كافة مسلموهم ، ونصاراهم ، والوثنيون منهم ، لحسن سياسته ، وعدله فيهم ، وسيرته الحميدة بينهم ، فخرج بهم سيوفاً مشرعة تدافع عنه . وعلى العكس كانت حالة السلطان سنجر ، الذي كان يعطي اذناً صاغية لمحيطة الذي تحتله الطبقة العسكرية ، الذين كانوا ينالون من السكان المدنيين ، وإلّا لما رأيناهم ، في كافة اقاليم دولة سنجر ، يتضجرون من عسكره ، وقد سئموا تسلطهم عليهم في سلطة سلطان الإسلام ! .(٥٥)

عبر سنجر ماء نهر جيحون في ذي الحجة من عام ٥٣٥هـ/ يوليو ١١٤١م ، بجيش جرار ، يذكر المؤرخون بأن العرض والاستعداد له استمر ستة أشهر ، وكان فيهم ملوك وحكام خراسان ، وافغانستان والغور ، ومازندران ، وسجستان ، وقد ذكر المؤرخون عدد جيشه بأنه يتراوح ما بين سبعين ومائة ألف جندي .(٥٦)

على الرغم من أن عوامل المبالغة تبدو واضحة في عدد الجيش ، إلّا أن هذا يدل على أن السلطان قد حشد جيشاً عظيماً ، جاء ذكره أيضاً في المصادر الصينية ، إذ أن تلك المصادر تتفق فيما أوردته مع ما جاء في مصنف ابن الأثير ، وأن ذلك كان مائة ألف جندي .(٥٧)

---

(٥٥) فيما يتعلق بالفرق بين سياسة الإدارة عند كل من سنجر وأمرائه ، وعكسها لدى القراخطائيين ، يمكن الرجوع ، للمقارنة إلى : ابن النظام الحسيني ، **العراضة في الحكاية السلجوقية** ، ص ص ٩٦ ـ ٩٧ ؛ الحسيني ، **أخبار** ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ؛ ابن الأثير ، **الكامل** ، ج ٩/ ٤ ب خواند أمير ، غياث الدين بن هماد الدين ، **تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد بشر** ، تحقيق الدكتور محمد دبير سياقي ، طهران ، ١٣٣٣هـ.ش ، ج ٢/ ص ٥٠٩ .

(٥٦) الحسيني ، **اخبار** ، ص ٩٣ ؛ البنداري ، **مختصر** ، ص ٢٥٣ ؛ ابن الأثير ، **الكامل** ، ج ٩ ، ص ٣ .

(٥٧) تقول تلك المصادر بأنه « . . . ما ان وصل تاشي بجيوشه إلى سمرقند حتى قابله جيش الممالك الغربية المتحد ، وعدده مائة ألف رجل ، برئاسة هو- =

أما جيش القراخطائيين ، من الجانب الثاني ، فقد وصفته مصادرنا الإسلامية ، بأعداد لا يمكننا تصديقها على الإطلاق ، وانه كان يبلغ سبعمائة ألف مقاتل .(٥٨) في حين أن المصادر الصينية تقدره بعدد لا يتجاوز عشرة آلاف ، كما سنرى ذلك بعد قليل ، في تقسيمات جيشهم إلى ثلاثة أقسام ، وهذا بطبيعة الحال شيء مبالغ في تقليل نسبته ، الأمر الذي يجعلنا لا نصدق بها . ومع ذلك ، فإنه يمكننا القول بأن جيش كورخان كان قريباً في عدده من جيش السلطان سنجر . ولكن التفوق كان يكمن في القيادة ، ومن هذه الناحية فإن كورخان كان يفوق خصمه ؛ لأن السبب الذي يجعلنا نقول هذا هو ما يمكننا الاستدلال به على ما كان يتمتع به كورخان من صفات القائد العسكري ، والإداري الحاذق ، والسياسي الماهر ، في تلك الوصايا التي أوصى بها أحد قادته قبيل خروجه على رأس حملة عسكرية إلى الشرق ، حيث قال له : « . . . ، خذ حذرك على نفسك ؛ كافيء من يستحق المكافأة ، وعاقب أولئك الذين يقصرون في أداء واجباتهم . شارك جنودك في السراء والضراء بوعي وضمير متيقظين ، اختر لحلك الأماكن الخصبة والغنية بمراعيها ، والوفيرة بمياهها ، وقبل أن تشرع في خوض معركة ، خذ حذرك كما ينبغي في تقدير مدى قوة عدوك . ولتكن دائماً وأبداً متيقظاً لئلا تجر على نفسك الهزيمة» .(٥٩)

فإذا كانت هذه وصاياه لقائد من قواده ، فما بالنا به عندما سار على رأس جيش جرار ، لمقابلة سنجر ، الذي هدده ، وتوعده بالويل والثبور ، ووصف سهام جنده بأنها تشق الشعرة . لذلك ، نجد أن سنجر قد كفى كورخان مؤنة تقدير جيش عدوه ، فأخبره بها سنجر في رسالته إليه . لهذا فقد استعد لها كورخان بكل حذر وتيقظ .

لم ينتظر كورخان عدوه ليغزوه في عقر داره ، وهذه سياسة حكيمة جداً ، بل سار هو إليه بجيشه من بلاساغون ، الواقعة على ضفة نهر جو الغربية ، متجهاً إلى الجنوب الغربي ، صوب اراضي خصومه ، فقطع تلك المسافات الشاسعة من أراضيه ، حتى عبر بجنده نهر سيحون ، ودخل بهم منطقة اشروسنة . وهناك تقابل الجيشان ، اللذان وصفهما ابن الأثير بأنهما « كانا كالبحرين العظميين » .(٦٠)

مجريات معركة قطوان

في يوم الثلاثاء الخامس من شهر صفر عام ٥٣٦هـ/ ٩ سبتمبر ١١٤١م ، جرت تلك المعركة على أرض مكان اسمه قطوان ، وهي مفازة تقع في اقليم اشروسنة ، في

= ره ـ شان Hu - rh - Shan بريتسكنيدر ، بحوث ، ج ١/ ص ٢١٥ ، وهو يترجم مصادر صينية . على الرغم من ان التاريخ الذي أوردته تلك المصادر لهذه الحادثة كان متقدماً بفترة لا تقل عن خمس عشرة سنة ، وان المستشرق بريتسكنيدر قد ذكر بأن هذه المعركة التي جاءت في الروايات التاريخية الصينية المذكورة هي معركة جرت بين قطب الدين محمد خوارزم شاه (٤٩٠ ـ ٥٢١هـ/ ١٠٩٧ ـ ١١٢٧م) وبين القراخطائيين بقيادة كورخان معللاً ذلك بأن «Hu- rh- Shan» قريبة الشبه في لفظها مع خوارزم ، ولكنني اختلف مع هذا المؤرخ الروسي الكبير القدر لا شك ؛ وقد أكون على غير الصواب ، فهذه الكلمة «Hu- rh- Shan» تعني عندي « خراسان » أي ملك خراسان ، لا خوارزم شاه ، وذلك لأسباب كثيرة لعل منها :

١ ـ أن قطب الدين محمد خوارزم شاه لم يكن إلاّ نائباً عن سنجر في اقليم خوارزم ، ولم يكن يفكر في الاستقلال ، وإن ذلك لم يحصل إلاّ في أواخر أيام ابنه قطب الدين اتسز بن محمد (٥٢١ ـ ٥٥١هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٥٦م) .

٢ ـ لم يكن قطب الدين محمد يملك من القوة ولا معشار هذا العدد ، ناهيك عن مسألة وقوع معركة بهذا الحجم الهائل بين نائب الحكومة السلجوقية في اقليم خوارزم ، وبين كورخان ، في هذه الفترة المتقدمة جداً ، فهذه بعيدة الاحتمال، بل مستحيلة بالنسبة لنائب خوارزم .

٣ ـ انه لم يرد لمعركة بهذا الخصوص ، في ذلك التاريخ المتقدم ، ذكر في أي مصدر من مصادرنا التاريخية الإسلامية ، لا من قريب ولا من بعيد ، والتي كان من الأولى ، لو حصلت حسب ما يقوله هذا المستشرق ، أن تسجلها مع أحداث قليلة الأهمية جداً . إذا ما قورنت بمعركة من هذا القبيل وبهذه الضخامة .

٤ ـ إن ما ورد في المصادر الصينية تلك ينطبق تماماً على ما جمعه سنجر من جيوش « الممالك الغربية » ووحّدها تحت قيادته ، وسار بها ضد كورخان .

٥ ـ إن هذه الرواية تتفق في أحداثها ووقائعها وتعداد جيوشها مع ما أوردته لنا في هذا الخصوص مصادرنا الإسلامية ، حول معركة قطوان .

(٥٨) البنداري ، مختصر ، ص ٢٥٣ ؛ الحسيني ، تاريخ ، ص ٩٣ ، أما ابن النظام الحسيني ، في « العراضة . . » فيقول عن جيش القراخطائيين بأنهم: « . . . ، بعدد كأوراق الأشجار والكواكب السيارة . . . » ، ص ٩٨ .

(٥٩) بريتسكنيدر، « بحوث . . » ، ج ١/ ص ٢١٦ ، نقلاً عن مصادر صينية قريبة الصلة بتاريخ كورخان .

(٦٠) ابن الأثير ، الكامل . ، ج ٩/ ص ٤ .

أراضي ما وراء النهر ، إلى الشرق من مدينة سمرقند بحوالي خمسة فراسخ ، ٣٠ كيلاً[٦١] قبل أن يصطدم الجيشان ، قام كورخان في جيشه خطيباً ليلهب الروح الحماسية فيه ، حتى يستميت في قتال عدوه ، حيث قال : « إننا نرى اليوم أمامنا جيشاً عرمرماً ، ولكنه يعوزه القائد الحاذق . فعندما يُهَاجم من مقدمته ، فإن المؤخرة منه سوف تفشل في السير قدماً لانقاذه ؛ ولذلك فإنه لايوجد أدنى شك من أن جيشنا سينتزع النصر» .[٦٢] ثم بعد ذلك قام كورخان فقسم جيشه إلى الأقسام الثلاثة التالية ، وكل قسم لديه الأوامر كيف يسير في قتاله مع العدو : « الميسرة ، واسند قيادتها إلى الأميرين « سياو وا ـ لي » و « ي ـ لوسونك شان » Siao Wa- li ، Ye- lu Sung shan وآخرين . وكان قوام هذا الجناح الفين وخمسمائة جندي وصدرت إليهم الأوامر بمهاجمة الجناح الأيمن للعدو ، الميمنة ، واسندت قيادتها إلى الأميرين : سياو لا ـ أ ـ بو ؛ وي ـ لومو ـ سي Siao lu- a- bu, ye- lu Mu- Sie . واعطيت إليهما الأوامر بأن يقودا جيشاً قوامه الفين وخمسمائة رجل، وبهم يهاجمان جناح ميسرة العدو ، أما تاشي نفسه ، ومعه القسم الرئيس من الجيش ، فقد هاجم القلب من جيش الأعداء . وهنا اندفعت هذه الأقسام الثلاثة لتهاجم ملك خراسان الذي مني جيشه بهزيمة ساحقة ، غطت جثث قتلاه مساحة واسعة من أرض المعركة . بعد ذلك ذهب تاشي بجيشه إلى سمرقند واستراح فيها تسعين يوماً » .[٦٣]

تشير هذه التقسيمات ، الواردة في المصادر الصينية لجيش كورخان إلى أن جيش سنجر هو الآخر قام بنفس التقسيمات ، ميسرة ، وميمنة ، وقلب ، إضافة إلى أن وصف أحداث المعركة لدى المصادر الإسلامية تشير إلى شيء من هذا ، فتذكر بأن قائد الميمنة كان الأمير قماج .[٦٤] بينما كان الملك تاج الدين أبو الفضل ، ملك سجستان ، يترأس الميسرة من جيش السلطان سنجر ، إذاً ، فلا بد أن يكون الأخير يقود القلب من قواته . بناءً على ذلك ، نجد أن وصف المصادر الصينية لمجريات الأحداث في تلك المعركة هي نفس المعلومات تقريباً التي أوردتها المصادر الإسلامية ، إذ قامت ميسرة كورخان بمهاجمة ميمنة جيش السلطان ، وميمنة ذاك ميسرة هذا ، بينما قام جيش القلب من هذا بتلقي صدمة جيش القلب لذاك .

وهنا يشير إبن الأثير إلى المعركة قائلاً بأن كورخان طاف حول جيش السلطان حتى الجاه إلى وادي « ديرغم » درغم Dargham ، حيث مني جيش المسلمين بهزيمة ساحقة ، فقد بلغت أعداد قتلاهم ، باتفاق الروايات ، حوالي ثلاثين ألف رجل ، غطت جثثهم أرض المعركة ، وحمل مجرى وادي درغم آلافاً من القتلى والجرحى . أما من أسر من المسلمين ، فلم تشر الروايات التاريخية إلاّ إلى الشخصيات القيادية منهم ، حيث تقول بأن على رأس من وقع في الأسر قائدا جناحي السلطان ، الأمير قماج ومعه ابنه ، والملك تاج الدين . وهنا تذكر تلك الروايات إلى أن الأخير أبدى من صنوف البسالة والشجاعة ما جعله يحوز على إعجاب الأعداء واحترامهم له . فبعد أن انهزمت جيوش المسلمين ، وخاصة الميمنة والقلب ، انعطف هو بالميسرة فقاتل حتى وصل حيث يقف السلطان سنجر ، فأخذ مكانه ، وطلب منه أن يهرب وينجو بنفسه ، لئلا يقتل ، أو يقع في الأسر ، ففعل سنجر . كما كان من الأسرى زوجة السلطان ، تركان خاتون بنت محمد بن سليمان الملقب بأرسلان خان .[٦٥]

على أثره هرب السلطان سنجر ، وكان معه محمود خان ، نائبه على ما وراء النهر ، الذي أضاعاه . يحدثناه مصنف كتاب « أخبار الدولة السلجوقية » عن موقف لكورخان ، يدل دلالة واضحة على رجاحة عقل ذلك الملك ، وحكمته وبعد نظره ، حيث يقول بأنه أثناء هروب

---

(٦١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤/ ص ٣٧٥ .

(٦٢) بريتسكنيدر ، بحوث . . ، ج ١/ ص ٢١٥ نقلاً عن مصادر صينية .

(٦٣) نفس المصدر السابق، والجزء والصفحة.

(٦٤) هو الأمير عماد الدين قماج حاكم أراضي منطقتي طخارستان والغور .

(٦٥) هي الملكة تركان خاتون بنت محمد بن سليمان الملقب بأرسلان خان . وقد فدى أسراه المسلمين ومنهم تركان خاتون ، وكان فداؤها نصف مليون دينار ، وفداء الأمير قماج وابنه بمائة ألف دينار . أما أبو الفضل ملك سجستان فقد قال فيه كورخان : « مثل هذا البطل الهمام والشجاع المقدام يجب الإبقاء عليه والاحسان إليه » ، واطلق بدون فداء . انظر : البنداري ، مختصر . . . ص ٢٥٤ ، الحسيني ، أخبار . . ص ٩٤ .

سنجر ماراً من أمام كورخان : « وكان قد مر من بين يدي كورخان لانسداد الطرق وقد عرفه كورخان ولكن خلى سبيله وقال سد الطريق للمنهزم يضطره إلى قتال لا بقاء فيه ومن يئس من حياته لا يفكر في العواقب بما ينال الظفر بما يدفع عن نفسه » .(٦٦)

نتائج معركة قطوان على المستويين المحلي والدولي

أ ـ نتائج هذه المعركة على المستوى المحلي

كان لمعركة قطوان هذه نتائج ذات آثار سلبية وإيجابية ، فيما يتعلق بالمسلمين ذوي العلاقة ، حكاماً ومحكومين . ولعل من أهم ما تمخضت عنه على المستوى المحلي الإسلامي ما يلي :

١ ـ خضوع ما وراء نهر جيحون لحكم أجنبي

أُخْضِع المسلمون في أراضي ما وراء النهر ، كنتيجة أولية من نتائج معركة قطوان ، تحت حكم دولة وحاكم وثنيين ، لأول مرة في تاريخ المسلمين في هاتيك الديار ، فقد فَقَدَ المسلمون استقلالهم منذئذٍ ، ولمدة تزيد على ستين عاماً تلت . فبعد أن هجرها سيدها سلطان الإسلام ، سنجر ، ومعه نائبه محمود ، فقد تركا المسلمين بها ليقابلوا مصيرهم أمام الغزاة الوثنيين ، الذين ادخلوا تلك البقاع وساكنيها ، ولأول مرة في تاريخهم منذ الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري/ الثامن الميلادي ، تحت حكمهم . ولعل الباحث يظن بأن مسألة خضوع المسلمين هناك لحكم القراخطائيين البوذيين كانت ذات آثار سيئة على المسلمين فيها ، فهذه هي النتيجة الحتمية لكل قوم يقعون تحت حكم أناس غزاة . ولكن الذي حصل لهم كان بالعكس تماماً ، فقد كانت معركة قطوان ذات آثار حسنة وطيبة لهم ، إذ اننا نجد المسلمين في تلك الديار ينعمون بحكم عادل ، تحت نفوذ وإدارة القراخطائيين ؛ فعمهم الرخاء ، وساد أوساطهم الأمن والسلام ، فانتعشت أحوالهم الزراعية والتجارية ، فأثري الناس ثراءً انعكس على حياتهم الاجتماعية في كافة مجالاتها .(*)

وقد كان السبب في ذلك يعود بشكل أساسي في نوعية الحكم والإدارة المباشرة لكل بلد ، فقد وجدنا أن كورخان الوثني لم يغير من حياتهم شيئاً إطلاقاً ، بل ولم يتدخلوا فيها لا من قريب ولا من بعيد ؛ فلم يقم كورخان بالإبقاء على الأمراء من القراخانيين ، كل في مقرره ومركزه الإداريين فحسب ، بل وجعل عليهم رقابة وعيوناً ساهرة ، تمنعهم من الظلم ، والتعدي على الرعية . « كان ينهي أصحابه عن الظلم ، وكان يمنعهم من الاقطاعات » ويقول : « متى أخذوا الاقطاع ظلموا »(٦٧) . اكتفى كورخان، ومن جاء من بعده من الملوك ، بدينار واحد فقط ، تدفعه كل أسرة مسلمة ميسورة الحال ، في السنة كلها .(**)

لذلك ، نجد أن هذه الموقعة قد انقذت ، نقولها وبكل أسى ، مسلمي ما وراء النهر من تجبر وتسلط وظلم وطغيان حكامها المسلمين ، سلاطين الإسلام : « سنجر ورجاله من أمرائه العسكريين ونائبه محمود خان وموظفيه المستبدين » . وهنا يورد لنا مصنف « العراضة في الحكاية السلجوقية » بأن سنجر أخرج أمراءه من الجيش إلى الناس ، فيستغلون أسباب الرفعة في مناصبهم فيمدون أيدي التعدي إلى قهر الناس ، ثم قال عنهم بأنهم « . . لا يرون أحداً قط أكثر رفعة من جنابهم ، . . . » وتعاهدوا معاً على الإغارة على أموال الرعايا ، وإثارة فنون الفتن بين البرايا، وظنوا أن الآية الخاصة بغصب أموال المسلم والمعاهد والمقيم المجاهد منسوخة ، وأحكامها مفسوخة ، واعتقدوا أن وعد الله في قوله ﴿ والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾(٦٨) برهان مهجور ، ودليل محجور ، فجعلوا الظلم والاضطهاد شائعين وعامين في جميع ممالك الإسلام ، فابتلي وتألم

---

(٦٦) الحسيني ، أخبار . . ، ص ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(*) لقدسبق وان ناقشت العلاقة بين مسلمي ما وراء النهر ودولة القراخانيين في كتابنا « أوضاع الدول الإسلامية في ص. ص: ١٨٧ وبعدها، وذكرت في هوامش تلك الصفحات مصادر المادة .

(٦٧) ابن الأثير، « الكامل . . » ج ٩/ ص: ٤ .

(**) هذه ضرائب على كل أسرة ، وقد يكون هناك ضرائب على المحاصيل الزراعية، ولكنها قليلة لا تكاد تذكر .

(٦٨) سورة ٧٦ «الانسان» الآية ٣١ .

الخواص والعوام ، والكرام واللئام ، والأنام في تلك الأيام بذلك البلاء بلا مانع ، ولم يسلم الشريف والوضيع والرضيع والرفيع من شر هذا الأمر وضرره ولم يجد إنسان منجي من هذا الحكم العام ، ولم يكن لأحد مهرب من تلك المشقة لأن النسخ في مذهب هؤلاء الظالمين من المحالات ، والتخصيص من الممتنعات ، وأخذ مال المسلمين والمسلمات من المندوبات ، والتعدي والتطاول على البنين والبنات من الواجبات ، وكانوا يعدون التعاون في ارتكاب ذلك الأمر الحرام سبباً في استجلاب الآلام ، وترك ذلك الأمر المحرم موجباً لا يستحق الذم ، واستمر هذا حتى شهور سنة ست وثلاثين وخمسمائة حينما توجه السلطان من دار الملك مرو لدفع جيش الخطا ، وتنظيم أمور الرعايا ، ورفع الظلم عن البرايا ومنع جور الجند المليء بالبلايا، وكان أهالي ما وراء النهر بعد ان تحملوا كل ألوان الظلم والجور مدة بأمل ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾[٦٩] قد يئسوا . فأرسلوا في طلب جيش اجنبي ، فلعلهم يستطيعون بحضوره أن يتخلصوا من تعدي جند خراسان « وهم أظلم من قاض» .[٧٠]

نستخلص من ذلك أن المؤرخ يعتبر نهاية حكم سنجر ومحمود على ما وراء النهر نهاية لعذاب سكانه ، وبداية حياة جديدة ، ملؤها العدل ، والأمن ، والسلام ، في ظل حكومة وثنية !! . ولعل سياسة سنجر ونائبه محمود ، الظالمة للسكان ، تعلل السبب الذي جعل أحد كبار رجالات سنجر وامراء دولته ينحاز إلى صفوف الغزاة في يوم المعركة مع القراخطائيين ، فترك السلطان ونائبه الظالمين .[٧١] كم يمكننا القول هنا بأن لمجيء القراخطائيين إلى ما وراء النهر سبب آخر وهو دعوة بعض الأهالي لهم ، لعلهم ، وكما قال المؤرخ ، يستطيعون بحضورهم أن يتخلصوا من تعدي جند خراسان ، الذين هم اظلم من قاض[٧٢] . وقد أشرنا إلى سياسة القراخطائيين ، تجاه مواطنيهم المسلمين ، في بحث سابق لنا .[٧٣]

٢ ـ دخول إقليم خوارزم تحت نفوذ القراخطائيين

لم يكتف كورخان بما كسبه من أراضي شاسعة الأرجاء ، وذات خير وغنى ورغد عيش فيما ضمه من أراضي المسلمين فيما وراء النهر ، بعد قطوان ، بل نجده بعد هذه الموقعة ، يرسل جيشه إلى اقليم خوارزم، لضمها لنفوذ حكومته في بلاساغون ، الأمر الذي ترتب عليه ان دخل بعد ذلك حاكمها خوارزم شاه، اتسز ، تحت ظلم حكم القراخطائيين ، واضحى في منزلة كتلك التي يحتلها أي حاكم مسلم ينوب عن حكومة كورخان في أراضي ما وراء النهر ، بل وفوق ذلك أصبح يدفع إلى خزينة كورخان مبالغ سنوية قدرت بحوالي ثلاثين ألف دينار ذهباً ، بعد أن جاء وفد إلى بلاساغون موفوداً من قبل الحاكم الخوارزمي .[٧٤] وقد أشارت المصادر الصينية في هذا الصدد إلى أن ملك المسلمين جاء إلى كورخان ، وقدم إليه فروض الطاعة ، واحضر معه من منتوجات بلده ، كضريبة ، قدمها إليه ، ولعل هذه الإشارة هي المقصود منها خوارزم شاه ، والذي تقول عنه (حسب قول المستشرق والمترجم لتلك المصادر بأنه خوارزم شاه) بأنه استسلم بعد المعركة ، وقدم له فروض الطاعة .[٧٥]

٣ ـ بداية نهاية السلطان سنجر

أما نتائج معركة قطوان ، بالنسبة للسلطان سنجر ، ونائبه

---

(٦٩) سورة ٦٥ « الطلاق » الآية ١ .

(٧٠) ابن النظام الحسيني ، **العراضة** . . ص ص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٧١) كان ذلك الأمير هو السيد الاسفهسلار الملقب بالسيد الجليل السمرقندي . انظر الحسيني ، **أخبار** . . ص ٩٤ .

(٧٢) لعل المؤرخ يشير بجملة « وهم اظلم من قاض » إلى القراخطائيين ، ولكن الذين ظهر من سياستهم في إدارة شؤون المواطنين المسلمين فيما وراء النهر كانت بعكس ذلك تماماً . انظر الحاشية التالية «٧٣» .

(٧٣) انظر كتابنا **سقوط الدولة العباسية**، ص ص ٨٦ ـ ٩٥، وكذلك كتابنا: **أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي** ، ص ص ١٨٧ ـ ١٨٩ ، وما ورد في حواشي ذينك الكتابين ، وخاصة ابن الأثير، **الكامل** . . ، وكتاب : **أربع مقالات** للنظامي عروض السمرقندي ، الترجمة الانجليزية ، ص ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٧٤) لمعلومات أوفى في هذا الموضوع انظر : الجويني ، **جهانكشاي** ، ج ٢/ ص ص ٨٨ ـ ٨٩ ، الترجمة الانجليزية ، ج ١/ ص ٣٥٦ ؛ رشيد الدين ، **جامع التواريخ** ، ج ١ /ص ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ، كتابنا : **سقوط الدولة العباسية** ، ص ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٧٥) بريتسكنيدر ، **بحوث** ، ج ١/ ص ٢١٥ .

محمود خان ، فقد كانت ذات آثار سيئة للغاية ، بل وبداية النهاية ، لحكم هذا السلطان السلجوقي . فقد افقدت قطوان ، سنجر خاصة ودولة السلاجقة عامة، السيطرة على أراضي ما وراء النهر إلى أبد الآبدين ، فلم يستطع أن يعيدها إلى حكمه ، طوال السنوات الخمس عشرة التالية ، والتي بقيت من عمره ، والتي أعقبت قطوان . أما بالنسبة لمحمود ، فقد فقدها هو الآخر خاصة ، بينما ظل أفراد من أسرته يحكمون ذلك الاقليم الشاسع الأرجاء ، تحت نفوذ وحكم القراخطائيين ، وظلوا كذلك إلى أن جاء سلطان آخر للإسلام » . فقوض حكم آخر فرد من أسرة القراخانيين ، أسرة محمود هذا ، بشكل غاية في البشاعة ، وفرض على المسلمين حكماً أشد وأظلم واعتى من حكم أمراء السلاجقة .(٧٦)

٤ ـ أثر معركة قطوان على السلطان سنجر

من المعروف تاريخياً بأن هذا السلطان لم يسبق أن هزمت له راية على الإطلاق ، طوال حروبه التي خاضها ، مشرّقاً ومغرّباً ، سواء في نزاعه مع أفراد اسرته داخلياً ، أو في حروبه الخارجية مع القوى المجاورة ، كالغزنويين ، الذين أخضعهم بالقوة تحت نفوذه ، والغوريين الذين بدأت طلائع دولتهم تُرى على مسرح أحداث التاريخ الشرقي للعالم الإسلامي ، والقراخانيين ، الذين كان يسير إليهم كلما حاولوا نبذ سلطانه . أما في قطوان فقد كان الأمر خلاف ذلك ، حيث كانت أول مرة يهزم جيشه بكامله ، بل ويلوذ بالفرار لينجو بجلده . وهذا يؤكد ما سبق وأشار إليه مصنف « العراضة في الحكاية السلجوقية » من أن للسكان المسلمين فيما وراء النهر دور في النيل من حكمه الجائر ، في شخصه هو ، وذلك بالتعاون مع العدو ضده . لذلك فقد نالت من سمعته ، ومكانته في الأوساط الشعبية بين مواطنيه في مختلف أقاليم دولته ، وداخل أسرته ، كيف لا ، وقد أسرت حتى زوجته ، ناهيك بما فقده في المعركة من الرجال والعتاد والأموال التي بذلها للبذل على اعداد ذلك الجيش الجرار ، وفوق ذلك كله ، فقد فقد ، وإلى الأبد ، اقليم ما وراء النهر .

بناءً على ذلك ، نجد أن هزيمة سنجر في قطوان أطمعت فيه الغزاة الأتراك الرعاة في خراسان، حيث ثاروا عليه، فيما بعد ، وكانوا السبب الرئيس في نهاية قوته وحكمه ، حيث توفي بعد ذلك في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م ، بعد أن نال منه الغزوات بقوة تحت الأسر والقهر، فحطموا سلطانه .(٧٧)

٥ ـ نوعية حكم الناس المسلمين فيما وراء النهر :

أوضحت معركة قطوان بجلاء واضح نوعية حكم السلطتين ، السلجوقية والقراخانية ، لاقليم ما وراء النهر ، فقد كان الحبل يترك على الغارب للأمراء ، ليخيفوا الآمنين ؛ فلم يعد مواطنو ذلك الاقليم يأمنون على أنفسهم ، وأهليهم ، وممتلكاتهم من شر حكامهم . لذلك لا نستغرب الرواية التي وردت في مصنف ابن النظام الحسيني ، فقد تكون إشارة فعلاً إلى أن هناك فئات كثيرة قد راسلت القراخطائيين الوثنيين للتخلص من حكم هاتيك السلطتين المسلمتين الظالمتين . وقد تغير ذلك بالكلية بعد أن جاء إليهم حكم كورخان ، فأبدلهم بحكم خير من حكم سلطان الإسلام ! . وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى .

٦ ـ اتسز يهاجم ممتلكات السلاجقة

ما ان جاءت أخبار هزيمة السلطان سنجر في قطوان ، على أيدي القراخطائيين ، حتى تجهز خوارزم شاه ، اتسز ، (الذي كان يتمرد على سلطة سنجر من وقت إلى آخر ليستقل بشؤون اقليم خوارزم عن حكومة مرو) لغزو أراضي سيده السلطان في عقر داره . فذهب إلى خراسان ، وغزاها ، وحاصر مدنها ونهب ، وسلب ، ودمر ؛ ثم عاد إلى مقره في خوارزم ، مستغلاً في ذلك ظروف سنجر التي

---

(٧٦) قام قطب الدين بن تكش خوارزم شاه في سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م ، بإزاحة السلطان عثمان ، آخر حاكم من حكام اسرة القراخانيين في اقليم ما وراء النهر ثم بقتله فيما بعد . حول هذا الموضوع ، انظر ما قلنا بنوع من التفضيل في كتابنا : أوضاع الدولة الإسلامية في الشرق الإسلامي ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ص ١٨٣ وبعدها .

(٧٧) قام الغزاة الأتراك بأسر السلطان سنجر ، بعد معركة معه ، وذلك سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م . وبعد أن هرب من أسرهم لم تطل به الأيام ، فتوفي في ٢٦ ربيع الأول ٥٥٢هـ/ ٢٨ أيار (مايو) ١١٥٧م .

لا يحسد عليها .(٧٨) وهذا من نتائج هزيمته في قطوان .

٧ ـ توقف المد الإسلامي شرقاً

جاء القراخطائيون الوثنيون إلى ديار الإسلام في أواخر الثلث الأول من القرن السادس الهجري / ١٢ للميلاد ، فاحتلوا أقاليم التركستان ، وما وراء النهر ، واخضعوا خوارزم لنفوذهم ؛ لذلك نجد أن سلطان الإسلام اخذ يتقهقر إلى الغرب ، فانحسر إلى ما دون نهر سيحون ، ثم جاءت قطوان فدحضته إلى مسافة شاسعة أبعد ، لم تكن لتخطر على البال ، فجعلت من ماء نهر جيحون حده الفاصل . وبذلك لم يعد هناك حاكم مسلم في هاتيك الربوع يعمل على نشر الإسلام ، إلى ما وراء اقليم التركستان الغربي ، بل على العكس ، جاءكم وثني ، وحكم المسلمين ، فأضحوا محكومين لا حاكمين . ومع ذلك ، فقد نعموا بحكم عادل ، وتمتعوا بحرية ، كغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . ولكن هذه الحرية للمسلمين لم تدم ، فقد تعرضوا للاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، بل والقتل ، على يد حكومة وثنية اعقبت حكم الكورخانيين الخطا ، وحلت في بلاساغون محلها ، إذا هم لم ينبذوا إسلامهم وعقيدتهم السمحاء ، ويعتنقوا إحدى الديانات الأخرى السائدة هناك ، كالمسيحية (على المذهب النسطوري) والبوذية ، وهي ديانة الحاكم الجديد كوتشلوك خان .(٧٩)

ب ـ نتائج معركة قطوان على المستوى الدولي :

مضى معنا سابقاً كيف كانت نتائج معركة قطوان على المستوى الإسلامي قاطبة ، ومسلمي ما وراء النهر وحكام الدولة السلجوقية على وجه الخصوص . وفوق ذلك كله ، فقد تعدى صداها المنطقتين الصينية ، في أقصى الشرق ، والإسلامية ، في شتى بقاعها ، إلى منطقة أخرى بعيدة كل البعد عن أراضي المعركة ، حيث وصل خبرها إلى أقصى الأوساط الأوروبية الصليبية . فقد جعل الناس في تلك البقاع ، حكام ومحكومون ، من نصر كورخان الوثني على المسلمين شيئاً نسجت حوله أساطير ، أحيت في قلوبهم الأمل ، الذي كانت ، وربما ما تزال ، تعيشه ، في القضاء على الإسلام والمسلمين ، وذلك في اتحاد شرقي وغربي ؛ شرقي ، ويمثله ذلك الملك القس المسيحي « برستر جون » (يوحنا الداعي) ، وغربي تمثله الممالك الصليبية في العالم المسيحي الغربي ، وعلى رأسها باباوات أوروبا . وقد كانت تلك الأساطير تعود إلى الحياة ، في أذهان الناس الصليبيين ، من وقت لآخر ، كلما تعرض المسلمون لنكسة بين الحين والآخر .

فيما يتعلق بهذه المسألة ، نستشهد بما أورده المؤرخ الانجليزي المستشرق الاستاذ الدكتور ج . ج . ساوندرز J. J. Saunders ، حيث يقول بأن أخبار هذا الانتصار الساحق على المسلمين ، وما ترتب عليه من خسائر فادحة ، عبرت إلى الممالك اللاتينية المسيحية في الغرب ، فأججت لديهم ذلك الأمل بأن حليفاً لهم ، ضد المسلمين ، قد ظهر في قارة آسيا ؛ فصور لهم انتصار كورخان ، البوذي الوثني ، هذا الرجل في صورة ذلك الملك القس المسيحي القوي « بريستر جون Prester John » ذي الملك العريض ، والغنى الواسع . وفوق ذلك كله ، لم يقف بهم خيالهم

---

(٧٨) لمعلومات عن غزوة اتسز ضد ممتلكات السلطان سنجر ، انظر الجويني ، **جهانكشاي** ج ٢/ ٥١ ، الترجمة الانجليزية ، ج ١/ ص ٢٨٠ ؛ الحسيني ، **أخبار** ، ص ص ٩٥ ـ ٩٦ ؛ ابن الأثير ، **الكامل** ، ج ٩/ص ص ٤ ـ ٥ ، البنداري ، **مختصر** ، ص ٢٥٦ .

(٧٩) لمعلومات عن تسلط هذا الحاكم المرتد عن المسيحية إلى البوذية ، وما عانى المسلمون من حكمه ، انظر كتابنا : **سقوط الدولة العباسية** ، ص ص ٩٨ ـ ١٠٦ ، وما ورد في تلك الصفحات من مصادر لتلك المعلومات . وقد ظل المسلمون بهاتيك البقاع يئنون من ثقل وطأة ذاك المتجبر ، حتى جاء السلطان محمد خوارزم شاه ، فاستعاد بمساعدة مسلمي تلك الديار جميع أملاك المسلمين . ومع ذلك ، فقد قلب لهم ظهر المجن ؛ فلم يكن حكمه بأحسن حال من حكم سلفه سلطان الإسلام سنجر ! . كما لم يكن رجاله الأتراك بأقل تعسفاً ونكاية بالأهلين والتسلط عليهم من رجال سنجر ؛ فقد كان حكم سلطان الإسلام ! ، محمد خوارزم شاه ، لمسلمي ما وراء النهر أدهى وأمرّ ، وأشد نكاية وظلماً لهم ، حتى من كوتشلوك خان البوذي نفسه ، فقد كان حكمه كارثة طمت ما قبلها . حول هذا الموضوع انظر مناقشتنا لهذا في كتابنا : **أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي** ص ص ٢٠١ وبعدها .

الجامح عند هذا الحد ، بل وجعلوا من انتصاره ذاك ضد المسلمين ، بأنه أخذ يتقدم إلى الغرب ، وقد وصل إلى روافد نهر دجلة ، موجهاً بوجهته شطر بيت المقدس في فلسطين ، وقد عقد العزم على أن يقدم دعماً هائلاً للمسيحيين ، ويمكنهم من استعادة بيت المقدس .(٨٠)

لقد تكرر الشيء عينه لدى الأوروبيين ، عندما جاء المغول بعد حوالي قرن من الزمان واكتسحوا العالم الإسلامي ، في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ ١٣ للميلاد ، أيام السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه . فقد جعلوا من المغول ، وخاناتهم الوثنيين ، ملوكاً مسيحيين ، أيضاً في صورة « ذلك الملك القس المسيحي ، الذي يحكم ، في الشرق البعيد ، تلك المملكة ذات المساحات الشاسعة ، وذات الخيرات الوفيرة ، والتي تجري فيها أنهار من العسل والحليب في شتى أراضيها الواسعة ، تلك الأراضي التي لا يوجد بها سم ، ولا عقارب ولا يوجد بها حيات ولا زواحف سامة ، ولا حتى الضفادع . فهو ملك قوي يهابه جميع الناس لعظمة شأنه وعلو سلطانه » .(٨١)

لذلك ، فقد تخيل باباوات روما ، وملوك أوروبا أن الأمر لا يحتاج منهم إلاّ إلى إرسال وفود من عندهم ، يطلبون من « ذلك الملك القس المسيحي Prester John » المسير إلى الغرب للاتحاد معهم ، ويطبقوا على العالم الإسلامي ، من الشرق ومن الغرب ، وتدميرهم في ديارهم ، واستعادة بيت المقدس ، ومن ثم الذهاب إلى مكة والمدينة للإجهاز عليهم بهاتيك البقاع المقدسة . ولذلك فقد تمخض عن هذا الخيال الجامح عن إرسال ما عرف في التاريخ بـ « البعثات المسيحية » إلى بلاط الخانات المغول في « قرا ـ قروم » بمنغوليا ، خلال القرن السابع الهجري/ ١٣ للميلاد . ولم يكن يرأس تلك البعثات السياسية المسيحية أناس عاديون ، بل رجال دين ، غاية في التعصب والتضحية ، والقدوة لدى العالم المسيحي ، مثل جون البلانو الكربيني ، ووليم الربركي ، والأخ بندكت وغيرهم : Friar John of Piandi Carpine, Friar William of Rubruk, Brother Benedict and others .(٨٢)

---

(٨٠) J.J.Saunders, **The History of the Mongol Conquests,** p.40
ولمعلومات عن هذا الملك القس المسيحي الاسطوري ، الذي عاش ، وربما ما يزال يعيش في أذهان الأوروبيين أو بعضهم ، انظر ، حاشية المؤلف هذا رقم ٣١ في ص ٣١٠ . أما لمعلومات أكثر تفصيلاً عن ذاك الملك فارجع إلى Ross, **The History of Civilization** (London, 1930) Prester John and the Empire of Ethiopia, in **Travel and Travellers of the Middle Ages, pp. 174 - 194; The Cambridge History of Iran** Vol. V, p. 147

(٨١) انظر التفاصيل حول هذا الموضوع في المرجع الأول من الحاشية السابقة ص ص ١٧٥ وبعدها .

(٨٢) فيما يتعلق بالبعثات البابوية وسفارات الملوك الأوروبيين السياسية ، وما كتبه أولئك المبعوثون : انظر ، كتابنا : **سقوط الدولة العباسية**، ص ص ٣١٨ ـ ٣٢٢ . ثم لتطلع على ما حوته تلك البعثات انظر: I. de Rachewilts, **Papal Envoys to the Great Khans,** وقد اشتمل هذا الكتاب على معظم البعثات السياسية الأوروبية إلى المغول . ومن الكتب الأخرى في هذا الشأن انظر W. W. Rockhill, **The Journy of William of Rubruck to the Eastern Parts of the World 1253- 55,** 1967; Carpini, John, **History of the Mongol,** 1955; Benedicts, **The Narrative,** and **The Journey of William of Rubruck** (London and New York, 1955)، وقد جُمعت الرحلات الثلاث الأخيرة في كتاب واحد حققه وقدم له : دوسون ، وطبع في لندن ونيويورك سنة ١٩٥٥ .

العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ٩٥ ـ ٩٨ (١٩٨٧)

درهم أيوبي يسجل مصاهرة ملكية

للدكتور رأفت محمد النبراوي

عند دراسة هنري لوفواه لدرهم أيوبي عثر عليه ضمن مجموعة خاصة أخطأ في قراءة الاسم المضروب من مركز ظهر الدرهم اسفل اسم الخليفة العباسي ، وتبعه في هذا الخطأ الدكتور / احمد رمضان دون تمعن أو تمحيص واسترعى انتباه الباحث أمران : أولهما الالقاب الملحقة بالاسم المزعوم « محسن » وثانيهما التاريخ المسجل من وجه الدرهم .

واستطاع قراءة الاسم بوضوح « السلطان ـ الأعظم كيخسرو ـ و » وأعاد قراءة الدرهم من جديد ، وبرر الاسباب الذي تجعل قراءته صحيحة . . كما استطاع أن يحدد تاريخ سك الدرهم إذ اتضح له أن هذا الدرهم ضرب ضمن سلسلة الدراهم الايوبية التي ضربت بحلب في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب منذ سنة ٦٣٥هـ بمناسبة المصاهرة الملكية بين أسرتي الملك الناصر والسلطان كيخسرو . . ويؤكد هذا الدرهم موضوع البحث أن هذا النوع من سكة مدينة حلب التي تشتمل على اسم السلطان كيخسرو ، وظل يضرب على الاقل حتى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وهو التاريخ المذكور على الدرهم .

في مجموعة خاصة[1] ، حاول بعض المهتمين بدراسات المسكوكات قراءة كتابات درهم أيوبي ، غير انه قد خانهم الحظ إذ قرأ أحدهم وهو لافواه[2] Henri Lavoix درهماً شبيهاً له وأخطأ في قراءة الاسم المضروب على مركز ظهر الدرهم أسفل اسم الخليفة العباسي ، إذ قرأه « السلطان الأعظم محسن » وذكر انه أحد ابناء صلاح الدين الأيوبي السبعة عشر ، وأنه بعد وفاة صلاح الدين اقتسم أشقاؤه وأبناؤه الأقاليم والمدن والقلاع ولم ينل السلطان أحمد المحسن أي نصيب من ميراث أبيه ، كما ذُكر أنه توفي سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م .

وحين تعرض الدكتور أحمد رمضان[3] لقراءة كتابات الدرهم موضوع البحث اتبع قراءة لافواه دون تمعن أو تمحيص .

واسترعى انتباهي في هذه القراءة أمران : أولهما الألقاب الملحقة بالاسم المزعوم « محسن » ، وثانيهما التاريخ المسجل بها من وجه الدرهم .

فمن حيث الألقاب الملحقة بالاسم وهي « السلطان الأعظم » يلاحظ انها لم ترد على مسكوكات أي من الملوك الأيوبيين بحلب ، ولكنها من مراسيم ألقاب سلاطين سلاجقة الروم .[4]

---

(١) مجموعة الدكتور هنري أمين عوض بالقاهرة .

(٢) Henri Lavoix, **Catalogue des Monnaies musulmanes de la Bibliotheque Nationale**, Vol. III, (Paris, 1896), pp 217- 220.

(٣) أحمد رمضان ، مجتمع الشام زمن الحروب الصليبية ، مخطوط رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة القاهرة (القاهرة ، ١٩٧٥م) ، ص ٤٦٤ .

(٤) حسن الباشا (دكتور) : **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار** (القاهرة ، ١٩٥٧م) ، ص ٣٣٠ .

وأما من حيث التاريخ المسجل ، فمن المعروف أن الملك أحمد المحسن بن صلاح الدين الأيوبي ، الذي نسب إليه الدرهم موضوع البحث ، توفي في شهر المحرم سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م[٥] : أي قبل تاريخ جذب الدرهم المذكور عاليه وهو سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م بثلاث سنوات ، كما لم تذكر المصادر التاريخية أن أحمد المحسن تولى حكم حلب .

ودفعني ذلك إلى محاولة قراءة الاسم ، فوجدت أنه يقرأ بوضوح : « السلطان ـ الأعظم كيخسر ـ و » ، ومن ثم تصبح قراءة كتابات الدرهم على النحو التالي :

وجه	ظهر
مركز	مركز:
يوسف	أبو جعفر
الملك الناصر[٦]	الإمام[٧] المستنصر بالله
صلاح الدين	السلطان[٨]
ابن الملك العزيز	الأعظم كيخسر
محمد	و
هامش	هامش
ضرب/بحلب/سنة/	لا إله/إلا/الله/
سبع/ثلثين/ستمائة/	محمد/رسول/الله/

مجموعة دكتور هنري أمين عوض .

وزن : ٣ جرام .

قطر : ١ و ٢٢ مم .

غير أنه بهذه القراءة نجد أن هذا الدرهم يجمع بين ثلاثة اسماء هي :

أولاً : « الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » وهو حفيد صلاح الدين الأيوبي ، مؤسس الدولة الأيوبية ، وتولى حكم حلب في سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) وكان عمر حينئذ نحو سبع سنوات[٩] ، وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأمين ، وعز الدين عمر بن محلي تحت وصاية جدته ضيفة[١٠] خاتون[١١] .

ثانياً : « الإمام المستنصر بالله أبو جعفر » ، وتولى الخلافة العباسية من سنة ٦٢٣ هـ[١٢] إلى سنة ٦٤٠ هـ[١٣] (١٢٤٢ م) .

ثالثاً : « السلطان[١٤] الأعظم كيخسرو وهو أحد سلاطين سلاجقة الروم ، واسمه الكامل غياث الدنيا والدين أبو الفتح كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، وتولى السلطنة من سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٤ م) إلى سنة ٦٤٤ (١٢٤٦ م) .

---

(٥) ابن تغري بردى جمال الدين ، (أبو المحاسن يوسف) ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (كليفورنيا ، ١٩٣٦) تحرير وليم بومر ، ج ٦ ، ص ٢٩٨ .

(٦) الناصرة ، النعت الخاص للملك يوسف بن العزيز محمد .

(٧) عن لقب الإمام ، انظر : القلقشندي ، أحمد بن علي بن أحمد الغزاري ، **صبح الأعشى في صناعة الانشا** ، (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤) ، ج ٦ ، ص ١٠ .

(٨) عن لقب السلطان . انظر القلقشندي ، ج ٥ ، ص ٤٤٨ ؛ الكرملي ، انستاس ماري ، **النقود العربية وعلم النميات** ، (القاهرة : المطبعة العصرية ، ١٩٣٩) ، ص ١٢٣ .

(٩) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) ، **السلوك في معرفة دول الملوك** ، حوادث سنة ٦٣٤ هـ ، مخطوط ، ٨٤٥ هـ ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٥٣ .

(١٠) ولدت ضيفة خاتون في سنة ٥٨١ هـ أو سنة ٥٨٢ هـ بقلعة حلب حينما كان أبوها ملكاً على حلب ، وكان عند أبيها ضيف فسماها ضيفة .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : وزارة المعارف ، إدارة الثقافة العامة ، ١٩٥٣) ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

وتزوجت ضيفة خاتون من الملك الظاهر غازي في سنة ٦٠٧ هـ ؛ ابن العديم ، كمال الدين أبو حفص عمر بن أحمد ، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** ، تحقيق سامي الدهان (دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ٥١/ ١٩٥٤) ، ج ٣ ، ص ١٦٣ .

وعن وفاة ضيفة خاتون يقول المقريزي : ماتت ضيفة خاتون ابنة العادل أبو بكر بن أيوب ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى ، فاستبد ابنها الناصر يوسف بن الظاهر غازي بمملكة حلب بعدها؛ المقريزي، **السلوك** حوادث سنة ٦٤٠ هـ ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣١١ .

(١١) خاتون : لفظ تركي معناه السيدة ، وكان يطلق على الجليلات من النساء خصوصاً أميرات الأسر الحاكمة ، وفي هذه الحالة كان اللقب يتبع الاسم . Max Van Berchem, **Epigraphie des Assassins,** de Syrie (JA 1897, Mai-Juin), p. 32.

(١٢) المقريزي ، **السلوك** ، حوادث سنة ٦٢٣هـ .

(١٣) أبو الفداء ، **تتمة المختصر في أخبار البشر** (القاهرة : المطبعة الوهبية ، ١٢٨٥ هـ) ، حوادث سنة ٦٤٠ هـ ، ج ٣ ، ص ١٧١ .

(١٤) السلطان الأعظم : ورد هذا اللقب على نقود سلاجقة الروم تقريباً منذ عهد علاء الدين كيقباذ الأول (٦١٦ ـ ٦٣٤ هـ / ١٢١٩ ـ ١١٣٦ م) وحتى سقوط دولتهم .

ومن الطبيعي أن يرد اسم الملك الناصر ملك حلب بمركز الوجه باعتباره الآمر بضرب الدرهم ، وأن يرد اسم الخليفة العباسي المستنصر بالله بمركز الظهر باعتباره الخليفة الذي يتبعه الملك الناصر .

غير أن ورود اسم السلطان الأعظم كيخسرو على الدرهم نفسه يثير التساؤل ، ولكن بالرجوع إلى المصادر التاريخية يتضح أن ورود هذا الاسم كان تسجيلاً لمصاهرة تمت بين السلطان كيخسرو وبين الملك الناصر صلاح الدين يوسف .

وتفصيل ذلك أنه في سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م أرسل السلطان كيخسرو رسولاً من قبله إلى ضيفة خاتون لكي تزوجه أخت «الملك الناصر»، وأن يتزوج «الملك الناصر» أخت السلطان كيخسرو المذكور[١٥] . وكانت ضيفة خاتون بنت الملك العادل وزوجة الملك الظاهر غازي هي الوصية على حكم حلب في ذلك الوقت ، لصغر سن الملك الناصر صلاح الدين يوسف . ويذكر المؤرخون أنه تمت الموافقة على هذه المصاهرة الملكية ، واجتمع الناس في دار السلطان القلعة ، وعقد السلطان غياث الدين على « غازية خاتون » حت الملك الناصر على صداق، خمسون ألف دينار، وتولى لعقد كمال الدين بن أبي جرادة بن العديم على مذهب الإمام بي حنيفة رضي الله عنه لصغر سن الزوجة .

ورحل « الملك الناصر » من حلب في شوال سنة ٦٣٥ هـ ١٢٣٧م إلى بلاد الروم لإتمام زواجه بملكة خاتون أخت السلطان كيخسرو ، وتم توقيع عقد زواجه على صداق مماثل بصداق كيخسرو وغازية خاتون .[١٦]

وذكر ابن العديم أنه احتفل بهذه المناسبة بإبراز مظاهر التجمل ، وآلات الذهب والفضة ، ونثر الدنانير والدراهم ، ووزع الثياب والستر ، وضرب البشائر في دار السلطان ، وأظهر السرور والفرح بما لا يوصف .[١٧]

وتضيف المصادر التاريخية أنه في سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م نفسها وصل إلى حلب رسولاً من قبل السلطان كيخسرو وهو « عز الدين قاضي دوقات » ، وطلب إقامة الدعوة « للسلطان كيخسرو » وضرب السكة باسمه فوافقت ضيفة خاتون على ذلك ، كما خطب للسلطان كيخسرو في حلب في السنة نفسها ، واحتفل بهذه المناسبة بنثر الدنانير والدراهم .

وهكذا يتضح مما سبق أن هذا الدرهم ضرب ضمن سلسلة الدراهم الأيوبية التي ضربت بمدينة حلب ، في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب منذ سنة ٦٣٥ هـ ، بمناسبة المصاهرة الملكية بين أسرتي الملك الناصر والسلطان كيخسرو . ويؤكد الدرهم موضوع البحث أن هذا النوع من سكة مدينة حلب التي تشتمل على اسم السلطان كيخسرو ، وظل يضرب على الأقل حتى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ، وهو التاريخ المذكور على الدرهم . بل أنه من المحتمل أن هذا النوع من الدراهم ظل يضرب حتى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[١٨] ، وهي السنة التي فر فيها السلطان كيخسرو إلى القسطنطينية بسبب غزو التتار لبلاده .[١٩]

ومن الواضح أن عدم تسجيل اسم وألقاب الخليفة العباسي كاملاً بمركز ظهر هذا الدرهم حسب المراسيم المتبعة على الدراهم الأيوبية[٢٠] والدراهم السلجوقية[٢١] يرجع إلى ضرورة الملاءمة بين الاسمين المطلوب تدوينهما ، وبين المساحة المتاحة بمركز ظهر الدرهم .

---

(١٥) المقريزي ، السلوك ، حوادث سنة ٦٣٥هـ ، ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٦) ابن العديم ، ج ٣ ص ٢٤٠ .

(١٧) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(١٨) Paul Balog, **The Coinage of the Ayyubids,** (London: Royal Numismatic Society, 1980), p. 300.

(١٩) المقريزي ، السلوك ، حوادث ٦٤١هـ ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣١٣ .

(٢٠) جرت العادة على تسجيل اسم وألقاب الخليفة العباسي المستنصر بالله بمركز ظهر الدراهم الأيوبية بحلب كما يلي : « الإمام المستنصر بالله أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين » .

(٢١) جرت العادة على تسجيل اسم السلطان غياث الدين كيخسرو بمركز ظهر الدراهم السلجوقية بعدة صيغ مختلفة منها : « السلطان الأعظم كيخسرو كيقباد » .

أحمد ضيا ، مسكوكات إسلامية ، ص ١٣٤ ، مسلسل ١٩١٦ .

درهم أيوبي ضرب حلب يحمل أسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف حاكم حلب بكتابات مركز الوجه واسم السلطان الأعظم كيخسرو سلطان سلاجقة الروم بكتابات مركز الظهر.



ظهر



وجه

العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول ٩٩ ـ ١١٨ (١٩٨٧)

قراءة جديدة في مفاوضات هرتزل مع العثمانيين (١٨٩٦ - ١٩٠٢) م

للدكتور أمين عبدالله محمود

ملخص البحث : تتناول الدراسة بالعرض والتحليل موضوع المفاوضات التي قام بها هرتزل مع مسؤولي الدولة العثمانية في الفترة بين عامي ١٨٩٦ ـ ١٩٠٢ . وتركز الدراسة في تناولها لهذا الموضوع على جوانب رئيسة ثلاثة محاولة الإجابة عليها . أول هذه الجوانب تحليل الأسباب والدوافع التي حدت بهرتزل إلى التوجه صوب العثمانيين لإيجاد حل للمسألة اليهودية . وثاني هذه الجوانب مناقشة المبررات التي دفعت بالعثمانيين إلى إجراء مباحثات مع هرتزل رغم معارضتهم المستمرة لفكرة الاستيطان اليهودي في فلسطين . أما ثالث هذه الجوانب فهو استعراض وتحليل الأسباب التي أدت إلى إطالة أمد المفاوضات رغم الرفض العثماني الرسمي منذ البداية للطرح الاستيطاني اليهودي الذي قدمه هرتزل في الآستانة .

إن الهدف الأساسي من وراء هذه الدراسة هو مزيد من التوضيح لخطورة الأطماع التوسعية الصهيونية وإبراز عمق الصلة بين الحركة الصهيونية والقوى الاستعمارية الغربية في تحالفها لمواجهة تحديات اليقظة العربية والنهضة الإسلامية . وقد تبنت الدراسة المنهجية التاريخية العلمية ملتزمة بالحقائق التاريخية الثابتة كأساس لها ، ومستعينة بمبدأ الربط والتحليل والمناقشة للوصول بالدراسة إلى جدواها العلمي المنشود .

هرتزل والمسألة اليهودية

يعتبر تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م) المؤسس الحقيقي للصهيونية السياسية الحديثة واليه يعود الفضل في إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية . لقد كرس هرتزل العقد الأخير من عمره في محاولات جادة لإيجاد حل لما أسماه « بالمسألة اليهودية » . ونجح في ابراز هذه « المسألة » على صعيد اهتمامات كل من البرجوازية اليهودية والرأسمالية الغربية بحيث أصبحت قضية عالمية ومثار اهتمام الكثير من الأثرياء اليهود ورجال الحكم والنفوذ الغربيين .

كان لإقامة هرتزل في باريس أكبر الأثر في تفهمه لمختلف أبعاد المسألة اليهودية وإطلاعه على الأسباب والدوافع الكامنة وراء اشتداد موجة العداء اللاسامية هناك . ففرنسا في ذلك الوقت كانت مسرحاً لفضيحة قناة بنما وقضية دريفوس[١] حيث بلغت تلك الموجة ذروتها مما دفع هرتزل ـ كما ورد في

(١) بالنسبة لفضيحة قناة بنما فهي فضيحة مالية تورط فيها عدد كبير من الرأسماليين الفرنسيين وكان بينهم مجموعة من اليهود . وقد كشفت هذه الفضيحة الكثير من أعمال الخداع والرشوة التي أحاطت بمشروع القناة الذي كانت تشرف عليه الحكومة الفرنسية . وأدى تسرب أنباء الفضيحة إلى إثارة حفيظة الشعب الفرنسي الذي أخذ يوجه أصابع الاتهام صوب المتورطين بشكل عام واليهود منهم بشكل خاص .

كتاباته - إلى الدخول في ساحة العمل الصهيوني مستهلاً بذلك مرحلة جديدة في حياته العملية . ففي منتصف عام ١٨٩٥م شهدت حياته تحولاً جذرياً - كما أشار في يومياته - وأدى به هذا التحول إلى تسييس المسألة اليهودية وتزعم الدعوة الصهيونية السياسية الحديثة . وبدأ هرتزل في تلك الفترة يجري اتصالات مع كبار المتمولين اليهود لحثهم على ضرورة التوصل إلى خطط عملية لحل المسألة اليهودية . ففي مايو عام ١٨٩٥م قابل البارون موريس دي هيرش وقام بشرح وجهة نظره لحل المسألة اليهودية وذلك عن طريق شراء أرض واسعة في أية بقعة في العالم سواء أكانت فلسطين أم غيرها، وطلب منه العون لإنشاء دولة يهودية فيها . ولكن البارون - على ما يبدو - لم يكن مستعداً للدخول في مغامرات غير مأمونة العواقب ، واعتبر مشروع هرتزل مجرد وهم كبير وبقي متمسكاً بمشروعه الرامي إلى توطين اليهود في الأرجنتين وتحويلهم الى « شعب زراعي» .(٢)

غير أن فشله في محاولته هذه ، لم يجعله ييأس ويتخلى عن مشروعه ، وإنما بدأ هرتزل يعمل على بلورة آرائه ومفاهيمه ويدونها بشكل منطقي ومنظم استعداداً لبدء محاولة اتصال جديدة مع متمولين يهود آخرين وخاصة مع آل روتشيلد ، العائلة اليهودية الثرية المعروفة . وقد نجح في تدوين آرائه وافكاره ضمن كراس صدر بالألمانية في فبراير عام ١٩٨٥ بعنوان « دولة اليهود » Judenstaat والحق به عنواناً فرعياً واصفاً الكراس بأنه « محاولة لإيجاد حل عصري للمسألة اليهودية » . ووجه هرتزل أول نسخة من كراسه إلى آل روتشيلد في محاولة منه لكسب هذه العائلة الى جانبه منذ البداية . غير أن حظه من النجاح مع هذه العائلة لم يكن بأفضل من حظه مع البارون هيرش . ولعل السبب الذي جعل المتمولين اليهود لا يقبلون على تبني مشروع هرتزل الرامي إلى تأسيس دولة يهودية تخوفهم من أن يؤدي قيام مثل هذه الدولة إلى التأثير على أوضاعهم وامتيازاتهم في البلاد التي يعيشون فيها . إلا أن ترددهم ما لبث أن تلاشى في أعقاب وفاة هرتزل وبعد أن تبين لهم ان قيام مثل هذه الدولة سيحمل في طياته فوائد جمة ليس فقط لأثرياء اليهود وإنما أيضاً للرأسمالية الأوروبية بشكل عام . إن العثور على بقعة خارج القارة الأوروبية لتوطين عامة اليهود وفقرائهم فيها ، من شأنه - كما يبين هرتزل - أن يخفف حدة الشعور باللاسامية بين الفئات التي كان ينافسها هؤلاء المهاجرون في المجالات الاقتصادية وخاصة أفراد الطبقة الوسطى . كما أن توطين هذه الفئات اليهودية خارج القارة الأوروبية فيه خدمة للبرجوازية اليهودية بتخليصها من الأعباء الاقتصادية والاجتماعية للمهاجرين اليهود ،وبالإضافة إلى ذلك فإن هرتزل رأى في خروجهم أيضاً خدمة للرأسمالية الأوروبية لما يقدمه هذا من استقرار داخلي وهدوء اجتماعي . وقد عبر عن ذلك بقوله : « . . . لن تؤثر هجرة اليهود على اقتصاد البلاد التي سيتركونها ولن تؤدي إلى حدوث أزمات أو اضطرابات بل ستنتعش هذه البلاد وتشهد مرحلة استقرار جديدة . سيكون هناك هجرات داخلية بين المسيحيين إلى المواقع التي رحل عنها اليهود . وسيتم خروج اليهود بصورة تدريجية وبدون أي اضطراب وسيؤدي ذلك إلى نهاية حركة العداء للسامية» .(٣)

وإذا ما دققنا النظر فيما طرحه هرتزل ، نجد أن الملامح الاستعمارية التي تميزت بها الحركة الصهيونية تبرز بشكل واضح في هذه الأطروحات . ومثال ذلك نقده الشديد

= Howard M. Sachar, **The Course of Modern Jewish History** (New York, 1958), p. 229 .

أما قضية دريفوس فهي نسبة إلى الفرد دريفوس Alfred Dreyfus وهو يهودي الأصل كان يعمل ضابطاً في سلاح المدفعية الفرنسية. وقد اتهم عام ١٨٩٤م بأنه سلم معلومات هامة إلى الملحق العسكري الالماني في باريس . واتهم بالخيانة العظمى وأدين بعد محاكمة استمرت مدة ليست بالقصيرة ، وحكم بطرده من الجيش ونفيه إلى جزيرة الشيطان . ولكن قضية دريفوس لم تتوقف عند هذا الحد ، ففي عام ١٨٩٦م تم اكتشاف الجاني الحقيقي واسمه استرهازي Esterhazy . وقد تسربت الأنباء إلى الصحافة الليبرالية في فرنسا والتي كانت تتحرق شوقاً لتوجيه ضربة قاضية إلى نفوذ القوى الفرنسية المحافظة التي كانت تهيمن على الكنيسة والجيش . وقد نجحت الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى في تضخيم القضية حتى أصبحت عام ١٨٩٨ م فضيحة كبرى تشغل الرأي العام الفرنسي والأوروبي معاً . وقد أعيدت محاكمة دريفوس ثانية عام ١٨٩٩ م وبرىء من جزء من التهم التي أدين بها ، ولكن لم تخمد واستمرت حتى تمت تبرئته نهائياً عام ١٩٠٧ م . انظر : Sachar, pp. 230 - 233 .

(٢) أمين عبد الله محمود ،«مشاريع الاستيطان اليهودي : البدائل الأخرى»، مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت ، ديسمبر ١٩٧٨ ، العدد ١٤ ، ص. ١٠ .

(٣) Theodor Herzl, **The Jewish State** (London, 1939), p. 18 .

للصيغة التي كان يتم بها الاستيطان اليهودي في فلسطين والأرجنتين وغيرهما ، حيث كان يتم ذلك على نطاق ضيق وبشكل سري . وبين هرتزل أن التوفيق بين مصالح الفئات اليهودية المختلفة لا يتم إلا إذا كان الاستيطان واسعاً بما فيه الكفاية . ولذا فقد دعا إلى تنفيذ الهجرات اليهودية ضمن مخطط استيطاني واسع وعلني يتم بمساعدة إحدى الدول الأوروبية الكبرى . وقد وصف هرتزل ذلك بقوله : « . . . كانت محاولات الاستعمار الفردية محاولات مثيرة للاهتمام - بالرغم من فشلها - لما مثلته على نطاق صغير من مؤشرات عملية لفكرة تأسيس دولة يهودية . وكانت مفيدة من حيث انها جعلتنا نستفيد من اخطائهم في تنفيذ المشاريع الضخمة . . . ان الشيء الذي يبدو غير عملي او مستحيلاً على نطاق ضيق ليس بالضرورة ان يكون كذلك على نطاق واسع . فقد يخسر مصنع صغير في ظل الشروط نفسها التي تجعل المصنع الكبير يربح . . . » .(٤)

وحين انتقل هرتزل إلى عرض خطته التي اقترحها لحل المسألة اليهودية ، وجدناه يقدم مشروعاً استيطانياً معتمداً في تنفيذه على إنشاء شركة يهودية ذات امتياز A Jewish Chartered Company . وقد أورد هرتزل وصفاً موجزاً لطبيعة هذه الشركة على النحو التالي : « ستكون هذه الشركة على نمط الشركات العقارية الكبرى ، وبالإمكان تسميتها أيضاً الشركة اليهودية ذات الامتياز . وستؤسس هذه الشركة كشركة مساهمة ، تسجل في انجلترا بموجب القانون الإنجليزي وتحت حمايته وتكون خاضعة للتشريع الانجليزي . . . »(٥) ويقوم بتمويل هذه الشركة والإشراف عليها مجموعة من رجال المال والمصرفيين اليهود ممن يكون هدفهم تحقيق الربح المادي .

من الواضح أن هرتزل كان معجباً بشركة الهند الشرقية الإنجليزية ، ودليل ذلك اختياره اسم « الشركة اليهودية الشرقية المحدودة » ليطلقه على شركته المقترحة . وقد دعا هرتزل إلى الإقتداء بتجربة هذه الشركة الإنجليزية الاستيطانية في الهند للإفادة منها في تحقيق هدفه بإنشاء الدولة اليهودية . وفي محاولة منه لإغراء أقطاب المال اليهود بالمساهمة في هذه الشركة فإن التصورات الهرتزلية للأرباح بلغت حداً لا يصدق : « فالمليون سيجلب خمسة عشر مليوناً والبليون خمسة عشر بليوناً »(٦) و« ستعود هذه الأرباح الضخمة من الاتجار بالأرض إلى الشركة ، فمن حقها كأي رائد اقتصادي ان تجني هذه المكافأة غير المحدودة مقابل تحملها المخاطرة» .(٧) اما بالنسبة للمصادر التي كان هرتزل يتطلع الى جني أرباح الشركة من ورائها فكانت تتضمن إنشاء المشاريع التجارية في الأرض التي يتفق على استيطانها ، وفي الاشتغال بالمضاربات العقارية بالإضافة إلى وضع الشركة يدها على أملاك اليهود المهاجرين وحقوقهم المالية في الدول التي كانوا يعيشون فيها ، وتعويضهم عنها بممتلكات في مستوطناتهم الجديدة والتي يكونون قد حصلوا عليها بأسعار زهيدة جداً مما سيحقق مصدراً ضخماً للربح بالنسبة للشركة .(٨)

ولعل من المناسب هنا الإشارة إلى محاولة هرتزل الالتقاء بالاستعماري البريطاني المشهور ، السير سيسيل رودس ، مؤسس النظام العنصري في روديسيا ، طالباً منه في رسالة وجهها اليه عام ١٩٠٢ إن يلقي بثقله ويدعم مشروعه الاستيطاني مبدياً رغبته في التعاون معه إلى أقصى الحدود . وكان مما قاله له في هذا المجال : « . . . ان التاريخ يدعوك للمساهمة في أمر لا يبعث على الخوف ولا يثير السخرية . انه لا يدخل ضمن النطاق الذي تعودت عليه فهو لا يتعلق بأفريقيا وإنما بجزء من آسيا الصغرى ، كما انه لا يتعلق بالانجليز وإنما باليهود . ومع ذلك فإن بإمكانك مواجهة الموضوع والقيام بتنفيذه . انني الجأ اليك بالرغم من بعدك عن الموضوع ، لأنه موضوع استعماري انت أدرى بمواجهته وتنفيذه »(٩) وبدلاً من تلقي هرتزل رداً على رسالته فإنه تلقى

---

(٤) Herzl, p 19 .

(٥) Herzl, p 23 .

(٦) ستيفن هلبروك ، «الجذور الطبقية في العقيدة الصهيونية » ، المختار من مجلة الدراسات الفلسطينية ، الكويت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) Herzl, p. 34.

(٩) Theodor Herzl, **Diaries** (New York, 1960), Vol III, p. 1194.

نبأ وفاة رودس نفسه في مارس ١٩٠٢م فكانت صدمة قاسية له هزته من الأعماق .

جاء الطرح الهرتزلي للمسألة اليهودية على أساس أنها مسألة قومية في المقام الأول . ولذلك كان هم هرتزل الأساسي العثور على الوسيلة المناسبة التي يتم بوساطتها إثارة الرغبة « لدى الجماهير اليهودية في الوجود القومي المستقل والسعي من أجل تحصيله » . ولم يلبث هرتزل أن تناول ظاهرة العداء للسامية واعتبرها تربة خصبة ووسيلة مناسبة لتحريك الجماهير اليهودية ودفعها نحو إقامة « وطن قومي » لها . وركز على أن هذه الظاهرة ليست ظاهرة طارئة عرضية وإنما ظاهرة مستمدة من خصائص الإنسان الثابتة . ولذا فكراهية اليهود موجودة بين الناس منذ أقدم العصور وفي مختلف الأماكن . وتوصل هرتزل إلى القول بأن الحركة الصهيونية « ليست بحاجة إلى بذل الكثير من الجهد من أجل دفع الجماهير اليهودية الفقيرة صوب الوطن المنشود ـ فالمعادون للسامية سيتولون مهمة تقديم الجهد اللازم لذلك . وما عليهم سوى القيام بما تعودوا القيام به في السابق كي يولدوا الرغبة في الهجرة حيث لم تكن موجودة في الماضي ويزيدوا من حدتها حيث كانت موجودة في الأصل »[١٠] ومضى هرتزل في استنتاجه إلى القول باستحالة القضاء على ظاهرة العداء للسامية « واستئصالها من الطبيعة البشرية » ، ولذا فالحل الوحيد أمام اليهود هو تجميعهم في بقعة يتخذونها « وطناً قومياً » لهم ، وكانت فلسطين اختياره المفضل في تلك المرحلة . وقد أشار هرتزل في يومياته عام ١٨٩٥م الى ضرورة نزع «الملكية الخاصة لأراضي فلسطين من أيدي ملاكها على أن يتم ذلك بمنتهى السرية والتكتم والحذر الشديد . كما يجري تهجير السكان المعدمين ـ الفلسطينيين ـ عبر الحدود بعد أن تسد أمامهم كل مجالات العمل ، وتجري محاولة تأمين استخدامهم وتشغيلهم في بلدان العبور » .[١١]

أما بالنسبة لتأسيس « وطن قومي » لليهود في فلسطين فقد نادى هرتزل بتحقيق ذلك من خلال تحالف صهيوني عثماني . والسر في اختياره للدولة العثمانية يعود إلى سيطرتها المطلقة وهيمنتها الشاملة آنذاك على الشرق العربي بما فيه فلسطين . وبدأ هرتزل في الفترة بين عامي ١٨٩٦ ـ ١٩٠٢م مساعيه الحثيثة الجادة لإقناع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بالسماح لليهود بامتلاك فلسطين مقابل تنظيم اقتصاد الدولة العثمانية ودفع الديون المترتبة عليها .

هرتزل وفكرة التحالف مع العثمانيين

كانت الدولة العثمانية أول دولة يتجه اليها هرتزل طالباً دعمها وتأييدها من أجل اقامة كيان يهودي سياسي في فلسطين . ففي حزيران ١٨٩٦م استقر رأي هرتزل على السفر إلى الآستانة ،وكان يأمل أن يحظى بمقابلة السلطان وتتاح له الفرصة لطرح أفكاره الرامية إلى شراء أرض فلسطين مقابل «ان نأخذ علي عاتقنا مسؤ ولية ضبط شؤ ون تركيا المالية برمتها ومنشكل هناك جزءاً من سور اوروبا الواقي في وجه آسيا ، ومركزاً امامياً للحضارة ضد البربرية » .[١٢] ويتضح هنا وصف الصفقة التي كان يحلم هرتزل بالتوصل اليها مع السلطان العثماني من ناحية، والاستعمار الغربي من ناحية اخرى . وتتضمن تقديم أرض فلسطين إلى الحركة الصهيونية مقابل « تدعيم الامبراطورية العثمانية المتداعية وضمان استمرارها في وجه الأخطار التي كانت تهددها »[١٣] وتعميق السيطرة الاقتصادية الغربية على هذه الامبراطورية الآسيوية بحيث يتولى أقطاب المال اليهود القيام بدور خاص وفعال في هذا المجال . وبالإضافة إلى ما سبق فإن هذه الصفقة تتضمن تشكيل متراس وموقع أمامي للاستعمار الغربي في وجه شعوب آسيا « البربرية » وحركاتها الوطنية المعادية « للحضارة » التي يحملها المستعمر معه ! .[١٤]

وفي محاولة منه لتيسير مهمته مع السلطان العثماني ، لجأ هرتزل الى كسب دعم أغنياء اليهود لتوفير الأموال اللازمة وإغراء الدول الكبرى للضغط على الدولة العثمانية من أجل

(١٠) Herzl, The Jewish State, p.75

(١١) Herzl, Diaries, Vol I, p. 175

(١٢) Herzl, The Jewish State, p. 30.

(١٣) صادق جلال العظم ، **الصهيونية والصراع الطبقي** (بيروت ، ١٩٧٥)،ص ١٤٨ .

(١٤) المصدر نفسه .

تحقيق الآمال الصهيونية - أما بالنسبة للأثرياء اليهود فكان موقف غالبيتهم سلباً تجاه المشروع الهرتزلي « لا يريدون المشاركة فيه ولا الاسهام في تمويله » .(١٥) وكان ادموند دي روتشيلد مقتنعاً بأن المشروع غير قابل للتنفيذ حيث إن السلطان - في نظره - كان « يخشى رد فعل روسيا المناوئة لوقوع فلسطين في دائرة النفوذ اليهودي » بالإضافة إلى اقتناع روتشيلد « بعدم مصداقية السلطان تجاه اليهود رغم حاجته الماسة لأموالهم » ، وان ما يصدر عنه من وعود تجاههم ما هي إلا « وعود غامضة لا قيمة لها » .(١٦) ولذا كان روتشيلد يرى أن من الأفضل ترك السلطان العثماني وشأنه وعدم التعرض له .

كما أن روتشيلد رأى في رغبة هرتزل السفر إلى الآستانة أمراً محفوفاً بالخطر والغدر في وقت واحد معاً . لقد كان خطراً لأن المعادين للسامية - إزاء اندفاع هرتزل هذا - سيطرحون قضية افتقار اليهود لوطن ويشككون في ولاء اليهود للأقطار التي يقيمون بها . وكان ضاراً لأن مبادرة هرتزل تعتبر تدخلاً في أعمال الاستيطان التي يقوم بها روتشيلد نفسه في فلسطين . ولم يكن أحد أكثر معرفة منه بمدى صعوبة الاستمرار فيها . « إن هجرة يهودية واسعة النطاق ستثير عداوة سكان البلاد وريبة السلطات التركية وحسد الجاليات والحجاج المسيحيين وبالتالي ستؤدي دون شك الى تهديد خطير للمستوطنات اليهودية التي سبق تأسيسها » .(١٧) كما أن العديد من الزعماء اليهود الآخرين حذروا هرتزل من مغبة الاتصالات مع السلطان خوفاً من أن يتنبه الاتراك العثمانيون وسكان فلسطين إلى خطورة الأطماع الكامنة وراء مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين . والواقع أن احتمالات الفشل كانت كبيرة والتحذيرات التي تلقاها منذ البداية كانت عديدة ومتشابهة لدرجة جعلت محاولات هرتزل المتتالية لمقابلة السلطان عبد الحميد وطرح مقترحاته أمامه تبدو في غاية السذاجة وعدم الجدوى . وبات من الصعب تفسير هذه المحاولات إلا بأنها كانت نتاج عقل يركز على الغايات إلى حد كان معه شبه منغلق أمام أي تفكير متزن في الوسائل المتاحة لتحقيق تلك الغايات .

لم يدرك هرتزل - من ناحية أخرى - أن قضية تقسيم الدولة العثمانية أضحت قضية غير ملحة في منتصف العقد الأخير من القرن التاسع عشر . ورغم نوبات الاهتمام والقلق التي كانت تحدث بين الفينة والفينة حول قضية الأرمن أو أزمة كريت فإنه لم تكن هناك دولة من الدول الأوروبية الكبرى على استعداد لتحمل النتائج غير المتوقعة والتي سيتمخض عنها انهيار الامبراطورية العثمانية وتقسيمها . وعلى أية حال ، فإن الأزمات الدولية الحقيقية وبؤر النشاط الدبلوماسي كانت بعيدة جداً عن تلك الامبراطورية في السنوات الأخيرة من القرن الماضي والسنوات التي تلتها . لقد كانت تلك الأزمات والبؤر الساخنة في السودان وأواسط افريقيا وجنوبها ، وأهم من ذلك كله كانت في الشرق الأقصى .

كما انه لم يكن لدى هرتزل سوى فكرة في منتهى السطحية عن شخصية السلطان عبد الحميد وقناعاته وأسلوب حكمه . إن واحداً من الأسباب الهامة التي حالت دون تفسخ الامبراطورية العثمانية كان يعود إلى « صلابة السلطان عبد الحميد وتشبثه المستمر في الدفاع عن نفوذه وسلطانه من خطر التهديدات الخارجية والداخلية طيلة فترة الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي » .(١٨) كما كان السلطان يتمتع بخبرة سياسية عظيمة فقد مضى عليه عشرون عاماً وهو على سدة السلطنة لدى أول زيارة قام بها هرتزل للاستانة . وقد طور السلطان أسلوباً للحكم يناسب نزوعه صوب السرية والمراوغة بحيث كان هذا الأسلوب يقوم على بنية سلطوية غامضة ومتغيرة أكثر تعقيداً من أن يستطيع أي مراقب أجنبي إتقانها أو سبر غورها مهما أوتي من خبرة وذكاء . ولعل فيما ورد في مذكرة السفير البريطاني التي رفعها لرؤسائه ما يسلط بعض الأضواء على هذا الأسلوب الفريد في الحكم ، إذ قال فيها : « . . . ان الانطباع العام الذي تركته لدى محادثتي مع السلطان هو انه يختفي وراء الباب العالي في كل امر لم يفرغ

(١٥) Nordau to Herzl, 15 May 1896, **Central Zionist Archives, H VIII**, p. 614 as quoted in David Vital, **The Origins of Zionism** (Oxford, 1975), p. 286 .

(١٦) Vital, Ibid .

(١٧) Ibid

(١٨) Vital, p 288 .

من القيام به ، وان النظام الاداري في حالة من الارتباك والفوضى لا يمكن معه أي اصلاح حقيقي : ففي وسع الصدر الأعظم اصدار ما يشاء من الأوامر ، ولكن لما كان في استطاعة أي مرؤوس تجاهل هذه الأوامر ومخاطبة السلطان مباشرة فإن حالة الارتباك والفوضى تبلغ حداً لا يوصف ، وفي نفس الوقت فإنه بوسع السلطان القول إنه اصدر تعليماته الى الصدر الأعظم ولذا فلا مجال لوضع اللوم عليه » .(١٩)

ولم يكن لدى هرتزل أيضاً فكرة واضحة عن الإسلام أو نظامه السياسي وبالتالي لم يدرك أن المنحنى الذي كان ينحوه عبد الحميد الثاني في تناول قضية فلسطين لم يكن بالإمكان فصله عن دوره كخليفة للمسلمين . إن من أهم الأسس التي كان يعتمد عليها السلاطين العثمانيون في تبرير حكمهم وسيادتهم على العالم الإسلامي هو حمايتهم للأماكن المقدسة الإسلامية ، وكان هذا يشكل أيضاً أحد العوامل الأساسية في تقبل كثير من المسلمين لهم كخلفاء . هذا الأمر في حد ذاته جعل من المستحيل على السلطان أن يتصور أي انتقاص لسلطته على فلسطين حيث توجد « اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين » بالنسبة للمسلمين في كل مكان . ناهيك القول على أن السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين يهدد بخلق مشكلة أقلية قومية أخرى ترى الدولة العثمانية نفسها في غنى عنها(٢٠).

وإذ ما وضعنا مقابل هذه العقبات التي يكاد يستحيل التغلب عليها والتي زاد من صعوبتها عدم إدراك هرتزل وتفهمه لها أنه لم يكن يملك أية موارد شخصية يعتمد عليها . فمن هو هرتزل ؟ ومن كان يمثل ؟ ولماذا يكلف أي إنسان نفسه عناء الإصغاء اليه ، ناهيك عن التفاوض معه ؟ لعل جزءاً من الإجابة تكمن في أن هرتزل كان أحد المحررين البارزين في صحيفة نيوفراي برس Neue Freie Presse النمساوية . فمن حسن حظه أن رجال الحكومة العثمانية والسلطان شخصياً كانوا يولون اهتماماً كبيراً لرأي الصحافة في اوروبا الغربية والوسطى عن العثمانيين وما يكتب فيها عنهم .(٢١) ولا شك ان هرتزل كان يعي هذه الحقيقة جيدا ويدرك أن مركزه في الصحيفة اليومية الرئيسة في فينا يؤمن له وسيلة تقدمه للمسؤولين العثمانيين لا تقدر بثمن . ولذا فإنه لم يكن من السهل على هؤلاء المسؤولين رفض الإصغاء إلى هرتزل ، بل إن أكثر الرسميين العثمانيين تشككا وريبة في المخططات الصهيونية وجدوا أن من الأفضل التعامل معه ولكن بحذر . إذ لا بد أن يكون الضجيج الذي أحدثته تحركات هرتزل قد بلغ المسامع السلطانية وأثار اهتمام الباب العالي لا سيما وأن الصهيونية قد اصبحت أحد بواعث القلق الجدية للحكومة العثمانية وبالتالي أحد الأهداف التي لا بد للحكومة من مراقبتها وملاحقة نشاطاتها .

زيارة هرتزل الأولى للاستانة (حزيران عام١٨٩٦ م)

إن من أهم العوامل التي مهدت السبيل أمام هرتزل كي يقوم برحلته الأولى إلى الآستانة كان نوعية الأشخاص الذين قاموا بدور الوساطة ، والاسلوب الذي صور فيه هؤلاء الوسطاء هرتزل للمسؤولين العثمانيين . ففي مطلع شهر أيار عام١٨٩٦م قام ديونيس روزينفيلد Dionys Rosenfeld محرر جريدة Osmanische Post (البريد العثماني) التي كانت تصدر في الآستانة بزيارة هرتزل في بودابست وأبدى استعداده للوساطة بينه وبين السلطان بهدف تأمين لقاء بينهما . وقد عبر روزنفيلد عن ثقته بملاءمة الوقت لتحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني بسبب ضائقة تركيا المالية المستعصية .(٢٢) فسارع هرتزل مبدياً استعداده لإغداق المال عليه في حال نجاحه بالوساطة ، وكان مما قاله بهذا الخصوص : « . . . سندفع لتركيا الكثير وسنقدم عطايا كبيرة لمن يتوسط لنا كي نحصل على فلسطين ، ولكن كدولة يهودية مستقلة عن الدولة العثمانية» . واضاف هرتزل قائلاً : « نحن لا نرضى بأقل من التنازل لنا عنها كبلد مستقل . ومقابل هذا فإن اليهود مستعدون لتسوية أوضاع تركيا

---

(١٩) Block to Currie, 3 March 1896, PRO, FO, 195 / 1926 ; as quoted in Vital, Ibid.

(٢٠) Vital, p. 290.

(٢١) British Embassy Dispatch, PRO, FO, 195 1927 No.326; as quoted in Vital, Ibid.

(٢٢) N.M. Gelber, «Philip Michael : Herzl's Diplomatic Agents» in R. Patai (ed), **Herzl Yearbook: Essays in Zionist History and Thought**, (London, 1959) Vol.II, le. 345 .

المالية » . (٢٣) إلا أن روزنفيلد سرعان ما تراجع عن وساطته فور معرفته لأهداف هرتزل الحقيقية مؤكداً له بأن السلطان لن يتخلى عن « الأراضي السلطانية الخاصة » أو أراضي الدولة العامة .

ولم يمض وقت طويل حتى تعرف هرتزل على الصحفي فيليب نيولينسكي Philip Neulinsky (٢٤) الذي كان يتمتع بخبرة سياسية عظيمة وتتوفر لديه مصادر ممتازة للمعلومات وتسهيلات خاصة للوصول إلى أعلى المستويات في الاستانة بما في ذلك السلطان نفسه ومستشاره الخاص عزت العابد . وقد وصفه كبير مستشاري السفارة البريطانية في الآستانة بقوله : « . . . انه يعمل ايضاً في خدمة السلطان بشكل مباشر ويتلقى منه مكافأة سنوية مقدارها ١٨ الف فرنك فرنسي اضافة إلى النفقات السرية والهدايا السخية » . (٢٥)

لم يدر هرتزل في بادىء الأمر إلى أي حد سيضع ثقته في نيولينسكي ؟ ولم يعرف مدى علاقته بالأتراك وطبيعة هذه العلاقة على وجه التحديد ؟ ! ولم يدر بخلد هرتزل كما يدور بخلدنا الآن أن جزءاً من مهمة نيولينسكي كان التجسس على هرتزل لصالح الأتراك والسلطان على وجه التحديد . وبالرغم من ذلك فإنه أسدى لهرتزل خدمة كبيرة حينما قدمه لكبار الرسميين العثمانيين وكشف له عن بعض المعلومات السياسية السرية الدقيقة وزوده بالعديد من النصائح القيمة . وكان مما دونه هرتزل عنه : « . . . قال لي انه قرأ ما ورد في كرّاسي من آراء قبل رحلته الأخيرة إلى استانبول وناقشها مع السلطان . وقد أعلن السلطان ان ليس في وسعه التخلي عن القدس أبداً ، إذ لا بد وأن يبقى مسجد عمر في يد المسلمين . واجاب على السلطان بقوله : « ان بالامكان التخلص من تلك المشكلة ، حيث ان بالامكان جعل القدس خارج الحدود وبذلك لا تعود ملكيتها لأحد ، وفي ذات الوقت تصبح ملكيتها عائدة للجميع وسيظل هذا المكان المقدس ملكاً مشتركاً لجميع المؤمنين . . . » . (٢٦)

وعلى أية حال فإنه قد بدا واضحاً أن بإمكان نيولينسكي الوصول إلى السلطان والتمهيد لهرتزل كي « يمثل بين يدي السلطان » . وكان هذا بالنسبة لهرتزل كافياً كي يفضله على أي وسيط آخر بالرغم من أنه كان يدرك جشع نيولينسكي الهائل للمال وقابليته المطلقة للرشوة . (٢٧)

وصل هرتزل إلى الاستانة في السابع عشر من حزيران عام ١٨٩٦ م وبقي فيها حتى مساء الثامن والعشرين من الشهر نفسه . وخلال الإثني عشر يوماً التي قضاها هناك قابل عدداً كبيراً من رجال البلاط والباب العالي . وكان معظمهم متحفظين معه ، إلا أن اكثرهم وداً كان نوري باشا المدير العام لوزارة الخارجية . (٢٨) اما الصدر الأعظم خليل رفعت فلم يبد حماساً للمشروع الصهيوني بالرغم من موافقته على استقبال هرتزل في اليوم التالي لوصوله حيث استمع اليه ووجه اليه بعض الأسئلة المعقولة . وكان المحور المركزي الذي دارت حوله المناقشات المشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين . وقد لخص هرتزل خطته على شكل مشروع شركة أراض يهودية عثمانية احتوى على المقترحات التالية :

١ - تؤمن الشركة للدولة العثمانية قرضاً بقيمة ٢٠ مليون ليرة عثمانية يدفع منها مليونان مقدماً والباقي يدفع على مراحل لتسديد الالتزامات والقروض التي كانت ترزح تحت وطأتها الدولة .

٢ - تسمح الدولة للشركة بالمقابل أن تنقل إلى فلسطين

---

(٢٣) Herzl, Diaries, Vol.I, p. 344.

وانظر ايضاً حسان حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩م (بيروت ، ١٩٧٨) ، ص ١١٣ .

(٢٤) كان فيليب مايكل دي نيولينسكي (١٨٤١ - ١٨٩٩م) ينتمي إلى طبقة النبلاء البولندية Szlachta الذين صادرت روسيا القيصرية ممتلكاتهم نتيجة اشتراكهم في ثورة عام ١٨٦٣م . عمل فترة محامياً في روسيا ثم انتقل ليعمل مستشاراً للسفارة النمسوية في الآستانة ، ثم انتقل إلى وزارة الخارجية في فينا وما لبث أن ترك وظيفته الدبلوماسية ليعمل صحفياً في إحدى كبريات الجرائد النمسوية اليومية ، وكان متخصصاً في الشؤون السياسية للبلقان وشرق البحر المتوسط .

(٢٥) Block to Herbert, 21 May 1896, PRO, FO, 195/1927; as quoted in Vital, p. 291 .

(٢٦) Herzl, Diaries, Vol.I, p. 345 - 346 .

(٢٧) Vital, The Origins , p. 292 .

(٢٨) كان أمين عام المراسلات الخارجية وهو ابن لرجل فرنسي اسمه شاتونيف . وكان على غاية من الذكاء والمقدرة كما كان يعمل جاسوساً للقصر في الوزارة . غير أن تقريراً للسفارة البريطانية وصفه بأنه « فاسد وعديم الضمير إلى أبعد الحدود وأنه يتستر وراء قناع من اللطف والكياسة بل والتهذيب الرفيع » . بل أن نيولينسكي نفسه حذر هرتزل من مغبة الانخداع بالانطباع الجيد الذي خرج به عن نوري .

G. P. Gooch and Harold Temperley, **British Documents on the Origins of the War** (London, 1898- 1917), Vol. V, p. 13 .

وسوريا دون أية قيود أعداداً مناسبة من المهاجرين والعمال اليهود يؤمن لهم الحصول على الجنسية العثمانية .

٣ ـ للشركة الحق في الحصول على أراضٍ من أراضي التاج (الميري) والأرض الجرداء ضمن حدود المنطقة التي تم اختيارها أو تشتري ـ باعتبارها نائباً عن السلطان ـ أراض من الممتلكات الخاصة التي يتم الاحتياج لها فيما عدا ـ بطبيعة الحال ـ الأماكن المقدسة وأراضي بيت المقدس . ويشترط أن توفر الشركة للملاك اراض مماثلة في مكان آخر وأن تدفع الرسوم السنوية المقررة للباب العالي عوضاً عن الضريبة ، علماً بأن الشركة المستوطنة التي تقيمها الشركة نفسها تقوم بتحصيل كافة الضرائب والرسوم في منطقتها .

٤ ـ تتمتع المستوطنة التي تقيمها الشركة بالاستقلال الذاتي التام .

٥ ـ تؤسس الشركة فرقة عسكرية وبحرية يهودية تلتحق بالجيش العثماني للدفاع عن منطقة الاستيطان اليهودي والمحافظة على أمنها واستقرارها . كما تشارك الفرقة في الدفاع عن الامبراطورية العثمانية وقت الضرورة .

٦ ـ يتم اختيار حاكم المستوطنة وقضاتها من المسلمين أو من اليهود وتختارهم الشركة ويصادق السلطان على الاختيار ويقوم الحاكم بتمثيل السلطان في المنطقة ويتمتع بكامل الصلاحيات ويكون مسؤولاً أمامه مباشرة .(٢٩)

كما أضاف هرتزل إلى مشروعه الملاحظتين التاليتين :

أ ـ تلتزم الشركة بتخليص الدولة العثمانية في مختلف أجزائها من « عناصر الشغب » اليهودية (من قوى عمالية وعناصر اشتراكية وانتلجنسيا ثورية) و « تفريغ » الفائض السكاني من فقراء اليهود وتجميعهم في فلسطين .(٣٠)

ب ـ تعزز الشركة قدرة الدولة العثمانية على مواجهة منافسيها من ناحية ، وتوسيع سيطرتها وتثبيتها في وجه الحركات الوطنية التحررية « للشعوب المستعمَرة وشبه المستعمَرة». كل ذلك بوساطة زرع كيان استيطاني في منطقة استراتيجية يقوم بالدفاع عن مصالح الدولة العثمانية والمحافظة عليها . وقد شدد هرتزل في مفاوضاته مع العثمانيين على أنه يسعى لإدخال عنصر جديد تماماً في الشرق العربي عبر استيطان فلسطين ويكون « موالياً كل الموالاة للباب العالي ومستعداً للوقوف في وجه أكثر الأخطار جدية في تهديد الامبراطورية ، وهو خطر الانتفاضة العربية لنيل الاستقلال » .(٣١)

وقد أوضح ماكس نورداو طبيعة الصفقة التي كانت الحركة الصهيونية تسعى لعقدها مع الباب العالي من أجل تثبيت السيطرة العثمانية على الحركة الوطنية العربية الساعية الى تحررها السياسي . ومما قاله في هذا الصدد : « . . بإمكان الحركة العربية التي استحوذت على قسم كبير من العالم العربي أن تأخذ بسهولة اتجاهاً قد يحدث الضرر في فلسطين . . . وقد تشعر الحكومة التركية بأنها مضطرة للدفاع بالقوة المسلحة عن حكمها في فلسطين وسورية ضد رعاياها . . . وفي حال نشوء مثل هذا الوضع قد تقتنع تركيا بأنه من الأهمية بمكان بالنسبة لها أن يوجد في فلسطين وسوريا شعب قوي وحسن التنظيم . . . يقاوم أي هجوم على سلطة السلطان . ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة » .(٣٢)

جاء هذا الموقف الصهيوني إعلاناً للحرب على الحركة القومية العربية وتعبيراً واضحاً جداً عن الدور الرجعي والقمعي الذي كان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين يعد نفسه للقيام به لصالح الدولة المسيطرة في المنطقة مهما كانت طبيعتها أو فلسفتها .

وعلى أية حال فقد جاء رد الباب العالي الرسمي على اقتراحات هرتزل في نهاية اليوم الثاني لوجوده في الآستانة وذلك في ١٨ حزيران . وقد حمل نيولينسكي الرد الرسمي ومفاده أنه لا يمكن لهرتزل مقابلة السلطان خلال تلك الزيارة وإضافة إلى ذلك فقد تضمن الرد تحذيراً من السلطان كي

(٢٩) Ben Halpern, **The Idea of the Jewish State** (Cambridge, 1969)
وانظر أيضاً : احمد عبد الرحيم مصطفى ، «موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية الى فلسطين»، **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، تاريخ فلسطين** ، عمان ، ١٩٨٣ ، المجلد الثالث ، ص ٦٧٣ .

(٣٠) Herzl, **The Jewish State**, p. 30

(٣١) Ibid

(٣٢) Uri - Avnery, **Israel Without Zionism** (London, 1970), pp. 50 - 51.

يبلغه نيولينسكي لهرتزل ، وكان مما ورد فيه : « . . . اذا كانت درجة صداقتك للسيد هرتزل بقدر درجة صداقتك لي فانصحه بعدم اتخاذ مزيد من الخطوات حول هذا الموضوع . اذ لا استطيع بيع قدم واحد من الأرض لأنها ليست لي بل تعود لشعبي . وقد احرز قومي هذه الامبراطورية بأن قاتلوا من أجلها بدمائهم ورووا ارضها بهذه الدماء . وسنغطيها مرة اخرى بدمائنا قبل ان نسمح بانتزاعها منا . ولا تعود ملكية الامبراطورية العثمانية لي بل للشعب العثماني . وانني لا استطيع التنازل عن أي جزء منها » .[٣٣]

وبالرغم من ذلك فإن هرتزل لم يفقد الأمل في نجاح مسعاه فأقحم نفسه في القضية الأرمنية ليوهم السلطان بأن لليهود مقدرة على تبرئة صفحة الباب العالي في أوروبا من مسؤولية « اضطهاد وتشريد » الشعب الأرمني في تلك الفترة ،[٣٤] كما تعهد بالعمل على اقناع زعماء الأرمن بالتوقف عن الثورة ضد السلطان وتخفيف وطأة انتقادات الصحافة الأوروبية للعثمانيين . واشترط هرتزل في حالة نجاحه في هذا المسعى الحصول بالمقابل على فرمان سلطاني بإنشاء دولة يهودية في فلسطين .[٣٥] ويبدو ان نيولينسكي هو الذي اقنعه باقحام نفسه في هذه القضية كي يسهل مهمته في تحقيق أهدافه الاستيطانية . وقبل مغادرة هرتزل الاستانة قام نيولينسكي بترتيب لقاء له مع مستشار السفارة الروسية بهدف إقناع روسيا بالضغط على العثمانيين كي يوافقوا على اقتراحات هرتزل وذلك نظرا لما « تتمتع به روسيا من نفوذ كبير في مقر يلدز » . ويبدو أن هذا الاجتماع أثار حفيظة الألمان مما جعل هرتزل يسارع فيما بعد لكسب ودهم لا سيما وأن المانيا منذ أواخر القرن الماضي اضحت أكثر دول أوروبا نفوذاً في تركيا .

وعلى أية حال فإن العثمانيين لم يوصدوا الأبواب نهائياً في وجه هرتزل . فقبل مغادرته الآستانة بيوم واحد وصلته دعوة من السلطان للقيام بزيارة رسمية للكنوز والقصور السلطانية برفقة مدير المراسم واحد كبار الضباط . كما أمر السلطان بمنحه وسام المجيدية من رتبة ضابط .[٣٦]

كانت آراء هرتزل مبعث قلق متزايد للعديد من أقطاب البرجوازية اليهودية في اوروبا الغربية . فقد أحس هؤلاء أن موقف هرتزل التفاوضي مع العثمانيين أدى إلى إثارة ردود فعل عدائية لدى القوى المناهضة للسامية وأخذت هذه القوى تتهم هرتزل بأنه يسعى إلى « تقوية نفوذ اليهود وسيطرتهم على العالم » من خلال برنامج يهدف إلى استخدام هذا النفوذ والسيطرة بصورة مشروعة وفعالة لخدمة مصالحهم وقضاياهم الذاتية المحضة . وهكذا فإن قدراً كبيراً من النتائج التي توصل إليها هرتزل في الآستانة أصبحت من ناحية أخرى عقبة مباشرة أمام مساعيه في لندن وباريس ، حيث كان الجزء الأكبر من خطة هرتزل يتوقف على دعم المتمولين اليهود في دول أوروبا وخاصة في كل من انجلترا وفرنسا . إلا أن هؤلاء بالإضافة إلى تخوفهم من إثارة موجة جديدة من اللاسامية ، لم يكن لديهم ثقة بالسلطان وكانوا يعتقدون أنا ما أن يحصل على الفرصة المناسبة حتى يبدأ في « تشتيت اليهود المهاجرين» . وقال صموئيل مونتاجو : « . . . لا أرى ضرورة لتصرف اليهود على أساس دولي بالنسبة للأمور السياسية . ولا اظن ان بالامكان جعل اليهود يقيمون في فلسطين الا بتعاون طوعي بين الدول الكبرى او على يد زعيم دولي يستطيع ان يحظى بثقة الشعب اليهودي . ولا ارغب في رؤية عدد كبير من اليهود يوضعون تحت الحكم التركي في الوقت الحاضر » .[٣٧] ولم يكن لقاء هرتزل مع روتشيلد أفضل حالاً من لقائه مع الآخرين . فقد بذل هرتزل جهوداً مضنية لإقناع روتشيلد بأن خطته لن تعرض مستوطناته الموجودة في فلسطين للخطر . وأكد هرتزل له ان السلطان غير معادٍ للمستوطنين اليهود ولكن تحفظات روتشيلد لم تتغير وبقي معارضاً لخطة هرتزل .

كما أن محاولات هرتزل لحل القضية الأرمنية لم تكن أفضل حالاً من محاولاته الاقتراض من المتمولين اليهود لتغطية ديون الدولة العثمانية . فالاجتماع الذي عقده في لندن

---

(٣٣) Herzl, **Diaries**, Vol, p. 378 .

(٣٤) Herzl, **Diaries**, p. 387 .

(٣٥) Herzl, **Diaries**, p. 415 .

(٣٦) Sir Edwin Pears, **Life of Abdul Hamid** (London, 1917), p 143.

(٣٧) Vital, **The Origins**, p. 299 .

مع افيتيس نزربكيان(٣٨) Avetis Nazarbekian أحد زعماء الهنشاق (وهو الحزب الأرمني الثوري الرئيس) لم يتمخض عن أية نتائج ، إذ كان الجو مشحوناً بشعور من انعدام الثقة . ولم يكن من بين مؤيدي هرتزل ، حتى نورداو ، من هو على استعداد لمساعدته في أمر معقد كالتعاون مع الأتراك في القضية الأرمنية حتى ولو على سبيل المساعي الحميدة . وما لبث أن فشلت مساعي هرتزل نهائياً في أعقاب اندلاع موجة جديدة من الثورات الأرمنية أعقبها عمليات قمع تركية مما اصبحت معه المصالحة امراً غير وارد . (٣٩)

بقي هرتزل على اتصال مستمر مع المسؤولين العثمانيين في أعقاب مغادرته الآستانة . ففي آب عام ١٨٩٦م قدم لهم مشروعا يعرض فيه تدبير قرض بقيمة عشرين مليون جنيه استرليني لا تقوم تركيا بسداده وإنما « تحسمه من رسم الضرائب التي تفرض على المهاجرين اليهود الى فلسطين بمعدل مئة الف جنيه استرليني في السنة الأولى ، ثم تزداد إلى مليون جنيه استرليني وتتصاعد الضرائب كلما تضاعفت الهجرة ، ومقابل هذا القرض يسمح جلالته بالامتيازات التالية : عدم تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، بل والعمل على تشجيعها بكل وسيلة ممكنة ويمنح المهاجرون اليهود الاستقلال الذاتي ، ضمن دولة شبه مستقلة » . (٤٠)

ولم يتوقف هرتزل عند هذا الحد وإنما ألح على ضرورة الاجتماع بالسلطان شخصياً للاتفاق على بنود هذا المشروع « لا سيما توفير حماية السلطان لفلسطين اليهودية» والسماح لليهود بالمحافظة على النظام والقانون بوساطة قوات أمن خاصة بهم . كما رأى هرتزل ضرورة توجيه السلطان دعوة لليهود كي « يعودوا الى ارض آبائهم » ويتم تبليغ جميع الدول الكبرى بهذه الدعوة مسبقاً » . (٤١)

ولكن السلطان وباقي مستشاريه تجاهلوا اقتراحات هرتزل ولجأوا الى الدول الأوروبية بهدف تأمين قروض مالية مما أثار ضيق هرتزل وغيظه وعلق على ذلك بقوله : « تلقت جريدة نيو فراي برس هذا الصباح خبر اتمام التدابير المالية مع تركيا بضمانة عدد من الدول الأوروبية . لم اصدق الخبر في البداية واتصلت هاتفياً بنيولينسكي الذي أكد الخبر واكتفى بالتعليق : « انه أمر سيء لنا » . (٤٢) وقد كان هرتزل على قناعة دائمة بأن استمرار الاضطرابات المالية والاقتصادية للدولة العثمانية فيه خدمة للمصالح الصهيونية في حين أن « عودة النشاط المالي لها يعني ابتعادها عن التمويل الصهيوني الذي اتخذه اليهود اداة لممارسة ضغوطهم على السلطان» (٤٣) .

مساعي هرتزل مع الالمان للتوسط لدى العثمانيين

بدأ هرتزل في سعيه الحثيث لإقامة الدولة اليهودية كأنه يسعى إلى عقد «صفقة تجارية» مع أية جهة توافق على ذلك ووفقاً لأحسن الشروط التي يمكن الحصول عليها . ففي أعقاب فشله في الآستانة اتجه هرتزل إلى المانيا . (٤٤) طالباً مساعدتها في الضغط على الباب العالي لإقناعه بالسماح لليهود بإنشاء دولة لهم في فلسطين وذلك قبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول . وبدأ هرتزل حملة مكثفة من الاتصالات بهدف التوصل لمقابلة القيصر الالماني قبل زيارته الرسمية إلى الآستانة فاتصل بصديقه القديم فريدريك الأول دوق بادن وقريب القيصر(٤٥) حيث هيأ له مقابلة مع الأمير فيليب اويلنبورغ السفير الالماني في فينا الذي كان مكلفاً بتقديم تقرير عن الحركة الصهيونية للقيصر . وقد حاول هرتزل إقناع اويلنبورغ بترتيب مقابلة له مع القيصر كي يطلب منه التوسط

---

(٣٨) Ibid, p. 300

(٣٩) Ibid

(٤٠) حلاق ، ص ١١٧ وانظر أيضاً : Herzl, Diaries, Vol.II, p. 457.

(٤١) Herzl, Diaries, Vol.II, p. 509 .

(٤٢) Ibid وانظر ايضاً حلاق ، ص ١١٨ .

(٤٣) حلاق ، المصدر نفسه

(٤٤) تعود اتصالات هرتزل مع المانيا الى عام ١٨٩٦ م حينما حاول التقرب والتودد من المستشار الألماني ، بسمارك ، فأرسل اليه نسخة من كراسة « دولة اليهود » مرفقاً به رسالة يلتمس فيها مشورته ومعونته وكان مما ورد فيها : « أضع بين أيديكم مشروع حول تأسيس دولة يهودية في فلسطين للتصرف والبث فيه ، إذ انكم بقبضتكم الفولاذية وارادتكم الحديدية تمكنتم من توحيد المانيا المجزأة ، وإذا ارتأيتم واقعية مشروعي فستكون هذه الدولة من أخلص حماة مصالحكم في المنطقة » . غير إن بسمارك لم يحرك ساكناً إزاء هذا الطلب ، لا سيما وانه في تلك الفترة كان قد اصبح خارج نطاق الحكم .

انظر : علي محافظة ، العلاقات الألمانية الفلسطينية ١٨٤١ - ١٩٤٥ م (بيروت ، ١٩٨١ م) ، ص ١٤١ .

(٤٥) هو خال الأمبراطور وكانت تربطه صلة حميمة بالأمبراطور إذ قام بدور رئيس في تتويج جده ولهلم الأول .

لدى الباب العالي لمنح اليهود استقلالاً ذاتياً في فلسطين يضمن لهم إقامة المستوطنات وجلب المهاجرين اليهود من كل مكان وخاصة من أوروبا الشرقية ، ولكن اويلنبورغ اكتفى بتأمين مقابلة لهرتزل مع فون بيلوف Bulow وزير خارجية المانيا في مقر السفارة الالمانية بالنمسا .(٤٦)

وكان محور حديث هرتزل مع كل من بيلوف واويلنبورغ يدور حول الطابع المعادي للاشتراكية في الحركة الصهيونية وادعى هرتزل أن بإمكان حركته التقليل من « خطر الاشتراكية » نظراً لأن غالبية زعمائها كانوا من اليهود . وقد أكد هرتزل لوزير الخارجية الألماني أن اليهودي بطبيعته التقليدية لا ينسجم إلا مع « المجتمع القائم على الفردية فقط » . وكان مما سجله هرتزل في مذكراته حول هذا اللقاء : « . . . اتفقت وجهات نظرنا في كل الأمور المتعلقة بالاشتراكية وأخطارها . . ولم يستطع الوزير أن يخفي تقديره وإعجابه بالدور الذي قامت به حركتنا في حماية الكثير من طلبتنا في جامعة فينا من خطر الاشتراكية » .(٤٧) وفي نهاية الاجتماع استطاع هرتزل أن يحصل من بيلوف على وعد بمقابلة القيصر الألماني ، وأثار هذا الوعد وما سبقه من محادثات الكثير من التفاؤل لدى هرتزل ، فبعث برسالة إلى صديقه دوق بادن يقول فيها : « قبل عامين قابلتكم وقدمت اليكم الحركة الصهيونية . . . ومنذ ذلك التاريخ شهد العالم الكثير من الوقائع والأحداث . . . فالسياسة الألمانية بدأت الآن تتجه بخطوات سريعة صوب الشرق ، وها هو القيصر على أهبة القيام بزيارة للقدس سيكون لها صدى واسع في نفوسنا . . . والآن أعود اليكم من جديد واضعاً الحركة الصهيونية في خدمتكم ، وكلي ثقة بأنها ستحظى بمساعدتكم ودعمكم . . . وهذا ما كنت أتمناه خلال هذين العامين . إن اليهود يشكلون عنصراً قومياً محايداً وباستطاعته تقديم الكثير من الخدمات لسياسة المانيا في الشرق مقابل مساعدته على الاستقرار في وطنه وحماية أبنائه من الانضمام للأحزاب الثورية » .(٤٨) وهذا يعني أن ألمانيا تكسب أعواناً مخلصين وتقلل من خطر الأحزاب الثورية .

وفي أعقاب اجتماعه مع بيلوف كتب هرتزل مجدداً إلى اويلنبورغ مؤكداً على أهمية وضرورة اجتماعه بالقيصر . وقد أشار هرتزل في رسالته إلى أهمية الفوائد التي سيجنيها المجتمع الأوروبي من مغادرة اليهود « الفائضين » والفوائد التي ستعود على تركيا من وفود « عنصر قومي ذكي ذي طاقة اقتصادية عظيمة » ومن دفع « مبالغ طائلة من المال من جانبنا وإعادة النشاط إلى هذه الزاوية المهملة من الشرق ، وما ستجلب عودة اليهود في ذيولها من حضارة وثقافة وأخيراً الدور الذي في وسع اليهود أن يقوموا به في سبيل بناء سكة حديد تمتد من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي » .(٤٩)

وفي اكتوبر عام ١٨٩٨م تلقى هرتزل رسالة من اويلنبورغ مفادها أن القيصر متحمس للمشروع الصهيوني وأنه على استعداد لمقابلته على رأس وفد صهيوني في القدس . كما أنه سيتوسط لدى السلطان نيابة عن الصهاينة . وقد كتب القيصر الى دوق بادن حول هذا الموضوع قائلاً : « إننا نتعامل مع قضية ذات أهمية قصوى وأن استيطان الأراضي المقدسة من قبل اليهود الذين يتمتعون بالقوة المالية والذكاء ، سرعان ما سيأتي لهذه البلاد بازدهار ورخاء لم تكن تحلم بها . وإن الملايين التي ستعود على الخزينة التركية بناء على ذلك ستؤدي إلى شفاء تدريجي للرجل المريض وحل المسألة الشرقية . . . » .(٥٠)

أخذ هرتزل يستعد للمقابلة وفي ذهنه اقتراح يتضمن انشاء محمية المانية يهودية في فلسطين . وقد دوّن في يومياته أن « علينا قبول الحماية الألمانية إذا ما قدمت الينا . فحماية المانيا ، الدولة القوية العظيمة الأخلاقية ، ذات الحكم المنتظم ستؤثر التأثير الأفضل على الشعب اليهودي وخلقه القومي . . . إذا ما تحقق لنا الحصول على وطن تحت سيطرة الباب العالي وحماية المانيا ، فإن في ذلك ضماناً قانونياً كافياً ، وسيكون فيه أكبر فائدة تعيننا في سعينا لأنه كياننا الخاص » .(٥١)

---

(٤٦) M. Lowenthal, **The Diaries of Theodor Herzl** (London, 1958), p. 235.

(٤٧) Herzl, **Diaries**, Vol. II, p. 668

(٤٨) Herzl, **Diaries**, p. 639

(٤٩) Herzl, **Diaries**, pp. 661-664.

(٥٠) Ibid.

(٥١) Herzl, **Diaries**, p. 693 .

وأخيراً تمكن هرتزل من مقابلة القيصر في الآستانة في ١٨ تشرين الأول عام ١٨٩٨م. فقام بعرض مشروعه الاستيطاني في فلسطين تحت الحماية الألمانية أو كما عبر عنه هرتزل نفسه: «شركة قانونية تحت الحماية الألمانية». وقد بين هرتزل للقيصر كالعادة أن الحركة الصهيونية مستعدة للقيام «بإخراج عناصر الشغب» من فقراء يهود أوروبا وتوطينهم في المحمية الفلسطينية كي يتم إبعادهم «عن الأحزاب الاشتراكية والنشاط الثوري بشكل عام». وحذر في معرض حديثه من مغبة فشل المشروع حيث إن «مئات الألوف من اليهود (أثر الفشل) سينضمون مرة واحدة وبشكل مفاجىء الى الأحزاب الثورية المنتشرة في أوروبا».(٥٢)

ومن الجدير بالذكر أن الوزير المفوض الأمريكي في الآستانة، شتراوس قام بدور كبير في تيسير نجاح لقاء هرتزل بالقيصر، وحاول إقناع الأخير بجدوى المشروع الصهيوني وأهميته للعالم الغربي. وقد مارس هذا الدبلوماسي الأمريكي اليهودي ضغوطاً شديدة على الدولة العثمانية لانتزاع بعض الامتيازات الخاصة باليهود وأهمها: السماح لليهود الأمريكيين بحرية السفر إلى سوريا وفلسطين وعدم التمييز بينهم وبين الأمريكيين المسيحيين في هذا المضمار، والحجة التي استند اليها شتراوس أن هؤلاء اليهود يجب أن يعاملوا كالمسيحيين بصفتهم مبشرين. ولكن الحكومة العثمانية بالرغم من موافقتها الشكلية على منح هذه الامتيازات، إلا أنها أوعزت لموظفيها بعدم وضعها موضع التنفيذ.(٥٣)

ولدى اجتماع القيصر بالسلطان عبد الحميد الثاني تطرق القيصر إلى «معاناة اليهود» وضرورة السماح لهم بالاستيطان في فلسطين. ولكن وجد استحالة في متابعة الموضوع بعد أن لمس فتوراً ومعارضة من السلطان نتيجة تخوفه وتزايد شكوكه عن الحركة الصهيونية.(٥٤) ولربما خشي السلطان أن تصبح فلسطين «لبنان آخر» وأن تقوم المانيا بنفس الدور الذي قامت به فرنسا في جبل لبنان.(٥٥) وقد أبلغ أويلنبورغ هرتزل فيما بعد أن السلطان «رفض اقتراح القيصر بالنسبة لتوطين اليهود في فلسطين رفضاً قاطعاً إلى حد أنه بات من المستحيل المضي في مناقشة الموضوع أكثر. ونظراً لأننا كنا حريصين على أن نظل على علاقات طيبة مع السلطان . . . فإن الأمبراطور لم يلح على متابعة الموضوع».(٥٦) ومما ساعد السلطان العثماني على تشدده في معارضة الاستيطان اليهودي رغم تدخلات ألمانيا وأمريكا وقوف بعض الدول الأوروبية الأخرى الى جانبه. ففرنسا وانجلترا كانتا ترقبان الأوضاع بحذر، فكلتاهما كانتا تعارضان امتداد النفوذ الألماني إلى مواقع قريبة من لبنان وسوريا (بالنسبة لفرنسا) أو من قناة السويس (بالنسبة لانجلترا).(٥٧)

ولدى وصول القيصر مدينة القدس في الثاني من تشرين الثاني عام ١٨٩٨م، استقبل هرتزل وباقي أعضاء الوفد الصهيوني . . . وأخبرهم بأنه لا يستطيع تأييد إقامة كيان يهودي سياسي في فلسطين، واكتفى بإعلان تأييده لأية جهود يقوم بها اليهود من أجل النهوض بالزراعة في فلسطين ليتسنى إنعاش الدولة العثمانية وتقدمها شريطة احترام السيادة العثمانية وقوانينها. وهكذا لم يلتزم القيصر بأية وعود تجاه الحركة الصهيونية، ولم يتطرق إلى استعداده لتأييد أية امتيازات يحصل عليها اليهود في فلسطين، كاستقلال ذاتي ضمن الإدارة العثمانية. وقد علق هرتزل على موقف القيصر بقوله: «لم يقل نعم ولا قال لا، يبدو أن هناك كثيراً من الأمور تحدث في الخفاء ووراء الكواليس».(٥٨) ومن الجدير بالذكر أن وزير الخارجية العثماني فوجيء بوجود هرتزل وأبدى امتعاضه قائلاً: «لا علاقة للسلطان بالصهيونية وليس لنا أي اهتمام بإنشاء دولة يهودية في فلسطين». وقد كان هذا القول فيه ما يكفي - على حد تعبير بيلوف - «لأن يفقد القيصر ما تبقى لديه من آمال لمساعدة اليهود».(٥٩)

بالرغم من فتور حماس القيصر تجاه المشروعات

(٥٢) Herzl. **Diaries**, p. 799.

(٥٣) أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (الكويت، ١٩٨٤م)، ص ١٦٣.

(٥٤) I.Friedman, **Germany, Turkey and Zionism 1897- 1917** (Oxford: 1977), p. 77.

(٥٥) حلاق، ص ١٥٥.

(٥٦) Herzl, **Diaries**, Vol. III, p. 928.

(٥٧) Ibid.

(٥٨) Herzl, **Diaries**, Vol. II, p. 757.

(٥٩) Von B. Bulow, **Memoirs** (London, 1931), Vol. II, p.250.

الصهيونية ، فإن هرتزل لم ينتبه اليأس ، وبقي مصمماً على متابعة الاتصال بالمسؤولين الألمان .ففي ديسمبر عام ١٨٩٨م عرض هرتزل على دوق بادن اقتراحاً يدعو إلى إنشاء « شركة يهودية للأراضي في سوريا وفلسطين » على أن تكون مدينة برلين مركزها الرئيس ، ودعا في اقتراحه أيضاً الى وضع الشركة تحت حماية الدوق نفسه مبيناً أن « حمايته للشركة لا تعني حماية الحكومة الألمانية نفسها . . . فكما تخلت الحكومة الانجليزية عن شركة سيسيل رودوس فإنه بالإمكان التخلي عن الشركة المقترحة أيضاً عند الحاجة . . . »(٦٠) غير أن محاولة هرتزل هذه لم تكن أفضل حظاً من المحاولات السابقة ، فلم يتمكن الدوق من تقديم أي شيء له .

يتضح مما سبق أن القيصر الألماني ظل طيلة الفترة التي سبقت زيارته للآستانة واقعاً تحت تأثير مجموعة من أقربائه وأصدقائه المتحمسين للصهيونية مثل دوق بادن والأمير أويلنبورغ . ونظراً لحرصه على تحسين الأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية ، فإن القيصر اقتنع بجدوى اقتراح هرتزل الرامي الى توحيد الديون العثمانية وتقديم القروض اللازمة لتسديد هذه الديون التي تم اقتراضها من المؤسسات المالية الغربية . كما رأى القيصر أن في تجميع العنصر اليهودي في فلسطين فرصة لتحسين الأوضاع الاقتصادية والمالية في الدولة العثمانية لما لهذا العنصر من نشاط وحيوية في جسم الدولة .

واقتنع القيصر أيضاً بادعاءات هرتزل حول هجرة اليهود إلى فلسطين وما يمكن أن تسببه من أضعاف لنشاط الأحزاب الثورية في أوروبا بالإضافة إلى تخليص أفراد الطبقة الوسطى الألمانية من المزاحمة التجارية والمهنية للبرجوازية اليهودية الصغيرة . وكانت « الحكومة الألمانية ترى منذ البداية رأياً مخالفاً لرأي القيصر وإن لم تأخذ مزاعم هرتزل بولاء اليهود لألمانيا مأخذ الجد . وكذلك زعمه بولائهم للسلطان العثماني . كما أنها لم تر في الحركة الصهيونية القدرة على تحقيق المشروع الصهيوني . ولم ترغب في إثارة حساسية الدولة العثمانية في موضوع خطير قد يفضي إلى اقتطاع جزء من أراضيها . وكانت تعتقد أن حماية المشروع الصهيوني أو مساندته قد تسيء إلى علاقاتها الوطيدة بالدولة العثمانية» . (٦١) ويمكن إجمال الأسباب التي دعت القيصر الى تغيير موقفه فيما يلي :

١ ـ الموقف العثماني المعارض للمشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين .
٢ ـ تحفظات وزير الخارجية الألماني على الحركة الصهيونية .
٣ ـ معارضة بريطانيا وفرنسا لأي تدخل الماني في فلسطين أو سوريا .
٤ ـ الروح العدائية التي واجهت بها روسيا التقارب الألماني العثماني وتصاعد خشيتها من وجود مخطط سري لألمانيا يهدف إلى مد نفوذها على فلسطين .

هرتزل ومقابلته للسلطان

وفي أعقاب فشل هرتزل في محاولاته مع الدوائر الرسمية الألمانية توجه صوب الدولة العثمانية ليبدأ اتصالات مكثفة مع المسؤولين فيها لكسب موافقتهم على استيطان اليهود في فلسطين . ووجد أن لا مفر أمامه من مقابلة السلطان عبد الحميد شخصياً وإقناعه باستطاعة اليهود تحرير الأتراك من قيود الدين التي كبلتهم بها أوروبا. لقد حدث الكثير منذ زيارة هرتزل الأولى إلى الآستانة في حزيران ١٨٩٦م. فقد تشكلت الحركة الصهيونية ونمت ، كما توطد مركز هرتزل كزعيم وناطق رسمي باسم الحركة . ولذلك كان واثقاً أنه إذا ما أتيح له أن يمثل بين يدي السلطان فإنه سيعرف كيف يستغل قدراته على الإقناع، ويؤثر بالتالي على موقف السلطان عبد الحميد تجاه المشروع الصهيوني . والواقع أن مساعي هرتزل للتوصل الى تفاهم مع الأتراك بلغت ذروتها في الفترة بين عامي ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢م. حيث أعلن هرتزل في خطابه الافتتاحي أمام المؤتمر الصهيوني الثالث عام ١٨٩٩م أن اتصالاته التي بدأها مع العثمانيين عام ١٨٩٦م، لا بد لها أن تستمر وتتصاعد حتى تتمكن الحركة الصهيونية من الحصول على موافقة الباب العالي لتنفيذ خطتها الاستيطانية في فلسطين بحماية ورعاية السلطان العثماني نفسه ، وأن

(٦٠) Herzl, Diaries, Vol.II, p. 492 .

(٦١) محافظة ، ص ١٥٤ .

الصهيونية تفضل الانتظار أو الحصول على ترخيص ، بدل إرسال اليهود بطرق غير مشروعة الى فلسطين .(٦٢) وأخذ هرتزل يبحث عمن يستطيع تقديمه للسلطان سواء كان مسؤولاً عثمانياً أم شخصية يهودية لها صلات مع الباب العالي . وكان هرتزل قد أرسل رسالة الى السلطان عبد الحميد قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث بيومين ، جاءت حافلة بعبارات التزلف والتبجيل ، ومما جاء فيها قوله : « أن الصهيونيين المجتمعين في مؤتمر بازل يعتبرون أن واجبهم الأول هو التعبير عن ولائهم للسلطان مقدرين اهتمام جلالته وعطفه على رعاياه اليهود . إن الصهيونيين يرغبون في اغاثة اخوانهم التعساء في دول أوروبا المختلفة ، وفي الاسهام في عظمة الأمبراطورية العثمانية وازدهارها ، وأنهم ليأملون باخلاص أن تحظى هذه الرغبات بتقدير وتشجيع جلالة السلطان » .(٦٣)

وكان هرتزل يدرك أن التدهور المالي قد بلغ حداً خطيراً في الدولة العثمانية إذ بلغت ديون الدولة حين اعتلاء عبد الحميد السلطنة حوالي ١٩٠ مليون ليرة تركية ، وقد تضاعف هذا الرقم أكثر وأكثر في أواخر عهد عبد الحميد . ولذا فما كان من هرتزل إلا أن عرض على السلطان خدمات الممولين اليهود قائلاً (ما كرره فيما بعد في المؤتمر الصهيوني الخامس) : . . . سيكون للمساعدة المالية التي سيقدمها اليهود إلى تركيا أكبر الأثر في مساعدتها على حل الكثير من المشاكل والأزمات الداخلية التي تبدو الآن وكأنها مستعصية الحل . . .(٦٤) . ولكن السلطان تجاهل رسالة هرتزل ، على ما يبدو ، إذ أنه لم يبعث بأي رد عليها .

ظل هرتزل مصراً على رغبته في الوصول الى السلطان ، فاجتمع في تشرين الأول ١٩٠٠م مرتين مع رئيس الحكومة النمساوية ليقنعه بالقيام بدور وسيط ولكن محاولته باءت بالفشل . ثم اتصل بنوري باشا الذي سبق وتعرف عليه أثناء زيارته الأولى للآستانة وقابله ثانية في مؤتمر السلام في لاهاي عام ١٨٩٩م . وكان نوري شخصية غير متزنة يتصف بجشعه للمال وحبه للرشوة . اقترح على هرتزل أن لا يحاول الحصول على فلسطين مباشرة بل يلجأ إلى أسلوب غير مباشر وهو شراء أراض في منطقتي حلب وبيروت ثم الانتظار إلى أن تحين الفرصة المناسبة والعمل على استبدالها بأرض فلسطين . ومن أجل تنفيذ هذا الاقتراح أبدى نوري استعداده أيضاً لقاء مكافأة قدرها ٤٠ ألف فرنك مقدماً وثلاثون ألفاً بعد تدبير مقابلة له مع السلطان . وبدأت مراسلات بينهما استمرت ما يقارب العام عرض خلالها هرتزل استعداد الصهاينة للمساهمة في بناء خط سكة حديد الحجاز واستعدادهم لتقديم قرض فوري بقيمة ثمانية ملايين ليرة بالإضافة إلى عروض خدمات أخرى . . . ولكن هذه العروض بمجملها لم تحقق لهرتزل الهدف الذي كان يسعى اليه وهو الوصول الى السلطان .(٦٥)

اتجه هرتزل بعد ذلك الى مستشرق مجري يهودي يدعى أرمينيوس فامبيري Arminius Vampiri كان يعمل أستاذاً في جامعة بودابست وتربطه صلة وثيقة ببعض المسؤولين العثمانيين . وقد وصفه هرتزل بقوله : « . . . لا يعرف هو نفسه اذا كان تركياً بالدرجة الأولى أو انجليزياً . يؤلف كتباً بالألمانية ويتكلم اثنتي عشرة لغة باتقان . اعتنق خمسة أديان وخدم في ديانتين منها كرجل دين . . . »(٦٦) غير أن الدلائل كانت تشير الى أنه كان يعمل لصالح الاستخبارات البريطانية . وقد نجح هرتزل في اقناع فامبيري بالتوسط لدى الباب العالي كي يؤمن له مقابلة السلطان ، وأبدى له استعداد الحركة الصهيونية لدعم أوضاع الدولة المتداعية كي تتمكن من مواجهة الأخطار والتحديات التي تعترضها سواء ما كان منها على الصعيد المالي أو الصعيد السياسي . ونظراً لأن هرتزل كان مدركاً ـ على ما يبدو ـ لصلات فامبيري مع بريطانيا ، أفاض في الحديث معه حول أهمية الدور الذي كان بإمكان المستوطنين الصهاينة القيام به في معاونة بريطانيا على تثبيت دعائم توسعها الاستعماري في الشرق العربي . بالإضافة إلى حماية مصالحها من أي خطر يتهددها في ذلك الجزء من العالم .

---

(٦٢) Harry Zohn, **Zionist Writings** (New York, 1961), Protokoll III, pp. 104 - 106 .

(٦٣) Herzl, **Diaries**, Vol. III, p. 917 .

(٦٤) Ibid, 1118.

(٦٥) أمين عبد الله محمود ، مشاريع الاستيطان اليهودي ، ص ١٦٨ .

(٦٦) Herzl, **Diaries**, Vol. III, p. 961.

وأخيراً نجحت مساعي فامبيري فتمت دعوة هرتزل الى الآستانة حيث توجه اليها في الثالث عشر من أيام عام ١٩٠١م وكانت ثالث زيارة له بعد زيارتيه الأولى عام ١٨٩٦م والثانية عام ١٨٩٨م . وأقام في فندق بيرا ولم ينزل في القصر السلطاني أو في الدور الرسمية العثمانية نظراً لأن السلطات العثمانية رفضت اعتبار هرتزل شخصية تستحق المعاملة الرسمية . وقد تمت استضافته بصفته صحافياً يهودياً بارزاً وليس بصفته رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية . وتعامل معه السلطان أيضاً كواحد من رجال الأعمال الذين يقدمون مشاريع تمويلية لسد ديون الدولة العثمانية . وقد نصحه فامبيري أن لا يسرف في الضغط من أجل الوصول إلى ما يريد ، إذ يجب « التحلي في الشرق بالصبر وفق الأساليب الشرقية » .(٦٧) كما حذره من عدم التطرق لمشروعه الصهيوني قائلاً له : « اياك أن تحدثه عن الصهيونية . انها فانوس سحري . القدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة . . . » .(٦٨) وبعد وصول هرتزل إلى الآستانة بخمسة أيام وفي السابع عشر من أيار عام ١٩٠١م على وجه التحديد ، تمت المقابلة بين هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني .

كان هرتزل حريصاً طيلة المقابلة التي دامت حوالي الساعتين على عدم التطرق الى الحركة الصهيونية أو المسألة اليهودية إلا بشكل عرضي وغير مباشر . كما أنه كان حريصاً أيضاً على عدم التعرض لموضوع الهجرة اليهودية أو اقتراحه المتعلق بإنشاء شركة استيطان يهودية بضمانات دولية . استهل هرتزل حديثهِ بالإشارة إلى قصة اندروكليس والأسد بمعنى أن يساعد اليهود الدولة العثمانية على سداد ديونها (أي نزع الشوكة التي تقضي مضجعها) كي تستعيد قوتها وأضاف أن الدول العظمى تسعى إلى استمرار ضعف الدولة العثمانية والحيلولة دون انتعاشها .(٦٩) وركز هرتزل في حديثه مع السلطان على موضوع الخدمات المالية التي بإمكان اليهود القيام بها لانقاذ الإقتصاد العثماني من خطر الإفلاس . واقترح أن يتم توحيد الديون الملقاة على كاهل الدولة للممولين الأجانب الذين كانوا يمارسون ضغوطاً شديدة على الدولة . وتسديدها بوساطة قرض طويل الأمد يقدمه بعض الممولين اليهود . أبدى السلطان اهتماماً بهذه الاقتراحات وأسهب في الحديث عن غنى أمبراطوريته بالثروات المعدنية الدفينة . وقد ذكر أنه تلقى في صباح ذلك اليوم (يوم المقابلة) برقية من بغداد تفيد اكتشاف آبار نفط أغنى من آبار القوقاز .(٧٠) وفي نهاية المقابلة طلب هرتزل صدور بيان ودي من السلطان يعد بتقديم الدعم لهرتزل وحركته حينما تدعو الحاجة لذلك في المستقبل . وكان نجاح هرتزل في مقابلة السلطان وإقامة علاقة مباشرة معه أمراً في غاية الأهمية بالنسبة لاستمرار ثقة أكبر عدد ممكن من الصهاينة في نهجه السياسي ، لا سيما وأن تيارات صهيونية معارضة لسياسته بدأت تنمو وتتزايد . أما بالنسبة للأتراك فإن مجموع ما أنجزه هرتزل في المقابلة لم يكن ليتعدى مجرد تكرار ، ضمن ظروف أكثر أبهة بالطبع ، للنتائج التي ترتبت على الزيارتين السابقتين للآستانة .

لقد كان للخلط بين العنصرين الاقتصادي والسياسي في العلاقة المقترحة (بين الصهاينة والعثمانيين) مبرراته المنطقية ومزاياه التكتيكية . ولكن المشكلة التي وضعها هرتزل بنفسه على كاهله كانت كيفية إحداث تغيير في النسب الأصلية للخليط الذي كان فيه العنصر الاقتصادي سائداً ، بينما العنصر السياسي كان موجوداً بصورة ضمنية فقط . وعلى هذا فقد توقف كل شيء على صحة افتراضاته الأساسية التي مؤداها أن بالإمكان تحويل التعاون الاقتصادي الى سياسي وأن بالإمكان اذابة الشكوك والعداوة التركية للصهاينة عن طريق العلاقات الاقتصادية الوثيقة .

لكن ذلك كان يفترض بدوره افتقار الخط التقليدي للتفكير الفاصل بين الاقتصاد والسياسة إلى الوضوح ، وأن هناك قسطاً من التبادلية بين الاثنين بحيث يمكن الموازنة بين المسائل الاقتصادية والسياسية. كل هذه كانت افتراضات مريحة . لكن عيبها الذي كان أحد مصادر الخطأ عند هرتزل في تعامله مع الأتراك ، يكمن في إهمالها للأفضلية الكامنة

---

(٦٧) Herzl, Diaries, p. 1092 .

(٦٨) Ibid

(٦٩) David Vital, **Zionism: The Formative Years** (Oxford, 1982), p. 177 .

(٧٠) Ibid.

في المجال السياسي وهو المجال الأهم في النهاية . لقد كانت مصاعب الأتراك الاقتصادية مصاعب حقيقية وكان الدين عبئاً عليهم ، كما أن إدارة هذا الدين من قبل لجنة أوروبية كان مذلة للأتراك . كل هذه الأمور لا سبيل الى نكرانها ولا تكاد تقل عنها صعوبة في الإنكار الحجة القائلة أن القوة الاقتصادية والنمو الاقتصادي المجرد وعلى المدى البعيد يبدوان وكأنهما يؤديان إلى القدرة على التأثير سياسياً . ففي مجال السياسة الخارجية للدولة ثمة أدلة تؤيد هذه الحجة عن طريق العلاقة الوظيفية المباشرة بين التقدم الاقتصادي والتكنولوجية العسكرية . أما مدى انطباق هذا الطرح بسهولة على السياق الاقتصادي الداخلي فأمر أقل وضوحاً . وأقل من ذلك وضوحاً أيضاً مسألة ما إذا كان ذلك الطرح ينطبق على الدولة العثمانية في سنوات اضمحلالها وعلى المدى القريب . إذ يوحي كل شيء بأن الاعتبارات المتعلقة بالاستقرار الداخلي واستمرارية نفوذ العثمانيين وحكمهم كان لها الأولوية المطلقة . فثقل عبء الدين بالنسبة للعثمانيين كان لا يقارن بالأخطار المرئية والكامنة المهددة لحكمهم ، والتي بدأ أن المجموعات ذات النزعة الاستقلالية والتفكير السياسي ، ولا سيما المجموعات غير المسلمة منها ، تشكلها عليهم . وهكذا فإن الخلط وعدم الموازنة بين المسائل الاقتصادية والسياسية تشكل عقبات ظاهرة وخفية هائلة لأهداف هرتزل (٧١) .

وفي أعقاب انتهاء مقابلة مع السلطان أجرى هرتزل مزيداً من المحادثات مع مستشاري السلطان وخاصة مع عزت العابد استغرقت عدة أيام أخرى. ودار الحديث حول قضية توحيد الديون ومساهمة اليهود بتسديدها ، وقد أبدى العابد استعداد الدولة العثمانية للسماح لمهاجرين يهود بالاستقرار في أراضي الدولة العثمانية شريطة موافقتهم على قبول الجنسية العثمانية ، وألا يقوموا باستيطان جماعي في أي مكان ، وإنما يكتفون فقط بإنشاء مستوطنات صغيرة متفرقة في شتى أرجاء الدولة . (٧٢) غير أن هرتزل رد على ذلك بإعادة طرح اقتراحه الذي قدمه أثناء زيارته الأولى وهو إنشاء شركة يهودية عقارية خاضعة للنفوذ العثماني ، تكون مهمتها استصلاح أراضي فلسطين غير المأهولة بالسكان ، بحيث تتمكن الشركة من توطين أعداد من المهاجرين اليهود فيها . وتوفر مبالغ كافية من المال لإقراضها للباب العالي . وكان مما قاله في هذا الصدد : « افتحوا لنا أبواب فلسطين ، ودعونا نتخلص هناك من الاحساس بالغربة . . . وفي المقابل لن نزودكم بالمبالغ النقدية فحسب ، وإنما سنزودكم أيضاً بأسباب المعرفة في شتى الميادين . . . وسنبني في قلب هذا العالم كياناً حديثاً متقدماً يربط الشرق بالغرب ويؤمّن لكم الاتصال السريع والسهل ببغداد والهند . . . وسنكون حريصين على بعث تركيا حرصنا على بعث اسرائيل . . . »(٧٣) ولكن هذا الاقتراح لم يلق أي رد من جانب عزت العابد أو أي مسؤول عثماني آخر .

وبالنتيجة لم تتمخض محادثات هرتزل مع عزت العابد وباقي مستشاري السلطان عن أي تغيير في الموقف التركي تجاه تنفيذ المشروع الصهيوني والتسامح مع اليهود في استعمار فلسطين . ويعتبر هذا الموقف إدراكاً عملياً وسياسياً للأخطار التي يمكن أن تنجم عن استيطان اليهود في فلسطين مع استمرارهم على جنسياتهم وولاءاتهم الأوروبية والأمريكية السابقة ، لأن معنى ذلك تفاحل خطر الامتيازات الأجنبية وتزايد دخل الحكومات التي كان اليهود يعيشون في ظل سيطرتها . ورغم ذلك فلم يفتقد هرتزل الأمل في إمكانية استمالة السلطان عبد الحميد والاتفاق معه على تنفيذ خطط مالية جديدة توفر الحل لمشكلات الدولة الاقتصادية المستعصية ، وذلك قبل التوصل إلى خطط بديلة مع الحكومة البريطانية لاستعمار يهودي في مناطق أخرى كسيناء وأوغندا .

ومما يسترعي الانتباه في هذا الصدد ، أنه تلا زيارة هرتزل للآستانة تشديد على قيود دخول اليهود وإقامتهم في فلسطين . وثم إرسال ضابط من الشرطة السرية إلى فلسطين لتأسيس فرع من تلك الشرطة هناك . كما حظر على الصحف

(٧١) Vital, **Zionism**, pp 117 - 118.

(٧٢) Vital, **Zionism**, p. 124.

(٧٣) M. Simon (ed), **Speeches, Articles and Letters of I. Zangwill** (London, 1937), pp. 158 - 159.

اليهودية في الدولة العثمانية نشر مقالات عن الصهيونية حتى ولو كانت تلك المقالات تتضمن نقداً لتلك الحركة .(٧٤)

اتصالات هرتزل بالعثمانيين ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ م

استمرت اتصالات هرتزل بالمسؤولين العثمانيين بعد مغادرته الآستانة . وفي الثاني عشر من فبراير عام ١٩٠٢م سافر هرتزل للمرة الرابعة إلى الآستانة ولكنه لم يتمكن هذه المرة من مقابلة السلطان أثناء وجوده هناك . واقتصر مفاوضوه على مستشاري السلطان الذين أنكروا ما أشيع من أن السلطان سمح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين لتأسيس دولة يهودية . وكرروا على مسامعه من جديد أن السلطان مستعد لفتح أبواب الدولة للمهاجرين اليهود على أن يتخلوا عن جنسياتهم السابقة ويكتسبوا الجنسية العثمانية . وبالمقابل يتعهد اليهود بتصفية الدين العام وإنشاء شركة استثمار عثمانية ـ يهودية تتعهد باستثمار المعادن المختلفة لسد العجز المالي . ولوحظ أن هرتزل وافق على هذه المطالب العثمانية على أن يحدد اليهود أنفسهم المناطق التي سيهاجرون اليها وبالأعداد التي يرونها مناسبة دون قيد أو تحديد(٧٥) ولكن العثمانيين رفضوا هذه الشروط ونقل المستشارون إلى هرتزل ضرورة تحديد السلطات العثمانية للأماكن التي يسمح فيها للمهاجرين اليهود بالاستقرار كالعراق وآسيا الصغرى باستثناء فلسطين . ولكن هرتزل اعتذر عن قبول هذا العرض بحجة أن اللجنة التنفيذية العليا للمنظمة الصهيونية لم تمنحه صلاحية الموافقة على مثل هذا النوع من العروض « وقد لا تتفق هذه العروض مع برنامجنا» .(٧٦)

بالرغم من ذلك لم تتوقف مساعي هرتزل مع السلطان ، فاقترح عليه في الثالث من مايو عام ١٩٠٢م إنشاء جامعة في القدس ، يقوم بالتدريس فيها أساتذة يهود يتجه اليها الشبان الأتراك لتلقي العلوم المختلفة وبين أن هذا المشروع سيعود على الدولة العثمانية بفوائد جمة بحيث لن يضطر الأتراك الى ارسال شبابهم لأوروبا كي لا يقعوا تحت تأثير الفكر السياسي الأوروبي وتنمو لديهم مفاهيم الحرية والديمقراطية وتتسرب اليهم الأفكار الخطرة التي تدفعهم للاشتراك في الأحزاب الثورية مما يهدد استقرار الدولة وأمنها الداخلي .(٧٧)

وبالرغم من قناعة السلطان بوجهة نظر هرتزل حول خطورة التحاق الشبان الأتراك بالمعاهد الأوروبية ، إلا أنه فضل هذا الوضع على قيام جامعة يهودية في القدس لأنه رأى أن الغاية من إنشاء هذه الجامعة سياسية واستيطانية أكثر منها ثقافية ، وأن الهدف من إنشائها ليس من أجل الشباب الأتراك فحسب وإنما من أجل الطلاب اليهود تمهيداً لبث الفكر الصهيوني وتكريس الاستيطان اليهودي .(٧٨)

بلغت مسامع هرتزل أنباء محاولات جديدة يقوم بها العثمانيون لتأمين قروض من مصادر غير يهودية حتى سارع إلى السفر من جديد إلى الآستانة في أواخر تموز عام ١٩٠٢م . ومما أدى إلى قلق هرتزل حول هذا الموضوع ، إطلاعه على رسالة موجهة من الحكومة العثمانية إلى سفيرها في لندن جاء فيها : « . . . يظهر من تقريرك أن هرتزل لم يصل إلى أي تفاهم مع البنوك ولم يمهد لأي شيء . وبما أن الحكومة قد وصلت إلى قرار تغطية الدين بإصدار سندات بمبلغ ٣٢ مليوناً ، وبما أن الحكومة لن تعدل عن هذا القرار ما دامت غير متأكدة من وجود عرض أفضل ، لذا فلا ضرورة للاستمرار في الاتصالات مع هرتزل . وما ان وصل هرتزل إلى الآستانة حتى اجتمع بالصدر الأعظم وأبلغه باستعداده للقيام بأي عمل كانت المجموعة المالية الفرنسية قد أخذته على عاتقها بل والقيام بذلك بأسلوب أفضل من الفرنسيين . ومقابل ذلك « تمنحنا الحكومة براءة أو امتيازاً للاستيطان اليهودي في العراق كما تفضل صاحب الجلالة السلطان بعرضه علي في شباط الماضي مضافاً إلى ذلك منطقة حيفا وما حولها في فلسطين » .(٧٩)

وتعهد هرتزل بعدم التعرض لمكانة القدس لأن « مشروعنا الحاضر لا يتعرض إلى القدس والأماكن المقدسة فللأرض

---

(٧٤) Neville J. Mandel, **The Arabs and Zionism**, (London 1976),p 70.

(٧٥) حلاق ، ص ١٨٣ .

(٧٦) أمين عبد الله محمود ، مشاريع الاستيطان اليهودي ، ص ١٧١ .

(٧٧) Walter Laqueur, A History of Zionism (London,1972), p.118.

(٧٨) Ibid .

(٧٩) Herzl, **Diaries**, Vol. IV, pp. 1314 - 1316 .

هناك صفة زمنية وروحية ، ونحن لن نمس ما هو روحي ، ولكن لماذا لا نجعل الأراضي القاحلة صالحة للزراعة بطرقنا الخاصة » ، غير أن الصدر الأعظم علق على مطالبة هرتزل بحيفا قائلاً : « ولكن حيفا لها أيضاً قيمتها الحربية الهامة » فكان رد هرتزل : « والقوة التي سنقيمها نحن في البلاد سيكون لها أهميتها الحربية أيضاً » .(٨٠) ويتضح من هذا السياق أن هرتزل كان يوحي للمسؤولين العثمانيين أن بمقدور المستوطنين اليهود تشكيل قوة عسكرية تساعد الدولة العثمانية في درء الأخطار عنها .

يتضح مما سبق أن هرتزل لم يجد مفراً من التراجع عن مواقفه السابقة . فقد أظهر حواره مع الصدر الأعظم استعداد هرتزل للنظر في استيطان مناطق أخرى غير أرض فلسطين رغم برنامج بازل وما تمخض عنه من جو مشحون بالحماس للاستيطان في فلسطين داخل الحركة الصهيونية وخارجها . كما جرى تقليص أراضي فلسطين المقترحة للاستيطان ليصبح الحديث فقط عن حيفا وما حولها .

جاء رد العثمانيين على مقترحات هرتزل في الثاني من آب عام ١٩٠٢ وتضمن أنه « . . . بالامكان ادخال اليهود وتوطينهم بصورة ثابتة في الأمبراطورية العثمانية شريطة أن يستقروا بصورة متفرقة وفي أماكن تقرر الحكومة مدى ملائمتها والاعداد التي تستقر فيها . وستعطى لهم الجنسية العثمانية ويتم مطالبتهم بكل الواجبات المدنية بما في ذلك الخدمة العسكرية ، كما سيخضعون لجميع القوانين المعمول بها في البلاد . . . ومقابل ذلك يتم تكوين وكالة مالية يهودية لتقديم المساعدات للدولة على النحو التالي :

(أ) تكوين شركة تعدين لاستثمار مناجم الأمبراطورية يتألف مجلسها الإداري من المواطنين العثمانيين المسلمين ومن اليهود العثمانيين بالتساوي .

(ب) تسهيل مهمة تصفية الدين العثماني العام بشروط معتدلة .

(جـ) اقراض الحكومة العثمانية المبالغ اللازمة لتنفيذ مشاريعها الإنشائية بشروط معتدلة .(٨١)

وهكذا انتهت هذه الزيارة كما انتهت اليه سابقاتها من الزيارات فلم يتوصل هرتزل إلى نتيجة إيجابية . وظل الموقف العثماني على حاله معارضاً منح اليهود أية مكانة خاصة أو حقوق خاصة ، ولا ميثاق أو براءة ، ولا صيغة لشركة عقارية يهودية عثمانية ولا استيطان حقيقي في أي جزء من أرض فلسطين . وقد كتب أحد الدبلوماسيين العثمانيين في تقرير له : « أن من المسلم به أن تعمل الحكومة على وضع قوانين خاصة تحظر شراء الصهاينة للأرض في فلسطين في جميع الظروف والحيلولة بذلك دون استيطان اليهود لتلك البلاد ، لأن الغرض من ذلك الاستيطان كان الحصول على حكم ذاتي بادىء ذي بدء ثم استخدام جميع الوسائل من سياسية وغيرها لإقامة دولة مستقلة هناك ، تلك كانت الغاية الأساسية للصهاينة .(٨٢)

كما أن السلطان عبد الحميد ظل معارضاً للحركة الصهيونية وتطلعاتها طيلة الفترة الممتدة من عام ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٢ ، وكان موقفه هذا نتيجة قناعة وإحساس بأن الهدف من توطين اليهود في فلسطين هو توطئة لمزيد من تدخل الدول الأوروبية في أمور الدولة العثمانية والعمل على إضعافها ليتم تجزئتها والسيطرة عليها . « وللدلالة على ذلك ما اتخذته الحكومة البريطانية من موقف معارض ومستمر للقوانين العثمانية الخاصة بالهجرة اليهودية ، فقد أوعزت إلى قنصلها في القدس في نيسان عام ١٩٠٤م بأن الحكومة البريطانية لن تقبل قوانين الهجرة ، ومن أجل ذلك لا يمكن ارغام اليهود الانجليز على مغادرة البلاد » . ولكن الحكومة العثمانية أصرت على تنفيذ قوانينها الخاصة بالهجرة وبيع الأراضي سواء لليهود أو للشركات اليهودية الأجنبية كما منعت القيام باجراء معاملات نقل الملكية اليها. ففي عام ١٩٠٤م تمسكت الحكومة العثمانية بقرار منع بيع الأراضي والعقارات في فلسطين الى اليهود من جميع الجنسيات ، لأن معظم اليهود الأجانب كانوا يأتون الى فلسطين بغرض شراء الأراضي والاقامة الدائمة »(٨٣) .

---

(٨٠) Ibid.

(٨١) Herzl, Diaries, Vol. III, pp. 1221 - 1222.

(٨٢) Vital, Zionism, p. 125.

(٨٣) حلاق ، ص ١٩٨ .

كما أن هناك أسباباً أخرى جعلت السلطان عبد الحميد يعارض الخطط الصهيونية . فقد كان مهتماً بكسب ولاء العرب وحريصاً على اتباع سياسة لا تكسبه عدواتهم . وكان يتصدر الحركة الإسلامية ويهمه كسب تأييد ودعم المسلمين . وبالتالي لم يكن في وضع يستطيع فيه التنازل عن « شبر واحد من فلسطين حتى مقابل الملايين . ففلسطين وبيت المقدس بالذات ، لها مكانتها الخاصة في العالم الإسلامي ، والسلطان كان متمسكاً بوحدة دولته ولم يكن مستعداً لإضافة أقلية أو عرق جديد لباقي الأعراق والأجناس المتنافسة في دولته كي لا يعطي مبرراً جديداً تستغله الدول الكبرى في زيادة تدخلها في شؤون الدولة العثمانية الداخلية » . (٨٤) اذن لماذا لم يوضع حد لهذه الاتصالات منذ بدايتها ؟

إن المسؤولية في إطالة المفاوضات يتحمل تبعتها أساساً مستشارو السلطان وأفراد بطانته ممن كانوا يبحثون عن الرشوة في أية جهة ومن أي مصدر . فقد سجل هرتزل في مذكراته أنه حينما قابل السلطان عام ١٩٠١م وزع حوالي ٤٠ ألف فرنك على أفراد حاشية السلطان الذين أفهموه بأنهم هم الذين هيأوا لهذه المقابلة . (٨٥) وكان هرتزل يعرف أن كلا من هؤلاء كان يمثل مصدراً معيناً للنفوذ والتأثير على السلطان وأن تحسين وعزت كانا الأكثر تأثيراً من غيرهما . ولكن كان من المستحيل أن يعرف هرتزل كيف يفرق بين ما كان يقوله ويفعله هذان الرجلان باسم السلطان وبين أقوالهما وأفعالهما من أجل مصالحهما الخاصة ومكاسبهما الذاتية ولا سيما عندما كانا يتناقضان . وفي إحدى المراحل كلف هرتزل بدفع مبلغ كبير مقداره ثلاثة ملايين فرنك كتمهيد لمنح فرمانات تسمح بامتيازات اقتصادية بحتة . وجاء التكليف عن طريق عزت العابد . ولكن عندما نجح هرتزل في تحضير الاعتمادات المطلوبة بعد الكثير من المعاناة والجهد ، رفض تحسين المال بصورة مفاجئة والغيت الصفقة . (٨٦) فهل خالجت السلطان أفكار أخرى ؟ وهل تمت استشارته أصلاً ؟ وإن حدث ذلك ففي أي مرحلة ؟ لم تتوفر إجابات واضحة عن أي من هذه التساؤلات .

وبالرغم من كل ذلك فإن هؤلاء المستشارين هم الذين أقنعوا السلطان عبد الحميد باستقبال هرتزل لاستخدامه أداة في الحصول على قرض مالي من الممولين اليهود لتسديد ديون الدولة التي بلغت أوضاعها المالية حداً بالغ الخطورة من التردي والانهيار . كما بينوا للسلطان أن بالإمكان تحقيق ذلك دون اللجوء الى التخلي عن فلسطين لليهود . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسؤولين العثمانيين وجدوها فرصة سانحة لاطالة المفاوضات كي يستغلوا النفوذ اليهودي في الصحافة الأوروبية لتقديم صورة إيجابية عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية . وهناك من يفسر هذا الموقف بأن العثمانيين كانوا جادين في مفاوضاتهم مع هرتزل . اذ أنهم كانوا يماطلونه في استخدام عروضه المالية كورقة رابحة في أيديهم للضغط بها على الممولين الأوروبيين ـ وخاصة الفرنسيين منهم ـ من أجل حملهم على تقديم شروط وتسهيلات أفضل . وقد كانت الحكومة العثمانية متورطة منذ مدة طويلة في مفاوضات مضنية مع هؤلاء الممولين من أجل توحيد ديونها وسدادها .

وبعبارة أخرى فإن موقف العثمانيين ـ بشكل عام ـ تجاه هرتزل كان يوحي بأنهم يريدون أن يفيدوا منه دون أن يتحملوا أية خسائر تذكر نتيجة لذلك . ولذلك فقد جاء القرار باستغلال هرتزل . وقد يكون في ذلك قدر من التهور لأنه ينطوي على تشجيع لرجل كان واضحاً أنه يخالفهم في أهدافهم . ولكن لما كان هرتزل قد ظهر في الآستانة كفرد وليس كزعيم حركة ولأن المسؤولين العثمانيين لم يؤمنوا بجدية خطته فإن خطرها ـ في نظرهم ـ لن يكون كثيراً حتى ولو تمت مناقشتها معه .

بالإضافة إلى ذلك كان هرتزل يواجه صعوبات في تعامله مع الباب العالي . فقد كان يتحرك رغماً عنه وسط ضباب من المعلومات المفككة التي كثيراً ما كانت غير دقيقة ، وعبر حواجز في اللغة وإشارات وإيماءات غير مفهومة من قبل الأصدقاء والأعداء على حد سواء ـ وهو ضباب ازدادت

(٨٤) Simon, p. 80 .

(٨٥) Herzl, **Diaries**, Vol. III, p. 1130 .

(٨٦) Vital, **Zionism**, p. 124 .

صعوبة اختراقه لأنه كان ينطلق من نظام حكم كان يغذيه بدوره جيش من الجواسيس والمخبرين الذين كان ما يفرزونه أعظم مما يمكن استيعابه . كما أن هرتزل أثناء زياراته للاستانة كان خاضعاً لأجواء مضللة تقوم على الفعل ورد الفعل والانتظار الذي لا نهاية له . أضف إلى ذلك المعاناة النفسية الناجمة عن الدور المزدوج الذي كان يقوم به هرتزل وهو دور الزعيم السياسي ودور رجل المال الدولي . وكانت النتيجة ضغطاً نفسياً متواصلاً وفقداناً للقدرة على التنبؤ بالأعمال التي يحتمل أن يقوم هو أو أي شخص آخر بها.(٨٧)

ولم يمض وقت طويل حتى برز تيار صهيوني معارض للتيار الهرتزلي دعا بإصرار وجدية الى التركيز على الاستيطان في فلسطين بأي شكل ممكن ، سواء حصل الصهاينة على موافقة العثمانيين أم لم يحصلوا . وكانت غالبية المنتسبين لهذا التيار من اليهود الروس الذين أطلق عليهم اسم « الصهيونيين العمليين » . وقد شكلت مجموعة الصهيونيين العمليين معارضة حقيقية لهرتزل خلال المؤتمرين الصهيونيين الخامس والسادس ، وأخذوا يطالبون هرتزل بالكف عن صهيونيته السياسية « كي لا تنقسم الحركة الصهيونية على نفسها » . ولم يتمكن هرتزل من تجاوز هذه الخلافات إلا في نيسان ١٩٠٤م أثناء انعقاد المجلس الصهيوني العام في فيينا ، وذلك قبل وفاته بفترة وجيزة .

---

(٨٧) Vital, **Zionism**, p. 121 .

العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ١١٩ ـ ١٣٥ (١٩٨٧)

الرأيُ والإفـادة
في مَنشأة سودُون منْ زادَة

بقلم د. محمد عبد الستار عثمان

ملخص البحث : يصحح هذا المقال ما ورد في مقال آخر بعنوان : مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة : مدرسة « سودون من زادة بسوق السلاح » . فيوضح الأسس التي يقوم عليها التصنيف الوظيفي للمنشآت الدينية المملوكية ، ويكشف عن أهمية « الوقف » في تحديد وظائف المنشأة مدللاً على ذلك بالأدلة التاريخية والوثائقية والفقهية والآثارية ومن ثمّ ينتهي إلى نتيجة هامة تشير إلى أن منشأة سودون من زادة الصحيح فيها أنها جامع وليست مدرسة ، ومن ثم يتضح أن العنوان المنظر للبحث المشار إليه خاطىء وعليه فلا صحة لفحوى النظرية التي يتضمنها هذا العنوان وما تلاه بالبحث من محاولة لإثبات صحتها .

ومن جهة أخرى يعرض هذا البحث الوصف المعماري الصحيح لما كانت عليه هذه المنشأة في ضوء الوصف الوثائقي بصورة سليمة تكشف عن أخطاء الوصف الذي تضمنه المقال المشار إليه ، وما حدث من خلط في فهم النصوص الوثائقية الوصفية التي استعان بها الباحث والتي تكشف عن تجاهله لنصوص أخرى أوردناها ، وتتضح في ضوئها الصورة الحقيقية التي كان عليها هذا الأثر وقت إنشائه . وما حدث به بعد ذلك من تعديلات او ترميمات لاحقة لم تستطع الدراسة السابقة الكشف عنها . ومن خلال ذلك اوضحت هذه الدراسة المحاذير التي غفل عنها البحث السابق عندما حاول صاحبه وضع « إعادة تصور » لمخطط المبنى ، كما أوضحت أهمية دراسة التواريخ التي تضمنتها وثيقة الوقف في دراسة النصوص التأسيسية التي تضمنها المبنى وإزالة الشبهات التي أثارها الباحث حول نص منها أورده فان برشم .

لم تكن منشأة سودون من زاده بسوق السلاح ظاهرة فريدة في عمارتها ولم تكن ابداً استثناءً ،ولم تشذ عن القاعدة والأطر التي حكمت المنشآت الدينية المملوكية من الناحية المعمارية أو الوظيفية حتى تكون مناط تنظير في دراسة نشرت بعنوان « مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة» .[١]

ودراسة أي أثر من آثار المماليك الدينية بمدينة القاهرة يجب أن توضع في ذلك الإطار الذي يحكم هذه النوعية من المنشآت وظيفياً ومعمارياً ، وهو إطار أفصحت دراسته عن مراحل متتابعة ومتصلة من التطور بدأت قبل عصر المماليك وبالأحرى في العصر الأيوبي ، وامتدت حتى نهاية العصر المملوكي .[٢] ولعبت وثائق الوقف ـ باعتبارها مصدراً رئيساً وأساساً لدراسة هذه الآثار وفي تحديد هذا الإطار ، وأكدته

(١) د. حسني نويصر ، مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة ، مدرسة الأمير سودون من زادة بسوق السلاح ، مجلة « العصور » العدد الأول يناير ١٩٨٦ م ، ص ص ٣٣ ـ ٥٨ .

(٢) انظر محمد عبد الستار عثمان ، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بالقاهرة ، رسالة دكتوراه مخطوطة مقدمة لكلية الآداب ، جامعة أسيوط ، ١٩٨٠م .

المصادر التاريخية والفقهية ، وعكسته النصوص التأسيسية على هذه الآثار في توافق وتطابق تام ، ومفاد ذلك أن دراسة هذه المنشأة دراسة صحيحة لا غنى لها عن دراسة الظواهر المعمارية والوظيفية للمنشآت الدينية في ذلك العصر في ضوء ما تبقى من آثار وما تمدنا به المصادر الأصلية . ويأتي مقالنا هذا متبعاً لهذا المنهج ليصحح ما وقع فيه البحث المشار إليه من أخطاء انزلق إليها الباحث لتجنبه الأخذ بمنهج صحيح ، والاعتماد على مصادر أصيلة ، ودراسة المنشأة منفردة منعزلة عن منشآت عصرها معمارياً ووظيفياً .

ولتصحيح ما ورد من أخطاء في البحث المشار إليه فإننا سنتجه في بحثنا اتجاهين ، احدهما يتعرض « لتسمية المنشأة » ويجيب على تساؤل هام هل هي « مدرسة » كما أشار البحث المذكور ـ أم جامع ؟ لأن تحديد ذلك يجعلنا نعيد النظر في العنوان المنظّر للبحث المشار إليه « مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة » وهذا هدف أول وأساس لهذه الدراسة .

ثم تتجه الدراسة اتجاهاً ثانياً لإعادة النظر في الدراسة المعمارية التي قام بها الباحث ، خاصة وأنه حدث كثير من الخلط في فهم الوصف الوثائقي ومحاولة تطبيقه والاستفادة منه في وضع تصور لما كانت عليه المنشأة، ففلت منه التصور الحقيقي لما كانت عليه المنشأة معمارياً ، وهو أمر جد خطير خاصة وان معظم بناء المنشأة قد درس ويبقى الخوف أن تكون تلك الدراسة هي المعتمد في أية محاولة بحثية تتصل بهذه المنشأة .

كما سنتعرض للتصور المعماري السليم من خلال فهم واضح وسليم للوصف الوثائقي مفسرين ما يخالف هذا الوصف من بقايا ـ كشفت عنها لجنة حفظ الآثار العربية أو ما هو قائم بالفعل حتى الآن . نتيجة لما طرأ على المنشأة من محاولات لإعادة ترميمها أو عمارتها في مراحل لاحقة . وهو أمر لم يتنبه إليه الباحث بالمرة ولم يعرض له في بحثه ، مما تسبب في فهم وتصور خاطيء لعمارة المنشأة ، أرى من الواجب العلمي أن أصححه رأياً وإفادة .

أولاً : مناقشة تسمية المنشأة وتنظيرها

أشار البحث المشار إليه في العنوان إلى أن منشأة سودون من زاده « مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة »[٣] والحقيقة أن المنشأة « جامع » يؤدي وظيفة المدرسة .

وحتى يتضح الأمر بصورة جلية فإننا سنعرض لنقاط ثلاث هامة تحدد نتائج دراستها مواطن الانزلاق إلى الخطأ المشار إليه ، وفي ذات الوقت تكون أساساً معتبر التقويم أي دراسة سابقة[٤] أو مقبلة تسير في نفس الاتجاه .

وأول هذه النقاط توضيح أهمية « **الوقف** » في تحديد وظيفة المنشأة والالتزام بهذا التحديد في كل شيء متعلق بالمنشأة ـ خاصة وأن هذه الدراسة تعتمد على وثيقة وقف[٥] ـ فمن دراسة وثائق الوقف المملوكية للمنشآت الدينية يتضح أهمية الوقف وأثره المباشر على وظيفة المنشأة الدينية ، فوثيقة الوقف بما تتضمنه من وصف وثائقي دقيق للمبنى تحدد شكله ومحتوياته مسجلة حتى يبقى على حاله ، ويعمل المباشرون للوقف على المحافظة عليه وإعادة ما يتهدم منه في إطار هذا الوصف الموثق ، كما أن في هذا الوصف حماية للمنشأة من أي اعتداء على أي جزء منها قد يتعرض للنهب أو الاغتصاب ، وفي ذلك ما يساعد على بقاء المنشأة واستمرارها في أداء وظيفتها التي انشئت من أجلها بصورة طبيعية ، كذلك فإن وقف وحدات المنشأة المعمارية يحدد الوظيفة التي تقوم بها هذه الوحدة أو تلك مما يساعد على الاستغلال السليم للوحدات كل حسب وظيفته ، كذلك فإنها تتضمن الإشارة إلى من يعين بالمنشأة من موظفين وما يقرر لهم من مرتبات يتحكم فيها ما يوقفه الواقف على المنشأة من أوقاف ، وأمور تتأثر بما يتملكه الواقف من أرض أو عقار يوقفها على منشأته وتتحدد في ضوء كل ذلك الوظيفة الحقيقية أو الوظائف التي تؤديها المنشأة بغض النظر عن تخطيط المبنى ذاته سواء كان عبارة عن أواوين أو أروقة خاصة وأن كل منها كان ليقوم للوظائف المختلفة ، بل أن شروط العمل والتوظيف داخل المنشأة والتي تحددها وثيقة الوقف حسب ما

---

(٣) حسني نويصر ، ص ٣٤ .

(٤) من الدراسات التي يجب أن يعاد النظر إليها من خلال نتائج هذه الدراسة . كتاب دولت عبد الله ؛ معاهد تزكية النفوس في مصر (مطبعة حسان ، ١٩٨٠ م) .

(٥) وثيقة وقف سودون من زادة ٥٨/ ١٠ المحكمة الشرعية .

يراه الواقف والتي اختلفت من وثيقة إلى أخرى تبين إلى أي مدى ارتبطت وظيفة المنشأة الدينية بالوقف .

والحقيقة أنه بدون الأوقاف كان لا يمكن أن تقوم لوظيفة بعض المنشآت كالمدارس والخنقاوات قائمة في ذلك العصر ، فمثلاً يحدثنا المقريزي عن ثلاث مدارس مملوكية لم يكن بأي منها مدرس ولا طلبة : وأولى هذه المدارس الخروبية التي مات مؤسسها « قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها ، فليس فيها مدرس ولا طلبة »[٦]، والثانية مدرسة اينال لم يعمل بها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره[٧]، والثالثة مدرسة المحلي « لم يجعل بها مدرساً ولا طلبة » .[٨]

ويؤكد أهمية الأوقاف بالنسبة للمدارس أيضاً واستمرارها في أداء وظائفها تلك العبارة التي ذكرها المقريزي عند كلامه عن المدارس حيث يقول مثلاً عن المدرسة الناصرية « ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت ، فإن الكيمان ملاصقة لها بعدما كان حولها أعمر الدنيا[٩]. وقد أحاط بها الخراب ولو ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت[١٠]، وهذا يعني أن ريع ما يوقف على المنشآت الدينية كان المصدر الأساسي والوحيد لغالبية المنشآت الدينية في العصر المملوكي ، ولما كانت الموارد المالية للمدرسة محددة بريع الوقف فقد تحكم ذلك في كل نشاطها وأرباب الموظفين بها والطلبة وغير ذلك . ومن هنا أصبحت الوثيقة بمثابة اللائحة التي تنظم العمل وأربابه داخل المنشأة ، كما انها كانت القانون الذي يحتكم إليه في جميع ما يخص المنشأة ، ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة تلك المشكلة التي قامت بخصوص مدرسة ابن سويد والتي لم تنص وثيقة وقفها على أن تقام بها خطبة ، ثم عملت بها خطبة والغي الدرس ، وقرر معلوم المدرس للمؤذنين والخطيب ثم ألفيت الخطبة بعد أن احتج على إقامتها وثار الجدل بين الفقهاء والقضاة وكان الفيصل في ذلك ما قرره الواقف في وثيقة وقفه .[١١]

ومما يشير إلى مدى وجوب تطبيق ما يقرره الواقف من نظام بمدرسته بغض النظر عن جاري العادة في ذلك ، ما يذكره السبكي عن وظيفة البواب حيث يقول « ومن حقه المبيت بقرب الباب ، حيث يسمع من يطرق ، وعليه الفتح لساكن في المكان أو قاصد مقصداً دينياً من صلاة أو اشتغال ، أي وقت جاء من أوقات الليل ، وما يفعله بعض البوابين من غلق الأبواب في وقت معلوم من الليل ؛ إما بعد صلاة العشاء الآخرة أو في وقت آخر ، بحيث إذا جاء أحد السكان أو المريدين للصلاة بعده لا يفتح له ، غير جائز ، إلَّا أن تكون مدرسة شرط واقفها ألا يفتح بابها إلَّا في وقت معلوم ، وفي صحة من شرط هذا الشرط نظرٌ واحتمال ، أما لو شرطه في مسجد أو جامع فواضح أنه لا يصح » .[١٢]

وهذا النص يكشف بجانب أهمية شرط الواقف عن حقيقة هامة تفرق بين المدرسة والمسجد أو المسجد الجامع وهو أنه توجد شروط يمكن السماح بها لواقف المدرسة لا يسمح بها لواقف الجامع أو المسجد، فشرط غلق أبواب المدرسة جائز لكنه محرم بالنسبة للجامع أو المسجد ، لأنه أصبح بعد اعتماد وقفه جامعاً ، بيتاً لله لا حق لواقفه فيه إلَّا كواحد من المسلمين ومن ثم لا يملك الشرط فيه .

وفيما يتعلق بمنشأة سودون من زاده نجد أن نص الوقف يشير إلى وقف المنشأة « **جامعاً** » حيث جاء بالوثيقة ما نصه « ان الواقف المذكور **وقف ذلك مسجداً جامعاً لله تعالى** تقام فيه الصلوات ويعتكف فيه على الطاعات ، ويجتمع فيه للاشغال والاشتغال بالعلم الشريف والأذكار وتلاوة كتاب الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار واذن للمسلمين كافة في الدخول إليه والصلاة فيه وخلا بينهم وبينه فدخلوه وصلوا فيه»[١٣] وهكذا أصبح حقه في المنشأة كحق أي واحد من المسلمين باعتباره « جامعاً » أما لو كان الوقف « مدرسة » لاختلف الأمر .

ثم جاء بالوثيقة أن الواقف قرر أن « يرتب الناظر في هذا الوقف رجلين من أهل الخير والدين المشهورين بالتقدم في

---

(٦) المقريزي ، الخطط ـ طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٧) المقريزي : ج ٢ ، ص ٤٠١ .

(٨) المقريزي ، ج ٢ ، ص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٩) المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

(١٠) المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

(١١) السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك (المطبعة الأميرية ، ١٨١٤ م) ، ص ص ٩ ـ ١١ .

(١٢) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم (طبعة ليدن) ، ص ١٤٤ .

(١٣) وثيقة وقف سودون من زادة ١٠/٥٨ المحكمة الشرعية .

العلم ، أحدهما حنفي المذهب والآخر شافعي المذهب مدرسين بهذا الجامع المشار إليه بأعاليه ويرتب معهما أربعة معيدين متصفين بالصفة المذكورة إثنان من الحنفية وإثنان من الشافعية ، ويرتب الناظر أيضاً معهم أربعين نفساً من الطلبة المعروفين بالخير والدين والاشتغال بالعلم الشريف، عشرون من الحنفية وعشرون من الشافعية على أن كل مدرس من المدرسين يجلس مع طائفته من المعيدين والطلبة بمحراب هذا الجامع في الوقت الذي يعينه الناظر إما عقب صلاة الظهر إلى أذان العصر أو مقدار ذلك من طلوع الشمس إلى الزوال في كل يوم من أيام الاسبوع خلا يوم الجمعة ويوم الاثنين ويوم الثلاثاء فإنهم يسامحون بالحضور فيها ، وتفرق عليهم ربعة شريفة ، يقرأون فيها ما تيسرت لهم قراءته من القرآن العظيم ثم يدعو أحدهم عقيب قراءته للواقف المذكور ولذريته ولجميع المسلمين بالرحمة والمغفرة ، ثم يلقي المدرس المذكور بحضرة جماعته ما تيسر له القاؤه من تفسير وحديث للبحث من جماعته على العادة في ذلك ويمثلون كذلك إلى آخر الوقت المذكور ، ويجلس المعيدان المذكوران إما بعد الدرس أو قبله مع ما تيسر حضوره عندهما من طلبة مذهبه ، ويصحح كل من المعيدين المذكورين لهم ما يحفظونه من كتبهم ويبين لهم ما أشكل عليهم من مذهبهم على العادة في ذلك » .(١٤)

ويبدو أن هذا النص هو الذي دفع بالباحث إلى أن يطلق على المنشأة مدرسة رغم أن واقفها وقفها جامع ، ثم حاول بعد ذلك أن يوضح أن هناك « طرازين عامين للمدارس يتبع أحدهما تخطيط الصحن والإيوانات والآخر يتبع طراز المساجد الجامعة التقليدية التي تتكون من صحن وأربع ظلات »(١٥) وهو توضيح يجانبه الصواب ذلك لأن المنشأة وقفت جامعاً كما أشرنا بالإضافة إلى أن الجامع كان يؤدي وظيفة المدرسة والخانقاة في عصر المماليك الجراكسة على وجه الخصوص وهو العصر الذي ينتمي إليه هذا الجامع .

وحتى يتبين ذلك فإننا نعرض إلى النقطة الثانية من النقاط الأساسية في فهم وظيفية المنشآت الدينية المملوكية ، وهي ظاهرة تعدد الوظائف التي تقوم بها المنشأة سواء كانت صلاة أو درس أو تصوف ، وهي ظاهرة وليدة تطور وظيفي بدأ في العصر الأيوبي وتتبلور في عصر المماليك الجراكسة الذي ينتمي إليه هذا الأثر موضوع البحث .

والحقيقة أن المنشأة الدينية تطورت وظيفتها حتى أصبحت تؤدي الوظائف الدينية المختلفة من صلاة أو درس أو تصوف حسب ما يقرره الواقف كما أشرنا . وكان لذلك نتيجته المباشرة وهو تكثير المساجد الجامعة بصورة تفوق الحاجة إليها . فقد كانت المنشأة تقام بها الصلاة الجامعة بجانب وظيفتها الأصلية كالتدريس إذا كانت مدرسة ، أو التصوف إذا كانت خانقاة أو رباط . وقد أمكن هذا التعدد في الوظائف نتيجة ملائمة المبنى للقيام بهذه الوظائف ، وبقي الأمر هنا بشرط الوقف والأوقاف التي يخصصها لأرباب الوظائف المختلفة بالمنشآت التي يبنيها .

وقد بدأت هذه الظاهرة في العصر الأيوبي عندما سمح الفقهاء بجواز إقامة أكثر من خطبة في البلد الواحد ، وانتشرت في العصر المملوكي ، وبدأت بتحويل المساجد الفاطمية(١٦) والمدارس الأيوبية(١٧) إلى مساجد جامعة(١٨) بإضافة منبر وتعيين الموظفين الذين يقومون بتأدية هذه الوظيفة كالخطيب والمرقي أو المبلّغ ، بل أن الأمر لم يقتصر على تحويل المساجد والمدارس إلى جوامع بل حولت بعض الزوايا إلى مساجد جامعة أيضاً(١٩) . ومما يشير إلى سهولة ذلك الأمر ما ذكر من أن أحد المشايخ جعل بداره منبرا وصار يصلي الجمعة هو وأصحابه بداره(٢٠) وصارت تؤدي وظيفة المسجد

(١٤) المرجع السابق نفسه .

(١٥) حسني نويصر ، ص ٣٤ .

(١٦) من أمثلة المساجد التي حولت إلى جوامع ، مسجد كان بجوار قبة الإمام الشافعي حول إلى جامع سنة ٦٠٧ (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٩٣) ومسجد الجاكي حول سنة ٧١٣ (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣١٣) والمسجد الأقمر سنة ٧٩٩ (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣١٣) .

(١٧) من أمثلة المدارس الأيوبية التي حولت إلى جوامع بجانب وظيفتها كمدرسة ، المدرسة الصاحبية (المقريزي ، ج ٢ ، ص ص ٣٧١ - ٣٧٥) والمدرسة الصالحية (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٢٧٤) وغيرها .

(١٨) لقد يسر تحويل المساجد الصغيرة إلى مساجد جامعة أن صلاة الجمعة يمكن أن تنعقد باثني عشر مصلياً كما أن إجازة الفقهاء إقامة أكثر من خطبة في البلد الواحد ساعدت على شيوع هذا الأمر .

(١٩) المقريزي ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٢٠) السخاوي ، **الضوء اللامع** ، ج ٦ ، ص ص ٢١ - ٢٢ .

الجامع ، كذلك حولت بعض القاعات المملوكية إلى مساجد جامعة كقاعة طشتمر بدرب الحصر التي حولها خشقدم الأحمدي إلى جامع يعرف باسمه .

وإذا كان المماليك حولوا المساجد والمدارس والزوايا إلى مساجد جامعة بجانب وظيفتها الأصلية فإنهم جعلوا بالجوامع دروساً فأصبحت تؤدي وظيفة المدارس بجانب وظيفتها الأصلية من كونها مساجد جامعة، ومن أمثلة ذلك جامع عمرو(٢١)، وجامع ابن طولون(٢٢) ، والجامع الأزهر(٢٣) .

وإذا كانت ظاهرة تحويل المساجد والمدارس إلى مساجد جامعة مع عدم إلغاء الوظيفة الأصلية لها والتي كان المبنى يؤديها قد انتشرت في العصر المملوكي ، فإن المماليك طبقوا هذه الظاهرة على منشآتهم التي أنشأوها ، وتوقفت الوظائف التي يؤديها المبنى لا على شكله المعماري ولكن على ما يريد المنشىء أن يؤديه مبناه من وظائف ، خاصة وأن المبنى الديني بتصميمه المعماري سواء كان جامعاً ذو أربعة أروقة أو مدرسة ذات أربعة أواوين متعامدة يمكن أن يؤدي الوظائف الثلاث لكل من المدرسة والجامع والخانقاة .

ولما كانت الوظيفة التي يؤديها المبنى تقوم أساساً على نص الوقف الذي يحدده صاحب المنشأة، ولما كان المبنى الديني يستطيع أن يؤدي وظيفة الصلاة الجامعة والتدريس وحضور التصوف ، فلم يعد مستغرباً أن نجد جامعاً يؤدي وظيفة المدرسة ـ كجامع سودون الذي نحن بصدده ـ أو جامعاً يؤدي وظيفة الخانقاة أيضاً(٢٤) أو جامعاً يؤدي وظيفة المدرسة والخانقاة بجانب وظيفته الأساسية(٢٥) التي وقف لها . ولم يقتصر هذا الأمر على المساجد الجامعة بل امتد إلى الخنقاوات والمدارس أيضاً(٢٦) .

وهناك من المدارس ما وقفها أصحابها لتؤدي وظيفة المساجد الجامعة إلى جانب كونها مدارس(٢٧) حتى أن المقريزي صنف بعض هذه المدارس في خططه في باب الجوامع بسبب هذا التعدد في الوظائف بجانب ذكرها في الباب الخاص بالمدارس ، كما أن هناك من المدارس ما وقفها أصحابها لتؤدي وظيفة الجامع والخانقاة بالإضافة إلى وظيفة المبنى من كونه مدرسة .(٢٨)

وقد حدثت نفس الشيء بالنسبة للخانقاة ، فقد كانت في بداية أمرها مكاناً لإيواء المتصوفة للتعبد ولم تكن تؤدي وظيفة المسجد الجامع ، فقد كان متصوفة سعيد السعداء على سبيل المثال يؤدون صلاة الجمعة بجامع الحاكم.(٢٩) ثم أنشئت بعد ذلك الخنقاوات التي أنشىء بجانبها مساجد جامعة لتخدمها أيضاً ، وهو ما عرف بازدواجية التخطيط في كل من خانقاة قوصون وجامعه، وخانقاة بشتاك وجامعه، وخانقاة شيخو وجامعه الذي أنشأ خانقاة للمتصوفة بعد أن كان أنزلهم بالجامع ، وهو أمر يمثل مرحلة انتقالية نحو تعدد الوظائف في المنشأة الواحدة بعد ذلك . ثم حدث التعدد وأصبحت الخانقاة تؤدي وظيفة المسجد الجامع أيضاً وكان أول مثال لذلك ـ على حد علمنا ـ خانقاة ايدكين البندقداري الصالحي النجمي(٣٠) ، ثم تعددت الأمثلة بعد ذلك وأصبحت المثل

---

(٢١) وثيقة لاجين رقم ١٧ ، المحكمة الشرعية ؛ المقريزي ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢٢) وثيقة لاجين ، رقم ١٧، المحكمة الشرعي ، المقريزي ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ . ابن تغري بردى ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .

(٢٣) المقريزي ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ . وقد شاعت هذه الظاهرة خارج مصر أيضاً في الشام والعراق- راجع ابن تغري بردى، ج ٦ ، ص ٢٨٠ ، ج ٧ ، ص ٣٨٣ ، ج ٨ ، ص ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢٤) من أمثلة المساجد الجامعة التي تؤدي وظيفة الخانقاه جامع منجك اليوسفي سنة ٧٥١ هـ ، (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣٢٠) ابن تغري بردى ، ج ١٠ ، ص ٢٦٣ ؛ والجامع المارداني (السخاوي ، الضوء ، ج ٦ ، ص ٣٠٧) ؛ وجامع شيخو قبل إنشاء الخانقاة (المقريزي ؛ ج ٢ ، ص ٣١٣ وما بعدها) ؛ ابن تغري بردى ، ج ١٠ ، ص ٢٦٩ وكانت هذه الظاهرة أيضاً شائعة في شرق العالم الإسلامي فقد استخدام جامع الموصل كخانقاة (ابن تغري بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ص ٣٤٨ ، ٣٤٩) .

(٢٥) من أمثلة ذلك جامع القمري (المقريزي ؛ ج٢ ، ص ص ٣٢٨ - ٣٢٩) وجامع يحيى بن عبد الرحمن بن محمد الهاشمي (السخاوي ، الضوء ، ج ١٠، ص ٥٣٤ ، وجامع المؤيد شيخ (وثيقة وقف المؤيد ٩٣٨ أوقاف) .

(٢٦) من أمثلة ذلك المدرسة المهمندارية (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣٩٩) ؛ والمدرسة الاقبغاوية (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣٨٤) ، والمدرسة الجمالية (المقريزي، ج ٢ ، ص ٣٩٢) ؛ ومدرسة الغوري (ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٨) .

(٢٧) من هذه الأمثلة مدرسة السلطان حسن (المقريزي ، ج ٢ ، ص ص ٣٦٤ - ٣٨٣) ومدرسة أصلم (ابن تغري بردى ، ج ١٠ ، ص ١٧٤) .

(٢٨) من أمثلة ذلك المدرسة الزمانية (المقريزي ، ج ٢ ، ص ٣٩٤) والمدرسة التي أنشأها تغري بردى بن عبد الله الرومي الموذي (السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٤٩ وأمثلة ذلك كثيرة) .

(٢٩) المقريزي ، ج ٢ ، ص ٤١٣ .

(٣٠) ابن تغري بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ .

الشائع في عصر المماليك الجراكسة .

وبالبحث عن الأسباب الحقيقية وراء هذا التعدد في الوظائف للمبنى الواحد نجد أن هناك أسباباً ثلاثة رئيسة ؛ أولها إجازة الفقهاء قيام أكثر من خطبة في البلد الواحد ، فأصبحت الفرصة متاحة لإنشاء العديد منها ، واستخدام المساجد الملحقة بالمدارس والخنقاوات كمساجد جامعة ، وثانيها أن التصالح بين الفقهاء والمتصوفة واتفاق الجانبين على هدف واحد اختلفت الوسيلة إليه سواء الشريعة أو الفقه[٣١] كان له أثر كبير في التقريب بين الدرس والتصوف حتى أنهما أصبحا يعقدا في منشأة واحدة يمكن لها أن تقوم بوظيفة المسجد الجامع . أما العامل الثالث فقد استمد حريته من العاملين السابقين وهو أن تقرير الوظائف في المنشأة الدينية كان رهناً برغبة الواقف ، كأنه يمكن القول عندئذ بأن الوثيقة هي الأساس الأول الذي يحدد وظيفة المبنى سواء أكان مدرسة أو جامع أو خانقاة ، أو « مدرسة جامع » ، أو « جامع مدرسة خانقاة » في وقت واحد ويسمى المبنى بما يقرر وقفه بالنص . ومنشأة سودون التي نحن بصددها قررت بنص الوقف « جامعاً » وقرر به بالإضافة إلى ذلك وظيفة درس لكنها لم توقف مدرسة . وثالث النقاط التي نؤكد بها ما نذهب إليه من أن تسمية منشأة سودون بالمدرسة ، أمر خاطىء وأن الصحيح أنها « جامع » ؛ هي العلاقة بين نص الإنشاء وتخطيط المنشأة وهي علاقة نعرضها من واقع الآثار المملوكية الباقية وما تحتويه من نصوص تأسيسية تتضمن مسميات هذه المنشأة .

عرفنا مما سبق أن تعدد الوظائف في المنشأة الدينية المملوكية كان ظاهرة عامة بدأت تتطور مع بداية عصر المماليك ، وتبلورت وسادت في القسم الثاني منه وهو عصر الجراكسة ، وكذلك عرفنا أن هذا الأمر كان مرهوناً برغبة الواقف وإمكاناته التي تتحكم في تقرير الوظائف التي كانت تقوم بها المنشأة ، وأن نص الوقف هو المعول عليه في التسمية . وبقي أن نؤكد أن هناك علاقة بين تخطيط المنشأة ونص إنشائها يؤكد ما نذهب إليه ، وبمراجعة نصوص الإنشاء المسجلة على هذه المنشآت نجد أن المنشآت التي يتضمن نص إنشائها أنها « مدرسة » مثل منشأة السلطان قلاوون سنة ٦٨٤ هـ ، والسلطان حسن ٧٦٤ هـ ، وأم السلطان شعبان ، والقاضي عبد الباسط ، وقايتباي بالروضة ، والغوري بالغورية سنة ٩٠٩ هـ وغيرها ، كان تخطيطها عبارة عن أربع أواوين متعامدة .

ثم وجدنا نصوصاً لها أهميتها وتمثل مرحلة أكثر تطوراً من الناحية الوظيفية عن النصوص السابقة فمنشأة الجاي اليوسفي جاء نص إنشاؤها كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا **الجامع والمدرسة المباركة** المعز الأشرف الجاي أتابك العساكر الملكي الأشرف غفر الله له ولجميع المسلمين بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة » وتخطيط هذه المنشأة أيضاً عبارة عن أربعة أواوين متعامدة .

كذلك فإن من المنشآت ذات التخطيط المتعامد ما جمع نص إنشائها بين تسمية « المدرسة والخانقاة » مثل منشأة السلطان برقوق التي جاء بنص إنشائها « أنشأ **هذه المدرسة المباركة والخانقاة** مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق » .

كما أن هناك من المنشآت ما كان تخطيطه متعامداً كذلك وجاء بنص إنشائها أنها « **جامع** » فقط ومثل منشأة جاني بك الأشرفي سنة ٨٣٠ هـ ، وقجماس الاسحاقي بالدرب الأحمر ، والقاضي يحيى بالأزهر ، ولهذا دلالته المعينة التي تشير إلى أن التخطيط المتعامد للأواوين استخدم في المنشآت التي أطلق عليها بنص الإنشاء « جامع » وهذا يعني أن هذا التخطيط سار جنباً إلى جنب مع التخطيط المتعارف عليه للجوامع ذات الأربعة أروقة ، كما يلاحظ أن هذه النماذج جميعاً ترجع إلى عصر المماليك الجراكسة والذي أصبحت فيه مساحة المنشأة الدينية عامة أصغر نسبياً في معظمها ـ بغض النظر عن مجموعات السلاطين ـ وتخطيط الأواوين المتعامدة أنسب التخطيطات لذلك حيث إن ظروف الإنشاء لا تتطلب استخدام الأعمدة لصغر المساحة وعدم اتساع البحور التي يضطر إلى استخدامها .

---

(٣١) أحمد الرفاعي ، البرهان المؤيد ، كتاب الجمهورية ، مقدمة صالح عزام ص ٤٧ ؛ وراجع أيضاً الغزالي ، إحياء علوم الدين ، الطبعة الميمنية ـ (القاهرة ، ١٨٩٥) .

وخلاصة القول أن التخطيط المتعامد استخدم في المنشآت الدينية المختلفة سواء المدرسة أو الجامع أو الخانقاة ولكن في مراحل زمنية مختلفة ، فذكر التسمية « مدرسة » بنص الإنشاء امتد من بداية العصر المملوكي وحتى نهايته ، ثم جاء الجمع بين التسمية « الجامع والمدرسة » في مرحلة لاحقة ، وكان ذلك حسب النصوص الباقية سنة ٧٧٤ هـ في منشأة الجاي اليوسفي ، ثم الجمع في التسمية من « المدرسة والخانقاة » في منشأة السلطان برقوق سنة ٧٨٦ - ٧٨٨ هـ ، ثم أطلقت التسمية « جامع » على المنشأة ذات التخطيط المتعامد في العصر الجركسي بصفة خاصة ، وكان ذلك بداية سنة ٨٣٠ هـ في منشأة جاني بك ، ثم تكرر ذلك في أمثلة أخرى كمنشأة قجماس والقاضي يحيى الأزهر . وإذا ربطنا بين تطور هذه النصوص بهذا الشكل وبين ما عرضناه من تطور وتعدد وظائف المنشآت الدينية في العصر المملوكي لوجدنا تطابقاً وتلازماً تاماً .

وإذا استعرضنا نصوص المنشآت التي كان تخطيطها حسب نظام الأروقة المتصلة للاحظنا أن هذه المنشآت لم يخرج أي منها على تسميته في نص الإنشاء عن « **الجامع** » أو المسجد مثال ذلك جامع الظاهر بيبرس ، وجامع الناصر محمد بالقلعة ، وجامع المارداني وجامع ألماس الحاجب ، وجامع قوصون ، وجامع شيخو ، وجامع القاضي يحيى زين الدين وبولاق ، وجامع برسباي بالخانكة . والنتيجة التي يمكن الوصول إليها أو استنتاجها من ذلك أن المنشآت التي كان تخطيطها حسب نظام الأروقة الأربعة المتصلة حول صحن مكشوف كانت تسميتها دائماً « بالجامع » وهو أمر يجعلنا نرجح أن تسمية منشأة سودون من زاده في نص التأسيس الذي درس حالياً هي « **الجامع** » .

ومما سبق تتضح الأسس العلمية التي يقوم عليها تصنيف المنشآت الدينية المملوكية تصنيفاً وظيفياً صحيحاً . ويتضح تبعاً لذلك بأن تسمية منشآة سودون من زاده بالمدرسة أمر يجانبه الصواب ، وبالتالي فإن عنوان البحث المنظر «مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة » خاطىء . والصحيح تسمية المنشأة « بالجامع » كما أكد ذلك نص الوقف ودراسة النصوص التأسيسية للعمائر الدينية المملوكية .

ثانياً : الدراسة الأثرية المعمارية في ضوء نص الوثيقة

توضح الدراسة الأثرية المعمارية الدقيقة والمتأنية للجامع ، في ضوء ما ورد بوثيقة الوقف ، أن البحث المشار إليه قد انزلق إلى تصور خاطىء لما كان عليه الجامع معمارياً وقت إنشائه . وسنعرض للتصور الحقيقي الذي كانت عليه عمارة الجامع من الناحية المعمارية عارضين وصفه ومتتبعين خطوات الوصف في البحث المذكور حتى يستطيع القارىء تلمس مواضع الخلط والخطأ في البحث المذكور وإدراك الشكل الأصلي الذي كان عليه الجامع .

الوصف من الخارج

الواجهة الرئيسة :

هي الواجهة الشمالية الغربية (البحرية) . لم يتبق أن جزء منها وذكرت الوثيقة[٣٢]وصف هذه الواجهة على النحو التالي « يشتمل المكان المذكور (الجامع) على خمسة أبواب أحدها وهو الكبير[٣٣] شارع في الحد البحري بواجهته المبنية بالحجر الفص النحيت وهو مربع مبني بالحجر الفص النحيت الملون بصدر رخام أبيض وأسود وعلوه مقرنص به شباك نحاس يغلق عليه زوجاً باب مصفح بالنحاس المعمول ضرب الخيط بجانبيه مسطبتان يمنة ويسرة » ، وجاء بالوثيقة تفصيل أكثر لهذه الواجهة عند تحديد موضع الجامع في نهاية الوصف الوثائقي نصه « والحد البحري ينتهي إلى سويقة المسيب وفيه روشن وطاقات من حقوق الرواق المذكور » .

---

(٣٢) وثيقة وقف سودون من زادة رقم ٥٨/ ١٠ محكمة محفوظة حالياً بدار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣٣) يتضح من هذا الوصف أن هذا المدخل هو المدخل الرئيس باعتباره أكبر المداخل ، ومن ثم يمكن أن نعتبر هذه الواجهة التي بها هذا المدخل الواجهة الرئيسة ويؤكد ذلك أيضاً أهمية الشارع المطل عليه بالنسبة لبقية الشوارع المطل عليها الجامع ، ووجود الضريح الذي تشغل واجهته جزءاً من هذه الواجهة حيث كان يعمد الى وضع الضريح ضمن الوحدات التي تشكل الواجهة الرئيسة .

والرواق المذكور هذا هو ذلك الرواق الذي جاء وصفه بالوثيقة أيضاً على النحو التالي : « والباب الثالث (في الواجهة الغربية) مربع يغلق عليه زوجاً باب يدخل منه إلى سلم يصعد منه إلى رواق بواجهتين بحرية وغربية أمامه دور قاعة مسقف نقيا مدهون يحوي منافع ومرافق وحقوقاً ولهذا الرواق رؤوس طاقات مطلات على الطريق من الجهتين المذكورتين » . وعندما تحدث الموثق عن الرواق البحري تعرض لذكر النوافذ التي بهذه الواجهة بما نصه « وأما الرواق البحري فإنه يشتمل على ثلاثة مراتب بكل مرتبة منها شباك نحاس مطل على الطريق المسالك يغلق كل من الشبابيك المذكورة زوجاً باب مصفح بالنحاس » وكان يعلو هذه النوافذ قمريات ، حيث ذكرت الوثيقة عند وصف نوافذ الرواق الغربي أن يعلو شبابيك الجامع كلها « قمريات » ، ثم يعرض الموثق لوصف القطاع الشرقي من هذه الواجهة عندما وصف قبة الضريح ، وذكر أن بها شباك مطل على الطريق ، وكانت المئذنة تعلو هذه الواجهة حيث جاء بالوثيقة ما نصه « الميدنة المبنية على بعض الجدار البحري على يمنة الداخل[٣٤] من الباب الجامع المذكور المبنية بالحجر الفص النحيت » وفي ضوء هذه النصوص يمكن أن نصف هذه الواجهة وصفاً متكاملاً ، فهي واجهة يتوسطها المدخل الرئيس للجامع ، يكتنفه من اليمين واليسار نافذتان من كل جانب الأولى والثانية والثالثة ـ من الغرب إلى الشرق ـ هي النوافذ التي بصدد المراتب بالرواق الشمالي الغربي والرابعة هي نافذة الضريح ، وكان يعلو هذه النوافذ قمريات معشقة بالزجاج الملون في وصف علوي على محاورها كما هي العادة في ذلك ، ويلاحظ أن الجزء العلوي من القطاع الغربي من هذه الواجهة كان به روشن وطاقات الواجهة الشمالية للرواق العلوي الذي يعلو القطاع الشمالي الغربي من الجامع . وهو أمر لم يتنبه إليه الباحث في الدراسة المذكورة ولم يشر إليه بالمرة . وكانت مئذنة الجامع في الموضع الذي يعلو الكتف الذي يفصل بين المرتبة الأولى والثانية ـ من الغرب إلى الشرق ـ بالرواق الشمالي ولم تكن أعلى العضادة اليمنى للمدخل بهذه الواجهة ـ كما يشير البحث المذكور[٣٥] ـ خاصة وأن الموثق لم يحدد ذلك تحديداً ، وإنما ذكر أن المئذنة على يمنة الداخل بأعلى الواجهة . ومن الناحية المعمارية الانشائية لا يحتمل الكتف الأيمن للمدخل بناء المئذنة فوقه وأوضح من المسقط الأفقي للجنة حفظ الآثار[٣٦] . إن الكتف الذي أشرنا إليه قد صمم ليكون بمثابة قاعدة قوية لبناء المئذنة وكانت تعلو مربع الضريح القبة التي تشكل مع المئذنة نوعاً من التوازن المعماري الرائع كما هي العادة في المنشآت الدينية المملوكية .

الواجهة الجنوبية الغربية (الغربية) :

تضمنت الوثيقة نصوصاً وصفية تساعدنا على تصور شكل هذه الواجهة أيضاً بصورة واضحة بعيدة عن الخلط الذي تردي فيه البحث المذكور ، فعند ذكر تحديد موضع الجامع ذكر الموثق أن « الحد الغربي ينتهي إلى الطريق المتوصل منها إلى سويقة المسيب وغير ذلك من الطرق والأماكن وفيه باب الجامع الغربي المشار إليه أعلاه وباب الرواق وباب قاعة الخطابة المشار إليها أعلاه وفيه روشن وطاقات من حقوق الرواق المشار إليه » . وعندما وصف الموثق الرواق الغربي أضاف تفصيلات معمارية فقد جاء بالوصف ما نصه « وأما الرواق الغربي فإنه يتوصل إليه من باب في الحد الغربي وهو أحد الأبواب الخمسة المشار إليها أعلاه وهو الباب الثاني وصفته أنه مبني بالحجر الفص النحيت يعلوه صدر مقرنص يغلق عليه زوجاً باب مصفح بالنحاس المعمول ضرب خيط وهو يتوسط الرواق الغربي ، وبهذا الرواق ثلاثة شبابيك نحاس مطلات على الطريق يغلق كل منها زوجاً باب تشبه الأبواب المذكورة يعلو الشبابيك كلها التي بالجامع قمريات » ويكمل هذا الوصف تلك الإشارة إلى الرواق الذي يعلو القطاع الشمالي الغربي من الجامع ـ الذي سبق الإشارة إليه عند وصف الواجهة السابقة ـ ووصف قاعة الخطابة الذي يؤكد وصفها أن بابها كان بهذه الواجهة كما أنه يعلوها

(٣٤) اعتقد الدكتور حسني نويصر أن المئذنة تقع على عضادة المدخل اليمني والأوفق أنها تقع على الكتف الذي يلي ذلك في اتجاه الغرب .

(٣٥) نويصر ، ص ٤٣ .

(٣٦) انظر المسقط الأفقي للجامع الذي تم رفعه بوساطة لجنة حفظ الآثار، محاضر **لجنة حفظ الآثار** ، مجموعة ٢٠ سنة ١٩٠٣ ؛ نويصر ، شكل رقم ١ .

« مسترحة بمرافق وحقوق يصعد إليها من سلم بدهليز القاعة . وهذا يعني أن القطاع الغربي من الجامع كان في هيئة طابقين ، الأول الرئيس يشمل الرواق الغربي والجزء الغربي من الرواق الشمالي ، وقاعة الخطابة بالطرف الشرقي من هذا القطاع ، ويعلو ذلك الطابق الثاني الذي يضم الرواق المذكور ، والمسترحة التي تعلو قاعة الخطابة .

ومن عرض هذه النصوص تتضح الأهمية والدقة في التفاصيل التي وصفها الموثق لهذه الواجهة ولم يصف البحث المذكور منها سوى المدخل الغربي المؤدي للجامع ، ولم يشر إلى البابين الآخرين وهما باب الرواق وباب قاعة الخطابة وعدم تحقيق موضع هذين البابين بدقة كان وراء الخطأ في تصور الوضع الصحيح الذي كان عليه تخطيط ملحقات الجامع في هذه الجهة أي « القطاع الغربي خاصة الطرف الشرقي المتصل برواق القبلة »[٣٧] رغم أن مجهود قليل في ترتيب النصوص الوثائقية التي عرضناها والربط بينها يوضح الأمر بصورة جلية ، فقد ذكر الموثق ـ كما أشرنا ـ أن باب قاعة الخطابة « الخارجي » بالواجهة الغربية ، وذكر وصفاً لهذه القاعة بأنها « تشتمل على ايوان ودور قاعة مسقف نقياً مدهون بمنافع ومرافق وحقوق وبدهليز هذه القاعة سلم يصعد منه إلى مسترحة بمرافق وحقوق » . ثم ذكر الموثق أن لهذه القاعة باب آخر « داخلي » يربط بينها وبين رواق القبلة عندما ذكر أن هذا الرواق به « ثلاثة أبواب يغلق كل منها زوجاً باب احدهما وهو الذي على يمنة المصلي بالمحراب يدخل منه إلى قاعة الخطابة » . وهكذا يبدو واضحاً أن قاعة الخطابة كانت تشغل الركن الجنوبي الغربي من الجامع هي « والمسترحة » التي تعلوها . وبهذا يمكن أن تقول أن باب قاعة الخطابة « الخارجي » كان في القطاع الجنوبي من الواجهة الغربية وأن قاعة الخطابة كان لها باب « داخلي » يصل بينها وبين رواق القبلة يصل منه الخطيب مباشرة دون أن يتخطى رقاب المصلين ـ وهو أمر راعاه المعمار المسلم في تخطيطه لقاعات الخطابة وأبوابها الداخلية ـ ومن أمثلة ذلك قاعة الخطابة بمدرسة السلطان حسن وقاعة الخطابة بجامع المؤيد شيخ وقاعة الخطابة بمدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش[٣٨] ولا يمكن أبداً أن يكون الباب الذي حدده الباحث في البحث المذكور باباً لقاعة الخطابة[٣٩] هو بابها وذلك للأسباب الآتية : أن الوصف الباحث لهذا الباب حسب ما تبقى من أجزاء يفيد أنه يؤدي إلى الخارج مباشرة ، كما أنه ـ كما أشرنا ـ لا يمكن أن يكون هو الباب الذي يمر فيه الخطيب إلى المنبر لأن ذلك يفرض على الخطيب أن يتخطى رقاب المصلين في بلاطتين من البلاطات الثلاث برواق القبلة .

والحقيقة أن هذا الباب ـ المشار إليه ـ هو الباب الذي يؤدي إلى سلم يصعد منه إلى رواق الذي يعلو بقية القطاع الغربي من الجامع والذي تضمنت الوثيقة وصفه على النحو التالي « والباب الثالث (بالواجهة الغربية) مربع يغلق عليه زوجاً باب يدخل منه إلى سلم يصعد منه إلى رواق » وهذا الوصف ينطبق تماماً على هذا الباب ـ المشار إليه ـ وليس للرواق مدخلاً غيره ، وبذلك يتوفر للرواق نوع من الاستقلالية في الدخول والخروج وهو أمر معتبر في تخطيط الوحدات السكنية بالمنشآت الدينية المملوكية[٤٠] . وواضح في المسقط الأفقي الذي رفعته لجنة حفظ الآثار للجامع أن هناك سلماً في قبلتين ينتهي إلى هذا الباب الذي يؤدي بدوره إلى سلم صاعد كان يشغل « المرتبة » حسب التعبير الوارد في البحث المذكور كان يؤدي إلى الرواق السابق الإشارة إليه ، وهو أمر يتناسب معمارياً أيضاً مع سمترية رواق القبلة في جانبية الغربي والشرقي ، حيث إنه كان هناك جدار بالحد الشرقي للسلم المذكور يؤكده مسقط لجنة حفظ الآثار ، وهو أمر يخطىء معه وصف موضع السلم « بالمرتبة » كما ورد في البحث المذكور .[٤١]

وخلاصة القول أن الواجهة الغربية كانت تشتمل على المدخل الثاني المؤدي إلى الجامع ، وكان يكتنفه من كل جانب نافذتان يعلو كل منها « قمرية » ، ثم يلي ذلك في

---

(٣٧) راجع وصف « الأبواب التي بظلة القبلة » في البحث المذكور ؛ نويصر ، ص ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٣٨) عبد الستار ، ص ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٣٩) نويصر ، ص ص ٤٠ ـ ٤١ ، وشكل رقم ٧ .

(٤٠) عبد الستار ، ص ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(٤١) نويصر ، ص ٤٠ .

الاتجاه الجنوبي باب الرواق وهو مدخل عادي « مربع » ، يليه أيضاً في اتجاه الجنوب الباب المؤدي إلى قاعة الخطابة وهو مدخل عادي « مربع » . ولما كان هذا القطاع من الجامع في طابقين كما أشرنا فإنه كان بهذه الواجهة في الطابق العلوي روشن وطاقات هذا الطابق كما أشار الوصف الوثائقي . وهو أمر اغفلت الدراسة المذكورة عرضه بهذا الوضوح بعدما اختلطت الأمور على الباحث كما أشرنا .

الواجهة الجنوبية الشرقية « القبلية » :

أشارت الوثيقة إلى وصف هذه الواجهة ونعرض النصوص التي تتعلق بها بدءاً بنصوص تحديد موضع الجامع ، فقد جاء بالوثيقة أن «الحد القبلي ينتهي إلى بعض حوانيت يعلوها مسجد معلق وطبقة من حقوقه (. . . . .)[٤٢]وإلى مكان يعرف بإنشاء المقر الواقف المشار إليه وعمارته[٤٣] وإلى الزقاق المتوصل منه لحارة السودان وفيه الباب الخامس المشار إليه أعلاه » . وجاء تفصيل لهذا الحد القبلي عند وصف رواق القبلة بما نصه « والباب الثاني الذي بالرواق القبلي على يسرة المصلي يدخل منه إلى حاصل برسم مصالح المكان المذكور مسقف نقياً بمرافق وحقوق وفيه سلم يتوصل منه إلى علو ذلك وبالحاصل المذكور باب يتوصل منه إلى زقاق بحارة السودان وهو أحد الأبواب الخمسة المشار إليها أعلاه » ومن وصف الوثيقة لجدار القبلة **يتضح عدم وجود أية إشارة إلى وجود نوافذ به** ، واقتصر الوصف على المحراب فقط . وبمراجعة النصوص الوثائقية التي عرضناها نجد إشارة واضحة إلى وجود مبان ملاصقة للجامع في الجهة الجنوبية عبارة عن مسجد معلق وطبقة من حقوقه ، ومكان يعرف بإنشاء الواقف وغير ذلك ، وأن قطاعاً بسيطاً من جدار القبلة في الطرف الشرقي كان يطل على زقاق يتوصل منه إلى حارة السودان كان به باب « الحاصل » المشار إليه . وهذا يعني أن الجامع لم يكن له واجهة جنوبية بالمعنى المعماري وأنه كان يوجد فقط مدخل في الطرف الشرقي من الجدار الجنوبي مدخل يؤدي إلى الحاصل الذي ضمن ملحقات الجمع في هذه الجهة .

وتبقى بعد ذلك النافذتان اللتان في جدار القبلة الموقعتان على المسقط الأفقي الذي رفعته لجنة حفظ الآثار أو المسقط التصوري الموضوع بمعرفة الباحث مثاراً للتساؤل . ونظرة سريعة على شكل هاتين النافذتين في المسقط الأفقي ومقارنتهما ببقية النوافذ تفصح عن اختلاف في المقاييس والتفاصيل ، ويبدو واضحاً أنهما فتحتا في وقت لاحق ، وبعد أن سمحت الظروف معمارياً بذلك حيث إن الموضع الذي تطل عليه هاتان النافذتان كان مشغولاً بالعمارة عند بناء الجامع . ويؤكد ذلك الشكل المعماري لهاتين النافذتين حيث إن تفاصيلهما المعمارية تؤكد انهما نفذتا في مرحلة لاحقة على بناء الجامع .

وترتيب وصف المباني التي كانت ملاصقة لجدار القبلة واضح أنه كان حسب وصف الموثق يتجه من الغرب إلى الشرق ، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المباني التي كانت خلف رواق القبلة وبالذات في الموضع خلف المحراب والنافذتين هو المبنى الذي كان من إنشاء الواقف . وهو أمر يجعل من الممكن ببساطة ويسر فتح مثل هاتين النافذتين على هذا الموضع بعدما حدث إخلاء لمبانيه خاصة وانها في ملك الواقف، والخلاصة التي يجب التركيز عليها أن هذا الأمر يدل على أن اعمالاً معمارية لاحقة حدثت في الجامع ، وتعتبر هاتان النافذتان من بين الأدلة الأثرية المعمارية الباقية التي تدل على ذلك .

الوصف من الداخل

أشار النص الوثائقي إلى ذلك الوصف بالتفصيل بما نصه « يدخل منه (الباب الرئيسي بالواجهة الشمالية الغربية) إلى مكان كبير هيئة جامع بصدره محراب يشتمل على ست رواقات . ثلاث منها قبلية والثلاث رواقات الباقية احدها بحري والثاني شرقي والثالث غربي محمولة على عمد صوان عدتها ثمانية عشر عموداً علوها عقود وقناطر مبنية

---

(٤٢) تهالكت الكتابة بهذا الوضع من الوثيقة ونرمز للكتابة الفاقدة بهذه النقط .

(٤٣) يشير هذا النص إلى مكان لآخر من إنشاء الواقف وهو أمر يشير إلى وجود منشآت للواقف غير تلك التي ذكرتها الدراسة التي قام بها د. حسني نويصر ، ص ٣٧ .

بـالحجـر الفص النحيت والـطوب الأجـر والجبس » وهـذا النص في غاية الأهمية والتحديد فهو يشير صراحـة إلى أن العنـاصر الحـاملة للسقف « أغمدة صـوان » وإلى عـددهـا تحديداً وإلى أن السقف كـان معقوداً أو مقبياً . وقد أشـار الباحث إلى أن هذه الأقبية عبارة عن قباب ضحلة محمولـة على مثلثات كروية(٤٤) وإذا افترضنا صحة ذلك فإن أسلوب التغطية بمثل هذه القباب يتطلب تقسيم الأروقة إلى مربعات «Bays» بتنظيم وضع الأعمدة في المساحة المغطاة . وهـو أمر يتعارض والمسقط الأفقي الذي رفعته لجنة حفظ الآثار والمسقط التصوري للباحث . بل أنه يتضح من المسقطين أن العناصر الحاملة الموقعة عبارة عن أربعة أعمدة اسطوانية والباقي عبارة عن دعامات مربعة المسقط . وقد أشرنـا إلى أن النص الـوثـائقي يحـدد هـذه العنـاصـر الحـاملة بـأنهـا « أعمدة صوان » وهو وصف يستشف منه أنهـا مجلوبة من عمـائر قـديمة وأن هـذه الأعمدة ضخمـة إذ أن مثـل هـذه الأعمدة الصوانية التي أعيد استخدامها في الآثار الإسلامية بالقاهرة جلبت في الغالب من عمائر فرعونية قديمة(٤٥)، ومن ثم فإن مقاييس هذه الأعمدة ضخمـة حسب مقاييس طـراز الأعمدة الفرعونية القديمة وهو أمر يتوافق كذلك معمارياً مع أسلوب التغطية عقداً أو قبواً كما أشرنا .

وإذا قارنا بين عدد الأعمدة المـذكورة بـالنص الوثـائقي (١٨ عموداً) وبين العدد المـوقع على الـرسم والمواضـع المفترض أن يكون فيهـا أعمدة لكنهـا غير مـوقعة كـالرواق الشرقي والرواق الشمالي ،لاتضح لنا أن هذا العدد يصل الى تسعة عشر عمـوداً أو دعامـة موزعـة كما يلي : ثـلاثة عشـر برواق القبلة ، وثلاثة بالرواق المقابل له موقع منهـا دعامـة واحدة في الجهة الغربية ، واثنتان بالرواق الغربي مـوقعتان بالرسم ، وواحدة بالرواق الشرقي المقابل غير موقعـة على الرسم ولكن يفترض وجودها لحمل سقف هذا الرواق حيث إنـه كان يـوجد سلم بـالقطاع الشمالي(٤٦) من هذا الـرواق (يؤدي إليه باب بهذا الرواق) يتوصل منه إلى سطح الجامع المذكور وإلى الميدنة المبنيـة على بعض الجدار البحـري على يمنة الداخل من باب الجامع المذكور (الباب الـرئيس بالواجهة الغربية « البحرية ») . وحتى يسهل التـوصل إلى سطح الرواق الشمالي الغربي فإنه من المفترض معمارياً أن تكـون واجهـة الـرواق الشـرقي المـطلة على الصحن على محور واحد مع العمود الشـرقي في الصف الأول أو الثاني من صفوف أعمدة رواق القبلة ـ من الجنوب إلى الشمال ـ ، كما أنه من المفترض أن يكون الركن الجنوبي الغربي لمربع الضريح متصل بنائياً بجدار يمتد في الاتجاه الجنوبي بطول المسـاحـة التي يشغلهـا السلم المؤدي إلى الســطح . وبمراجعة المسقط الأفقي نجد دخولاً أو ارتداداً غير عـادي في هذا الركن يؤكد ذلك ، إذ لا يعقل أن يكون الركن بهذه الطريقة أصلاً ، خاصة وأن رفض القبة معمـارياً يتـركز في الأركان . ومن ثم لم تكن معنا حاجة إلّا لعمود واحد لحمل سقف هذا الرواق من الوسط بالإضافة إلى العمود المشترك بينه وبين رواق القبلة والجدار الممتد من ركن الضريح في اتجاه الجنوب والذي افترضنا وجوده .

ويفترض التوصل من السلم الذي بالرواق الشمالي إلى سـطح الرواق الشمـالي أن تكون أعمـدة الرواق الشمـالي المطلة على الصحن إلى الداخل في اتجاه الجنوب عما هي عليه في الرسم المرفوع بمعرفة لجنة حفظ الآثار ، ويدعم هذا الافتراض وجود المراتب الثلاث التي بالرواق الشمالي والتي نتجت عن امتداد الاكتاف النبائية لتضيق المسافة بينها وبين الأعمدة المطلة على الصحن ، وقـد حقق ذلك غـاية معمارية أخـرى إذا استغلت احداهـا كقاعـدة للمئذنـة كما أشرنا قبل ذلك .

والرواق الشرقي بالشكل الذي افترضناه يتوافق معمـارياً والوصف الوثائقي من حيث وجود سلم في القطاع الشمالي يـؤدي إلى السطح وإلى « الطبقة المعدة لإقامة المـؤذنين والـرؤساء بهـا المطلة على صحن الجـامع المـذكـور مبني واجهتها بـالحجـر الفص النحيت الملون وبها ثـلاثة أعمـدة

(٤٤) نويصر ، ص ٤١ .

(٤٥) من أوضح الأمثلة على ذلك تلك الأعمدة التي بمدرسة السلطان برقوق أو تلك التي بجامع المارداني .

(٤٦) خلط د . حسني نويصر فذكر أنه « بالزاوية الشمالية من الظلة الغربية » المرجع السابق ، ص ٤٣ .

رخام لطيفة » فهذه الطبقة تشغل الجزء العلوي من الرواق الشرقي ومساحتها وطريقة إنشائها وشكل أعمدتها المطلة على الصحن تتوافق معمارياً وشكل الرواق الشرقي اسفلها .

وبعد هذه الدراسة لتوزيع أعمدة ودعامات الجامع نجد أن هناك دعامة زائدة عن العدد الموضح بالوثيقة ، ونظرة سريعة للمسقط الأفقي الذي وضعته لجنة حفظ الآثار نجد أن الدعامة الثالثة في واجهة رواق القبلة المطلة على الصحن وضعها شاذ ، ويبدو أنها وضعت لدعم السقف في مرحلة تعديل لاحقة ، كما يبدو أن الدعامات الموقعة بالمسقط المشار إليه تتبع جميعاً هذه المرحلة ، ويؤكد ذلك طريقة توزيعها المختلة المحاور وغير المتوافقة مع الوصف الوثائقي ، كما يلاحظ أن هذا التعديل عمد إلى إزالة كل السلالم المؤدية إلى الطوابق العليا أو السطح في المواضع السابق الإشارة إليها ، وهذا معناه **أن تعديلاً معمارياً** حدث بالسقف تبعاً ، وأن السقف المقبي الأصلي قد تهدم ، وغطي الجامع بسقف جديد وفق توزيع هذه الدعامات المضافة ، وربما يتبع ذلك التعديل تلك النوافذ التي فتحت بجدار القبلة ، وذلك الشكل غير العادي للركن الجنوبي الغربي لمربع الضريح .

ونعود إلى مناقشة ما ذكره الباحث من أن السقف الأصلي كان عبارة عن قباب ضحلة محمولة على مثلثات كروية(٤٧) وهو أمر إن صح افتراضه لا ينطبق على كل مساحات السقف كالمساحات المستطيلة غطيت بأقبية ، وكذلك المساحات التي تعلو طوابق عليا ؛ سواء في القطاع الغربي أو الشرقي لأن الأقبية أقوى معمارياً من تلك القباب الضحلة ، وهذا معناه إن صح وجوده قباب ضحلة بأنها كانت تغطي رواق القبلة أو أجزاء منه ، والرواق المقابل له أو أجزاء منه فقط ، أما بقية التغطية فكانت عبارة عن أقبية كما أشرنا .

ونخلص من الدراسة الآثارية المعمارية السابقة إلى أن تعديلاً معمارياً حدث بالجامع في مرحلة لاحقة ، وفي محاولة تحديد تاريخ هذا التعديل وسببه ، لا بد وأن نشير إلى أن المنطقة التي يقع بها الجامع « منطقة سوق السلاح » والمقابلة لقلعة الجبل ـ مقر السلطة منذ العصر الأيوبي حتى عهد الخديوي سعيد ـ كانت مسرحاً للأحداث الدامية والحرائق المدمرة نتيجة للصراعات على السلطة خاصة في العصر العثماني ، ولعل أهم تلك الأحداث ارتباطاً بالجامع والمنطقة من حوله تلك الأحداث التي وقعت سنة ١١٢٣هـ ، وقد سجلت المصادر التاريخية المعاصرة تفاصيل هذه الأحداث ، فيذكر صاحب وقائع مصر المحروسة الشيخ علي الفرا(٤٨) تفاصيلاً هامة عن المعارك التي وقعت بين الانكشارية والعرب ملخصها أن العرب أرادوا قطع الطريق الموصل إلى القلعة والذي يمتد الآن من الدرب الأحمر وينتهي إلى سوق السلاح في ميدان القلعة ، وكانت خطتهم احتلال بعض المساجد المطلة على هذا الطريق كنقاط ارتكاز تعسكر فيها جنودهم قبل أن يسيطر عليها الإنكشارية ، حتى لا يقطعوا على جنودهم في مسجد السلطان حسن وباب العزب المأكل والمشرب ، فاحتلوا جامع الجاي اليوسفي والمارداني وغيرها « وقد أعمى الله العزب من أخذ مسجد الأمير سودون وهو بين جامع المارداني وجامع الجاي اليوسفي ولم يخطر ببالهم أن الينشرية (الإنكشارية) ينزلون فيه للقتال فبادرت الينشرية ليلاً نحو المائة إليه وأصبحوا جميعاً حواليه « وعلم العزب بذلك فبادرت لقتالهم» فأطلقوا البندقيات من أعلى الأسطحة والمنارات ومنعت الناس من المآكل والمشارب وصاروا في أشد المتاعب فاستمروا على هذا الحال ثلاثة أيام وفقدت الناس لذيذ المنام ، ولا يجدون طريقاً يخرجون منها ، واتفق أهل المحلة على الرحيل منها « وشدد العزب حصارهم ولم يجدوا سبيلاً ، ودخلوا إلى بيت الأمير أحمد أفندي نائب الجراكة ، إلى بيت الأمير أيوازبيك ، إلى بيت الأمير مصطفى بيك الشريف ابن المرحوم ايوازبيك ، وتعالوا عليهم وضربوهم بالنار ، وهم كذلك بادروهم بالرمي من أعلى الأسطحة ، وكان يوماً مشهوداً شديداً على أهل المحلة . . . ولما رأت الينشرية العرب ظافرين عليهم ،

---

(٤٧) نويصر ؛ ص ٤١ .

(٤٨) الشيخ علي الفرا ، ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة سنة ١١٢٣/ ١٧١١ م . تحقيق عبد القادر طليمات ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٨ ، ص ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧ .

حرقوا بيتاً بيتاً بينهم ، فطارت النار إلى السقف والدكاكين والبيوت في ذلك النهار ونهبت البيوت بقوصون وانحرقت . . . وانحرق في ذلك اليوم بيت المرحوم محمد كتخذا بيرقدار والربع المجاور له وبيوت كثيرة وحوانيت شهيرة ، فاستمر الحرق ليلاً ونهاراً عشرة أيام لا يقدرون على إطفاء النار من كثرة الرصاص النازل على تلك الديار ، ثم أن الفريقين تترسوا بمتاريس ، ورموا بعضهم بعضاً بالبندقيات ، . . ، ثم توجهت فرقة إلى العسكر الذي في **جامع سودون زاده** فرموا عليهم بالنار ، فلم يقر لهم قرار ولم يبق لهم آثار » . وتصور هذه الأحداث ما تعرضت له المنطقة التي بها الجامع وما تعرض له العرب داخل الجامع الذي تأثر بلا شك من تلك الضربات والحرائق . والأرجح أنه تعرض للهدم والتدمير خاصة الطوابق العليا والسطح الذي تعرض لسقوط الطلقات النارية والحراق . وهو أمر يوافق ما أشرنا إليه في الدراسة الأثرية المعمارية التي أشارت إلى حدوث تعديل معماري هدفه تقوية السقف أو إعادة بناء دعامات للجامع تدعمه اختلف توزيعها عما كان عليه أصل البناء ، كما أهملت السلالم التي كانت تؤدي إلى الأروقة العليا التي ربما تهدمت ، واقتصر الهدف من الترميم المعماري الذي حدث على توفير ساحة الصلاة فيما يبدو ، وربما حدث للجامع حاجات لترميمه قبل ذلك أو بعد ذلك ، لكن هذه الأحداث كانت فيما يبدو أخطر أحداث تعرض لها الجامع بعد اتخاذه موقعاً من جانب الإنكشارية وهجوم العرب عليهم فيه . فكان نصيبه من الدمار أكثر من أي أثر آخر في المنطقة . ويبدو أن ترميمه لم يكن بالمستوى الذي يحفظ له كيانه ، حتى أن لجنة حفظ الآثار العربية عندما أجرت به تنقيباتها للكشف عن بقاياه كان بحالة يرثى لها ، مما جرأ محافظة القاهرة بعد ذلك على بناء بعض الوحدات السكنية في القطاع الشمالي الغربي منه ، ولم يبق منه تحت رعاية هيئة الآثار سوى بقايا جدار القبة والحائط الشرقي ، وهذه البقايا مع ما كشفته لجنة حفظ الآثار مسجلة في المسقط الأفقي الذي قامت بعمله اللجنة بالإضافة إلى بعض اللوحات التي سجلت بقايا الجامع سواء بقايا رواق القبلة أو الباب الغربي أو محراب الضريح[٤٩] . وهذه البقايا مع ما نقل من عناصر معمارية وغيرها من قطع خشبية من أثاثه الديني ، هي كل ما تبقى من آثار جامع سودون الذي رغم حاله هذا أمكن تصوره من خلال وصفه الموثق بوثيقة الوقت مع الاعتماد على المخطط وهذه البقايا . كما عرضنا في هذا البحث . كما أن تاريخه بدأ مرتبطاً بأحداث حياة منشئة ثم بالأحداث التي تعرضت له المنطقة التي يقع فيها كما أوضحنا .

« ملحقات » الجامع على الجانب الغربي من شارع « سويقة المسيب »

تشير وثيقة الوقف إلى أن بقية الوحدات المعمارية من ملحقات الجامع بنيت على الجانب الآخر من شارع سويقة المسيب (الغندور حالياً) ، وأوضحت تفصيلاً أن هذه الملحقات كانت تشتمل على ساقية ، واسطبل يشتمل على متبن ، وميضأة ، وسبيل وبعض الحواصل والأروقة التي تعلو ذلك بالإضافة الى كتّاب . وامتدت بعض القطاعات بارتفاع ثلاث طوابق وجاء وصفها بالوثيقة على النحو التالي « ومن ذلك جميع المقابل لهذا الجامع قبالة بابه الغربي المعروف بإنشاء هذا الواقف المذكور تقبل الله منه عمارته يفصل بينهما الطريق المسلوك يشتمل على خمسة أبواب مبني الواجهة بالحجر الفص النحيت والباب الأول منها مقنطر يدخل منه إلى مكان يشتمل على بير ماء معين مركب على فوهتها ساقية مكملة العدة والآلة ومدار ومرافق وحقوق والباب الثاني مقنطر يدخل منه إلى اسطبل برسم عوامل الساقية المذكورة به متبن ومرافق وحقوق وبه باب صغير يتوصل منه إلى بئر الساقية المذكورة والباب الثالث مقنطر أيضاً يدخل منه إلى ميضأة برسم الجامع المذكور بوسطها فسقية مربعة يتوصل إليها الماء من البئر المذكور وبهذه الميضأة عشرة بيوت أحدها مستحم والبقية مراحيض والباب الرابع مربع يدخل منه إلى سلم معقود بالبلاط يصعد منه إلى مكتب السبيل وهو يشتمل على

---

(٤٩) محاضر لجنة حفظ الآثار العربية ، مجموعة ٢٠ سنة ١٩٠٣ ، لوحة ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

واجهتين شرقية وبحرية[٥٠] فيما بينهما عمود رخام لكل من الواجهتين درابزين خشب مسقف نقياً مدهون مذهب ورفرف كذلك ، ثم يصعد من بقية السلم المذكور إلى مصنع يجتمع فيه الماء من الساقية ويتصرف منه إلى مرافق الجامع والميضأة وحوض السبيل الآتي ذكره فيه ثم يصعد من بقية السلم المذكور إلى ثلاثة أروقة أحدها علو مكتب السبيل وحوض السبيل الذي يذكر فيه بواجهتين وطاقات على الطريق بمرافق وحقوق والباب الخامس مقنطر يدخل منه إلى حاصل وهو أسفل المصنع المذكور ويجاور هذا الباب حانوت برسم تسبيل الماء العذب يشتمل على واجهتين بحرية وشرقية أسفل مكتب السبيل المذكور فيما بين الواجهتين عمودين رخام بكل من الواجهتين المذكورتين شباك حديد كبير وهو مرخم القائم والنائم بالرخام الملون مسقف نقياً مدهون ملون ، ويجاور هذا الحانوت حوض معد لسقي الدواب بزلاقة مسقف نقي مذهب » .[٥١]

يتضح من النص السابق أن الوحدات المعمارية المقابلة للجامع بعضها له صلة وظيفية بالجامع كالساقية وملحقاتها كالاسطبل والمتبن والميضأة التي أشار النص مباشرة إلى أنها « برسم الجامع » وبعض الملحقات الأخرى عبارة عن وحدات معمارية خيرية كالسبيل وحوض الدواب ومكتب السبيل (الكتاب) وهي وحدات كانت تلحق بالمنشآت الدينية وغيرها ، وكانت أحياناً أخرى تبنى مستقلة لخدمة هذه الأغراض الخيرية . وقد حكمت ظروف المساحة وضع هذه الوحدات في مجموعة معمارية واحدة بعضها يمكن أن تنطبق عليه صفة « ملحقات الجامع » والبعض الآخر لا ينطبق عليه ذلك . وقد حدد النص الوثائقي ذلك لما لهذا التحديد من أهمية في المعاملات القضائية المتعلقة والمستندة في كل الأحوال إلى نص الوقف .

كما يشير النص إلى تفصيلات معمارية مهمة للوحدات المعمارية التي تتضمنها هذه المجموعة التي نطلق عليها تجاوزاً « الملحقات » من أهمها أن هذه الوحدات مرتبة من الجنوب إلى الشمال على النحو التالي : الساقية فالاسطبل ، فالميضأة ، فحاصل ، فالسبيل ، ثم يتجه استمرار الوحدات في اتجاه الغرب لنجد حوض الدواب أي أن حوض الدواب مطلاً على شارع سوق السلاح الشارع الرئيس[٥٢] وفي هذا التوزيع ما يشير إلى براعة وإلى ارتباط الوحدات معمارياً من منطلق وظيفي ، فالساقية والميضأة والاسطبل وحدات متجاورة لأن الساقية تغذي الميضأة وتغذي فسقية الجامع المقابلة لهذا الموضع في صحن الجامع وخلف الحاصل وخلف حوض السبيل يوجد المصنع ، الذي يغذي جميع الوحدات بالماء ومنها حوض الدواب ، وموضع السبيل مطلاً على شارع سوق السلاح وشارع سويقة المسيب أمر يتناسب ووظيفته من خدمة المارة في الطريق ، وحوض الدواب مطلاً على الشارع الأوسع تتناسب وظيفته من خدمة سقي الدواب التي أنشيء من أجلها .

ومن الوصف السابق يتضح أيضاً أن الفسقية التي بصحن الجامع والوحدات المعمارية الأخرى الملحقة به كانت تتزود بالماء من هذه الساقية ، وهذا معناه أنه كانت توجد قناة حجرية أو أنابيب فخارية في تخوم الأرض توصل الماء إلى هذه الوحدات مارة بأسفل الشارع الذي يفصل بين الجامع و « الملحقات » ، مثلما كان عليه الحال مثلاً في المدرسة الأشرفية برسباي التي كانت تقع ساقيتها على الجانب الآخر من شارع يفصل بينها وبين المدرسة ، وكان الماء يتوصل إلى المدرسة عن طريق قناة تحت أرضية الشارع[٥٣] وظاهر توزيع الوحدات المعمارية لمنشأة على قسمين منفصلين بشارع بهذا الشكل المتمثل في هذا الجامع وغيره من المنشآت الدينية المملوكية ظاهرة مرتبطة بمدى توفر المساحة لإنشاء هذه المجموعة أو تلك ، خاصة

(٥٠) يؤكد هذا النص أن الكتاب يعلو السبيل المطل على شارع سوق السلاح بواجهة شمالية ، وعلى شارع سويقة المسيب بواجهة شرقية .

(٥١) واضح من الوصف عدم جود أي إشارة لمقاييس ومن ثم فإن الإشارة بأن هذه الملحقات أو الوحدات المعمارية مساحتها تعادل مساحة الجامع تقدير لا يستند إلى واقع علمي مدروس ومن الخطأ القطع به أو حتى مجرد تحديده بهذه الشبه .

(٥٢) يجب أن يصحح الرسم الافتراضي الذي وضعه د . حسني نويصر وفق هذا التصور الواضح خاصة فيما يتعلق بحوض الدواب (شكل ٧) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٥٣) وثيقة وقف برسباي . ٨٨٠ أوقاف .

في داخل مدينة القاهرة التي ازدحمت بمبانيها وحلت المباني المملوكية محل مبان قديمة ، فلم يكن من السهل توفير المساحات المطلوبة وبالأشكال المطلوبة ، وهو أمر دفع بالمهندس « المعمار » إلى بذل مجهود أكثر في التحايل على أشكال المساحات سواء كانت المساحة واحدة أو مقسمة على قسمين يفصل بينهما طريق كما في هذا الجامع موضع الدراسة وغيره .(٥٤)

وقد امتد أثر المساحة فيما يبدو أيضاً إلى عمارة الجامع نفسه وللملحقات في الجانب الآخر ، ونلحظ ذلك في الامتداد الرأسي الذي لاحظناه في الجامع في بناء طابق علوي يعلو كل من الرواق الشرقي والقطاع الغربي من الجامع سواء الرواق الغربي ، أو الطرف الغربي من الرواق الشمالي ، وهو حل معماري وجد في نماذج سابقة من العمائر الدينية المملوكية كمدرسة الأمير مثقال بالجمالية . ويلاحظ أن الوحدة المخصصة منها للسكنى « الرواق » لم تكن مطلة على صحن الجامع حتى لا يختلط هواءها بالجامع وهو أمر مكروه فقهياً كما أنه توفر لها مدخلها الخاص. وبالنسبة للملحقات، نلاحظ، كذلك، أن بعض أجزائها امتد رأسياً في طابقين بل ثلاثة كما في القطاع الشمالي خاصة الطوابق التي تعلو السبيل ورغم الحاجة إلى الامتداد الرأسي الواضحة في عمارة هذه الملحقات فإنه من الملاحظ أن الميضأة لم يكن يعلوها أي بناء(٥٥) وتركت مكشوفة للتهوية والإضاءة ويتضح ذلك من الوصف الواضح والمحدد للموثق الذي يذكر ذلك بما نصه « ويصعد من بقية السلم المذكور (السلم المؤدي إلى الطوابق العليا من الملحقات) إلى ثلاثة أروقة أحدها علو مكتب السبيل وحوض السبيل(٥٦) الذي يذكر فيه بواجهتين وطاقات على الطريق بمرافق وحقوق وطاقات والرواقان الباقيان متجاوران على الساقية والاسطبل المذكورين يشتمل كل منهما على منافع ومرافق وحقوق .

ويشير وصف « مصنع » الساقية إلى انه كان مرتفع كثيراً عن مستوى الأرض حيث جاء بنص الوثيقة ، أن السلم المتوصل منه إلى الأروقة التي تعلو الاسطبل والساقية وتعلو السبيل وحوض السبيل يتوصل منه إلى « مصنع يجتمع فيه الماء من الساقية ويتصرف منه إلى مرافق الجامع وإلى الميضأة وحوض السبيل » ، ثم ذكر في موضع آخر أن الباب الخامس من أبواب « الملحقات » يدخل منه إلى « حاصل وهو أسفل المصنع المذكور » وهو أمر يتصل بنظرية توصيل المياه إلى الأجزاء المختلفة وحتى يسهل التوصيل لا بد وأن يكون « المصنع » مرتفعاً عن الوحدات التي تأخذ منه . وهو أمر شاع وجوده في مثل هذه المنشآت التي تتغذى وحدتها من « مصانع » يجتمع فيها ماء الساقية ليغذي الوحدات فترة طويلة دون الحاجة إلى استمرار إدارة الساقية، ومن الأمثلة المشابهة ما كان في مجموعة قلاوون(٥٧) .

وبعد هذه الدراسة المفصلة لأهمية الملحقات في الجهة المقابلة للجامع ، وما تضمنته من وحدات خيرية أخرى ، نشير إلى فكرة وضع مسقط أفقي سليم يحتاج إلى توصيف للتفاصيل الداخلية ومساحتها إن أمكن ، وهو أمر لم تشر إليه الوثيقة مصدرنا الأساسي في هذه الدراسة ، ولم تبق بقايا مقنعة يمكن على أساسها وضع مثل هذا المسقط . ويبقى من الأفضل أن يقتصر الأمر على وضع شكل توضيحي توقع عليه مواضع الوحدات دون وضع تفصيلات أو محاولة إضافة أوصاف لم ترد بأي مصدر يمكن الاعتماد عليه .(٥٨) ومما يؤكد أهمية المقاييس في وضع مثل هذه المساقط المحددة ، مقارنة سريعة بين مساحة حوض الدواب ومساحة السبيل الذي يقع إلى الغرب منه . فالمفترض أن تكون واجهة حوض الدواب أوسع من ذلك ، ومسقط الميضأة ومراحيضها التي ذكر الموثق أنها عشرة بما فيها المستحم والمسقط الموضوع يختلف عن ذلك فالعدد الموقع أكثر ومن ثم صغرت مساحة المراحيض ، ثم لم يبين موضع

(٥٤) من أمثلة ذلك مدرسة جمال الدين الاستادار، ومدرسة برسباي بالاشرفية ، جامع قجماس الاسحاقي .

(٥٥) اعتقد د. حسني نويصر أن الأروقة في الطوابق العليا كانت تعلو الميضأة ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٥٦) يشير هذا النص ضمناً إلى أن حوض الدواب كان يرتفع بارتفاع طابقين .

(٥٧) انظر وثيقة وقف قلاوون ٧٠٦ ج أوقاف .

(٥٨) نويصر ، ص ٤٥ . لا يمكن اعتماد هذه الأوصاف أو اعتماد الشكل رقم «٧» ص ٥٩ مسقطاً تصورياً سليماً للجامع أو ملحقاته .

المستحم منها إلى غير ذلك من التفاصيل .(٥٩)

وقبل أن ننهي حديثنا عن عمارة الجامع وملحقاته لا بد أن نشير إلى أن السبيل أحد الوحدات المعمارية الخيرية ضمن « الملحقات » لم تشر الوثيقة إلى أن أسفله صهريج يغذيه بالماء العذاب طول العام كما هي العادة في غالب أسبلة القاهرة ، ويبدو أن الماء كان ينقل إليه مباشرة ويؤكد ذلك ما ذكره الموثق من أن الواقف أرض السبيل « لتسبيل الماء العذب الذي يحمل إليه على من يرد من الناس كافة على العادة في ذلك » وما تضمنته الوثيقة من إشارة إلى المزملاتي الذي يتولى أمر السبيل حيث أشارت إلى أن راتبه ١٢٠ درهم نقرة على أن يتولى تسبيل الماء بالسبيل وغسله ومسحه وحفظ أوانيه وغسلها وتنظيفها هذا بالإضافة إلى أن عليه شراء بعض الأواني المستخدمة في حمل الماء » .(٦٠)

أهمية وثيقة الوقف :

اعتمدنا على وثيقة الوقف اعتماداً رئيساً على دراسة هذه المنشأة سواء من الناحية الوظيفية أو من الناحية المعمارية ، وتعتبر هذه الوثيقة من أهم وثائق الوقف المملوكية التي تشير إلى أحد المساجد الجامعة المملوكية التي سار تخطيطها حسب نظام الأروقة المتصلة كما أوضحنا . وتعتبر مصدراً أساسياً يؤكد على وظيفة المسجد الجامع في عصر المماليك الجراكسة من كونه أصبح يؤدي وظيفة المدرسة .(٦١)

ولا تقف أهمية هذه الوثيقة عند هذا الحد ، ولكن دراسة شروط الواقف التي تختصه بالنظر في الوقف طوال حياته وان يكون له الحرية في إجراء ما يراه من تعديل في الوقف ، وتوجيه الفائض من ريع الأوقاف لذريته ، وتنمية ريع الوقف والمحافظة عليه(٦٢) يكشف عن السبب الحقيقي الذي كان وراء إنشاء أمراء المماليك للعديد من المنشآت الدينية ، وهو أنهم أنشأوا هذه المنشآت أصلاً ليوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة التي يفوق ريعها بكثير مرتبات المقررين بها ومصاريف المنشآت الأخرى بحيث يوفر الفائض ويوجه لذرية الواقف تأميناً لمستقبلهم الذي لا يؤمنه نظام الإقطاعات المتبع في ذلك العصر خاصة وأن الإقطاع يؤخذ من صاحب الوظيفة ليعطي لمن يشغلها من بعده ، ومن ثم وجد المماليك في نظام الوقف هذا مخرجاً من ذلك وهو أمر ملاحظ من دراسة وثائق الوقف المملوكية بصفة عامة .(٦٣)

ومن الأمور التي يجب الإشارة إليها كذلك أن وثائق الوقف المملوكية نصت في شروطها على وجوب ترميم المنشأة كلما احتاجت إلى ذلك وجعلت الأولية لذلك قبل أي شيء آخر ، وقد ذكرت وثيقة سودون نصاً يشير إلى ذلك مؤداه أن الناظر يبدأ « باستغلال ريع الموقوف بإصلاح وترميم المباني وعمارة الجسور في الأراضي الزراعية وتكريم الأرض وعمل قناطرها وما فيه البقاء لعينها » وهو نص لا يقتصر مداه على المحافظة على المنشأة بل المحافظة كذلك على المباني الموقوفة عليها والأراضي التي تغل لها . وهو أمر في النهاية يؤدي إلى استمرارية المنشآت في أداء وظائفها ، وهو ما يؤكد أهمية الوقف لهذه المنشآت وأنه لم يكن فقط السبب الرئيس في وجودها بل وفي استمرار وجودها . وهو أمر يكشف في النهاية عن أهمية الأوقاف في عمارة المدن في العصور الوسطى .

تأريخ الجامع والوثيقة

ويجدر بنا أن نشير إلى أن وثيقة وقف سودون من زاده تشتمل على تاريخين أولهما آخر رمضان سنة ٨٠٤ هـ ، والثاني ٢٦ ذي القعدة سنة ٨٠٧ هـ ، ولهذين التاريخين دلالتهما المتصلة بتاريخ إنشاء الجامع ، فهذا يعني أن الجامع تم بناؤه في مراحل بنائية تبعتها مراحل تقرير الوظائف به ، فقد كانت العادة أن تفتح المنشأة للصلاة بعد

---

(٥٩) راجع المسقط التصوري شكل «٧» نويصر ، ص ٥٩ .

(٦٠) نويصر ، ص ٥٠ .

(٦١) نظراً لهذه الأهمية قمنا بنشر ملحقين من هذه الوثيقة برسالتنا للدكتوراه سنة ١٩٨٠ م أحدهما يتضمن وصف الجامع و «ملحقاته» ونصوص وقف الوحدات ، تحت رقم (١) والآخر يشير إلى المسبك المعد لصهر النحاس الذي جاء وصفه بها ملحق « ٧ » .

(٦٢) نويصر ، ص ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٦٣) ابن الأرزق بدائع السلك في طبائع الملك ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ؛ محمد عبد الستار عثمان ، ص ص ٨١ ـ ٨٢ ، وكان هذا أهم العوامل بالإضافة إلى عوامل أخرى دينية واقتصادية واجتماعية أشرنا إليه في دراستنا لأسباب كثرة المنشآت الدينية المملوكية ، المرجع نفسه ، ص ص ٧٨ ـ ١٢٢ .

تمـام رواق القبلة أو استكمال المسـاحات التي تقـوم بهذه الوظيفة ، ثم تقرر بعد الاستكمال الإنشائي بقية الوظائف ، وشـاهدنـا في ذلك جـامع المؤيـد شيخ ومـدرسة السلطان برسباي بالأشرفية بشارع المعز وغيرها . كذلـك يلاحظ أن هناك نوعاً من التوافق بين هذين التاريخين المدونين بالوثيقة وبين تلك الأحداث التي مرت بسودون ، فقد عزل من كل مناصبه في سنة ٨٠٤ هـ ، وأفرج عنه في ١٤ رجب سنة ٨٠٧ هـ[٦٤]. وهذا يعني أن الاعتماد النهائي لوثيقة الوقف كان بعد شهور قلائل من خروج سودون من زاد، من السجن، ولهذا دلالته المتعلقة بعملية الإنشاء التي يبدو أنها كانت قد تمت قبل ذلك ، وأن بعض هذه الأعمال قد تمت أثناء وجوده في السجن، وهو أمر ليس مثاراً للشك كما يُعتقد[٦٥]خاصة وإن فان يرشم قد أشار إلى وجود نصين كتابيين[٦٦] أحدهما مؤرخ بغرة ربيع الأول سنة ٨٠٤ هـ والنص ا لآخر بتـاريخ سنـة ٨٠٦ هـ ، ومما يـرجح أن سجن سـودون لم يصحبه حالة من الغضب عليه تمتد إلى وقف أعمال الإنشاء بمنشأته ما أشار إليه المؤرخون من أنه عندما أفرج عنه الناصـر فرج عينه مقدماً للقاهرة، ثم نقله نائباً لمدينة غزة بعد ذلك[٦٧]، وهي مناصب تدل على الرضا التام من جانب السلطان علي .

وفي نهـاية بحثي أرجـو أن أكون قـد وفقت في تصحيح العنـوان المنـظَّر للمقـال المشـار إليـه ،وأوضحت الأسس المعتبـرة في تصنيف المنشآت الـدينيـة المملوكيـة وكيفيـة تحديد مسمياتها ، وأن أكون قد وضحت التخـطيط السليم لجامع سودون وفق الوصف الوثائقي بصورة سليمة تكشف خطأ التصور السابق في المقال المشار إليه ، وأن أكون قد فسرت ما خالف النص الوثائقي نتيجة التعـديل والتـرميـم في مـراحل لاحقـة ، وأن تكون الشبهـات حـول نصـوص التأسيس الـتي ذكرها فان يرشم قد زالت بالـدليل المـادي والتاريخي والوثائقي .

---

(٦٤) ابن تغري بردى ، **النجوم الزاهرة** ، ج ١٢ ، ص ٣٠٨ .

(٦٥) نويصر ، ص ١٣٥ .

(٦٦) Max. Van Blerchem : Materiaux Pour un Corpus inscriptionum Arabicarum. Fasc. Egypt. 1894, Tome 3, p. 313 .

(٦٧) ابن تغري بردى ، ج ١٣ ، ص ٤٩ .

العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ١٣٧ ـ ١٤٩ (١٩٨٧)

نقد الكتب

تعريف مدن الهند وتحديدها الواردة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري

للدكتور سيد رضوان علي

ملخص البحث : لا يمكن فهم الحملات العربية ، وأهمية الفتوح التي تمت نتيجة هذه الحملات إلاّ بعد معرفة المناطق والمدن التي توجهت إليها هذه الحملات معرفة دقيقة ، والكثير من هذه المدن قد دَرست ، وأخرى تغيّرت أسماؤها . والقليل جداً منها لا تزال قائمة بأسمائها . كما أن أسماء البلاد والمناطق التي كانت تقع فيها تلك المدن المفتوحة قد تغيّرت نتيجة للأوضاع السياسية المتغيرة . . وواجب الباحث أن يحاول ، ما أمكنه ، تعريف هذه المدن وتحديد مواقعها في الخرائط الحديثة طبقاً للوحدات السياسية والإدارية المعاصرة . وهذا ما فعله كاتب هذا البحث ، فقد بذل جهداً كبيراً في تعريف وتحديد مدن الهند التسعة عشرة التي ورد ذكرها في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وهو من أهم مصادرنا عن الفتوح الإسلامية الأولى . واتضح بهذا البحث أن فتح العرب في شبه القارة الهندية لم يكن مقصوراً على بلاد السند (الباكستان حالياً) كما شاع ، بل تجاوزت هذه الفتوح إلى وسط الهند وغربها (في جمهورية الهند حالياً) .

يعتبر فتوح البلدان لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (المتوفى سنة ٢٧٩هـ)، أهم المصادر العربية وأقدمها عن الفتوح الإسلامية في شبه القارة الهندية (السند والهند) في القرنين الأول والثاني للهجرة على الإطلاق .

وقد نشر هذا السفر الجليل عن الفتوح الإسلامية في آسيا وأفريقيا وأوروبا (أسبانيا) ، المستشرق الهولندي دي خويه (de Goeh) محققاً في القرن التاسع عشر الميلادي لأول مرة ، وظهرت بعد ذلك عدة طبعات له في القاهرة منذ أوائل القرن العشرين ، ومعظمها طبعات تجارية ، اعتمدت على هذه الطبعة الأوروبية إلى أن ظهرت طبعة جديدة في سنة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧م بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، المحقق والمؤلف السوري المشهور ، وأمامي هذه الطبعة .

وقد جعل الدكتور المنجد طبعة دي خويه أساساً لطبعته كما صرّح بذلك في مقدمته النفيسة الطويلة[١] ، ورغم أنه قام بتعريف وتحديد أسماء الأماكن الواردة في الكتاب في معجم للأماكن في آخر الكتاب ، وذلك بعد الرجوع إلى المصادر والمراجع في العربية واللغات الأجنبية والخرائط العديدة .[٢] فالحقيقة أنه لم يقم بأي تحقيق في الموضوع غير تعريف هذه المدن من **معجم البلدان** لياقوت ، وأحياناً قليلة من « **قاموس الأمكنة والبقاع الواردة في فتوح البلدان** » تأليف علي بهجت ، والمطبوع في سنة ١٩٠٨م ، و **بلدان الخلافة الشرقية** تأليف لي سترينج . وكثير من هذه التعريفات

(١) الفتوح ١/٢٧ ثلاثة أقسام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) .

(٢) أيضاً ١/ ٢٨.

لا يفيد القارىء شيئاً ، وأخرى فيها أخطاء فاحشة . وأما تحديد مواقع هذه المدن والبلدان الكثيرة حالياً ، فلم يتعرض لها المحقق الفاضل على الإطلاق ، كما أنه أهمل ذكر عديد من مدن الهند والسند في معجمه المذكور مثل تانه ، والكيرج ، ومرمد ، ودهنج ، وفالي وغيرها من مدن الهند ، وأخرى من مدن السند لا أرى لذكرها حاجة هنا .

ولست هنا بصدد نقد عمل الدكتور المنجد في هذا الكتاب ، فله فرصة أخرى إن شاء الله . ولكن القصد من هذه الإشارة هو أنه لا يزال القارىء يجد صعوبة كبيرة في الوقوف على سير الحملات العربية في الهند ، ولا يمكن تقدير هذه الحملات وأهميتها إلَّا إذا عرف مواقع هذه المناطق والمدن التي تعرضت لتلك الحملات ، ولأجل ذلك حاولت أن أقوم بتعريف هذه البلدان والنواحي ، وتحديدها حالياً ليسهل الأمر على المتتبعين لهذه الفتوح في الهند .

والحقيقة التي تتجلى من تتبع ما جاء في فصل « فتوح السند » في الجزء الثالث من الكتاب (طبعة المنجد) ، أن هذا الفتح لم يكن مقصوراً على السند كما يبدو من عنوان الفصل في أول وهلة ، بل تجاوز إلى وسط الهند وغربها ، عبر نهر السند شرقاً . ولأجل هذا كان المصدر الرئيس الأول الذي استقى منه البلاذري معلوماته عن هذا الفتح ، أي أبو الحسن علي بن محمد المدائني (المتوفي على الأرجح بين ٢٢٥ ـ ٢٣٥هـ) قد سمّى رسائله الثلاث في الموضوع (١) كتاب فتح مكران (٢) كتاب ثغر الهند (٣) وكتاب عمال الهند[٣] ، بينما عنون البلاذري فصله عن هذه الفتوح « بفتوح السند » ، وهو عنوان غير دقيق ومضلل نوعاً ما ، وانخدع بذلك الدكتور المنجد فاعتبر كثيراً من مدن الهند ومناطقها ، مدناً ومناطق في السند .

والحقيقة الثانية التي تتراءى واضحة أن الفاتحين العرب الأوائل في الخلافة الأموية والخلافة العباسية ، كانت لديهم خطة توسيع رقعة الفتوح في شبه القارة الهندية ، ولولا الظروف الحرجة من الفتنة بين الأمين والمأمون وثورات داخلية عديدة ، وقبل ذلك الإنشقاق الداخلي في الدولة الأموية والصراع بين الأمويين والعباسيين ، لاتسع نطاق هذا الفتح وشمل كل أرجاء الهند .

وليس هذا فحسب بل لم يستطع المسلمون ، تبعاً لهذه الظروف السياسية السيئة والصراعات الداخلية ، أن يحافظوا على تلك المناطق والمدن التي كانوا قد فتحوها في وسط الهند حتى إقليم مالْوَه (Malwa) في مقاطعة مدهيا برديش (Madhia Pradesh) الحالية ، بجمهورية الهند ، وسواحل الهند الغربية في مقاطعتي كجرات ومهاراشْتر (Gujrat, Mahrashter) بالهند أيضاً ، بل سرعان ما فقدوها بخلاف بلاد السند (أي مقاطعات بلوشستان[٤] والسند ، والبنجاب الجنوبية في الباكستان حالياً) التي أصبحت إحدى أقاليم الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ، إلى أن قامت فيها دويلات عربية مستقلة[٥] ، وظلت قائمة حتى أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس .

والحقيقة الثالثة التي تتضح للقارىء أن الحملات الإسلامية الأولى في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب في العام الخامس عشر من الهجرة كانت موجهة إلى بعض موانىء الهند ، تانه ، وبروص[٦] على الساحل الغربي للهند ، (وكانتا تابعتين للمملكة الشلوكية Chalukia) ، وأيضاً ميناء الديبل (Dewal) على ساحل السند التابعة لمملكة داهر في بلاد السند ، وذلك بتوجيه من والي البحرين (المنطقة الشرقية للجزيرة العربية) الحكم بن أبي العاصي الثقفي .

ثم صرفت الأنظار عن هذه الحملات البحرية بتحذير من الخليفة كما هو معروف في التاريخ : « حملت دوداً على عود » ، حرصاً منه على أرواح المسلمين وتجنباً للمجازفة ،

---

(٣) ابن النديم ، **الفهرست** ، ص ١٠٣ (طبعة فلوجل) ، وص ١١٦ (طبعة رضا متجدد الإيرانية الحديثة ، ١٩٧١ م) .

(٤) وتكتبها الصحافة العربية والمؤلفون العرب « بلوخستان » وذكرها الجغرافيون العرب القدامى باسم طوران ، أو « أرض بلوص » ، والصواب ما أثبتناه ، إذ استعمال الخاء مكان الجيم الفارسية ذات ثلاث نقاط خطأ .

(٥) انظر عن هذه الدول ، القاضي أطهر المباركفوري الهندي ، **الدول العربية في الهند** (باللغة الأردية) بدون تاريخ، وقد ترجمت إلى العربية ، ولكن هذه الترجمة مملوءة بالأخطاء الفاحشة ، وقد أشار إلى بعضها قبل ذلك بحوالي ثلاثين سنة العلامة السيد سليمان الندوي في كتابه : **صلات بين العرب والهند** (بالأردية أيضاً) . ط ٢ ، كراتشي ، بدون تاريخ .

(٦) **الفتوح**: ٣/ ٥٣٠ .

وذلك لمناعة هذه السواحل ، وعدم استعداد المسلمين من ناحية الإعداد البحري إعداداً كافياً .

وبعد إتمام فتح مناطق السند على يد محمد بن القاسم الثقفي في نهاية القرن الأول للهجرة (أوائل القرن الثامن الميلادي) ، بدأ تنفيذ مخطط فتح الهند وتلك السواحل وغيرها ، من ناحية البرّ ثم من ناحية البحر .

هذا هو الإطار التاريخي الذي ورد ضمنه ذكر المدن الهندية العديدة في فتوح البلاذري ، والتي نحاول التعرف عليها ، وتحديد مواقعها حالياً في السطور القديمة ، طبقاً لورودها في الكتاب دون مراعاة الترتيب الأبجدي الذي يتبعه أصحاب فهارس الأعلام والأماكن .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدن والمناطق كانت من ممتلكات الدولتين القويتين في الهند ، هما دولة شلوكية (Chalukia) ودولة كورجرا (Gurjara) أو غورجرا[٧] ، وبعض الإمارات الصغيرة التابعة لها في مناطق راجستان ، وماروار (Marwar) وكجرات (Gujrat) وسوراشتر (Surashter) ومالْوَه (Malwa) في وسط الهند وغربها.[٧أ]

وأرقام الصفحات المذكورة على الجانب الأيمن من صفحات البحث مع كل اسم هي لطبعة الدكتور المنجد ، وأشير بعد تعريف وتحديد كل مدينة ومنطقة إلى أخطاء المحقق المذكور . وهاكم هذه البلدان :

١ ـ تانة : (ص ٥٣٠) وهي تهانة في اللغة المحلية ، وإليها ينتسب المؤلف المعروف عند الباحثين في اللغة العربية ، محمد أعلى التهانوي ، صاحب **كشاف اصطلاحات الفنون** . وكانت إحدى الموانىء الهامة على الساحل الغربي للهند ، قبل إنشاء ميناء بومباي الكبيرة بجوارها في عهد الإنجليز . وهي الآن قرية أو ميناء صغير داخل منطقة بومباي في ولاية مهاراشتر[٨] (Maharashter) بجمهورية الهند .

ولم يذكرها الجغرافيون العرب القدامى أمثال ابن خرداذبة ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، ولكن ورد ذكرها عند البيروني[٩] ، ثم الأدريسي[١٠] وبعد ذلك أبي الفداء[١١] . ولم يذكرها ياقوت في معجمه . ولم يعرفها الدكتور المنجد في معجمه للكتاب .

٢ ـ بروص : (ص ٥٣٠) و (ص ٥٤١) وهي مدينة بهروج (Bhroach) في ولاية كرجات (Gujrat) حسب آخر التقسيمات الإدارية في جمهورية الهند ، وتقع فوق ميناء سورت الكبير على الساحل الغربي للهند ، وورد اسمها هكذا (أي بهروج) في كتاب الهند للبيروني (ص ١٦٤) ، كما ذكرها الادريسي (٢/ ١٨٦) ، ثم ياقوت باسم « بروج » وعقب قائلاً : « ويقال بروص » . واعتبرها « أشهر مدن الهند البحرية وأكبرها وأطيبها ، يجلب منها النيل واللّك » . (مادة بروج في معجمه) . والغريب أن الدكتور المنجد لم يذكرها في معجمه أيضاً .

٣ ـ قصة : (ص٥٣٦) و (ص ٤٢) هي (Kacha) قديماً وكج (Kutch) حالياً ، و« قصة » تعريب للاسم الهندي ، ورسمها البيروني « كج »[١٢] بدقة (بالجيم الفارسية ذات ثلاث نقاط) . وهي منطقة صحراوية ملاصقة لإقليم السند من ناحية الجنوب ، وقسم منها في الهند ، وآخر صغير في الباكستان . وتمّ فتحها سلماً في حملة محمد بن القاسم الثقفي (٩٣ ـ ٩٦هـ) .

---

(٧) انظر عن هاتين الدولتين J. E. Schwartzber, **A Historical Atlas of South Asia** (Chicago, 1973)، وقارن ذلك بـ V.D.Mahajan, **The Muslim Rule in India**, (Delhi 1962), p. 7.

(٧أ) انظر الخريطتين في نهاية البحث .

(٨) انظر خرائط الهند عامة ، **والأطلس التاريخي لجنوب آسيا** تأليف شُوارتزبرج بالإنجليزية، الآنف الذكر، ص ٣٣ خريطة (e)، ص ٤٦، وخريطة (a) .

(٩) **تحقيق ما للهند من مقولة** ، المعروف بكتاب الهند ، ص ١٦٤ ، (طبعة بيروت المصورة من طبعة حيدر آباد ، الهند) .

(١٠) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، ٢/ ١٩٢ ، تحقيق نخبة من المستشرقين ، (طبعة روما ، ١٩٧١ ـ ١٩٧٣) .

(١١) **تقويم البلدان** (طبعة باريس ، ١٨٤٠ م) ، ص ٣٥٨ .

(١٢) **كتاب الهند** ، ص ١٦٧ .

وقال الدكتور المنجد أنها في الهند ، ولم يحدد موقعها .

٤ ـ قند : (ص ٥٣٧) لم أجد ذكرها في أي مصدر من المصادر الجغرافية القديمة في العربية وغيرها . ولا في الأطلس التاريخي لجنوب آسيا المذكور سابقاً . ويبدو من سياق نصّ البلاذري أنه اسم موضع قرب بروص أو بهروج بالأصح في الساحل الغربي الشمالي للهند ، حيث ذكر إقامة تمثال داهر وقاتله في بروص . وذكر بعد ذلك مباشرة نصب تمثال بديل بن طهفة[١٣] في « قند » .

وأعتقد أن « قند » أصابها بعض التصحيف ، وسقط منها الجزء الأخير لاسم مدينة « قندهار » في إقليم كجرات قرب بروص . وذكرها البلاذري نفسه في موضع آخر من كتابه ، كما ذكرها أصحاب الأطالس التاريخية للهند . وهي غير قندهار في أفغانستان[١٤] . وقندهار أو (Gandhar) هذه كانت تابعة ، بجانب بروص (بهروج) ، لدولة شلوكية الهندية ، وكأن أصحابها أرادوا بإقامة هذا التمثال ، على فرض صحة رواية البلاذري ، تجسيد الخطر الإسلامي على مناطقهم بعد سقوط مملكة داهر في السند ، وأهل الهند معروفون قديماً بنحت التماثيل دون سكان السند .

وما قاله المنجد في تعريفها « قصر قند بالسند » لا يؤيده سياق هذه العبارة . وقصر قند هذا الذي ذكره في بلوشستان ، وليس في السند .

٥ ـ البيمان : (ص ٥٣٩) تحريف وتقريب لاسم بهليمال (Bhilmala) القديمة في مقاطعة راجستان في غرب الهند ، وقد ذكرها البيروني بهذا الاسم الصحيح ، في كتابه القانون المسعودي (٢/ ٥٥٢) ، وذكرها ابن خرداذبة[١٥] وكذلك ياقوت بالرسم الوارد عند البلاذري ، ولم يذكرها الاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي .

ولم يكن ياقوت متأكداً بكونها في السند أو الهند وأعتبرها القاضي أطهر المباركفوري الهندي من مدن كرجات[١٦] ، وليس بصحيح . ويتأكد من نصّ البلاذري وسياقه موقعها في منطقة راجستان ، وفي ناحية ماروار (Marwar) .

وكانت هذه المدينة مركزا ثقافيا ودينيا هاما للهندوس[١٧] ، وفيها قلعة حصينة ، وتقع في موقعها أو بجوارها مدينة جودهبور[١٨] (Jodhpur) الحالية في تلك المقاطعة . وتحديد الدكتور المنجد لها « مدينة في السند » خطأ ، ولم يذكر أي مصدر غير الفتوح نفسه .

٦ ـ سرست : (ص ٥٣٩) ورد اسمها في ابن خرداذبة « سرشت » (بالشين المعجمة الثانية) ، ولم يذكرها الجغرافيون العرب الآخرون وقد يكون المراد بها منطقة نهر سَرسْوتي (Saraswati) وهي جنوب غرب بهليمال (بيلمان عند البلاذري) ، وقد ذكرها صاحب الأطلس التاريخي لجنوب آسيا باسم سَرَستي[١٩] (Sarsati) اعتماداً على البيروني ، ولعل في موقعها الآن مدينة سدهبور[٢٠] (Sadhpur) على هذا النهر .

---

(١٣) وهو القائد العربي الذي قاد حملة ثانية على الديبل في ولاية الحجاج على العراق قبيل حملة محمد بن القاسم الثقفي .

(١٤) وانظر بعد ذلك ، الكلام على « قندهار » مفصلاً في موضعه من هذا البحث .

(١٥) **المسالك والممالك له** ، ص ٥٧ طبعة مكتبة المثنى المصورة عن طبعة بريل ، (ليدن ، ١٨٨٩ م) .

(١٦) **المرجع السابق**، ص ٢٨ .

(١٧) **الأطلس التاريخي لجنوب آسيا** ، بالإنجليزية المذكور سابقاً ص ص ٣١ و٣٣ .

(١٨) **أطالس الهند عامة** ، الأطلس السابق الذكر ، ص ١٤٠ .

(١٩) ص ٣٢ ، خريطة رقم (e) .

(٢٠) انظر موقعها في الأطلس المذكور سابقاً في عدد من الخرائط ، وخاصة في صفحة ١٤٠ ، خريطة ١٣ .

وربما يكون المقصود ناحية سوراته[٢١] (Surath) الساحلية في أقصى جنوب اقليم كجرات ، والمعروف حالياً « سُوراشْتر » Surashter ، ويقوي هذا الاحتمال الرسم الوارد عند ابن خرداذبة ، وقول البلاذري بعد ذكرها بأنها : « مغزى أهل البصرة اليوم ، وأهلها الميد الذين يقطعون في البحر » . وقراصنة البحر هؤلاء كانوا يقطنون بالفعل سواحل السند والسواحل الهندية في إقليم كجرات . و « سوارتة » هذه غير مدينة سورت على الساحل الغربي للهند . وتحديد المنجد لها بأنها « في السند » خطأ بدون شك، فالبلاذري ذكر هنا عدداً من مدن ومناطق الهند التي غزاها الجنيد بن عبد الرحمن المرّي (١٠٧ ـ ١١١هـ) أثناء ولايته على السند ، ولم توجد مدينة بالسند بهذا الاسم .

٧ ـ الكيرج (ص ٥٣٩) : لا شك أن المقصود بها مدينة « كِره » أو « كهيدا » في إقليم كجرات ، شماليها . والعرب عادة يغيّرون الهاء الواردة في آخر الأسماء غير العربية إلى (ج) مثل فهرج ، لفهره أو بهيرة في مكان، ونموذج لـ (نمونة) الفارسية وهكذا .

وهي من المدن القديمة في تاريخ الهند ، وعاصمة تلك الولاية ، وهي الآن بلدة صغيرة[٢٢] بجانب مدينة « أحمد آباد » الكبيرة التي أنشأها المسلمون إبان حكمهم في القرن التاسع الهجري ، التي أصبحت عاصمة ولاية كجرات .

وقد ذكرها المسعودي في مروج الذهب (١/ ١٦٩ طبعة محيي الدين عبد الحميد) ، وأهملها ياقوت في معجمه . ولم يرد ذكرها في معجم المنجد .

ويلاحظ أن المدن الثلاث المذكورة أعلاه على التوالي تبين اتجاه حملات محمد بن القاسم في الهند بعد انتهائه من فتح بلاد السند ، ويمرّ هذا الخط شرقاً حتى مدينة بهيلمال (Bhillmal) أو بيلمان في اقليم راجستان المجاورة للسند ، ثم يتجه جنوباً إلى اقليم كجرات ، لضمان الطريق البحري من ميناء الديبل (أو ديوَل) إلى سواحل كجرات ، وسالمته الاثنتان الأخيرتان خوفاً من الغزو الإسلامي ، بينما فتحت الأولى عنوة .

كما نلاحظ أن المسلمين اضطروا أن يوجهوا إلى تلك المدن والمناطق وغيرها حملاتهم من جديد بعد حوالي اثنتي عشرة سنة ، في ولاية جنيد بن عبد الرحمن المرّي (١٠٧ ـ ١١١هـ) لانتقاض أمر فتح المسلمين بها من جهة ، وتوسيع رقعة الفتح الإسلامي بها من جهة أخرى . وكل ذلك بسبب عودة محمد بن القاسم إلى العراق اضطراراً ، وعدم إتمام مخططه العسكري .

٨ ـ مرمد (ص٥٤١) : لم يذكرها الجغرافيون العرب أمثال الاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، والادريسي ولا ياقوت . ويلاحظ أنه ورد هنا أسماء أربعة نواحي ومدن ، وهي على التوالي : مرمَد ، المندَل ، دهَنج ، بَروص وذكرها ابن خرداذبة فقط (ص ٥٧) ، وكلها على وجه التقريب على خط واحد من الشمال إلى الجنوب في غرب الهند .

وعلى الرغم من طول بحثي في المصادر والمراجع ، وبصفة خاصة أحدث وأوسع أطلس تاريخي عن الهند بالإنجليزية الذي ورد ذكره مراراً في هذا البحث ، لم أجد في أحدها مدينة بهذا الإسم أو ما يشبهه ، على افتراض

---

(٢١) وإلى هذا الرأي ذهب الباحث الهندي المعروف R. C. Majumdar, **The Arab Invasion of India** (Delhi, 1952) .

(٢٢) انظر موقعها في الأطلس المذكور في عدد من الخرائط القديمة والحديثة ، وخاصة ص ص ٧٠ و ١٤٠ .

التحريف في الاسم .

وأغلب الظن عندي أنه تحريف من النساخ أو غلط من الراوي العربي القديم في تسميته منطقة « مَرَو » أو « ميرو »[٢٣] ، والتي تغيّر اسمها بعد تلك الفترة ، في القرن العاشر الميلادي إلى « مارْوار » ، وهذه المنطقة في مقاطعة راجستان الحالية ، وهي في خط سير الحملات العربية منذ عهد محمد بن القاسم الثقفي .

وبهذه المناسبة أنقل كلام العالم العبقري الشهير أبي الريحان البيروني في موضوع تحريف الأسماء وتغييرها ، فبعد أن ذكر تبدّل اسم مدينة « مُلتان » في السند خمس مرات نقلاً عن كتاب هندي قديم ، قال : « ولكن الأسماء سريعة التغيّر عند استيلاء قوم على الموضع غرباء ، مخالفي اللغة ، فإن ألسنتهم تتلجلج فيها ، فيحيلونها إلى لغتهم كعادة اليونانيين ، ويأخذون بالمعنى ، فتتغاير الأسامي» ، ألا ترى أن « الشاش »[٢٤] هو مأخوذ من اسمه بالتركية، وهو « تاس كند »[٢٥] ، أي قرية الحجارة ، وهكذا اسمه في كتاب « جاو غرافيا »[٢٦] . برج الحجارة ، فهكذا تختلف إذا عبّروا بها بمعانيها ، أو يقلبونها إلى ما يسهل عليهم من الحروف والألفاظ كفعل العرب في تعريب الأسامي، فتصير ممسوخة مثل «بوشنك» في كتبهم إياها « فوسنج » ، ومثل « إسكلكند » فإنه في دواوينهم « فارفز » ، وما أبعد الأمر وأطمّ . بل قد نجد اللغة الواحدة بعينها في أمة واحدة بعينها تتغيّر ، فيصير فيها أشياء غريبة لا يفهمها إلا الشاذ ، وذلك في سنين يسيرة ، ومن غير أن تعرض لهم شيء يوجب ذلك »[٢٧] .

ولعمري إنها ملحوظة حكيمة قيمة واقعية ، يجد مصداقها من مارس القراءة في كتب الجغرافيا القديمة ، وحاول التعرف على مواضع البلدان في زمنه .

وقدّم البيروني هذه الملحوظة قبل عرضه جدولاً لأسامي المدن الهندية الكثيرة[٢٨] من كتاب هندي قديم هو « سنكهت » ، والتي كانت أسماؤها قد تغيّرت كثيراً في زمنه أي في أوائل القرن الخامس الهجري ، وصرّح بذلك قائلاً : « فأما أسماء البلاد فأكثرها غير ما تعرف به الآن » .

وعلى هذا فـ « مرمد » ، في ظني ، صورة ممسوخة لاسم « مرو » والمعروف حالياً بـ « ماروار » ، ولم يعرفها الدكتور المنجد ، واكتفى بالإشارة إلى صفحة فتوح البلاذري .

٩ ـ المندل (ص٥٤١) : لم يذكرها من الجغرافيين القدماء غير ابن خرداذبة[٢٩] ، ثم ياقوت ، وكذلك معاصره زكريا القزويني[٣٠] . وكانت المندل معروفة عند العرب في تلك الفترة ، ولعلها عرفت ، لعودها المشهور بالمندلي أو المندل فقط ، كما أشار إليه كل من ياقوت والقزويني .

وفي الهند عدد من المدن والمناطق تحمل هذا الاسم أو قريب الشبه منه ، وأعتقد أن

---

(٢٣) انظر البيروني ، كتاب الهند ، ص ص ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، وكذلك الأطلس التاريخي المذكور ، ص ٣١ ، خريطة رقم أ ، وذكرت فيها « مرمد » مترادفة لاسم « مَرو » ، وانظر بعد ذلك خريطة رقم أ ، في صفحة ٣٢ لاسم « ماروار » في موضع « مرو » Maru .

(٢٤) هي مدينة معروفة في تاريخ الثقافة الإسلامية ، وهي ببلاد ما وراء النهر ، ينتسب إليها عدد من الفقهاء والمحدثين .

(٢٥) هي طاشقند الحالية ، عاصمة جمهورية أزبكستان في الاتحاد السوفيتي ، ويلاحظ أن عاد إليها الاسم القديم .

(٢٦) هكذا رسمها البيروني ، والمقصود به كتاب « جغرافيا » لبطلميوس أو بطليموس ، وكان قد ترجم إلى العربية .

(٢٧) كتاب الهند له ، ص ٢٥٠ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ وما بعدها .

(٢٩) المسالك والممالك ، ص ٥٧ .

(٣٠) آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت : دار صادر ، د . ت) ، ص ١٢٤ .

المقصود هنا الناحية المعروفة بهذا الاسم على نهر سرسْوتي (Saraswati) والمعروف في بعض فترات التاريخ بـ (Mandala- Saraswati)[٣١] أي حوض « سَرَسْوتي » ، وفي تلك المنطقة مدينة قديمة باسم فرماجرام (Virmagram)[٣٢] المعروفة الآن باسم (Vimagram) ، واكتفى البلاذري أو بالأحرى المدائني (مصدر البلاذري) بذكر المنطقة دون المدينة .

ويؤيد اعتقادي هذا ذكر البلاذري مدينة أخرى في نفس السطر ، وهي « دهنج » الآتي ذكرها .

وحددها القاضي أطهر المباركفوري بمنطقة « جهالاوار كلان »[٣٣] الحالية في اقليم كجرات ، نحو الجنوب من تحديدي .

ولا يمكن أن يكون المراد هنا مدينة « مندل كره »[٣٤] (Manalgarh) في منطقة ميوار (Mewar) شرقي مدينة بهيلمال (بيلمان) ، إذ أنها ليست في خط سير الحملة العربية التي وجهها الجنيد بن عبد الرحمن المرّي إلى الشرق حتى بهيلمال (Bhillamal) ثم الجنوب حتى مدينة بهروج (بروص) في اقليم كجرات . بل بعيدة عن هذا الخط في الشرق .

١٠ ـ دِهنج (ص٥٤١) : لم يذكرها من الجغرافيين العرب غير ابن خرداذبة كما ألمحنا إليه ، كما لم يذكرها البيروني في كتابيه : **كتاب الهند ، والقانون المسعودي**.

ولا شكّ أنها مدينة «دهنوج» الصغيرة، وورد اسمها في الأطلس التاريخي لجنوب آسيا (بالإنجليزية) في بعض الخرائط الاقليمية الدقيقة ، وتغيّر اسمها بعد عصر البلاذري إلى سنك جرام[٣٥] (Sunakgram) ، وهي جنوب مدينة بهيلمال (بيلمان) الكبيرة .

وكانت « دهنوج » مركزاً دينياً من مراكز الهندوس الدينية العديدة في تلك المنطقة . وأهملها الدكتور المنجد .

بروص : (ص٥٤١) مرّ تعريفها تحت رقم (٢) ، ويلاحظ أن المسلمين عادوا إلى فتحها من ناحية البرّ بعد حوالي مئة سنة من محاولتهم الأولى من ناحية البحر في خلافة عمر رضي الله عنه . وذلك بعد فتح بلاد السند ، ومنطقة ماروار (Marwar) في مقاطعة راجستان وأصبح الآن الطريق أمامهم مفتوحاً نحو اقليم كجرات الجنوبية حيث مدينة بروص (أو بالأصح بهروج Bhroach) .

١١ ـ أزين : (ص ٥٤١) هي مدينة « أجّين » (بضم الهمزة والجيم المفتوحة) Ujjain القديمة والمشهورة في تاريخ الهند ، وهي معروفة بهذا الاسم حتى الآن . و « أُزين » تعريب له . ولكن البيروني ذكرها باسمها الصحيح ، ولكن بزيادة الواو بعد الهمزة أي « أوجّين »[٣٦] وموقعها في ولاية مدهيا برديش (Madhya Pardesh) بوسط الهند .

وقد اشتهرت هذه المدينة العريقة عند الفلكيين المسلمين في القرن الرابع الهجري وبعده ، بالاسم المذكور عند البلاذري ،

---

(٣١) انظر الأطلس التاريخي المذكور ، ص ٣٢ ، خريطة رقم (a) ، وص ٣٣ خريطة رقم (e) .

(٣٢) المرجع نفسه ، ص ٣٤ ، تكبير منطقة A للخريطة رقم (a) .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٣٤) الأطلس التاريخي المذكور ، ص ٣٩ ، خريطة رقم (a) .

(٣٥) المرجع نفسه ، ص ٣٤ ، تكبير منطقة (A) للخريطة رقم (a) .

(٣٦) البيروني : كتاب الهند ، ص ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ومواضع أخرى كثيرة ؛ القانون المسعودي ، له أيضاً ، دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ م) ، ص ٥٥٣ .
ويلاحظ أنه اختار الرسم القريب من الرسم المتعارف للكلمة عند العرب ، أي « أوزين » .

وأشار إلى ذلك البيروني قائلاً : « مدينة أوجّين ، وهي التي تذكر في جداول البلدان (ازين) » ، ثم ذكر تخليط بعض الفلكيين في تحديد موقعها.(٣٧)

وحرّف العرب هذا الاسم « أزين » بعد ذلك إلى « أرين » ، واقترحوا لها معنى غريباً ، وهو محل الاعتدال في الأشياء.(٣٨)

والغريب أن الدكتور المنجد يعرّف هذه المدينة الشهيرة والموجودة في جميع خرائط الهند القديمة والحديثة بأنها « بلدة في السند » . ولم يذكر أي مصدر لخطأه هذا الفاحش .

١٢ ـ أرض المالية : (ص ٥٤١) هذا تحريف لاسم مالْوه (Malwa) ، وذكرها البلاذري « بأرض المالية » لأنها اسم اقليم أو ناحية ، وليست اسم مدينة ، و « مالْوه » تعرف بالاسم نفسه حتى اليوم في خرائط الهند ، وهي في ولاية مدهيا برديش (Madhya Pardesh) ولم يحددها الدكتور المنجد ، وأشار إلى صفحة الفتوح فقط .

١٣ ـ بهرمد : (ص ٥٤١) لم يرد هذا الاسم في أي مصدر من المصادر الجغرافية العربية وغيرها ، ويدل السياق في البلاذري أنها من مدن ناحية مالوه(٣٩) ، ولكن على الرغم من تقليبي لهذا الاسم على جميع الوجوه (على افتراض التصحيف فيه) لم أجد في المصادر ولا الخرائط التاريخية القديمة لتلك الفترة مدينة بهذا الاسم في تلك الناحية .

ولذلك فاعتقد أنه تحريف لاسم « برهمنا » (Brahmana)(٤٠) ، وكانت بلدة صغيرة من ناحية « ماروار » الجنوبية في فترة الفتوح الإسلامية ، في القرن الثامن الميلادي ، جنوب مدينة بهيلمال (بيلمان) وفوق بلدة « دهنج » (أو دهنوج) اللتين ورد ذكرهما عند البلاذري قبل ذكر « بهرمد » مباشرة .

وتوجيه هذا التأويل أن (النون) في الإسم الهندي تغيرت إلى (الدال) عند الناسخ العربي ، وأما (الألف) الأخيرة فإنها لا تنطق في الأسماء الهندية نحو نطق « رام » لاسم (Rama) المعروف عند الهنود . وأهملها الدكتور المنجد .

١٤ ـ الجُزر : (ص ٥٤١) ورد رسمها في معجم الدكتور المنجد في نهاية الكتاب « الجرز » (بالزاء المعجمة في الأخيرة) والصواب ما في نصّ البلاذري .

لم يرد ذكرها في المصادر الجغرافية العربية غير الادريسي ، والحقيقة أنه تحريف أو تعريب لاسم « كوجر » (Gujar) ، ويقال أيضاً « كورجرا » (Gurjra) ، وهي اسم اسرة حاكمة(٤١) في منطقتي مالْوه وكجرات في تلك الفترة من التاريخ ، ونسب إليهم اقليم كجرات (Gujrat) فيما أظن ، وورد اسمها في بعض المصادر العربية « الجُوزرات » .(٤٢)

ولا شك أن المقصود « بالجُزر » هذه المنطقة ، ويؤيّد اعتقادي ما ورد في رحلة سليمان التاجر عام ٢٣٥هـ من ذكر ملك « الجُزر »(٤٣) ، وكذلك عند المسعودي في مروج الذهب (١/ ١٧١) .

وتحديدها عند الدكتور المنجد « بأنها في السند » خطأ فاحش ، ولم يذكر مصدراً غير البلاذري .

---

(٣٧) كتاب الهند ، ص ٢٦٢ .

(٣٨) نلّينو ، علم الفلك عند العرب ، (روما ، ١٩١١ م) ، ص ١٥٥ .

(٣٩) ولكن البلاذري لم يتبع الترتيب المكاني في ذكر المدن ، إذ أنه ذكر بعد ذلك مباشرة بعض مدن اقليمي ماروار وكجرات .

(٤٠) انظر موقعها في الأطلس التاريخي المذكور ، تكبير منطقة (A) لخريطة (a) .

(٤١) انظر الصفحة رقم (٣) من هذا البحث .

(٤٢) سليمان المهري ، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر ، تحقيق ابراهيم خوري ، (دمشق ، ١٩٧٠ م) ، ص ص ٩ ، ٢٥ ، ٢٦ وغيرها .

(٤٣) نقلاً عن السيد سليمان الندوي ، المرجع السابق ص ٢٧ ، وطبعت هذه الرحلة في باريس عام ١٨١١م.

١٥ ـ نازند (ص٥٤٣) : لم يرد هذا الاسم في المصادر الجغرافية العربية ، ولا في أطالس تاريخية للهند . ولا شكّ أنه تحريف من النساخ لاسم « باربد »[٤٤] (بالباء في موضعين)، وهو تعريب لاسم بهاربهوت (Bharabhuti) أو « بهارَبهوتي »[٤٥] ، بجوار ميناء بهروج (بروص عند البلاذري) ، وقد وجهت إليها حملة بحرية كبيرة في سنة ١٦٠هـ في خلافة المهدي كما ذكره الطبري ، وابن الأثير في حوادث هذه السنة .

وهي الآن بلدة صغيرة بجوار بهروج (Bhroach) في اقليم كجرات واعتبرها الدكتور المنجد « في السند » ، وهو خطأ ، ولم يذكر مصدراً غير البلاذري .

١٦ ـ قشمير (ص٥٤٣) : هي « كشمير » ولكن المقصود منها ليست تلك الولاية التي تعرف حالياً بهذا الاسم وتقع أجزاء منها في الهند وأخرى في باكستان .

بل المقصود منها المنطقة الواقعة شمال مقاطعة البنجاب الحالية في الهند والباكستان ، وكانت هذه المنطقة تابعة لمملكة كشمير[٤٦] القوية في سفوح جبال الهملايا ، أي كشمير الحالية . والتي سمّاها الادريسي « بكشمير الخارجة »[٤٧] مقابل « كشمير الداخلة » ، وهي كشمير الحالية .

ولا يمكن لباحث عنده حسّ تاريخي أن يقبل أن المراد من « قشمير » عند البلاذري هي كشمير الحالية، ووقع في هذا الخطأ الدكتور صلاح الدين المنجد في معجمه للفتوح . إذ أن كشمير هذه في الجبال لم يغزها أحد من المسلمين غير السلطان محمود الغزنوي في أواخر القرن الرابع الهجري ، ولم يتمكن من فتحها ، وانتشر الإسلام فيها عن طريقة الصوفية الصالحين[٤٨] ، ثم إسلام أحد حكامها فيما بعد .

وكان العرب أقصى ما فتحوه في بلاد السند شمالاً مدينة ملتان (الواقعة في البنجاب الجنوبية بالباكستان الآن) ، وكانت الحملة المذكورة هنا على منطقة البنجاب شماليّ ملتان ، وهي التي سمّاها البلاذري أو المدائني بقشمير .

وعلى هذا فتحديد الدكتور المنجد لها بأنها كشمير التي تنازعها الهند والباكستان ليس بصحيح .

١٧ـ القندهار (ص ٥٤٤) : قندهار (Gandhara) اسم عدد من المدن الهندية قديماً ، وإحداها تلك المعروفة بهذا الاسم حتى الآن في افغانستان ، وقد ذكرها البلاذري قبل ذلك[٤٩] ، والتي فتحها العرب قبيل فتح السند . والثانية بمقاطعة الحدود الشمالية في الباكستان ، وقامت هناك حضارة بوذية هندية ، معروفة بحضارة قندهار (Gandhara) ، والثالثة المقصودة هنا هي المدينة الساحلية بجوار ميناء بهروج (أو بروص) في ولاية كجرات على الساحل الغربي للهند.[٥٠] ويدلّ على ذلك نصّ البلاذري بوضوح : « وأتى القندهار في السفن ففتحها » .

واعتبرها الدكتور المنجد « من السند » كالقندهار الأولى ، وتحديده لهما في كلا الموضوعين خطأ فاحش . والغريب أنه لم ينتبه إلى عبارة البلاذري الصريحة .

---

(٤٤) وقد ورد صحيحاً هكذا في تاريخ الطبري ، ٨/ ١٢٨ (طبعة دار المعارف، القاهرة).

(٤٥) الأطلس التاريخي لجنوب آسيا، ص ٢٧ ، خريطة (b) .

(٤٦) انظر V. D. Mahajan, op. cit. p. 6 .

(٤٧) نزهة المشتاق، ص ٢/ ١٩٤ .

(٤٨) السيد سليمان الندوي ، المرجع السابق ، ص ٤٠١ .

(٤٩) الفتوح، ص ٥٣٢ .

(٥٠) انظر موقعها في الأطلس التاريخي المذكور، ص ٣٣ ، اخريطة رقم (e) .

١٨ـ سندان (ص ٥٤٤) : ذكرها معظم الجغرافيين العرب مثل ابن خرداذبة(٥١) ، وياقوت(٥٢) ، وأبي الفداء(٥٣) وغيرهم . وهي مدينة ساحلية وتعرف الآن بسنجان(٥٤) في ولاية كجرات ، بجوار ميناء دمن (Daman) ، بين مدينتي سورَت (Surat) وتهانة (Thana) على الساحل الغربي للهند .

وقامت فيها وفي المناطق المجاورة لها دولة عربية باسم الدولة الماهانية في خلافة المأمون ، ولم تعش إلّا لفترة قصيرة ، حوالي ربع قرن أو أقل ، وانتهت بسبب الخلافات الداخلية ومعاداة الجيران الهندوس.(٥٥)

وتعريف أو تحديد المنجد لها : «في بلاد السند» ليس بشيء ، والغريب أنه لم يرجع حتى إلى ياقوت .

١٩ ـ فالي (ص ٥٤٥) : لم يذكرها من الجغرافيين العرب القدامى غير ابن خرداذبة(٥٦) ، الذي اعتمد في تأليف كتابه **المسالك والممالك** ، في حدود المنتصف من القرن الثالث للهجرة ، على كتاب **الجغرافيا** لبطليموس ، وبطليموس ذكر عدداً غير قليل من المدن الهندية القديمة ، والتي ورد ذكرها عند البلاذري .

ورسم كتابة هذا الاسم في اللغات الهندية بالباء الفارسية ذات ثلاث نقاط أو حرف P الإنجليزية ، أي (Pali) ، وكثيراً ما تتغير هذه الباء عند العرب إلى الفاء ، وعرفت عدد من المدن الهندية قديماً بهذا الاسم ، والمراد هنا المدينة المعروفة الآن بـ« بالي تهانة » (أو Palitana) شرقي ولاية كجرات على ساحل المحيط الهندي . وكانت قراصنة البحر (الميد) ، الذي ذكرهم البلاذري هنا يقطنون فيها أيضاً بجانب مقارهم الأخرى على سواحل هذا المحيط ، وموقعها الآن بجانب مدينة بهانكر(٥٧) (Bhawnagar) في ذلك الاقليم ، وكانت إمارة هندوكية مستقلة قبل استقلال وتقسيم الهند عام ١٩٧٤م .

هذه هي المدن الهندية التسع عشرة التي ورد ذكرها في فتوح البلاذري ، والتي كانت هدف الحملات العربية منذ أوائل القرن الأول للهجرة حتى أوائل القرن الثالث الهجري ، خضعت بعضها لفترة قصيرة للحكم الإسلامي أو لولاية السند العربية .

والمؤرخون الهندوس المحدثون لم يذكروا من هذه الحملات إلّا ما كانت بين عامي ٧٣٥ و ٧٣٩ الميلاديين(٥٨) ، أي في فترة ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المري (١٠٧ ـ ١١١هـ) ، على السند ، ولعل مردّ ذلك أن الحملات العربية في تلك الفترة كانت قوية ومركزة ، ووصلت إلى أواسط الهند حتى مدينة « أُجّين » العريقة ، بعد اكتساح مدن غرب الهند ؛ ومهما كان الأمر فإنها رُدت جميعاً ، ولم يستقر الفتح العربي الإسلامي في الهند كما استقر في بلاد السند (بشمول مقاطعة بلوشستان وجنوب مقاطعة البنجاب الحالية في الباكستان) ، وسبب ذلك فيما يبدو عدم إبقاء الفاتحين الحاميات من الجنود العرب كما فعل محمد بن القاسم في السند ، والمسافات الصحراوية الطويلة بين مراكزهم في السند وبين هذه المناطق الهندية ، وانشغال الخلافة بثورات عارمة في الشمال الافريقي ، وأخرى في خراسان ، حيث أرسل الجنيد بن عبد الرحمن من السند . ويضاف إلى ذلك فيما بعد اضطراب الدولة الأموية وسقوطها ، وانشغال الخلافة العباسية بثورات عديدة كبرى

(٥١) **المسالك والممالك** ، ص ٥٨ .

(٥٢) معجم البلدان ، ٣/ ٢٦٦ (طبعة بيروت) .

(٥٣) **تقويم البلدان** ، (طبعة باريس ، ١٨٤٠ م) ، ص ٣٥٨ .

(٥٤) انظر موقعها في **الأطلس** المذكور سابقاً ، ص ٣٨ ، الخريطة رقم (a) و (b) ، وكذلك ص ١٤٠ .

(٥٥) انظر عنها القاضي أطهر المباركفوري ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢ ـ ٤٨ فما بعد .

(٥٦) **المصدر السابق** ، ص ٥٨ ، وورد اسمها « قالي » وهو لا شك من أغلاط النساخ .

(٥٧) انظر **الأطلس التاريخي** المذكور سابقاً ، ص ٧٦ .

(٥٨) **المرجع السابق** ، ص ٣١ ، الخريطة رقم (a) .

وهي في بداية تكوينها واستقرارها .

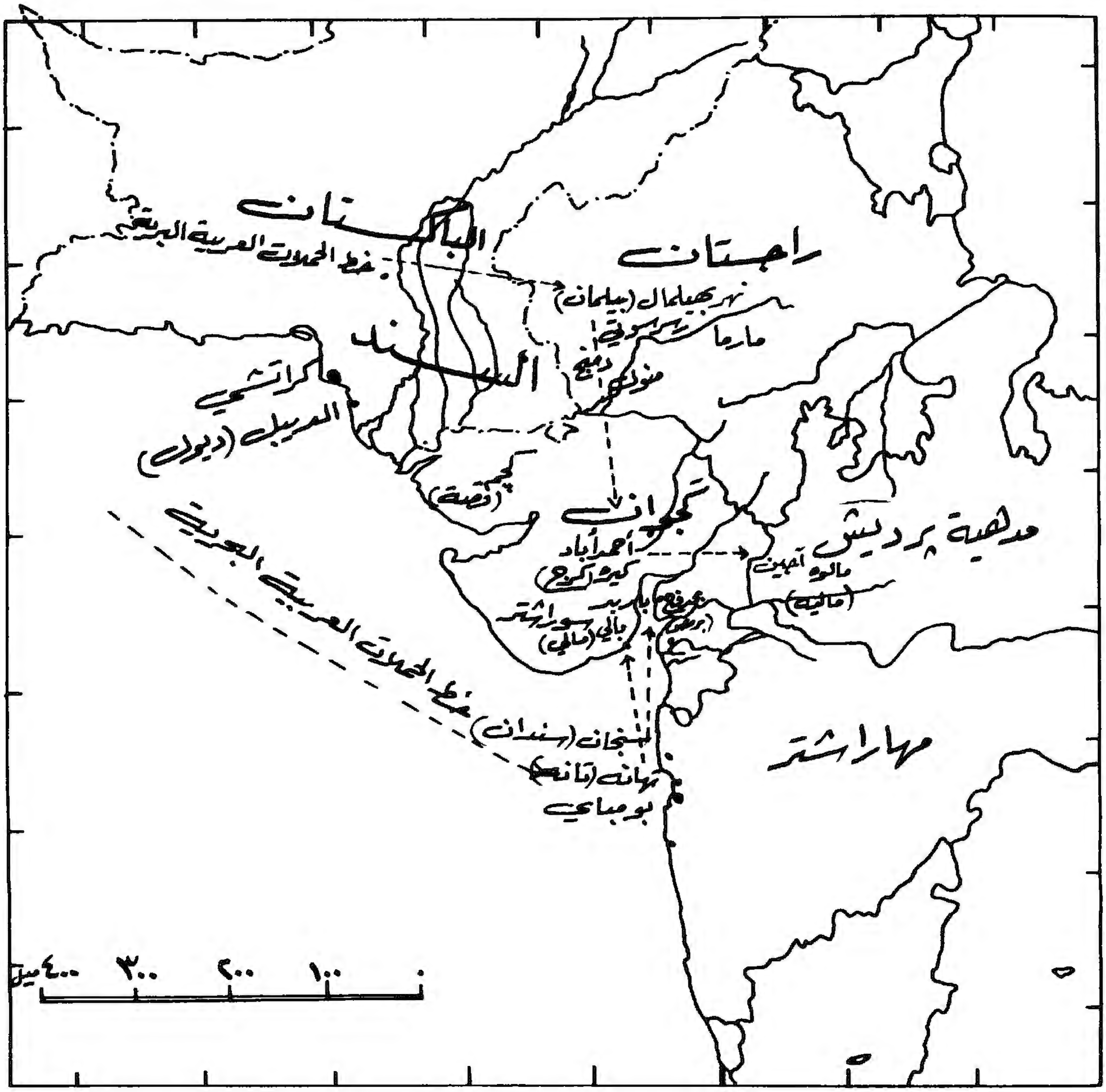
ولم يكن عند الدولة العباسية تخطيط محدّد لتوسيع نطاق الفتح الإسلامي في الهند ، على الرغم من تسجيل المؤرخين المسلمين بعض الحملات في خلافة المنصور والمهدي على بعض السواحل الهندية .

ومهما يكن الأمر ، فإنني أعتقد انه اتضح ، بعد تعريف وتحديد المدن والمناطق التي ورد ذكرها في فتوح البلاذري بهذه الصورة المفصلة الدقيقة ، أمر هذه الفتوح لدى القارىء بأنها كانت في مناطق واسعة من أقاليم راجستان (راجبوتانة قبل تقسيم الهند) وكجرات ، ومالْوَه (Malwa) وماروار (Marwar) ، أو مقاطعات راجستان ، وكجرات ومدهيا برديش الحالية في جمهورية الهند . ولا بد أن تركت هذه الفتوح أو بالأحرى الحملات آثاراً دينية في ربوع الهند ، وليس الكلام فيه من موضوع هذا البحث .

وأخيراً أرجو أن يقدر القارىء ما عانيته في التعرف على هذه البلاد التي درس الكثير منها ، والبعض الآخر تغيّرت أسماؤها ، وأخرى تضاءل شأنها بحيث أصبحت قرى مجهولة ، لا وجود لها في الخرائط العادية للهند . ولا بد أن أعترف بأن كتابات البيروني ، والسيد سليمان الندوي ، ثم الأطلس التاريخي لجنوب آسيا بقلم نخبة من الأساتذة المتخصصين في شؤون الهند ، كان عوناً كبيراً في إنجاز هذا العمل ، ووقفت ساعات طويلة ومرة بعد أخرى أبحث في هذا الأطلس عن موقع بلدة أو مدينة عفّ عليها الزمن حتى تمكنت من تحديدها ، وإزالة الأخطاء والأوهام التي لحقت بأسماء بعضها ومواقعها ، وعسى أن أكون قد قدمت بعملي هذا ما يسهل الأمر على الباحثين في تاريخ الفتوح أو الحملات العربية في الهند .

والله الموفق .


خريطة الهند
باكستان
دهلي
راجستان
جودهبور
كراتشي
كجرات
سورت
تانه (تهانه)
بومباي
مهاراشترا
مدهيا
برديش
الهند
سري لنكا
٢٥٠كم ٠ ٧٥٠ ٥٠٠ ٧٥٠ ١٠٠٠



خريطة سياسية لغرب الهند ووسطه

تبيّن المناطق الهندية التي ذكرها البلاذري ، ضمن التقسيمات الإدارية الحديثة للهند

العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ١٥١ ـ ١٦٤ (١٩٨٧)

دراسة تحليلية لآراء الدكتور لويس عوض
"مجموعة اللغات الهندية ـ الأوروبية، ومجموعة اللغات الحامية ـ السامية"

للدكتور ـ حمزة بن قبلان المزيني

ملخص البحث : تناقش هذه المقالة الآراء التي أقام الدكتور لويس عوض كتابه « مقدمة في فقه اللغة العربية » عليها . فليس في هذا الكتاب من الجديد الهام إلاّ القليل فهو يعتمد اعتماداً كبيراً على مؤلفين كتبوا مؤلفاتهم في النصف الأول من القرن العشرين ولم يتطرق إلى الآراء التي جدت حول الصلة بين مجموعة اللغات الهندية الأوروبية ومجموعة اللغات السامية والحامية . أما الجديد في الكتاب فلا يزيد عن تخرصات يلعب الخيال فيها دوراً كبيراً .

يضاف إلى ذلك أن آراءه حول العلاقة بين اللغة والأجناس البشرية ، وحول صفاء المصريين العرقي لا سند لها . بل قد يكون موقفه الثقافي المسبق من العرب وراء هذه الآراء .

بين يدي هذه الدراسة

عرف الدكتور لويس عوض باهتماماته النقدية وإسهاماته الإبداعية، لكنه لم يعرف عنه الاهتمام بالدراسات اللسانية ؛ وليس في ذلك ما يعاب عليه . غير أن الدكتور عوض خرج على الناس بكتاب ضخم يعالج فيه أحد المواضيع اللسانية المتخصصة . وبرغم انه ليس من حق القارىء أن يصادر حق الدكتور عوض في الكتابة عما يشاء ، فإن من حقه أن يناقش المؤلف فيما كتبه . إلاّ أنه لا يحق له أن يتخذ من عدم تخصص المؤلف حجة عليه ؛ بل يجب أن ينصب نقاشه وينحصر في الكتاب موضوع النقاش ، وهذا ما أنوي القيام به في هذه المقالة . فلا يهمني أن يكون المؤلف غير متخصص، بل المهم هو أن نرى مدى تمكنه من أدوات بحثه في هذا الكتاب .

ويقوم كتاب الدكتور لويس عوض (مقدمة في فقه اللغة العربية، القاهرة: الهيئة العربية للكتّاب، ١٩٨٠م) على نظرية تقول إن مجموعة اللغات الهندية الأوروبية ومجموعة اللغات السامية والحامية تشترك في أصل واحد . وليس الدكتور لويس عوض الوحيد الذي حاول أن يجد أدلة تسند هذه النظرية ، فقد ذكر هو نفسه بعض المشتغلين بهذا الموضوع مثل أبير كوني ومايية وبدرسون ومولر وغيرهم .

والنظرية هذه ، في حدّ ذاتها ، مثلها مثل أية نظرية أخرى ، قد تقوى أدلتها وتثبت مدة من الزمن حتى يوجد من الأدلة ما يبعث على الشك فيها ، أو أن تكون أدلتها ضعيفة بدءاً ، فتبقى مجرد تكهنات وتخرصات . ومن الواجب أن يقال إن الدكتور لويس عوض الحق كله في مناقشة هذه النظرية أو غيرها ، ولا يمكن أن يلام على الحديث عنها ، وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ يحدثنا تاريخ العلم أن التمييز بين المواضيع التي تُبحث بحيث يكون بعضها صالحاً للبحث وبعضها غير صالح ، كان أحد العوامل التي أخرت كشف الكثير من حقائق العلم . فلا يمكن أن يقف الإنسان في سبيل أي

بحث لأنه في نظره غير مجد أو غير صالح . بل إن توق الإنسان وتطلعه إلى اكتشاف الكون من حوله دون تحيز لهذا الموضوع أو ذاك كان وراء كل تقدم علمي حصلت عليه البشرية. فلذلك يجب أن يعد موضوع احتمال الصلة بين مجموعة اللغات الهندية الأوروبية ومجموعة اللغات السامية والحامية واحداً من بين المواضيع التي تصلح للدراسة مثل غيره من المواضيع .

٢ ـ إن اللغة بطبيعتها واحدة من أهم ما لفت نظر الإنسان منذ الأزل ، وبالرغم من المحاولات العديدة والجادة لاستكناهها فما يزال جهله بها أكثر من علمه .

ومن أهم النقاط اللافتة للنظر فيما يخص اللغة ، أوجه التشابه والاختلاف القائمة بين آلاف اللغات الموجودة أو المندثرة في العالم . ولقد لجأ الإنسان في القديم إلى الأسطورة لتفسير تلك الأوجه من التشابه والاختلاف ، وليست أسطورة برج بابل ببعيدة عن أذهاننا. فقد يكون هناك علاقة ،إذن ،بين مجموعة اللغات الهندية الأوروبية ومجموعة اللغات السامية والحامية . فلماذا لا يدرس هذا الموضوع ؟

٣ ـ إن هذا الموضوع واحد من المواضيع التي تدرس في الغرب بحيث كتبت عنه مئات الكتب والمقالات وعقدت حوله الكثير من المؤتمرات . فلماذا لا يقدم هذا النقاش إلى القارىء العربي ؟ ولماذا لا يشارك فيه العلماء العرب ؟

لهذه الأسباب وغيرها يجب ألا يغض من جانب هذا البحث من الناحية المبدئية . بل يجب أن ينظر فيه وأن يؤخذ بجدية ، ومن ثم يجب أن يناقش مؤلفه مناقشة علمية وصريحة بعيداً عن التوجهات العاطفية التي تحرم القارىء من النظر إلى كافة أوجه النقاش . ويبقى بعد ذلك أن نعرف أنه لا يغض من مقام اللغة العربية أن تكون انبعثت من أصل بعيد تشترك فيه مع اللغات الأخرى فهي تشترك في الأصل ، مثلاً ، مع العبرية في لغة أمّ واحدة وهي السامية ، تشملهما مع غيرهما من اللغات الأخرى .

ولقد اقتصر النقد الذي وجه إلى هذا الكتاب ، كما يبدو ذلك من بعض المقالات التي نشرت في بعض الصحف على جانب واحد من الكتاب وهو موقف مؤلفه من العرب . أما في هذه الدراسة فلن أتناول هذا الموضوع إلّا إذا كان له علاقة بالجوانب الأخرى التي سأناقشها .

النظرية التي يقوم عليها الكتاب

يرى المؤلف أن التشابه الموجود بين اللغة العربية واللغات المنتسبة إلى مجموعة اللغات الهندية الأوروبية دليل واضح على أن اللغة العربية جاءت من أصل قديم يجمعها هي وتلك المجموعة .

وفي معالجته لهذا الموضوع ، يبدأ ص ١٤٩ ـ ص ٣٩٤ في مناقشة القوانين الصوتية التي كانت وراء تفرع اللغة العربية عن الأصل القديم ، وكذلك القوانين التي أدت إلى تميّز المجموعة الهندية الأوروبية . أما في بقية الكتاب ص ٢٩٥ ـ ص ٦٠٩ فيورد ما يشبه القاموس التاريخي حيث صنف الكلمات التي تشترك فيها العربية مع المجموعة الهندية الأوروبية ، في نظره ، إلى أبواب متعدّدة ، فبعضها للأعداد وبعضها لأسماء القرابة ، أو الحيوانات ، أو أسماء الطيور والأسماك والزواحف والحشرات . . . وغير ذلك .

أما عن تقديمه لنظريته تلك، فيقول في ص ٢٦ : «وقد انتهيت من أبحاثي في فقه اللغة العربية إلى أن اللغة العربية هي أحد فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية الأوروبية . . . وهذا ما يمكن أن نقوله في مجموعة اللغات الحامية وفي مجموعة اللغات الطورانية » . وكذلك القول نفسه في ص ٤٩ . وفي ص ١٤٦ يقول : « وهذا هو الافتراض الكبير الذي أسست عليه كتابي هذا ، ألا وهو أن المجموعة السامية ونموذجها اللغة العربية ، والمجموعة الحامية ، ونموذجها اللغة المصرية القديمة ، ليستا مجموعتين مستقلتين بذاتهما وإنّما هما فرعان أساسان في تلك الشجرة السامقة التي خرجت منها المجموعة الهندية الأوروبية . وقد وصلت إلى هذه النتيجة من طريق مواز للطريق الذي سار فيه هرمان مولر وبدرسون وميبه وكوني ، ثمّ وجدت نفسي مع التوسع الشديد في الاستقراء قبل الاستنتاج ، في النهاية أتمّم عمل هؤلاء العلماء الذين أرهصوا من قبل بهذا الاكتشاف الخطير ووجدتني أجمع أدلة التوثيق وقرائنه لإثبات ما كان من قبل مجرد احتمال ، كما في العلّامة ميبه ، أو ترجيح ، كما في العلّامة كوني . وأرجو أن

أكون قد انتقلت بهذا الافتراض الخطير من مرحلة « الاحتمال » إلى مرحلة « النظرية » ذات القوانين .

فالأمر بالنسبة للمؤلف واضح هنا ، وهو أن التشابه الذي يقول به بين هذه المجموعات دليل على الصلة في الأصول بينها . ومن الملاحظ أنه في هذه المواضع الثلاثة ، لم يذكر احتمالات أخرى لتفسير التشابه إن وجد . وأحد تلك الاحتمالات أن تكون هذه المجموعات اللغوية الثلاث قد أثرت في بعضها عن طريق الاستعارة فيما بينها . لكنه في ص ٢٩٦ يذكر أن هناك احتمالات خمسة ربما تكون كلها أو بعضها وراء مثل هذا التشابه . وهو يرى أن الكلمات التي تدخل اللغة في عصر متأخر لا تكوّن مشكلة لأن معظمها من ألفاظ الحضارة . لكن المشكلة هي إذا وجد التشابه بين تلك اللغات في كلمات اللغة الأساسية فعند ذلك « لا يسعنا إلا أن نطرح هذا السؤال الخطير : متى دخلت هذه الألفاظ اليونانية واللاتينية (الهندية الأوروبية) اللغة العربية السامية الأصول . وكيف دخلت ؟ » أما الاحتمالات التي يمكن أن تفسر هذا الأمر فهي ، ص ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ :

١ ـ أن مجموعة اللغات السامية استعارت هذه الكلمات من لغة السومريين وهي لغة حضارة هندية أوروبية ، كما يقول ، عن طريق اللغة الآكادية ، وهذا يرجع بنا إلى قبل الألف الثالثة قبل الميلاد .

٢ ـ أن هذا التأثير جاء عن طريق موجات هندية أوروبية متأخرة مثل الكاسيين والميتاني ، وهذا يرجع بنا إلى الألف الثانية قبل الميلاد .

٣ ـ أن مجموعة اللغات السامية قد تأثرت باللغات الفارسية (وهي لغات هندية أوروبية) أيام الامبراطورية الساسانية التي استمرت حوالي ألف عام (٥٥٩ ق . م ـ ٦٥١ م) .

٤ ـ أن ترجع هذه التشابهات إلى أيام الامبراطورية الهيلينية منذ الاسكندر ثم الامبراطورية الرومانية ثم الامبراطورية البيزنطية حتى ظهور الإسلام .

٥ ـ أن يكون مصدر هذا التشابه أن مجموعة اللغات السامية قد أثرت في اليونانية ـ وليس العكس ـ عن طريق التغلغل الفينيقي في اليونان ولا سيما حول بداية الألف الأولى ق . م.

ثم يعود فيذكر نظريته كاحتمال سادس ، أي أن تلك المجموعات اللغوية ليست إلاّ فروعاً « لشجرة واحدة في جذورها ، وربما في ساقها ، تمتدّ إلى ما قبل عصور الهجرات من وسط آسيا فيما قبل التاريخ . وفي هذه الحالة لن تكون المشكلة الأساسية مشكلة تأثر وتأثير أو اقتراض وإعارة ولكن مشكلة لغة أصلية مشتركة اتّخذ نموّها أشكالاً مختلفة ابتداءً من نهاية العصر الجليدي حتى ٣٠٠٠ ق . م. وما بعدها بحسب تأثير البيئة الجغرافية التي حلت فيها هذه القبائل والقطعان المهاجرة وبحسب تأثير لغات الجماعات الأصلية التي توزعت عليها هذه القبائل والقطعان » ، ص ٢٩٩ .

ثمّ يعقّب على هذا الاحتمال في الصفحة نفسها بقوله : « ومن العلماء من يحاول أن يتمسّك بهذا الافتراض رغم صعوبة إثباته انثروبولوجياً ومنهم من يجد له سنداً انثروبولوجياً في وحدة الجنس القوقازي الذي يقال إن عامة سكان البحر الأبيض المتوسط وما حوله وسكان أوروبا الأصليين والمتأخرين ينتمون إليه» . غير أنه في ص ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢ يشكك في أن هذه التأثيرات حديثة حيث تشتد حيرته في تفسير هذا التشابه عندما يجد « أن عدداً عظيماً من الأسماء والأفعال والصفات الأساسية جذوره مصرية قديمة ترجع على الأقل إلى عصر التدوين المعروف منذ ٣٠٠٠ ق. م. » فيتساءل هل كان هذا التشابه مصدره « أن المصريين الحاميين نشروا لغتهم في المنطقة السامية من الشام إلى اليمن وفي المنطقة الآرية حيث أقام اليونان والرومان ، أم نفترض أن الآريين فعلوا ذلك بالحاميين والساميين » . ثمّ يعيد الكلام نفسه في ص ٣٠٠، ص ٣٠٢.

وبعد هذا النقل الزائد عن الحد اللازم للآراء التي أوردها المؤلف يحسن بالقارىء أن يقارنها بآراء المتخصصين في هذا المجال من الدراسة اللسانية .

ويكاد ينعقد الإجماع بين الباحثين اليوم على أن الظن في هذا الموضوع أكثر من الحقيقة . وسنورد بعضاً من آراء هؤلاء الباحثين فيما يلي :

فمن هؤلاء W. P. Lehmann في جامعة تكساس في أوستن بأمريكا وهو من المشتغلين بعلم اللسانيات التاريخية مدة تقرب من خمس وثلاثين سنة وخاصة بما له علاقة بالدراسات

حول المجموعة الهندية الأوروبية ، فيقول في مقالة ستنشر قريباً (Lehmann, ms.) : « ولقد أشار (يعني Joki في مقالته الصادرة سنة ١٩٧٣م، ص ص ٣٥٣ ـ ٣٧٤) إلى المشاكل الناجمة عن تمييز ما يمكن أن يعد دليلاً ضعيفاً مما يمكن أن يرجع إلى تشابه عن طريق الصدفة إضافة إلى المصاعب الناجمة عما يعرف بمحاكاة أصوات الطبيعة . وإذا كانت هناك نتيجة واحدة هامة لما يعرف بـ Glottochronology فهي التدليل على أن ثمانية آلاف سنة من الانفصال أي انفصال المجموعة الهندية الأوروبية عن غيرها من المجموعات اللغوية كافية لتقليص الدليل على الصلة إلى مستوى مماثل للدليل المستخلص من التشابه عن طريق الصدفة . وبما أنه من غير الممكن أن نقترح تاريخاً لاحقاً للألف الخامسة قبل الميلاد للأطوار الأولى للمجموعة اللغوية المسماة بما قبل الهندية الأوروبية ، فإنه يجب أن يتحقق القائلون بعلاقات أخرى لهذه المجموعة مع غيرها بأنهم إنما يتعاملون مع دليل ضئيل جداً .

« ومع ذلك فإن البحث في هذا الموضوع الشائك ما يزال مستمراً . فقد وجه Bomhard (في كتاب نشره ١٩٨٤ م) اهتماماً أساسياً إلى احتمال صلة هذه المجموعة اللغوية بمجموعة اللغات الأفريقية الآسيوية ، وكذلك فعل مكي (في مقالة لم تنشر بعد) وآخرون . غير أنه يجب أن يلاحظ أن التعديلات التي أجراها أنصار نظريتي الحنجرية Laryngeal والـ Glottalic على النظام «الفونولوجي» للمجموعة اللغوية المسماة بما قبل الهندية الأوروبية تجعل من الصعب على جهود مثل هذه أن تثبت لها أية قيمة » . وهذا ما يقوله أيضاً Robert Hetzron (Hetzron, 1977) . وهو ما يراه موسكاتي وشبيتالر وألندورف (Moskati, et al. 1969: 17) .

بل أنّ المشتغلين بهذه النظرية أنفسهم يعبرون أحياناً عن المشاكل العويصة التي تكتنف البحث بعامة . فهذا Allan R. Bomhard وهو من أكثر الباحثين نشاطاً في هذا الحقل ، يقول (Bohard, 1977) : « لقد كانت هناك محاولات عدة لربط اللغة الهندية الأوروبية الأم باللغة السامية، حيث كان آخر تلك المحاولات ما قام به Linus Brunner في قاموسه (Die gemeinsamen wurzeln des semitischen und indogermanischen wortschatzes (1969)) في مقارنة المفردات السامية والهندية الأوروبية . وبالرغم من إمكانية إبراز بعض التشابه الواضح ، فإن مثل هذه المقارنات ليست على العموم مقنعة ، لأسباب عديدة ، والسبب الأول أن النظام الصوتي الفونولوجي للغة الهندية الأوروبية كما كان يقترح نظرياً يختلف اختلافاً بيّناً عن ذلك النظام الذي يقترح للغة السامية الأم . وهذا ممّا جعل من الصّعب وضع ملائمات (Correspondents) مقنعة بين النظامين مما نتج عنه أخذ بعض المفردات المتشابهة على أنها مفردات مماثلة (Cognates) بينما هي ليست كذلك ، في حين أن بعض المفردات المتماثلة لم يلتفت إليها . والسبب الثاني أنه يبدو أن هناك حالات من التشابه قليلة بعض الشيء في الصرف بين اللغتين اللتين تفرعتا من تلك اللغة الأم . فمن أجل أن نقترح بأن هناك أصلاً واحداً للغة الهندية الأوروبية واللغة السامية الأمّ فلا بدّ أن نجد تشابهاً كافياً في النظام الصوتي الفونولوجي وفي الصرف والمفردات حتى ننفي احتمال الاستعارة والصدفة المحضة . وعلى الرغم من بعض الجهود الرائدة الشجاعة ، فإن هذا لم يتحقق بعد » .

كما يكرّر Bomhard الكلام نفسه في موضع آخر (Bomhard, 1984: 179) : حيث يشير إلى أن وجود التشابه نفسه ليس دليلاً كافياً حتى لو كان ذلك التشابه كبيراً . ومن أمثلة ذلك كلمة Karnu الأكادية وكلمة Carnu اللاتينية بمعنى « قرن » (وبالمناسبة فقد بحث الدكتور لويس عوض هاتين الكلمتين في ص ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ وقال بالصلة بينهما) وكمثال آخر لعدم كفاية التشابه الظاهري بين المفردات في مثل هذه المقارنات يقول Hetzron في مقالته سالفة الذكر (Hetzron, 1977: 353) : « وعلى أساس تعليل Levin ، فإن اللغة الهنغارية ولغة السودو (وهي لغة أثيوبية) قد تكونان من أصل واحد . فالعدد اثنين (٢) في الهنغارية هو Kettö وهو في السودو Kitt لكن المقارنة مع اللغات الأخرى التي تشترك مع اللغتين المذكورتين تبيّن أن الكلمة الهنغارية جاءت من كلمة هي Kakte بينما جاءت الكلمة في السودو من الجذر المعروف ?KL متبوعاً بضمير المؤنث ـ وهو التاء ـ » .

فأوجه الاعتراض التي يبديها هؤلاء الباحثون وأمثالهم تتلخص فيما يلي :

١ ـ عدم كفاية التشابه الظاهري .

٢ ـ أن النظام الصوتي الفونولوجي للمجموعتين كما يقترح نظرياً مختلف اختلافاً بيّناً.

٣ ـ أن المقارنات التي قام بها بعض الباحثين الأوائل كانت قائمة على تصور معين للنظام الفونولوجي لمجموعة اللغات الهندية الأوروبية ، لكن هذا التصور تغيّر في الخمسين سنة الماضية تغيراً كبيراً .

٤ ـ أن مصدر التشابه الذي يوجد بين المجموعتين اللغويتين يمكن تفسيره إمّا باقتراض إحداهما من الأخرى والتأثّر بها والتأثير عليها ، أو أن يكون نابعاً من أن بعض الكلمات نشأت في البداية عما يسمى بمحاكاة أصوات الطبيعة فلا محالة أن تتشابه بعض الألفاظ فيهما لأن تلك الكلمات جاءت لمحاكاة أصوات طبيعية واحدة .

فمحاولة المؤلف في هذا الكتاب لا تختلف عما سبقها من محاولات ، والاعتراضات التي يمكن أن تثار هنا هي الاعتراضات هناك .

ولعل قائل يقول إن الاعتراضات التي أثيرت بالنسبة للدراسات السابقة قد لا تكون صالحة هنا ، وأن المؤلف قد يكون أجاب عليها في هذا الكتاب .

وللإجابة على ذلك لا بدّ لنا أن نستعرض هذه المحاولة بالتفصيل . وتجب الإشارة ، في البداية ، إلى أن الموضوع هنا ينطوي على أمرين ، أولهما أن هناك تشابهاً بين المجموعة اللغوية الهندية الأوروبية وبين المجموعة اللغوية السامية والمجموعة الحامية . وثانيهما البحث عن مصدر هذا التشابه .

أما بالنسبة للأمر الثاني فقد سبق الحديث عنه ، فلندعه ، إذن ، ولنلتفت إلى الأمر الأول .

ولقد ضمّن المؤلف كتابه فصلاً طويلاً (ص ص ١٤٩ ـ ٢٩٤) يناقش فيه المبادىء الصوتية التي بنى عليها « نظريته » ، فيقول ، ص ١٤٩ : « فلنحاول الآن أن نحصر المبادىء الفونطيقية (الصوتية) التي بنى عليها بعض علماء اللغة نظريتهم في احتمال وحدة الأصل بين المجموعة الهندية الأوروبية والمجموعة السامية الحامية من اللغات » . ولم يبيّن المؤلف ، هنا ، من هم العلماء الذين اعتمد عليهم . لكنه أوضح في ص ١٤٦ أنه على علم بما كتبه هرمان مولر وبيدرسون ومييه وكوني ، كما يذكر في هذا الفصل أسماء علماء آخرين . أما الذي يفحص هذا الفصل فسيجد أن المؤلف اعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على ألبير كوني ، بل إنّه ترجم ترجمة كاملة كثيراً مما قاله كوني (Kuny, 1946) . وهناك ملاحظة هامة سبقت الإشارة إليها وهي أن (كوني) عندما كان يقارن بين المجموعة اللغوية السامية ومجموعة اللغات الهندية الأوروبية ، كان في ذهنه النظام الصوتي الذي اقترحه سابقوه لمجموعة اللغات الهندية الأوروبية . لكن العلماء الذين جاءوا بعد (كوني) اقترحوا تغييرات كثيرة على ذلك النظام(انظر قول (Lehmann, ms.) وقول (Bomhard, 1984) السابقين) فهناك من يرى أن ذلك النظام الصوتي يكاد يكون مطابقاً للنظام الصوتي للمجموعة السامية كما تمثلها اللغة العربية (Hooper, 1977) . كما أن هؤلاء الباحثين يرون تشابهاً ضئيلاً في الصرف (المورفولوجي) بين هذه المجموعات اللغوية . فكيف يحقّ للمؤلف ، إذن ، أن يأتي في سنة ١٩٨٠م ويقارن المجموعات الثلاث متخذاً النظام الصوتي الفونولوجي للغات الهندية الأوروبية الذي اعتمده (كوني) في مقارناته ؟ فالمقارنة لا تصحّ أبداً ما دام أن مميزات أحد النظامين المقارنين تختلف عمّا يراه العلماء اليوم . فلا بدّ للمقارنة بين هذه المجموعات الثلاث ، إذن ، أن يؤخذ النظام الصوتي الفونولوجي للمجموعة الهندية الأوروبية كما يراه العلماء اليوم ، لا كما كانوا يرونه قبل حوالي أربعين عاماً .

ويبدو أن السبب الذي أدّى بالمؤلف إلى متابعة كوني وبيدرسون وهرمان مولر ، أنه لم يقرأ ما كتبه الباحثون اللذين جاءوا من بعدهم . ونظرة واحدة إلى قائمة المراجع التي أوردها Bomhard في كتابه (Bomhard, 1984) وليمان (Lehmann, ms.) في مقالة تكفي لإقناع القارىء أن المؤلف ليس أول من كتب في هذا الموضوع بعد أولئك العلماء الأوائل ، بل أن هناك كثيراً من الباحثين اللذين كانوا يبحثون في هذا الموضوع ، والذين لم يورد المؤلف شيئاً من آرائهم ، وقد كان ذلك كفيل بتغيير كثير من المقارنات التي جاء بها .

ولا بدّ أن يكون القارىء قد لاحظ وجهاً من أوجه

الادّعـاء ، عند المؤلف . وذلـك في زعمه أنـه استطاع أن يذهب بالموضوع خـطوة أبعد ممّـا كان عليـه عند (كـوني وبيدرسون ومولر ومايبه) ، وأنه خرج « بنظرية » لها قوانينها ومقـدماتهـا ونتائجهـا بدلاً من أن يكـون الأمـر احتمـالاً أو ترجيحاً كما هو عنـد الآخرين ص ١٤٦ . بـل إنّه يتجـاوز ذلـك إلى القول بـأن مـا كتبـه أولئـك العلمـاء لم يكن إلاَّ « إرهاصاً » بالكشف الخطير الذي توصّل إليه ، بينما الواقع أنه لم يخرج إلَّا قليلاً عمّا أتوا به .

ولقد اعتمد أيضاً على شخص آخر في مقارناته ، وذلك هو Skeate في قاموسه التاريخي للغة الإنجليزية .

فمداخل المقارنات مأخوذة نصّاً من ذلك القاموس . ومن الطريف أنه لا يـذكر (كـوني) و (سكيت) إلَّا إذا اختلف معهما في الرأي ، أما في غير ذلك فهو ينقل ما عندهما دون ذكر لموضع الأخذ . ففي مداخل المقارنات تجد أنه يـذكر الأشكـال التي تأخـذها كلمـة ما في لغـات هنديـة أوروبية عديدة ، فتدهش في البداية لإلمامه بتلك اللغات ، لكنّـك سريعاً ما تجد أنه إنّما ينقل ما عند سكيت (قارن هـذا بما يفعله ـ Bomhard, 1984 ـ حيث ينسب الكلمات التي يأخذها لغرض المقارنة إلى المراجع التي وردت فيها) .

فالأساس النظري الذي أقـام عليه المؤلف هـذا الكتاب محـلّ شكّ كبيـر ، هذا أولاً ، وثـانيـاً ، أنّ هـذا الأسـاس النظري ليس إلَّا استعارة من الآخرين في أغلب الأحوال .

والكتاب مليء بالأمثلة التي تدلّ على أن محصلة المؤلف من المعرفة اللسانية هي دون المستوى الذي يتـطلبه عمـل مثل هذا . ولا بأس من إيراد بعض من تلك الأمثلة .

١ ـ من المـلاحظ أنه لم يـذكر في مقـارنـاتـه الشـروط الصوتية التي يتمّ فيها تغير صوت ما إلى صوت آخر . وهذا على النقيض ممّا نجده في الدراسات اللسانية التـاريخية . فقانون جريم مثلاً الذي تغير به بعض الأصوات الصامتة إلى أصوات أخرى في المجموعة اللغوية ما قبل الألمانية لم يتمّ بصورة عشوائية بل كان يحدث تحت شروط معيّنة . وعندما لم تتغير بعض تلك الأصوات في تلك المواضع المعينة أو أنها تغيرت إلى أصوات غير المتوقعة ، وجد العلماء أن ذلك لم يتمّ عشوائياً بل كان وراءه بعض الأسباب التي تمنع تلك التغيرات . أما في هذا الكتاب فـإن أي صوت يمكن أن يتغير إلى أي صوت آخر ، ويتمّ ذلك دون مراعاة لأية شروط صوتية . ومثل ذلك مـا نجده في ص ١٨٠ حيث يمكن أن تتحـول (الكـاف) إلى (ح) و (س) و (ش) و (ق) و (غ) و (ص) أو قد تبقى على حالها ، وغير ذلك كثير .

وإذا أطلق الإنسان العنان لخياله في مثل هذه الأمور فإنه لن يحدّ مقارناته أي شيء . بل قد يستطيع أن يجمع لغات العالم كلها في أصل واحد ، وأن يعيد كل الكلمات إلى كلمة واحدة .

٢ ـ أنه كثيراً ما يأتي ببعض القوانين الصوتية ويصفها بأنها من القوانين المألوفة ، أي التي وجـدت بالفعـل في بعض اللغات أو أنها محتملة الوجود صوتياً . ومن ذلك قوله ، ص ٣٣٧ : إن قلب النون ميماً قبل التاء قانون صوتي مألوف . لكن المعروف في لغات عديدة هو وجود النون قبل التاء ، إذا كانا في مقطع واحد ، ويكاد وجود الميم في هذا الموضـع يكون معدوماً بل ان الميم كثيراً ما تنقلب إلى نون في هذا الموضع . ففي بعض اللهجات السعودية ينقلب الميم إلى نون إذا جاء بعده دالاً (وهـو نظيـر التاء لا يختلف عنـه إلاّ في الجهر) ، فيقال : (حنذان) بدلاً من (حمدان) و (الحند لله) بدلاً من (الحمد لله) .

٣ ـ يأتي ، أحياناً ، بتفسيرات كان يمكنه أن يتحقق من خطئها بالرجوع إلى مراجع متوفرة وفي متناول اليد . فهو يرى مثلاً أن طريقة الكتابة الانجليزية لأصوات مثل الشين والخاء والثـاء والـذال (أي Sh ، kh ، th) تـدلّ على أن هـذه الأصوات مركبة من صوتين ، ثانيهما الهاء ، فالشين ، مثلاً ، تتكون من صوتين هما السين والهاء ، فإذا نطقتا مع بعضهما كانت النتيجة صوت الشين (ص ١١٧) وكذلـك بالنسبـة للأصوات الأخرى . أما أن الهجاء الانجليزي ليس دليلاً على أن الشين مـركّب من س + هـ فواضـح من تاريـخ الهجـاء الانجليزي نفسه . فكتابة الشين على هذه الصورة تعود إلى فترة الانجليز الـرومان Anglo- Roman، وقـد كان الصـوت الأساس الذي تـطور عنه هـذا الصوت مكـوّن من صوتين متتابعين هما sk وكانا يكتبان sc . لكن التغيّر الصوتي الذي طرأ على هذا التتابع كان السبب في كتابته بصورة مختلفة . وكـان سبب هذا التغيـر ما يعـرف في الصوتيـات بالتغـويـر Palatalization وهو أن يتقدم الصـوت من موضعـه في آخر

سقف الفم إلى موضع متقدم . وقد كان الصوت المغوّر الذي نتج عن تقدّم sk من موضعه الأساس وخاصة إذا جاءت بعده إحدى الحركات الأمامية مثل الكسرة والياء والفتحة المرقّقة أن كتب بصورة مختلفة مثل sch ، ss ، s ثمّ كتب sh فيما بعد (Penzi, 1969: 16), (Pyles, 1971: 67) .

٤ ـ إن معالجته للموضوع مليئة بالتكرار والاضطراب . فقد يناقش لفظاً معيّناً ثمّ يقترح التغيرات الصوتية التي كانت وراء تطوره ، ثم يعود إلى هذا اللفظ في موضع آخر وقد يأتي بتحليل يختلف عمّا سبق للفظ نفسه . ففي ص ١٧٦ يقول : « والأرجح أن جذر « صرخ » هو جذر « صاح » ، والتحوّل المورفولوجي جاء بتخفيف واو العلة في « صو » إلى « را » (« صر ») » .

أما في ص ٣٥٥ فيقول: « إن « صاح » صفة من صرخ بتخفيف الراء والمدّ مكانها » . فأيهما نأخذ : أكان الجذر « صر » فتحوّل إلى « صو » أم كان « صو » فتحوّل إلى « صر » ؟

وكذلك عند كلامه عن اسم « مكّة » ، ففي ص ٣٠ يقول إنها كانت تسمّى « ملكاي » وهي صيغة مجزوءة من « ما هلك » « الحامية » الافتراضية التي خرجت من جذر بعل بمعنى رب أو ملك . أما في ص ٣٥ فإن اسم مكة مأخوذ من اسم الأقوام التي سكنتها وهم العماليق ، فـ « ملكاي » تعني « موطن أماليك » . أما كلمة « أماليك » فيقول ص ٢٧١ إن فيها عناصر صوتية من كلمة « عمو » (وهم أقوام ذكروا بهذا الإسم في الوثائق المصرية القديمة) .

فهل اسم مكّة مأخوذ من كلمة تعني « رب » أم انها مأخوذة من اسم أولئك الأقوام ؟ (انظر كذلك تحليله لكلمة « سماء » ص ص ٥٧١ ـ ٥٧٢ ، وكذلك في ص ١١٧) .

٥ ـ وفي بعض الأحيان يورد جذراً معيّناً ويقول إنه وراء كلمة معينة ثم يأتي في موضع آخر ويقول إن تلك الكلمة خرجت من جذر كذا ، بالرغم من أنه يختلف عن الجذر الذي اقترحه سابقاً . ومثل ذلك كلمة « خط » في العربية ، ففي ص ١٦١ يقول إن أساس هذه الكلمة هو الكلمة المصرية ḥt ، أما في ص ٢٩٢ فجذر هذه الكلمة šs .

٦ ـ وبما أن طريقته في تتبع لفظ معيّن تسمح له باحتمالات عديدة لتفسير لفظة معينة ، فإنه يورد احتمالات عديدة لتفسير بعض الألفاظ . ومن ذلك تحليله لكلمتي « نجم » و « نجف » ص ٥٧٣ ، فهناك احتمالات ثلاثة :

أ ـ أن يكون هناك جذر واحد وهو NGW حيث تفرعت « نجم » على الطريقة الآتية :

NGM<NGB<NGV<NGW أما « نجف » فتطورت كالآتي : NGF<NGV<NGW .

ب ـ الاحتمال الثاني هو أن يكون الجذر المشترك لهما NGP حيث تطورت (P) إلى (F) في « نجف » بينما تطورت إلى NGB ثم إلى NGM في « نجم » .

على أنه يقول بإمكانية وجود جذر مشترك واحد لهما هو NG أو NJ أما الميم في « نجم » والفاء في « نجف » فهما علامتا الإفراد والجمع على التوالي .

ج ـ الاحتمال الثالث يحتاج إلى « تأمل حقيقي » ص ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦ ، وهو أن يكون جذر « نجم » ونجف GUW بمعنى « سماء » مضافاً إليه فونيماً أو أكثر للدلالة على النجمية .

وزيادة على عدم القرار على احتمال معيّن هنا ، فإنه كثيراً ما يتوقف عن إعطاء حكم فيكتفي بالقول « والأمر في تقديري بحاجة إلى مزيد من التحقيق » ص ٥٧٩ ، أو « أما مواد بعير وقلوص وعيسى فتحتاج إلى بحث » ص ٤٤٨ . وغير ذلك كثير . فأين هي « النظرية ذات القوانين » ، إذن ؟

العلاقة بين اللغة والعرق

يربط المؤلف بين اللغة والسلالة البشرية ربطاً قوياً . فمن أدلته على هذه العلاقة القوية أن المصريين عندما اكتسبوا اللغة العربية قلبوا صوت (السين) (حاءً) في مثل أداة الاستقبال (سوف) حيث قلبت إلى (ح) فيقول المصري (حاكتب) أي (سوف أكتب) . ويرجع المؤلف هذه الحقيقة إلى أن المصريين يختلفون من ناحية السلالة عن العرب مما يتبعه اختلاف التركيب العضوي لأجهزة النطق عند السلالتين (ص ص ١١٧ ـ ١٢١) . ومن الأدلة الأخرى التي جاء بها ، صعوبة نطق الأوروبي لصوت (الحاء) ، فبدلاً من نطق ذلك الصوت في كلمة (محمد) ينطق الأوروبي خاءاً أو هاءاً ، وذلك في نظر المؤلف راجع إلى اختلاف الأوروبي عن المصري أو العربي « اختلافاً جسمانياً في شكل الحلق

والحلقوم والحبال الصوتية » . ص ١١٧ . كما أنه يعتقد أن الاختلافات الصوتية الموجودة في داخل اللغة لا بد أن تكون نتيجة لتراكم الطبقات السلالية في المجتمع الواحد .

وعلى الرغم من حيرته التي عبّر عنها في ص ١١٨ حول منشأ هذه الاختلافات حيث يوجد مثيل لها فيما يظنّ أنه سلالة واحدة كالمصريين ، فقد ذهب يستشهد في ص ١١٨ بألبير دوزا في كتابة لغات أوروبا (١٩٥٣) لتأكيد العلاقة بين الظواهر الصوتية والعرق ، لكن تفسير المؤلف لكلام ألبير دوزا غير صحيح . فلم يقصد دوزا الربط بين العرق واللغة أبداً ، بل إن في كتابه ذلك (طبعة ١٩٤٦ م ، ص ١٦) فصلاً بعنوان : «La Langue n'est donc pas le symbole de la race» وترجمته « ليست اللغة رمزاً للعرق » .

إلّا أن المؤلف يرجع إلى تحديد موقفه صراحة ، فيقول : « ومن أجل هذا يجب عند تفسير تقابل « س » السامية (العربية) و « ح » الحامية (المصرية) ومعهما « ش » الشامية (العبرية والآشورية) أن يسند هذا التفسير إلى ما تقوله الانثروبولوجيا في اختلاف أجناس العرب والمصريين والشاميين . . . » ص ١١٩ .

وفي موضع آخر يوضح هذا الموقف أكثر حيث يناقش تقسيم التوراة للسلالات البشرية وردهم إلى أبناء نوح عليه السلام حام وسام ويافث ويعبر عن اطمئنانه لهذا التقسيم ، فيقول : « ثم نجد تأكيداً لتقسيم التوراة في علم اللغة وعلم الأجناس حين يقول لنا علماء اللغة وعلماء الأجناس إن العرب ساميون ولغتهم سامية ، وإن المصريين حاميون ولغتهم حامية » ص ١١٥ .

ومن الملاحظ أنه لم يوضّح من هم علماء اللغة وعلماء الأجناس الذين اعتمد عليهم والقائلين بهذه المقولة . لكن القارىء يجد أن المؤلف يناقض نفسه حين يذكر أن بعض العلماء لا يقرنون بين الجنس واللغة ومن هؤلاء لويس جراي وهيرتزفيلد ص ١١٥ ، كما أنه ذكر أن ماكس مولر لا يربط بين الأمرين ص ١٠٣ ، وكذلك في ص ١١٠ حيث يذكر أن آرثر كيث وهو الذي يرى أن التطابق بين التوزيع السلالي والتوزيع اللغوي بين البشر هو السمة العامة للمجتمع الإنساني لم يرادف « تماماً بين الجنس واللغة ، فهو حين يتحدث عن العرب مثلاً يصفهم بأنهم أقوام قوقازية تتكلّم لغات سامية » .

وقبل مناقشة هذا الموضوع ، يجب أن يشار إلى أن نطق المصريين أداة الاستقبال « حاءاً » لم يكن بسبب اختلافهم السلالي عن العرب ، كما أن هذه « الحاء » ليست من الفعل المساعد « راح » وهو الاحتمال البديل الذي يورده المؤلف لتفسير نطق (السين) « حاءً » .

فمن المعروف أن اللهجات العربية عموماً تستخدم أفعالاً مساعدة للدلالة على الاستقبال ، ففي اللهجات السعودية هناك فعلان مساعدان هما (أبغي) و (أبي) وهما بمعنى (أريد) أو (سوف) ، فيقال (أبغي أروح) أو (أبي أنام) أي (أريد أن أذهب) و (أريد أن أنام) . لكن هذين الفعلين المساعدين قد يحذف بعض حروفهما وخاصة الفعل المساعد (أبي) ، فيقال « أبنام » أي (أريد أن أنام) وكذا (في بتنام ؟) .

وكذلك في بعض اللهجات الأخرى حيث يحذف معظم أصوات كلمة « تريد » ويبقى منها على التاء فقط فيقال : « تتنام ؟ » أي « أتريد أن تنام ؟ » . كما أن هذه اللهجات تستعمل صيغة اسم الفاعل أحياناً لصرف الفعل المضارع إلى المستقبل فيقال « باغ أروح » أي « سوف أذهب » أو « أريد أن أذهب » وقد يكتفى بالباء في بعض اللهجات العربية في سوريا وفلسطين .

أما في اللهجة العربية المصرية فيستعمل اسم الفاعل « رايح » « فالحاء» التي تدل على الاستقبال جاءت من اسم الفاعل « رايح » وليست من « راح » تلك التي يوردها المؤلف كاحتمال ضعيف لتكون أساساً خرجت منه « الحاء » هذه ، ويرى استحالة هذا الاحتمال لأن « راح » تدل على الماضي . فما حدث في اللهجة العربية المصرية يشابه ما حدث في اللهجات العربية الأخرى فقد حذفت بداية هذا الفعل المساعد وأبقي على « الحاء » .

كما أن اللهجات العربية ليست الوحيدة التي تجزأ فيها الأفعال المساعدة ، ففي اللغة الانجليزية مثلاً لا يبقى من الفعل is إلّا s ومن has إلّا s ومن will ، و shall إلّا ll ، ومن have إلّا ve ، ومن could إلّا d إلى آخر ذلك .

فليس في نطق أداة الاستقبال في اللهجة العربية المصرية « حاءً » أي دليل على أن ذلك حدث نتيجة لاختلاف الجهاز العضوي لدى المصريين عنه عند العرب . ويصدق هذا على

الأمثلة التي أوردها في ص ص ١١٩ ـ ١٢١ .

وتقود المناقشة السابقة إلى مناقشة اختلاف الأوروبي في نطقه (للحاء) عن العربي أو المصري . فليس هناك دليل البتّة على أن وراء هذا الاختلاف الصوتي اختلاف عضوي .

أما مصدر هذا الاختلاف فلا يمكن توضيحه إلاّ بمناقشة مسألة اكتساب اللغة عند الإنسان . فكما يعرف طلاب اللسانيات ، فإن هناك فترة محدودة لاكتساب اللغة الأم يحددها بعضهم بسنّ الرابعة عشر .

فالطفل الإنساني في هذه الفترة يستطيع اكتساب أية لغة يوجد بين متكلميها ويتبع من ذلك أنه سيتكلمها بشكل لا يختلف عن من يحيطون به ، كما أن الطفل الإنساني في هذه الفترة يستطيع اكتساب أكثر من لغة إذا حدث أن وجد في المجتمع المحيط به أكثر من لغة . أما إذا تجاوز هذه السنّ فحتى لو اكتسب كل الخصائص اللغوية فإنه ستبقى عليه مسحة تدل على أنه يتكلم هذه اللغة بطريقة تختلف عن الذين اكتسبوها قبل هذه السنّ .

فمن الطبيعي ألاّ يستطيع الأوروبي الذي تجاوز تلك السن نطق « الحاء » فهو لم يكتسبه في السن المحددة ، أما لو اكتسب ذلك الأوروبي العربية في صغره فإنه سينطق الحاء وغيرها . من أشهر الأمثلة على هذا أن وزير الخارجية الأمريكي الأسبق كيسنجر ومستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق برجنسكي ينطقان اللغة الإنجليزية الأمريكية بلكنة ألمانية بالنسبة للأول وبولندية بالنسبة للأخير على الرغم من تمكنهما من اللغة الإنجليزية تمكناً لا يشك فيه أحد . وهذا المثال يمكن أن يؤخذ كدليل واضح على عدم الصلة بين العرق واللغة ، فكيسنجر ألماني ويتكلم الألمانية كلغة أم وهي من نفس العائلة الهندية الأوروبية التي تنتمي لها الإنجليزية ، بل هي من العائلة الجرمانية التي تفرعت هي والإنجليزية منها . لكن المؤلف قد يقول إن كيسنجر سامي الأصل لأنه يهودي فلذلك لا يستطيع نطق الإنجليزية كما ينطقها الألمان الآخرون ، وللرد على هذا ، يمكن أن يستشهد بنطق كيسنجر للألمانية حيث لم تمنعه يهوديته من نطقها نطقاً لا يختلف عن الألمان ، كما أن اليهود المولودين في أمريكا يتكلمون الإنجليزية بلهجتها الأمريكية لا فرق بينهم وبين الأجناس الأخرى . والمجتمع الأمريكي دليل قوي على عدم التلازم بين العرق واللغة . فعلى الرغم من تعدّد الأجناس ، فإن الجيل الثاني من المهاجرين إلى أمريكا يتكلمون اللغة الإنجليزية باللهجة الأمريكية (ومن الطبيعي أن هناك عدداً من اللهجات الأمريكية بحسب اختلاف المناطق والبيئات الاجتماعية ، لكن الموجودين في منطقة معينة يتكلمون جميعاً لهجة واحدة مهما اختلفت الأعراق) . فالعربي والصيني واليهودي والأفريقي والهندي الأحمر والهندي والفارسي والروسي والألماني والبولندي والفيتنامي وغيرهم من الأجناس في أمريكا لم تمنعهم موانع عضوية من اكتساب اللغة الإنجليزية وتكلمها كلغة أصلية . وللاطلاع على العوامل المعقدة التي تدخل في اكتساب اللغة يحسن بالقارىء الرجوع إلى (Liberman, 1984) .

ثم إن الأوروبي هذا الذي لا يستطيع نطق (الحاء) هو من أصول قوقازية ، والعرب والمصريون في رأي المؤلف قوقازيون أيضاً . فكيف استطاع المصريون والعرب المحافظة على هذه الأصوات بينما فقدها الأوروبي ؟ أيرجع ذلك إلى أن الأوروبي تطورت أجهزة النطق عنده بينما بقيت على حالها عند المصريين والعرب ؟ أم أن السبب يرجع إلى أن الأوروبي فقد هذا الصوت نتيجة لاختلاط أسلافه بلغات ليس فيها ذلك الصوت ؟ فإذا كان السبب هو الأول فعلى المؤلف إقامة الدليل ، وإذا كان السبب هو الثاني فهو دليل كاف على أن عدم نطق الأوروبي (للحاء) كان لأسباب غير عضوية .

وإذا كان المصريون والعرب يرجعون إلى أصول قوقازية ، فكيف يحق للمؤلف أن يقسمهم إلى سلالتين؟

أما الاختلافات داخل اللغة فليست دليلاً على تراكم السلالات ، فهي لا تزيد على ما يحدث للغة عندما يطرأ تغيير معين في إحدى لهجاتها نتيجة لعوامل عديدة قد يكون أهمها أن ذلك التغير الذي دخلها كان نتيجة للاستعارة من لغة أخرى أو لهجة معينة . ومن ثم تقود إلى تغير في النظام الصوتي في داخل اللغة نتيجة لانتشار هذا التغير إلى كلمات أخرى ، مما يتبعه في النهاية نشوء صفات جديدة تختلف عن الصفات الموجودة في اللهجات الأخرى والمنتمية إلى الأصل الواحد .

وبعد ذلك كله ، فقد ثبت أن كل فرد من أفراد أية مجموعة لغوية يتميز عن غيره صوتياً نتيجة لعوامل عديدة ومنها

الاختلاف العضوي في بعض تفصيلات الجهاز النطقي . بل ان الفرد الواحد لا يستطيع نطق صوت معين أو كلمة معينة مرتين متتاليتين بصورة واحدة . فهل يريد المؤلف أن يقول إن كل فرد يكوّن سلالة واحدة ؟ أو أن الفرد يكوّن سلالات مختلفة نتيجة لنطقه لصوت معين نطقاً يختلف كل مرة ؟ بل ما رأيه في الاختلافات بين المرأة والرجل في جهاز النطق مما يتبعه الاختلافات الصوتية بينهما ؟ أيريد أن يقول إن الأخت وأخاها ينتسبان إلى سلالتين مختلفتين نتيجة لاختلافهما الصوتي ؟

أما هذه الاختلافات فإنها موجودة في اللغات كلها وأسبابها معقدة وكثيرة ويحسن بالقارىء أن يرجع إلى مجموعة الأبحاث التي حرّرها وقدم لها Peter F. MacNeilage في جامعة تكساس في أوستن (MacNeilage, 1983) .

وعدم الربط بين التركيب العضوي لجهاز النطق وبين اللغة المعينة التي يتكلمها الإنسان ، أمر مشهور جداً في الدراسات اللسانية ، حتى انه أصبح من بديهيات العلم التي لا تذكر في كثير مما يكتب في الموضوع . على أن هناك من يشير إلى هذا الأمر، فهذا بلومفيلد يقول (Bloomfield, 1933: 43) : « ومهما كانت الاختلافات الموروثة التي قد تكون في تركيب الحنجرة والفم والشفتين وغيرها ، فإن الثابت أن هذه الاختلافات لا تؤثر أبداً في اللغة . فالطفل يتعلم أن يتكلم اللغة بصورة لا تختلف عن لغة المحيطين به » . وهذا جون ليونز يقول (Lyons, 1972: 11) : « ليس هناك علاقة لازمة بين العرق، واللغة فأي طفل طبيعي سيكتسب لغة المجموعة اللغوية التي ينشأ فيها بغض النظر عن خصائصه الوراثية أو العرقية » . ولقد أتيح لي قريباً أن أناقش هذا الأمر مع أستاذة في قسم اللسانيات بجامعة تكساس بأمريكا وهي مولودة لأب لبناني وأم فلسطينية . وبالرغم من أن أبويها يستطيعان نطق الحاء مثلاً نطقاً لا يتميز عن بقية العرب ، إلاّ أن هذه الاستاذة لا تستطيع نطقه بل لا تستطيع التفريق بينه وبين الهاء عندما ينطقان لها ، مع العلم أنها درست اللغة العربية لمدة طويلة وعاشت في لبنان ومصر طويلاً بالإضافة إلى أنها درست اللسانيات ومن ضمنها الأصوات ، فهي ليست شخصاً عادياً . ولقد قصت علي تجربة مرت بها في هذا الشأن ، وذلك أنها كانت تعمل بحثاً عن اكتساب الأطفال للّغة ، وقد بدأت بطفل عربي عمره أربع سنوات ، يدرس أبوه في الجامعة نفسها . وفي أحد الأيام سألت الطفل عن اسمه ، فأجابها : همد . فقبلت إجابته على أنها النطق الصحيح لاسمه ، حمد . لكن أمه ، وكانت حاضرة ، قالت لها : هل سمعت الصوت الذي قال ، قالت هذه الأستاذة : نعم (وكانت تقصد أن الطفل نطق حاءً) فقالت أمه : إنه لم ينطق ذلك الصوت ، لكن دعيني أسأله . فعندما سألته أمه عن اسمه قال لها : حمد . فعند ذلك تدخلت الأستاذة وقالت إن نطقه هذا لا يختلف عن نطقه السابق . وهذا دليل على أنها لا تستطيع التفريق بين هذين الصوتين . أما ذلك الطفل العربي فإلى جانب قدرته على نطق الحاء (وذلك يرجع إلى أنه لم يتأثر كثيراً باللغة الإنجليزية) فقد أبدى قدرة على تمييز المواقف التي يجب أن يستخدم فيها الحاء وتلك التي تستخدم فيها الهاء . فهو ينطق الحاء إذا كان المتحدث إليه عربياً ، أما الهاء فيستخدمها عندما يتكلم إلى شخص يغلب على ظنه أنه غير عربي .

فالأستاذة هذه لا تستطيع نطق الحاء ولا التفريق بينه وبين الهاء مع أنه لم يمض على وجود عائلتها في أمريكا أكثر من جيل واحد ، فأين أثر التركيب العضوي يا ترى ؟

الصلة بين الانثربولوجيا الاجتماعية والعرق

يقول المؤلف ص ١٢٤ : « وكل مسح اثنولوجي لمصر والمصريين الناطقين بالعربية يوضح أنهم ينتمون أساساً إلى مجموعات أثنولوجية مختلفة عن المجموعة العربية بالإضافة إلى اختلافهم السلالي عن العرب » كما يقول : « ورغم تعدّد الأجناس التي خالطت المصريين عبر ألفي عام بالفتح والهجرة والزواج مما ترتّب عليه تأثر السلالة المصرية في مناطق متناثرة من مصر ، فإن استمرار هذه المعتقدات والطقوس عبر ألفي عام على الأقل يثبت أن التأثر السلالي والثقافي كان سطحياً على المستوى الشعبي في مجال الطقوس والتقاليد والمعتقدات الفلكلورية ، بحيث ذاب الأثر الوافد في جسم الشعب ووجدانه وكأنه قطرة في محيط » ص ١٢٣ ، وهو يورد بعض تلك الطقوس والتقاليد والمعتقدات الفلكلورية ومنها ما يرويه عن صحفي مصري أنه شاهد أهل

قريته يضعون في قبر الميت قلة ماء ورغيفاً ، كما كان يفعل الفراعنة .

ولا شك أن استمرار العادات والتقاليد والشعائر مدة طويلة من الزمن أمر محتمل ، لكن هذا لا يعني أن الناس الذين يحافظون عليها اليوم ينتسبون كلهم أو أغلبهم إلى سلالة واحدة . وقد يكون وراء استمرار هذه التقاليد في مصر أمور أخرى مثل التغير الضئيل الذي حدث في الحضارة المادية كبقاء معظم السكان فلاحين يتوارثون المهنة نفسها ومعها التقاليد . ثم إنه لا بد للمؤلف أن يثبت بالدليل أن سكان مصر اليوم ليس في دمائهم إلاَّ قطرات ضئيلة من الأجناس الأخرى. أما اكتساب التقاليد الجديدة فهو أمر لا يجادل فيه أحد بل إن المؤلف نفسه يورد مثالاً على إمكانية التغير فيقول ص ٢٩ : « وقد غيرت الروح البروسية الشخصية الألمانية السائدة حتى عصر جوته وبيتهوفن رغم أن بروسيا لم تكن جرمانية بالمعنى الأصلي » . فأين الارتباط بين الانثروبولوجيا الاجتماعية والعرق ؟

كما يوحي المؤلف في كلامه الذي ورد في ص ١٢٣ بأن المصريين القدماء كانوا ينتمون قبل ألفي عام إلى سلالة واحدة صافية ، لكنه لم يناقش هذه المسألة . أما الذي عليه الباحثون فهو أن النقاء العرقي لم يكن موجوداً في مصر حتى في زمن الفراعنة . يحسن بالقارىء الذي يريد التوسع الرجوع إلى مقالة (MacGaffy, 1966) وإلى مقالة (Sanders, 1969) وكذلك ص ص ٥٣ ـ ٦٤ في كتاب (Arnett, 1982) حيث يناقش مسألة أصل الأسرات المصرية القديمة الحاكمة .

مسألة الأجناس البشرية

لقد ازدهرت الأبحاث التي تقصد إلى تصنيف البشر إلى أجناس متميزة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ازدهاراً لا مثيل له . ولقد كان أحد الأسباب لهذا الازدهار الجو الفكري العام الذي سيطر على أوروبا وأمريكا في تلك الفترة . فمن ناحية ، رأى الرجل الأبيض كيف استطاع أن يسيطر على رقعة واسعة من الأرض وأن يجعل كافة البشر تابعين له فدخل في روعه أن هذا لم يأت إلاَّ لتفوقه في القدرات والذكاء النابعين من خصائص معينة خاصة به كجنس بشري . كما أن الصراع حول تحرير الأرقاء في أمريكا كان وراء ذلك التصنيف ، فمن أجل أن يبرر مناصرو بقاء الرق موقفهم لجئوا إلى العلم كي يثبتوا أن استرقاق السود أمر طبيعي ، حيث يختلفون كجنس بشري عن الرجل الأبيض اختلافاً كبيراً .

ولقد تخفت الدراسات حول تحديد الأجناس البشرية تحت مسوح العام ، فأخذ الباحثون يقيسون جماجم البشر في كل أنحاء الدنيا ويقارنون بينها ثم يستخلصون تفوق الجنس الآري الأبيض على غيره . بل ذهبوا إلى قياس الذكاء فقياس الجمجمة يدل على مقدار الذكاء الذي تتمتع به تلك الشخصية ، وكذلك أخذوا يقيسون الشخصية السيكولوجية . . . إلى غير ذلك .

ومع تغير الجو الفكري في أوروبا وأمريكا بدأ العلماء ينظرون إلى هذا الموضوع نظرة موضوعية مجردة . فلقد بدأ الباحثون يراجعون الأبحاث التي كتبت حول هذا الموضوع ، فكان أن وجدوا أن كثيراً من تلك الأبحاث لم تكن علمية محضة ، بل إن التلاعب بالأدلة كان القاسم المشترك بينها . فلقد كان أكثر أولئك الباحثين يكتفون بعينات قليلة ثم يعمّمون ما توصلوا إليه . بل إن بعضهم كان يخفي الأدلة المناقضة لما توصل إليه .

وإذا أراد القارىء أن يطلع على مدى التلاعب المدفوع بالعنصرية في تلك الدراسات فعليه الرجوع إلى مقالة (MacGaffy, 1966) ومقالة (Sanders, 1969) . وكذلك مقالة (Comas, 1962) بالإضافة إلى التعليق الهام الذي كتبه (Michalski, 1962) على تلك المقالة .

وهناك كتاب جيد يتطرق إلى هذا الموضوع ويلخص أهم الأبحاث التي كتبت ويناقشها ويبين ما فيها من الاستخفاف بالمثل العلمية في تلك الفترة (Gould, 1981) ، وإلى جانب هذا (Comas et al., 1961) .

أما ما يقوله العلماء اليوم فيلخصه القول الآتي (MacGaffy, 1966: 1) :

« أما موضوع تاريخ الأجناس فقد أهمله الأنثروبولوجيون إلى حد قد يكون تاماً . . . . وانسحاب الانثروبولوجيين من هذا كان وراءه التطورات الجديدة في دراسة الأجناس منذ الثلاثينات من هذا القرن ، فقد أدت هذه التطورات إلى

الشك في المعطيات السابقة Early assumptions فيما يخص ما يميز الأجناس ، وطرق تمييزها والعلاقة بين الجنس والحضارة » .

كما أن بعض الباحثين يشك في وجود أجناس بشرية متميزة إطلاقاً ، وهذا ما يقوله (Livingstone, 1962: 279) : « وقد وجد في بعض الأحيان أن كثيراً من المميزات التي كان يظن أنها عرقية يلجأ الذين يفسرونها عرقياً إلى اقتراح هجرات طويلة (بين تلك الأماكن) . وبهذه الطريقة استخدمت العرقية أو وحدة الأصول والهجرة لتفسير أكثر التنوعات السلالية بين المجموعات البشرية . لكن هذه التفسيرات ، مع الأسف ، لا تتفق مع ما نعرفه عن تركيب المجموعات البشرية ولا تتفق مع تحركات مجتمعات الصيد أو جامعي الطعام ، كما أنها لا تأخذ في الحسبان السبب الرئيس للتنوعات البيولوجية وهو الانتقاء الطبيعي Natural selection» .

فأين المؤلف من كل هذا ؟ يبدو أنه لم يقرأ ما كتب عن هذه المسألة في النصف الأخير من هذا القرن ، بل توقف في قراءاته عند تلك الفترة التي يشك الباحثون اليوم حتى في نواياها . فلذلك ، مهما حاول المؤلف في عزل المصريين عن العرب سلالياً ، فإنه لن يجد دليلاً كافياً .

ومن العجيب أن المؤلف يشن هجوماً عنيفاً على العرب ويتهمهم بالعرقية لأنهم ، كما يقول ، كانوا يؤمنون بصفائهم العرقي . ويشن حملة مشابهة على الأوروبيين للسبب نفسه . أما إذا جاء الأمر للمصريين القدماء فهو يؤمن بالصفاء العرقي إيماناً كاملاً إلى حد يقول عنده : « ونحن نعرف أن الشعوب قد تغيرت لغاتها من عصر إلى عصر دون أن يتغير عنصرها . فالمصري مصري مهما تكلم المصرية القديمة أو القبطية أو العربية . . . » ص ١٤٢ .

لكن القارىء لا بد أن يتساءل عن الأسباب التي أدت بالمؤلف إلى تبني هذا الموقف . أما إذا أحسن الظن فإن مرد ذلك ليس إلا عدم متابعته للموضوع وتوقفه في القراءة عندما كتب في فترة كانت العنصرية فيها وراء كثير مما كتب عن الموضوع . أما إذا أسيء الظن فإن موقفه لم يقم على قناعة علمية بما كتب وإنما كان منطلقاً من موقف فكري وحضاري جاهز أدى به إلى اختيار ما يشاء من الأدلة ونبذ الأدلة التي تتبنى الموقف الآخر . وربما وجد القارىء أن الرأي الأخير أقرب ما يكون لتفسير ما في الكتاب من شطط .

هل يصلح الدكتور لويس عوض أن يكون مؤرخاً

مما يلفت النظر في كتاب الدكتور لويس عوض أنه يذكر عدة تواريخ لحادثة واحدة . ولقد كان من الجدير بمؤلف يريد أن يثبت قدرته على البحث أن يأخذ تلك التواريخ المختلفة ويعالج مصدر الخلاف بينها ويناقش أدلة المصادر التي أتت بتلك التواريخ .

ومن الأمثلة على هذا ، تاريخ إخراج الإسرائيليين من مصر . ففي ص ٦ لا يذكر السنة التي أخرجوا فيها بل يذكر أن ذلك تم في مدة حكم «منفتاح» أو «مرنبتاح» الذي حكم بين (١٢٣٢ ـ ١٢٢٤ ق . م) أما في ص ٢٠ فيذكر أن إخراجهم تم في ١٢٣٠ ق . م على يدي «منفتاح» غير أنه يذكر في ص ١٣ أن طرد الإسرائيليين تم على يدي «مرنبتاح» الذي حكم بين (١٢٣٥ ـ ١٢٢٤ق . م) فهنا يختلف تاريخ بدء حكمه عن التاريخ الذي ذكره في ص ٦ . ويعود إلى الحديث عن طرد الإسرائيليين في ص ١٧ حيث يذكر أن «منفتاح» طرد الإسرائيليين جملة من أرض مصر بين ١٢٢٣ و ١٢١٥ ق . م . بحسب تقديرات بيير مونييه .

ويتجاوز الأمر الاختلاف في تاريخ طرد الإسرائيليين من مصر إلى الاختلاف حول اسم الفرعون المصري الذي طردهم ، فاسم ذلك الفرعون في الصفحات المشار إليها آنفاً هو «منفتاح» أو «مرنبتاح» أما في ص ٢١ فهو إما «حور محب» أو «رمسيس الثاني» أو «منفتاح» .

وهناك تواريخ أخرى يذكرها لحدث ما لكنه لا يلاحظ الاختلاف بينها . ففي ص ٦ يشير إلى أن المصريين عرفوا الهكسوس بين ١٧٣٠ و ١٥٨٠ ق . م ، مما يشير إلى أن طرد الهكسوس من مصر كان في (١٥٨٠ ق . م) ، لكنه في ص ١٢ يقول إن طرد الهكسوس من مصر كان (نحو ١٥٦٧ ق . م) .

ويشير في ص ٦ إلى أن المصريين عرفوا الميتاني بين (١٤٥٠ ـ ١٣٣٥ ق . م) أما في ص ٢٣ فيذكر الصراع بين الميتاني والمصريين ويذكر أنه تم بين (١٤٥٠ ـ ١٣٦٢ ق . م) وكذلك يشير في ص ٦ إلى أن المصريين

عرفوا الحيثيين بين (١٥٠٥ ـ ١٢٧٩ ق.م) لكنه يذكر تاريخاً آخر في ص ٢٣ وهو (١٥٥٥ ـ ١٢٧٩ ق.م) .

والمعروف أن كل هذه التواريخ تقريبية ، لكن المؤرخ لا بد له من ذكر هذه الاختلافات في مكان واحد ويناقشها ويرجح بينها . ومما يشير إلى قلة خبرته في البحث التاريخي خروجه عن الموضوع . ففي بداية الكتاب يتحدث عن العرب في التاريخ وأنه لم يكن لهم ذكر في تاريخ مصر القديمة لكنه سرعان ما يترك هذا الموضوع ويبدأ في تاريخ الصراع بين الإسرائيليين والمصريين أو بين الهكسوس والمصريين، ص ص ٩ ـ ٢٢ . ثم يعود إلى تاريخ العرب في ص ٢٣ . ولقد كانت معالجته لتاريخ مصر في تلك الصفحات مناقشة بعيدة عن التركيز والوضوح والموضوعية .

كما يذكر في ص ٢٥ أن العرب احتلوا الحجاز « في زمن ماتالٍ للقرن السابع ق.م » بينما يقول في ص ٤١ أنهم جاءوا إلى الحجاز نحو ١٠٠٠ق.م فأي التواريخ نصدق ؟

وكذلك قوله في ص ١٠٧ ان ظهور الزراعة في مصر يرجع غالباً إلى الألف العشرة (ق.م) لكنه في ص ١١٠ يذكر رأي آرثر كيث في أن نشأة الزراعة لا تتجاوز ٦٠٠٠ ق.م . ولا يبدو أن الفرق بين تقديره وتقدير آرثر كيث قد أهمه ، فقد كان يجب أن يعطي الأدلة على تقديره هو وألا يلجأ إلى التخرصات كما في ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨ حيث يعلل نشوء الزراعة في مصر في ذلك العهد المتقدم بأن « مصر مرت بدورات حضارية عديدة قبل عصر الأسرات بنظامه السياسي المركزي المتقدم وبكتابته الهيروغليفية الكاملة الخط وبديانته الراقية في الميتافيزيقا والأخلاق والشعائر ، وبتعداده الكثيف الذي نستخلصه من حالة العمالة في بناء الأهرام بشهادة المؤرخين » .

ومن أطرف الأشياء حديثه عن بني إسرائيل ، ففي ص ١٧ يذكر أن « بني إسرائيل لم يكونوا من الهكسوس وإنما كانوا قبائل مسالمة متسللة من شرق سيناء لجأت إلى مصر أيام حكم الهكسوس لمصر وعاشت في كنفهم وفي خدمتهم في شرق الدلتا ، ولم يكن ذلك في أول غزو الهكسوس لمصر وإنما كان بعد أن استقر ملكهم وحلوا محل الفراعنة في حكم مصر واتخذوا ألقاب الفراعنة » . كما أنه في الصفحة نفسها يقول إن دخول بني إسرائيل مصر كان نحو ١٦٥٠ ق.م وأنهم لم يرحلوا عن مصر مع الهكسوس المطرودين ١٥٦٧ ق.م .

وفي ص ١٩ يقول : « أما الحقائق التاريخية فتقول إن بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر استقروا بعد التجوال في أرض كنعان حيث فلسطين بوصفها أرض الميعاد » . لكنه في ص ٢١ يقول : « وفي تقديري أن اسم « عمران » ومشتقاته له علاقة باسم « العمو » أو « العمرو » وهي القبائل التي احتلت دلتا مصر مع الهكسوس وفي زمنهم » وكذلك يعيد الكلام نفسه في ص ٢٢ وهو يقرن بين بني إسرائيل و « العمو » في ص ٢٧١ ويرى أنهم شيء واحد . ويستدل على ذلك بأن عرب فلسطين حتى الآن يسمون اليهود « أولاد العم » ويرى أن هذا لا صلة له بأنهم أبناء عمومة ، بل ان المقصود أن اليهود هم أبناء « عمّو » فهذا الاسم القديم ما زال حياً . وفي ص ٢٧٠ يرى أن كلمة « عمو » هي الأصل الذي اشتق منه كلمتا العرب والآراميين ، وذلك ما يمليه الاشتقاق الصوتي . أما في ص ٢٧١ فهو يعود إلى القول بأن « العمو » تشمل الآراميين والعرب وأولاد العم (بني إسرائيل) . أما في ص ٣٢ فالعموريون والآراميون موجتان بشريتان مختلفتان . فكيف نستطيع استخلاص أي شيء عن تاريخ بني إسرائيل أو العرب من هذا الخليط ؟ لاحظ أنه يؤكد أن العرب لم يرد لهم ذكر في تاريخ مصر القديم ص ٦ ، كما أنه يقول بأنهم موجة متأخرة جاءت إلى هذه المنطقة ص ٣٠ . فإذا كان تاريخ مصر يذكر « العمو » وأن « العمو » تشمل بني إسرائيل والعرب في نظره فإن هذا يلزمه بالاعتراف بوجود العرب في تلك الأحقاب .

كما يجب ملاحظة التضارب بين أقواله فمرة يقول إن بني إسرائيل لم يدخلوا مصر مع الهكسوس ولم يخرجوا منها معهم كما في ص ١٧ وأحياناً يقول إنهم دخلوا مصر مع الهكسوس وخرجوا معهم .

خاتمة

هناك ملاحظتان هامتان لا بد من أن نختتم بهما قراءتنا لهذا الكتاب :

١ ـ أنه لم يكن من الضروري أن يضمن الدكتور عوض كتابه ذلك النقد العنيف غير الموضوعي للعرب .

فبإمكانه مثلاً أن يناقش موضوع احتمال الصلة بين

المجموعة اللغوية الهندية الأوروبية والمجموعة السامية دون أن ينال من العرب .

٢ ـ أن ناقدي الكتاب في بعض الصحف العربية انصب اهتمامهم على هذا الجانب وحسب عندما تعرضوا للكتاب .

والأمر في رأيي لا يستدعي كل هذه الضجة التي أثيرت حول الكتاب ، فهو كتاب يقوم على أساس نظري واهٍ من الجانب اللساني بالإضافة إلى أن مواقف مؤلفه من الجنس والحضارة لا تتفق مع ما يراه الباحثون اليوم . فمن الأحسن ، في ظني ، أن يقتصد الناقدون في حملتهم على الكتاب ، فالزمن كفيل بإسدال الستار عليه ، أسوة بغيره من الكتب التي لم يكن مقصدها العلم وحده .

إن أموراً طفيفة ذكرها المؤلف في هذا الكتاب كفيلة بحجب الثقة عن كثير من تحليلاته . ومن أهم ذلك ربطه بين الاختلاف اللغوي والسلالة ، وكذلك استشهاده بنظام الهجاء الانجليزي على طبيعة الأصوات . فلو كان على دراية كاملة بالموضوع لما ورط نفسه في أشياء لا يقولها حتى المبتدئون .

يضاف إلى ذلك أن اعتماده على ألبير كوني وسكيت وحده ، يكفي للتشكيك في نتائج هذا البحث (وهذا ما يقوله W. P. Lehmann في رسالة شخصية لكاتب هذه الدراسة مؤرخة في ٢٣ ابريل ١٩٨٥ م) .

إن القارىء العربي بحاجة إلى أن تقدم له دراسات مثل هذه لكن الذي لا يريده أن تقدم له دراسات عفي عليها الزمن وثبت بطلانها ، أو أنها تكون مغلفة بأمور لا تمت إلى العلم بصلة ، أو أن تكون وسيلة لإضفاء الطابع العلمي على نعرات عرقية أو فكرية يقصد منها تحقيق مآرب أخرى .

Obituary:

Professer Dr. Ahmed Hassan Ghazal Wrote the abore and the last paper before his sudden death in Alexandria, Egypt, on the 11 th of November 1986,Which was very deeply and sorely felt.

Professor Ghazal received his education in Classics, Greek and Roman Archaelology at the universities of Alexandria and Athens. Since he started his career as a lecturer in the Department of Greek and Roman Civilisation, Alexandria University and until he became its chairman, he tried to establish a permanent base for Classical and archaeological research due to his enthusiasm and devotion to such fields of study.

Among other distinctions he participated in teaching at the Benghazi University in Libya, and at the KingSaudUniversity, Riyadh in Saudi Arabia. In Benghazi, he supervised the excavations at Sidi Hussein cemetry which led to the discovery of some Romen Tombs. In King Saud University, Where he passed about six years he Undertook With Professer Dr.A. R. al- Ansary theStudy of the coins discovered at the site of Qaryat al- Fau Which be published soon by king Saud University.

Among his Outstanding studies are the following:

- «Recent Discoveries of Roman Rockut Tombs at Sidi Hussein- Benghazi», **Libya Antiqua,** vol. VIII.XIV, 1976- 1977.
- «The Historical Background of Amun and his Cult in the Western Oases and in the Libyan Greek colonies before Alexander the Great.,» **Bull. Faculty of Arts, Alexandria University, vol XXVI, 1978.**
- «Development of the Greek Art in Helladic Times and the Egyptian Influences,» Alains el Fikr, Kwait, Oct.Nov.Dec.1981.
- «New Lights on te Distrinction Between Ammon of Libya and Zeus of Cyrene» **Libya Antique Symosium, Unesco Paris 1986.**
- **Archaeological sites and Aspects of Anab** Civilisation **in Saudi Arabia: El Ula- Hij. With. Dr. A.R. al- Ansary and Dr. S.King.**Dept.of Archaeoology and Musealogy, Faculty of Arts King Saud University, Riyadh, 1984.

***

نعــي

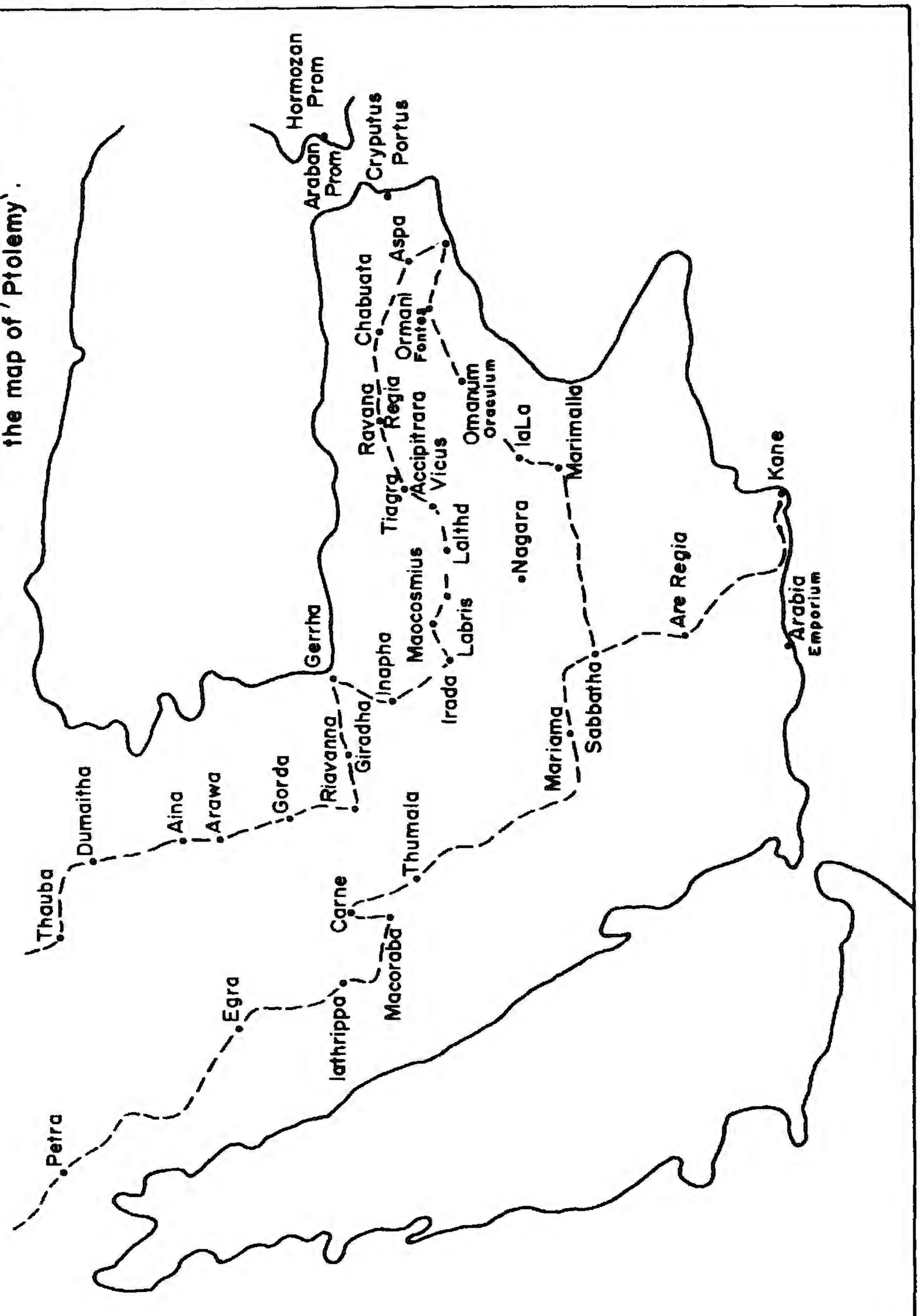
كان آخر ما كتبه المرحوم الاستاذ الدكتور احمد حسن غزال هو مقال منشـور في هذا العـدد وذلك قبـل وفـاتـه التي تـألم لهـا زمـلاؤه في الاسكندرية بمصر في الحادي عشر من نوفمبر ١٩٨٦م .

وقـد تلقى رحمه الله دراستـه في الكلاسيكيـات والآثار اليـونانيـة والرومانية في جامعتي الاسكندرية وأثينا . ومنذ أن بدأ حياته العلمية مدرساً بقسم الحضارة اليونانية والرومانية بجامعة الاسكندرية ، وحتى توليه رئاسته وهو دؤوب على وضع الأسس السليمة للدراسة والبحث في مجالات الكلاسيكيات والآثار .

ومن بين الأعمال المتميزة التي قام بها مشاركة في التدريس بجامعة بنغازي (قار يونس) بليبيا وجامعة الملك سعود بالرياض ، المملكـة العربية السعودية . وقد قام أثناء عمله في بنغازي بأعمال التنقيب في مقبرة سيدي حسين ، وكشف عن بعض المقابر الرومانية . وفي جامعة الملك سعود التي قضى فيها حوالي ست سنوات قام مع الاستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري بدراسة العملات التي عثر عليها في موقع قرية الفاو والتي ستنشر قريباً .

- « المكتشفات الحديثة للمقابر الرومانية المنحوتة في الصخر في سيد حسين ـ بنغازي » (باللغة الانجليزية) نشرت في مجلة Libya Antiqua, vol. VIII- XIV. 1976- 1977 .
- « الخلفيـة التاريخيـة للإلـه آمون وعبـادتـه في الـواحـات الغـربيـة والمستـوطنات الاغـريقية في ليبيـا قبل الاسكنـدر الأكبر بـاللغة الانجليزية » نشرت في Bul. Faculty of Arts. Alexandria University. vol. XXVI. 1978.
- « تطور الفن الاغريقي في العصور الملادية والتأثيرات المصرية » نشر في مجلة عـالم الفكر ، الكـويت عدد اكتـوبر ـ نـوفمبـر ـ ديسمبـر ١٩٨١ .
- « أضواء جديـدة على التفرقـة بين آمّون ليبيـا وزيوس القـوريثائي » (باللغة الانجليزية) شارك به ندوة تاريخ ليبيا القديم الذي عقد في باريس في يناير ١٩٨٤ ونشر في Libya Antiqua Symposuim. Unesco. Paris 1986.
- مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية ، العلا ، الحجر بالاشتراك مع د . عبد الـرحمن الطيب الأنصـاري ود . جعفري كنج ـ قسم الآثار والمتاحف كلية الآداب جامعة الملك سعود ـ الرياض ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

Map.3. Routes of ancient Arabia reconstructed on the map of 'Ptolemy'.

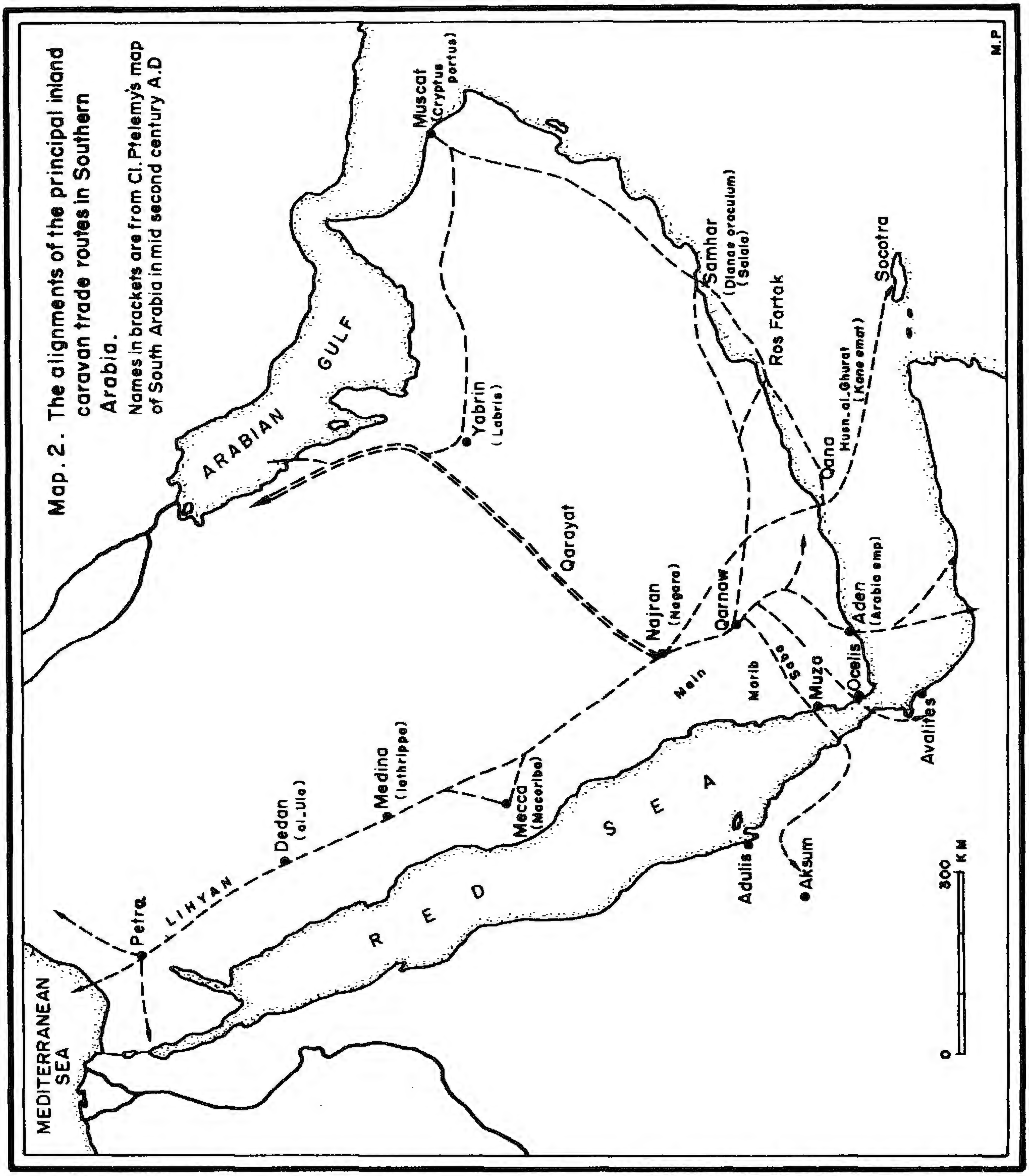


Ptelemaeus sometimes based his remarks on earlier information and some of his sources were more accurate than others. Modern geographers have noted that his information on the details of routes by sea or land, including distances, directions and place-names is not accurate. He had no observations on latitude nor any observations on differences of longitude.[95]

However, Ptolemaeus recorded a chain of settlements along the line of the spice Road from the south to Gerrha, a route not known in other ancient sources (Map 3). This route passed around the eastern and northern extremities of the Rub' al-Khali. It went along the western foothills of the mountains of Oman and through he oases of Buraimi.[96] This route still awaits archaeological investigation.

(95) *Loc. cit.*

(96) Price, p. 178.



Map. 2. The alignments of the principal inland caravan trade routes in Southern Arabia.
Names in brackets are from Cl. Ptelemy's map of South Arabia in mid second century A.D

Below Ptolemais, was Adulis, it was a port at the inner end of a bay that ran towards the south.(80) The author went on to record the ports and the market towns on the western side of the Red Sea as far as the markets of Azania, the last site on the continent that stretches down on the right hand side from Berenike.(81)

The author then returned to the north and crossed the Red Sea to describe the eastern side, beginning with another fortified harbour called Leuke Kome (the White Village). It was reached after two or three days from Mussel Harbour. There was a road from this port to Petra, which was under the rule of Malichos, King of the Nabataeans (C. A.D. 40-71)(82). It was a market town for small vessels sent there from Arabia.(83)

Directly below Leuke Kome, there was a long stretch of the Red Sea where "Navigation is dangerous along this whole coast of Arabia, which is without harbour, with bad anchorages, foul, inaccessible because of breakers and rocks and terrible in every way."(84)

Beyond this came Muza to the south, he described it as a market town with a good anchorage but without a harbour. The exports of the area passed through it, including select myrrh, alabaster, lances, hatchets, daggers and glassware. Its imports included purple cloth, both fine and coarse; clothing in the Arabian style and fragrant ointments. The country produced its own grain and wine.(85)

After sailing beyond Muza, about three hundred stadia, there was a village of the Arabs by the shore, called Okelis. It was not so much a market town, as an anchorage and watering place. It was the first landing for those sailing into the Gulf. Beyond this village, the sea widened again and soon the open ocean came into view.(86)

After about twelve hundred stadia was Eudaeman Arabia (Aden) a village by the shore, with convenient anchorages and watering-places sweeter and better than those at the preceding village, Okelis. "It was called Eudaemen, because in the early days of the city when the voyage was not yet made from India to Egypt, and when they did not dare to sail from Egypt to the ports across this ocean, but all came together at this place, it received the cargoes from both countries, just as Alexandria now receives the things brought both from abroad and from Egypt."(87).

Beyond Eudaemon Arabia (Aden), there was a continuous length of coast, and then came another market town by the shore, Cana, the frankincense country. Inlaid from this town lay a metropolis Sabbatha (Shabwa) in which the King lived, wheat and wine from Egypt were imported to this town just as at Muza, and also clothing in the Arabian style and other items.(88)

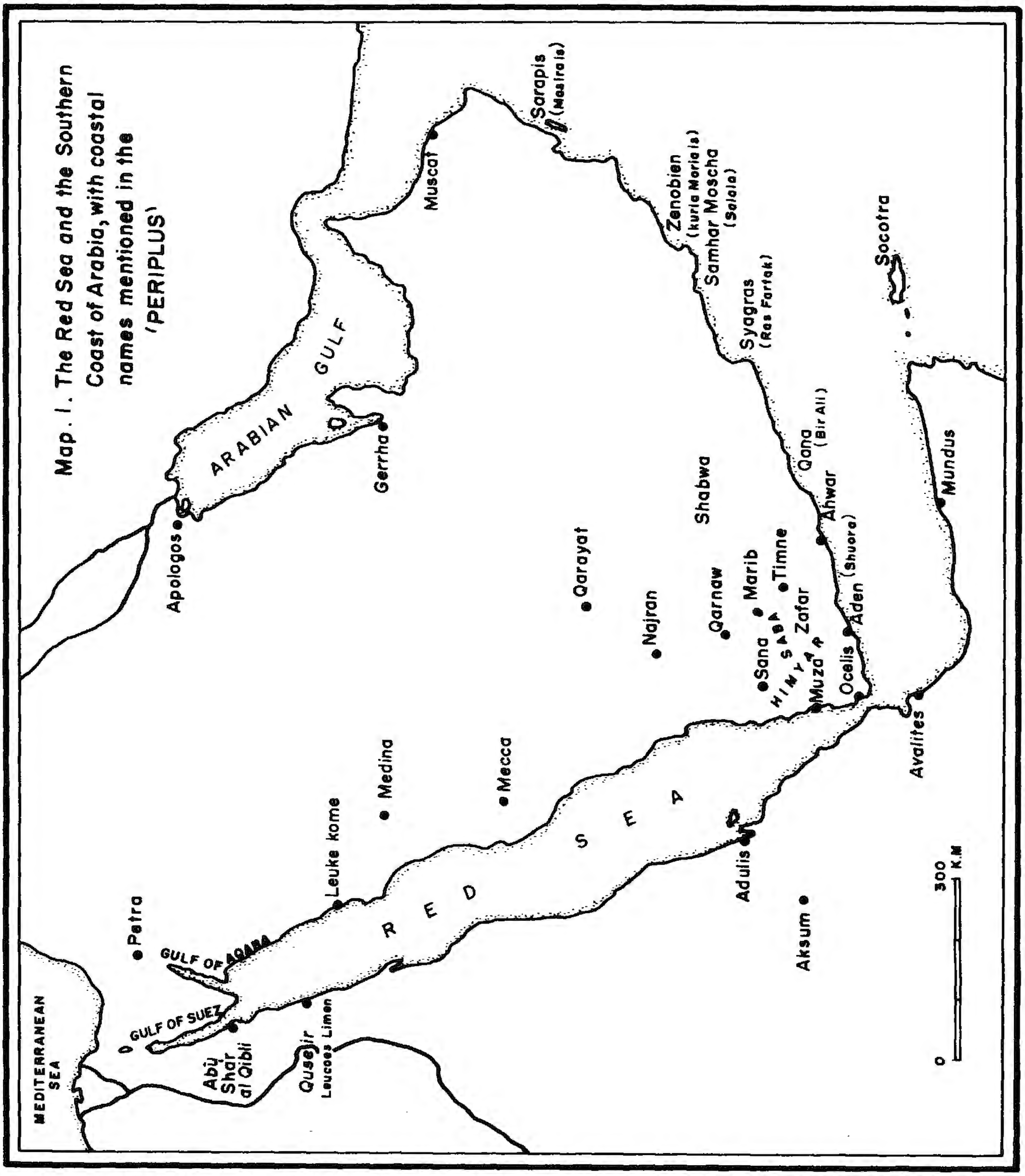
Beyond Cana on a very deep bay there was a great promontory facing the east, on which there was a fort for the defence of the country, a harbour and a storehouse for the frankincense which was collected there. Opposite this cape, well out at sea, there was an island, called Dioscorida (Socotra). It was very large and the inhabitants were a mixture of Arabs, Indians and Greeks who had emigrated to carry on trade on the island.(89)

The author then returns to the coast, immediately beyond Syagrus (Ras Fatrak) where the bay of Omana cut deep into the coast-line and then followed the harbour called Moscha. The ships from Cana called there regularly as did the ships returning from the eastern coast of Arabia and India.(90)

The result of this direct trading was an immense increase in the amount of goods purchased by the Alexandrian traders from India in the years of Roman rule in Egypt.(91) But the author provides us at the same time with a good deal of information about the Ptolemaic period, which is very important in itself.(92)

Cloudius Ptolemaeus (Fl. A.D. 127-48) was the last geographer from Egypt to produce detailed information on Arabia and its caravan routes (Map 2). His famous work Geography was the latest literary reference to be found and copied in the ninteenth century(93). His map of Arabia continued to influence the cartography of Arabia and modern scholars have identified so many of his place-names. He showed a new name, Arabia Emporium (market town of Arabia) at the site of what is now Aden and also a large number of other new places.(94)

(80) Schoff, pp. 22-23.
(81) Schoff, p. 29.
(82) He was the last King with this name to rule the Nabataean as Malichos II. He was followed by Rabel II (C.A.D. 71-106), See: G.F. Hill, *A Catalogue of Greek Coins in the British Museum, of Arabia, Mesopotamia and Persia* (Bologna, 1965).
(83) Schoff, p. 29. For the Location of Leuke Kome, see: Laurence Kirwan, pp. 55-58.
(84) Schoff, pp. 29-30.
(85) Schoff, pp. 30-31.
(86) Schoff, p. 31.
(87) Schoff, pp. 31-32.
(88) Schoff, pp. 32-33.
(89) Schoff, pp. 33-34.
(90) Schoff, pp. 34-35.
(91) See Brian Doe, pp. 57-58.
(92) Fraser, p. 174.
(93) Brian Doe, p. 70.
(94) W.C. Brice, "The Classical Trade-Routes of Arabia, from the evidence of Ptolemy, in: Strabo and Pliny" *Studies in the History of Arabia*, Vol. II, p. 177; see also: Nigel Groom, p. 85.



Map. 1. The Red Sea and the Southern Coast of Arabia, with coastal names mentioned in the 'PERIPLUS'

Artemidoros of Ephesos (fl. about 104-100 B.C.) a geographer, was the immediate successor of Agatharchides. He was the author, of a work in eleven geographical books written in Alexandria as well as other works. This work is known only in fragments preserved in an abridgment by Marcianus.(65)

It is attested by Strabo that Artemidoros' statements are in part similar to those of Eratosthenes and partly drawn from other historians.(66) For the region of Arabia and its peoples he used Agatharchids.(67)

In his account, beginning with northern Arabia, he reported that the Minaeans and the Gerrhaeans and all the neighbouring peoples carried their loads of aromatics to Palestine, where a promontory, near the island of phocae (seals), extended to the rock of the Nabataean Arabians. He also described Nabataea, near the Aelanites Gulf (Gulf of Aqaba), as a country with a large population.(68)

It should be noted that Artemidoros account here is similar to that of Eratosthenes when he described the route from the capitals of the southern Arabian Kingdoms to Gaza (Palestine) as the main incense road. But Eratosthenes reported that this route was used by Cattabnia and Chatramotitis for bringing their loads incense and aromatics to Palestine,(69) while Artemidoros mentioned that it was used by the Minaeans and Gerrhaeans and their neighbours for conveying their loads of aromatics.

Artemidoros described the Sabaeans as a very large tribe, with a very fertile country which produced myrrh, frankincense, cinnamon, and balsam on the coast as well as other kind of herbs. Their city, Mariaba, was situated upon "a well wooded mountain." But there is an error, for Mariaba lies in a plain, and not on a well wooded mountain.(70)

It is known that the Sabaeans were acquinted with the control of floodwaters from the wadis by building dams in order to irrigate their fertile soil. Parts of their most famous construction, the dam at Marib, still remain, fifty feet high, as a lasting monument to their fine craftsmanship. It is the magnificent dam with a perfectly dressed masonary barrage.(71)

Artemidoros continued in his account to say that the people in the Sabaean country engaged in framing and in the incense trade in the area itself and with Aethiopia, to where they sailed in leather boats across the straits. The Sabaeans had incense in great abundance, and there was also a most fragrant incense, larimnun, in their country. The Sabaeans and the Gerrhaeans had become the richest of all from this commerce. They also had vast quantities of gold and silver articles, and very costly houses in which doors, walls and ceilings were variegated in ivory, gold and silver set with precious stones.(72)

There is no doubt that much of this account by Artemidoros of the Sabaeans is taken from Agatharchides account.(73) This is all the more evident here because of the absence of any mention of the Himyarites from Artemidoros' account, this is due to the fact that they had not yet risen to power in the time of Agatharchides (C. 200-120 B.C.), Artemidoros' source. Artemidoros flourished about 104-100 B.C., and the emergence of Himyar as a power has been associated with the start of the late Sabaean era in about 115 B.C.(74)

We have a first class literary source in the anonymous **Periplus Maris Erythraei** (the periplus of the Erythrian Sea) written by one of the Alexandrian merchant mariners, in the first century A.D.(75) This famous work forms the foundation of all the numerous modern discussions of Roman trade with the East.(76) It includes a compilation of detailed information on the ports and the marketowns on the Red Sea and the Southern Coast of Arabia along the route from Egypt to India.(77)

The author records the routes of vessels sailing from Egypt trading with the ports of Southern Arabia and India, reporting that the first of the designated ports on the Erythrean Sea and the market towns around it, was the Egyptian port of Mussel Harbour (Myos Hormos). After that, on the right, was Berenike (Ras Banas). Both harbours were at the boundary of Egypt (map 1).(78)

About four thousand stadia from Berenike was Ptolemais, a small market, from which the hunters started for the interior and which was ruled by the Ptolemaic dynasty. The town had no harbour and it was reached only by small boats. It had land-tortoises in limited numbers which were white and small. It also had ivory.(79)

(65) H.L. Jones, *The Geography of Strabo*, Vol. VIII, p. 254.

(66) Strabo, 16.4.19.

(67) Fraser, p. 173.

(68) Strabo, 16.4.18.

(69) Strabo, 16.4.4.

(70) Strabo, 16.4.19; see also: Nigel Groom, p. 67.

(71) See: Brian Doe, p. 76.

(72) Strabo, 16.4.19.

(73) Diod. III. 46-7; Fraser, pp. 544-445, note 205.

(74) See: Brian Doe, p. /8.

(75) The Periplus is dated in A.D. 60 by W.H. Schoff, p. 15; Fraser, p. 174, considers that it was not written before A.D. 40 and states that it is likely to have been written within a generation of that date.

(76) *Loc. cit.*

(77) Schoff, pp. 22-49, see also: Brian Doe, p. 56.

(78) Schoff, p. 22. For the position of Mayos Hormos, see: Laurance Kirwan, "where to search for the Ancient Port of Leuke Kome", *Studies in the History of Arabia*, Vol. II, p. 57.

(79) Schoff, p. 22.

second century B.C.[45]

Agatharchides has left glowing descriptions of the wealth and luxury of the Sabaeans. The most important of all his descriptive passages in this section is his account of the broad extent of the tribe in Arabia their wealth and their role as middle men between India and the Mediterranean world and Egypt.[46]

He describes the soil of the Sabaeans and how it produced all the necessities of life, their physique which was superior to that of other inhabitants and their flocks which were numberless.[47] He mentions that the coastal region was pervaded with the scent from the odoriferous plants[48] and the forests of myrrh, frankincense, cinnamon and other aromatic trees stretching inland in their country.[49]

He mentions that, as a result of their position, which enabled them to enrich both their neighbours and themselves, the Sabaeans and their neighbours became the wealthiest of all people.[50] He also continues to describe the fabulous luxury of their domestic furniture and architecture with columns decorated with gold and silver, and the engraved and glass objects.[51]

It is clear that Agatharchides based his account on the existing remains of city walls and towers, palaces, temples, colonnades, sculpture and engineering works in the Sabaean region.[52]

It is evident from these remarks of Agatharchides that there were broad trade interests between Arabia and Egypt in the second part of the second century B.C., when his work **On the Red Sea** was written. This development increased the importance of the coastal area around Bab al-Mandeb, and the Land route to the Red Sea was used for the import of the Arabian incense and other eastern products.[53]

It should be noted that the area entered a new phase of trade activity by the late second and first century B.C. This was the period in which the Alexandrian traders became acquinted with the monsoon-winds and opened a shorter and more direct route from Egypt to India.[54] It is traditionally said that an 'Alexandrian merchant mariner called Hippolos discovered the full use of the monsoon-winds to and from India in about 116 B.C.[55]

There is no doubt that the first journey to India by the open Sea was a famous subject in Alexandrian literature in the Ptolemaic and Roman periods.[56] And most of our knowledge of the Indian Ocean and the southern coastal ports of Arabia is due to this fact. The Ptolemies with their officials, administered upper Egypt, the Red Sea and Indian Ocean.[57] Augustus, in a later time, completely re-organized the trade with that region.[58]

The Arabian trade which entered Alexandria was not all of Arabian origin, and a limited amount came indirectly from India to Egypt, already in the third century B.C.[59] This limited amount of Indian production came by way of Arab merchants for the Alexandrian traders had no direct knowledge of India at that time. One of these Indian products was cinnamon, which was only found in India and came via eastern Arabia.[60]

The direct route between India and Arabia had been known at an earlier date and remained the monopoly of the Arabs who had always sailed there and knew the navigational secrets of the Indian Ocean.[61] But, it seems that these navigational secrets became known to Eudoxos of Cyzicus, who and his pilot Hippalos were the first to make the journeys by open sea to India, on behalf of Ptolemys in about 116 B.C. And the knowledge of the monsoon-winds was learnt by Hippalos about the same time, as we have seen.[62] It is reasonable to say that the secrets of the monsoon-winds were learnt from the Arabs by Hippalos. It was the time in which the Southern Kingdoms of Arabia declined for a period of time and the emergence of Himyar as a power, after that, in about 115 B.C.[63]

It is said that a ship could leave Egypt early in July for Okelis helped by the late south-west monsoon-winds and arrive in India in September, two months were spent in India during business transactions before the ship started the return journey in November, helped by the north-east monsoon-winds, to Okelis and then back up the Red Sea. The ship would reach Alexandria about February.[64]

---

(45) Fraser, p. 174.

(46) Diod. III. 46-7; P.M. Fraser, p. 544 note: 205. See also: J. Pirenne, *Le Royaume sud-arabe*, (Lourain, 1961), pp. 81-91.

(47) *Loc. cit.*

(48) Fraser, pp. 544-245.

(49) Fraser, p. 545.

(50) *Loc. cit.*

(51) *Loc. cit.*

(52) See: Anderson, p. 249.

(53) Fraser, pp. 179-180.

(54) Fraser, p. 180.

(55) *Loc. cit.*

(56) See: W.H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea*, note 57.

(57) 110-109 B.C. there was a further official appointed, called responsible for the Red Sea and Indian Ocean. By 78 B.C. this title had expanded, to contain, and this also occurs in a document of 51 B.C. See: Fraser, p. 182 and notes 398, 399, 400.

(58) Fraser, p. 174.

(59) Fraser, p. 180.

(60) See strabo, 16.4.4; W.H. Schoff, note 10; Fraser, II, note 393 on p. 313.

(61) Brian Doe, p. 54.

(62) Fraser, I, p. 182.

(63) See Brian Doe, p. 78.

(64) Schoff, note 57; See also: Brian Doe, p. 56.

(Pithom – Heroonpolis).[23] The distance from this city towards the east in the summer (north-east),[24] in the direction of Petra of the Nabataeans to Babylon was five thousand six hundred stadia,[25] the journey being through the neighbouring countries of Arabian tribes. The Nabataeans, the Chaulotaeans and the Agraeans. Then comes Arabia Felix which extends for a distance twelve thousand stadia towards the South, to the Indian Ocean.[26]

From the evidence of Strabo, we are also informed that Eratosthenes gave his main attention to the inhabitants of Southern Arabia. The Merchants responsible for the caravan routes and trade activities in this part of Arabia.[27] With him we obtain for the first time a list of the capitals of its Kingdoms. He reported there were four leading tribes in Southern Arabia: The Minaeans towards the Red Sea (on the western side of Arabia), whose largest city was Carna or Karnana.[28] The Sabaeans next to the minaeans, had their metropolis at Mariaba.[29] The Cattabanians, whose royal seat was called tamna.[30] The Chatramotitae, the furthest toward the east, whose city was Sabata.[31]

It is also reported that these cities were ruled by monarchs and were properous, being beautifully adorned with temples and royal palaces. The houses were like those of the Egyptians in respect to the manner in which the timbers were joined together.[32]

On the production of various sorts of incense in Southern Arabia and its trade caravan routes, Eratosthenes gave valuable information when he specified Cattabania as the producer of frankincense and Chatramotitis as the producer of myrrh.[33] There is a possibility that, at that time, the Qatabanians were in joint possession of the frankincense region or at least were the main suppliers of this resign.[34] Frankincense, myrrh and the other aromatics were bartered to merchants, who arrived in seventy days from Aelana, on the Gulf of Aqaba, to the South Arabian Kingdoms.[35] It is attested that the main route of this trade was the well-known incense road which led from the capitals of the South Arabian Kingdoms to the Mediterranean Sea at Gaza.[36] However, Pliny records in a later period, that before arriving in Gaza one had to pass 65 camel stations after leaving Thomna the capital of Qatabania,[37] and this means that the journey was shorter than that mentioned by Eratosthenes.

Eratosthenes also reported that the journey between Hadramaut and Gerrha took forty days.[38] This probably means that the Gerrhaeans also visited Hadramaut, and signifies that Dhufar sent frankincense direct to Gerrha or through western Hadramaut and M'ain. Gerrha was probably one of the earliest markets for the goods from Dhufar.[39]

The second Alexandrian writer after Eratosthenes was Agatharchides of Cnides (C. 200-120 B.C.), whose geographical information is based on good sources.[40] He was the private secretary of Heraclides Lembos, who was a minister of Ptolemy Philemetor.[41]

All the writers go back to the account of Agatharchidees on the Arabians, especially Sabaeans, in the fifth book of his work **On the Red Sea**, which is composed of five books.[42] He derived his information from the royal archives in Alexandria, from eye-witnesses and merchants.[43] This work was quoted by Diodoros (III, 46-7) and by Artemidoros of Ephesos (in Strabo) who used Agatharchides for the region of the Red Sea and the Indian Ocean.[44] Agatharcides work was written sometime after the middle of the

(23) The city of Heroes is Pithom (the Greek Heroönpolis) on the Red Sea, where the Canal ended which was re-opened between the Nile and the Red Sea by Ptolemy Philadelphos, see Strabo, 16.2.30, 16.4.2: see also P.M. Fraser, p. 177.

(24) Strabo, 16.4.2 and note 2. cf. also vol. 1, p. 105, note 1.

(25) It may be noted here that Eratosthenes reported that the journey started from the city of Heroes (Pithom – Heroönpolis) on the Red Sea, where the canal of Ptolemy Philadelphos ended. This canal had a distinguished role in developing the trade relations between the norhtern region of Arabia and Egypt.

(26) Charles Forster, *The Historical Geography of Arabia*, p. 10, states that "Chaulotaeans" of Eratosthenes are equivalent to Pliny's Charelaei, all being corruptions of the name of Chaldaeans, the original name of the Gerraeans.

(27) Strabo, 16.4.2. trans. by H.L. Jones.

(28) It was also called Qaranawu in the southern al-Jauf, see: Brian Doe, p. 66; see: Nigel Groom, *Frankincense and Myrrh* (London, 1981), p. 65.

(29) The first capital was called Sirwah (al-Kharaeiba) and it was followed by Mariaba (the modern Marib), see: Brian Doe, pp. 74-76.

(30) It is also called Timna', now known as Hajar Quhlan in the Wadi Baihan, see: Brian Doe, pp. 70-72.

(31) It is called Sabota by Pliny and is the modern Shabwa, see Brian Doe, p. 97.

(32) Strabo, 16.4.3, trans. by H.L. Jones.

(33) Strabo, 16.4.4, trans. by H.L. Jones; Nigel Groom, p. 65, sees that there is a scribal error which reverses the true facts about the incense production areas, and the text should- have read "Cattabamia produces myrrh and Chatramotitis produces Frankincense."

(34) Muller, p. 80.

(35) Strabo, 16.4.4, trans. by H.L. Jones.

(36) Muller, p. 81 and note 32.

(37) Walter, W. Muller, p. 81, note 33.

(38) Strabo, 16.4.4, trans. by H.L. Jones.

(39) Brian Doe, p. 67.

(40) Fraser, p. 174.

(41) Fraser, p. 174.

(42) J.G.C. Anderson, *Cambridge Ancient History*, Vol. X, p. 249, note 1; P.M. Fraser, p. 174.

(43) Fraser, pp. 173-174.

(44) Anderson, note 1 on p. 249; P.M. Fraser, p. 173.

by a number of Minacan inscriptions,[4] and by classical writers.[5]

Large quantities of incense, spices, and perfumes came to Egypt from Arabia and frankincense and myrrh were actually acclimatized and developed in Egypt under government supervision[6]. The reference to frankincense in the expense accounts of daily requisites makes it clear that it enjoyed great popularity in private use in the period of Ptolemaic rule.[7] The raw product was brought to Egypt through trade with the South-East and were manufactured into wares ready for use, under royal control. It was said of Alexandria that it had abundant products and the altars of this town were full of frankincense[8].

Egyptian trade with Arabia became carefully controlled and a great effort by the Ptolemies, particularly Ptolemy Philadelphos, was directed towards the development of trade between Alexandria and Arabia.[9] In the sixteenth year of his reign (270/69 B.C.), Ptolemy Philadelphos re-opened the canal which had existed from Pharaonic times between the Nile and the Red Sea at Pithom (Tell el-Maskhuta), the Greek Heroönpolis, and this canal became of great importance as an alternative to the wearisome journey by land.[10]

In addition to this, the Ptolemies constructed new ports and rebuilt the old ones on the coast of the Red Sea, at Myos Hormos, Quseir, and Berenike (Ras Banas).[11] To shorten the sea journey they also restored the connecting roads to these ports.[12]

Early on, sea trade activity was concentrated in the northern region of the Red Sea, where the merchandise was brought from India, the Far-East and Arabia to Leuke Kome, the head of the caravan routes on the eastern shores.[13] From there it was carried by boats to Ptolemaic ports on the western shores of the Red Sea. The loads of frankincense and the other kinds of incense were then transported from the Egyptian coast of the Red Sea over the mountains through Wadi al-Hammamat to Coptos on the Nile just as the times of the Pharaohs.[14]

As for sea traffic in the Indian Ocean between India and Arabia, it remained one of the most important of navigational secrets.[15] It was initially the monopoly of the Arabs who had always sailed there,[16] but the Ptolemies tried from the beginning to interfere with this arrangement; Ptolemy Philadelphos sent a representative to visit Dioscorida (Socotra) which he believed was ruled by a Sabaean King.[17]

From the time of the Ptolemies, particularly Philadelphos, agencies and colonies were set up on the long African coastal strip over many hundreds of miles from Suez to the straits of Bab al-Mandeb; one of these was at Adulis.[18] They also encouraged Greek merchant mariners to establish a trade between the Gulf of Aden and Mediterranean.[19]

These trade relations between Arabia and Egypt and Arabia's position as a famous trade centre for all kinds of incense in the ancient world, attracted the attention of some of the scholars in the Alexandrian Library and Museum. As a result, they introduced valuable studies on Arabia: its caravan routes, ports and its distinguished geographical position between India and the Mediterranean world. They also left glowing descriptions of the wealth and luxury of the Arabs. There is no doubt that these researches played a large part in developing trade activities between Arabia and Egypt not only in the Ptolemaic period itself but also in subsequent times.

The first Alexandrian Scholar to introduce detailed studies on Arabia was Eratosthenes (C. 275-194 B.C.). He was invited by Ptolemy Euergetes to become royal tutor and to succeed Apollonios Rodios as a head of the Alexandrian Library.[20]

He was the only systematic geographer to deal with the physical and ethnographical geography of Arabia. His works are known in fragments and his Geography in three books is often mentioned by later geographers.

According to Strabo, whose geographical information is based on this work,[21] Eratosthenes divided Arabia into the northerly part or desert, which lies between Arabia (felix) and Coele-Syria. This part extended as far as the branch of the Gulf os Suez,[22] where the city of Heroes was situated

(4) *Loc. cit.*
(5) P.M. Fraser, *Ptolemaic Alexandria* (Oxford, 1972), 1. text, pp. 173-174.
(6) Fraser, pp. 175-176.
(7) Müller, (1979), p. 84.
(8) Fraser, pp. 175-176; and Walter W. Müller, p. 82.
(9) Fraser, p. 176.
(10) Fraser, p. 177 and note 246.
(11) Brian Doe, *Southern Arabia*, (London, 1971), p. 54.
(12) *Loc. cit.*
(13) *Loc. cit.*
(14) Müller, p. 84, note 76.
(15) Brian Doe, p. 54.
(16) *Loc. cit.*
(17) Brian Doe, pp. 54-55.
(18) Brian Doe, p. 55; and P.M. Fraser, pp. 177-178.
(19) Brian Doe, p. 55.
(20) See: *Oxford Classical Dictionary*.
(21) Strabo, 16.4.2, trans. by H.L. Jones, *Loeb Classical Library* (London, 1966).
(22) The head of the Arabian Gulf (The northern part of the Red Sea) consisted two branches: one extended into the region near Arabia and Gaza, which called Aelanites, after the city situated on it (The Gulf of Aqaba), and the other, extending to the region near Eypt in the neighbourhood of the city of Heroes (The Gulf of Suez), see Strabo, 16.2.30, Trans. by H.L. Jones.

Ages, Vol. 2, Part 1. 38 - 48 (1987)

TRADE BETWEEN PRE-ISLAMIC ARABIA AND EGYPT IN ALEXANDRIAN LITERATURE

Dr. Ahmed H. Ghazal

Abstract: *In Egypt, after the death of Alexander the Great in 323 B.C., Greek rule was continued by his Macedonian Companion, Ptolemy I who took the throne and founded the Ptolemaic dynasty.*

One of his main objectives, right from the beginning, was to establish a library and museum at Alexandria, the capital of his new Kingdom. He invited famous scholars from all the Hellenic world to work for this purpose at Alexandria, which become under his rule and those of succeeding Ptolemies the cultural centre of the Hellenistic world.

Since ancient times, Arabian goods were of great importance, in ancient Egypt, and the Mediterranean world. Thus, the Ptolemies immediately planned to increase trade activity between Egypt and Arabia. They built new ports on the Red Sea at Myos Hormos, Qussier and Berenike (Ras Banas). These trade relations between Arabia and Egypt attracted the attention of some scholars in the Alexandrian library and museum. They introduced valuable studies on Arabia: its inhabitants, caravan routes, ports stressing its important geographical position between India and the Mediterranean world.

In fact, Arabia remained for many centuries one of the most interesting subjects in Alexandrian literature, especially during the Ptolemaic and Roman times.

In the preface of his book, **The Alexandrian Library**, Edward Alexander Parsons tells us how Ptolemy 1, a general of Alexander the Great "...had the genius to discern that although armed might was necessary to maintain the state, it was the arts alone that could make deathless fame for his house and empire."(1) So he invited many poets, philosophers, scientists and men of letters from all the Greek world. Among those who accepted his invitation was the Athenian Scholar and ex-politician, Demetrios of Phaleron, who suggested to Ptolemy the foundation of the Library and the Museum at Alexandria, the capital of his new state.(2)

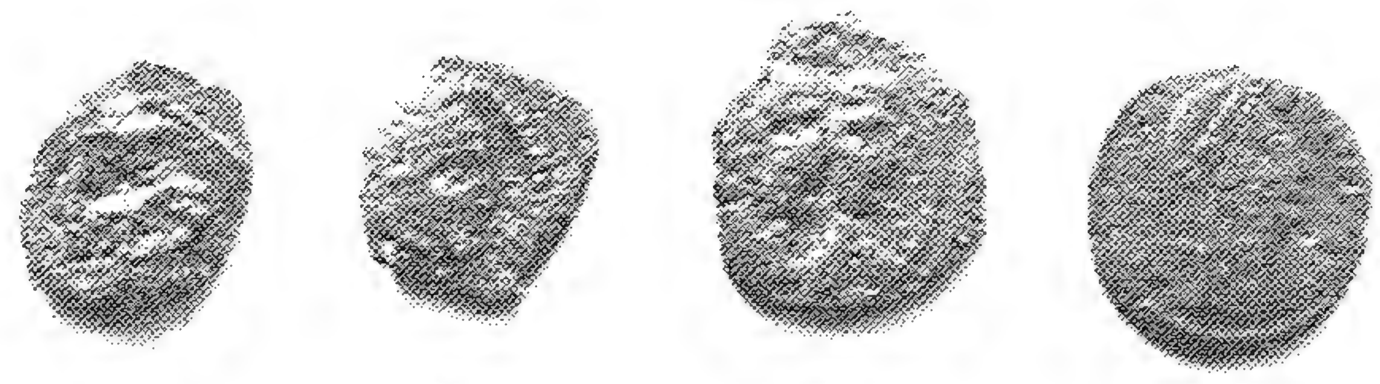
It is clear that the actual role of the Alexandrian Library and Museum, with this group of distinguished scholars and their future important works in the various fields of science and literature, would help the foundation of a great Ptolemaic dynasty in the land of the ancient Egyptians with their eternal traditions and their abundant wealth.

One of the main objectives which Ptolemy 1 laid down from the beginning of his rule of Egypt, and followed in this by the other Ptolemies after him, was the commercial prosperity for their great state. South Arabian goods were of great importance from the earliest times in ancient Egypt.(3) And from this point under Ptolemaic rule in Egypt, it was planned that trade between Arabia and Egypt must increase. These trade activities between the two countries are attested

(1) E.A. Parsons, *The Alexandrian Library, Glory of the Hellenic World* (London, 1952), p. XI.

(2) *Loc. cit.*

(3) It is reported by Herodotos (11.40) that on the high-day of the goddess Isis the Egyptians sacrified an ox whose carcase they filled "with pure bread, honey, raisins, figs, frankicense, myrrh and other kinds of incense"; See Walter W. Müller, "Arabian frankincense in antiquity according to the classical sources", in: *Studies in the History of Arabia, Sources for the History of Arabia* (Riyadh: King Saud University, 1979) part 1, p. 84.



3 1 2 6

GERASA – 1978

Area – E

Sq. 1

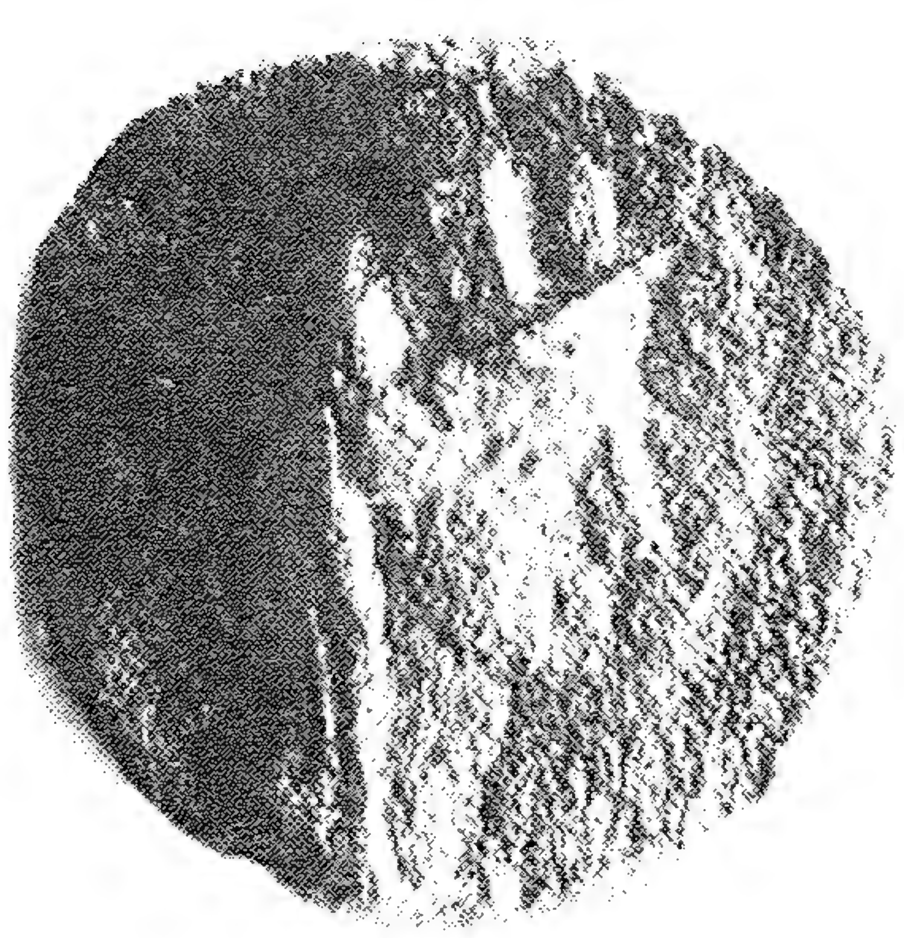


3a 1a 2a 6a

GERASA – 1978

Area – E

Sq. 1

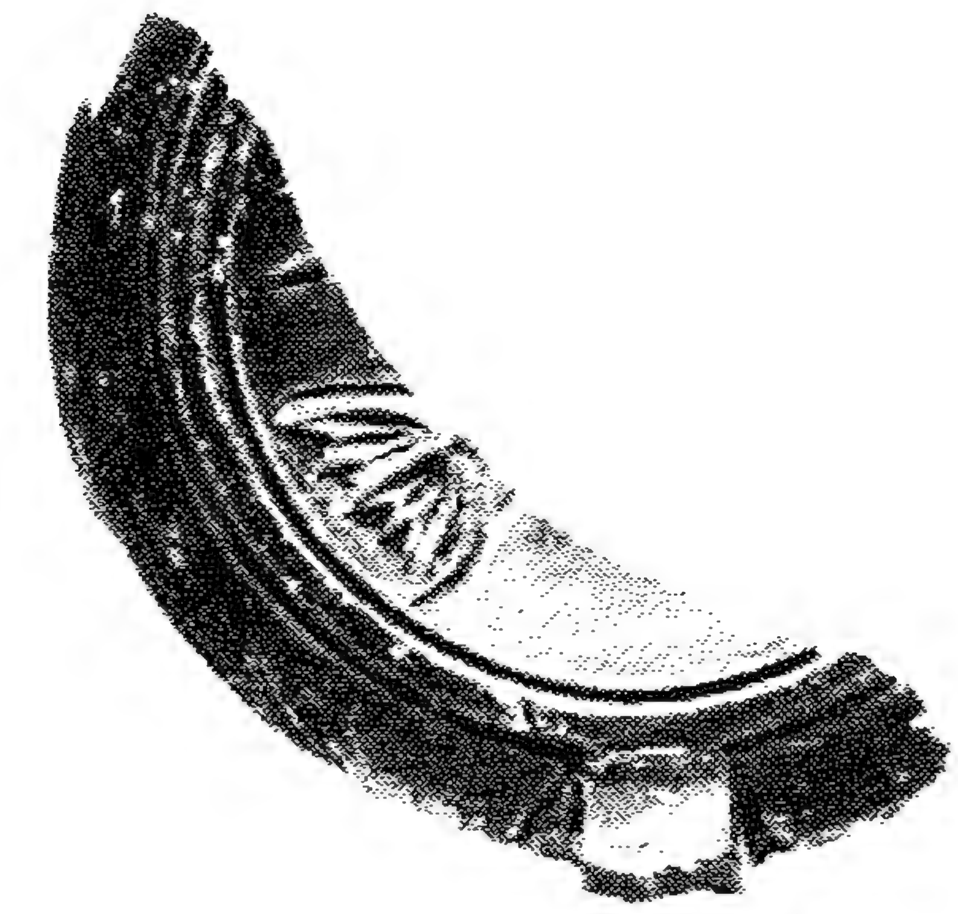


11a



11a

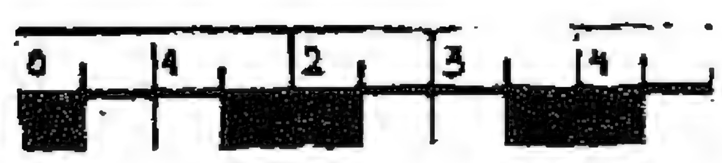
Plate 22

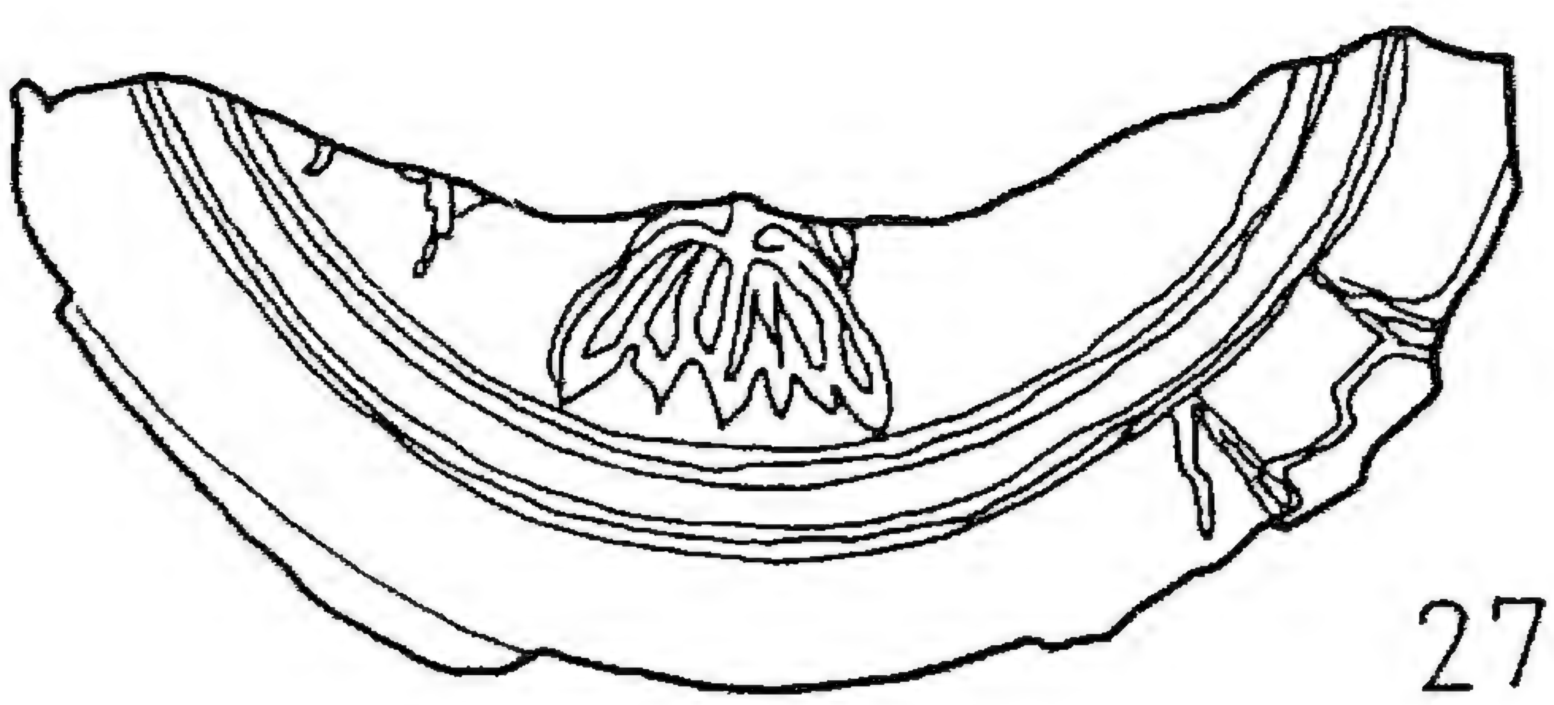


27

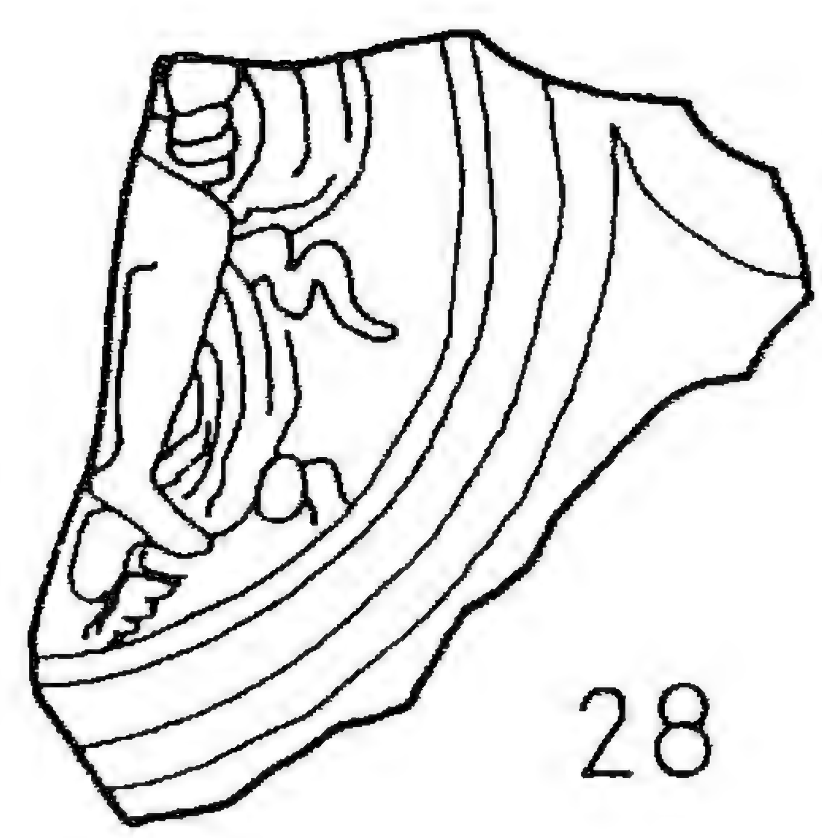


28





27



28

Plate 21



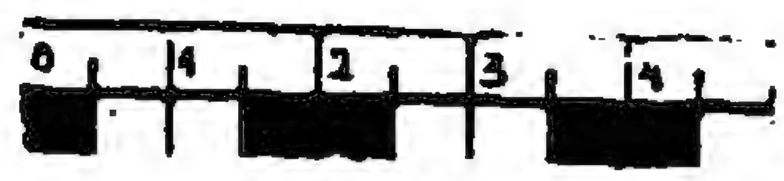
24



25

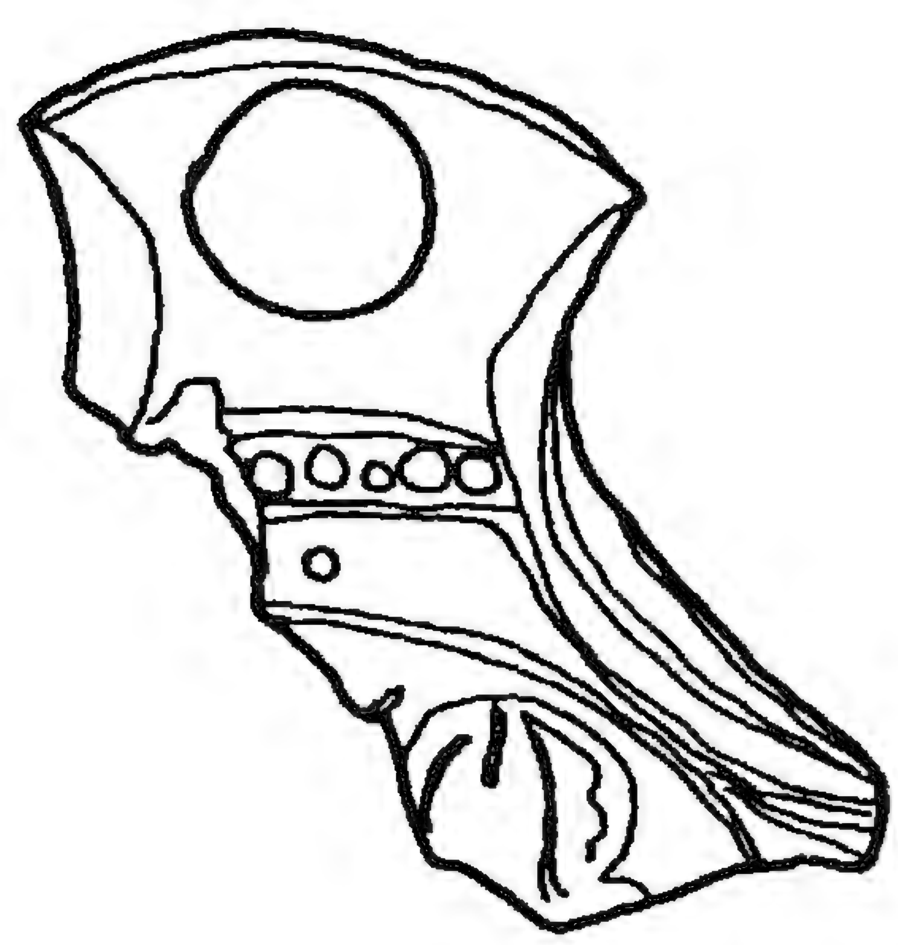


26

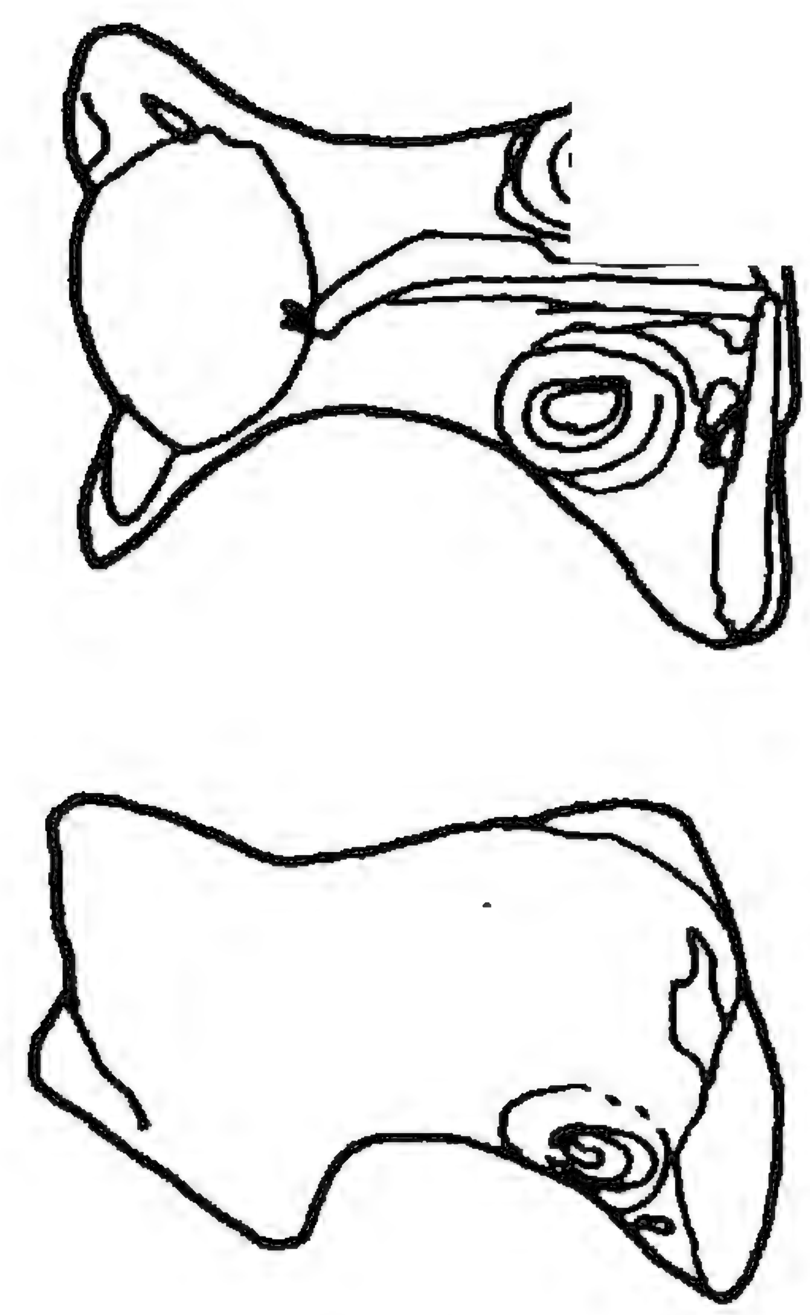




24



25



26

Plate **20**

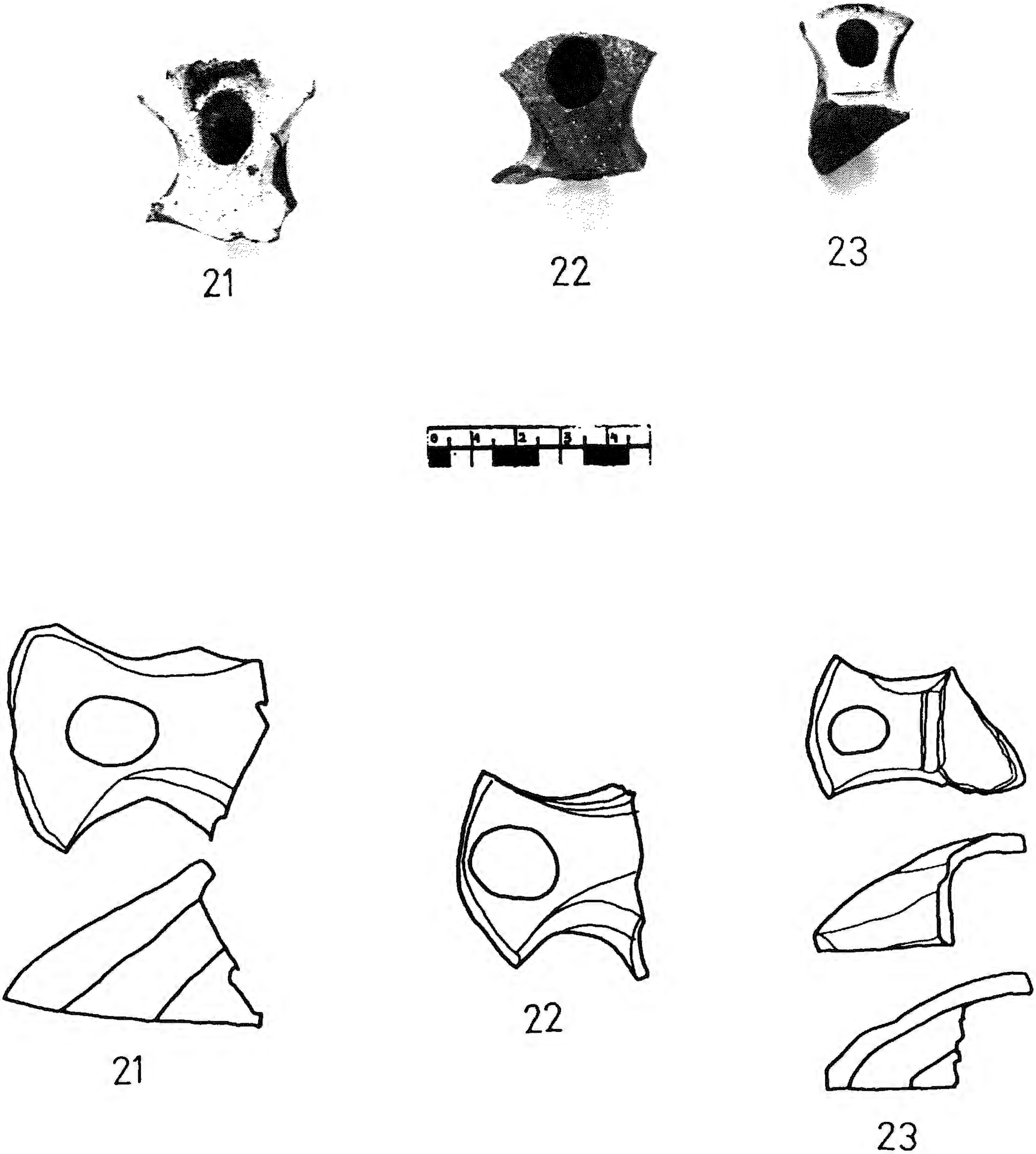
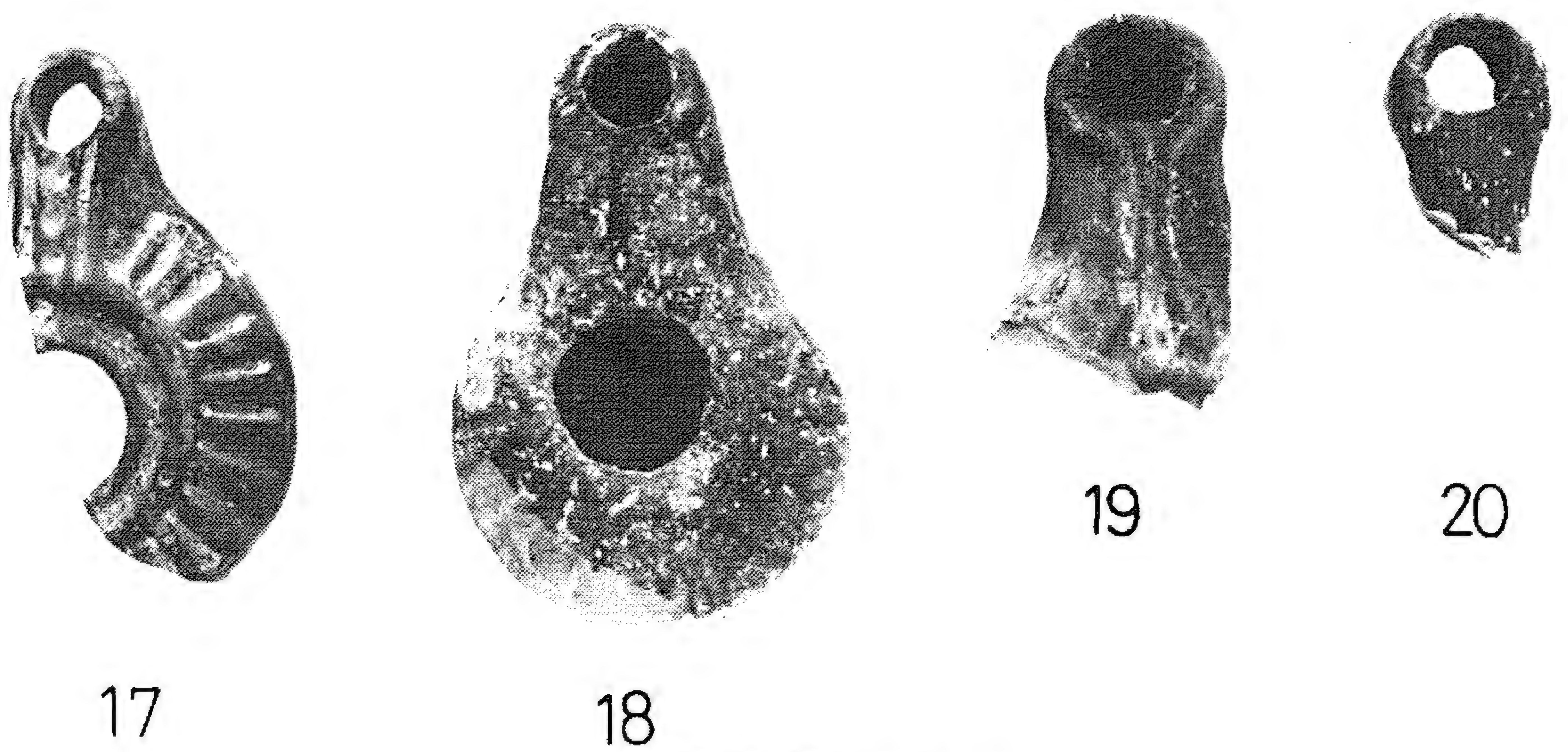


Plate 19



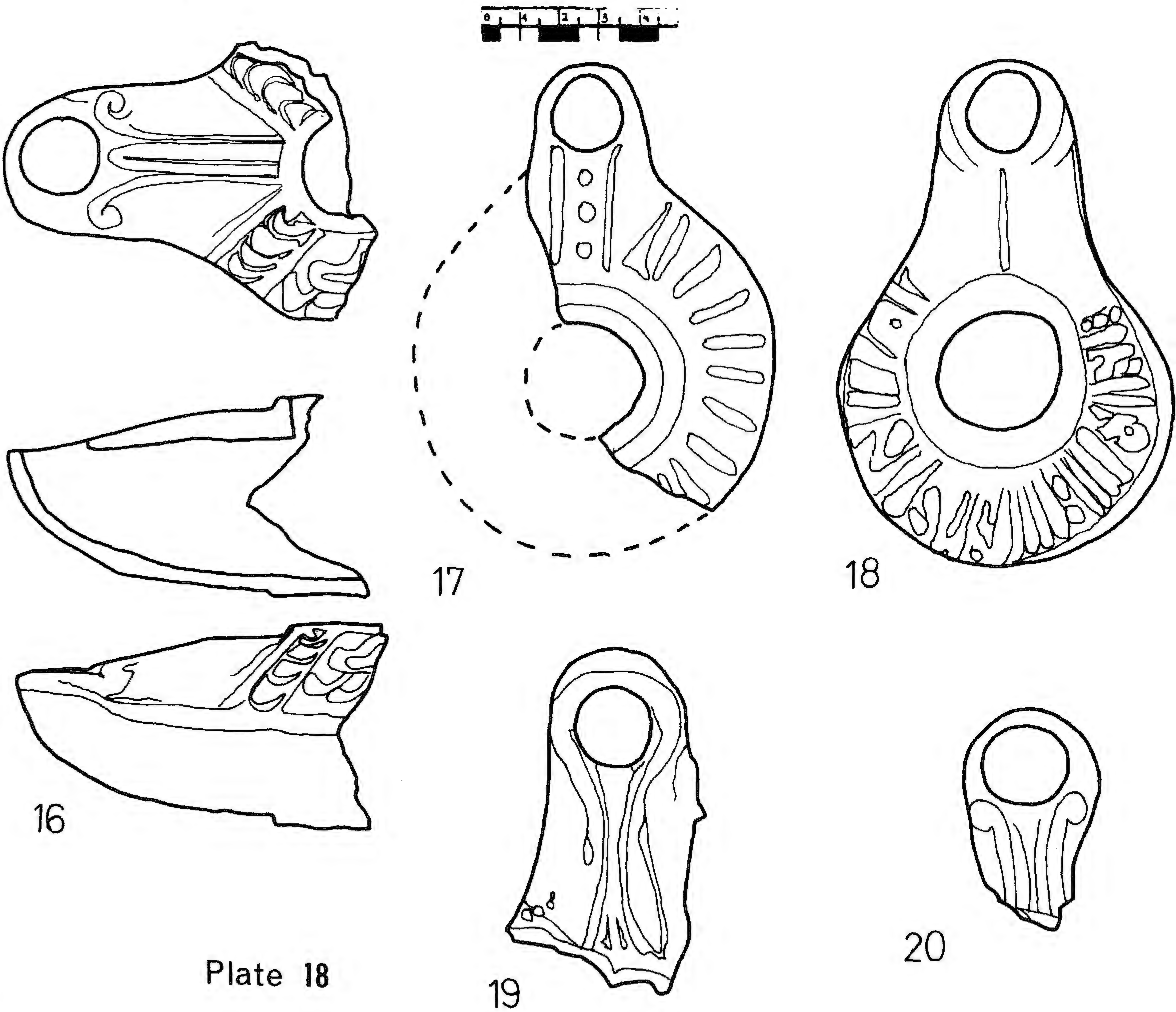
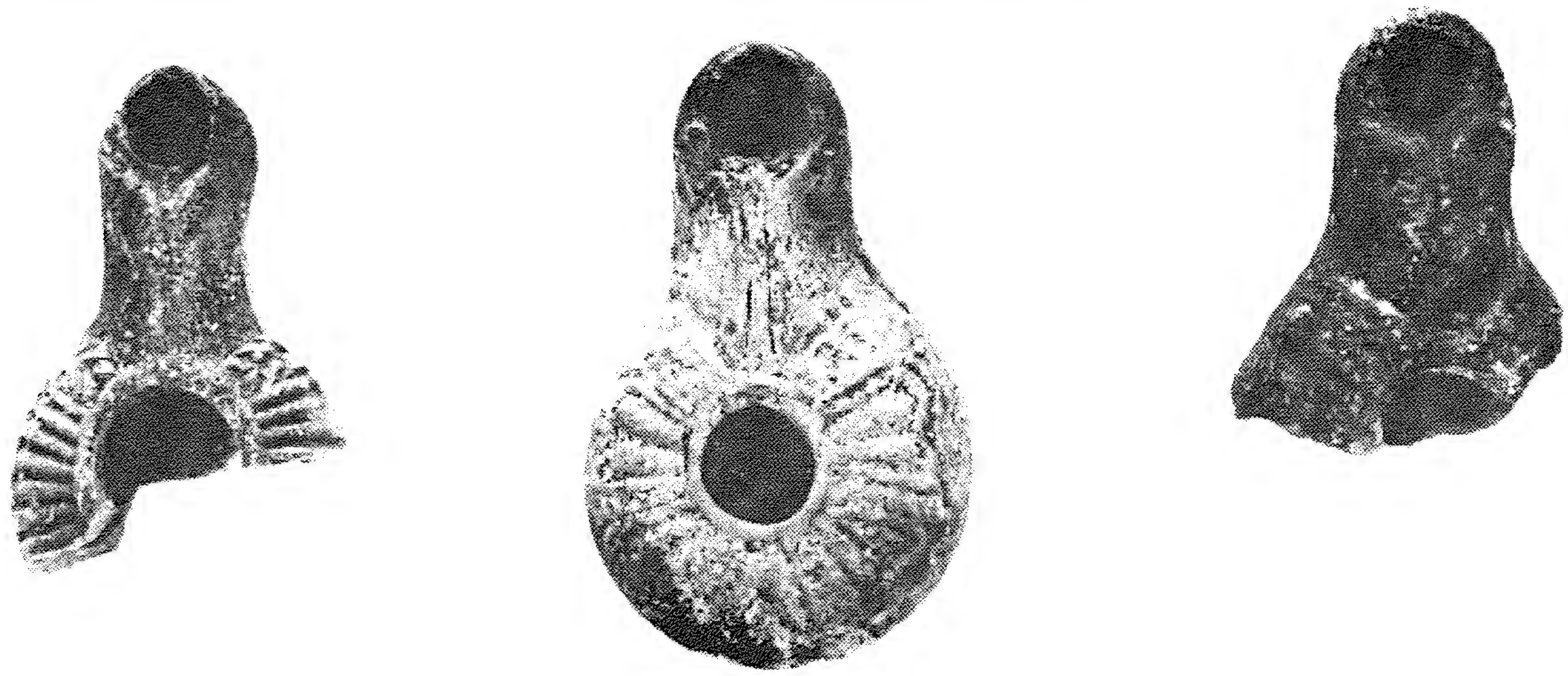
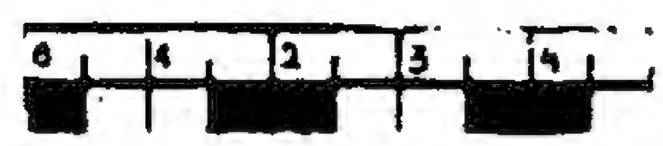
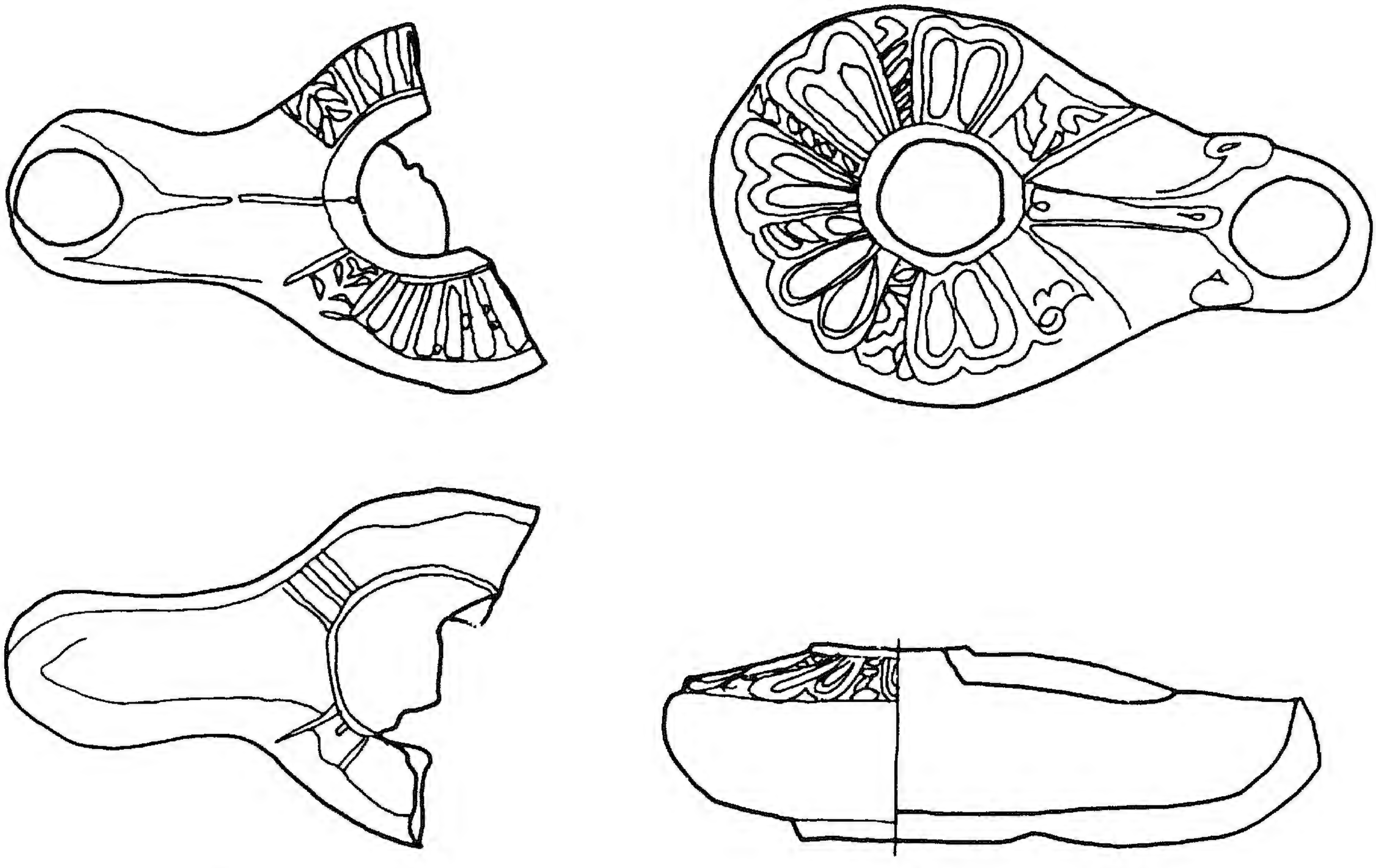


Plate 18



14 15 16



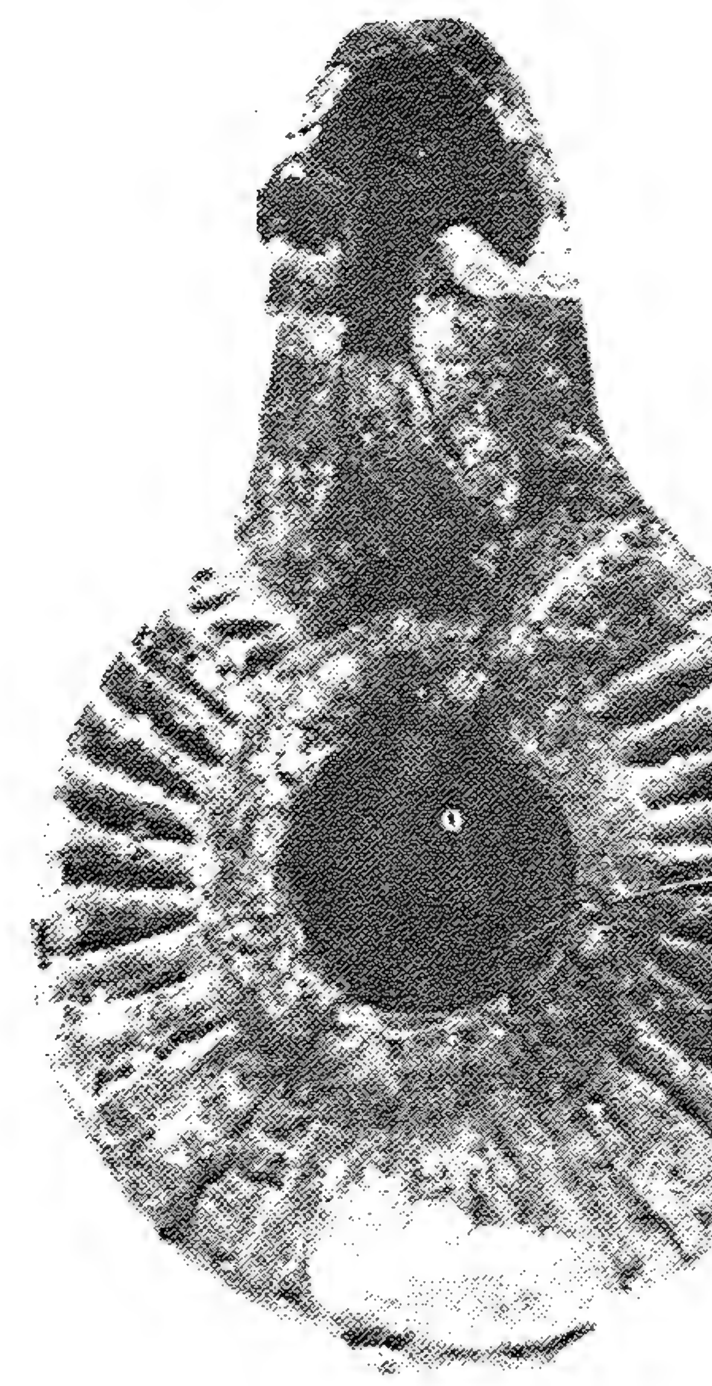


14 15

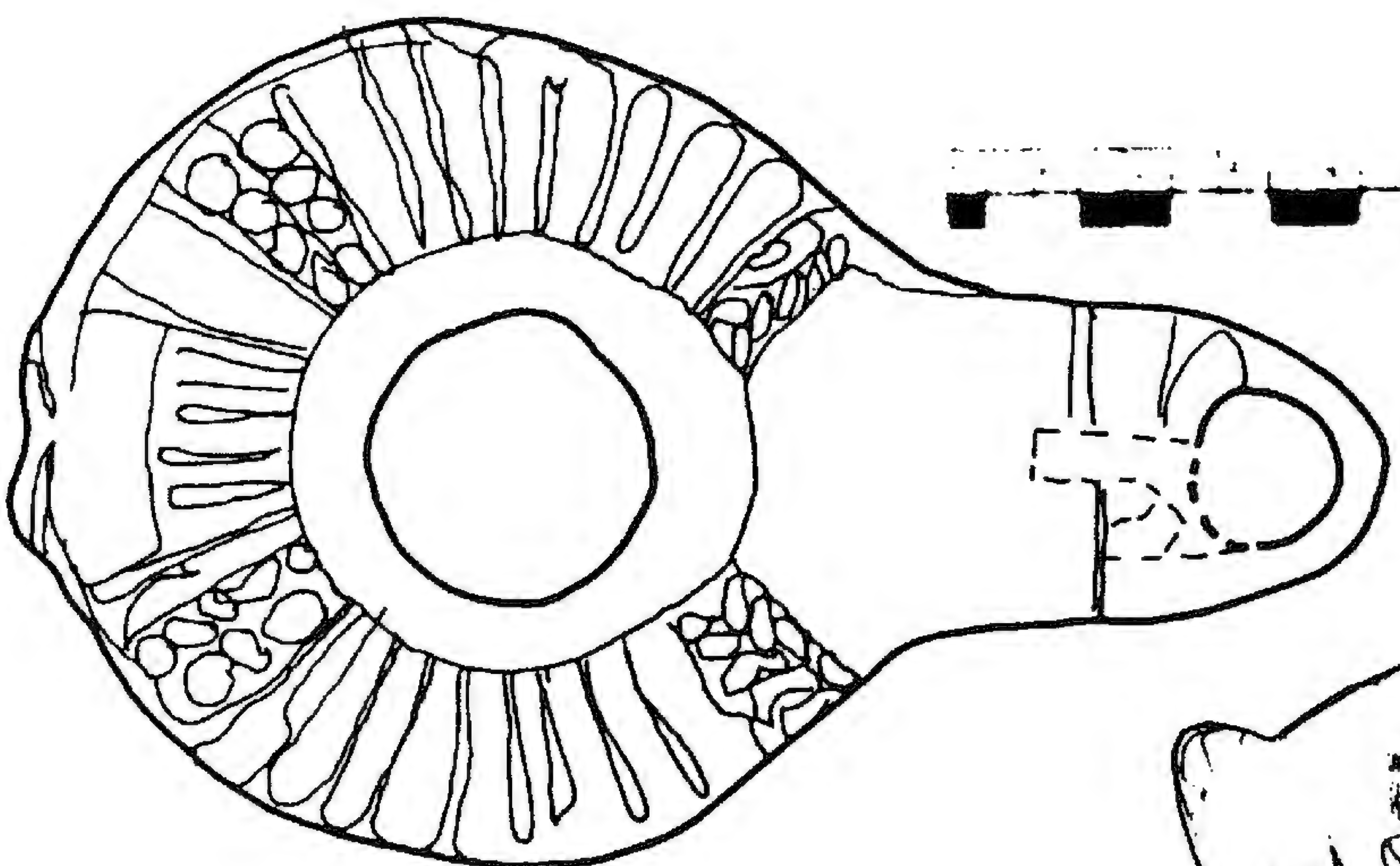
Plate 17

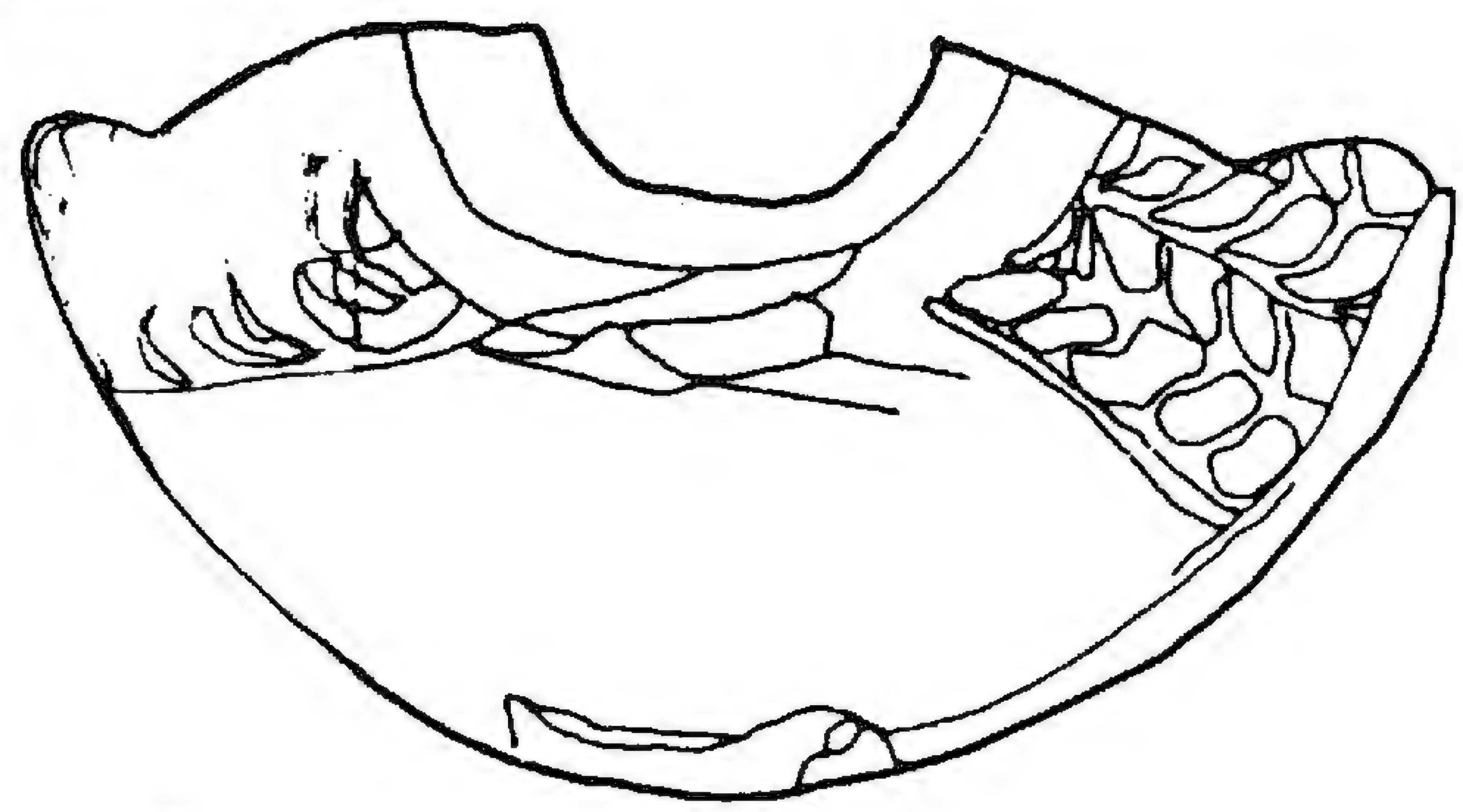


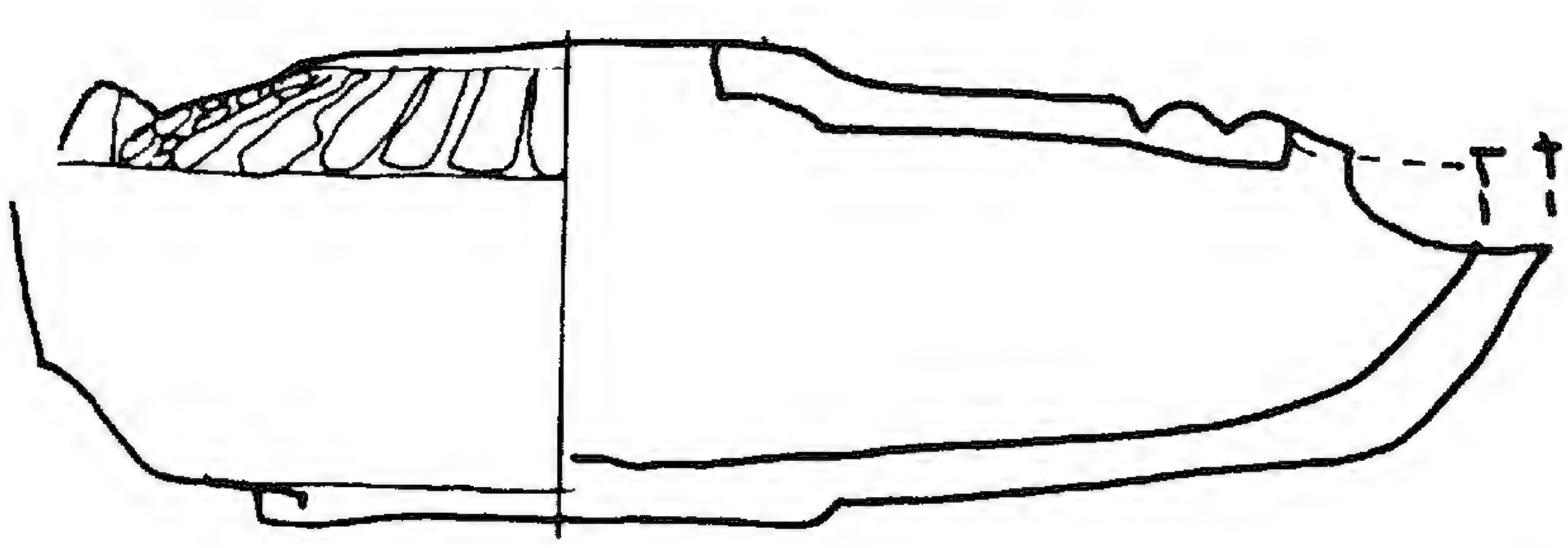
13

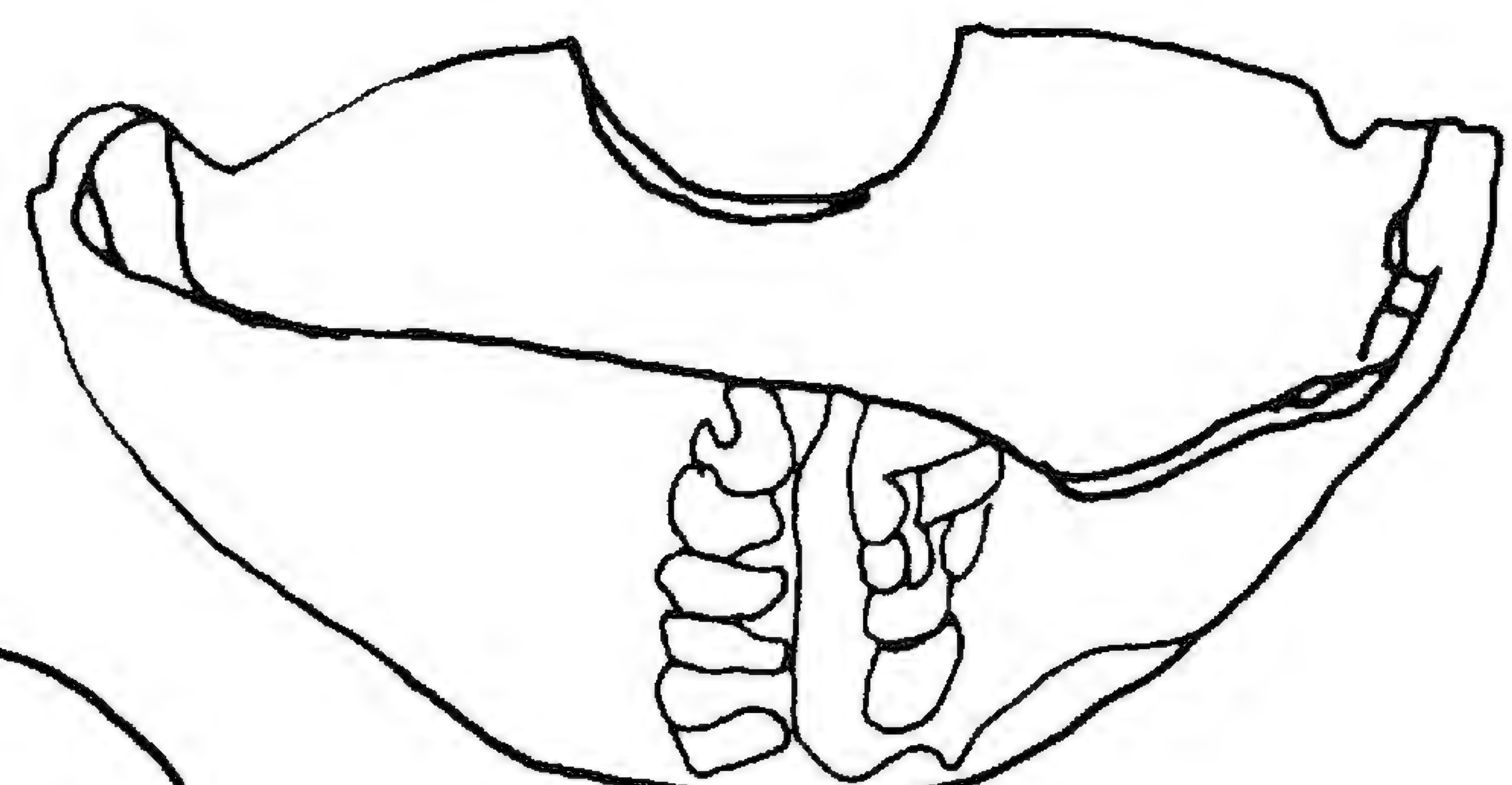


12

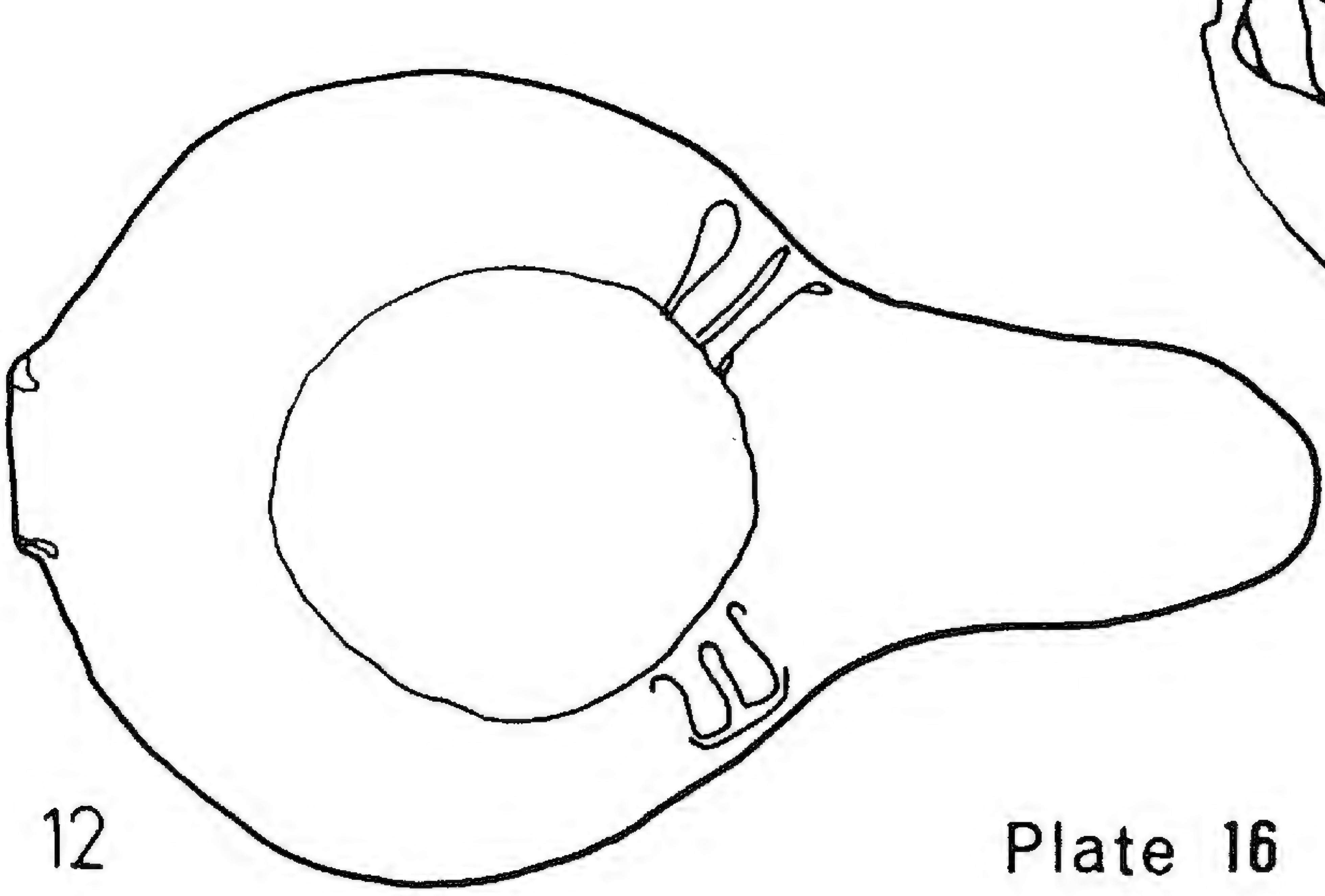






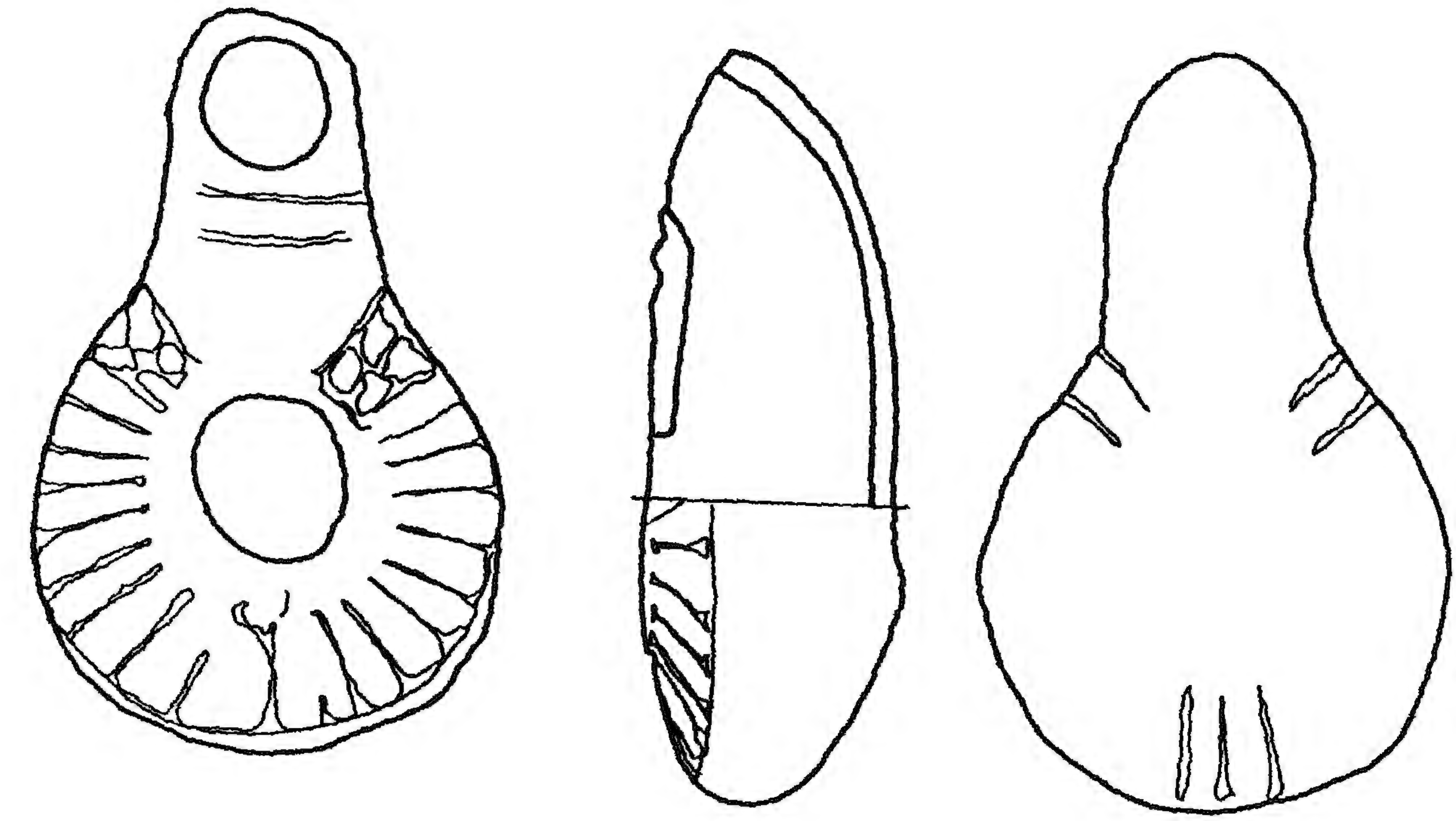


13



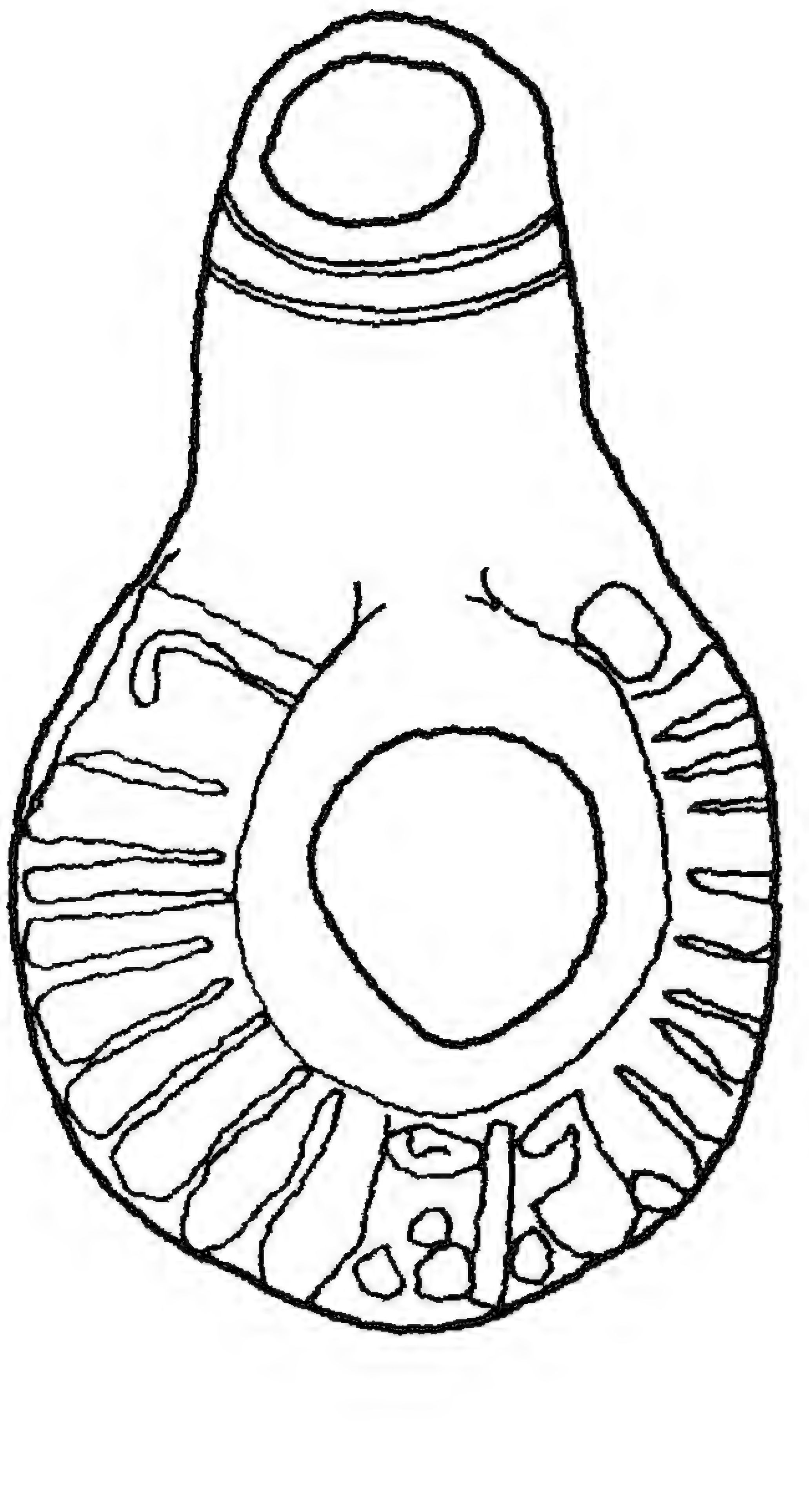
12

Plate 16

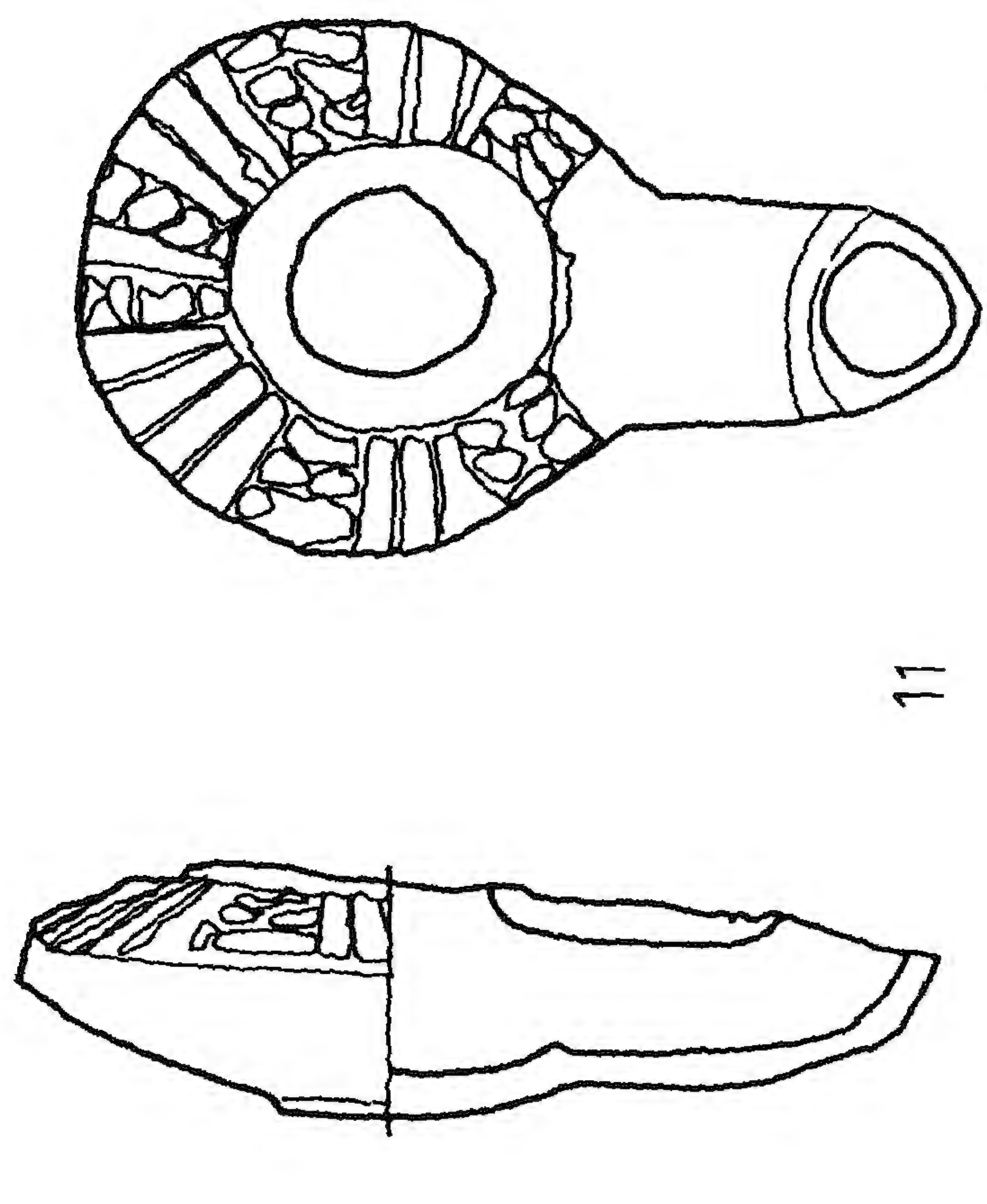


10

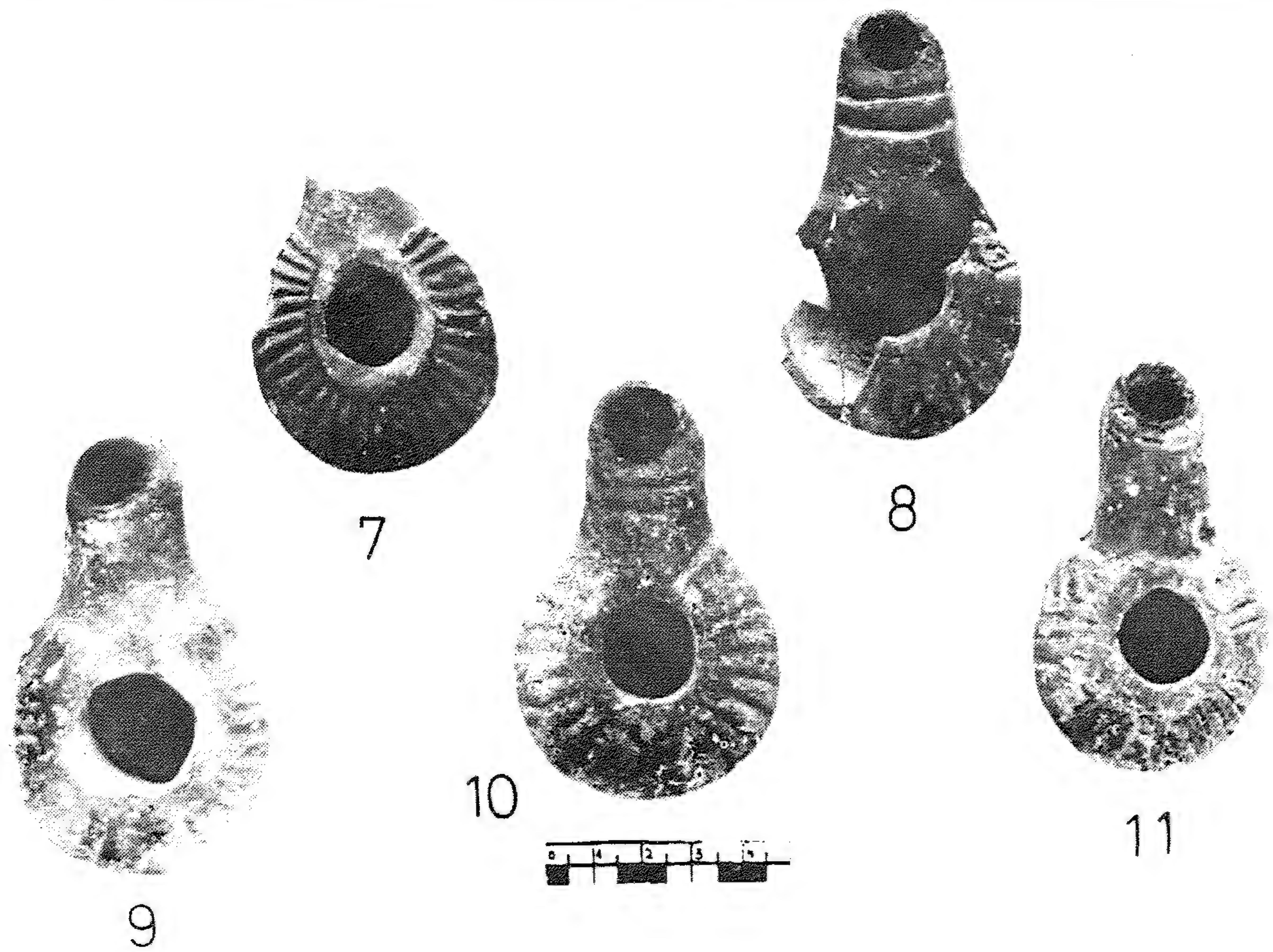
Plate 15

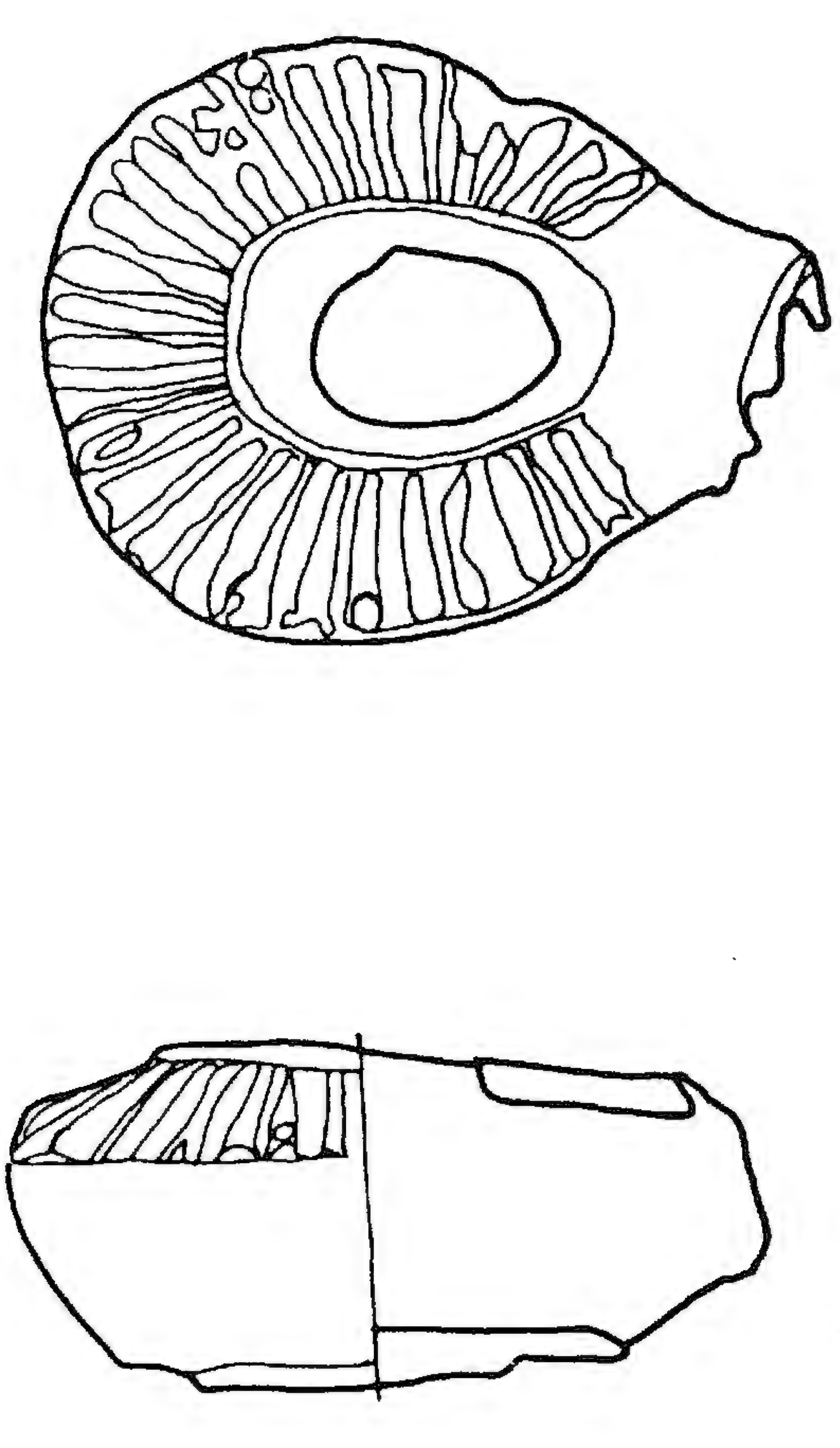


9



11





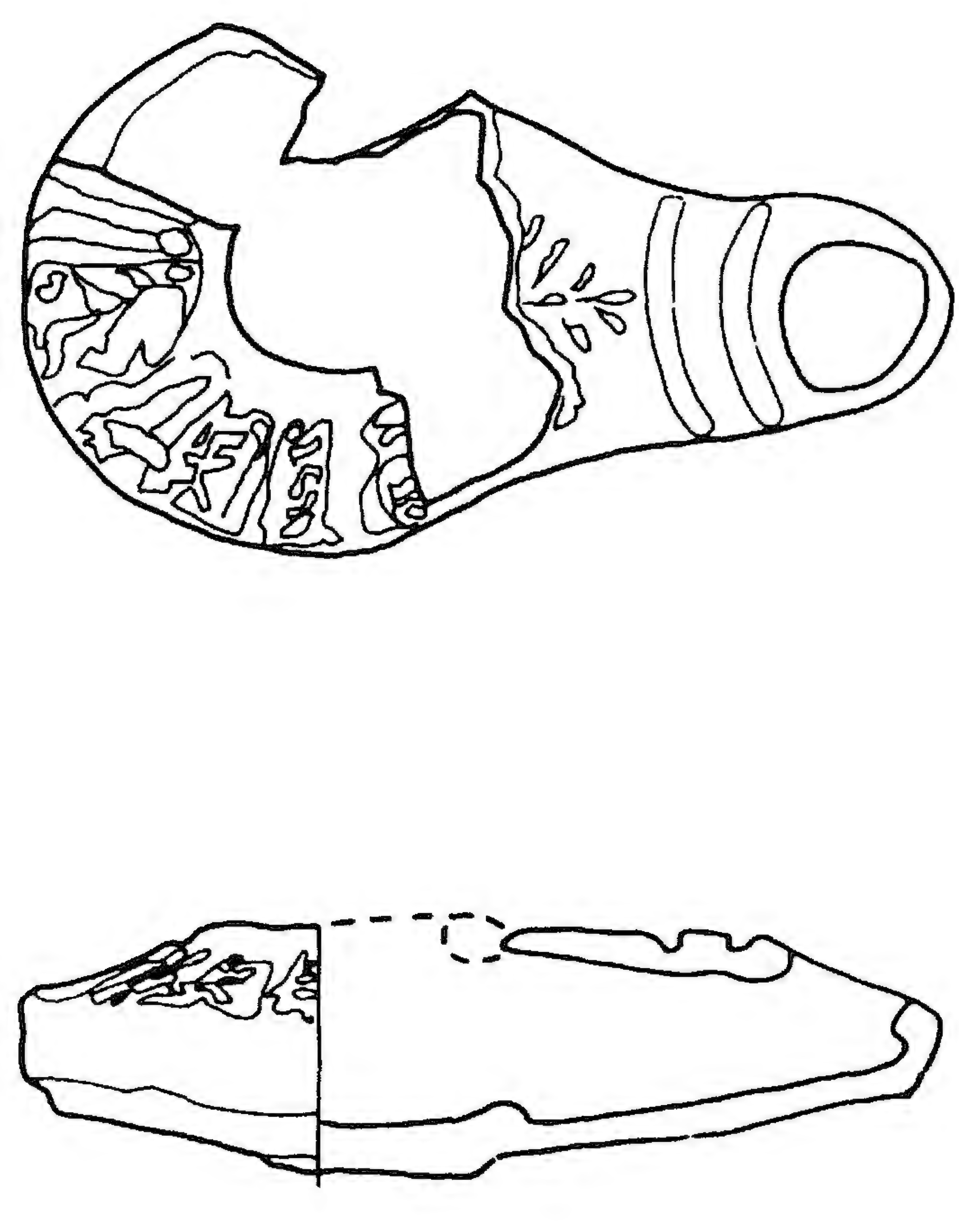


Plate 14

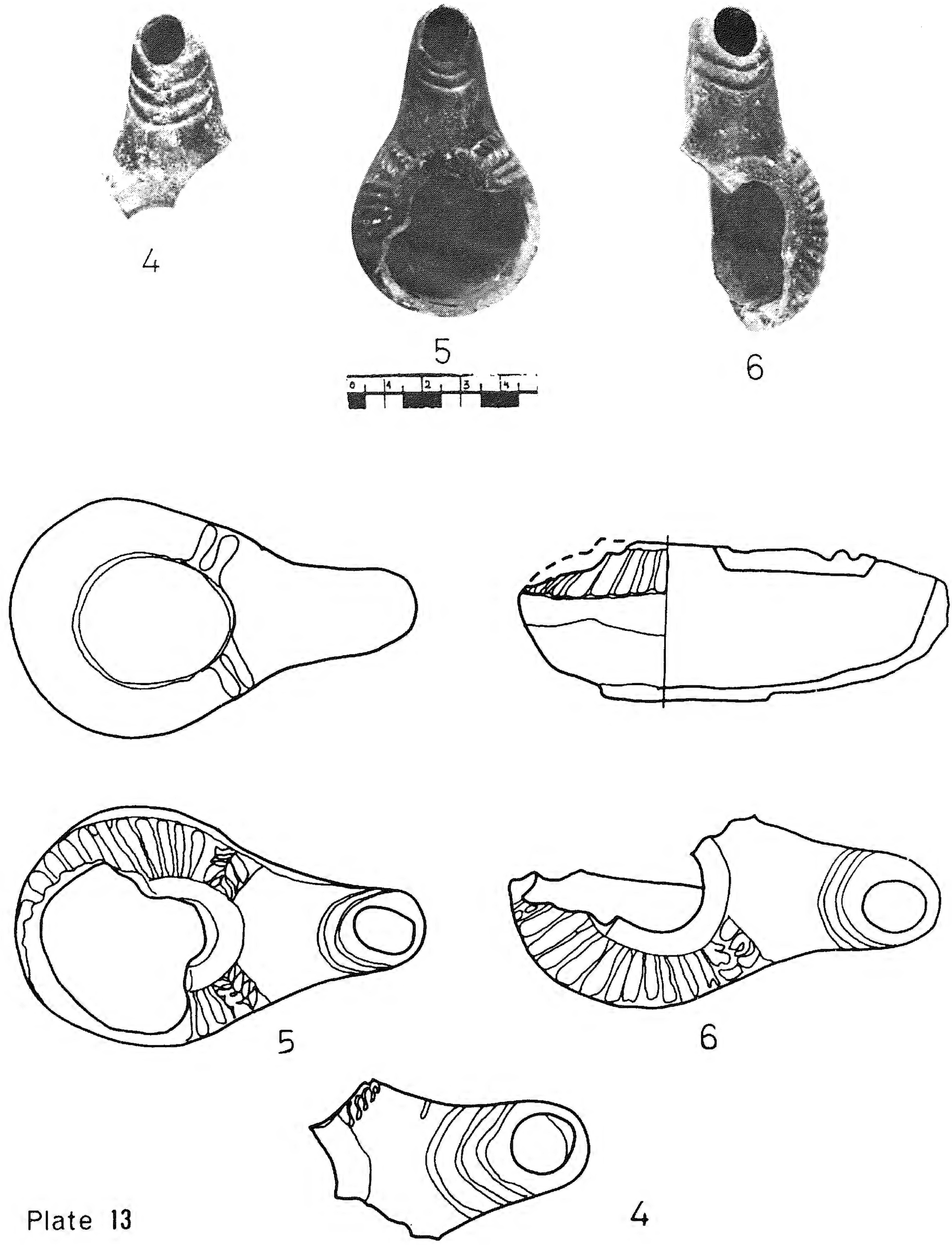


Plate 13

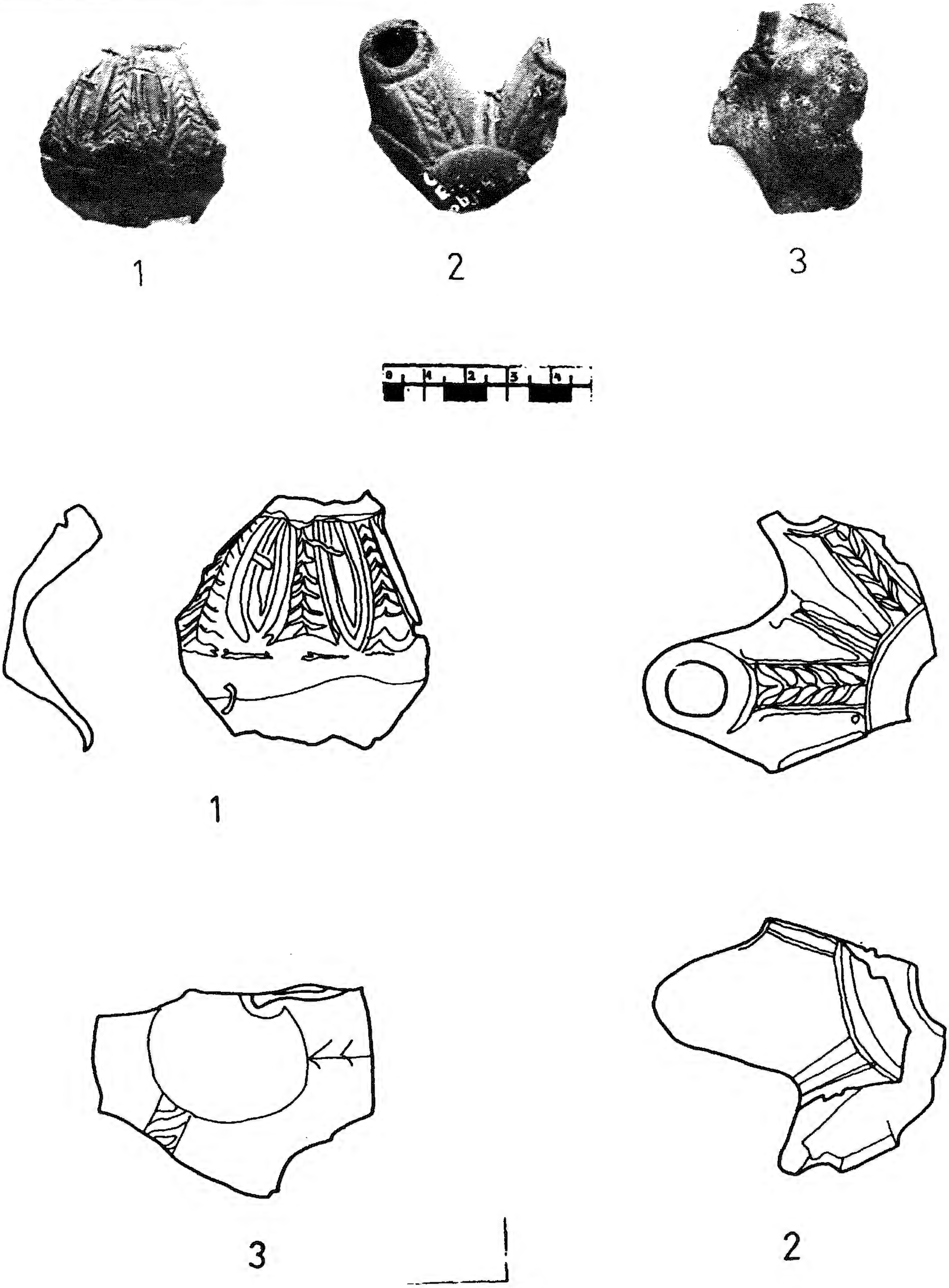


Plate 12



a



b

Plate 11

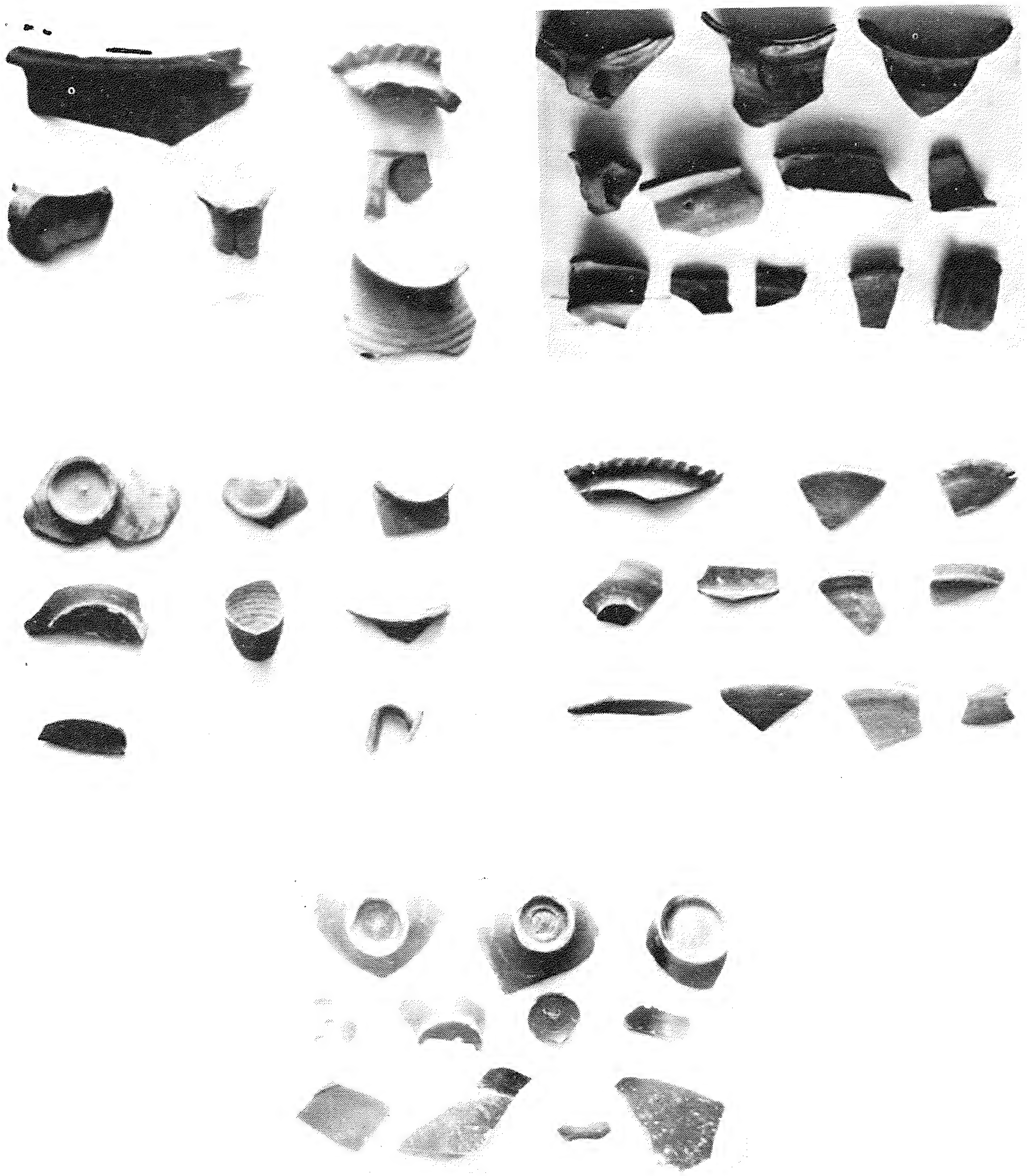
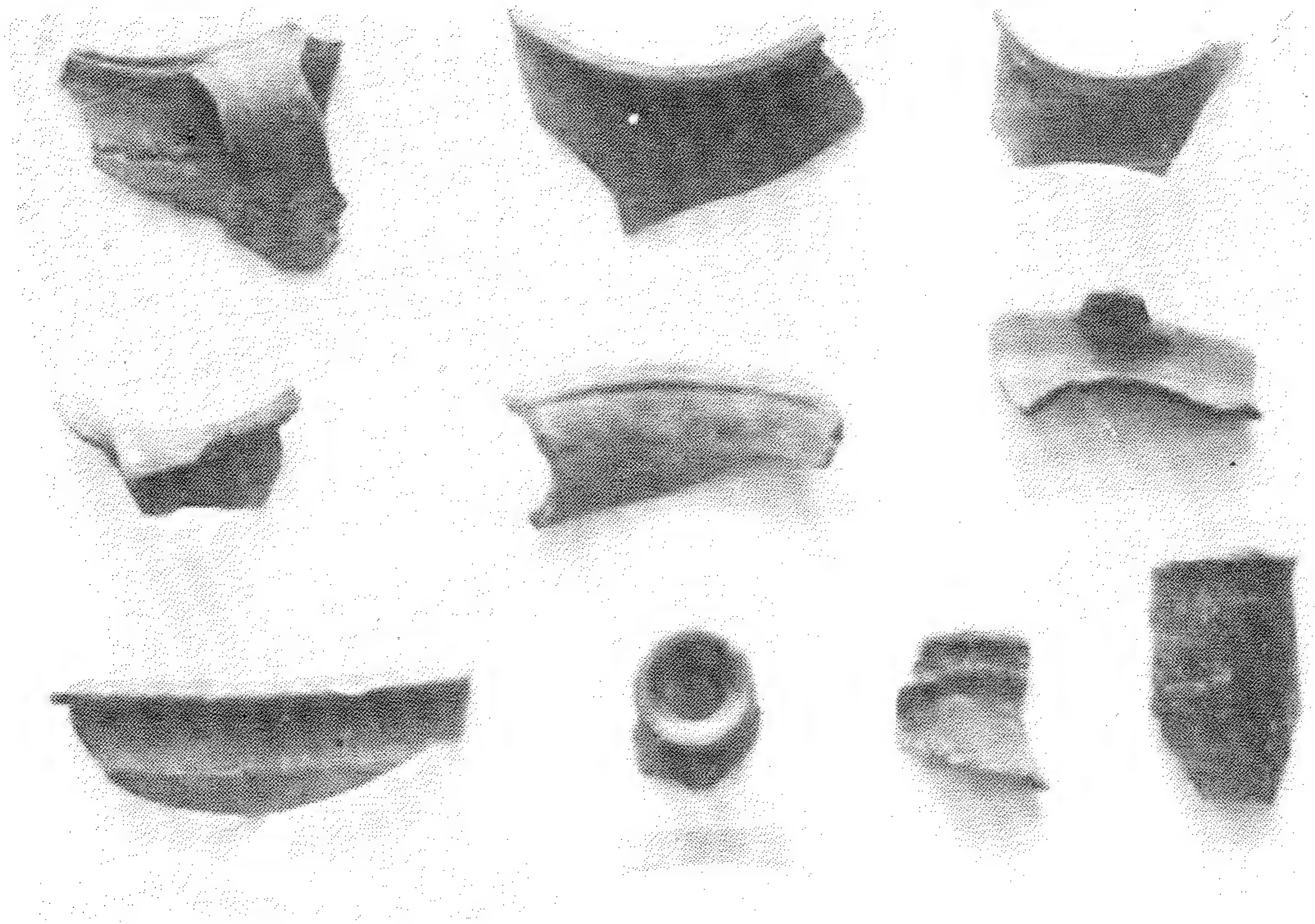


Plate 10



Plate 9



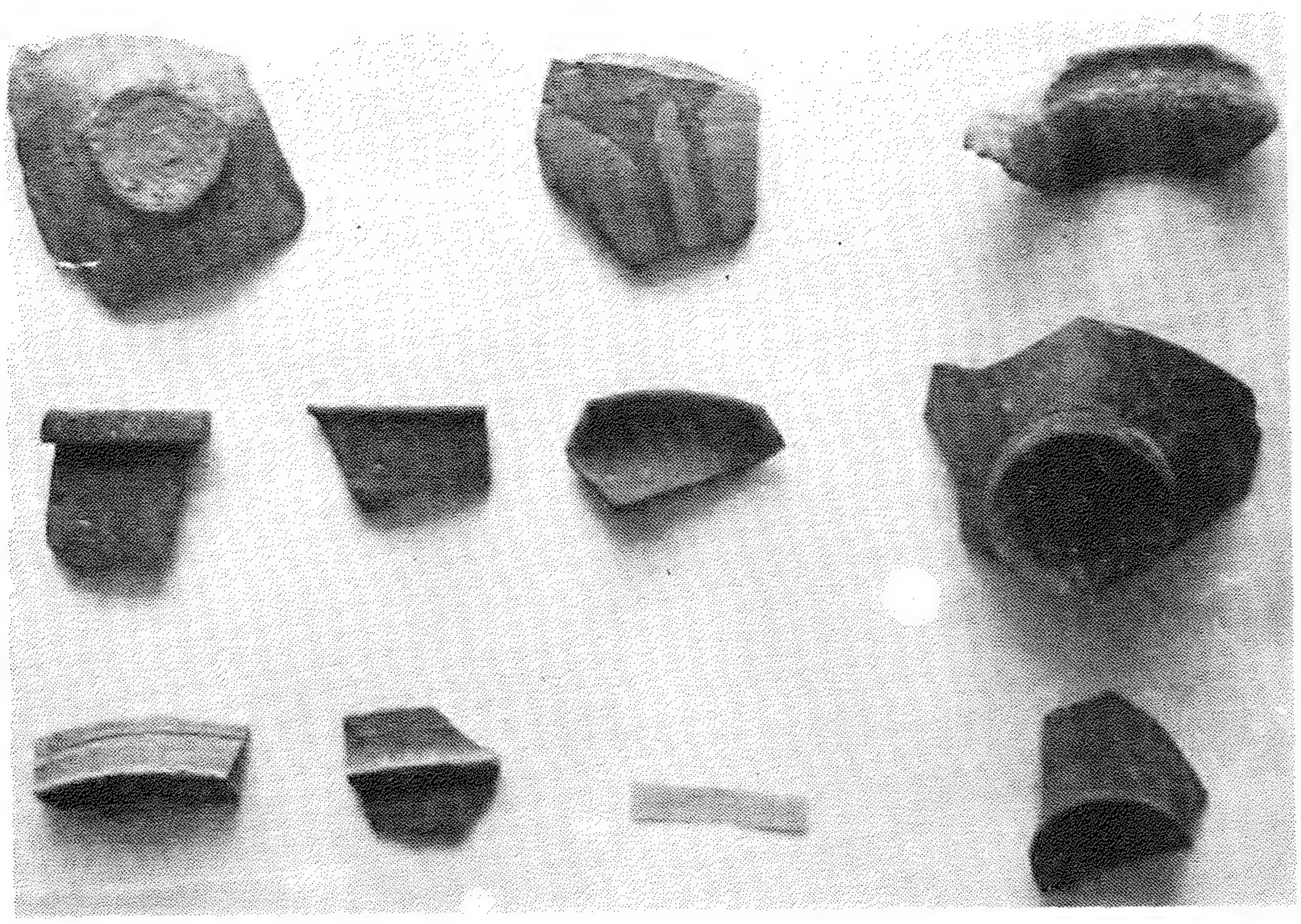


Plate 8

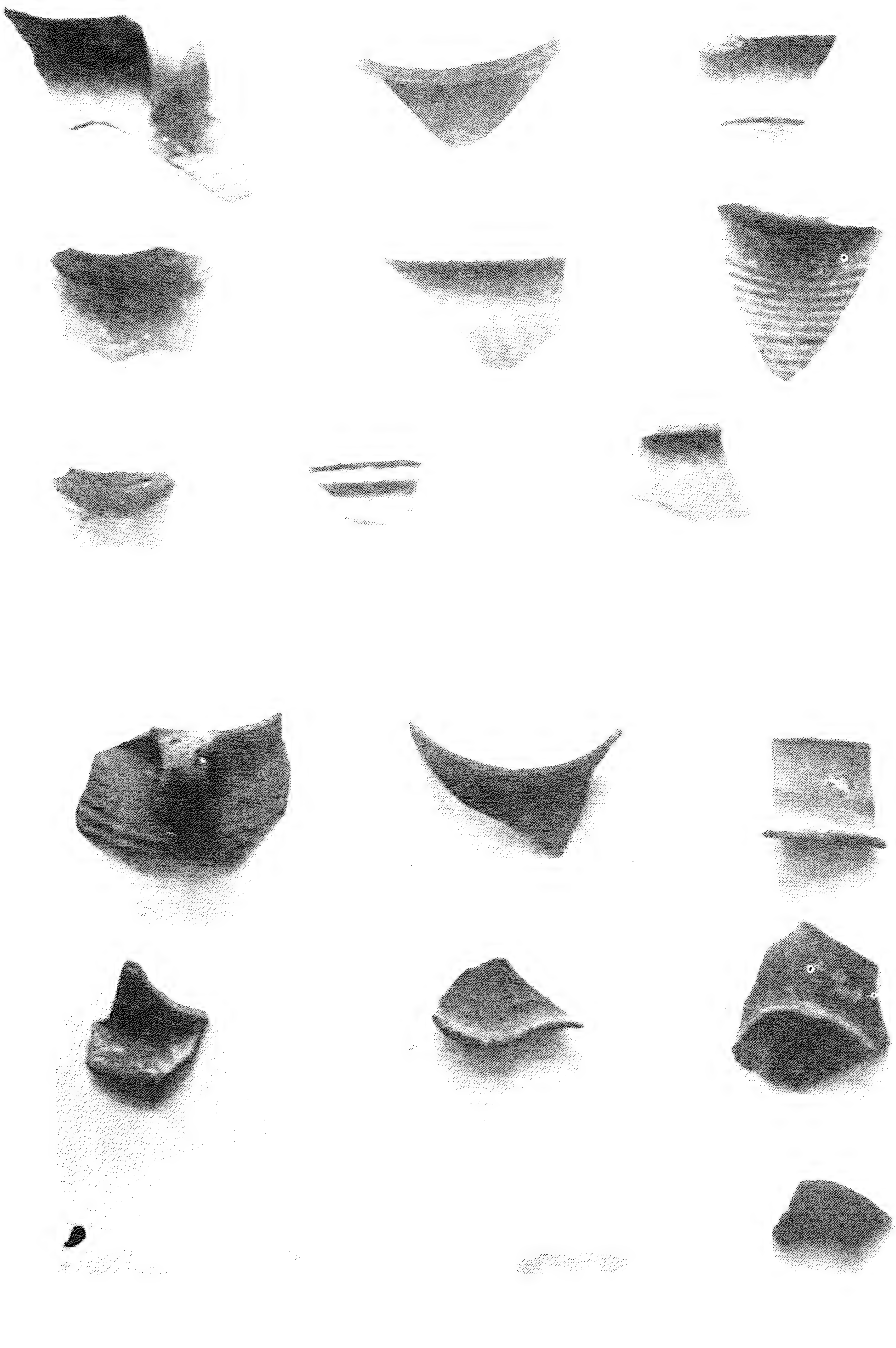
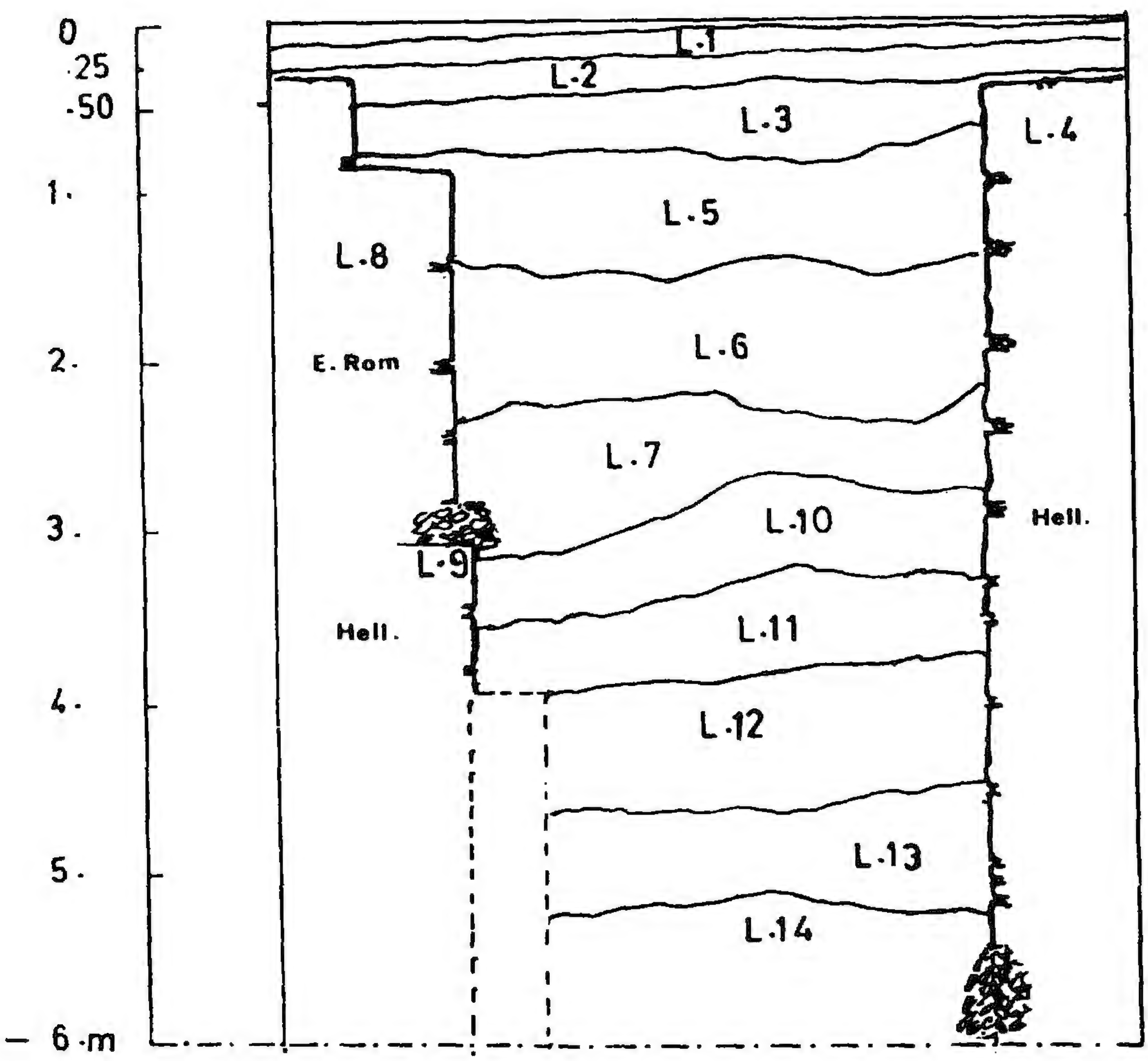


Plate 7

GERASA
1978

AREA E
Square 1
North Balk



Scale 1.50

Plate 6

GERASA
1978

AREA E
Square 1
Locus 4

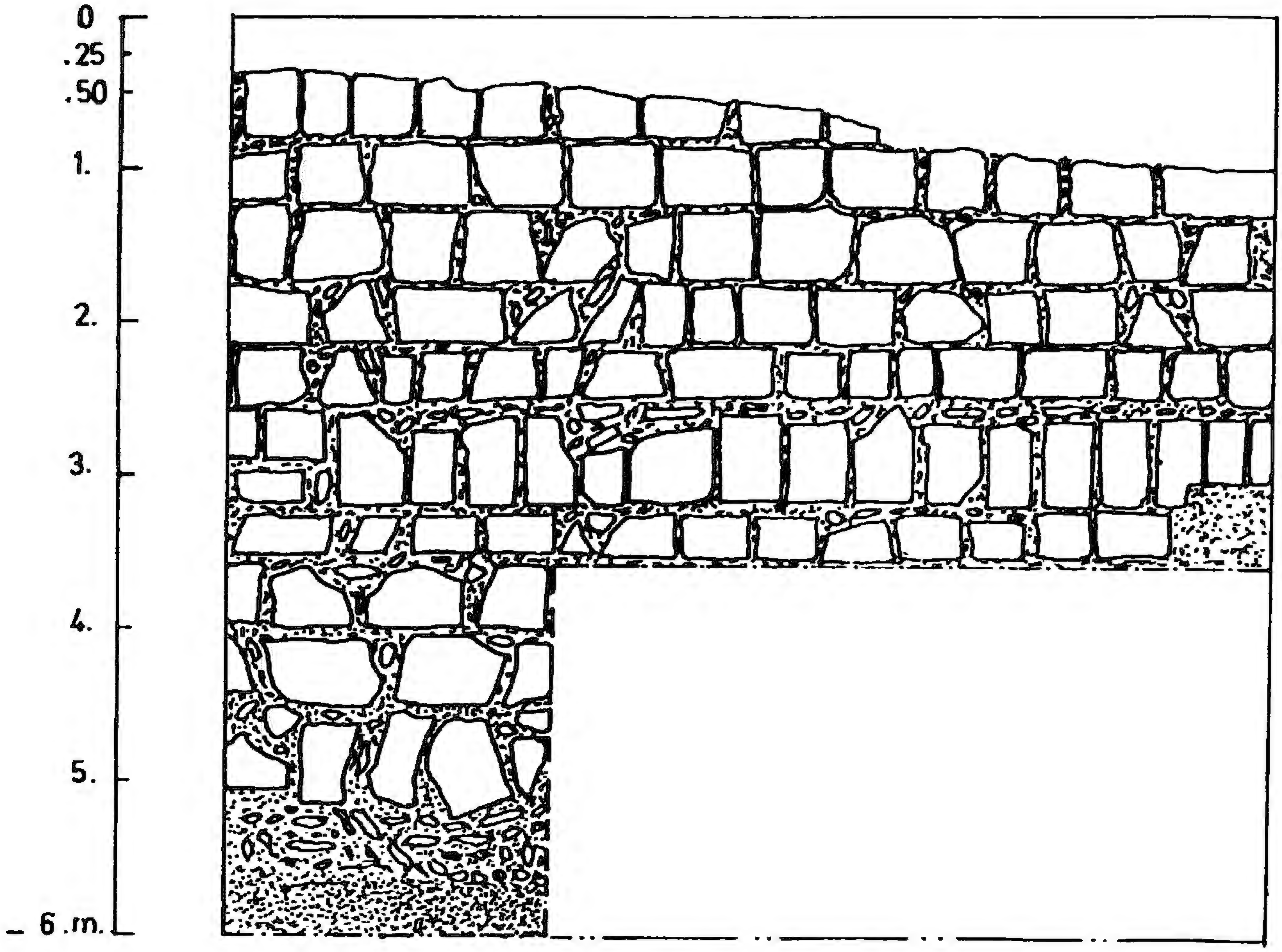
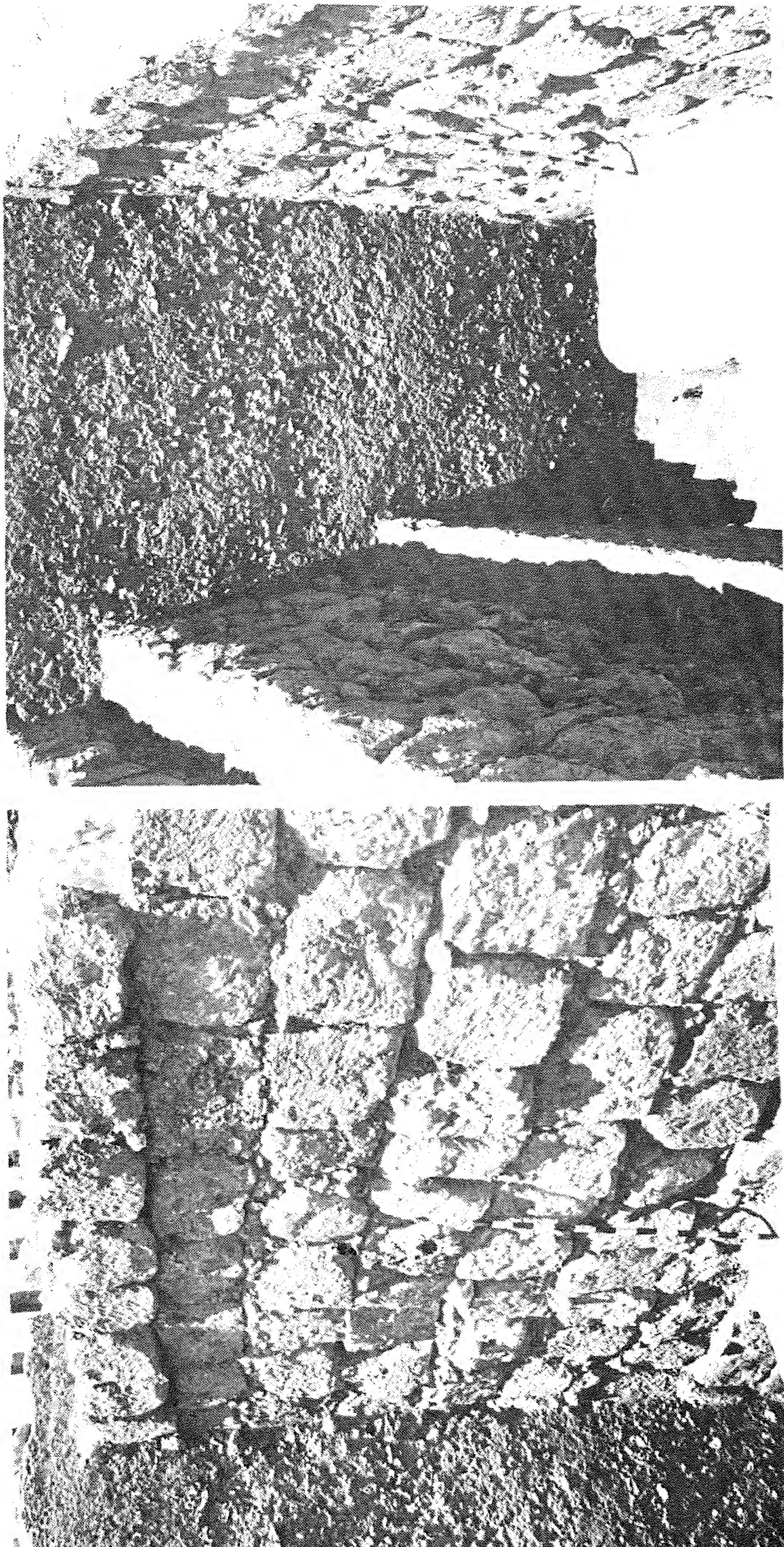


Plate 5

Scale 1:50



a

b

Plate 4

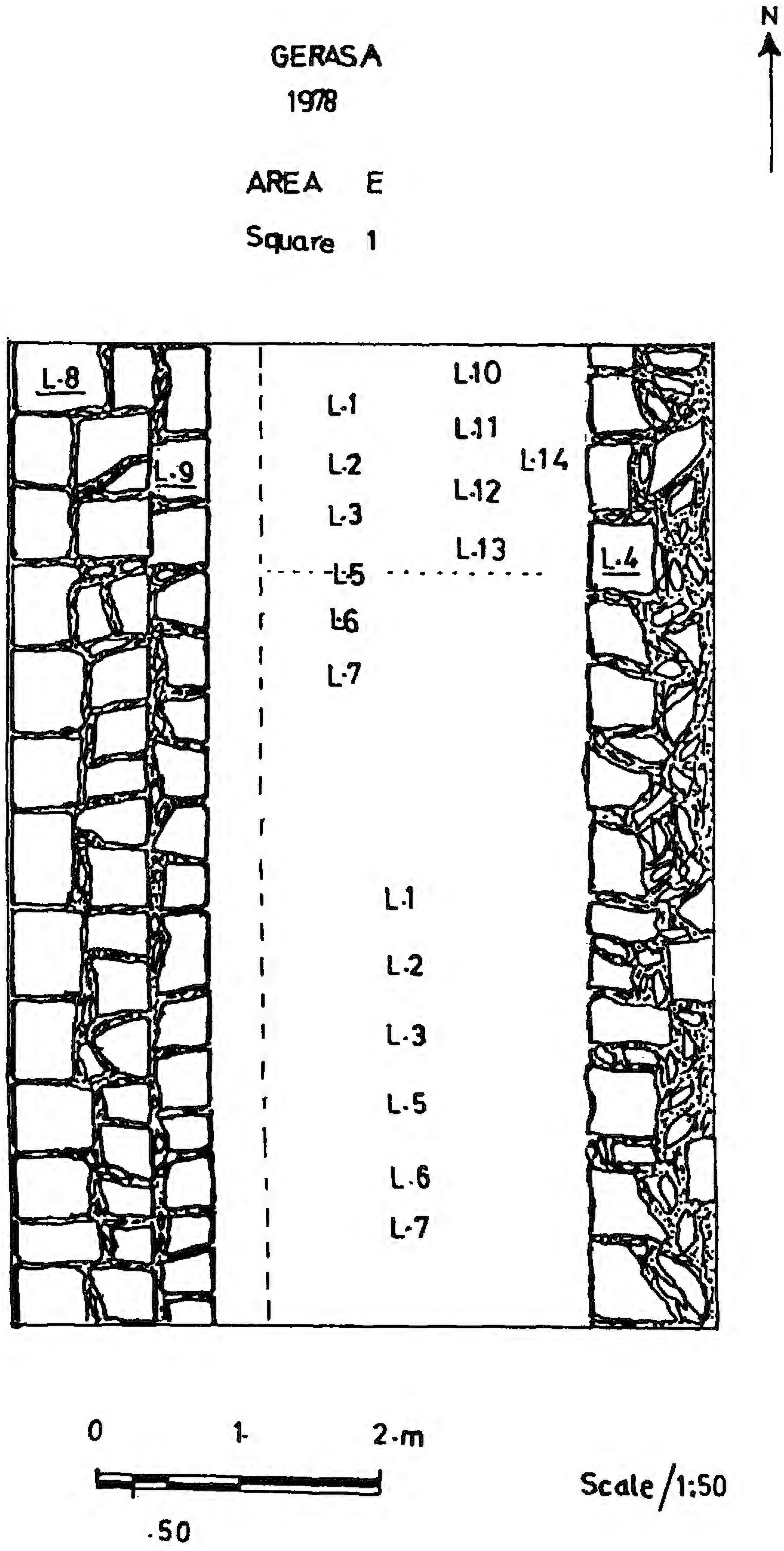
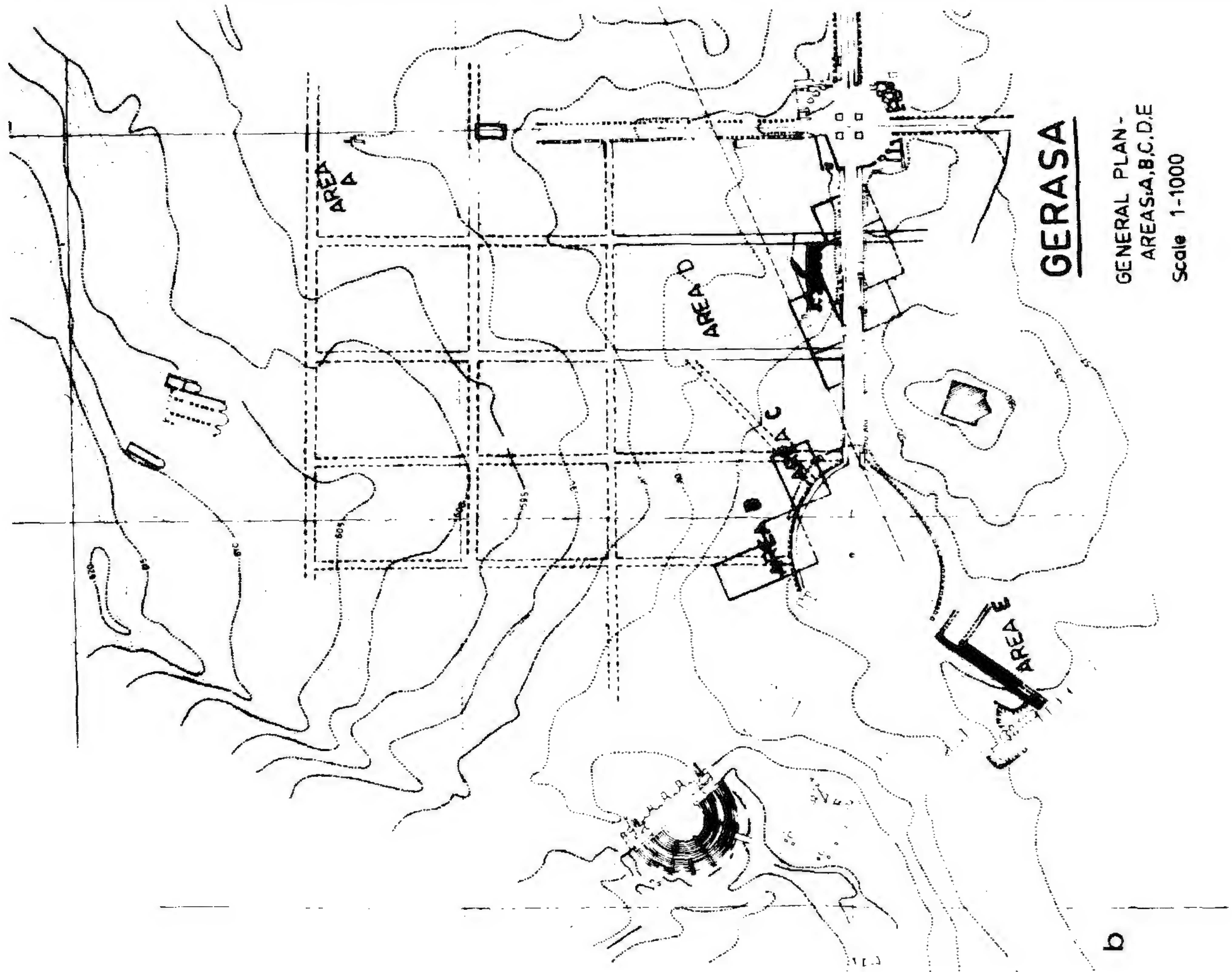
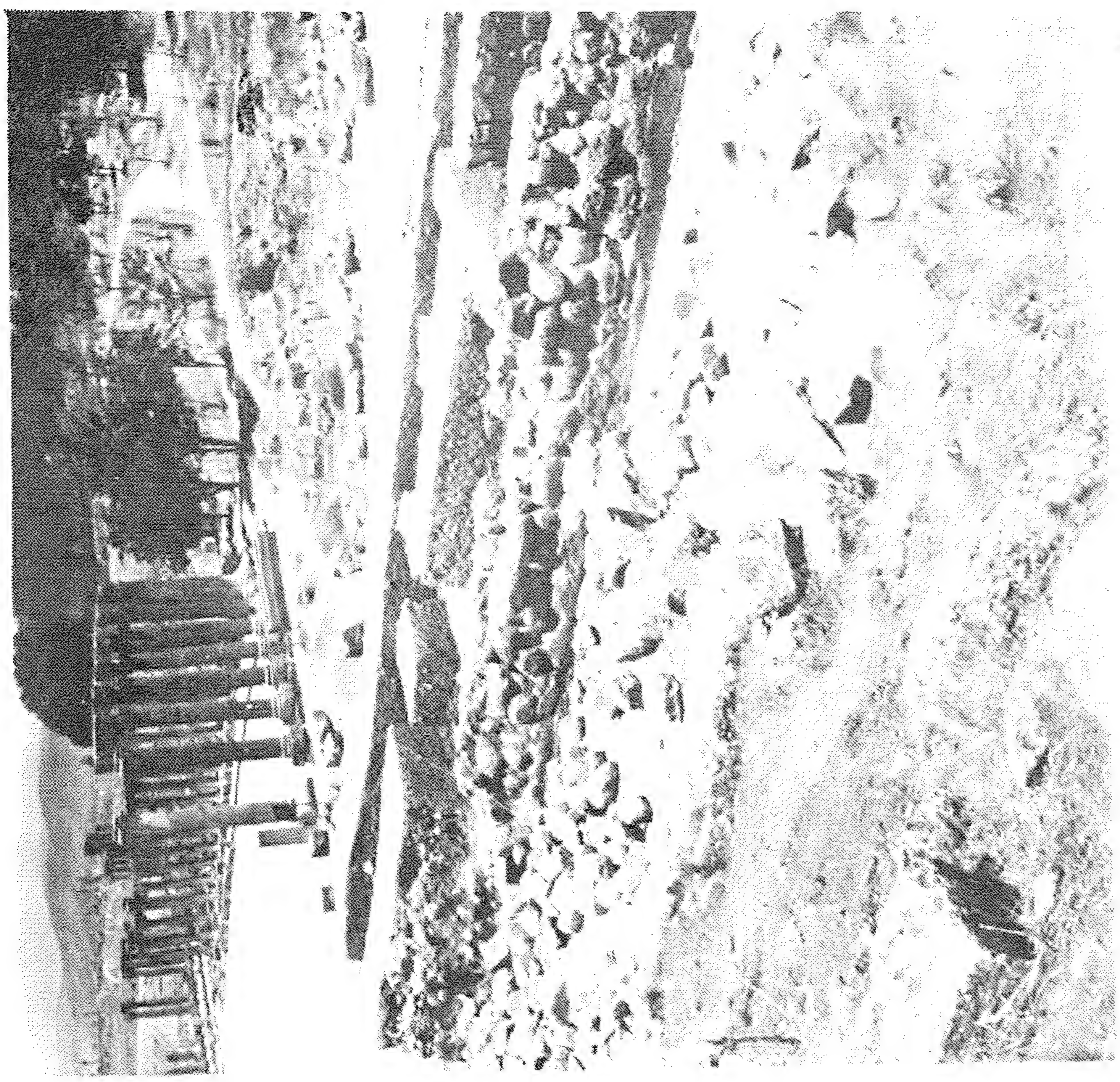

GERASA
1978
AREA E
Square 1
N
L·8
L·9
L·1
L·2
L·3
L·5
L·6
L·7
L·10
L·11
L·12
L·13
L·14
L·4
L·1
L·2
L·3
L·5
L·6
L·7
0
1
2·m
·50
Scale/1:50

Plate 3


GERASA
GENERAL PLAN-
AREAS A,B,C,D,E
Scale 1-1000
AREA A
AREA D
AREA C
AREA E
B

b



a

Plate 2:

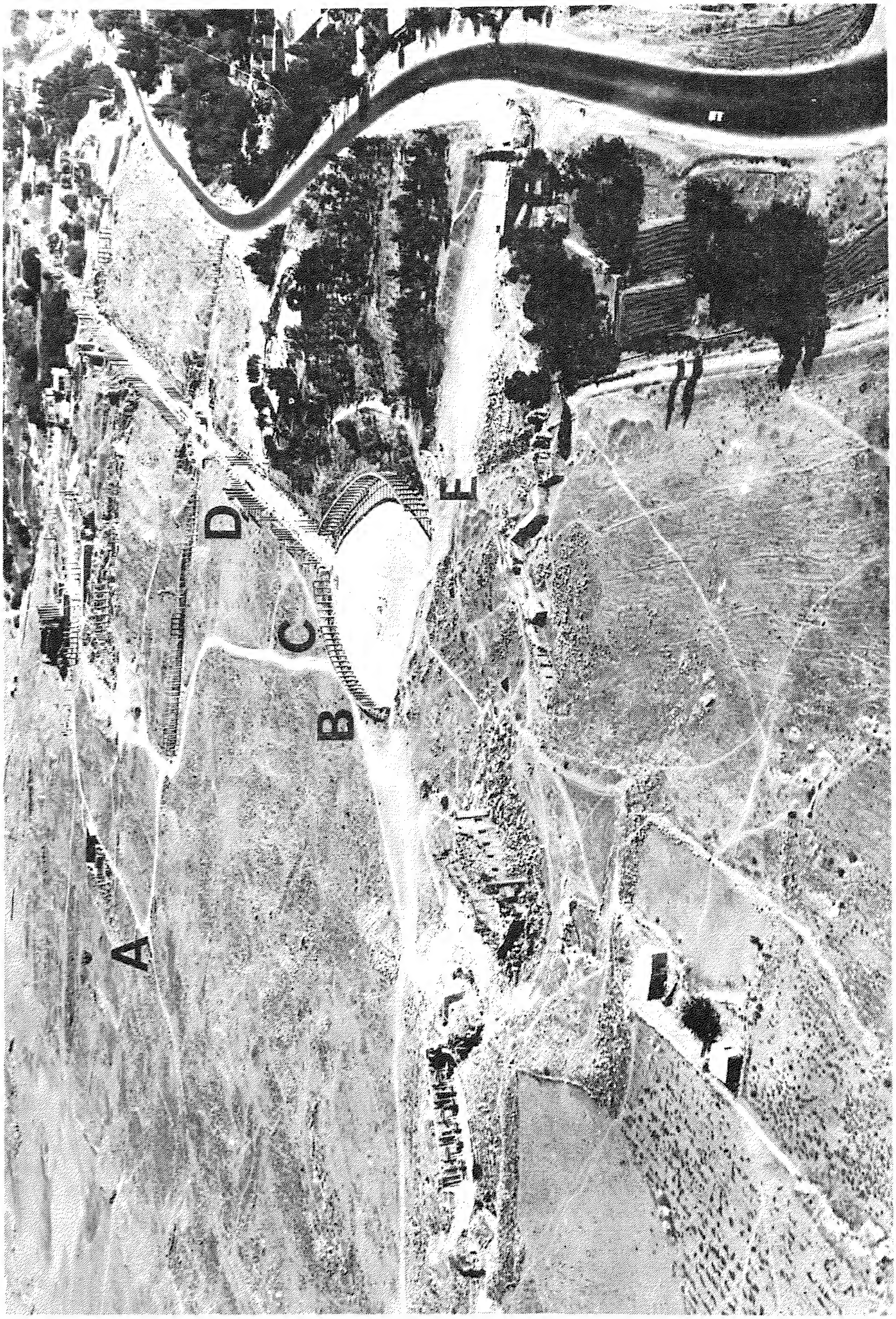


Plate 1

Description of Coins

Pl. No.	Excavation No.	Registration No.	Locus No.	Description	Measurement Diam. (mm)
1.	13	208/78	E.1.10	*Obv.* laurated bust r. within dotted circle. *Rev.* Double cornucopia, between horns above, ins., obscure.	ca. 13
2.	46	209/78	E.1.14	*Obv.* Two ovelaping bust r. within dotted circle. *Rev.* Double cornucopia, between horns above: ....[illegible]... H (H/RTT Š/QYLT), below: ...	ca. 16
3.	47	210/78	E.1.14	*Obv.* Standing draped female (Tyche?) figurel. (3/4), 1. hand on hips, r. hand raised holding ear of corn. *Rev.* Standing draped female figure 1. G/4, raising 1. hand holding ear of barley on 1. Shoulder, to 1. [illegible] (fire altar??).	ca. 13
4.	38	211/78	E.1.14	Partially corroded off. *Obv.* Bust r. within dotted circle. *Rev.* Galley (sailing) 1., row of oarsmen on deck, steerman in front.	ca. 20
5.	41	212/78	E.1.14	Corroded off. *Obv.* Bust r. inscription obscure. *Rev.* Galley.	
6.	11	213/78	E.1.6	*Obv.* diademed bust r., ins: ...N...TIVSPFAVG. *Rev.* Ins. four lines within wreath: VOT/XX/MVLT/XXX; in ex. SMANTI.	ca. 15
7.	23	214/78	E.1.13	Obscure.	ca. 13
8.	21	215/78	E.1.10	Obscure.	ca. 13
9.	28	216/78	E.1.14	Obscure.	ca. 12
10.	24	217/78	E.1.12	Illegible, corroded.	ca. 10
11.	45	218/78	E.1.14	*Obv.* Bust of Tycher., draped, wearing turreted crown and veil. *Rev.* Lausel-wreath. tied below small medallion at top; within, ins. three lines: LΛP/ΓEPΑΣ/EΑ.	ca. 16

Description of Pottery Lamps. (cont d)

Pl. No.	Excavation No.	Registration No.	Locus No.	Description
18.	17	108/78	E.1.10	Crude off-side disc base, roughly made, a lot of small-medium white grits, cracking slip, dripping and leaving blotches on upper surface; ware 10YR 6/4 (light yellowish brown), slip 7.5YR 4/0 (dark gray).
17.	24	125/78	E.1.12	Well levigated clay, few tiny white grits, dripping slip on upper surface; ware 2.5YR 5/0 (gray), slip 7.5R 3/0 (very dark gray).
24.	37	124/78	10	Few tiny white grits, shipped on upper surface and inside whick-hole; ware 10YR 5/1 (gray), slip 2.5Y 3/0 (very dark gray).
21.	15	135/78	E.1.7	Knife-cut, a lot of medium-small white and brown grits, no slip; ware 5YR 7/6 (reddish yellow).
22.	14	133/78	E.1.7	Knife-cut, a lot of medium-small white and brown frits, no slip, ware 5YR 7/6 (reddish yellow).
23.	12	132/78	E.1.7	Knife-cut, few medium-small white grits, shows color variations on surface, top 2.5Y 8/2 (white), bottom 2.5YR 6/8 (light red).
25.	9	109/78	E.1.6	Few medium white grits, cracked slip on upper surface; ware 2.5YR 6/8 (light red), slip 2.5YR 5/6 (red).
27.	19	101	E.1.13	Some medium-small white grits, fine slip, ware 7.5YR 7/4 (pink), slip 5YR 6/8 (reddish yellow).
28.	48	130	E.1.14	Some small white and gray grits, fine slip flaked off at several parts; ware 7.5YR 7.5/4 (pink), slip 2.5YR 5/8 (red).
26.	2	102	E.1.3	Some small white and medium brown grits, no slip; ware 2.5YR 6/8 (light red).

Abbreviations

AASOR	Annual of the American Schools of Oriental Research.
ADAJ	Annual of the Department of Antiquities of Jordan.
ATIQOT	Journal of the Israeli Department of Antiquities.
BA	Biblical Archaeologist.
BASOR	Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
IEJ	Israeli Exploration Journal
JAOS	Journal of the American Oriental Society.
QDAD	Quarterly of the Department of Antiquities Palestine.
QEDEM	Monograph of the Institute of Archaeology, The Hebrew University of Jerusalem.
RB	Revue Biblique.

Description of Pottery Lamps.

Pl. No.	Excavation No.	Registration No.	Locus No.	Description
1.	25	106/78	E.1.12	Well levigated fine clay, tiny white grits, slip all over; ware 10YR 5/1 (gray).
2.	40	129/78	E.1.14	Well levigated fine clay, tiny white grits "dripping slip on top surface; ware 10YR 5.5/1 (gray), slip 2.5YR 4.5/0 (gray/dark gray).
3.	37	122/78	#.1.14	Bottom part, slight disc þase; ware has many small-large white grits; ware 10YR 5.5/1 (gray) core 2.5YR 4.5/6 (red).
4.	26	128/78	E.1.14	Few small white grits, cracked dripping slip on top; ware 10YR 6/1 (gray), slip 2.5Y 3/0 (very dark gray).
5.	35	121/78	E.1.14	Disc base, few medium white grits, cracked dripping "glaze" somewhat uneven; ware 10YR 5/2 (grayish brown), glaze mainly two shades 5YR 4/4 (reddish brown) and 5YR 3/2 (dark reddish bgwn).
6.	58	134/78	E.1.14	Disc base, some small white grits, dripping slip on upper surface; ware 10YR 7/3 (very pale brown), slip 5YR 4/4 (reddish brown).
7.	27	117/78	E.1.14	Disc base, some large white grits, dripping slip on upper surface; ware 10YR 5.5/1 (gray), slip 5YR 4/1 (dark gray).
8.	29	11/78	E.1.14	Roughly made, crude disc base, large white grits, dripping slip, gray core; ware 7.5YR 6/4 (light brown), slip 2.5YR 4/2 (weak red).
9.	18	99/78	E.1.10	Crudely made flat bases, numerous, small white grits, dripping slip on upper surface varying in color; ware 10YR 7/3 (very pale brown), slip main colors 10R 3/6 (dark red) and 2.5YR 6/8 (light red).
10.	20	113/78	E.1.10	Flat base, some small white grits, flaking dripping slip; ware 10YR 8/1 (gray), slip 10YR 4/1 (dark gray).
11.	51	131/78	E.1.14	Crude disc base, roughly made, friable, several medium-small yellow and white grits, dripping slip on upper surface; ware 5YR 7/6 (reddish yellow), slip 2.5YR 5/6 (red).
12.	32	98/78	E.1.14	Slight disc base, few small white grits dripping slip on upper surface, burned; 5YR 7/4 (pink).
13.	36	104/78	E.1.14	Several small-medium white grits, traces of slip on upper surface; ware 2.5YR 6/6 (light red), slip 10YR 4/6 (red).
14.	28	100/78	E.1.13	Disc base, some medium white grits, cracked dripping slip; ware 7.5YR 6.5/4 (pink/light brown), slip 5YR 4/6 (yellowish red).
15.	31	118/78	E.1.14	Slight disc base, some medium-small white grits, remains of slip; ware 10YR 7/1 (light gray), slip 10YR 5/2 (grayish brown).
16.	37	123/78	E.1.14	Slight disc base, few small white grits cracking slip on upper surface; ware 2.5YR 4/0 (dark gray), slip 2.5YR 2.5/0 (black).
20.	33	120/78	E.1.14	Few small white grits, slip broken at places showing light ware; ware 7.5YR 7/4 (pink), slip 10YR 3/1 (very dark brown).
19.	30	114/78	E.1.14	Some medium small white grits, dripping slip on upper surface; ware 10YR 5.5/1 (gray), slip 2.5YR 3.5/0 (very dark gray).

slight spatulated, resembling more like a bridge them a triangle. The wick-hole is distinctly larger than that of type I, and is either circular or is wider than it is long. Frequently is decorated with incised lines and concentric circles on nozzle. (Pl. 20, No. 25).

This type-group shows greater distribution all over Palestine and Jordan. Specimens brought to light from Qumran,[53] Samaria,[54] Nazareth,[55] Gerasa,[56] even Dura Europos[57] yielded some specimens.

Our specimens from Gerasa (Nos. 21-25) fall within the two type-groups mentioned above. P. Lapp catigorize them as type 82.1 and dates them from 75 B.C. to A.D. 70.[58]

One representative sample (No. 25) of decorated Mould-made Herodian lamp dated to 50-31 B.C.[59] The design is not preserved enough to allow for a reconstruction. The smoothly, spatulated nozzle and prominent half volutes on the sides of the nozzle are basically Hellenistic.

Form VI: Augustan. (Pl.21)

Two representative sherds (Nos. 27, 28) of the decorated disc Augustan lamps. No. 27 shows something like a fish tail No. 28 shows a human leg which could be a part of an erotic seen. However, lamps designated "Augustan" are commonlly dated to the first century A.D.[60]

Form VI: Pre-Umayyad / Umayyad Lamp (Pl.20 No.26)

Representative sherd of a stylized head handle of Jerash lamp type of pre-Umayyad/Umayyad period and typical of Jerash. A great numerous number of this lamp was found in other excavated areas of the city.

The Coins

Eleven pieces of bronze coins were collected from the square. Four coins were badly corroded and are obscure. The legible pieces, however, provide terminus ante-quem relevant to that of the other material in the deposits.

Coin No. 1 (Pl. 22. See coins description below) seems probably to belong to a Gadarene mint of Julio-Claudian date (27 B.C. – A.D. 68).[61] Coin No. 2 is of the Nabataean King El-Hereth IV and his second wife Shaqilah (Aretas and Shqilath: A.D. 23-48).[62] No. 3 is uncertain mint. It seems likely that it is an issue of Gerasa itself, perhaps a Quasi-autonomous first century A.D. mint. Nos. 4 and 5 are also undetermined, but they are similar to phoenician mints, i.e. tyre, revealed in Gerasa too, and dated to 98/7 B.C. – A.D. 84/5.[63] Coin No. 6 belongs to constantius II (A.D. 337-346) pre-reform mint (A.D. 344) of Antioch.[64] Coin No. 11 is a Quasi-autonomous coin of Gerasa dated to the year 130 = A.D. 67/68.[65]

Coins No. 1-5 and 11 are giving a terminus ante-quem A.D. 67/68. This date, infact, corresponds with the ante-quem of the filling deposits (loci 7-14) between the two Hellenistic walls (locus 4 and 9). Excavations revealed that those deposits were sealed by the first century A.D. constructional activities at Gerasa, where a new wall was built (locus 8) over the older Hellenistic one (Locus 9). On this account we can safely conclude that the re-arrangement of the Area, between the South Gate and the Colonnaded Plaza, took place around A.D. 67/68.

The terminus post-quem of loci 6-2 is also fixed by coin No. 6 which dates to around A.D. 344. This coin could be interpreted as an evidence of a middle fourth century A.D. reconstruction to the first century A.D. wall. The date ante-quem of the deposits of loci 2-6, however, is determined by the typical pre-Umayyad/Umayyad material, i.e. pottery and lamps, dated to the first half of the seventh century A.D.

---

(53) R. De Vaux, *op. cit., pp.* 217, 222f. fig. 4:8.
(54) J.W. Crowfoot, et. al., *op. cit.*, p. 371. fig. 88:2.
(55) E.T. Richmond, "A Rock-cut tomb at Nazareth", *QDAP*, I. (1931), Pl. XXXIV:II
(56) H. Iliffe. *op. cit.,l.* I.VIII: 154-156.
(57) P.V.C. Baur. The Excavations at Dura - Europos, Final Report V. pt. 111: The Lamps, (New Haven . 1947). pp. 3 - 15, fig. 7, pl. 11: 38 .
(58) *P. Lapp, op. cit.*, p. 193; cf. R. Rosenthal and R. R. Sivan, *op. cit.*, p. 80-81.
(59) P. Lapp *op. cit.* type 82:2; R. Rosenthal and R. Sidan, *op. cit.*, p. 82-83.
(60) R. Rosenthal and R. Sivan. *op. cit.*, p. 19-31; R.H. Smith, "The Household Lamps of Palestine in New Testament Times, BA, XXIX (1966), p. 15.
(61) It either belongs to Tiberius (year 92 = A.D. 28/29) or Claudius (year 108 = A.D. 44/45). For similar parallels, see A.Spijkerman, *The Coins of the Decapolis and Provincia Arabia*, Jerusalem, 1975, pp. 132-33, Nos. 12, 17, Pls. 26:12, 27:17.
(62) Parallels from Gerasa too, see A.R. Belinger, *Coins from Jerash*, 1928-1934, (New York: The American Numismatic Society, 1938), p. 37, No. 77.
(63) *Ibid*, p. 23, No. 14.
(64) *Ibid*, p. 70, No. 229; D.R. Sear.
(65) For exact parallel, see A. Spijkerman, op. cit., pp. 158 - 59, No. 2, Pl. 33: 2 .

variations in ware than those of the ray motif group. Nos. 16 and 19 are the characteristic second century B.C. gray ware. The volutes of No. 19 are actually starting to degenerate into a more thickened line around the wick hole, or is this the start of the form? No. 20 which has a black slip on pink ware gives a later date of the second century B.C. No. 14 is brown with careful execution which places it in the second century B.C. No. 15 is light grayish brown and seems as though it was made with a mould which was already made after some earlier lamp. No. 18 is gray-brown and quite sloppy which might place it in the early first century B.C. Similar examples have been found at Gerasa.(43)

Form IV: (Pl. 20)

Representative example of the form (No. 24) is a lamp nozzle with folded sides. The ware is typical second century B.C. gray ware, but the shape is of Roman Imperial tye.(44)

Form V: Bow-Spouted Lamp. (Pls. 19, 20)

This form is commonly termed "Herodian". The name "Herodian originally intended to designate the period of the reign of Herod the Great (37-4 B.C.) used, by Biblical Archaeologists, as a Palestinian equivalent for the term "Augustan". But the term "Herodian Lamp"(45) includes the period of the entire Herodian, Dynasty, which ended about A.D. 100 with the death of Herod Agrippa II.(46)

However, Excavations in Palestine and Jordan yielded important evidence for the history of the so-called "Herodian Lamp", though the origin of this type of lamp has not been yet determined. But, it is generally agreed that the "Herodian" type is a characteristic Eastern Mediterranean type of Hellenistic descent (i.e. "Cnidos and "Ephesos lamps),(47) in contrast to the Roman discuss lamp. Apparently Palestinians had no interest to adopt the more sophisticated lamp-forms which were current in the Mediterranean region at that time, nor even encouraged the continuation of the older Hellenistic desgin.

The simple distinctively Palestinian wheel-made lamp of graceful design which has come to be called "Herodian", become promient during Herod's reign, and quickly achieved popularity all over the country. The form which represents the commonest size is easily distinguishable from other lamps. Most specimens are so uniform that one could almost suspect that they were prodnets of a single potters shop.

It is of light colored clay, either with or without slip of the same clay as the body, the oil reservoir is wheel-made, with a wide rim which bends inwards to form a filling-hole of moderate size. The base is generally only a slight flattening of the body. The nozzle is hand-finished and subsequently attached to the body. It is rather short and tends to be Bow-shaped "spatulated". Sings of paring are always found on the nozzle and often on the body. The wick-hole is a shaft punched in the nozzle after its attachment to the body. The lamp is either entirely plain or decorated on the nozzle with concentric circles or horizontal incisions.

There are many varieties of the Herodian lamp, but all of these varieties could be fall into one or another of two major group-types, each has a set of distinctive features.(48)

Type I:

Rounded body with prominent ridge encircles filling-hole. Between this ridge and the filling-hole is a pronounced flange which forms the rim of the filling-hole. The nozzle of the lamp is acutely spatulated, having when viewed from above, a rather triangular appearance. The wick-hole is only moderate in size and is longer than it is wide. There is no decoration of any kind.

Specimens of this type were yielded in so many sites all over Palestine and Jordan, to mention some: Samaria,(49) Jerusalem,(50) Jericho,(51) Amman.(52)

Type II:

The oil reservoir is not rounded as in type I, but tends to have a flatter shoulder and straighter sides. A low, thickened ridge around the filling-hole nozzle is only

(43) J.M. Iliffe, *op. cit.*, pl. VII:113.

(44) For parallel *see*: R. Rosenthal and R. Sivan, *op. cit.*, pp. 22ff.; T. Szentleleky, *op. cit.*, p. 49, No. 40.

(45) It has also been called "Augustan" on the assumption that it is only a Palestinian variety of the Roman molded lamp which was in use around the time of Augustus (27 B.C. – A.D. 14).

(46) It is also recognized that at times "Herodian" has been used for the period 50 B.C. – A.D. 70, (cf. J.L. Kelso and D.C. Buramki, "Excavations at New Testament Jericho and Khirbeten – Nitla," *AASOR*, XXIX-XXX (1949-1951), p. 22. However, P. Lapp, *op. cit.*, p. 4, no. 20 rejects the idea for "... this leads to confusion because it does not correlate with the use of the terms "Augustan and Tiberian".

(47) R. De Vaux, *op. cit.*, pp. 216, 220 Fig. 3:17 "possibly a late Augustan specimen of the Hellenistic "Ephesos" Lamp type."; J.W. Crowfoot, et. al., pp. 368, 370, fig. 86:1, 87:5; R.A. Macalister, *op. cit.*, Pl. 63: 7,9-11.

(48) For different types and varieties *see*: R.H. Smith, "The Herodian lamp of Palestine: Types and Dates," Berutys, XIV, Fasc. I (1961), pp. 53-65.

(49) J.W. Crowfoot, et al., p. 365, 368,Fig. 86:2, 3-37.

(50) R.W. Hamilton, "Excavations Against the North Wall of Jerusalem" *QDAP*, (X (1937-1938), 1944, pp.1-54, Fig. 14:8.

(51) J.B. Pritchard, *op.* cit., pp. 22ff., Pls. 19:2, 49:1, 4,5, 31, 59:32.

(52) L. Harding "Excavations on the Citadel, Amman,» *ADAJ*,I (1951), pp. 7ff, *Ibid.*,«A Roman Tomb in Amman," Pl. IX:3.

Eastern Sigillata "A" Objects.

Sr. No.	Excavation No.	Registration No.	Area and Locus No.	Description
1.	45	67/1978	E. 1. 10	Part of a ring base of Eastern Sigillata open small bowl or plate. Letter α (Alpha) scratched inside, letter height 9 mm.
2.	65	68/1978	E.1.10	Part of a ring base of Eastern Sigillata plate, Scratched on base letters π.T on the inside stamp of two lines MHC Stamp measurement 9 x 14 mm.
3.	58	69/1978	E.1.12	Part of a deep bowl, ring base complete. On base letter θ (Theta) scratched, letter height 8 mm. Eastern Sigillata.
4.	43	70/1978	E.1.14	Part of Eastern Sigillata deep bowl, ring base, scratched on base θ϶0 . Letters height: = 5 mm., E = 4 mm, 0 = 3 mm.
5.	44	71/1978	E.1.14	Part of Eastern Sigillata deep bowl, ring base, complete. Scratched on base letter ϕ, letter height 17 mm.
6.	55	72/1978	E.1.14	Small part of a base of Eastern Sigillata plate, flat Inside, two groups of rouletted concentric circles, between stamped palmette or Isis crown. Palmette measurement 12 x 7 mm.
7.	56	73/1978	E.1.14	Part of a deep Eastern Sigillata bowl, ring base, complete, slip has black drippings. Deep scratch on base 11.
8.	57	74/1978	E.1.14	Part of a deep flared Eastern Sigillata bowl, small ring base, complete, scratched on base: M. Length of M = 4 mm.
9.	62	75/1978	E.1.14	Part of a ring base, Eastern Sigillata flat plate, ridge inside below rim. Stamp on center inside XAPIC. Stamp measurement 15 x 6 mm.
10.	63	76/1978	E.1.14	Small ring base, Eastern Sigillata bowl, slightly flenged, conical; stamp on inside C.KSAE. Stamp measurement 14 x 4 mm.
11.	49	77/1978	E.1.14	Part of a large plate, reddish clay, some gray on black, light gray cone, decorated with wine and stylized pommegranate in deep red. Byzantine; sherd measurement 170 x 80 mm.

Walters, common in the Eastern Mediterranean and dated to the second half of the second and early first century B.C.[36] Our lamps are representatives of local type, which has been found at several sites in Palestine and Jordan.[37] The form is here divided according to the differences in decoration: *Ray motif*[38] (Pl. 12, No. 3, 13-16, 18 No. 17). Samples show two different colors. Nos. 3, 4, 10 are gray and could be attributed to the second half of the second and beginning of the first century B.C.[39] The brown color and sloppy execution of Nos. 5-9, 11 (No. 5 is glazed), could place them in the beginning of the first century B.C.[40] Parallel examples come from Ashdod and Amman.[41] Nos. 12, 13 are red having vertical handles and comparatively large. The design is executed quite well. From these parts they could belong to the later part of the second century B.C. or very early first century B.C.

Volate motif[42] (Pls. 17-18). Samples show wider

(36) H.B. Walters, *Catalogue of Greek and Roman Lamps in the British Museum*, (London: 1914), pp. 42- 44; Cf. P. Bruneau, *op. cit.*, pp. 81-88; R. Rosenthal and R. Sivan, *op. cit.*, p. 13.

(37) P. Lapp, *op. cit.*, pp. 194-195, type: 82.

(38) *Ibid.*, p. 194, type 83.2.

(39) R.H. Smith, A. McNicoll and Hennessy, *op. cit.*, p. 8, pl. XVII: 1,2, F. Zayadine, *op. cit.*, p. 37, Pl. XXIII.1, J. 13377; T. Szentleleky, *op. cit.*, p. 45, No. 33, p. 49, Nos. 39, 41; R. Smith, *op. cit.*, p. 113.

(40) R. Smith, *op. cit.*, p. 122.

(41) M. Dothan, "Ashdod 11-111, the second and third seasons of Excavations 1963, 1965, soundings in 1967," *Atiqot, English series*, IX-X (1971), Figs. 8:22, 79:21; L. Harding." A Nabataean Tomb at Amman", *QDAP* XII/3-4 (1946), p. 61, pl. XX:3.

(42) P. Lapp, *op. cit.*, p. 195, type: 83.3; T. Szentleleky, *op. cit.*, p. 46, No. 37, pp. 49-51, No. 40, 41.

The base of a hemispherical bowl (Pl. 11, No. 7) belongs to one of the earliest and commonest Sigillata forms occurred at Samaria.[29] Another early type of hemispherical bowls is represented by the fragments (Pl. 11, Nos. 8-12), with slightly everted rims, have close parallels from Samaria dated to 75-25 B.C.[30] Cups or bowls fragments with flaring concave rims belong to the earliest examples which appeared in the Augustan period, representing a very common first century A.D. type.[31]

Thus, our Sigillata fragments show, in the one hand, the first century B.C. early forms of bowls and plates, on the other, illustrating the change in the design and decoration that occurred in the Augustan period, where high bases, palmettes or Isis symbols are characteristic features of that change. This is confirmed by the fragments, which contain potter's stamps or symbols like xapic, that characterized sigillata bowls, cups and plates from the Augustan period on wards in the first century A.D.[32] (See Sigillata description below).

Pottery Lamps

A total number of thirty eight lamps and lamp sherds were unearthed in the square. They show a variety of forms and wares typical of the periods represented. All lamps were mould made except representatives of the so-called Herodian lamps. They are divided into catigories according to the differences in form. Only twenty eight are illustrated in our study (Pls. 12-21).

Form I: Biconical- round body

Only one representative sherd (Pl. 12, No. 1) of this form was found. The fragment curves out at the bottom suggestive of a high base lamp having a deep biconical round body and raised rim. The sloping curved, shoulder is decorated by long alternating impressed petal and palmette, or herring bone, motifs. The central filling-hole is without discus, separated from the shoulder by a raised bordering rim defined by a groove, ware is gray, well levigated fine clay, tiny grits and slip all over.

No exact parallel for this lamp has been located. The only closest parallel form seems to be a lamp dated to the second half of the first century A.D.[33] But its decoration and ware are different. Perhaps our lamp, with its characteristic decoration and ware, can be ranged with the large group of Late Hellenistic lamps classified as Epheses lamps having double convex body and foilage and mask or Erotes and palmettes decoration, dated from the middle of the second to the middle of the first centuries B.C.[34]

Form II: Multi-nozzled

One representative sherd of the form was found(Pl. 12, No. 2). The considerably elongated rounded spout nozzles of the lamp are decorated with palmattes. Multi-nozzled lamps have been found in Eastern Mediterranean sites dated to Hellenistic and Early Roman periods. They were also common in Palestine and Jordan during that period. An exact parallel, dated Late Hellenistic, has been found at pella.[35]

Form III: Delphiniform lamp

The form comprises the majority of the collection. All samples are decorated with radiating lines — ray motifs — similar to the lamps, classified as "delphiniform" by

(29) *Ibid.*, p. 211, Corpus: 251.2, A.

(30) *Ibid.*, p. 211, Corpus: 251.2a, A-C.

(31) P. Lapp, refers this type to: "near the turn of the Ist. century B.C. – 1st century A.D.", *op. cit.*, p. 38, n. 144. J.W. Crowfoot concludes that this form of bowls or cups: "as characteristic of the 1st. century A.D. as the plates with incurved rim and hemispherical bowls preceded them are of the first century B.C.", *op. cit.*, p. 338, Figs. 68.8, 81:12.

(32) This conclusion was reached by K. Kenyon based upon Samaria evidence: J. Crowfoot, et. al, *op. cit.*, pp. 315-322. Her remarks on such symbols (p. 324): "These symbols – Xapic and Isis crown were probably signs of good omen". Such a conclusion is also confirmed by P. Lapp coment: "In contrast to the decorative stamps of the first century B.C., the stamps from the first century A.D. contain a potter's name, a greeting, or a single rosette. The greeting is by far the most common and most frequently is simple xapic.", *op. cit.*, p. 68; cf. J.H. Iliffe, "Sigillata Wares in the Near East I: A List of Potters Stamps," *QDAP*, VI, (1936), pp. 4-53; also "Sigillata Wares in the Near East II: More Potter's Stamps," *QDAP*, IX (1939), pp. 31-76; H. Comfort, "Supplementary Sigillata Signatures in the Near East," *JAOS*, LVIII (1938), pp. 30-60.

(33) T. Szentleleky, Ancient Lamps, Akademiai Kaido, Budabest: (1969), p. 98, No. 154, p. 102. Decoration on its shoulder restricted only two impressed petals, and it is of light brown ware. Although No. 55 is undecorated and looks simpler in form, it has close resemblance to ours "Lamp 55 can be ranged with a large group of Late Hellenistic lamps", p. 59.

(34) R. Rosenthal and R. Sivan, "Ancient Lamps in the Scholessinger Collection", *QEDEM*, 8 (1978), pp. 12-14, Nos. 18, 20-25; cf.P. Bruneau, Exploration archaeologique de Delos, Fas. 26: Le Lampes, Paris: (1965), pp. 51-78; R.H. Smith, "The Household Lamps of Palestine in Intertestamental Times," BA, XXVII (1964), p. 113.

(35) R.H. Smith, et. al, *op. cit.*, pp. 17-18, pl. XVII: 4. *See also* seven spouted lamps from Samaria; J. Crowfoot, et al., *op. cit.*, p. 369, Fig. 87:9 "Late Hellenistic"; Amman; F. Zayadine, *op. cit.*, p. 37, Fig. 23, Pl. XXIII:I "Hellenistic", Tel Anafa; S.S. Weinberg, *op.* cit.,P. 105 "Post 150 B.C."; Gerasa; J.H. Iliffe; "Imperial art in Trans-Jordan: Figurines and Lamps from a Potter's Store at Jerash," *QDAP*, XI/1-2 (1944) "Multi-nozzled lamps dated to the first quarter of the second century A.D.; R. Rosenthal and R. Sivan, op. cit., p. 15, pp. 92-95; and T. Szentleleky, op. cit., p. 116-18, Nos. 202, 204, 207.

and date, two catigories are distinguished in the group. One catigory is of Late Hellenistic date, the other is of Early Roman.

Catigory I (Pls. 7-9)

Sherds in this catigory present a variety of small deep and shallow bowls with incurved rims, string-cut disk and ring bases; angular-walled with everted rims and ring bases.[15] A few bowl sherds having faint "rippling"[16] and many are decorated with brown, black or red paint with dripping slip.[17] Cooking pot sherds reflecting globular shapes with narrow splayed necks, thickened rims and oval-sectioned handles.[18] The jugs and juglets are rounded wide necked with flaring and slightly angular rim and omphalos base.[19] Stump-base of imported Rhodian jar of pink buff fabric.

All representative sherds are wheel made. Ware fabrics show small and medium white inclusions, and vary in hardness, thickness and thiness. Sherds reflect good and poor firing. Sandwich-sectioned and gaze bubbles are obvious. Colors of ware vary: gray, pink, brown, red and black.[20]

Catigory II

This catigory is representative sherds of a variety of small shallow and deep bowls and cups including examples with flaring walls and simple vertical rims (carinated) as well as, small incurved deep bowls with low string-cut bases.[21] Sherds also include large deep bowls and craters having splayed rims.[22] Representative sherds of cooking pots are of closed and globular having slightly flared necks and slightly groved rims with flattened handles.[23] Jugs and juglets examples are of globular shape with short incurved necks and a grove upon the edge of the out-turned rims.

All wheel made. Fabric is hard, thin and contains small fine calcite inclusions, but rather smooth surfaces. Firing temperature varies; high, medium and low. Low firing is reflected by sandwich sections of some sherds. Colors also vary: gray, tan brown, light pink and buff. Surface treatment includes light slipping and rounded slight "rippling".

2. Eastern Sigillata A[24]

Among the filling debris in Area E were many fragments of Eastern Sigillata A ware. In other words, the ware was in use at Gerasa together with other ordinary Late Hellenistic and Early Roman pottery. This fact has, indeed, two fold indications. In the one hand, it shows the persistence of Hellenistic tradition in Gerasa through the first century A.D. i.e. Early Roman III ca. 4 B.C. – A.D. 68. On the other, we can see that Sigillata ware was part of that tradition.[25]

Sigillata popularity at Gerasa is also evident by a number of forms found among our collection of this kind of ware. It included bowls, plates and platters. The discussed objects are, of course, not complete, only a representative group is here attended for the evidence.

The earliest vessel in our group is represented by the fragment of a small plate with incurved rim (Pl. 11,No. 2). It is dated from 75-25 B.C.[26] The plate is about 12 cm in diameter, low, with ring base and broad foot. Its floor is flate and decorated with double lines of two concentric circles of rouletting.

Plates fragments (Pl. 11, Nos. 3-6) illustrate the development that occurred in the shape and decoration to the early form in Augustan period, i.e., 27 B.C. – A.D. 14.[27] Changes included broader floors, higher walls, higher bases, eversions and thickening of rims, low vertical rims, and exterior grove or a ridge where the foot joins the body. Five palmettes or Isis symbols, placed at intervals, were also added to earlier decorative design of rouletted concentric circles.[28]

---

(15) Similar bowls appeared at Samaria and Beth-Zur, cf. P. Lapp, *op. cit.*, P. 172, type: 51.1.

(16) In his explanation to the term, Lapp says: "...It is impossible to confuse the smooth rippled surface of Late Hellenistic and Early Roman pottery with the sharp rough surface of Byzantine ribbed ware." He also adds: "...The fact that this rippling occurs sporadically on various parts of the body indicates that it is not decorative technique.", *op. cit.*, p. 19, n. 111 and p. 227, n. 40.

(17) *See* note 14 above.

(18) P. Lapp. *op. cit.*, p. 186, type: 71.1 K_l-K_1.

(19) *Ibid.*, p. 146, type: 11.2

(20) Parallel to vessels of this catigory are dated between 174-75 B.C. P. Lapp concludes that: "...the poor local Hellenistic decorated ware, Corpus 101-199, seem to disappear during the first half of the first century B.C.", *op. cit.*, p. 225.

(21) Parallels come from many sites such as Qumran, Samaria, Pella, Jericho are dated to 75 B.C. – A.D. 68 Cf. P. Lapp., *op. cit.*, P. 18, pp. 170-180, Types: 51.1 C-M, 51.2 D-L, 51.8 A-D, 52.1 A-D, 52.2 A-F, 53 H-M, 54.1 A-D, 54.2 A-K.

(22) *Ibid.*, pp. 18, 189, Types: 45.1 A-C, 45.2 A-C.

(23) *Ibid.*, pp. 20, pp. 187-188, Types: 71.1 K_2-O.

(24) For the diffinition of the term, the origin, introduction and dwindling away of the ware, cf. J. Crowfoot, et al., *op. cit.*, pp. 281-306, p. 348, pp. 381-84; P. Lapp, *op. cit.*, pp. 26ff, pp. 222ff; S.S. Weinberg, "Tel Abafa: The Hellenistic Town", I.E.J., 21 (1971), pp. 100ff.

(25) K. Kenyon concludes from Samaria evidence that Sigillata had come into "fairly common use" in Palestine by about 60 B.C., J. Crowfoot, et al., *op. cit.*, p. 285.

(26) J.W. Crowfoot, *op. cit.*, pp. 315-316, Fig. 66:1,3, cf. P. Lapp, *op. cit.*, pp. 69-70, Corpus: 253.1, A-K, 253.4, A-G.

(27) J.W. Crowfoot, *op. cit.*, pp. 315-319, Figs: 68:1,2, 74:21,22.

(28) P. Lapp, *op. cit.*, pp. 68-70, Corpus: 253.6, A.

the walls are three meters apart and about 5.5 meters deep. They consisted of courses varing in height between 0.35 to 0.40m thick, joined together with mud and stone chunks. The eastern, inner wall, was part of a Hellenistic complex, the nature of which is still obscure. A few meters from the north eastern corner of the square this wall takes a right angle turn to the east while, at the south side, it continued southwards to reach the city wall. The western wall bound the eastern limits of the approach between the South City Gate and the colonnaded plaza. Evidence showed that this wall went through two constructional phases. It was disturbed by a construction of a new wall belongs to the 1st. century A.D. overall planning activities of Gerasa.[4]

Fourteen loci were distinguished in the square through the six meters depth reached (Pls. 3, 6. See locus index below). The filling debris between the two parallel walls were copious and homogeneous indicating the same horizon of occupational remains extending from the second half of the second century B.C. to the end of the first century A.D.

Key to North balk: East-West Section: (Pls. 3, 6).

Locus No.	Description
.1	Top Soil: Compact dark brown grayish soil.
.2	Hard light brown chalky soil.
.3	Hard light gray ashy soil.
.4	Stone masonry wall of roughly cut ashlers.
.5	Gravelly gray ashy soil.
.6	Soft dark brown-blackish soil.
.7	Medium hard reddish chalky soil.
.8	Stone masonry wall of smoothly cut ashlers.
.9	Stone masonry wall of roughly cut ashlers resembling wall locus 4.
.10	Hard brown yellowish soil.
.11	Gravelly dark brown chalky and ashy soil.
.12	Hard brown grayish soil, ashy pockets.
.13	Hard gray yellowish soil.
.14	Medium hard gravelly light brown soil.

Deposits Analysis

The deposits comprised two homogeneous groups which were restricted to a number of loci and are distinguished from each other by major characteristics. *Group A*, was almost confined to loci 1-5, included representative sherds of typical pre-Umayyad/Umayyad[5] variety of shapes and wares find parallels from many sites in Jordan.[6] *Group B*, comprising the majority, came from loci 6-14 and producing a closely dated series of pottery types from Late Hellenistic and Early Roman times.

This last group (B), is our concern in the discussion. Description of individual pottery sherds is not given here, but representative forms are only discussed, as a detailed study to the pottery of the Three Seasons will be made in the future. However, description of pottery Lamps, Sigillata ware and coins are separately given for their significance to the evidence.

1. Pottery Sherds (Pls. 7-10)

The sherds cover a wide range variety of shapes and wares dating from the second half of the second century B.C. up to the end of the first century A.D. They include forms of bowls, cups, plates, craters, cooking pots, jugs, juglets and jars. Sites like Samaria,[7] Beth-Zur,[8] Qumran,[9] Jericho,[10] Amman,[11] Pella[12] and Heshbon[13] revealed the same horizon of occupational debris. Many of the sherds are decorated with various shades of black, brown and red paint, slip or wash that are common at Beth-Zur designated as Hellenistic Decorated Ware.[14] According to differences in wares, forms

(4) For the contribution of these architectural remains and the other remains bounding the east side of Zeus Temple temenos, to the understanding of their location and their testimony of the architectural development of the Area, see: Barghouti, *op. cit.*, pp. 226-27; F. Zayadine, "The Jerash Project for Excavation and Restoration», Jerash Archaeological Project 1981-1983 I,(Amman: Department of Antiquities, 1986), pp. 8-9.

(5) For such terminological date usage of similar deposits rather than Late Byzantine-Umayyad commonly used by other writers, see: J.A. Sauer, *Heshbon Pottery* 1971, (Michigan, 1973), pp. 44-48.

(6) Similar deposits revelaed at Heshbon, Amman Citadel and Pella.

(7) J.W. Crowfoot, G.M. Crowfoot, and K.M. Kenyon, *The Objects from Samaria, Samaria, Sebaste III*, Palestine Exploration Fund, (London: 1957).

(8) O.R. Sellers and W.F. Albright, the Citadel of Beth-Zur, (Philadelphia: Westminister Press, 1933), O.R. Sellers, «The 1957 Campaign at Beth-Zur", *AASOR*, XXXVIII (1957).

(9) R. De Vaux, "Fouilles au Khirbet Qumran: Raport Preliminaire," *Revue Biblique*, Vols: LX (1953), pp. 83-106; LXI (1954), pp. 206-223; LXIII (1956), pp. 533-577.

(10) J.B. Pritchard, "The Excavation at Herodian Jericho, 1951, *AASOR*, XXXII-XXXIII (1952-1954), New Haven, 1958.

(11) A. Hadidi, "The Pottery from the Roman Forum at Amman, *ADAJ*, XV (1970), pp. 11-15; F. Zayadine, "Excavations at the Upper Citadel of Amman, Area A (1975 and 1977)", *ADAJ*, XXII (1977-1978), pp. 20-45.

(12) R.H. Smith, "Preliminary Report on the 1979 Season of the Sydney-Wooster Joint Expedition to Pella: 1. The Winter Session (Sydney) by A. McNicoll and J.B. Hennessy," *ADAJ*, XXIV (1980), pp. 13-40.

(13) J.A. Sauer, Heshbon Pottery 1971, (Andrews University Press. 1973).

(14) P. Lapp, *op. cit.*, p. 21, n. 136: "This designation is used for those forms that have a common tradition throughout the Eastern Mediterranean and which are decorated with various shades of black, brown, or red glaze, paint, slip or wash during the Hellenistic period".

Ages, Vol. 2. Part. 1,6- 37 (1987)

Late Hellenistic- early Roman Deposits from Gerasa

Dr. Asem N. Barghouti

Abstract: *This study presents a noteworthy evidence bearing on the occupational history of classical Gerasa, modern Jerash, in Jordan. The material was collected during the Third Season of Excavations (1978) at the site, directed by the writer. It comprised a significant group of pottery sherds and a number of bronze coins can be dated absolutely, by correlation of pottery and numismatic evidence from the second half of the second century B.C. to the end of the first century A.D. Their significance, as they came from sealed loci is for their contribution to the insufficient stratified Hellenistic-Roman deposits not only in Gerasa itself, but in East and West of Jordan as well.*

Excavations at Gerasa were iniciated in 1975 by joint

Sigillata A ware, as well as a number of bronze coins

Editorial

This is the first issue of the second year of our periodical «AGES».

The journal continues to go along the academic line it drew for itself since it first came out, of specializing in historical, archeological and cultural research, and establishing a meeting point between historians, archeologists and those concerned with human civilization. The journal aims at pushing ahead with research, inside and outside the Arab world, in its area of specialization .

Although the journal is just one year old, yet it had won for itself a creditable status in the academic world, in research centres and among professionals and specialists in historical and archeological studies . Undoubtedly this is due to the high academic standard the journal maintains for researches accepted for publication in it , and the rigorous examination of these researches by highly qualified referees .

The journal has a consultative committee of historians and archeologists of great renown who were unfailing with suggestions and remarks which will certainly lead to further improvement in the future . The encouraging notes and comments we received from readers will incite the editors to have the journal continue to live up to their expectations, and maintain the distinguished academic standard it succeeded so far to realize .

The board of editors wish to offer their thanks to those researchers and learned professors who have enriched the periodical with their research and look forward to further studies of the same high calibre they are always ready to offer .

English Section

القسم العربي

All MSS should be addressed to:

- Mars Publishing House,
  P.O.Box: 10720, Riyadh 11443,
  Saudi Arabia.

- The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.
  49 Goldhawk Road,
  London W12 8QP,
  England.

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE

– Saudi Arabia	S.R.	100
– All Arab Countries	U.S. $	35
– All European Countries	U.S. $	40
– U.S.A. & Canada.	U.S. $	45
– Australia & South Asia	U.S. $	50

Ages

A Semi_annual Journal of
Historical, Archeological and Civilizational Studies

VOLUME 2
PART 1

January 1987
Jumada I 1407

Published by: Mars Publishing House- London

العصور

مجلة علمية محكمة ، نصف سنوية
تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

المجلد الثاني
الجزء الثاني
يوليو ١٩٨٧م
ذو القعدة ١٤٠٧هـ

دار المريخ
تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

دار المريخ للنشر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم يتفق بشأنها مع :

ـ دار المريخ للنشر ـ ص . ب : ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ ـ المملكة العربية السعودية

ـ الدار العربية للنشر والتوزيع ـ ٤٩ جولد هوك رود ، لندن ـ W12 8 QP ـ المملكة المتحدة

الاشتراكات السنوية :

ـ المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
ـ الدول العربية (٣٥) دولار أمريكي أو ما يعادلها
ـ الدول الأوروبية (٤٠) دولار أمريكي
ـ أمريكا وكندا (٤٥) دولار أمريكي
ـ استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولار أمريكي

المحتويات

القسم العربي

● بحوث — صفحة

● نقد الكتب :

English Section

• Papers — Page

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ١٧١ ـ ١٨٧ (١٩٨٧ م)

الكتب اليهودية بين الوحي والتحريف

للدكتور سيد فرج راشد

ملخص البحث : يتناول هذا البحث نقد النصوص العهد القديم في الأوساط العلمية الغربية ، وأغلب الظن أن صعوبة قبول العهد القديم ، بوضعه وترتيبه الحالي ، قد أدى قرب نهاية القرن الثامن عشر إلى تمحيص دقيق ؛ فبمقارنة مادته بمصادر أرض الرافدين والمصادر الأوجارتية والمصادر المصرية القديمة نجد أن بعض القوانين التي وردت في التوراة نابعة من قانون حمورابي . وهذا يؤكد الغموض الذي يشوب علاقة نص التوراة الحالية وانتسابها إلى موسى عليه السلام . ولعل التفاوت الكبير بين عقليات اليهود المختلفة ومعتقداتهم القديمة قد ساعدت العلماء خلال القرن الماضي وفي مقدمتهم العالم الألماني فلهاوزن ، إلى إثبات أن أسفار العهد القديم كانت في الواقع نتيجة تصنيف من مصادر مختلفة . وعلى ذلك فإن هذه الأسفار ترتد إلى أربعة مصادر مختلفة : هي المصدر اليهودي والمصدر الإلوهيمي والمصدر التثنوي والمصدر الكهنوتي .

كما تناول بحث التناقض في رواية نصوص العهد القديم أمثلة لذلك ، وأثبتنا تضارب بعض المعلومات والروايات فيه بما ورد في القرآن الكريم ، كما أوردنا الأفكار الأجنبية التي تسربت إلى العهد القديم . وقد أوضحنا أن الديانة اليهودية قد تركت الباب مفتوحاً بعد موسى بل بعد السبي البابلي ، فدخلت منه المرويات الشفوية والاجتهادات والفتاوي وغيرها من النصوص الدينية التي لها نفس ما للتوراة من القيمة . وقد أعطينا مثالاً للتطور الديني عندهم (الأعياد) ، كما أوضحنا تطور الوحدانية بعد موسى .

إن الهدف الأساس من هذه الدراسة هو مزيد من التوضيح للمؤثرات الكثيرة التي عملت زيادة وحذفاً وتحريفاً في الكتب اليهودية ، فاليهودي الذي ينظر إلى العهد القديم من منظور سياسي واجتماعي وعشائري ، قد اعتبر الدين مظهراً من مظاهر التطور الاجتماعي في أمته على مرّ العصور .

تمهيد

يتميز تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته عامة بغلبة الدوافع الدينية على غيرها من جوانب الحضارة . فمنذ القدم كان الجهد الرئيسي لليهود جيلاً بعد جيل يتجه إلى الاحتفاظ بالأسفار التي تشتمل على التاريخ القومي والديني لهم ، وجمعوه في كتاب مقدس لهم عرف باسم العهد القديم ، وقد استدعي جمعه زمناً امتد نحو ألف سنة ، ونتيجة حتمية لذلك خضعت بعض هذه الأسفار لمؤثرات كثيرة عملت فيها زيادة وحذفاً وتحريفاً .

ويبدو أن الكثرة الغالبة من الباحثين في تاريخ اليهود يرون أنهم الأمة الوحيدة تقريباً التي لم تستقر حضارتها على قوائم ثابتة ، بل كتبته حسب هواها ثم زعمت أن ذلك التاريخ صادر

من اللّه بطريق الوحي ، ولكنهم في الواقع نقلوا عن المأثورات الشعبية لأرض الرافدين والكنعانيين وبعض الأمم الأخرى القديمة التي عرفوها ، بالإضافة إلى ذلك فالديانة اليهودية ديانة متطورة وليست ثابتة عند وضع معين ، فهي على مرّ العصور تتشكل ويتزايد فيها التراث المكتوب ، ولذلك تركت الباب مفتوحاً بعد موسى لدخول نصوص مقدسة لها ما للتوراة من القداسة مثل أسفار الأنبياء وكتب الحكمة ، ثم كتبوا بعد ذلك المشنا والتلمود الأورشليمي وأخذوا نفس القيمة والاهتمام من اليهود . وإلى ظهور المسيحية لم يكن هناك من يؤمن بالعهد القديم إلاّ اليهود ، وبالتالي اعتبروه كتاب التاريخ والسياسة والقومية والعصبية العنصرية والعقيدة والشريعة والتنظيم الاجتماعي ، فلما ظهرت المسيحية اعتبرت هذا الكتاب ملكاً لها أيضاً ونشرته بلغات أخرى غير العبرية ، فأصبح اليوناني المسيحي أو الروماني المسيحي أو المصري القبطي يشارك اليهود في الإيمان بالعهد القديم ويخالفهم في تفسيره ، ومفهومه له روحاني أكثر من مفهوم اليهودي الذي ينظر إلى العهد القديم من منظور سياسي واجتماعي وعشائري .

وكان المسيح قد أذن بترجمته إلى بعض لغات العالم السائدة وهي اليونانية واللاتينية والمصرية القديمة (القبطية) ، وتلا ذلك الحبشية ، ولذلك قال للحواريين اتركوا اليهود وبشروا في الأمم الأخرى بالشريعة ، فانتشر الحواريون في حوض البحر الأبيض المتوسط هم وأتباعهم . وهكذا أصبحت حاجة اليهود ماسة إلى كتاب قومي وديني آخر يحتكرونه لأنفسهم ولا يمكن خروجه إلى غيرهم ، فبدأ الاهتمام بالشريعة الشفوية وشرحها وهو ما نسميه المشنا والتلمود ، وكان هذا بعد أن رأى اليهود أن سرّ كتابهم المقدس (العهد القديم) قد انتهك بقص قصصه بل وترجمته بلغات الأمم الأخرى .

التوراة

وتنسب الروايتان اليهودية والمسيحية القديمة تأليف الأسفار الخمسة المعروفة بالتوراة في صورتها الحالية إلى موسى ، وهذا يضعها في الجزء الأول من العهد القديم من حيث ترتيب التأليف والترتيب الزمني لمادتها .

ويذهب الباحثون إلى أن الشطر الأكبر من العهد القديم قد تم تدوينه فيما بين عزرا (القرن الخامس ق.م.) والفتح الروماني لفلسطين عام ٦٣ق.م. ويعتمد العلماء على أدلة كثيرة منها نصوص من التوراة نفسها ، وذلك لأنه ورد في سفر التثنية (إصحاح ٣٤: ٥ ـ ٦) ما نصه « فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب بأمر الرب وتم دفنه في الوادي في أرض مؤاب تجاه بيت فاغور ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا » ، ولا يمكن أن يصدر هذا القول عن موسى عليه السلام . وهذا يقطع أن التوراة في وضعها المعروف لنا حالياً ما لا يمكن نسبتها إلى موسى .

ولقد جاء هذا النص الأخير لافتاً للنظر ، فنحن نشعر أن توراة موسى في وضعها التي وصلت به إلينا تشكل مشكلة معقدة تنطوي على أخطر المشكلات النقدية من حيث علاقتها بأصول الشريعة اليهودية على أيام موسى ، بالإضافة إلى ذلك فلسنا ندري على وجه اليقين ما إذا كانت عبرية هذه التوراة قد احتفظت بالسمات الأولى للعبرية التي كان يتحدثها موسى ، هذا إذا افترضنا أن موسى كان يتكلم اللغة العبرية أو بلغة سامية أخرى . ومن المعروف أن موسى خرج من مصر ولا توجد شواهد أو أدلة على وجود اللغة العبرية أو أي لغة سامية أخرى في مصر في هذا العصر[1]، فيما عدا ألواح تل العمارنة بالخط المسماري وهي رسائل واردة من الإمارات التابعة لمصر في غرب آسيا وليست باللغة العبرية .

نقد نصوص العهد القديم في الأوساط العلمية الغربية

وأغلب الظن أن صعوبة قبول العهد القديم بوضعه وترتيبه الحالي ، قد أدى قرب نهاية القرن الثامن عشر إلى تمحيص دقيق لهذا الموضوع ، فبمقارنة مادة العهد القديم بمصادر أرض الرافدين ـ الملاحم السومرية والبابلية عن قصة الخلق

(١) حسن ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي ، (القاهرة ، ١٩٧١) ، ص ص ١٦ ، ١٧ .

والسموات وقصة الطوفان(٢) ولا سيما القانونية منها ـ والمصادر الأوجاريتية والمصادر المصرية القديمة(٣) ، نجد أن قانون العهد (والذي يرد في سفر الخروج والإصحاح ٢٠ فقرة ٢٢ إلى الإصحاح ٢٣ فقرة ١٩) يتضمن تشريعات نابعة من قانون حمورابي ، فعلى سبيل المثال نجد أن ما ورد في سفر الخروج(٤) ٢١ : ٢ ـ ١١ هي أحكام تماثل ما جاء في قانون حمورابي(٥) مادة ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ .

وفي نفس الإصحاح ٢١ من سفر الخروج فقرة ١٨ ما نصه « وإذا اختصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو لكمه فلم يمت بل ألزم الفراش ، فإن قام ومشى خارجاً على عكازه فقد بريء الضارب ، غير أنه يعطيه دية عطلته وينفق على علاجه » وهذه الفقرة من سفر الخروج تطابق ما جاء في المادية (٢٠٦) من قانون حمورابي.(٦) كما نجد ما ورد في سفر التثنية ٢٤ : ٧ وسفر الخروج ٢١ : ٦ قد صيغت عقوبته طبقاً لما جاء في المادة ١٤ من قانون حمورابي.(٧) وعلى ذلك فالقوانين الإسرائيلية تتبع في محتواها التقاليد العامة في الشرق الأدنى القديم .

ومؤدى هذا كله أن النماذج التي أوردناها من التوراة ، بمقارنتها بنظيرتها من قانون حمورابي ، تؤكد الغموض الذي يشوب علاقة نص التوراة الحالية وانتسابها إلى موسى عليه السلام . وربما أن معظم مواد قوانين حمورابي قد تمت صياغتها بصورتها النهائية في التوراة حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.(٨)

ويبدو أن مصدر فكرة جمع أجزاء العهد القديم ترجع إلى اليهود الذين عاشوا فترة السبي البابلي في العراق القديم ، ووجدوا مكتبات تضم التراث الأدبي والديني للأمة البابلية ، وبعد ذلك عاش اليهود في بابل تحت حكم الفرس ، وفي هذه الفترة ظهر في فارس كتاب يصور عقائد زاردشت وهو

---

(٢) كشفت الحفريات في إبلا Ebla (تل مردخ) التي تبعد ٣٠ ميلاً إلى الجنوب من حلب عن أكثر من ١٥,٠٠٠ من الألواح المسمارية التي تعود إلى الفترة المتأخرة من الألف الثالثة ق. م. ، وهي مكتوبة باللغتين السومرية والكنعانية ، وتشمل هذه اللوحات إشارات إلى كل من مجيدو وغزة وأورشليم (القدس) ، كما تشتمل على قصص تحكي قصة خلق العالم وأخبار الطوفان التي تتقابل مع قصة التوراة عن بداية العالم . ومعظم الوثائق تتعلق بالأمور الاقتصادية وبعضها أدبية قانونية دبلوماسية وتاريخية وجغرافية في محتواها . وكلها تشير إلى أن إبلا كانت العاصمة السياسية والثقافية لمملكة كنعانية كبيرة قديمة ساهمت في حضارة الشرق القديم ، وقد انتشرت بتلك المملكة أساطير قديمة من أرض ما بين النهرين ، وتوافق قوانين إبلا مع تلك التي كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين .
وهكذا فإنه في وقت سابق على الأسلاف شاركت سوريا وفلسطين في التراث الأسطوري والثقافي لسومر وأكاد . وحيثما أقام أو تجول أسلاف بني إسرائيل .
فلا بد وأنهم كانوا على علم بالتراث الذي يختفي خلف قصص العهد القديم في سفر التكوين أو احتكوا به .
C. Cornfeld. **Archaeology of the Bible,** (New York, 1976), p. 12 .
Jonson H. Hayes, and j. Maxwell Miller (eds.) **Israelite and Judaean History,,** (London, 1977), p. 108 .

(٣) Hayes and Miller, p. 181.

(٤) سفر الخروج ٢١ : ٢ ـ ٨ « إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً . إن دخل وحده فوحده يخرج . إن كان بعل إمرأة تخرج إمرأته معه ، وإن اعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده وهو يخرج وحده . . . . وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد . إن قبحت في عيني سيدها الذي خطبها لنفسه يدعها تفك وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها . »

(٥) المادة (١١٧):
« إذا أحرج رجل بسبب (حلول موعد) استحقاق الدين وباع (نتيجة ذلك) زوجته أو ابنه أو ابنته مقابل نقود أو أنه وضعهم تحت عبودية (دائنه) فعليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو استعبدهم ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة . »
المادة (١١٨):
« إذا اعطي عبد أو أمة للخدمة (لدى دائن سيده) فعلى التاجر (الدائن) أن ينتظر حتى أن يمضي (موعد دفع الدين) وله أن يبيعه (أي العبد أو الأمة) مقابل نقود ولا يحق (للعبد أو الأمة) أن يرفع الدعوى (على التاجر) . »
المادة (١١٩):
« إذا احرج رجل بسبب (حلول موعد) استحقاق الدين فباع أمته التي ولدت له أطفالاً مقابل نقود فإنه يستطيع أن يدفع (أي يعيد ثمنها) للتاجر الذي أعطاه النقود ويحرر أمته (من التاجر) . »

(٦) ظاظا ، ص ص ٢٠ ـ ٢١ ، تلخيصاً من كتاب **قانون العهد** للأب هنري كازيل (باريس ، ١٩٥٣م).
راجع فوزي رشيد ، **الشرائع العراقية القديمة** ، (بغداد : دار الحرية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣م) . ص ١٢٧ وجاء فيه نص المادة ٢٠٦ من قانون حمورابي « إذا ضرب رجل رجلاً آخر في شجار وسبب له جرحاً ، فعلى ذلك الرجل أن يقسم (لم أضربه متعمداً) وعليه (أيضاً) أن يدفع للطبيب . »

(٧) W.J. Martin (ed.), **The Law Code of Hammurabe,** D.W. Thomas, **Documents from O. Testament Times,** (London, 1958), pp. 30- 36.
تثنية ٢٤ : ٧ « إذا وجد رجل قد سرق نفساً من إخوته بني إسرائيل واسترقه وباعه يموت » .
خروج ٢١ : ١٦ « من سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً » .
مادة «١٤» من قانون حمورابي « إذا سرق رجل ابناً لرجل (آخر) يجب أن يعدم » .

(٨) Martin, p. 28

زاندافستا(٩) - حوالي عام ٥٦٠ق.م. - وأغلب الظن أن ظهوره كان حافزاً لليهود على جمع أسفارهم في كتاب أسبغوا عليه صفة التقديس وهو العهد القديم ، وكان ذلك على يد عزرا النبي في القرن الخامس قبل الميلاد.(١٠)

كان ذلك من شأنه أن يؤكد الغموض الذي يسود علاقة عزرا بجمع أسفار العهد القديم كله ، ويدحض الباحثون هذا القول بدليل لا يقبل الشك ، وهو أن ذلك الكتاب يضم بين دفتيه أسفاراً متأخرة عن عصر عزرا كسفر دانيال الذي كتب حوالي عام ١٦٥ق.م.

وعبرية العهد القديم تعتبر الصورة المثالية الكاملة للغة العبرية الفصحى عند اليهود ، ويتمثّل أسلوبها الناضج المتكامل في سفر أشعيا وأرميا وحزقيال ، فهذه ذروة التطور في العبرية الفصحى التي شأنها شأن أي لغة في العالم تطورت تطوراً كبيراً خلال الفترة الزمنية الطويلة بين موسى وعزرا والتي امتدت حوالي ألف سنة ، أي قبل هذا كانت اللغة العبرية لا تزال تحتوي على ملامح من عبرية البداوة القديمة مثل قصيدة ديبورة النبية في الإصحاح الخامس من سفر القضاة وبعض أجزاء من سفر صموئيل .

وأحسب أن ليس فينا من لم تصادفه بعض النماذج من تلك الحكايات عن النتيجة المحتومة لامتداد زمن تأليف العهد القديم وطوال عصر جمعه التي تشير إلى أن بعض الأسفار قد خضعت لمؤثرات كثيرة عملت فيها زيادة وحذفاً ، وإلى اليوم فالنزاع ما زال قائماً بين رجال اللاهوت حول سفر الجامعة ونشيد الأناشيد ، أهما من أسفار العهد القديم أم دخيلان عليه ، وكذلك وعلى الخصوص سفر أيوب .

ولعل التفاوت الكبير بين عقليات اليهود المختلفة ومعتقداتهم القديمة ، قد ساعدت في أبحاث العلماء خلال القرن الماضي وفي مقدمتهم العالِم الألماني Julius Wellhausen يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨م) إلى إثبات أن أسفار العهد القديم كانت في الواقع نتيجة تصنيف من مصادر مختلفة ، واعتمدوا في ذلك على الاختلافات في الأسماء التي يشار بها إلى اللّه ، وتكرار بعض الروايات ، بالإضافة إلى الفروق البينة في اللغة والأسلوب بين أجزاء مختلفة من هذه الأسفار . وقد اعتبر فلهاوزن العهد القديم مصدراً إنسانياً وليس سجلاً إلّهياً لديانة اليهود ، وقد لاقت هذه النظرية نقداً شديداً من قبل علماء اليهود .(١١)

مصادر الرواية لنصوص التوراة

وعلى ذلك فإن أسفار العهد القديم ترتد إلى أربعة مصادر مختلفة هي : المصدر اليهووي(١٢) والمصدر الإلوهيمي(١٣) والمصدر التثنوي والمصدر الكهنوتي .

كان المصدر الإلوهيمي في الرواية سائداً في شمال فلسطين فيما يعرف بمملكة إسرائيل ، والمصدر اليهودي في جنوب فلسطين في مملكة يهوذا ، وفي عام ٧٢٢ق.م. استولى الأشوريون على شمال فلسطين وأسقطوا مملكة اسرائيل وشردوا الأسباط التي كانت تعيش هناك ، ويزعم رواة اليهود أنها كانت عشرة من الاثني عشر سموها فيما بعد الأسباط العشرة الضائعة ، وبالتالي اعتبرت البقية الباقية من اليهود في مملكة يهوذا أن نصوص المصدر الإلوهيمي انتقلت إليها بالوراثة فاستولوا عليها ومزجوها بمصدرهم اليهووي ، ويبدو أن ذلك حدث في عام ٦٥٠ق.م. ومما ساعد على ذلك أن هذين المصدرين يتفقان في الشكل العام لأحداث القصة وأسلوبها.(١٤)

---

(٩) زاندافستا : الكلمة مركبة من كلمتين زند ومعناها شرح ، أفستا ومعناها النص الأصلي .

(١٠) محمد جابر الحيني ، في العقائد والأديان ، (القاهرة ، ١٩٧١م) ، ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(١١) Hayes and Miller, pp. 168 - 169

(١٢) المصدر اليهودي (J) : ويحمل اسم « يهوه » رب اليهود القديم ، ويرجع تأليف المصدر إلى حوالي عام ٨٥٠ ق.م. في مملكة يهوذا في الجنوب .

(J) الحرف الأول من اسم Jahwist : المصدر اليهووي .

(١٣) المصدر الإلوهيمي (E) : ويحمل اسم « إلوهيم » رب اليهود القديم ، ويرجع تأليف هذا المصدر إلى حوالي ٧٧٠ ق.م. فيما يعرف بمملكة إسرائيل الشمالية ، ويبدو أن رواة هذا المصدر قد اعتقدوا أن تسمية رب اليهود الوهيم ، هي التسمية القديمة لرب اليهود حتى ظهور موسى وأن يهوه لم يعرف إلّا مع الدعوة الموسوية .

(E) الحرف الأول من اسم Elohist : المصدر الإلوهيمي .

(١٤) Hayes and Millers, p. 169

أما المصدر التثنوي[١٥] فهو تلخيص للشريعة الموسوية ، ونسبته إلى موسى تبدو ضعيفة ، ومن المرجح أن هذا المصدر يعود إلى زمن الملك يوشياهو سنة ٦٢٢ق.م. حيث أُدْخِل إلى التوراة ضمن إصلاحاته الدينية ، بينما يبدو أن زمن كتابته يرجع إلى عصر جده منسا .

في حين أن المصدر الكهنوتي (P) (أو حواشي الكهنة) ربما يرجع إلى زمن عزرا ، وهو المُقحمات التي دخلت في العهد القديم عن طريق الكهنة ، ويبدو أن بعضها يرجع إلى أيام السبي البابلي (٥٨٧ق.م.) ، وقد أدمج هذا المصدر في المصادر السابقة حوالي نهاية القرن الخامس ق . م .[١٦]

معنى هذا كله أن الحركة الفكرية للحفاظ على التراث اليهودي بدأت في أثناء السبي البابلي . والسؤال الذي يطرح نفسه : هل اتفق أهل يهوذا وأهل السامرة في بابل على قبول الأسفار الخمسة التي تمت مراجعتها وتطويرها كاملة ؟ والإجابة كما جاءت في التراث الرباني بأن التوراة فقدت وعثر عليها حلقيا الكاهن في زمن الملك يوشياهو من ملوك يهوذا (٦٤٠ ـ ٦٠٩ق.م) في معبد أورشليم ، والتي وردت في سفر الملوك الثاني ٢٢ : ٨ ـ ١٣ .[١٧]

ويبدو جلياً من هذا النص أن التوراة كانت مفقودة في عهد أسلاف يوشياهو أيضاً منذ زمن بعيد ، وهذا ما نتبينه في الفقرة الأخيرة من هذا النص . وكما أسلفنا فإننا لا نعرف اللغة التي تلقي بها موسى رسالته ، هذا بالإضافة إلى ما يكتنف نصوص التوراة من تناقض وغموض شديدين ، كما أننا لا نعرف محتوى النسخة المخطوطة التي عثر عليها حلقيا الكاهن في معبد أورشليم وسلمها للملك يوشياهو ملك يهوذا ، ويظن درايفز أنها سفر التثنية[١٨] ، كذلك يشير « إزيدور ابستين » إلى أن محتوى هذه النسخة ربما يتكون من أجزاء من سفر التثنية تصف في تمهيد تفصيلي العقوبات التي ينالها المرتدون من إسرائيل[١٩] .

كل هذا أكد أن هناك اختلافات شديدة بين عبرية النص المقدس الذي بين أيدي اليهود وبين ما جمعه عزرا من نصوص العهد القديم ، وصنفه من مصادر مختلفة ، وخاصة المصدرين اليهووي والإلوهيمي ، وما قام بترجمته من بعض المصادر إلى اللغة العبرية بعد صياغتها وإكمالها حيث جاء في سفر عزرا أنه كاتب توراة موسى (عزرا ٧ : ٦) .[٢٠] ومن الممكن أن تكون بعض حواشي الكهنة التي أُقحمت في التوراة يرجع بعضها إلى أيام السبي البابلي على أنها شروح وإيضاحات ، فمثلاً جاء في سفر التكوين ٢ : ١٠ ـ ١٤ ما نصه :

> « وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس ، اسم الأول فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب ، وذهب تلك الأرض جيد ، هناك المقل وحجر الجزع ، واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش ، واسم النهر الثالث حِدَّاقِل وهو الجاري شرقي آشور ، والنهر الرابع الفرات . »

---

(١٥) المصدر التثنوي (D) : أُلِّف وأُعلِن العثور عليه في زمن الملك يوشياهو ملك يهوذا عام ٦٢٠ ق.م. (وهو السفر الخامس من التوراة ويسمى الشريعة الثانية) ، ويبدو أن مؤلفه أحد اللاويين وقد كتبه من شرائع التوراة حتى يسهل على القضاء الرجوع إليه . ونلاحظ أن الأسفار الأربعة الأولى من التوراة لا تشير إلى ذكر نظام الحكم أنه كان يقوم على الملكية ، ولكن سفر التثنية يشير إلى أن هناك ملكاً منتخباً .

(D) الحرف الأول من اسم Deuteronomy : المصدر التثنوي .

(١٦) Hayes and Millers, p. 169

راجع ظاظا ، ص ص ٣٠٠ ـ ٣١١ .

سبتينوموسكاتي ، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، (لندن، ١٩٥٧م) ص ١٥٧ . ويبدو أن النبي حزقيال في السبي البابلي قد وضع الأساس الذي اعتمد عليه الكهنة عند وضعهم القانون الكهنوتي وهو عمل لم يتم إنجازه مرة واحدة بل على عدة مراحل أقدمها ما اقتبس من قانون القداسة (اللاويين ١٧ : ٢٦) .

(P) الحرف الأول من اسم Priestly : المصدر الكهنوتي .

(١٧) قال حلقيا الكاهن الأعظم لشافان الكاتب : قد وجدت كتاب التوراة في بيت الرب . ودفع حلقيا الكاهن الكتاب إلى شافان فقرأه . فأتى شافان الكاتب إلى الملك ، ورد على الملك جواباً ، . . . أخبر شافان الملك وقال : قد دفع إلي حلقيا الكاهن كتاباً وقرأه شافان أمام الملك ، فلما سمع الملك كلام كتاب التوراة مزق ثيابه . . . » (سفر الملوك الثاني ٢٢ : ٨ ـ ١٣) .

(١٨) S.R. Driver, **An International to the Literature of the Old Testaments**, 9 th ed. (Edinburgh, 1929), pp. 50 - 55 .

(١٩) Isidore, Epstein, **Judaism,. A Historical Presentation,** (London, 1979), p. 51.

(٢٠) A. Cowley, **Aramaic Papyri of the Fifth Century B.C.**, (Oxford, F. Josepus, **Antiquities of The Lews** vols. III, VIII, XI (Michigan, 1974) (1923), pp. XXVI- XXVII.

وما اعتبره درايفر من حواشي الكهنة التي انزلقت إلى الإصحاح الثاني من سفر التكوين[٢١] هذه الفقرة : « وذهب تلك الأرض جيد وهناك المقل وحجر الجزع » . يضاف إلى ذلك ما أثبته البحث العلمي الحديث من رجوع نصوص العهد القديم في كثير من الأحيان إلى مصادر متباينة ، منها ما هو موغل في القدم ومنها ما هو حديث نسبياً ، وما نتج عن ذلك من خلط رواية القصص ومزج بين بعضها ، ومن أوضح الشواهد التي اختلطت فيها ثلاثة مصادر هي : اليهووي والإلوهيمي وحواشي الكهنة ، الإصحاح السابع والثلاثون من سفر التكوين ، الذي يتناقل فقرات من قصة يوسف دون وجود أثر هنا للمصدر التثنوي الذي اكتسب أهمية خاصة ، لكونه تلخيصاً للشريعة الموسوية ، ولتفرده بسفر يسمى بالعبرية سفر الأمور أو المسائل وهو سفر التثنية.[٢٢]

ويبدأ الإصحاح السابع والثلاثون من سفر التكوين بمقدمة من حواشي الكهنة تشتمل على الفقرة الأولى وصدر الفقرة الثانية ما نصه :

« (١) وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان . (٢) هذه مواليد يعقوب » . . .

وقد تمكّن العالِم السويسري لوسيان جوتييه من تحليل العنصرين اليهووي والإلوهيمي في بقية فقرات الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين ، كلا بروايته المستقلة ولكن بترتيب منهجي حسب مادتها ، وقد أوردهما الدكتور حسن ظاظا في كتابه القيّم « الفكر الديني الإسرائيلي » على صفحات ٣١ ـ ٣٤ . ويرى جوتييه أن قصة يوسف في البداية كانت لها روايتان مختلفتان، إحداهما في المجتمع اليهووي جنوب فلسطين ، والثانية في المجتمع الإلوهيمي بالسامرة شمال فلسطين ، وأنه عند الجمع النهائي للتوراة أدمجت القصتان إحداهما في الأخرى على شكل لا يصعب معه فصل السياقين كل منهما عن الآخر ، وهذا ما فعله جوتييه وهو يتحدث عن المصادر الأولى لنصوص العهد القديم في الباب الأول من كتابه « مدخل إلى العهد القديم » .[٢٣]

ويبدو أن جوتييه قد اعتمد في فصل السياقين على أن السرد اليهووي تظهر فيه روح البداوة والاختصار وجزالة الألفاظ واقترابها من الشكل العتيق التراثي للغة ، بينما السرد الإلوهيمي يميل إلى العناية بالتفاصيل ، ولغته أرق لأن مؤلفيه متحضرين لقربهم من فينيقيا . ولهذا فهما يتفقان في المضمون ويختلفان في سرد التفاصيل .

التناقض في رواية نصوص العهد القديم

والذين يقرأون العهد القديم قراءة فاحصة ، يتبين لهم التناقض الصارخ بين قصتي خلق الإنسان ، اللتين تقعان في كل من الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين . فيُورِد الإصحاح الأول أن اللّه خلق السمك والطيور وباقي الكائنات الحية في اليوم الخامس ، بينما خلق في اليوم السادس كل صنوف الحيوان (تكوين ١ : ٢١ ـ ٢٦) ، وأخيراً خلق الإنسان ذكراً وأنثى على صورته ، وهذا نصه ما أورده الإصحاح الأول « فخلق اللّه الإنسان على صورته ـ وعلى صورة اللّه خلقه ذكراً وأنثى خلقهم » (تكوين ١ : ٢٧) . بينما نلاحظ في الإصحاح الثاني من نفس سفر التكوين ، رواية تختلف تماماً عن الرواية السابقة ، بل تتناقض تماماً معها كل التناقض ، وهو أن اللّه قد خلق الإنسان أولاً ، ثم خلق صنوف الحيوان من بعده ، وهذا نص ما أورده الإصحاح « وجعل الرب الإلّه آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفسه نسمة حياة فصار آدم نفساً حيّة » (تكوين ٢ : ٧) .

ويبدو التناقض واضحاً بين قصتي الخلق في الإصحاحين الأول والثاني ، فهما يختلفان في الأسلوب والتعبير الأدبي وخاصة تصويرهما للإلّه ، مما يدل على أنهما استمدا مادتيهما من مصدرين مختلفين ثم جمعا في كتاب واحد . ويُظَنُ أن قصة الخلق في الإصحاح الأول مستمدة من المصدر الكهنوتي ، الذي يعود إلى زمن السبي البابلي أو بعده بقليل ، بينما قصة الخلق في الإصحاح الثاني اعتمدت

---

(٢١) Driver, p. 55.

(٢٢) Lucien, Gautier **Introduction a'l'Ancien Testaments, Payot**, 2 vols, (Suisse, 1939), Vol.I,pp. 43- 84.

راجع ظاظا ، ص ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢٣) Gautier, p. 85

على المصدر اليهووي الذي يسبق المصدر الكهنوتي بمئات السنين ، ولذلك فملامح قصة الخلق في الإصحاح الثاني تبدو بدائية فالكاتب الكهنوتي يصور الإلّه في صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الإنسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعاً بأن أمرها ببساطة أن تكون فكانت ، أما كاتب المصدر اليهووي فيصور الإلّه في صورة حسية فهو يتكلم ويفعل على نحو ما يفعل الإنسان وهو يُشكّل الإنسان من الطين وفقاً لنموذج معين.(٢٤) هذا بالإضافة إلى أن الإصحاح الثاني يحمل دلالة واضحة على أنه بداية سفر وأن ما سبقه لم يكن معروفاً عند هذا الرَاوية فقد بدأ قصته بقوله : « هذه مواليد السمٰوات والأرض » .

تؤكد الدراسات الحديثة أن كثيراً من روايات العهد القديم تتناقض فيما بينها ، ولنورد أمثلة توضح ذلك . فطبقاً لسفر الملوك الأول ٦ : ١(٢٥) كان خروج بني إسرائيل من مصر قد حدث قبل بداية بناء هيكل سليمان في القدس (أورشليم) بأربعمائة وثمانين عاماً (٤٨٠ سنة) ، وربما كان ذلك البناء حوالي عام ١٩٧٠ق.م ، وبذلك يكون الخروج من مصر في عام ١٤٥٠ق.م. وجاء في سفر الخروج ١٢ : ٤٠(٢٦) أن إقامتهم في مصر استغرقت أربعمائة وثلاثين عاماً (٤٣٠ سنة) ، وعلى ذلك فتحرك بني إسرائيل من فلسطين إلى مصر حوالي عام ١٩٠٠ق.م. ، وبناء عليه فإن فترة الإباء تحسب على أنها تغطي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ، ولكن تاريخ الأسلاف جُعِلَ أكثر اقتراباً من تاريخ الخروج من مصر بمقتضى تأريخ آخر ، فقد اعتبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف أربعة أجيال بحيث يخلف كل جيل الجيل الآخر في تسلسل مباشر، ويعطي لكل منهم في المتوسط أربعين عاماً ، وطبقاً لما ورد في سفر الخروج ١ : ٨ حل فرعون جديد محل الفرعون الذي حبا يوسف بعطفه وضغط على الإسرائيليين ضغطاً أضطرهم إلى الهجرة من مصر مباشرة . فإذا اعتبرنا أن الخروج تم في القرن الثالث عشر فإن زمن الأسلاف يجب أن يكون في القرن الرابع عشر.(٢٧)

وهكذا تضاربت روايات العهد القديم حول قصة الخروج وتاريخها ، ولذلك يبقى الأسلاف صوراً يلفها الضباب والظلال ومن الصعب الوصول إلى تاريخيتها وأي محاولة لتأريخ عهدهم أمر يثير كثيراً من النقاش .

كما نجد سفر التكوين يجعل قصص الأسلاف تعود إلى أربعة أو خمسة قرون قبل مجيء الاستقرار في فلسطين (القرن ١٣ ـ ١٢ق.م.) ، ولكن يرى بعض الباحثين أنه من الأفضل أن نجعل تاريخ الأسلاف في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد . وهذا التأريخ المتأخر تدعمه بصفة خاصة ما أُقحِم على قصص الأسلاف من إصحاحات (فصول) مثل وصية يعقوب (سفر التكوين ٤٩) ، التي تؤكد هيمنة يهوذا على كل قبائل بني إسرائيل الأخرى ، ومباركة إسحاق ليعقوب ولعيسو (تكوين ٢٧) ولعنة نوح لكنعان (تكوين ٩ : ٢٥ ـ ٢٧) ، وكل هذه محاولات لتبرير سيطرة بني إسرائيل على كنعان وعلى المناطق المجاورة .

ويقول مازار « وهذه الفكرة تتقابل تماماً مع النزعة القومية والدينية التي تأصلت في بني إسرائيل خلال فترة المملكة المتحدة (حكم داود وسليمان) ، وامتداد حدودها بعيداً وراء حدود منطقة استقرار بني اسرائيل ، وعلى ذلك فمن المعقول القول بأن روايات سفر التكوين تعود إلى أصول كتبت خلال الفترة التي كانت فيها مملكة داود قد تأسست ، والإضافات والملحقات التي أضافها كتّاب التوراة المتأخرون ، إنما قصد بها سد الفوارق الزمنية للقراء المعاصرين . وعندما كُتِب السفر لأول مرة لم يرجع مؤلفوه فقط إلى التراث القومي الشائع ، ولكن أيضاً إلى الأعمال الأدبية المختلفة والتي

---

(٢٤) G. H. Box, **A Short Introduction to the Literature of the OldTestament**, (London, 1930), pp. 37 - 39.

راجع جيمس فريزر ، الفولكلور في العهد القديم ـ الجزء الأول ، من الترجمة العربية للدكتورة نبيلة ابراهيم ، (القاهرة، ١٩٧٢م)، ص ص ٢٧ ـ ٢٨

(٢٥) نص الفقرة « وكان في السنة الأربعمائة وثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر، في السنة الرابعة لملك سليمان على اسرائيل في شهر زيور (أبريل) وهو الشهر الثاني أنه بنى بيت الرب » (١ ملك ٦ : ١) .

(٢٦) نص الفقرة « وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة » (خروج ١٢ : ٤٠).

(٢٧) O. Eissfeldt, **Palestine in the Time of the Ninteenth Dynasty (a) The Exodus and Wanderings**, (Cambridge, 1975), Vol. I,Chapter XXVI, pp. 7 - 8 .

اشتملت على أساطير أرض الرافدين وكنعان وملاحمهم وقد طوّعها كُتّاب السفر لروح التوحيد عند بني إسرائيل . »[٢٨]

ونحن لا نعرف نصوصاً ترجع إلى عهد داود وسليمان من حيث التسجيل بالكتابة ، ولو أن « مازار » قال إنها انتشرت بالرواية الشفوية لكان أقرب إلى الواقع خصوصاً لأننا لا نجد في التوراة شيئاً يُشْعِرنا بأن هناك نصاً مكتوباً إلاَّ أسطورة تشير إلى تابوت العهد وهو خزانة أودعت فيها توراة موسى وأخذها الفلسطينيون إلى غزة في حروبهم مع القضاة من بني إسرائيل ، ثم استعادها داود منهم وصنع لها تابوتاً من الخشب وعربة خاصة لنقلها من غزة . ومما يدلنا على أن الفصل بين الأسطورة والتاريخ في هذه القصة يكاد يكون مستحيلاً ما ذُكِرَ من أن العربة اهتزت أثناء سيرها وكاد التابوت أن يسقط من فوقها فسنده بيده رجل من بني إسرائيل وعندئذ صعق وخرّ ميتاً . وعند اقتحام جنود بختنصر لأورشليم عام ٥٨٧ق . م . وتدميرهم للهيكل لم يذكر العهد القديم أنهم وجدوا نسخة مكتوبة من التوراة .

ولا يقتصر ميل رواة أسفار العهد القديم إلى الأسطورة فيما يتعلق بهم وحدهم ، بل تعدى ذلك إلى ما لا يليق بجلال اللّٰه وكماله ، وهو ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين ما نصه « فأكملت السموات والأرض وكل جنودها وفرغ اللّٰه في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبارك اللّٰه اليوم السابع وقدّسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل » (تكوين ٢ : ١ ـ ٣) .

والقرآن الكريم ينفي التعب عن اللّٰه تعالى في صراحة ووضوح بدليل قوله تعالى في قصة الخلق : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾.[٢٩]

كما أننا نلاحظ أن كلمة استراح مُعبَّر عنها في العبرية بالفعل « شابت שָׁבַת » بمعنى توقف والتوقف ليس مرادفاً للاستراحة ، ويبدو أن هذا الفعل العبري قد ترجم منذ القدم بمعنى الاستراحة من التعب ، مما أدى إلى التناقض بين الأصل والترجمة وهو ما عُنِيَ القرآن الكريم بالإشارة إليه في قوله تعالى : ﴿ وما مسّنا من لغوب ﴾ .

ومن النماذج الصارخة عن فداحة آثامهم وخطاياهم ضد أنبيائهم ، ما جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن اضطجاع لوط مع ابنتيه وحملهما منه بعد أسقتاهُ خمراً ، ثم ولادتهما مؤاب أبو المؤابيين وعَمّيّ أبو العمونيين .[٣٠]

وتختلف قصة لوط في كل من القرآن والتوراة اختلافاً جوهرياً ، فالقرآن ينفي صراحة وبوضوح ما جاء في التوراة عن لوط ، ويذكر أنه أنكر على قومه الفاحشة بكل أشكالها بقوله تعالى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرُون ﴾ ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ .[٣١]

واضح أن العداوة التقليدية بين بني إسرائيل من جهة والمؤابين والعمونيين من جهة أخرى قد أوصت إلى القصاص الشعبي الإسرائيلي بقصة يريد أن يثبت بها أن هذين الشعبين من أبناء الزنا ، وثمرة الجريمة تشنيعاً عليهم كما فعلت التوراة في نسبة المصريين والكنعانيين إلى نسل حام لنفس السبب (تكوين ٩ : ١٨ ، ٢٢) .

وهناك حادثة مهمة جداً وردت في سفر التكوين الإصحاح الثاني والثلاثين ما نصه « ثم قام في تلك الليلة وأخذ إمرأتيه وجاريته وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة اليبوق ، أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له ، فبقي يعقوب وحده وصارعه رجل ما (ملاك حسب ترجمة سعديا الفيومي) حتى طلع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في صراعه معه ، ثم قال : أطلقني فقد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إلاَّ إذا باركتني فقال له : ما اسمك ؟ قال : يعقوب فقال لن يدعى اسمك يعقوب من

---

(٢٨) P. Mazar, Canaans and Israel, P.134. نقلاً عن :
C. Cornfelal : Anchaealogy of the Bible, Book by Book, New York, 1976, p. 22 .

(٢٩) سورة ق : ٣٨.

(٣٠) ونص سفر التكوين ١٩ : ٣٢ ـ ٣٨ « هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنُحييْ من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة اني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فَنُحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عَمِيّي وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم . »

(٣١) سورة الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦ .

بعد بل إسرائيل ، لأنك صارعت اللّه والناس وغلبت » (تكوين ٣٢ : ٢٢ - ٢٩) .

وقد تصدى عالم الفولكلور البريطاني جيمس فريزر لهذه المصارعة الأسطورية في فصل كامل من كتابه « الفولكلور في العهد القديم » ، أشار فيه إلى أن القصة تبدو غامضة ، ويبدو أن مؤلفي سفر التكوين لم يغب عن ذهنهم وجود ملامح للوثنية بين طيات الإصحاح الثاني والثلاثين ، فتناسوا بعض جزئيات القصة التي طال فيها النقاش بين الباحثين حول مضمونها جملة وتفصيلاً . واستطرد فريزر قائلاً : إن المشهد الأسطوري للصراع بين يعقوب ورجل الليل الغامض ، قد حدث ليلاً بجانب مجرى مائي طبقاً لمعتقدات أسطورية بدائية في وجود أرواح تسكن مجاري المياه وتظهر في الظلام ، ومن هنا افترض فريز أن يعقوب قد تصارع مع روح النهر أو شيطانه ، ومن هنا استحق يعقوب لقب « اسرائيل » أي قوة اللّه .(٣٢)

ويجب ألا يغيب عن بالنا أمر مهم هو أن العقيدة اليهودية كما بَشّر بها الأنبياء والرسل شيء وتصور الإسرائيليين وعقائدهم شيء آخر ، ذلك لأن بني إسرائيل كانوا قوماً اعتنقوا إلى جانب التوحيد عقائد باطنها التعدد لتأثرهم بما حولهم من الأمم الوثنية ، وذلك حينما يزول عنهم تأثير الأنبياء ، ونحن نجد شكوى مرة من هذا الاتجاه ومحاولات لإرجاعهم إلى العقيدة السليمة .

ومن أمثلة ما يخل بمقام النبوة أيضاً ما جاء في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج من أن هارون عليه السلام هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته . . والقرآن الكريم ينفي ذلك تماماً ويؤكد أن الذي صنع العجل لبني إسرائيل هو « السامري » في حين أن هارون أنكر ذلك وحذرهم أن يفتنوا به .(٣٣)

ومن أمثلة ما يقدح في عصمة الأنبياء ما ورد في سفر صمويل الثاني الإصحاح الحادي عشر عن خطيئة داود مع بتشبع امرأة أوريا الحثي(٣٤)، وما كان لداود عليه السلام ولا لأي نبي أن يسقط هكذا ، ومن المؤكد أن هذا تحريف واضح أُدْخِل إلى سفر من أسفار الأنبياء ، وهو القسم الثاني من العهد القديم المنسوب زوراً إلى اللّه سبحانه وتعالى .

كما صورت أسفار العهد القديم سليمان على أنه قد تساهل في بناء هياكل أخرى لمعبودات وثنية منها كموش إلّه مؤاب ومُلْك إلّه بني عمون ، وذلك لاعتبارات سياسية ولإرضاء زوجاته الأجنبيات وشعوبهن (سفر الملوك الأول ١١ : ٥ - ٩) .

وهكذا اعتبر اليهود النبي سليمان عليه السلام ملكاً له نزواته وليس نبياً منزّهاً عن الأخطاء ، إنما ألصقوا به مهمة تسهيل إدخال العبادات الوثنية إلى القدس (أورشليم) .

ولكننا نرى أن سليمان قد تصور خريطة لعاصمة كاملة بأسوارها ومعبدها المركزي وقصرها الملكي ومبانيها الدينية والإدارية ، ومساكن زوجاته وما ملكت يمينه ممن دان بالشريعة الموسوية ومن لم يدخلها ، ولذلك جعل في عاصمته حياً دينياً وآخر ملكياً وثكنات للحرس وحياً لغير التابعين للشريعة الموسوية من نسائه وحشمه ، ولنا أن نتصور ما جاء في القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام ﴿ ولسليمان الريح غُدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأرسلْنا له عين

---

(٣٢) جيمس فريزر ، ص ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

راجع : حسن

راجع : حسن ظاظا ، الشخصية الإسرائيلية ، (دمشق : دار القلم ، ١٩٨٥م)، ص ص ١٥ . ١٦ .

(٣٣) كما جاء في قوله تعالى في سورة طه : ٨٣ - ٩٠ « ما أعجلك عن قومك يا موسى ، قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى ، قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلّهكم وإله موسى فنسي ، أفلا يرون الا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . »

(٣٤) محمد حسين الذهبي ، الإسرائيليات في التفسير والحديث ، ط ٣ ، (القاهرة ، ١٩٨٦م) ، ص ٣٢ .

ونص سفر صمويل الثاني ١١ : ٢ - ٥ ما نصه :

« وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت اليعام إمرأة أوريا الحثي . فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى . . . . »

القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ .

﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾[٣٥] ولذلك نشعر أن ملك سليمان كان أبعد ما يكون عما أراد كاتب سفر الملوك الأول تصويره ، لا سيما أن كاتب سفر الملوك إنما كتب ما كتب بعد سليمان بخمسمائة عام ، وفي عصر لم يسده الاضمحلال فقط ، بل ساده الفجور والفسق ونسيان الشريعة الموسوية ، بل الكفر أيضاً حسب ما نلمسه في قصة يوشياهو الذي هو ملك من أحفاد سليمان البعيدين وجد الأصنام في داخل الهيكل ، كما وجد فيه أشخاصاً يحترفون الزنا واللواط ، وأمر بقتل الجميع وإحراق الأصنام ، وما كان كاتب سفر الملوك إلاَّ في تلك العصور من التصدع الديني والخلقي .

ومن اللافت للنظر أن بعض قصص العهد القديم ترد غامضة في سفر من الأسفار ثم يتم تكرارها بنفس المعاني والأفكار في سفر آخر ، ولكن سرعان ما نجد لها تفسيراً في أسفار لاحقة .[٣٦]

ويتبين لنا ذلك من السرد التاريخي لقصة داود عليه السلام ، حيث نجدها في سفر صمويل الثاني الإصحاح السابع ما نصه « وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه ، أن الملك قال لناتان النبي : انظر إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق . . . » ، وكذلك نجد نفس القصة موجودة في سفر أخبار الأيام الأول : الإصحاح السابع عشر ما نصه « وكان لما سكن داود بيته قال داود لناتان النبي : ها أنذا ساكن في بيت من أرز وتابوت عهد الرب تحت شُقَق . . . . » ويحدثنا السفران بأن الذي سيبني الهيكل هو سليمان « ٢ صم ٧ : ١٣ ، أخ ١٧ : ١٢ » ، ولكن سرعان ما يرد في نفس سفر أخبار الأيام الأول ٢٢ : ٨ تفسير للأسباب التي من أجلها اختار الرب سليمان لبناء هيكله ، فقد كان عصر داود عصراً اندلعت فيه عدة حروب وسفكت فيه دماء كثيرة . ويبدو أن هذه الفقرة أُدخلت على النص كفقرة تفسيرية لما ورد في الإصحاحين السابقين لإيضاح ما اكتنفهما من غموض وهو من عمل نساخ العهد القديم أثناء تدوينه .

كما ترد مواد القانون الإسرائيلي في مواضع مختلفة من أسفار موسى الخمسة ، فنجد أولاً القوانين الخلقية الدينية التي يضمها سفر الخروج من بداية الإصحاح ٢١ حتى الفقرة ١٩ من الإصحاح ٣ ، (قانون العهد) .

كما ترد هذه القوانين مع إضافات جديدة وتوسع لإبراز جانبها الخلقي في سفر التثنية من الإصحاح ١٢ إلى الإصحاح ٢٦ .

هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الشرائع والطقوس الكهنوتية ذات طابع ديني خاص ، وهي تعرف بالقانون الكهنوتي ، ونجدها في سفر اللاويين أساساً حيث تتكامل نصوصه مع القسم الأخير من سفر الخروج الذي يسبقه ومع جزء من سفر العدد الذي يليه من حيث وحدة الموضوع .

وتثبت الدراسات الحديثة أن صياغة القوانين اليهودية وكتابتها ، قد سبقتها في كثير من الأحيان رواية شفوية طويلة[٣٧] ، ويبدو أنه كانت هناك على عهد موسى صحف مكتوبة لدى اليهود ، وربما كانت نقشاً على ألواح من الحجر ، وإذا صح ذلك فربما اعتمدت على الكتابة التصويرية الهيروغليفية أو الكتابة المقطعية المسمارية ، فقد ورد في سفر العدد ٢١ : ٥ فقرة فَهِم منها بعض الدارسين أنه كانت هناك صحف مكتوبة يقرؤها بنو إسرائيل ، ونص هذه الفقرة « لذلك يقال في كتاب حروب الرب . . . . » ويرى بعض الباحثين أنها من شروح كهنة اليهود القدامى التي انزلقت إلى نص التوراة .[٣٨]

أفكار أجنبية تسرّبت إلى العهد القديم

هذا والراوية الديني يقع في أخطاء زمنية فاحشة ، فهو

(٣٥) سورة سبأ : آية ١١ ، ١٢ .

(٣٦) عبد الرزاق أحمد قنديل ؛ الأثر الإسلامي في الفكر اليهودي ، (القاهرة ، ١٩٨٤) ، ص ص ١٩ - ٢٠ .

(٣٧) موسكاتي ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ .

راجع ظاظا ، الفكر الديني ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٣٨) حسن ظاظا ، الساميون ولغاتهم ، (الاسكندرية : مكتبة الدراسات اللغوية ، ١٩٧١) ، ص ٨٨ .

يذكر سفراً من أسفار الحكمة اسمه سفر الجامعة (بالعبرية قُوهِيلِتْ) ، ويتعامل مع هذه اللفظة على أنها اسم علم لأحد أبناء سليمان ويقول صراحة في أوله سفر الجامعة بن سليمان ، على حين أن محتوى السفر من الأفكار يبدو غريباً كل الغرابة على الفكر العبري خصوصاً في القرن العاشر ق . م . ، ويجب أن نتصوره في القرن الرابع أو الثالث ق . م . أي بعد ذلك بخمسمائة عام على الأقل في الوقت الذي تسربت فيه الأفكار الإغريقية إلى منطقة فلسطين القديمة . وهكذا يعتقد بعض العلماء أن كاتب سفر الجامعة قد تأثر بالفلسفة اليونانية ، وهناك على الأقل بعض التماثل بين أقواله وفلسفة الأبيقورين ، بل يبدو أن السفر أقرب إلى طرق التفكير اليوناني منه إلى طرق التفكير العبري .(٣٩)

ويبدو أن الكثرة الغالبة من الباحثين في أسفار العهد القديم يرون أن سفر أيوب أيضاً غريب في وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، فإذا كنا نجد تبادلاً في السير والروايات بين أقوام منطقة الشرق الأدنى القديم ، فإنه ليس من عادة بني إسرائيل أن يضموا إلى العهد القديم كتباً لغير أنبيائهم المتحدثين عن شريعتهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم عثروا عليه في فلسطين يتناقله الرواة ويُصوِّره بعضهم أنه من كلام موسى والبعض الآخر من كلام سليمان ، وليس أدل على ذلك من أن قصة أيوب لا تزال منظومة شائعة بين شعراء العامية في مصر والشام .(٤٠)

ومن المرجح أن سفر أيوب ترجمة لملحمة عربية ، والشواهد والأدلة على ذلك كثيرة ، منها اسم أيوب نفسه لا ينتمي إلى مصدر اشتقاقي عبري أو آرامي بل إلى مادة « آب » بمعنى رجع ، وهي عربية لا توجد في العبرية ولا في الآرامية ولا في الكنعانية ، ويرد في معجم جزنيوس أنه من الممكن أن يكون معنى اسم أيوب قد اشتق من « أوّاب » العربية بمعنى العائد (إلى اللّه)(٤١) وهي صيغة مبالغة من اسم الفاعل « آيب » . وقد أغفلوا نسبه ولو كان من بني اسرائيل لذكروه باسمه واسم والده والقبيلة التي ينتمي إليها ، بل يبدأ سفره بما نصه « كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب » (أيوب ١ : ١) ، وأرض عوص المذكورة كانت تحمل اسم أحد أسلاف العرب في شمال شبه الجزيرة العربية ، وهو عوص بن إرَم . كما نجد اسم الشيطان متداولاً في السفر وهو غير معروف في العبرية ولكنه شائع في العربية ، ومن المدهش انه لم يرد في بقية أسفار العهد.القديم ، كما نجد أسماء أصدقاء أيوب المذكورين في السفر - فيما يبدو - أسماء عربية رغم تحريفها : أليفاز التيماني (من تيماء) وبلداد الشوحي وصوفر النعماني .(٤٢) كما جاء ذكر الجمال بين ثروة أيوب وهي حيوانات غير طاهرة عند اليهود ويحرم أكلها .

ويرى « بنامين جرين » في كتيبه التاريخي عن العهد القديم ، أن النبي أيوب أقدم من موسى نفسه إذ حدد تاريخه بعام ١٥٢٠ ق . م .(٤٣) ، وجاء هذا القول لجرين بعد أن أعلن الأديب الفرنسي « فولتير » رأيه بأن سفر أيوب أقدم من التوراة ، وأن اليهود أخذوه عن العرب وترجموه إلى اللغة العبرية .(٤٤)

---

(٣٩) ونص سفر الجامعة (١ : ٢ - ٩) « باطل الأباطيل : قال الجامعة ، باطل الأباطيل ، الكل باطل ، ما الجدوى للإنسان من كل تعبه الذي يعانيه تحت الشمس . جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة إلى الأبد ، وتشرق الشمس وتغرب الشمس وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . تذهب الريح إلى الجنوب ، وتدور إلى الشمال ، تلف الريح وتدور وترجع إلى مداراتها . كل الأنهار تجري إلى البحر ، والبحر لا يمتليء ، إلى المكان الذي جاءت منه الأنهار ، إلى هناك تمضي راجعة . كل الأمور متعبة لا يستطيع المرء أن يحدث بها ، العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتليء بالسمع ، ما كان هو ما سيكون ، وما صنع ، فليس تحت الشمس جديد . »

راجع مسوكاتي ، ص ١٦٤ .

(٤٠) عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، (القاهرة : دار الهلال ، د.ت) ، ص ١٦٢ .

(٤١) W. Gesenius, **Hebrew and English Lexicon of the O. T., Oxford** , (London, 1968), Subject job p. 33.

(٤٢) حسن ظاظا ، المجتمع العربي القديم من خلال اللغة ، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الجزء الثاني « الجزيرة العربية قبل الإسلام » ، (الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٩٨٤ م) ، ص ١٨١ .

Theodore. H. Robinson. **The Poetry of the Old Testament**, (London, 1977), pp. 80 - 85.

(٤٣) ظاظا : الفكر الديني ، ص ٥٥ ، تلخيصاً عن كتاب « بنيامين جرين » .

Benjamin Greene, **Resume chronologique del'Ancien Testament**, (Lyon- Geneve, ‌1909), , pp. 170 - 173.

(٤٤) ظاظا ، الفكر الديني ، ص ٥٥ ، تلخيصاً عن كتاب « فولتير » .

Voltaire, **Dictionaire philosophique**, (Paris- Garner,1954), pp. 257 - 260.

ونظراً لأن قصة أيوب تحضُّ على الصبر والإيمان والرضا بقضاء الله ، فقد دخلت في التراث اليهودي مترجمة ، ثم إن طريقة الكتابة والأسلوب اللغوي يدلّان على تاريخ متأخر يبدو أنه حوالي عام ٣٠٠ ق.م. ، هذا فيما يتصل بتسجيل القصة في صورتها النهائية الموجودة في العهد القديم ، وهو لا يمنع من أنها ظلت أجيالاً طويلة تروى شفوياً وتتطور لغتها ومعانيها وألفاظها مع الزمن إلى هذا التاريخ .

التوقف والاجتهاد في مواجهة مشكلات العهد القديم

ومؤدى هذا كله أن الآراء النقدية للعهد القديم تتوالى وتتطور في الاتجاه الموضوعي لدراسة وتحليل التحريف اليهودي للعهد القديم ، ففي عام ١١٦٧م نجد أن الفيلسوف اليهودي سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م) ينتقد العهد القديم نقداً عقلياً رياضياً ، وكذلك جاء تفسيره للعهد القديم تفسيراً موضوعياً حيث طبق على النص الديني مناهج دراسة الظواهر الطبيعية من حيث الملاحظة والتجربة ، وهكذا جاء تفسيره مخالفاً لنظريات موسى بن ميمون الخاصة بتفسيره للعهد القديم والتي اعتبرت تفسيراً ذاتياً شخصياً إذا ما قورنت بتفسير سبينوزا الموضوعي العقلاني(٤٥) الذي جاء بعد تفسير ابن ميمون . وكان سبينوزا قد أوضح نظريته الخاصة بأن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة ، وقد اعتمد في هذا على أن هذه الأسفار تستخدم ضمير الغائب وليس ضمير المتكلم ، كما أن أسماء بعض الأماكن قد اختلفت عن أسمائها في عصر موسى ، بالإضافة إلى اعتقاده بأن يوشع بن نون لم يكتب سفره وكذلك صمويل لم يكتب سفريه .

وعلى أي حال فإن الاجتهادات الموضوعية العقلانية في تفسير العهد القديم ليست وقفاً على سبينوزا ، فقبله بقرون طويلة كتب الفيلسوف اليهودي السكندري فيلون (من حوالي ١٣ ق.م. إلى حوالي ٥٤ م) تفسيراً باليونانية حكّم فيه العقل ، فمن أمثلة ذلك أن نص سفر التكوين يقول إن الحية هي التي وَسْوَسَتْ لحواء وآدم وقدمت لهما الفاكهة المحرمة (تكوين ٣ : ٣ ـ ٥) ، فاعترض فيلون في تفسيره قائلاً إن الحية كانت في ذلك الوقت من حيوانات الجنة بريئة من الشر لا تقدم على جريمة تعدي أوامر الله ، ولكن الشيطان تقمص في جلدها ولو أنه ظهر بشخصه لعرفه آدم ولم يقبل منه شيئاً ، لكن الحية أخفته في جلدها للتعمية . ومن هنا قال فيلون إن المسؤول عن هذه المعصية الأولى هو الشيطان ومسؤولية الحية هي أنها أخفته في جلدها فقط(٤٦) ؛ وهو كلام أقرّه على جزء منه القرآن الكريم حيث لا يرد ذكر للحية وتقع مسؤولية الوسوسة بالمعصية الأولى على الشيطان . مما نتبين معه أن اليهود كان بينهم منذ أقدم العصور مفكرون يجدون في القصص والأخبار التي يسمعونها في كتابهم المقدس أشياء لا تتفق مع العقل ، وكذلك نشعر بهذا عند قراءة ترجوم أونكلوس الآرامي للتوراة ، فهو أيضاً يتوقف عند بعض الأشياء التي لا يقبلها العقل ويحاول ترجمتها بالمعنى بعد تأويلها إلى ما يقبله العقل .(٤٧)

ومن علماء العهد القديم في القرن التاسع عشر الألماني يوليوس فلهاوزن الذي يتلخص نظره إلى النص المقدس عند اليهود بأن قدسيته مُنحت له من اليهود أنفسهم وليس من الله ، فقد تعاقبت عليه رواة وكتبة وكُهّان في أماكن مختلفة في فلسطين وفي خارجها (في السبي البابلي مثلاً) ، حاولوا أن يعطوا بهذا السرد القصصي التشريعي نسقاً متصلاً ، وأن يسدوا ما به من الفجوات بإضافات كهنوتية وتشريعية ترجع إلى مصادر إنسانية وليست إلهية ، وهذه المصادر تعطي حسب رأيه خمسمائة سنة من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، تعاقبت فيها أجيال من الرواة اليهويين (جنوب فلسطين) والإلوهيميين (شمال فلسطين) والكهنة الزعماء (في السبي البابلي خصوصاً) والرواة والكتبة (إلى عهد الاسكندر الأكبر) .(٤٨)

---

(٤٥) D. Phil, « Jewish Thought in the Modern world (Spinoza), in E.R. Bevan and C. Singer (eds.), **The legacy of Israel,** (Oxford, 1948), pp. 449 - 452 .
راجع سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة د . حسن حنفي (القاهرة ، ١٩٧٠م) ، ص ١٣٠ .

(٤٦) جامعة السوربون ـ معهد الدراسات العليا ، باريس ، سنة ١٩٤٨م .
D. Litt, «Hellenistic Judaism», in E.R. Bevan and C. Singer Ceds.) The Legacy of Isreal, pp. 50- 55.

(٤٧) رسالة جامعية : H. Zaza, **La Terminologi Religieuse dans La version Arab du pentaeuque de Saadia gaon,** (Paris, 1948), pp. 110 - 115 .

(٤٨) Hayes and Miller, pp. 168 - 169 .

وكانت آراء سبينوزا ثورة في مناهج نقد النص في العهد القديم ، وتناوله على أنه عمل إنساني لم تعد له علاقة بالله سبحانه وتعالى إلَّا بظلال باهتة جداً ، وأحدث هذا معارضة قوية من جانب اليهود التقليديين الذين يرون أن هذه الأسفار والفصول والكلمات كلها بوحي من الله .(٤٩)

ولا تزال البحوث تثبت أن التهم الموجهة إلى فلهاوزن كانت في مجموعها منبثقة من التعصب لا من المنطق ، فمثلاً قرر فلهاوزن أن سفر النبي حبقوق ـ من أنبياء عصر الانحدار في القوة الإسرائيلية قبيل التشتيت والسبي الأشوري ثم البابلي ـ لم يكن مكوناً من ثلاثة فصول كما هو مسجل الآن في العهد القديم ، بل من الفصلين الأول والثاني فقط ، وأن الثالث أضيف في وقت متأخر ، وظلّت المعارضة في ذلك قوية إلى جيلنا هذا الذي نحن فيه ، إذ اكتشفت الوثائق العبرية المعروفة باسم مخطوطات البحر الميت في منطقة قمران في مرتفعات الساحل الغربي للبحر الميت ، فقد وجد تفسيراً لسفر حبقوق ختمه مؤلفه مع نهاية الفصل الثاني ولم يكن عنده خبر بالفصل الثلث(٥٠) ، فإذا ما علمنا أن تاريخ هذه المخطوطات بعدما أجري عليها من تحقيق علمي وتاريخي وتكنولوجي تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد فقط ، فقد تأكد لنا أن شكوك فلهاوزن لم تكن مبنية على مجرد الشعور الداخلي أو التذوق الأسلوبي ، ولكن هناك وثائق تثبت الكثير منها .

الكتب اليهودية المقدسة بعد العهد القديم

وكما أسلفنا في البداية فإن الديانة اليهودية تركت الباب مفتوحاً بعد موسى بل بعد السبي البابلي ، فقد دخلت منه المرويات الشفوية والاجتهادات والفتاوي وغيرها من النصوص الدينية التي لها نفس ما للتوراة من القيمة ، مثل أسفار الأنبياء وكتب الحكمة ، كما أخذت المشنا وكذلك التلمود تلك القيمة أو أكثر عند اليهود ، وتبين لنا أن العهد القديم يعتبر في مجموعه عبارة عن موسوعة من الشعر والنثر تتضمن التاريخ القومي لليهود من وجهة نظرهم وتراثهم الأدبي الذي اعتمد على تجارب الأسلاف والأمم الأخرى في الشرق القديم . وقد استمر اليهود في سر سيرهم وأخبارهم بنفس الطريقة الفلكلورية التي ساروا عليها في العهد القديم ، وقد عرف هذا السرد الجديد بتاريخ المكابيين(٥١) حتى ظهور المسيح وهو مكتوب باللغة اليونانية . واعتبر اليهود الدين مظهراً من مظاهر التطور الاجتماعي وبعض الدلائل تؤيد هذا ، ومنها ما صحبه من فرق وطوائف مختلفة تتمايز في إيمانها بالكتب المقدسة اليهودية ، وهذا يمثل برهاناً على هذا التطور الذي طرأ على عقليات اليهود ، فالصلاة اليومية الموجودة ليست من أيام القدماء ، وربما سُنَّت أيام المكابيين أو كانت قبل ذلك كالأدعية السائدة عند اليهود (أخبار الأيام الأول ٢٥ : ١ ـ ٦) ، وقد جعل هذا التطور الديني الفكر اليهودي في أزمة دائمة هي أزمة الصراع بين الانعزالية والاندماج ، وأغرب شيء في هذا الصراع ظهور القسم الأساسي من الصلوات وهما الشِمَاع والسمونةِ عِشْرِة ، اللتان تنسبان إلى عزرا ومائة وعشرين رجلاً من الشيوخ والعلماء ، ومن بينهم الأنبياء دانيال وحجي وزكريا وملاخي ، إذ يُظن أن عزرا رأى بعد خراب الهيكل الأول ـ في القدس (أورشليم)

---

(٤٩) Hayes and Miller, P. 46.

(٥٠) **The New Standard Jewish Encyclopedia** (London, 1977), Habakkuk, p. 810.

(٥١) سفر المكابيين الأول والثاني يتناولان جزءاً من تاريخ المكابيين وأولهما يقع في ١٦ اصحاحاً ، كُتِب أصلاً باللغة العبرية ، لكن فقد الأصل العبري وبقيت ترجمته باليونانية وتبدأ روايته بالاسكندر وتنتهي بموت سمعان ثالث ملوك الأسرة الحشمونية ، أما سفر المكابيين الثاني فيقع في ١٥ إصحاحاً كتب في الأصل باليونانية فيما عدا رسالتين من يهود فلسطين إلى يهود مصر فُقِد أصلهما العبري ، والسفر الثاني لم يصل في قيمته التاريخية إلى مستوى الأول ، إلَّا أن السفر الثاني يتميز بفكرة متطورة عن المجازاة في الحياة الأخرى ولقيامة الموتى .

أما سفر المكابيين الثالث فيتكون من سبعة إصحاحات ، وهو يتناول أحداثاً تتعلق باليهود في عصر بطلميوس الرابع (٢٢١ ـ ٢٠٤ق.م.) وقد كتب باليونانية فيما يبدو في الاسكندرية ، ويعتبر سفر المكابيين الثالث من كتب الأبوكريفا (أي الكتب غير القانونية التي لم تقبل عندما تقرر تسجيل أسفار العهد القديم) .

أما سفر المكابيين الرابع فهو مقالة فلسفية أكثر منها رواية تاريخية .

(٥٢) الشِماع : هو أهم قسم من الصلاة ، وهو الجزء الوحيد المأخوذ كله من التوراة (تثنية ٦ : ٤ ـ ٩ ، تثنية ١١ : ١٣ ـ ٢١ ، العدد ١٥ : ٣٧ ـ ٤١) وكلمة « شماع » معناها « اسمع » جاء في تثنية ٦ : ٤ « اسمع يا اسرائيل ، الرب إلَهنا الرب واحد . »

راجع ظاظا ، الفكر الديني ، ص ١٧٣ .

عام ٥٨٧ ق.م. على يد نبوخذ نصّر - وإبطال القرابين والتقدمات ، ضرورة وضع صلوات يومية لليهود لتحل محل التقدمات ، فجمع هؤلاء الرجال المعروفين برجال الكنيسة الكبرى وأقروا القسم الأساس من الصلاة وهو السِمَاع(٥٢) ، والشِمُونةِ عِشْرِة(٥٣) حتى وقتنا هذا إلّا بعض تغييرات لفظية وإضافات من التوراة والمشنا والتلمود .

مثال من استمرار التطور الديني عند اليهود ـ الأعياد

الديانة اليهودية ديانة متطورة وليست ثابتة عند وضع معين على مر العصور ، فهي تتشكل ويزيد فيها التراث المكتوب ، كما تتعدل فيها العبادات(٥٤) والشعائر بحسب الظروف ، فالأعياد تتمشى مع هذه التطورية .

ومعظم هذه الأعياد تكون في مناسبات تاريخية غير ثابتة الصلة بموسى فيما عدا عيد الفصح الذي أُخذ عن المصريين مُحوّراً ، فقد كانت كل أمة من الأمم القديمة عندها عيد الربيع ـ عيد أدونيس عند الفينيقيين وعيد النهر عند البابليين والأشوريين ، ولذلك درج اليهود على اعتبار هذا العيد إحياء لذكرى نجاتهم من فرعون وخلاصهم من العبودية في مصر ، ولذلك جاءت تسميته بعيد ال« الفَسْح » ، أي الفرج بعد الشدة ـ وهي تسمية جاءت في وقت متأخر .

ومع أنه أخذ من الأمم السامية في المنطقة والتي كانت تبنيه على معتقدات وثنية متصلة بالقمر(٥٥) ، إلّا أنه عند اليهود ارتبط بحادثة اجتماعية وسياسية كما أسلفنا .

أما يوم الغفران (أو يوم الكفارة) فمن المرجح أن الشريعة الموسوية قررت يوماً للتكفير عن الخطايا بالصوم والصلوات والذبائح والأموال ورد المظالم إلى أهلها . وكانت تسميته قديماً يوم « هكتوريم » أي يوم الكفارات ، وهي فيما يبدو شعيرة قديمة ، ولكنها اقترنت باقتحام بختنصر (نبوخذ نصر) للقدس (أورشليم) عام ٥٨٧ ق.م. في نفس الوقت ، فأصبح هذا اليوم حداد لارتباطه بتلك الذكرى الأليمة لليهود.(٥٦)

عيد الحانوكة أو عيد التدشين

ومناسبة هذا العيد ترجع إلى خريف عام ١٦٥ ق.م. أي بعد نحو ثلاثة أعوام ونص منذ اندلاع الحروب بين السلوقيين والمكابيين حيث حل نوع من المهادنة انتهز على إثرها يهودا المكابي الفرصة وهاجم القدس ، واستطاعت قواته أن تحطم المذابح الوثنية والتماثيل اليونانية وزود المعبد بمذبح طاهر جديد ، وقد استغرقت هذه العملية ثلاثة أسابيع أُعيد بعدها فتح الهيكل في القدس للشعائر اليهودية ، واعتبروا هذه المناسبة عيداً اطلقوا عليه عيد التدشين.(٥٧)

ومؤدى ذلك أن هذا العيد له طبيعة سياسية وتاريخية لا تمّت إلى موسى ولا إلى الأنبياء بصلة ، وإنما استحدث ضمن أعيادهم حتى أن المثقفين منهم يقرأون السفرين

---

(٥٣) شِمُونة عِشْرِة : أو العاميدة ، وهي جزء من الصلاة تأتي في أهميتها بعد الشماع ، وهي مجموع تسع عشرة بركة « وكانت في الأصل ثمان عشرة » وجاءت معظم فقراتها من العهد القديم وبعضها من المشنا .
ظاظا ، الفكر الديني ، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٥٤) من التعديل في العبادات أنه بعد خراب الهيكل الأول على يد الكلدانيين رأى الأنبياء (فيما يزعم اليهود) تحريم النطق باسم الإله القومي (يهوه) للشعب اليهودي ، لأن اليهود تعرضوا لعذاب الله بالهزيمة والسبي والتشريد بسبب الكبائر التي ارتكبوها وأغضبوا بها الله ، فأصبحوا من ذلك التاريخ نجسين لا يحق لهم التلفظ باسمه ، وما زال هذا التحريم قائماً حتى الآن .

(٥٥) كانت المجتمعات السامية تقدم باكورة قطعانها قرباناً لإله القمر ، ثم أصبحت تقدم باكورتها ليهوه ليباركها وليكفل تكاثرها ، ولكن لودز يرفض هذه النظرية ويقول إن الفصح في الأصل لم يكن مرتبطاً بالربيع أو البواكير ، وإنما احتفال يراد به حماية البيت من الأذى فيلطخ بالدم لعقد ميثاق من الدم مع آلهة البيت ، ويرى أن القربان لم يقدم إلى إله قمري وإلّا لأقيم في العراء في ضوء القمر لا داخل البيت .

A. Lod. **Isarael from Its Beginnings to the Middle of the Eighth Century,** trans. S. H. Hooke (London, 1932), pp. 291 - 294.

(٥٦) موسكاتي ، هامش الفصل السادس الذي صنعه الدكتور السيد يعقوب بكر ، ص ٣٣١ راجع : Epstein, p. 175 .

Hayyim, Schauss: **The Jewish Festivals, Union of American Hebrew Congregations** 12 Printing (New York, 1978), pp. 141 - 142 .

(٥٧) ١ مكابيين ٤ : ٣٦ ، ٥٤ ؛ ٢ مكابيين ١٠ : ١ ـ ٧ .
Schauss, pp. 221 - 223.

ومن الطريف أن السلطات الدينية اليهودية حددت هذا العيد في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر الميلادي حتى يجد أطفال اليهود فرصة للاحتفال به في نفس الوقت الذي يحتفل فيه أطفال النصارى بميلاد المسيح ، مما يزيد فرص اندماج هؤلاء الأطفال في أعياد النصارى ، وتدشين المعبد على يد يهوذا المكابي لم يكن قطعاً في هذا اليوم . وأطرف من ذلك أنهم زعموا أن النبي إلياس (الياهو) الذي يقول سفر الملوك الثاني أنه لم يمت ولكنه صعد إلى السماء في عربة نارية ينزل في هذا اليوم بلحية بيضاء طويلة ومعه كثير من اللعب والهدايا لأطفال اليهود على غرار باب نويل في عيد الميلاد المسيحي .

الخاصين بتاريخ المكابيين في هذه المناسبة على الرغم من أنهما يُعتبران من النصوص غير القانونية عند اليهود .

عيد البُوريم أو عيد الفُور

وأهم ما يميزه أنه أيضاً لا يمت بأي صلة إلى موسى عليه السلام ولا إلى الشريعة الموسوية ، بل هو احتفال تذكاري صاخب له صلة بأحداث تاريخية وسياسية مهّدت للعودة من السبي البابلي في القرن الخامس الميلادي ، ومناسبته ليلة واحدة ووحيدة اجتمعت فيها إستير اليهودية بالملك الفارسي أحشويروش (إكسركسيس) وحصلت منه بوسائلها الخاصة على مرسوم بتمييز اليهود على غيرهم من رعيته والتنكيل بأعدائهم ومن بينهم وزيره هامان وزوجته وأولاده العشرة .(٥٨)

والغريب أن اليهود يجعلون السكر سُنَّة في هذا العيد كما سكر ملك الفرس ، كما أنهم يقيمون فيه رقصان تنكرية (كرنفال) ، وكان المؤرخون العرب من أجلها يسمونه عيد « المسخرة » ، وهو لذلك احتفال أقرب إلى السياسة منه إلى الدين ، ولذلك فإنه يحظى في ظل الصهيونية الحديثة باهتمام خاص .

صيام التاسع من آب

ومناسبته ذكرى سقوط أورشليم (القدس) في يد تيتوس القائد الروماني وتخريبه الهيكل الثاني في عام ٧٠ ميلادية ، وهو يوم صوم وحداد .

وهكذا يتبين لنا أن معظم الأعياد اليهودية لا تعود إلى عهد موسى ، وإنما هي احتفالات تذكارية لأحداث سياسية واجتماعية وقعت بعد موسى بزمن طويل ثم أدخلت في الديانة اليهودية .(٥٩)

تطور عقيدة الوحدانية بعد موسى

إذا كان موسى رسول اللّه بعقيدة الوحدانية ، فإن هذه الوحدانية كانت لها صور كثيرة ، منها الوحدانية الوثنية وهي الإقرار بإلّه واحد ، ولكن هذا الإلّه له مواصفات محدودة وله منطقة نفوذ معينة ، وذلك كان في أيام المدن المستقلة القديمة أو في أيام العشائر ، فكانت كل عشيرة تؤمن بإلّه خاص هو الحامي لها وكانت تتصور قرابة بينه وبينها ، وكل ذلك ظاهر في بعض الأسماء القديمة « إبرام » بمعنى الأب العالي ، « عمي صادق » بمعنى عمي العادل ، « أبينا داب » بمعنى الأب الكريم ، « أبشالوم » بمعنى السلام أب . وكل إلّه له سمات قد تكون طبيعية وقد تكون صناعية . وعند قراءة التوراة نشعر بقلق شديد في عقيدة الوحدانية نفسها عند من كتبوا التوراة بعد موسى ، حيث يتجسد الإلّه ويصبح عمود دخان نهاراً وعمود نار ليلاً يسير أمامهم ليرشدهم .

وإذا كان موسى قد غرس الاعتقاد بوحدانية اللّه وعدم تجسيده أو تصويره كما نص على ذلك البند الثاني من الوصايا العشر التي وردت في سفر الخروج : ٢٠ وسفر التثنية : ٥ « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ، مما في السماء من فوق ، ولا مما في الأرض من تحت ، ولا مما في الماء من تحت الأرض ، ولا تسجد لها ولا تعبدها ، لأني أنا الرب إلّهك إله غيور . . . » على نحو يبدو فيه أنها كانت من عصب الشريعة الموسوية ، فإن موسى بن ميمون قد فلسف فكرة الوحدانية البدائية عند اليهود على ضوء ما جاء في علم التوحيد عند أئمة المسلمين . وأحب أن أقف عند بعض هذه الصفات الإلّهية لأستلفت النظر إلى ما يتفرّد به اللّه في عقيدة الإسلام ، وما تأثر به موسى بن ميمون عند وضعه الأصول الثلاثة عشر ، فلم يكتف بالقصص البسيط في سفر التكوين من أنه « في البدء خلق اللّه السموات والأرض . . . » وهو واحد وليس في بساطة الإلّه الواحد الذي ورد في نص سفر التثنية ٦ : ٤ ما نصه « اسمع إسرائيل ، الرب إلّهنا رب واحد » ، كما أنه يجعل الإيمان وجدانياً لا عقلانياً تثنية ٦ : ٥ إذ يقول « فتحب الرب إلّهك من كل قلبك، ومن كل

---

(٥٨) Schauss, pp. 238 - 239.

(٥٩) والذي نعرفه من التاريخ القديم القريب من موسى أو المعاصر له ، هو كما لوضحنا عيد الفصح ، وربما احتفلوا أيضاً بعيد رأس السنة القمرية في التقويم اليهودي منذ ذلك الوقت ، وكذلك عيد الحصاد (عيد الأسابيع) على أساس أنه تسبقه تسعة أسابيع يتناوب فيها اليهود حراسة حقول القمح والشعير حتى لا يتلفها الأعداء ، ويقيمون عيداً صغيراً في وسط هذه الأسابيع احتفالاً بِتَكَوّن السنابل في هذه الزراعة . بالإضافة إلى احتفال خاص صغير عند رؤية الهلال في كل شهر .

نفسك ومن كل قوتك » . في حين أن موسى بن ميمون يتحدث عن وحدانية مطلقة للحق سبحانه ، وهو ما ذكره في الأصل الثالث « أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق ، تبارك اسمه ، ليس جسماً ، ولا تحده حدود الجسم ، ولا شبيه له على الإطلاق » ، وينص في الأصل الرابع على أنه الأول والآخر « أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق تبارك اسمه ، هو الأول والآخر » .

أما الأصلان الثاني عشر والثالث عشر فإنهما من الشرائع اليهودية غير الموسوية ، التي ظهرت بين اليهود بعد اضطهادات الأشوريين والكلدانيين في ظل السبى البابلي ثم الشتات والدياسبورا (التشرد الروماني) ، وهاتان الشعيرتان هما المسيح المخلص وا لإيمان بيوم القيامة والبعث في اليوم الآخر .[٦٠]

ويتضح لنا أن الأصول الثلاثة عشر التي وضعها موسى بن ميمون وجعلها أركان الإيمان اليهودي ، تختلف اختلافاً شديداً عن تلك الشريعة البدوية البسيطة التي تضمنتها التوراة .

كما تأثر السامريون بالعقيدة الإسلامية فيما يتصل بإيمانهم باللّه الواحد الأحد، ولذلك فالنصوص الأربعة التي وردت في التوراة عن الرب تذكره بلفظ إلوهيم في صيغة الجمع ، قد صححتها التوراة السامرية إلى صيغة الإفراد (سفر التكوين ٢٠ : ١٣ ، ٣١ : ٥٣ ، ٣٥ : ٧ ؛ سفر الخروج ٢٢ : ٨) . ومن هذا نتبين أن عقيدة الإلّه الواحد كانت واضحة وبسيطة ، ولكن مع مرور الزمن وتأثير الإسلام الذي انتشر وعمّ منطقة فلسطين ، أدخل السامريون معتقدات جديدة فاستعملوا في تراتيلهم مفاهيم جديدة لوحدانية الإلّه « لا إلّه إلّا هو أحد » . ومن الملاحظ أننا لا نجد هذا التعبير على الإطلاق في الكتابة السامرية السابقة على فترة معرفتهم بالعقيدة الإسلامية[٦١]

البعث والخلاص

أما فكرة البعث عند اليهود فقد ظهرت بعد السبي البابلي (أشعيا ٢٦ : ١٩ ، دانيال ١٢ : ٢ ـ ٣) ، كما ظهرت فكرة الخلود في القرن الأول قبل المسيح ، ومؤداها أن يدخل الصدّيقون جنة عدن ويحرق الأشرار في النار (٢ مكابيين ٧ : ٢٩ ، ١٤ : ٢٣) ، ويشير ديورانت[٦٢] إلى أن فكرة البعث قد أخذها اليهود عن الفرس، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين . ومما تجدر ملاحظته أن عقيدة البعث في اليهودية والتي جاءت على لسان موسى بن ميمون في آخر الأصول الثلاثة عشر ، لم تكن موجودة في العقيدة اليهودية (القديمة) ، وقد تأثر موسى بن ميمون كما أسلفنا بعلم التوحيد عند أئمة المسلمين في العصور الإسلامية الوسيطة، وجاء في الأصل الثالث عشر ما نصه « أنا أؤمن إيماناً كاملاً بقيامة الموتى ، في الوقت الذي تنبعث فيه بذلك إرادة الخالق تبارك اسمه وتعالى ذكره الآن وإلى أبد الآبدين » .

وإذا كانت الوحدانية من عهد موسى فمن المؤكد أن فكرة المسيح المخلص لم تأت إلّا بعد اضطهاد الأشوريين والكلدانيين في ظل السبي البابلي بعد أن تعلقوا بأمل جديد يخلصهم ، ولم تكن عقيدة المسيح المخلص معروفة على أيام موسى . ويبدو أنها فكرة بابلية مؤداها أن يأتي جلجاميش فيخلصهم من الموت كما نجدها واضحة في سفر إشعيا

---

(٦٠) إبراهيم مدكور ، في الفلسفة الإسلامية ـ الجزء الأول ، ط ٣ (القاهرة ، ١٩٨٣م) ص ص ٩١ ـ ٩٣.
لقد جعل موسى بن ميمون الكفر باليوم الآخر خروجاً على الدين على عكس ما يعتقد اليهود ، لأنه ليس هناك يوم آخر في التوراة وإن كانت هناك إشارات غير مباشرة في المشنا عن يوم الرب ، فجعلها موسى بن ميمون في دلائل الإيمان كقسم خاص من كتابه ، وفيه جعل الإنسان يؤمن باليوم الآخر وبالثواب والعقاب في الآخرة ، وهو بهذا يثبت تأثره المباشر بالفكر الإسلامي .
ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي ، ص ص ١٥٧ ـ ١٦٧ .
الأصل الثاني عشر ونصه « أنا أؤمن إيماناً كاملاً بمجيء المسيح ، ومهما تأخر فإنني أنتظره كل يوم » .
الأصل الثالث عشر ونصه « أنا أؤمن إيماناً كاملاً بقيامة الموتى في الوقت الذي تنبعث فيه بذلك إرادة الخالق ، تبارك اسمه ، وتعالى ذكره الآن وإلى أبد الآبدين . »

(٦١) J. Macdonald, Theology of Samaritans, (London, 1964), pp. 64 - 68 .
راجع إسحاق بن صبي ، عقيري أمونتام بنوسح قصير « أسس عقيدتهم في نسخة مختصرة » (القدس ، ١٩٦٥م) ، ص ١٣٥ .

(٦٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة . جـ٢ ، الشرق الأدنى ، ترجمة محمد بدران : (القاهرة : جامعة الدول العربية ، ١٩٧١م) ، ص ٣٤٥ .

(٩ : ٦ ـ ٧) في الحنين إلى عودة ملك داود الذي كان يعتبر عصراً ذهبياً وذلك لكي يوطد المملكة بالعدل ، وقد أصبحت بعد ذلك ركناً من أركان العقيدة اليهودية والتي جاء وصفها دقيقاً في أشعيا (١١ : ١ ـ ١٠) والتي استمرت في تداعب خيال اليهود منذ السبي البابلي حتى يومنا هذا .

ونلاحظ أن فترة ما بعد السبي البابلي هي الفترة التي شهدت تغييراً جذرياً في تطور الديانة اليهودية ، وتقنين طقوسها المتعددة ، وهذا التعقيد في الطقوس الدينية يعتبر ضعفاً أصاب الحياة الدينية .

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى ما جاء في الجزء الرابع من المشنا والمسمى كتاب الجنايات « نزقين » من فصله التاسع والمعروف « بفقرات الآباء » ، ويبدو فيه أثر الفكر اليوناني على الجانب الاجتماعي في الفكر اليهودي . وهذه الفقرات من المشنا قد دخلت في الصلوات اليهودية ليتأمل المتعبدون على وجه الخصوص أن هناك أجيالاً متعاقبة من القدسية السماوية في بني إسرائيل تمتد من موسى إلى ما بعد ميلاد المسيح . وهو أمر فيه مغالطة شديدة ولا يقوم على أساس صحيح[٦٣] ، والأساس الذي يقوم عليه أساس قومي بحت ، هو الذي دعا اليهود إلى أن يطلقوا على أنفسهم اسم « عام عولام » أي الشعب الخالد .

---

(٦٣) وقد اخترت فقرتين من فقرات الآباء كنموذج لأثر الفكر اليوناني كما أوردها الدكتور حسن ظاظا في مرجعه السابق ، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٧ .

أ ـ « وعن هؤلاء تلقى يَسّيّ بن يوعزر الصردي ، ويسّيّ بن يوحنا المقدس . وكان الأول يقول : ليكن بيتك منتدى للحكماء ، وتعلّق بتراب أقدامهم ، وكن متعطشاً إلى الارتواء بكلامهم » .

ب ـ وأخذ يوشع بن فِرَحْيا ، ونِتَايّ الأربلي عنهما ، وكان الأول يقول اتخذ لك أستاذاً ، واغنم صاحباً ، واحكم على كل إنسان بالخير . »

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ١٨٩ ـ ٢٤٢(١٩٨٧)

فى شوارع المدينة الإسلامية وطرقاتها

للدكتور محمد عبدالستار عثمان

ملخص البحث : يتناول هذا البحث شوارع المدينة الإسلامية وطرقها باعتبارها محوراً رئيساً من محاور تخطيطها . ويبدأ البحث بإبراز محاور التخطيط الأخرى المؤثرة على تخطيط شوارع المدينة . ثم يعرض لمقاييس شوارع المدينة وطرقها ، واستتبع ذلك توضيح التصنيف الأساس لها إلى شوارع عامة وطرق خاصة يختص كل منها بنظام معين من الارتفاق . وفي سبيل تفسير الظواهر المعمارية المتعلقة بتخطيط وهيئة هذه الشوارع والطرقات يعرض البحث لدراسة عوامل التغير التي تطرأ عليها وأثر ذلك على هيئتها وتخطيطها لا سيما فيما يتعلق بالطرق الخاصة التي تعكس بوضوح مظاهر التغير بفعل العوامل المتنوعة التي تؤدي إلى ذلك .

ومن منظور آخر يعرض البحث لأثر الأحكام الفقهية في تنظيم العلاقة بين المباني والطرق والشوارع المطلة عليها . وما تبع ذلك من ظواهر معمارية متصلة بتخطيط هذه المباني وأشكال واجهاتها ومظلاتها وأبوابها وأخاريجها ممثلة في الرواشن والأجنحة والأسبطة والميازيب وغيرها . وكذلك لعلاقة المناخ بتخطيط شوارع المدينة وطرقاتها . ثم يخلص إلى تحليل جمالية شوارع المدينة الإسلامية وطرقاتها من منظور حسي ووظيفي وتجريدي . يكشف قيمها الجمالية المتنوعة .

برزت الشوارع والطرق في المدن كمحور رئيس في التخطيط منذ فجر التاريخ ، ونما وتطور تخطيط المدن بنمو الحضارات وارتقائها ، وعكس تخطيط شوارع المدن المستوى الحضاري الذي ساد مراحل التاريخ الإنساني المتعاقبة ، وتنوعت تخطيطات المدن بتنوع واختلاف المظاهر الحضارية من عصر الى آخر ، واصبح تخطيط شبكات الطرق في المدينة من بين الأسس التي تصنف عليها نوعيات تخطيطات المدن قديمها وحديثها.(١)

وتأصلت العلاقة الوظيفية بين شوارع وطرق المدينة وتكويناتها المعمارية الرئيسية منها والثانوية على حد سواء ، ويكشف هذا عن ضرورة دراسة شوارع وطرق المدينة دراسة وافية لما لذلك من أهمية كبيرة ، ليس فقط في الكشف عن الحقائق التي تتعلق بتخطيط هذه الشوارع وما يعكسه من مظاهر حضارية هامة ، بل لتفسير كثير من المسائل والحقائق الأثرية والمعمارية المتصلة بالتكوينات المعمارية المطلة عليها .

وتشير الدراسات المعمارية والاجتماعية والجغرافية والأثرية إلى أهمية الشوارع بصفة عامة . وتفسر بعض الدراسات الأثرية والمعمارية لتخطيط المدن أن نشأة المدينة كان لامتداد التعاون والتفاهم من داخل القرية الواحدة إلى

(١) محمد مصطفى حماد ، تخطيط المدن وتاريخه ، ط ١ ، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص ص ٢٣ ـ ٢٦ .

القرى القريبة منها والمجاورة لها ، فتنشأ طرق القوافل للتبادل التجاري ، وإذا تقاطعت الطرق صارت نقطة هامة تجذب اليها الناس ، بعضهم جاء للتبادل التجاري ، وبعضهم للشراء ، وبعضهم الآخر يتخذها مقره الدائم ويعتمد في معيشته على خدمة المسافرين أو على حرف يدوية وإنتاج ، فتتكون عند مقاطع الطرق Cross- Roads مراكز للتبادل التجاري ..Trading- Posts وإذا كبرت واشتهرت جذبت اليها أعداداً أكبر من الناس فتنمو إلى بلد Town وإلى مدينة City ، وفي هذه البلدان تتكون العلاقات وتتشابك ، وتوضع أصول المعاملة ، ويتكون المجتمع Society وتحاط المدن بالأسوار من أجل الدفاع ، وكلما كبرت وازداد النشاط والرخاء جذبت اليها أعداداً أكبر من الناس فتتضخم وتكتظ ، وتتلاصق المباني على طول الطرقات ، وهي التي كانت في الأصل طرق القوافل .(٢)

ويشير علماء الاجتماع إلى أهمية النقل والاتصالات في إحداث التفاعل البشري ، الذي يؤدي إلى نمو المدينة ، فالسبب الرئيس لنمو المركز الحضاري واتساعه وامتداده يتمثل في سهولة الاتصالات الدائرة بين الأفراد ، وفي يسر الانتقال النسبي من مكان إلى آخر ، بل أنهم يذكرون أن هيكل الاتصال أفضل الأسس لتقويم ثقافة مدينة .(٣).

ومن الناحية الأثرية فإن بداية ظهور الشارع ، الذي تصطف على جانبيه المنازل كان له دلالته الاجتماعية والسياسية المهمة ، فقد برزت أهمية كشف طريق بمرمدة بني سلامة بمصر والتي ترجع الى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، لما أعطاه من دلالات اجتماعية وسياسية ، حيث أن هذا الطريق يبلغ طوله ثمانون متراً ، وعرضه خمسة أمتار ، تعطف على جانبيه المساكن.(٤) بنظام يكشف عن وجود كيان اجتماعي وسياسي كفل هذا التنظيم .

ويعكس أهمية الشوارع في تخطيط المدن باعتبارها الهيكل الأساس الذي يحدد تكوينات المدينة المعمارية ـ ذلك الرمز الكتابي في اللغة المصرية القديمة ، الذي يدل على المدينة ، وهو رمز عبارة عن دائرة يقطعها شارعان متعامدان على هذا النحو(٥).

وبرزت أهمية الطرق في الحضارات القديمة وآثارها الباقية ، ومن أهمها الحضارة المصرية القديمة ، التي كشفت الدراسات الأثرية عن أهمية الطرق التي تؤدي إلى معابدها ، والتي تربط بين وحداتها المختلفة ، وأنها كانت ذات اعتبار خاص ، حتى أن بعضها اتخذ هيئة خاصة كطريق الكباش ، بل أنها صنفت إلى : « طرق محرمة » و « طرق خاصة » و « طرق للعامة » ، كما تكشف عن ذلك طرق المعابد في منطقة سفارة ، وارتبط هذا التصنيف بالطقوس والمراسم المتبعة في تلك العصور .

وبرزت في المدن المصرية القديمة فكرة تخطيط الشوارع المستقيمة المنتظمة ، التي تقطعها شوارع عرضية مستقيمة أيضاً ، وإذا كانت هذه الظاهرة ظهرت في شوارع المصاطب التي خصصت للدفن ، فإنها شاعت في نماذج المدن المصرية التي كشف عنها ، مثل مدينة عمال أهرام خنت كاوس ٢٤٨١ق.م. التي يدل تخطيطها على أنه عمل لها مخطط قبل إنشائها ، فكان تخطيطها عبارة عن شوارع مستقيمة منتظمة تقطعها طرقات عرضية متعامدة عليها ، تحدد جميعها التكوينات المعمارية للمدينة في مجموعها ، وكل مجموعة منها متكاملة الخدمات ، ومدينة كاهون (١٨٩٧ ـ ١٨٧٩ق.م.) وهي مدينة قسمت إلى قسمين : أحدهما خصص للطبقة الممتازة ، وقسم آخر للعامة ، وسارت على نفس النموذج السابق من التخطيط «الشطرنجي» فكانت شوارعها مستقيمة متقاطعة في زوايا قائمة، ومن هذه النماذج مدينة العمال بتل العمارنة (١٣٧٥ ـ ١٣٤٥ق.م) التي تشبه سابقتها في التخطيط العام للشوارع إلى حد بعيد ، ويلي هذه المدن المدينة السكنية بالعمارنة آخت آتون (قبيل

(٢) عرفان سامي، نظريات العمارة ، (القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٢م) ، ص ٢٨ .

(٣) حسن رشوان ، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري ، (الاسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٢م) ، ص ٨٩ .

(٤) حماد ، ص ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٥) حماد ، ص ص ٤٧ ـ ٥٠ .

١٣٤٥ق.م.) وهي مدينة تميزت بتخطيطها الحدائقي ، لكنها اشتملت على ثلاثة شوارع رئيسة محازية للنيل تمتد من الشمال إلى الجنوب يتوسطها الطريق الملكي ، وكانت تمتد امتداداً مستقيماً ، كما تتقاطع وتتعامد معها شوارع أخرى أقل أهمية.[٦] وهذه المدن وغيرها تكشف عن أهمية الشوارع والطرق في تخطيط المدن في العصور القديمة ، وهو تخطيط ارتقى وتبلور أكثر في الحضارات التالية، مرتبطاً بالظواهر الحضارية التي تميز عصر إنشائها .

ولا جدال في أن المدن الاغريقية القديمة، كان لها تأثير كبير على تخطيط المدن ، ومن أوضح الأمثلة على تخطيط المدن الاغريقية «مدينة الاسكندرية» التي خططها المهندس دينوكراتس Dinocrates الذي يقال إنه استعمل أفكار ونظريات التخطيط التي نشرها هيبوداموس Hippodamos من ميلتوس في القرن الخامس م. . وهو تخطيط اتبع في غيرها من المدن مثل بيرايوس Peiracios وروديس Rodos وهاليكارناسوس Halicarnosus . وكان طابع هذا التخطيط الشبكي هو الذي اتبع في الاسكندرية ، وهو عبارة عن شوارع مستقيمة تخترق المدينة من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب في خطوط متعامدة تقسمها إلى مربعات مما يجعلها اشبه بلوحة « الشطرنج » .[٧] وهكذا يبدو واضحاً أن التخطيط الهيبودامي متطور عن التخطيط المصري القديم ـ الذي أشرنا الى نماذجه ـ لكنه طور وتبلور ليربط أجزاء المدينة ويجعلها وحدة واحدة حول السوق ، الذي جعل مركز للتجارة ، وتحقق له هذا الهدف عن طريق تلك الشبكة المنتظمة من الشوارع المستقيمة الواسعة التي تتعامد عليها وتتقاطع معها شبكة من الشوارع الفرعية الجانبية .

وفي العصر الروماني اعتبرت المدينة العادية المنظمة ، التي تخطط على هيئة مربع أو مستطيل يخترقه طريقان عموديان في الوسط ويتجه أحد هذين الطريقين الرئيسين من الشمال إلى الجنوب وهو يسمى « كاردو Cardo » ويعني محوره ، أما الطريق الثاني الرئيسي الآخر يتجه من الشرق إلى الغرب ويسمى ديكومانوس Decumanus ، وكان الشارع الرئيسي عريضاً على جانبيه رواقان بأعمدة كورنثية عرض كل منهما ستة أمتار ، وفي نقطة تقاطع الشارعين الرئيسيين كان ينشأ قوس محمول على عمد سامقة .[٨] وبعد ذلك التخطيط الرئيسي لشارعي المدينة كان يكفي أن تخطط طرق ثانوية على شكل المربعات . وهكذا وجد بالمدينة الرومانية شوارع ثانوية تتجه من الشرق الى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب مشابهة للمحورين الرئيسين بعد أن تكون قطع الأرض المحددة للتكوينات المعمارية قد حددت فتأخذ هذه المربعات المخصصة للتكوينات المعمارية ، الهيئة الشطرنجية ، ومن أمثلة تلك المدن مدينة تمجاد في الجزائر Timgad ،[٩] ويعكس هذا التخطيط السلطة العسكرية للرومان ، بالإضافة إلى أنه ارتبط بالمراسم والطقوس المتبعة في ذلك العصر . ومن هنا يظهر الارتباط الوثيق بين تخطيط شوارع المدن ومظاهر الحياة فيها ، والنظم المتبعة في هذا العصر أو ذاك .

وتعكس هذه الأمثلة من المدن في العصور التاريخية السابقة على العصر الإسلامي اهمية دراسة شوارع المدينة الإسلامية وطرقها باعتبارها حلقة مهمة من حلقات تطور المدن تغاضى جل الباحثين عن تناولها بالدرس والبحث ، كما أن هذه الدراسة تكشف عن حقائق ومضامين تؤكد أصالة الحضارة الإسلامية النابعة من قيم الدين الإسلامي الحنيف ، ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة تكشف عن كثير من الحقائق التي تساعد على تعميق الدراسات الأثرية المتعلقة بتخطيط المدن الإسلامية بصفة عامة ، وتكويناتها المعمارية على وجه الخصوص .

---

(٦) حماد ، ص ٧١ .

(٧) حماد ، ص ص ١١٠ ـ ١١١ ، وانظر ايضاً محمد مصطفى حماد ، تخطيط المدن في مصر مجموعة محاضرات القيت في الجمعية المصرية الجغرافية ، (القاهرة ، مارس ١٩٦٥م) ، ص ٤٩ ؛ ارسطوطاليس ، السياسة ، ترجمة : أحمد لطفي السيد ، (القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٩) ، ص ٢١٧ .

(٨) Alex Boethias and J.B. Ward, «Etruscan and Roman architecture», **The Belican History of Art**, 1970, pp. 56- 75.

(٩) R.E. Lycherley, **How the Greek built cities**, a Doub Leday Anchor book, 1968, pp. 17- 37 and D.S. Robeetson, **Greek and Roman Architecture**, 2nd. ed. (Cambridge University Press, 1974), p. 19,Fig. 86.

وشوارع المدينة وطرقها تمثل أهم جوانب تخطيطها ، الذي يعنى بتنسيق النظام المادي الطبيعي للمدينة ، والذي تمثله كتلتها المبنية ، وارتباطها بتجمعها الحضري ومرافقها وخدماتها في انسجام وتوافق مع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لسكانها ، واذا كان تخطيط المدينة يتأثر بصفة عامة بمساحة الرقعة وشكلها التي تقوم عليها وتمتد ـ أو بمعنى آخر تتأثر خطة المدينة ومظهرها الخارجي بطبيعة الموضع وانخفاضه وارتفاعه ووجود المجاري المائية فيه أو عدمه ، ووظيفتها والظروف التي تنشأ فيها ـ فإن المدينة الإسلامية تتأثر بالإضافة إلى ذلك بالقيم الإسلامية التي تترك أثراً واضحاً على هذا التخطيط .

وتتنوع العوامل التي تؤثر على تخطيط الشوارع والطرق وتختلف من مدينة إلى أخرى ، وترتبط الطرق والشوارع في المدينة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً وعضوياً بمنشآتها المختلفة ، ومن ثم تبرز العلاقة القوية بين الطرق والشوارع وهذه المنشآت ، وهي علاقة توضح مدى تأثر كل منها بالآخر .

وتأثر تخطيط شوارع المدينة الإسلامية المحصنة بنظام تحصينها وأسوارها ؛ فاختيار الموقع الحصين المرتفع أو المحاط بعوائق مائية ، ينعكس على طرق التوصل اليها ، كما ان إحاطة المدينة بأسوار حدد مساحتها ، وحدد أيضاً هيئة امتدادها وأرباضها ، مما كان له أثره المباشر على عدد شوارعها ومقاييسها واتجاهاتها ويمكن أن نلاحظ ذلك في بغداد والقاهرة ، ومقارنة كل منهما ببعض المدن التي لم تقيد حدودها الخارجية بأسوار كسامراء .[١٠]

كذلك تأثرت مقاييس الأبواب وتخطيطها بالأمور ومقاييسها من جهة ، و «بحق الطريق » على اعتبار أن هذه البوابات على طرق المدينة من جهة أخرى . وتتحكم في شكل الطريق ضيقاً أو اتساعاً ، انخفاضاً أو ارتفاعاً ، وما يترتب على ذلك من تسهيل أو إعاقة حركة المرور فيه، ونلاحظ التوافق التام بين اتخاذ الأبواب تخطيطاً حربياً معيناً في المدينة الإسلامية ، وبين مراعاة حق الطريق فارتفعت الأبواب المؤدية إلى داخل المدن ارتفاع فارس راكباً جواده ورافعاً رمحه .[١١] وهو ارتفاع أكدت على تحديده أحكام الفقه الإسلامي عندما تعرضت لبناء بعض العناصر والوحدات على الطريق كالبوابات والدروب والحجرات والساباط التي يبنيها من يحق لهم بناؤها فوق الطريق ، وحدد الفقهاء هذا الارتفاع بارتفاع شخص يركب جملاً يمر بسهولة أسفل البناء ، ويكون هناك فراغ يعلوه يؤمن سلامة المار .[١٢] وتمثل بوابات المدن أكبر المنافذ التي تبنى على مواضع اتصال طرق المدينة الداخلية الرئيسة بخارجها ، ومن ثم تكون مقاييسها أكبر من مقاييس العناصر والوحدات الأخرى التي تبنى فوق الطرق الداخلية ، وتعتبر أوصاف بوابات مدينة بغداد وما بقي من أبواب القاهرة ـ التي ترجع الى عهد بدر الجمالي سنة ٤٨٠ ـ ٤٨٥(انظر شكل رقم ٩ ولوحة رقم ١) وغيرها من أبواب المدن الإسلامية الباقية المثل التطبيقي الواضح على هذه البراعة ؛ في تحقيق الهدف الحربي وهدف تسهيل الحركة والتوصل بين طرق المدينة وخارجها ، فبالرغم من أن البوابات تمثل نقاط ضعيفة في الأسوار ، إلا أنها أخذت مقاييس تتوافق وحركة الاتصال وسهولته التي اكدت عليها الأحكام الفقهية الإسلامية ، وعولج الضعف بتخطيط حربي ناضج يمكن من الدفاع عن هذه البوابات ، وضرب أي عدو يصل إليها ، فأحاطت بها الأبراج وزودت بالسقاطات وجاء تخطيطها المتدرج من الاتساع ، إلى الضيق ، ثم الاتساع ، وإجبار العدو على الانعطاف يساراً فيها ، وتكرار هذا الانعطاف في بعض الأبواب أكثر من مرة من بين هذه الحيل ، التي أثرت على تخطيط الطريق خلال هذه الأبواب واتخاذ هذه الهيئة ، لكنه في النهاية كان يكفل المرور السهل .

وأثرت الأسوار على تحديد مساحة المدينة ، التي أثرت بدورها على استغلالها استغلالاً مكثفاً ، بحلول مختلفة كالامتداد الرأسي ، وضيق الشوارع الجانبية الذي أدى بدوره إلى الاستغناء عن الشارع كعنصر تهوية وإضاءة ، والاعتماد على الفناء الداخلي ، وأثر ذلك أيضاً على تلاصق المباني

---

(١٠) عيسى سلمان وآخرون ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ، مجلد ١ ، (بغداد : دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م)، ص ١٠١ .

(١١) اليعقوبي ، البلدان (ليدن ، ١٨١٢م) ، ص ٢٣٨ .

(١٢) ابن الرامي ، الإعلان في حكام البنيان ـ تحقيق عبد الرحمٰن بن صالح الاطرم ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود ، (الرياض ، ١٤٠٣هـ) ، ص ٣٨٩ .

والامتداد « بالأجنحة » و « الرواشن » في الطوابق العليا المطلة على الشارع ، استغلالاً لكل مساحة ممكنة .

وكان لضيق مساحة المدينة المسورة أثره في إنشاء المرافق التي تحتاج إلى مساحات واسعة خارج الأسوار ، إذا كان لا يتسبب في أي ضرر ، ومن أمثلة ذلك : مصليات العيد ، والمقابر ، وميادين استعراض الجند ، والأسواق الأسبوعية وغيرها ، والتي ارتبطت مواضعها إلى حد بعيد بداخل المدينة عن طريق الشوارع الرئيسة وبواباتها الخارجية بالأسوار .

كذلك أثر نظام تأمين الخليفة أو الحاكم في المدينة ، على وجود طرق أرضية « أنفاق » تربط بين القصور في المدينة ، أو تربط المدينة بخارجها ، وفي المدن التي اتخذ الحكام فيها قلاعاً كمراكز لحكمهم ، أو انشأوا لهم مدناً ملكية مجاورة لمدن العامة ، دعت الحاجة إلى ربط هذه القلاع أو المدن الملكية بمدن العامة بشوارع وطرق ، تأثرت مقاييسها واتجاهاتها بطبيعة المرور فيها ، وموضع هذه المدن والقلاع من مدن العامة ، ونلاحظ ذلك في الموصل والقاهرة وفاس الجديدة وغيرها .

كذلك انعكس اثر التحصين وتأمين الحاكم والرعية ، على تخطيط شوارع وسكك المدينة الفرعية ، التي عملت لها الدروب التي تغلق عليها ، والتي تمكن من السيطرة على محلات المدينة المختلفة اثناء الفتن والاضطرابات وتعتبر بغداد من اوضح الأمثلة على ذلك .

والمسجد الجامع من التكوينات المعمارية الأساسية بالمدينة الإسلامية ، يمثل محوراً رئيساً من محاور تخطيطها ، واقتضت وظائفه الدينية والتعليمية والسياسية أن يكون موضعه وسط المدينة ليكون قريباً من كل موضع فيها ، ومن حوله خطت الخطط التي توجهت شوارعها الرئيسة إلى المسجد الجامع الذي يتوسطها ، وظل المسجد الجامع بوسطية موضعه في المدينة الإسلامية - في الفترة التاريخية التي لم يسمح فيها بإقامة أكثر من خطبة في المدينة الإسلامية - عاملاً مؤثراً على توجيه شوارع المدينة الرئيسة ، وبالتالي على الشوارع والسكك والأزقة الفرعية المتصلة بها .

وتعتبر المدينة المنورة أولى المدن الإسلامية ، التي بدأت فيها هذه الظاهرة[١٣] . واستمرت في « مدن الأمصار » : البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، كما أنها استمرت في واسط وبغداد وفاس والقطائع والقاهرة وغيرها من المدن الإسلامية الناشئة ، وفي المدن التي فتحها المسلمون اختير للمسجد الجامع موضعاً متوسطاً أيضاً ، ووجهت الطرق خاصة في الامتدادات العمرانية الجديدة نحو المسجد . ومن أبرز الأمثلة على ذلك دمشق وقرطبة . وكان لارتباط المسجد الجامع بعلاقة التجاور مع دار الإمارة أو القصر أثر في هذا التوجه ، حيث أن الحاجة إلى التوجه إلى مركز الإدارة والحكم قائمة ، وسهولة التوصل إليه مطلوبة ، وكان وضعها في هذا الموضع مقصوداً لتحقيق هذه الغاية .

ومما يؤكد الرغبة في تسهيل اتصال الجهات الإدارية للدولة بالعامة ما يذكره ابن الأخوة : من ان القاضي ينبغي « أن يجلس للحكم في موضع واسع في وسط المدينة يعرفه الناس ويقصدونه ، ولا يكون في الجامع ولا في المسجد لأنه ربما دخل عليه الرجل الجنب والمرأة الحائض أو الذمي أو الصبي أو الحافي ، ويكثر اللغط عند ازدحام الناس ومنازعتهم للخصوم ، وكل ذلك ورد الشرع بالنهي عنه .[١٤] وإن كان هناك من يرى أن يتخذ القاضي من المسجد الجامع مقراً ليصل إليه أهل البلد والغريب بسهولة . ويحددون الإجراءات التي تجنب الجامع ما قد يؤذيه من المخالفات التي أشار اليها ابن الأخوة ، سيما وأن الرسول ﷺ كان يفصل بين الخصوم في المسجد ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون .[١٥] وسواء اتخذ المسجد الجامع مقراً للقاضي - وهو ما جرت به العادة في كثير من المدن الإسلامية - أو اتخذ مقراً آخر ،[١٦] بوسط المدينة يتعرف عليه بسهولة ، فكلا الأمرين يشير إلي أهمية وجود المسجد الجامع ومؤسسات

(١٣) عبد الله بن ادريس ، **مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ** (الرياض : عمان شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٩٨٢) ص ص ١٧٧ - ١٨١ .

(١٤) ابن الاخوة ، **معالم القربة في أحكام الحسبة** ، تحقيق : محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦) ، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٤) .

(١٥) عبد الله بن مودود بن محمود الموصلي : **الاختيار لتعليل المختار** ، (القاهرة : الأزهر الشريف ، ١٤٠٢هـ) ، جـ ٣ ، ص ١١٦ .

(١٦) أحمد فكري ، **قرطبة في العصر الإسلامي** ، (الاسكندرية : مكتبة شباب الجامعة ، ١٩٨٣م) ، ص ٣٧ .

المدينة الإدارية الأخرى في قلب المدينة ، ومن ثم أثر ذلك على توجه الشوارع الرئيسة إلى قلب المدينة .

ومما سبق يتضح أيضاً ان اختيار موضع المسجد الجامع ودار الإمارة أو القصر بعد ذلك في قلب المدينة وتوجه الشوارع الرئيسة اليه كان انعكاساً صادقاً لحياة المجتمع الإسلامي داخل المدينة ، ولم يكن تقليداً لما وجد في بعض المدن القديمة ، التي ترجع الى ما قبل العصر الإسلامي ، والتي ظهرت فيها محاولات لإبراز معابدها يجعلها في موضع مرتفع .(١٧) أو في وسط المدينة لغايات تختلف وظيفياً عما هو الحال عليه في المدينة الإسلامية . ويؤكد ذلك تلك المدن التي لم يقع فيها المسجد في الوسط كسامراء التي وقع مسجدها في الشمال ، والقاهرة التي مال مسجدها إلى الجنوب ، وكان ذلك مرتبطاً بنظام توزع السكان في كل منهما ، وإمكانيات التوصل إلى المسجد الجامع .

ومع اتساع العمران في المدينة الإسلامية ، باتت الحاجة ملحة لإنشاء مساجد جامعة في الأرباض الجديدة ، واصبحت هذه المساجد النواة التي توجهت اليها الشوارع في هذه الأرباض كما حدث في المدينة « الأم » . ولعل ما حدث في بغداد بعد إنشاء الكرخ والرصافة مثال جيد على ذلك ، وظل المسجد الجامع ذا أهمية بالغة في التأثير على تخطيط شوارع المدينة وتوجيهها ، حتى حدث تطور آخر عندما أفتى الفقهاء بإمكانية إقامة أكثر من صلاة جامعة في المدينة الإسلامية الواحدة ، فتعددت الخطبة سيما وأن الفقهاء أجازوا إقامة صلاة الجمعة بعدد من المصلين يبلغ اثنا عشر مصلياً ، ومنهم من أجاز بأقل من ذلك .(١٨) وبدأ ذلك في مصر مثلاً مع بداية العصر المملوكي ، مما نتج عنه تحويل « مساجد الخمسة » الفاطمية ، والمدارس الأيوبية ، إلى مساجد جامعة بإضافة منبر وتعيين خطيب ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل حولت بعض الزوايا إلى مساجد جامعة ، ومما يشير إلى شيوع ذلك وسهولته أن أحد المشايخ جعل بداره منبراً ، وصار يصلي الجمعة هو وأصحابه بها .(١٩) وصارت بذلك تؤدي وظيفة المسجد الجامع ، تلك الوظيفة التي أضيفت لكل نوعيات المنشآت الدينية حسب نص واقفها فتعددت المساجد الجامعة وكثرت كثرة بالغة . وكان لذلك أثره المباشر على تقلص أثر المسجد الجامع على توجيه شوارع المدينة ، فخف التوجيه نوعاً في الامتدادات العمرانية الجديدة لتعدد الخطبة ، ولعل مقارنة بين تخطيط الأحياء الجديدة التي اضيفت للقاهرة في عصر المماليك وبين تخطيط أرباض المدن الإسلامية قبل القرن (٦هـ) تبرهن على هذا التقليص وتوضحه . . .

ولنشاط الأسواق بالمدينة الإسلامية علاقة وطيدة بشوارعها ، وأثر كبير على حالة المرور فيها ، وقد انعكس ذلك انعكاساً واضحاً على خريطة الأسواق في أي مدينة إسلامية ، فإنشاء الأسواق الأسبوعية خارج أبواب المدينة كان لما تحتاجه من مساحة كبيرة ، ومن رغبة في سهولة الانتقال منها واليها ، وأيضاً للرغبة في التخفيف قدر الإمكان على شوارع المدينة الداخلية ، التي حكمت اتساعها ونظامها عوامل أخرى لتوفر لها نوع من الهدوء والنظافة كان يمكن أن تفتقده لو أن هذه النوعية من الأسواق كانت داخل المدينة .

وكان أهل الريف يأتون إلى هذه الأسواق لبيع منتجاتهم المختلفة ، ويدخلون إلى المدن بعد ذلك لشراء حاجياتهم من منتجات المدينة ، من أسواقها الداخلية المتخصصة في إنتاج وبيع ما يحتاجون اليه من مصنوعات ،(٢٠) وقد توزعت هذه الأسواق في نوعيات متعددة ، نظمت تنظيماً يحقق الفائدة ويمنع الضرر ويسهل حركة المرور في شوارع المدينة ، وبخاصة تلك الشوارع التي توزعت على جنباتها الحوانيت والأسواق ، وكان للمحتسب دور بارز في الإشراف على حركة المرور في الأسواق ونظافة شوارعها ومباشرة

---

(١٧) طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصورة المدورة ، (بغداد : مطبعة النعمان ، ١٩٦٧م) ، ص ٣٧ .

(١٨) محمد جمال القاسمي ، إصلاح المساجد من البدع والعوائد ، ط ٤ ، (حرية النشر المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩هـ) ، ص ٥١ .

(١٩) المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط » (القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م) جـ ٢ ، ص ص ٢٤٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٢٧١ ، ٣٧٥ ، ٥٩٦ ، السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ ٦ ، (طبعة مصر ، ١٣٥٤هـ) ص ص ٢١ ، ٢٥ ، القاسمي ، ص ٩٦ .

(٢٠) Pedro Chalment «Market» in,R. Serjeant (ed).Unisco, Islamic City,Selected papers from the collaiguium he Id at Middle East Center, Faculty of Oriental Studies, Cambridge, United Kingdom, from 19-23, July 1976, p.109.

الحركة فيها ، وإحكام هذه الحركة في إطار القيم والمبادىء الإسلامية ، وكان لهذا التوزيع علاقة بحركة المرور في الشوارع وتسهيلها ، فتركزت مثلاً أسواق الحبوب وغيرها من أسواق المواد الثقيلة الوزن الكبيرة الحجم قرب أبواب المدن ، حتى لا يؤثر نقلها إلى داخل المدينة على حركة المرور في شوارعها ، ومن أمثلة ذلك « فاس » التي تركزت فيها أسواق هذه المواد عند باب الجية وباب الفتوح وباب المحروق لتجنب نقل المواد الضخمة التي تباع فيها عبر شوارع المدينة.(٢١)

وكان لأساليب توصيل الماء الى المدينة في بعض المدن ، أثر على شوارعها خاصة إذا ما كان التوصيل عن طريق قنوات متفرعة من نهر أو قناطر محمولة تجلب الماء من مصادر بعيدة مرتفعة ، أو قنوات مبنية في تخوم الأرض تمتد شبكاتها لتغذي المدينة ، وتتجمع في بؤر عقدية في الميادين والرحبات ، كما كان الحال في مدينة مدريد « مجريط العربية» .(٢٢)

مقاييس الشوارع واتجاهاتها :

ترتبط مقاييس الشوارع في المدينة الاسلامية بعوامل مختلفة ومتنوعة ، منها ما هو متصل في الأصل بنظام تخطيط المدينة الاسلامية ، ومنها ما هو مرتبط بطبيعة الموضع والمناخ وطريقة الارتفاق ونوعيته . هذا بالاضافة الى ارتباط ذلك بالقيم الإسلامية ، والعادات والرسوم السائدة في هذا المجتمع أو ذاك، وقد تشابهت هذه العوامل وتقاربت في المدن الإسلامية ، ومن ثم تشابهت الى حد كبير مقاييس شوارعها وأسس تخطيطها .

وفي حدود هذا الإطار نعرض لمقاييس الشوارع في المدينة الاسلامية واتجاهاتها ، لا سيما وأن جل الدراسات الأثرية والحضارية والتاريخية للمدينة الإسلامية ، وصفت شوارع المدينة الإسلامية وصفاً اتسم بالتعميم ، وأكد هذا الوصف على « ضيق شوارعها والتوائها » بل أن بعض هذه الدراسات اتهمت المسلمين بافساد نظام الشوارع في المدن القديمة التي فتحوها كدمشق وحلب وغيرها .(٢٣)

واتجه تخطيط المدينة الإسلامية الى تخطيط شوارعها العامة التي تربط خططها وتكويناتها المعمارية الرئيسة وتحديد مقاييسها واتجاهاتها ، كما أنه اتجه إلى اقطاع الخطط للقبائل أو الفئات لإنشاء مساكنها ، وتركت لهم حرية تقسيمها وتخطيطها مع التأكيد على أهمية تخطيط الشوارع الثانوية التي تفصل بين مساكنها بما يتناسب وحاجة الارتفاق. وكانت النتيجة المباشرة لهذا الاتجاه في التخطيط ، أن وجدت نوعيتان من الشوارع في المدينة الإسلامية ، نوعية أطلق عليها الفقهاء « الطريق السابلة » أو « طريق المسلمين » أو « طريق العامة » أو غيرها من المسميات التي تعني أن هذه النوعية من الطرق ملك للعامة ، لهم جميعاً حق الارتفاق بها ، ووجب على السلطة المحافظة عليها من أي اعتداء يعرضها للضيق أو إعاقة المرور بها . وتتسم هذه النوعية من الشوارع بأنها « نافذة » توصل إلى غيرها من الشوارع تمييزاً لها عن « الطرق الخاصة » غير النافذة . وهي النوعية الثانية من الطرق التي تركت حرية تخطيطها وتحديد مقاييسها لأصحاب الاقطاعات أو الخطط ، وهي مشتركة الملكية لأصحاب الدور المحيطة بها ، ولهم حرية الارتفاق بها دون غيرهم من العامة ، باعتبارها ملكية خاصة ، ومن ثم لم تكن للسلطة في المدينة حق التدخل في شؤونها ، إلا إذا طلب ذلك أحد من أصحابها ، فعندئذ يتدخل القضاء لحل ما يمكن أن يحدث من مشكلات .

وتشير الروايات التاريخية الى مقاييس الشوارع العامة والرئيسة في بعض المدن الإسلامية ، ونبدأ من البصرة التي

---

(٢١) روجيه لوتورنو ، فاس في عهد بني مرين ، ترجمة نقولا زيادة ، (بيروت : مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، د.ت) ، ص ص ٤١، ١٦٤ .

(٢٢) محمود مكي ، مدريد العربية ، (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ دار الكتاب العربي (د.ت) . ص ص ٦٠ ـ ٦٦ .

(٢٣) لوتورنو ، ص ٤٧ ؛ سعيد عاشور «الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية» مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١ ، العدد الأول (١٩٨٠م) ص ٨٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم « التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى » مجلة المجلة ، عدد ٨، اغسطس (١٩٥٧م) ص ٥٩ و
Xavier de Planhol, **The world of Islam**, (New York, 1959) pp. 22- 23. and J.Sauvaget; «Esquisse d'une histoire de la Ville de Damas», **Revne des Etudes Islamique VIII,** (1934) pp. 441- 452, Idem: Alep, (Paris, 1941), pp. 66- 67.and Von Grunbaum, «The Structure of the Moselm Town in Islam: Essays in the **Nature and Grouwth of Culture Tradition** (London, 1955) pp. 141- 158.

مصرها « الصحابة على عهد عمر وجعلوها خططاً لقبائل أهلها ، فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مربدها ستين ذراعاً ، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً ، وعرض كل زقاق سبعة أذرع ، وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم ومقابر موتاهم ، وتلاصقوا في المنازل ، ولم يفعلوا ذلك إلا من رأي اتفقوا عليه ونص لا يجوز خلافه ، وقد روى عن بشير بن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تدارأ القوم في طريق فليجعل سبعة أذرع . »(٢٤) .

وجرى تخطيط شوارع الكوفة بمقاييس مقاربة ، فقد حدد الخليفة اتساع الشوارع بأن تكون الشوارع سبعة أذرع ، وأمر بأن تتوسط كل خطة ساحة أو رحبة طول ضلعها ستون ذراعاً ، وبالإضافة الى ذلك فقد حدد مواصفات الوحدات السكنية بألا تزيد عدد الغرف في المنزل عن ثلاث ولا يرتفع البناء أكثر من طابق .(٢٥) ولا شك أن تحديد ارتفاع المباني بهذه الهيئة يزيد الإحساس باتساع الشوارع بصورة واضحة .

ومع نمو المدن الإسلامية وتحولها إلى مراكز حضارية وعمرانية ، زاد الاهتمام باتساع شوارعها الرئيسة ذلك أن « واسط كان بها » عند تأسيسها أربعة شوارع رئيسة تتفرع من أبواب دار الإمارة ، كان عرض كل منها ثمانين ذراعاً .(٢٦) وعند تخطيط بغداد أمر المنصور بأن يكون « في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل به المنازل . . . وحد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء ، والدروب ستة عشرة ذراعاً » .(٢٧)

واتسمت سامراء باتساع شوارعها حتى أن شارعها الأعظم « شارع السريجة » كان بحدود مائة متر ، وهو بذلك يضاهي أعرض الشوارع في العواصم العالمية حتى يومنا هذا .

وتوضح الصور الجوية لهذه المدينة شوارعها المستقيمة التي تتقاطع أحياناً ، وتربط بينها دروب مستقيمة مصممة بطريقة هندسية واضحة .(٢٨) وعكست المراحل البنائية والعمرانية لهذه المدينة مدى الاهتمام بتخطيط شوارعها المتسعة ابتداء من عهد المعتصم الذي أسس المدينة ، ففي عهده « جعلت قطائع الأتراك جميعاً والفراعنة والعجم ، بعيدة عن الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال »(٢٩) وكان الخليفة الواثق حريصاً على اتساع الشوارع المؤدية الى المسجد الجامع ، وعمل على عدم تضييقها مستقبلاً بزحف حوانيت التجار عليها ، فوسع في المساحات المقطوعة لبناء الحوانيت ، فجعل الطرق الى جامعة « من ثلاثة صفوف واسعة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رباح ، في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء ، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر في الجمع في جيوشه وجموعه بخيله ورجله ، ومن كل صف الى الصف الذي يليه دروب وسكك فيها قطائع عامة الناس »(٣٠) ، أما المتوكل فقد جعل عرض الشارع الذي يربط بين المتوكلية وسامراء مائتي ذراع . (أنظر شكل ٤) .

وانسحب اتساع الشوارع الرئيسة في المدن الإسلامية على مسمياتها التي تدل على ذلك ، كالمحجة الكبرى والشارع الأعظم (انظر شكل رقم ٥) . وتدل أوصاف مواكب الخلفاء والسلاطين بهيئة معينة على اتساع هذه الشوارع .(٣١) وتؤكد ذلك مقاييس بعض الأجزاء الباقية من هذه الشوارع ـ على حالها ـ كالشارع الأعظم بالقاهرة الفاطمية الذي يبلغ في بعض المواضع ١٢ متراً ، وبالربط بين هذه المقاييس وبين وسائل النقل المستخدمة في المدن

---

(٢٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط ٢ ، (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ١٩٦٦م) ، ص٢٠٣ ، انظر شكل (١) .

(٢٥) اليعقوبي ، ص ٣١١ ، سلمان وآخرون ، ص٤٧ .

(٢٦) بحشل ، تاريخ واسط ، تحقيق : كور كيس عواد (حرية النشر ، عالم الكتب ، ١٩٨٦) ، ص ٢٣ .

(٢٧) اليعقوبي ، ص ٢٤٢ ، (انظر شكل ٢) .

(٢٨) سلمان وآخرون ، ص ١٠١ ، (انظر شكل ٣) .

(٢٩) اليعقوبي ، ص ٢٥٨ .

(٣٠) اليعقوبي ، ص ٢٥٦ .

(٣١) وصف ناصر خسرو مواكب الخلفاء الفاطميين في شوارع القاهرة ويمكن من خلال الوصف تخيل اتساع الشارع ، الذي يتسع لصفوف الموكب المتوازية من الركبان والمشاة امام الخليفة وحوله (ناصر خسرو ، سفر نامه ، ترجمة احمد خالد البدلي ، (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، ١٩٨٣م) ، ص ص ١٠١ ، ١٠٢ .

الاسلامية ، وهي الدواب يتضح اتساع هذه الشوارع بالنسبة لكثافة المرور ووسائل النقل المتبعة .

واعتبرت الشوارع الرئيسة في المدن الاسلامية الأصل الذي تتفرع منه وتصب فيه جميع الشوارع الفرعية ، والسكك والأزقة الجانبية ، والتي كان اتساعها أقل بطبيعة الحال عن الشارع الأعظم . فقد روعي التدرج في قطاعات الطرق حسب الأهمية وتدفقات الحركة على كل محور من محاور المرور في المدينة ، وارتبط هذا التدرج بالعوامل الأخرى التي أثرت على شوارع المدينة الاسلامية ؛ من حيث تحديد اتجاهاتها ومقاييسها وشكلها العام ، بل وطريقة توزيع المباني على جانبيها وارتفاعات هذه المباني .

ومن منظور نقدي تعرض المصادر لمقاييس الشوارع سلباً وإيجاباً بما يوضح الاهتمام والإشادة باتساع الشوارع . فقد أشاد المؤرخون والرحالة باتساع شوارع المرية وتونس ورباط الفتح[٣٢] وطرابلس والإكنسدرية والقاهرة ، ومنهم من بالغ في إبراز ذلك على سبيل المفاضلة ؛ مثل ابن جبير الذي أشاد باتساع شوارع الاسكندرية وذكر أنه لم ير « بلداً أوسع مسالك منه »[٣٣] ، وعندما وصف التيجاني شوارع طرابلس قال : « رأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ، ولا أحسن اتساعاً واستقامة . وذلك لأن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً الى آخرها في هيئة شطرنجية . »[٣٤]

وتدرجت الشوارع والطرق في المدينة الاسلامية من الاتساع الى الضيق ، وتنوعت هذه الطرق ـ كما أشرنا ـ الى شوارع عامة ، غالباً ما تكون متسعة مستقيمة ، وشوارع خاصة غالباً ما تتسم بالضيق والالتواء لظروف تخطيطها . وكان ذلك فيما يبدو وراء انتقاد بعض المؤرخين والرحالة لضيق الشوارع في بعض المدن الاسلامية ، ويؤكد ذلك اختلاف آراء النقاد حول شوارع وطرق مدينة واحدة فبينما يصف البغدادي أسواق وشوارع القاهرة بالاتساع .[٣٥] يذكر ابن سعيد أن « أكثر دروبها ضيقة »[٣٦] فالأول يصف الشوارع الرئيسة ، ويتجه الآخر الى وصف الدروب ، التي تمثل غالباً الشوارع الفرعية والطرق الخاصة ، ولكن هناك من المدن ما اتسمت شوارعها فعلاً بالضيق وأجمع المؤرخون والرحالة على ذلك كمدينة الفسطاط ، التي ذكر ناصر خسرو : أنه رأى بها « أسواقاً وأزقة ضيقة تظل فيها القناديل مشتعلة بشكل دائم لأن نور الشمس لا يصل أبداً إلى تلك الأسواق والأزقة »[٣٧] ، ويؤكد ذلك المقريزي فيذكر أن « أزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة »[٣٨] . واتساع شوارع الفسطاط الباقية الذي يتراوح ما بين ستة أمتار ونصف المتر يؤكد صدق روايات المؤرخين ، كما تؤكدها الشواهد الأثرية التي تعكس هذه الظاهرة ، كوجود قنوات مكلسة في الجدران الخارجية لبعض المنازل الباقية كانت تستخدم في تصريف مياه المطر من على أسطح المنازل ، بدلاً من الميازيب التي لا تصلح إلا في الشوارع المتسعة حتى لا تسبب أذى للمارة . وكان لظروف إنشاء الفسطاط وتخطيطها ، والهجرة المكثفة إليها ، وانضمام المهاجرين الى قبائلهم أثر واضح في تكثيف الإنشاء وشغل المساحات وتضييق الطرقات .[٣٩]

أما مقاييس « الطرق الخاصة » فقد تركت حرية تحديدها لأصحابها ، وإذا ما حدث خلاف حول تحديد اتساع الشارع ، فإن أصل التحديد يكون حديث الرسول ﷺ : « إذا تدارأتم في شارع فاجعلوه سبعة أذرع » . ووجه الفقهاء الى حددو المقاييس المناسبة للارتفاق بهذه الطرق، فذكر «ابن

(٣٢) المراكشي ، المغرب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، محمد العربي العلمي (القاهرة ، ١٩٤٩م) ، ص ٢٦٦ ؛ السيد عبد العزيز سالم؛ تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة (بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨١م) ، ص ١٢١ .

(٣٣) ابن جبير ، الرحلة ، (بيروت : دار صادر ، ١٩٨٠م) ، ص ١٤ .

(٣٤) التيجاني : الرحلة : تقديم حسن حسني عبد الوهاب (تونس، ١٩٥٨م) ، ص ٢٣٧ ، نقولا زيادة ، مدن عربية ، (بيروت : دار الطليعة ، ٩٦ .

(٣٥) عبد اللطيف البغدادي ، عبد اللطيف البغدادي في مصر (القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة ، مجلة المصري السنة ، ص ٥٢ .

(٣٦) ابن سعيد المغربي ، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، الجزء الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : د. حسين نصار ، (القاهرة : دار الكتب ، ١٩٧٠م) ، ص ٢٤ ؛ نقولا زيادة ، ص ١٠٥ .

(٣٧) ناصر خسرو ، ص ١٠٥ .

(٣٨) المقريزي ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٣٩) Saleh Ali El Hathloul , **Tradition, Condinuity and change in the physical Environment : The Arabs Muslim city,** Ph. o Thesis submitted to the Department of Architecture at M.I.T. 1981, PIP. 38 - 39 .

كنانة» أن الناس يجب أن يتركوا لشوارعهم وأزقتهم ما يتلاءم وأقصى ارتفاع وأضخم شيء يمر من خلالها ، وأن هذا يجب ألا يحدد بحمل جمل ، وقد ذكر « مالك » نفس الرأي عندما سئل عن عرض الشارع الذي يحدد لجماعة اختلفوا فيه ؟ قال : يجب أن يتركوا الاتساع الكافي لأثقالهم ولأنفسهم والذي يمكنهم بذلك من المرور ،(٤٠) » ومن منظور تطبيقي يذكر ابن الرامي : أنه انتدب ليقوم بتقسيم بعض الأرض في تونس بين مجموعة من الناس ، فجعل عرض الشارع ثمان أشبار كافية لجمل أن يمر ولا يقل عن ذلك ، ويلاحظ أن هذه التوجيهات لم تحدد مقياساً ثابتاً معيناً لاتساع هذه الطرق يلتزم به ، وربما كان ذلك لاختلاف صور الارتفاق بهذه الطرق . ولاختلاف ظروف نشأة بعض هذه الطرق ، التي ربما تقطع من مساحة المباني سيما في حالات القسمة أو البيع أو غيرها من المعاملات ، التي تؤدي الى الحاجة الى طرق خاصة فرعية ، توصل الى التكوينات الجديدة الناشئة عن هذه المعاملات ، ولا أدل على ذلك مما نجده أحياناً من أمثلة لهذه الطرق يتراوح اتساعها بين ١,٥ ـ ٢ متر ، كما كان عليه الحال في الفسطاط ، والمدينة المنورة في حارة الأغوات .

واتسمت هذه النوعية من الطرق بأنها غير نافذة ، وأنها « زائغة » أي مائلة أو منحرفة عن طريق عام نافذ ، وهو ما اكسبها صفة الالتواء ، وترتبط هذه السمات ارتباطاً وثيقاً بظروف تخطيطها (انظر شكل رقم ٦) في الأصل بما يحدث من تغييرات في التكوينات المعمارية ، تتطلب فتح طرق ومسالك جديدة ، تتفرع من هذه الطرق فتستدق ، التفريعات ويتكرر التواءها .

فتقسيم المدينة الى خطط أو قطائع ، تركت حرية تقسيمها الى أفراد القبائل أو الفئات التي أعطيت لهم هذه الخطط أو القطائع ، أدى الى توجيه الطرق الخاصة بهذه الخطط والقطائع توجيهاً معيناً غير مرتبط بشبكة الطرق في الخطة المجاورة ، ومن ثم كانت نهاية هذه الطرق ، منازل تكون في صدرها، توفيراً للمساحة ، أو الى ظهور المنازل في خطة أخرى ، ومع الامتداد العمراني للمدينة كان تقسيم الأرض وتحديد الطرق يتم وفق هذا المنهج الذي يؤدي الى تكرار الالتواءات .

وقد أثرت في تحديد مواضع الطرق الخاصة اعتبارات عديدة منها : ما هو متصل بطبيعة حركة الشمس واتجاه الريح ، ومنها ما هو مرتبط بظروف المساحة التي تؤثر على طريقة تقسيمها وبالتالي اتجاه الشوارع فيها ، ومنها ما هو مرتبط بظروف المتجاورات السكنية والطرق الأخرى . وكان لاختلاف هذه الاعتبارات بالإضافة الى الرغبة في توفير نوع من الخصوصية للبيوت المشتركة في هذا الطريق أو ذاك أثره على اتخاذ الطرق الخاصة ، هذه السمة التي تميزها حيث إنها طرق غير نافذة وملتوية .

فمع حركة الشمس الظاهرة من الشرق الى الغرب ، يتجه التفضيل في توجيه الشوارع في المناطق الحارة ، من الشمال الى الجنوب ، لأن ذلك يساعد على عدم تعرض الطرق وواجهات البيوت المطلة عليها فترة طويلة للشمس ، بالإضافة الى أن هذا التوجيه يمكن من استقبال رياح الشمال المخففة للحرارة ، والرغبة في الحصول على هذه المميزات في التخطيط تؤدي إلى توجيه المنازل والطرق الخاصة توجيهاً يحقق تلك المميزات ، وينتج عنه تكرار توازي الطرق الخاصة ، لتوازي الواجهات المطلة عليها ، بينما كان في الامكان تقابل هذه الواجهات على طريق واحد بدلاً من طريقين ، ويمتد تأثير هذه الرغبة على اتساع الطريق فبدلاً من أن تشترك فيه البيوت المتقابلة وتتوافر إمكانية اتساعه من المساحات المتروكة من الجانبين ، يقل اتساع الطريق لأنه مقتطع من جهة واحدة .

وتقسيم مساحة من الأرض لإنشاء المنازل عليها يتأثر بقياسات هذه المساحة ، التي تحتم تقسيم المساحة تقسيماً معيناً، يمكن من استغلالها استغلالاً سليماً ، ومن ثم تتحدد اتجاهات الطرق الخاصة وقياساتها وفق طبيعة المساحة ، وتتعارض لذلك اتجاهات التقسيم في الملكيات المتجاورة ، فتأخذ الطرق الخاصة اتجاهات مختلفة ؛ تتوازى وتتعامد ، وتتصل وتنفصل ، وينتج عن ذلك كله اتخاذ هذه الطرق السمات التي اتسمت بها من حيث كونها غير نافذة وملتوية .

---

(٤٠) ابن الرامي ، ص ٣٩٠ .

ويزيد من سمة الضيق والالتواء ، ما يحدث من حالات التغيير المستمر الذي تتعرض له التكوينات المعمارية في المدينة الاسلامية ، واستمرار حركة البناء والتعمير ، سواء كان ذلك في داخل المدينة، أو في أطرافها التي تمثل مناطق الامتداد العمراني في المدينة .

ومن مظاهر هذا التغيير ما حدث من تحول انشائي ووظيفي في بعض المدن نتيجة تغير الأوضاع السياسية، ومن أوضح الأمثلة على ذلك مدينة القاهرة ، التي تحولت مع بداية العصر الأيوبي من مدينة ملكية الى مدينة للعامة ، وما نتج عن ذلك من تحولات جذرية في عمران المدينة ، وتكويناتها المعمارية ، حيث أزيلت القصور الفاطمية ، وأنشىء في مواضعها العديد من التكوينات المعمارية الأخرى ، تطلب أنشاؤها انشاء شبكة جديدة من الطرق الفرعية والخاصة التي تصل بينها . كما أن هذا التحول أضفى على المدينة طابعاً جديداً ، فتحول شارعها الأعظم الى منطقة تجارية ممتدة تشمل العديد من الأسواق والسويقات ، التي تخصصت في تجاراتها وصناعاتها والتي انسحبت فيما بعد على مسميات المناطق التي تشغلها كالصاغة والخيميين والفحامين الى غير ذلك .(٤١)

وأحياناً كان التسلط من العوامل المؤثرة على تغيير هيئة بعض الطرق والشوارع في المدينة الإسلامية ، فأدى الى فتح بعضها أو الغاء البعض الآخر تحقيقاً لأغراض خاصة ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما فعله الأمير جمال الدين الاستادار الذي انتهت إليه ملكية كثير من التكوينات المعمارية في منطقة الجمالية بالقاهرة ، فألغى بعض الطرق التي كانت تربط هذه التكوينات وغيرها ، طمعاً في ضم مساحتها الى مساحة هذه التكوينات ، وفي العصر العثماني حدث الشيء نفسه عندما أنشئت « وكالة بازرعه » في الجهة الغربية من « المدرسة الجمالية » وضمت في مساحتها الطريق الذي كان يحد المدرسة من الغرب ،(٤٢) وتعد هذه الحالة وغيرها حالات استثنائية ولا تمثل ظاهرة عامة .

وعوامل التغيير التقليدية ـ ممثلة فيما يحدث من حالات القسمة (انظر شكل رقم ٧) للتأريث أو البيع أو الاستبدال ، أو تحويل وظائف المباني الى وظائف أخرى غير التي أنشئت من أجلها .(٤٣) أو حتى تغيير وظيفتها وإعادة بنائها لتؤدي هذه الوظيفة ، أو السماح بفتح طريق للمتلكات المحبوسة ـ كان لها أثر فعال في إنشاء طرق خاصة جديدة متفرعة عن طرق عامة أو متفرعة عن طرق خاصة ، تكون في الغالب أكثر استدقاقاً ، وتزيد من مظهر الالتواء والتفرع ، لا سيما إذا كانت متفرعة من طرق خاصة متفرعة بدورها من طرق زائغة متفرعة عن الشارع الأعظم . ويمكن قصر مظاهر التغيير ، في إنشاء طرق خاصة جديدة . تضاف الى السابقة بمرور الزمن .(٤٤)

ومن العرض السابق « للطرق الخاصة » في المدينة الإسلامية يتضح أنها النوعية التي يمكن أن تتسم بالضيق والالتواء ، بالنسبة للطرق العامة الرئيسة وأن هذا الالتواء والضيق نشأ أصلاً عن الرغبة في تحقيق « الخصوصية » ، وتوفير المساحة لاستغلالها في إنشاء التكوينات المعمارية بما يتفق ومصالح أصحابها .

والحكم على هذه الطرق « بالضيق » نسبي ، وذلك لأن أصحاب الطريق الخاصة يحددون اتساعها بما يتفق ومظاهر ارتفاقهم بها وبما يحقق مصلحتهم ، خاصة وأنها موقوفة على ارتفاقهم فقط ، باعتبارها ملكية خاصة ، أي أن نسبة المرور فيها محدودة بارتفاقهم .

وإذا وضعنا في الاعتبار أن ضيق الشارع أو اتساعه مرتبط أصلاً بحركة المرور، وبوسائل النقل المستخدمة، يتضح لنا أن هذه الشوارع والطرق الخاصة لم تكن تضيق بأصحابها الذين لهم حق الارتفاق بها ، ذلك لأنهم كيفوا أنفسهم على استخدامها والارتفاق بها ، بما يتفق وتحقيق المنفعة وإزالة الضرر ، في إطار المبدأ الإسلامي « لا ضرر ولا ضرار » .

(٤١) المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٤٢) محمد عبد الستار عثمان ، وثيقة وقف جمال الدين الاستادار دراسة تاريخية أثرية وثائقية ، (الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٣م) ، ص ١١٧ .

(٤٣) ابن الرامي ، ص ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٤٤) لم يكن من حق أصحاب الطريق الخاص قسمته او التصرف فيه بالبيع ، الذي ربما يؤدي الى الغائه ، فهو على الرغم من انه ملك خاص ، الا انه قد يحقق منفعة للعامة الذين يلجأون اليه في حالة ازدحام الطرق الرئيسة ، ابن عابدين ، حاشية رد المحتار على الدر المختار، (القاهرة : المطبعة الأزهرية ، ١٣٠٦هـ) ، جـ ٥، ص ١١٥، ومن هنا ثبتت هذه النوعية من الشوارع بعد انشائها .

الطرق والأحكام الفقهية :

تبدو أهمية البحث في الأحكام الفقهية المتعلقة بالطريق ، من حيث أنها القانون الإسلامي الذي تم من خلاله المحافظة على هيئة الشوارع والطرق ، وحقوق الارتفاق بها . كما أنه يبرز القواعد والأسس التي تحكم نظام التكوينات المعمارية التي تطل على هذه الشوارع والطرق ، حيث إن هناك أثر واضح لهذا النظام على تشكيل واجهات هذه التكوينات ومظلاتها وما تشمل عليها من عناصر تهوية وإضاءة واتصال حركة ووقاية . كما أن بيانها يكفينا رداً على اتهامات بعض الدراسات التي اتهمت المسلمين بأنهم أفسدوا تخطيط المدن اليونانية الرومانية التي فتحوها بعدما « أحلوا الاختيار محل القانون والنظام » .(٤٥) ولم يدركوا أن تخطيط المدينة الإسلامية كان محكوماً بأحكام فقهية « قوانين إسلامية » ، استمدت أصولها من قيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه .

اهتمت الشريعة بالطريق وحقه اهتماماً بارزاً ، فهي من جهة دعت الى نظافة الطرق وعدم إعاقة المرور بها ، ووجهت نظام البناء عليها والارتفاق بها ، كما أنها حددت نظام التكوينات المعمارية المطلة عليها ، بما لا يضر الجار والمار . واختصت السلطة في المدينة بالاشراف على شؤون الطرق العامة ، وتركت الحرية لأصحاب الطرق الخاصة ، يتصرفون في أمورها حسبما تتطلبه مصالحهم باعتبارها ملكاً خاصاً ، ولم تتدخل إلا بدعوى قضائية من أحد أصحابها ، ولم يكن للسلطة سوى حق بقاء هذه الطرق على حالها دون التعرض لها بالبيع أو القسمة لأن للمسلمين حق الانتفاع بها وقت الضرورة .

ودعت أحاديث رسول الله ﷺ الى المحافظة على الطرق ونظافتها فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « من اقتطع من طريق المسلمين أو أفنيتهم أو من أرض ليست له شبراً من الأرض طوقه الله عز وجل يوم القيامة من سبع أرضين » .(٤٦) وفي راوية أخرى « من أخذ من طريق المسلمين شبراً جاء يحمله من سبع أرضين »(٤٧) ، وقال فيما يتعلق بتحديد اتساع الطريق « إذا تدارأ القوم في طريق فليجعل سبعة أذرع » .(٤٨) وحث على نظافة الشوارع وإماطة الأذى عنها ، وتعددت الأحاديث في هذا المجال ، فقال ﷺ : « اتقفوا اللاعنين ، قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ، قال : الذي يتخلى في طريق الناس وظلهم » (أخرجه مسلم وأبو داوود) . . وقال : إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجواد فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود » (رواه الترمذي وقال حديث حسن) . وعن أبي برزة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعزلوا الأذى عن طريق المسلمين »(أخرجه مسلم وابن ماجه) . . وعن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « في الإنسان ثلثمائة وستون مفصلاً ، فعليه أن يتصدق على كل مفصل منه بصدقة ، قالوا : ومن يطيق ذلك يا نبي الله ؟ قال : النخاعة في المسجد تدفنها ، والشيء تنحيه عن الطريق ، وإن لم تجد فركعتا الضحا تجزئك » (رواه أبو داوود) . وروى أبو داوود بسنده الى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نزع رجل لم يصنع خيراً قط غصن شوك من الطريق ، أما كان في شجرة قطعه فألقاه ، وأما كان موضوعا فإماطه فشكر الله له فأدخله الجنة » ، وقال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وستون ثعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان » (أخرجه مسلم وأبو داوود وابن ماجه .(٤٩) وكانت هذه الأحاديث الأصل الذي بنى عليه فقهاء المسلمين وقضاتهم أحكامهم المنظمة لحقوق الطريق في اتجاهاتها المختلفة .

أولاً : منع الاعتداء على الطريق :

بدأت حالات الاعتداء على الطرق وتضييقها في المدينة

(٤٥) Grunbaum, p. 149

(٤٦) أحمد بن حنبل ، المسند ، (القاهرة : دار الشهاب د. ت) ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

(٤٧) ابن الرامي ، ١٩٢ .

(٤٨) ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، (القاهرة : المطبعة الاميرية ، د.ت) ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(٤٩) طه عبد القادر عفيفي ، حق الطريق في الإسلام ، (حرية النشر ، دار الاعتصام ١٩٧٩م) ، ص ص ٩١ـ٩٢ .

الإسلامية في عهد الرسول ﷺ ، عندما اعتدى الناس على الطرق وضيقوها بمنازلهم فأمر بأن ينادي في الناس بمنع ذلك ، وأوضح لهم أنه من فعل ذلك « لا جهاد له » على طريق المبالغة في الزجر والتنفير[٥٠] من هذا المنكر .

وتابع الخلفاء الراشدون من موقع السلطة حالات الاعتداء ومنعوها ، فقد ذكر أن « حداداً في زمن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه ابتنى كيراً في السوق ، فقال عمر رضي اللّٰه عنه : لقد انقصتم السوق ، ثم أمر به فهدم . »[٥١] وروى مالك أن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه مر بأبي سفيان وهو يبني داره بالمدينة ، وقد قدم أساس الجدار في الطريق ، فقال عمر رضي اللّٰه عنه : يا أبا سفيان تعديت لحقك ، وجاوزت به إلى ما لا حق لك فيه فارفع ، فأسرع أبو سفيان إلى طاعة عمر رضي اللّٰه عنه ، وقد طأطأ إلى الأساس ينقض حجارته حجراً حجراً بيده حتى أزاله ، وقال : يا أمير المؤمنين من أين تريد ، قال : أريد الحق ، ولما رآه أمير المؤمنين عمر رضي اللّٰه عنه سارع إلى امتثال الأمر ، رفع يديه إلى اللّٰه عز وجل وهو يقول : « الحمد للّٰه الذي أعزّ الإسلام بالحق ، ما حسبت أن أبا سفيان يطيع هذه الطاعة » .[٥٢]

وبناء على هذه الأصول بنى فقهاء المسلمين أحكامهم ، التي تتعلق بحالات الاعتداء على الطريق بإخراج البنيان فيه ، وفصلت هذه الأحكام ، حسب صور الإخراج ومدى تأثيرها على الطريق ، ويحدد ابن الرامي هذه الصور : بأن الذي يخرج بناءه في طريق المسلمين لا يخلو إما أن يضر بالناس أو لا يضر بهم ، فإن أضر بالناس في ممرهم عليه هدم ما بنى قل أو كثر ، وإن لم يضر بأحد وكانت السكة واسعة جداً ، فقد اختلف في ذلك على ثلاثة أقوال : فمنهم من قال يهدم ، ومنهم من قال لا يهدم ، ومنهم من حد الشارع فقال : إن كانت السكة أقل من سبعة أذرع هدم وإن كانت السكة أوسع من ذلك لم يهدم » .[٥٣]

وتمثلت صور الاعتداء في بناء الأخرجة (انظر شكل رقم ٨) كالجناح أو العسكر والساباط والجرصن والمساطب والاسطوانات وغيرها ، أو اقتطاع مساحة من الطريق وضمها إلى البناء ، أو بناء الأبراج البارزة عن سمت الجدران الممتد إلى عرض الطريق[٥٤] وتنوعت هذه العناصر وأشكالها بتنوع وتطور الحياة في المدن .

ونبهت المصادر الفقهية إلى مسؤولية من يقوم بمثل هذه الاعتداءات ، ووجهت العامة إلى مقاومتها باعتبار احقيتهم في الطرق « فمن أخرج إلى طريق العامة روشناً أو ميزاباً أو كنيفاً أو دكاناً ، فلرجل من عرض الناس أن ينتزعه ، فإن سقط على إنسان فعطب فالدية على عاقلته ، فالمرور في الطريق العام حق مشترك بين الناس بأنفسهم ودوابهم[٥٥] ويؤكد الشيزري على ذلك بقوله : « أما الطرقات ودروب المحلات فلا يجوز لأحد إخراج جداره ولا دكانه فيها إلى الممر المعهود ، وكذلك كل ما فيه أذى وإضرار على السالكين كالميازيب الظاهرة من الحيطان زمن الشتاء ، ومجاري الأوساخ الخارجة من الدور زمن الصيف إلى وسط الطريق ، بل يأمر المحتسب أصحاب الميازيب أن يجعلوا عوضها مسيلاً محفوراً في الحائط مكلساً يجري فيه ماء السطح ، وكل من كان في داره مخرج للوسخ إلى الطريق فإنه يكلفه سده في الصيف ، ويحفر في الدار حفرة يجتمع إليها » .[٥٦]

---

(٥٠) الكتاني ، التراتيب الادارية ، (بيروت ، بدون تاريخ) ، جـ ١ ، ص ص ٢٨٢ ـ ٢٩١ .

(٥١) ابن الرامي ، ص ١٩٣ .

(٥٢) ابن الرامي ، ص ١٩٤ .

(٥٣) ابن الرامي ، ص ١١٢ ، ويلاحظ ان ابن الرامي مالكي المذهب ، وهناك بعض الاختلافات في آراء المذاهب الأخرى تتعلق بالتفصيلات ، ومن ثم تبدو الحاجة إلى دراسة هذه التفصيلات واعتبارها عند دراسة الآثار الإسلامية في البلدان والمدن المختلفة التي كانت تتبع هذا المذهب أو ذاك ، ولما كانت صفحات هذه الدراسة تنوء عن عرض كل هذه التفاصيل ، فإننا نعرضها بصفة عامة ، واترك دراسة تفاصيلها لدراسة خاصة ـ اعتزم القيام بها ان شاء اللّٰه ـ تبين العلاقة بين أحكام البنيان في الفقه الإسلامي والعمارة الإسلامية ، فالكشف عن هذه العلاقة إيجاباً أو سلباً له أهميته .

(٥٤) ابن الرامي ، ص ١٩٥ .
واستمرت ظاهرة بناء الدعامات الساندة Buttresses شائعة في العمارة الإسلامية حتى فترات متأخرة ، وهي في الأصل تأثير ايراني انتقل الى العمارة الإسلامية ، وشاع في العمارة الإسلامية شرقاً وغرباً ، حتى انها في تونس يطلق عليها فارسية (ابن الرامي ، هامش ٣ ، ص ١٩٥) .
وهذه الدعامات تبنى مع بناء الجدران الخارجية بارزة عن سمتها بهيئة مربعة أو مستطيلة أو نصف مستديرة المسقط مما يجعلها أشبه ما تكون بالأبراج .

(٥٥) الموصلي ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ .

(٥٦) الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشر السيد الباز العريني (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) ، ص ١٤ .

وتـزخر المصـادر الفقهية بـالأحكام التي تمثـل التـطبيق العلمي لحالات المحافظة على الطريق بمنع الاعتداء عليه بالبناء وتضييقه ، وتتابعت الأمثلة في العصور المتعاقبة ، فقد قال ابن وهب : « وبلغني عن ربيعة أنه سئل عن رجل بنى مسجداً من طائفة من داره ، أله أن يـزيد فيـه من الطريق ؟ فقال : ليس له ذلك ، وقال ابن عبدوس عن ابن القاسم عن مـالك : إنـه لم يجعل لأن يـزيد أحـد فيه البنـاء وإن كـان واسعاً » .(٥٧)

وجدير بالذكر أن هذه الأحكام طبقت على طرق المـدن القديمة التي دخلها الإسلام كدمشق وحلب وقرطبة وغيرها ، ويعني ذلك أن السلطة الإسلاميـة في هذه المُـدن ، تولت الحفاظ على طرقـاتها على مـا كانت عليـه ، وتصدت لأي محاولة للاعتداء عليها بالبناء ، فقد كتب شجرة إلى سحنون يسأله عن حوانيت بشرق الجامع أفنيتها وبين يديها سقائف على عمد لاصقة بالطريق ، والنـاس يسلكون تحتهـا وهي نافذة ، وبين الحوانيت دكاكين ، والطريق بين الدكاكين وبين العمد ، فأراد أهل الحوانيت قطع الطريق بالبناء ، وأراد كل واحد أن يجعل حـائطاً من حـائطه إلى العمـد من الجانبين ليدخل إليه من العمد ، فكتب إليه ، ليس لهم قطع الطريق في هذه السقائف ببناء في كل حانوت منها، «وإن كره أهل الحوانيت »،(٥٨) وفي حالـة أخرى « كتب إليـه أيضـاً في حوانيت على هذه الصفة مملوكة ، فأراد أهلها سد الطريق من السقائف واتخذوا دكاكين أمام العمد نصبوا عليها ركائز فكتب إليه ترد على حـالها ويمنـع من تضييق الطريق ، وأمـا هذه الحوانيت فهي لأهلها ، وهم إذا قطعوا هذه الطريق ببناء يزيد أمام السواري ما يضر بالطريق فليس لهم ذلك ، وإنما موضع السواري فناؤهم ويدخل الناس إليهم ، فإذا فعلوا ما ذكرت زادوا فناء من الطريق ، وإنما الذي بين هذه الحوانيت أفنية سقفت والأفنية لا تقسم ، وهي كذلك تبقى قديمة ، فتبقى على حالها » .(٥٩).

وترجع أهمية هاتين الحالتين إلى أنهما كانتا في احـدى المدن القديمـة (التي فتحها المسلمـون) التي كان يحف بشوارعها الرئيسة صفوف من الأعمدة مكونة أروقة جانبية ، وتميزت شوارع المدن الرومانية بتلك السمة المميزة ، وتثبت هاتان الروايتان ما تم من تعديل في هذه الأروقة في العصر البيـزنطي حيث امتـدت السقائف على الأعمـدة ، وشغلت الحوانيت المساحات الممتدة على جوانب هذه الطرق . ومن هنـا يتضح أن اختـلال هيئة الشـوارع في المدن الـرومانيـة القديمة حـدث على أيدي البيـزنطيين الـذين أفسدوا هـذه الهيئة ، وفي ذلك ما يدعم الرأي الذي انتهى إلى ذلك .(٦٠) وإذا كان بعض الباحثين يرى أن ذلك بدأ في العصر البيزنطي واستمر بصورة أسرع وأقوى في العصر الإسلامي ، ويفسرون ذلك بغياب المؤسسـات القويـة التي تولت الإشـراف على تنظيم وتخطيط هذه المدن بعـد أن سيطر عليهـا المسلمون الذين أحلوا الاختيار محل القانـون والنظام .(٦١) على حـد قولهم ـ فإن ما أصدره الفقهاء والقضاة المسلمون من حكم في الحالتين السابقتين ، يؤكد أن المسلمين عملوا على أن تبقى هذه الشوارع على حالها من حيث الهيئة ، ولم يسمحوا بالامتداد بـالبناء فيهـا ومنعوا ذلـك ، وسمحوا فقط بـاعتبار المساحات المسقوفة أمام الحوانيت بمثابة « أفنية » للحوانيت يرتفق بها دون البناء . . . ويترك للعامة أيضـاً حق الارتفاق بها ، وذلك وفق الحكم الإسلامي الذي أقـر الخليفة عمـر الذي يبيح الارتفاق بالأفنيـة أمام تكـويناتهـا المعماريـة(٦٢) وبـذلك يكـون ما تم من تعـديـل مـادي محـدود بـالعصـر البيزنطي ، أما الارتفاق بالأفنية دون البناء فهو الذي حدث في العصر الإسلامي ، التزاماً بالهيئة القديمة التي وجدت عليها هذه الشوارع منعاً للضرر وتحقيقاً للمنفعة العامة كمـا يشير الحكم .

وإذا كان الحكم يمنع البناء في طريق المسلمين وهدمه هو الشائع وبه العمل والقضاء ـ كما يقول ابن الرامي(٦٣) ـ فإن بعض الفقهاء والقضاة سمحوا في بعض الحالات بالبناء لا سيما إذا لم يتسبب ذلك في ضـرر بتضييق الطريق وإعـاقة

(٥٧) ابن الرامي ، ص ١٩٥ .

(٥٨) ابن الرامي ، ص ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٥٩) ابن الرامي ، ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٦٠) Hathloul, p 22.

(٦١) Grunbaum, p 149 and Sauvaget, pp 104- 109.

(٦٢) ابن الرامي ، ص ١٩٨ .

(٦٣) ابن الرامي ، ص ٢٠٢ .

المارة ، ومن الأمثلة التي نسوقها لذلك ما ذكر عن ابن وهب قال : سألت مالكاً عن رجل بنى مسجداً في طائفة داره ، ثم أراد أن يزيد من الطريق شيئاً ، قال : دهل : قال مالك رحمه اللّٰه : إن كان لا يضر بطريق الناس فلا أرى بأساً . وقال ابن القاسم : عن مالك رحمه اللّٰه في الرجل يبني داره فيزيد أن يدخل من الفناء الواسع في داره ، قال : يعجبني ذلك ، وما قاله أصبغ في الذي يهدم داره وله الفناء الواسع يزيد فيها من الفناء فيدخله في بنيانه ، ثم يعلم به ، قال : لا يعترض له إذا كان الفناء واسعاً رحراحاً لا يضر بالطريق ، وقد كرهه مالك رحمه اللّٰه ، وأنا أكرهه ، ولا آمر به ، ولا أقضي عليه بهدمه إذا كان الطريق واسعاً رحراحاً ولا يضر ذلك بشيء منه ولا يحتاج إليه ». (٦٤)

وتكشف هذه الآراء الفقهية عن أن حالات من البناء في الطريق سمح بها ، ويلاحظ أنها كانت في طريق واسع ، ولا يضر البناء بالطريق والمارة ، كما يلاحظ أن السماح بهذه الحالات كان مشوباً بالحذر ، لأن المنع كان هو المشهور والغالب . وقد تسبب هذا السماح بطريقة أو بأخرى في التجرؤ على محاولة الامتداد بالبناء في الطريق، وتكرار هذه المحاولة ، وقد أدى ذلك إلى تضييق الشوارع والطرق بالمدينة الإسلامية(٦٥) وتزخر المصادر الفقهية والتاريخية بالأمثلة التي توضح صور الاعتداء على الطريق وتصدي السلطة لهذه الاعتداءات ، فقد سئل القاضي سحنون : عن شخص اعتدى على الطريق العام بإدخال بيته إليه ، ولم يتحدث جيرانه عن فعلته إلا بعد عشرين سنة ، فهل يسمح له بأن يبقي بناؤه ؟ فكان جواب القاضي إذا ثبت هذا الأمر ، فإنه يجب أن يرجع ببنائه قدر ما أخذ من الطريق ، لأن حق الطريق لا يعترض عليه . وسئل أشهب عن رجل يزيد في داره من طريق المسلمين ذراعاً أو ذراعين ، فإذا بنى جداراً ، وانفق فيه ، وزاد عليه بناء ، فقام عليه جاره الذي هو مقابله من جانب الطريق ، وأنكر ذلك عليه ما يزيد ، ورافعه إلى السلطان ، وأراد أن يهدم ما يزيد من الطريق ، وزعم أن سعة الطريق مرفق له ، لأن ذلك كان له فناء ، ومربطاً لدابته ، وبقية الطريق هو للمسلمين ، وكان مما بقي في طريق المسلمين ثمانية أذرع ، هل لذلك الجار إلى هدم بنيان جاره الذي بنى سبيل ؟ أو رفع ذلك بعض من يسلك ذلك الطريق ، وفي بقية الطريق ما أعلمتك ؟ فقال : نعم يهدم ما بنى ، كان في سعة الطريق ثمانية أذرع أو سبعة على ما وصفت لك ، ولا ينبغي لأحد أن يزيد من طريق المسلمين شيئاً ، وينبغي للقاضي أن يقدم في ذلك للناس ويقرر إليهم ألا يحدث أحد بنياناً في طريق المسلمين كان في الطريق سعة أو لم يكن ». (٦٦)

وتشير هذه الرواية إلى منع الاعتداء ، اتسع الطريق أو لم يتسع ، كما أنها تحث القضاء على أن يحرصوا على ذلك بمتابعة وحزم ، وقد انبرت السلطات في المدينة الإسلامية لمنع هذه الاعتداءات ، وبدأ ذلك من عهد الرسول ، عندما أمر المنادي بأن ينادي على الناس بعدم الاعتداء على الطرقات وتضييقها ، وحذرهم بأن من يفعل ذلك لا جهاد له ، وأوقف عمر الخليفة محاولة أبي سفيان الامتداد ببناء أساس داره بارزاً في الطريق ، وفعل مثل ذلك الخليفة المنصور ببغداد عندما أمر بهدم « ما شخص في الدور في طريق المدينة ، ووضع الطريق على مقدار أربعين ذراعاً ، وهدم ما زاد على ذلك المقدار ». (٦٧) وحدث في قرطبة أن ضاقت محجتها العظمى ، فأمر المستنصر سنة ٣٦١هـ بتوسعتها وهدم الحوانيت المعترضة لها،(٦٨) وتكررت حوادث الاعتداء على الطرق في تونس فكلف قاضي المدينة ابن الرامي بهدم ما أحدث من بناء في الطرقات ، وكلفه بالنظر في طرقات الأسواق لمراقبة ما يزاد فيها بالبناء وغيره ، فرفع له « أن أقواماً لهم دور ملتصقة بالشارع فقطعوا من دورهم بيوتاً ، وفتحوا أبوابها إلى الطريق ، وأوقفوا في الشارع وقاقيف حتى صارت لهم مثل حوانيت ، وصار في صدر كل حانوت منها البيت الذي اقتطع من الدار ، فقال لي : اهدم كل ما خرج به في الشارع من بناء أو غيره ، حتى

(٦٤) ابن الرامي ، ص ٢٠٣ .

(٦٥) Hathloul, p. 87.

(٦٦) ابن الرامي ، ص ١٩٩ .

(٦٧) البغدادي ، تاريخ بغداد مدينة السلام (القاهرة ، ١٩٣١م) جـ ١ ، ص ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(٦٨) ابن حيان ، المقتبس في اخبار بلد الاندلس ، تحقيق د. عبد الرحمن علي الحجي ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٥م) ، ص ٧١ .

لا يبقى قدام البيوت شيء من ذلك . ثم قلت له : فيهم من يضر لضيق الشارع وفيهم من لا يضر لعظم وسع الشارع ، فقال لي : اهدم كل ما خرج به إلى الشارع ضر ذلك أم لم يضر كان الشارع واسعاً أو ضيقاً » .(٦٩)

وفي عهد السلطان قايتباي ، أمر يشبك من مهدي واليه على القاهرة ، بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة ، وطلب من القاضي فتح الدين السوهاجي أن يحكم بهدم ما انشيء في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعي من أبنية وحوانيت وسقائف ومساطب وغيرها . وأصدر القاضي حكمه بهدم تلك المباني ، وتم الهدم فعلاً ، وقد عاد هذا العمل بالنفع الكثير من حيث توسيع الطرقات ، وإن تضرر بعض الناس بسبب هدم مبانيهم، ولم يستثن من ذلك أحداً، حتى أنه هدم لخوند « شقرا » ابنة الملك الناصر فرج ثلاثة رباع ، أحدهم كان واقعاً أمام جامع الصالح طلائع خارج باب زويلة ، وتعرض القاضي لسخط بعض هؤلاء المتضررين ، ويبدو أن هذا الأمر أحدث ضجة ، سيما عند تنفيذه ، حيث تدخلت الأغراض الشخصية ، وبولغ في هدم بعض المباني بغير وجه حق ، مما دعى بعض الفقهاء ، لبيان الأحكام التي يجب أن يتم موجبها هذا الأمر ، فكتب المقدسي رسالته الفقهية « الفضائل الباهرة في حكم شوارع القاهرة » .(٧٠)

وبالرغم من هذه الضجة والإثارة حول هذه الإجراءات التي قام بها يشبك نحو توسيع طرقات وشوارع القاهرة وإصلاحها ، فإن هذا العمل وجد استحساناً ممن يدركون أهميته ، حتى أن الشاعر شهاب المنصوري وجد في ذلك تجديداً لشباب شوارع القاهرة ومساجدها ، فخلد ذلك في قصيدة طويلة ، سيما وأن الأمر لم يقتصر على مجرد إزالة التعديات وتوسيع الطرقات ، بل امتد إلى تجميل وإصلاح واجهات ومداخل المنشآت الدينية المطلة على هذه الشوارع ، فجليت زخارفها وبيضت حوائطها ، كما أن يشبك أمر بتبييض الدكاكين ووجوه الرباع المطلة على الشوارع وعين للأشراف على تلك الأعمال أحد « أبناء الناس » ، بعد أن منحه وظيفة « شاد الطرقات » ، الذي أخذ يستحث الناس في سرعة البياض والإصلاح ، حتى عادت القاهرة وكأنها عروس في ليلة الزفاف ، ونال باب زويلة شيء من تلك الأعمال ، فقلعت عتبته المعروفة باسم الزلاقة ، ومهدت الطرق أمامها ، وأغلقت لذلك عدة أيام ، واستعمل الأهالي للدخول إلى القاهرة « باب الفرج » حتى تم إصلاح باب زويلة .(٧١)

وانبرى العامة للاعتراض على المنشآت التي تعوق طرقاتهم ، ووجد هذا الاعتراض استجابة من أصحاب هذه المنشآت ، وحوادث ذلك عديدة ، منها ما حدث في القاهرة ، عندما أراد بكتمر بناء « دار الحاجب » وجعل اصطبلها حيث كان الطريق ، وركب باباً بخوخة مما يلي حارة برجوان ، واشترط عليه العامة ألا يمنع المارة من سلوك هذا المكان(٧٢) ومنها ما حدث من سد خوخة أيدغمش باعتبارها من المنافذ المؤدية إلى القلعة في جمادي الأولى سنة ٧٩١هـ للخوف من مهاجمة القلعة ، وسدت بهيئة لا تمكن راكب الفرس أن يمر منها ، وظلت كذلك حتى « شكى أهل الخوخة من سدها فرسم في ذي الحجة بفتحها » .(٧٣)

وتشير هذه الأمثلة من حالات إزالة الاعتداء عن الطرق العامة ، إلى أن هذه الحالات كانت متكررة رغم مقاومتها ، وان من هذه الحالات ما كان يسمح به في بعض الأحيان ، إذ لم يكن مضراً بالطريق ، وكان لتكرار هذه الحالات وتراكبها بمرور الزمن أثر واضح في تضييق الطريق لا سيما في مناطق الأسواق والحوانيت التي توزعت على جانبي الشوارع العظمى .(٧٤) وهو الأمر الذي كان يدفع سلطات المدينة إلى إزالة هذه التعديات المتراكبة لإعاقتها الطرق ، كما حدث في

---

(٦٩) ابن الرامي ، ص ١٩٨ .

(٧٠) قامت د. آمال العمري بدراسة وإعداد هذا المخطوط للنشر عن صورة مصورة من مكتبة طويقا بوسراي باسطنبول .

(٧١) عبد الرحمن عبد التواب ، **قايتباي المحمودي** ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م) ، ص ص ١٨١ ، ١٨٢ ـ انظر شكل ٩ .

(٧٢) المقريزي ، جـ٢ ، ص ٥٢ .

(٧٣) الصيرفي ، **نزهة النفوس والابدان** ، تحقيق د. حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٧٠م) ، جـ١ ، ص ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٧٤) ابن الرامي ، ص ١٩٦ ـ ١٩٨ .

(٧٥) اليعقوبي ، ص ٢٥٤ : عبد الرحمن الرافعي ، **تاريخ الحركة القومية وتطور الحكم في مصر ، عصر محمد علي** ، (القاهرة ، ١٩٣٠م) ، جـ٣، ٢، ص ٦ .

بغداد والقاهرة وتونس وقرطبة ، بل أن هذه السلطات مع تزايد عمران المدينة لجأت إلى تعديل تخطيط بعض الطرق والشوارع أو فتح شوارع جديدة لتسهيل حركة المرور.[٧٥] .

ثانياً : الأخاريج والبناء على الطرق :

حددت الأحكام الفقهية نظام بناء الأخاريج التي تبرز عن سمت جدران التكوينات المعمارية على جوانب الشوارع والطرق ، واختلف الحكم حسب طبيعة الطريق ونوعيتها (انظر شكل رقم ١٠) ، فللشوارع العامة أحكامها ، وللطرق الخاصة أحكاماً تختلف باختلاف طبيعتها ، فلم تمنع الأحكام الفقهية من إخراج الأجنحة التي تعمل على الحيطان في الشوارع العامة ، إذا لم تكن تتسبب في إعاقة المرور بالطريق أو تضييقه . وقد وجدت الأجنحة في بيوت المدينة المنورة منذ عهد مبكر ، فقد قال ابن القاسم : « وهي تعمل في المدينة فلا ينكرونها ، واشترى مالك رحمه الله داراً لها عسكر » ، وقال ابن شعبان : « إذا كان باب الدار على الطريق فأراد أحدهم أن يخرج جناحاً ، لم يمنع ، وإن أخذ الطريق أجمع إذا سبق غيره » . . . فإن أراد ذلك أهل الجانبين وتشاجروا « يقسم الهواء بينهم نصفين.[٧٦]

وقد انتشر بناء الرواشن والأجنحة بارزة عن سمت واجهات المنازل المطلة على الشوارع النافذة ، ونلحظ ذلك فيما بقي من منازل أثرية في المدن الإسلامية ، كما تمدنا الوثائق والمصادر بأوصاف تفصيلية لنماذج عديدة من المنازل الدارسة ، تؤكد شيوع بناء الرواشن والأجنحة في المنازل المطلة على الشوارع النافذة وغيرها ، فمن قراءة نصوص مجموعة الوثائق الخاصة ببعض منشآت القاهرة ـ مثلاً ـ يتضح لنا أن واجهات المباني المطلة على الشارع الأعظم يشتمل معظمها على « أجنحة » ـ وهي أكثر الأخاريج بروزاً إلى عرض الشارع ـ أو رواشن[٧٧] وهي أقل بروزاً إلى عرض الشارع ، كما يلاحظ أن هذه العناصر وجدت أيضاً في الواجهات المطلة على الشوارع الجانبية المتسعة المتفرعة عن الشارع الأعظم ، وانعدمت في الغالب في واجهات المباني المطلة على أزقة ضيقة ، وقد تطل هذه الأخاريج على مساحة مملوكة لصاحب المبنى ، مجاورة لمبناه لأحقيته في إخراج الرواشن في هذه الملكية[٧٨] ولكنها تمنع من البروز والإطلال على ملك الغير . وفي ضوء ذلك يمكن أن تكون الأخاريج المطلة على الشوارع والطرقات مؤشراً للتعرف على نوعية الطريق الذي يطل عليه المبنى وقياسه ومؤشراً على ماهية متجاوراته .

وحددت الأحكام الفقهية ارتفاع هذه الأخاريج عن أرض الطريق ، حتى لا تعوق المارة بأحمالهم ، فقد « قال أبو محمد بن عبد الله بن أبي زيد » وحد ارتفاعها على وجه الأرض قدر ما يجوز تحته الراكب على أعظم محمل ، ويبقى على رأسه ارتفاعاً بيناً فوق رأس الراكب ، وأن جعله بحيث يضر الراكب منع من عمله وهدم عليه وان عمله »[٧٩] وتصدق الروايات التاريخية على هذا الارتفاع ، فقد كانت أبواب بغداد تسمح بمرور الفارس من تحتها راكباً فرسه ورافعاً رايته أو سهمه دون أن تميل الراية أو ينحني السهم ، وتسمح أبواب المدن الباقية التي تتخلل أسوارها بالمرور السهل من أسفلها نظراً لاتساعها وارتفاعها الواضح ، ويمكن أن نتصور ارتفاع باب زويلة مثلاً أحد أبواب القاهرة الباقية عن أرضية الشارع ، اذا ما نظرنا الى أرضية الخندق المحيط بجامع الصالح طلائع المقابل لها ، والتي تمثل مستوى الأرضية في العصر الفاطمي ، وهو انخفاض يصل الى ثلاثة أمتار ، ومضافاً اليه ارتفاع الباب حالياً عن مستوى أرضية الشارع الحالية ، الذي يصل الى حوالي سبعة أمتار فيكون الارتفاع حوالي عشرة أمتار .

وإذا كانت أبواب المدن تمثل نوعية من المباني على شوارع وطرق المدينة ، فإن هناك من عناصر الاتصال الأخرى

---

(٧٦) ابن الرامي ، ص ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٧٧) يلاحظ أن الروشن قد يكون مستقلاً ، وقد يكون امتداداً للجناح (انظر شكل رقم ٨) .

(٧٨) راجع وثائق الوقف التالية بأرشيف وزارة الأوقاف المصرية ١٨٨٢ أوقاف ص ١٩ ، ٢١٨جـ ، ٣٣٥جـ ، ٣٨٥٢جـ ، ٤٢٥جـ ، ٣٨٥جـ ، ٤٢٥جـ ، ٥٢٩جـ ، ٥٧٦جـ ، ٣٨٠جـ ، أحمد عبد الوهاب المصري ، **العمائر في وثائق الغوري الجديدة بوزارة الأوقاف** ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة اسيوط سنة ١٩٨١م ، ص ص ٥٣، ١٦١ .

(٧٩) ابن الرامي ، ص ٣٩٨ .

ما بنى فوق الطرق بالداخل ، للربط بين المباني المتقابلة على جانبي الشارع كالساباط .

والساباط من الوحدات المعمارية التي تبنى فوق الشارع لتصل بين المباني المطلة عليه من الجانبين ،(٨٠) وكان يراعى في بنائه ألا يعوق حركة المرور بالشارع ، فبنى بطريقة لا تؤثر على اتساع الشارع ، كما أنه ارتفع بمستوى يسمح بالمرور السهل أسفله ، وكان بناؤه متيناً يتحمل المرور من فوقه .

وقد تنوعت ظروف استخدام الساباط والأسباب التي أدت الى إنشائه ، فأحياناً كان يربط بين وحدات سكنية في طوابقها العليا ليوفر نوعاً من المرور غير المرئي للمارة بالشارع ، وهو أمر يتناسب والرغبة في الوقاية من عيون الآخرين ، وتحقيق الحجبة بالنسبة للسيدات ، بالإضافة الى أنه يسهل المرور . وأحياناً أخرى كان الساباط ليربط بين مبنى وبعض ملحقاته على الجانب الآخر من الشارع - والتي لم تسمح ظروف المساحة بإنشائها ملاصقة له . وأوضح مثال على ذلك « ساباط » جامع قجماس الاسحاقي بالقاهرة ، الذي يربط بين الجامع والميضاة في الجهة المقابلة من الشارع الذي يقع شمالي الجامع (انظر شكل رقم ١٨) ، وكان لمدرسة جمال الدين الاستادار ساباطا يربط بين المدرسة وملحقاتها في الجانب الآخر من الشارع الذي يقع شرقي المدرسة .(٨١)

وفي عصر المماليك البحرية أنشأ بعض الأمراء مساجد جامعة في مواجهة خنقاواتهم أو العكس ، ليسهلوا على المتصوفة الخروج إلى الصلوات الجامعة دون أن يتعرضوا لفضول العامة ، وربط بين المسجد والخانقاة « ساباط » يسهل الانتقال ، ويحقق تجنب المتصوفة فضول العامة في الشوارع في ذات الوقت . ومن أمثلة ذلك الساباط الذي كان يربط بين بشتاك وجامعة .(٨٢) وفي بعض الأمثلة أنشىء الساباط لتسهيل مرور الحاكم من قصره إلى الجامع المقابل للقصر ، فقد ربط بين جامع قرطبة والقصر ساباط أنشأه الأمير عبد الله بن محمد ، وعندما جدد الجامع الحكم وزاد فيه ، بنى ساباطا جديداً فوق الطريق الذي يفصل بينهما .(٨٣) وكذلك بنى في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ساباط ليربط بين المسجد وقصره بأشبيلية .(٨٤) وكان بالمسجد الجامع بمراكش المعروف بالكتبية ساباط يطلق عليه «المسباط».(٨٥) وأحياناً كان البناء على الطريق يتخذ هيئة وحدة معمارية تستغل استغلالا آخر غير كونها عنصر اتصال كالساباط . فقد « سئل سحنون عن الرجل يكون له الداران على يمين الطريق وعن يسارها ، فيريد أن يرفع على السكة غرفة ، أو يتخذ عليها مجلساً على جداره (انظر لوحة رقم ٢) ، قال سحنون لا يمنع من ذلك ، إنما يمنع من الإضرار في التضييق بالسكة اذا أدخل عليها ما يضر بها ويضيقها ، فأما لا ضرر فيه على السكة وعلى أحد من المسلمين فلا يمنع .

ومن الوحدات المعمارية التي تعلو الطريق « القنطرة » ، وهي مصطلح معماري أطلق في بعض المدن الاسلامية على تلك الوحدة المعمارية التي تربط بين شارعين أو أكثر عن طريق فتحات معقودة ، وغالب ما يستعمل أعلاها في بناء غرف ، وتنقسم هذه القناطر الى نوعين : أحدهما يطلق عليه « قناطر الأزقة » وهي التي تصل بين شارعين أو أكثر ، والآخر يطلق عليه « قناطر البيوت » وهي عبارة عن ممر مشترك بعدة بيوت بالمحلة لها باب واحد ،(٨٦) وتمثل بعض النماذج الباقية في مدينة الموصل وطرابلس (انظر لوحة رقم ٣) ومدينة الرياض تحدها أمثلة واضحة على ذلك خاصة مدينة الموصل التي أشارت بعض الإحصائيات الى أنها بلغت ١٦٠٠ قنطرة . وقد بنيت هذه القناطر لأسباب من جملتها عمل الخير ، فقد كانت بعض الأسر تقوم بفتح غرفة في البيت

---

(٨٠) في تعريف آخر ممر معقود بين جدارين (د. السيد عبد العزيز سالم بعض المصطلحات للعمارة الاندلسية المغربية ، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية** بمدريد ، مجلد ٥ ، عدد ١ ، ٢ ، ١٩٥٧م ، وقد عرفه أحد الباحثين تعريفاً خاطئاً عندما ذكر أن الساباط ممر أسفل المبنى بين شارعين (د. لمعي مصطفى ، **التراث المعماري في مصر** ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٤م) ، ص ٩٥ .

(٨١) عثمان ، ص ١١٦ .

(٨٢) المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ .

(٨٣) سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٣٨٩ .

(٨٤) محمد بن عبد العزيز مرزوق : **الفنون الزخرفية في المغرب والاندلس** ، (بيروت ، دار الثقافة د.ت) ، ص ٥٣ .

(٨٥) سالم : بعض المصطلحات ، ص ٢٤٩ .

(٨٦) عبد الجبار محمد جرجيس ، بعض مظاهر البناء في منطقة قاعدة الجزيرة ، **مجلة التراث الشعبي - العراق** ، عدد ٨ ، ١٩٧٨م ، ص ١٢٠ .

وجعلها قنطرة وتبنى الغرفة من جديد فوق سطح القنطرة ، وذلك احتساباً لوجه الله تعالى ، فاستغلت هذه القناطر للسكنى والمرور منها كطريق عام يصل بين طريقين أو أكثر ، وقد اختلفت أحجام ومقاييس هذه القناطر باختلاف مقاييس الشوارع التي تمثل بينها ، وبظروف الموضع نفسه ، بالإضافة الى اختلاف ارتفاعات المباني المتصلة بها ، ومن ثم وجد منها ما هو صغير لا يرتفعُ الى أكثر من ١,٦٠ متر مثل قنطرة « الحاج توتو » والتي كانت في الأصل غرفة في بيته وجعلها قنطرة ، ومنها ما توسط حجمه كقنطرة « بيت الحافظ » التي يبلغ ارتفاعها ٣ متر واتساعها ص ٢ متر ، ومنها ما امتد طوله الى ٥ متر وبلغ اتساعه ٢ متر كقنطرة « بيت توحله » وهي من أهم القناطر القديمة بالموصل .[٨٧] .

ولا شك أن هذه القناطر سهلت الاتصال بين أزقة المدينة حيث وصلتها ببعضها ، كما أنها قللت من نسبة غير النافذ منها ، وهو ظاهرة نجد ما يماثلها في بعض المدن الإسلامية التي وجد بها ما يطلق عليها اصطلاحاً « الخوخة »[٨٨] وهي أشبه ما تكون ببوابة صغيرة تنشأ بغرض تسهيل المرور فتوصل الى أجزاء معينة . فتحدد قطاعاً معينة من المحلة السكنية تنسحب عليه تسمية المخوخة . وقد انتشرت هذه الظاهرة في خطط الفسطاط[٨٩] كما أنه وجدت أمثلة عديدة بالقاهرة ؛ مثل خوخة أيدغمش ، التي تشير المصادر الى أنها سدت في جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ كجزء من خطة لتأمين الطرق الموصلة الى القلعة ، وسدت بطريقة لا تمكن راكب الفرس من المرور بها ، وبعد شكوى أهل الخوخة من ذلك ، أعيد فتحها في ٦ ذي الحجة من العام نفسه .[٩٠] وهو أمر يشير الى مقاييس هذه الخوخة التي كانت مصممة لمرور الفرسان منها ، وخوخة الأمير حسين التي فتها في سور القاهرة ليصل ما بين القاهرة والقنطرة التي أنشأها على الخليج ، والتي توصل في الجهة الغربية المقابلة الى جامعة .[٩١] وقد عدد المقريزي أشهر خوخ القاهرة وما تربط بينها من شوارع وأزقة كالخوخ السبع ، وباب الخوخة ، وخوخة أيدغمش ، وخوخة ابن المأمون ، وخوخة الجوهرة ، وخوخة مصطفى وخوخة الحلبي وغيرها .[٩٢] .

واخترقت قناطر المياه بعض شوارع المدن الإسلامية التي وجدت بها أمثلة من هذه القناطر ، وروعي حق الطريق برفع بنائها على دعائم تحمل فوقها غالباً سلسل من العقود ، وكانت المسافة بين الدعامة والأخرى لا تقل في المتوسط غالباً عن ٣ أمتار ، وترتفع فتحات عقودها فوق نقط المرور أسفلها ارتفاعاً يسمح بالمرور السهل دون إعاقة ، ومن أمثلة ذلك قناطر فم الخليج التي أنشئت لنقل ماء النيل الى قلعة القاهرة .

ومن العناصر المعمارية الخارجة عن سمت واجهات المباني المطلة على الطريق ، والتي حددت الأحكام الفقهية قواعد إنشائها ما يسمى « بالجرصن » الذي اختلف في تحديد هيئته ، فمن قائل أنه البرج ، وقيل أنه مجرى ماء في الحائط ، وعن الامام البرذوي : إنه جذع يخرجه الإنسان من الحائط ليبني عليه ، وهو دخيل معرب ، وقال العيني : هو طمر من الرف ، وقيل هو من الخشب الموضوع على جداري السطح ليتمكن من المرور ، وقيل هو الذي قدام الطاقة عليه الكيزان ونحوها . وقد منع بناؤه ان كان يضر بالعامة في الطريق ، وسمع به إذا لم يحدث الضرر .[٩٣]

وأدرك الفقهاء ما يحدث من ارتفاع مستوى الطرق بمرور الزمن، والذي ينشأ عنه الضرر لتقارب الإخراج من أرضية الشارع ، فأفتوا بأن « الإخراج » الذي يبنى في الطريق تحته ، حتى صار يضرب الناس في رؤوسهم ، أما أن يحفر صاحبه الطريق أسفله حفراً لا يضر بالمارة ، ولا يغور الأرض

---

(٨٧) Geoffrey King, Examples of Secular architecture of Najd, **Arabian Studies**, Cambridge. IV (1982), p. 116.

(٨٨) الخوخة مصطلح يطلق أيضاً على فتحة صغيرة في وسط الباب الكبير لها مصراع ويستعمل في الدخول والخروج في حدود معينة (المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٥٢) .

(٨٩) ابن دقماق ، **الانتصار لواسطة عقد الامصار** ، تحقيق لجنة التراث العربي بدار الآفاق الجديدة ، (بيروت ، دار الآفاق الجديدة د. ت) ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٩٠) الصيرفي، جـ ١ ، ص ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٦٨ .

(٩١) المقريزي، جـ ٢ ، ص ١٤٦ ، عبد الرحمن عبد التواب ، **المنشآت المائية عبر التاريخ** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ، ص ٢٤ .

(٩٢) المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٤٤ ، ٤٦ .

(٩٣) المطرزي ، **المغرب في ترتيب المعرب** ، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، (سورية ، حلب : مكتبة اسامة بن زيد ، ١٩٧٩م) ، جـ ١ ، ص ١٤١ ؛ ابن عابدين ، جـ ٥ ، ص ٣٨٠ .

على من يمر بالطريق، أو يهدمه ويرفعه رفعاً بحيث يمر المار تحته بصورة طبيعية .[٩٤]

وسمع بعض الفقهاء كذلك ببناء الاسطوانات في الشوارع والدكاكين والسلالم ، إذا لم تكن تضر بالعامة وتضيق الشارع عليهم ، فقد سئل ابن وهب عن « الرجل له دار تجاور الطريق ، فأراد أن يبني وأن يعمل مع حائطه مما يلي البنيان صفا من الأسطوانات يبنى عليها وعلى داره ، قال ابن وهب لا بأس بذلك ان كان لا يضر بأحد ، قال ابن وهب وكذلك الدرجات القصيرة التي لا تضر بأحد » ، ويقول ابن الرامي : « وما رأيت أن يهدم ما كان زايداً على ذلك إلا أن يكون ضرراً ويضيق الطريق » .[٩٥]

واعترض من الفقهاء على بناء « المساطب » في الطريق فقد سئل سحنون عمن بنى على باب داره دكانه في السكة ، وهي لا تضر بأحد من الزقاق غير أنها تقابل باب دار رجل آخر ، وهي تضربه لأنه يقعد عليها ويقعد معه الناس ، فقال : « يمنع من بنيانها إذا كانت تضر بالآخر » ، وذكر الغزالي أن من منكرات الشوارع وضح الأساطين وبناء الدكاكين[٩٦] (أي المساطب) متصلة « بالأبنية المملوكة » .[٩٧] وكذلك يعترض ابن الرامي على بناء الدكانة فيقول : « أما الدكانة التي تبنى برسم الجلوس تقابل باب دار أحدهم تهدم وإن كانت لا تضر بالمار » .[٩٨] ومن هذه النصوص نستشف الاعتراض على بناء المساطب بالطريق ومنعه اذا كان يضر بالمارة وتضيق الطريق ، وإنه كان يسمح إذا لم يضيق الطريق أو يضر المارة ، لكنه كان يمنع إذا كان يسبب كشف الجيران وضررهم حتى إذا كان الطريق واسعاً . وهي حالات تختلف ظروفها من موضع إلى آخر من شوارع المدينة وطرقاتها وكان لها تأثير على الصورة الأولى التي خططت بها شوارع المدينة ، فغيرتها بامتداد البناء في الحالات المسموح بها .

وكانت المساطب من العناصر التي شاع وجودها في المدن الاسلامية لا سيما في الحوانيت التي كانت غالباً ذات مساحة محدودة ، لما تتيحه من فرصة الجلوس وسهولة العرض في تلك الحوانيت ، التي زاد من ازدحامها كونها مكان الإنتاج والبيع ، كما كانت المساطب تبنى في الطرقات للجلوس عليها ،[٩٩] سيما وأن حديث رسول الله ﷺ أشار الى السماح بالجلوس في الطرقات شريطة ألا يؤذي المارة ، فقد روي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « اياكم والجلوس في الطرقات ، قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد ، نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ : « فإذا أبيتم ألا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول اللّه؟ قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .[١٠٠]

وكان هذا هو الأساس الذي بنيت عليه حدود الجلوس في الطرقات ، فإذا كانت الطرقات ضيقة « فلا يجوز لأحد من السوقة الجلوس فيها ، ولا اخراج مسطبة دكان عن سمت أركان السقائف الى الممر الأصلي ، لأنه عدوان يضيق الطريق على المارة ، فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس » .[١٠١]

ومسطبة « الدكان » معمارياً عبارة عن بناء من الحجر أو الآجر يقام بجانب وجهة الدكانة ، ويبلغ ارتفاعها نحو المتر ، وسطحها في مستوى أرضية الدكان ، ويجلس عليها صاحب الدكان مع زبائنه (انظر لوحة ٤) ، وكان يكثر بناؤها من قوت الى آخر ، فتمثل اعتداء على الطريق ، ولذلك كانت سلطات المدينة تقوم بإزالتها مع غيرها من أمثلة التعديات على الطرق ، من حين لآخر ، عندما تتراكب التعديات وتضيق الطرق وظلت هذه المساطب شائعة الاستعمال في القاهرة حتى عصر محمد علي ، الذي أمر بإزالتها سنة ١٢٥٠هـ سنة ١٨٣٠ م ، لكيلا تضيق الطرق على المارة .[١٠٢]

---

(٩٤) ابن الرامي ، ص ٣٩٢ .

(٩٥) ابن الرامي ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٩٦) الدكانة يقصد بها ما نصطلح عليه حالياً « المسطبة » والدكانة حالياً يقصد بها الحانوت الصغير ، وربما كان انسحاب تسمية الدكانة على الحانوت الصغير لبناء « دكانة » به يجلس عليها البائع ويعرض عليها بضائعه .

(٩٧) الغزالي ؛ احياء علوم الدين (بيروت : دار المعرفة , . ت) ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ ، ابن الرامي ، ص ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٩٨) ابن الرامي ، ص ٣٩٦ .

(٩٩) ابن الأخوة ، ص ١٣٥ ، الشيزري ، ص ١١ ، انظر لوحة رقم ٣ .

(١٠٠) الغزالي ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ .

(١٠١) ابن الاخوة ، ص ١٣٥ .

(١٠٢) دفتر إدارة وإجراءات تسليمات مجالس الأحكام المصرية ، القاهرة، دار المحفوظات ، ص ١٦٩ .

وسمح الفقهاء بناء الدرج الذي يؤدي الى المبنى خارجاً عن سمته إذا لم يتسبب في إعاقة الطريق ، ويكشف لنا ما بقى من سلالم المباني الأثرية الخارجة عن هذه المباني ، والمؤدية الى الطريق ، مدى الحرص على عدم إعاقة الطريق تمشياً مع الأحكام الفقهية التي سمحت بإنشائها إذا لم تكن ضارة بالمارة مضيقة للطريق . ويحكم الحاجة الى الدرج ارتفاع مستوى أرضية المبنى عن أرضية الشارع ، ويتحدد حجم الدرج بنسبة الارتفاع ، ومن ثم تختلف أحجام السلالم المؤديةالى المباني وأشكالها . ومن الأمثلة الأثرية الواضحة التي توضح التطبيق العملي لبناء السلالم البارزة في الطريق ، والمؤدية الى مبان مرتفعة نسبياً عن أرض الشارع مع المحافظة على عدم تضييق الشارع ، أو اعاقته ما نراه في مباني المماليك بقاهرة الفواطم . فقد دعت الحاجة الى انشاء المباني الدينية وعلى وجه الخصوص مرتفعة نسبياً عن مستوى أرضية الشارع ، لتوفير نسبة أفضل من الضوء والهواء والهدوء ، بالإضافة الى أثر ظروف التخطيط والإنشاء المتبعة في ذلك العصر ؛ حيث تضمنت هذه المباني وحدات في تخوم الأرض كالصهريج وفساقي الدفن في الأضرحة . مما أدى الى ارتفاع المداخل المؤدية الى الطابق الرئيسي في هذه المباني عن مستوى أرضية الشارع ارتفاعاً واضحاً ، وصل في بعض المباني قرابة ثلاثة أمتار بمدرسة السلطان حسن (انظر شكل رقم ١١) ، ومع ارتفاع هذه المداخل والرغبة في عدم مضايقة الطريق ظهرت ضرورة استخدام نوع من السلالم الجانبية المزدوجة أو المفردة ، كحل بديل للسلالم الأمامية التي لو استخدمت لامتدت في عرض الشارع ، وأعاقت المرور به ، ويمكن أن نلحظ ذلك بصفة خاصة في المنشآت الدينية المملوكية التي تطل على الشارع الأعظم ، « شارع المعز لدين الله » في قلب القاهرة الفاطمية ، كمدرسة خانقاة السلطان برقوق ، ومدرسة السلطان برسباي ، وجامع المؤيد شيخ ـ الذي يرتفع مدخله عن مستوى أرضية الشارع الحالية قرابة مترين ، وعمل أمامه درج جانبي يصعد منه الى المدخل ، ولو أن هذا الدرج عمل أمامياً لامتد في الشارع امتداداً يساوي امتداده الجانبي حالياً (انظر شكل رقم ١٢) . وإذا وضعنا في الاعتبار أن أرضية الشارع ارتفعت عن ما كان عليه الحال في العصر المملوكي لتخيلنا زيادة الامتداد ، وهو أمر تجنبه المعمار المسلم بعمل السلالم الجانبية ، حيث ان الامتداد الجانبي لا يؤثر على حركة المرور في الشارع . وقد توافق هذا التوجيه في تخطيط سلالم المنشآت المملوكية المطلة على الشارع الأعظم مع حركة المواكب السلطانية ، التي كانت تمر غالباً من هذا الشارع ، الذي يربط بين باب الفتوح وباب زويلة (انظر شكل رقم ٩) .

والميازيب (انظر لوحة رقم ٥) من العناصر المعمارية التي شاع وجودها لا سيما في البلاد التي تسقط عليها أمطار غزيرة ، فقد كانت تبنى في الأساس لتصريف ماء المطر ، وإن استخدمت أحياناً لتصريف الماء المتخلف عن الاستخدامات اليومية ، وسمح الفقهاء بإخراجها الى الطرق العامة الواسعة ، وكان الأصل في ذلك أن رسول الله ﷺ وضع ميزابا بيده في احدى دور المدينة ، كان يسكنها العباس ، فقلعه الخليفة عمر ، لما أصابه من ماء متقذر أثناء مروره للصلاة في يوم الجمعة ، فقال له العباس أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه بيده ، فقال عمر للعباس « وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضع في الموضع الذي وضعه النبي ﷺ ، ففعل ذلك العباس .[(١٠٣)] ومنعت الأحكام الفقهية بناءها في الطريق الضيقة لما تسببه من ضرر المارة ،[(١٠٤)] وقد وجهت المصادر الفقهية وكتب الحسبة أهل الشوارع الضيقة الى استخدام حل بديل لتصريف الماء ، وذلك بأن «يجعلوا عوضها مسيلاً محفوراً في الحائط مكلساً يجري فيه ماء السطح »[(١٠٥)] ويعكس التطبيق العملي لذلك مانراه من ميازيب في واجهات المباني الأثرية بالقاهرة مثلاً ، فقد تم عملها في الواجهات المطلة على الشارع الأوسع من الشوارع التي يطل عليها المبنى ، كما في جامع المؤيد

---

(١٠٣) ابراهيم محمد بن يوسف الفائز : **البناء واحكامه في الفقه الإسلامي** ـ رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٩٨٥م ، ص ٤٧٨ .

(١٠٤) الموصلي ، جـ ٣ ، ص ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(١٠٥) الشيزري ، ص ١٤ .

شيخ ، ومدرسة جمال الدين الاستاداد وغيرها . واستخدم البديل في المباني التي تطل على شوارع ضيقة ، وتمثل البديل في عمل قنوات محفورة مكلسة في الحوائط الخارجية يجري فيها ماء المطر من على سطح المبنى ، وتحتفظ منازل صنعاء ومدن نجد على العديد من هذه الأمثلة .(١٠٦)

وفي ضوء المقارنة بهذه الأمثلة الحية في صنعاء ومدن نجد ، يمكن تفسير ماهية تلك القنوات الرأسية التي نشهد آثارها في الوجه الخارجي لبقايا الجدران الخارجية لبعض منازل الفسطاط ، فقد كانت لتصريف ماء المطر لا سيما وأن شوارع الفسطاط اتسمت بالضيق ، حتى أن اتساعها تراوح بين ستة أمتار ونصف المتر . ولم تكن قنوات للتخلص من الإفرازات والفضلات من المراحيض في الطوابق العليا من هذه المنازل ، حيث أنها مكشوفة ، كما أنها لا تنتهي إلى آبار صرف بل تنتهي الى أرضية الطريق .(١٠٧)

واختلف الحكم في الطرق الخاصة باعتبار أن هذه الطرق ملكية خاصة مشتركة بين أصحاب الدور المحيطة بها ، وكان الشرط الأساسي ألا يسمح لأحد يبرز إلى الطريق أو يعلوه إلا بموافقة أهله ، وكان بناء الدروب على الأزقة من أهم المظاهر الإنشائية على هذه النوعية من الطرق ، والدرب هو المدخل بين جبلين والجمع دروب وليس أصله عربياً ، والعرب تستعمله في معنى الباب فيقال لباب السكة درب وللمدخل الضيق درب لأنه كالباب لما يفضي اليه ،(١٠٨) فالدرب هو الباب يجعل على فم السكة .(١٠٩) وقد انتشر بناء الدروب على السكك في المدن الإسلامية منذ عصر مبكر ، وكان بناؤها لتحقيق أغراض أمنية ، وتعتبر بغداد من اشهر المدن الإسلامية التي روعي في تخطيطها إنشاء الدروب على سككها المختلفة ، وقد أحكم ذلك السيطرة الأمنية على قطاعاتها المختلفة ، وشاع ذلك في كل المدن الإسلامية بعد ذلك ، ويصدق ابن الرامي على ذلك حيث يقول ان « الدرب جرى العرف به عندنا في الشوارع وما رأيت أحداً ينكر ذلك ، إلا إذا منع أهل الدور الذين يبنون العرض للدرب مع حيطانهم ، فإذا أنكر ذلك أهل الحيطان ، فلهم منع من أراد أن يبني في أفنيتهم لما يلحقهم من ضرر الفتح والغلق .(١١٠)

ومما يشير إلى أهمية موافقة جميع أهل الطريق على أي بناء خارج للطريق أو عليه ، ما يذكره ابن الرامي عن حالة في مدينة تونس عن «رجل كانت له دور زنقة غير نافذة » ، ولرجل معه فيها دار ، فجعل صاحب الدور درباً على فم الزقاق ، فحضر صاحب الدار الواحدة للشيخ الفقيه القاضي ابي اسحاق ابن عبد الرفيع فأعلمه بذلك ، فوجهه اليّ القاضي ، وأمرني أن آخذ الرجال واقلع واهدم الدرب» . فعندما وصل ابن الرامي الى الموضع « لم يجد رجالاً يتكلم معهم من أهل الدور الذين بنوا الدرب ، فرجع ÷لى القاضي وأعلمه أنهم غيبوا وجوههم ، فأمره القاضي أن يهدم ويبيع من الأنقاض بقدر أجرة الخدم .(١١١)

وقد يتسبب بناء الدرب في الحاق الضرر بالدار المجاورة له بسبب هز الحيطان ، الذي يحدث بغلق الباب وفتحه ، وعندئذ كان القضاء يحكم بقلع الدرب وزواله وهدمه ، وذلك برغم اجتماع أهل الدرب على بنائه .(١١٢)

ومنعت الأخاريج في الطرق غير النافذة ، وفرق الفقهاء بين إخراج قديم حدث في الطريق ، قبل أن تحدد هيئتها ، وتكتمل الدور حولها ، وبين ما قد يرغب أهل الطريق من إحداثه . فمنع الأحداث في جميع الحالات إلا أن يكون لأحدهم إخراج قديم ، يريد أن يحدث فوقه فلا يمنع ، أما إذا أراد إحداث إخراج «حصل معه أو تحته فإنه يمنع» .(١١٣) ويكشف هذا الحكم عن المراحل التي كان يمر بها الطريق الخاص حتى يصبح طريقاً خاصاً ، فوجود روشن بأحد منازل الطريق الخاص ، يعني أن بناء المنزل كان قبل أن يكتمل بناء المنازل الأخرى المطلة على هذا الطريق ، وإنه لم يكن قد

---

(١٠٦) King, P. 120 .

(١٠٧) سمعت هذا التفسير من بعض الآثاريين اكثر من مرة عند زياراتي الميدانية للفسطاط .

(١٠٨) ابن منظور ، لسان العرب (بيروت ، ١٩٧٠م) جـ١ ، ص ٣٧٤ .

(١٠٩) الرافعي ، المصباح المنير في ترتيب الشرح الكبير ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨م) ، ص ١٩١ .

(١١٠) ابن الرامي ، ص ٢١٤ .

(١١١) ابن الرامي ، ص ٢١٣ .

(١١٢) ابن الرامي ، ص ٢١٤ .

(١١٣) ابن الرامي ، ص ٣٨٨ ، وهذا هو المشهور والمعروف في مذهب مالك .

اخذ بعد هيئة الطريق الخاص ، ومن ثم سمح ببناء هذا الروشن أو ذاك ، ومن ثم يعد ذلك مؤشراً جيداً يمكن من تتبع مراحل بناء المنازل المطلة على هذا الطريق الخاص أو ذاك .

وخضع إخراج الميزاب لحكم موافقة أهل الدرب على إخراجه فليس لأحد من أهل الدرب غير النافذ أن يفعل ذلك إلا بأمرهم » .(١١٤)

وحددت الأحكام الفقهية علاقة هذه الطرق بعضها ببعض ، أو بغيرها من الطرق العامة المتصلة بها ، فإذا كان للطريق العام حق للعامة أن يمروا به وأن يفتحوا عليه أبوابهم ومطلاتهم.(١١٥) فقد وجهت هذه الأحكام الى ضرورة تنكيب فتحات الأبواب بعضها عن بعض في الشوارع الضيقة ، حتى لا تتقابل الأبواب ويحدث الضرر بكشف حرمات المنازل ، إذا ما تقابلت أبوابها.(١١٦) ويكشف الواقع التطبيقي تنفيذ هذا الحكم الخاص بتنكيب أبواب المازل ، فقد تمثل هذا في أبواب منازل مدن الاندلس كقرطبة واشبيلية وغيرها،(١١٧) كما أن دراسة ميدانية لأبواب منازل حارة الأغوات بالمدينة المنورة أثبتت تطبيق هذا الحكم في معظم المنازل التي تضمها الحارة.(١١٨) وفي الطريق الخاصة امتدت الأحكام لتحدد نظام فتح الأبواب والمطلات بنظام معين يحدد طريقة الارتفاق بهذه الشوارع في فتح المطلات والأبواب وما تبع ذلك من حركة المرو (انظر شكل رقم ١٤) . فمثلاً يذكر ابن عابدين ان الطريق « الزائغة » المستطيلة المنحرفة عن الطريق الأعظم التي يتشعب عنها سكة منها غير نافذة ، يمنع أهالي الأولى من فتح باب للمرور ، ولكن يمكنهم فتحات للإضاءة والتهوية ، أما أهل السكة الثانية فلهم فتح الأبواب في حدود نظام معين يحكمه اتجاه المرور في هذه السكة ، بحيث لا تفتح الأبواب إلا في الاتجاه الذي يؤدي إلى الطريق الأعظم ، ويبين ذلك الشكل رقم (١٥) حيث يفتح كل الدار رقم (١) ورقم (٢) على السكة الطويلة الزائغة ، والدار رقم (٣) التي في ركن الطريق المتشعبة غير النافذة ، لو كان لها باب في الطريق الطويلة يمنع صاحبها من فتح باب في المتشعبة غير النافذة ، لأنه ليس له حق المرور فيها ، ولو كان بابها في المتشعبة ، لا يمنع من فتح باب في الأولى الطويلة . أما الدار رقم (٤) التي في الركن الثاني لو كان بابها في الطويلة ، يمنع من فتحه في المتشعبة المذكورة ، وكذلك لو في المتشعبة ، يمنع من فتحه في السكة الطويلة غير النافذة ، لأنها لو كانت نافذة لحق المرور من الجانبين . أما الدار رقم (٥) التي في الركن الأول من المتشعبة الثانية ، فلصاحبها فتح الباب فيها وفي الطويلة بخلاف الدار رقم (٦) ، التي في الركن الثاني من المشتعبة المذكورة ، فإنه لو كان باب فيها يمنع من الفتح في الطويلة لو كانت غير نافذة .(١١٩) وهكذا يتضح إلى أي مدى كانت تتحكم نوعية الشارع في نظام فتحات الأبواب ، التي تؤدي الى المنازل ؛ والتي يتوصل منها إلى هذا الشارع أو ذاك ، وهو أمر غاية في الأهمية لأنه يتعلق بتخطيط أبواب المنازل ومطلاتها ونوافذها واتخاذها اتجاهاً محكوماً بحكم الطريق ذاته ، كما أنه يحدد نظام الارتفاق بهذا الطريق أو ذاك كل حسب حكمه .

وحدد الفقهاء حكم الطرق الخاصة المملوكة ، بما يحفظ الحقوق لأصحابها ، ويحقق مصالح العامة في آن واحد ، فهذه الطرق يختطها أصحاب الملكيات الخاصة ليستفيدوا من استغلال هذه الملكيات ، ويمنعوا حبس العقارات عن الطريق العام ، أو التي لا يصلها بهذا الطريق ممر كاف إذا كان لا يتيسر ذلك إلا بنفقات باهظة أو مشقة كبيرة ، فيكون لأصحابها حق المرور في الأرض المجاورة بالقدر اللازم لاستغلال ارضه ، واستعمالها على الوجه المألوف ، ما دامت هذه الأرض محبوسة عن الطريق العام ، وذلك في نظر تعويض عادل ، ولا يستعمل هذا الحق إلا في العقار الذي يكون المرور فيه أخف ضرراً ، وفي موضع منه يتحقق فيه ذلك ، على أنه إذا كان الحبس ناشئاً عن تجزئة عقار تحت

---

(١١٤) الموصلي ، جـ ٣ ، ص ٣٨٩ ، ابن عابدين ، جـ ٥ ، ص ٣٨٠ - ٣٨٤ .

(١١٥) حكم فتح الابواب والمطلات على الطرق يشترط منع الضرر الناتج عن كشف حرمات البيوت المجاورة .

(١١٦) ابن الرامي ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(١١٧) توريس بالباس ، « الأبنية الإسبانية الإسلامية » ، ترجمة عليه ابراهيم العناني ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد العدد الأول (١٩٥٣م) ، ص ١٢٧ .

(١١٨) انظر شكل رقم ١٣ و Hathloul, pp 111- 114.

(١١٩) ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١٦٠ ؛ عبد الغفار ، السعيديات ، ص ٣٩٧ .

بناء على تصرف قانوني ، وكان المستطاع ايجاد ممر كاف في إجزاء هذا العقار ، فلا يجوز المطالبة بحق المرور إلا في هذه الأجزاء» .(١٢٠)

وحددت الأحكام الفقهية حدود الارتفاق بالدروب المشتركة بين أصحابها وجيرانهم ، وأوضحت ما يجوز وما لا يجوز ، فمن اخرج «روشنا الى درب مشترك أو خرجت اليه اغصان شجرته ، لزمه إزالة ذلك فإن صالح عنه بعوض جاز في الروشن، وفي الشجرة وجهان، ومن ناقل بابه في درب مشترك إلى أوله جاز ، وإن نقله إلى صدره لم يجز ، إلا بإذن من فوقه ، ولا يجوز أن يفتح في ظهر داره باباً في درب لا ينفذ إلا لغير الاستطراق فيجوز ويحتمل المنع ، ومن خرق بين دارين له متلاصقين باباً هما في دربين مشتركين ، واستطرق الى كل واحدة من الأخرى فهل يحوز ؟ على وجهين » .(١٢١)

كما تبين آراء الفقهاء حدود التصرف في هذه النوعية من الطرق ، ونضرب مثلاً لهذا بأنه « إذا كان لأحدهم دار داخل جاره مثلاً ، وطريق في دار جاره فباع الطريق وحده ، ولم يبين قدره ، كان للمشتري من دار الجار بعرض باب دار البائع ، فلو كان لها بابان الأول أعظم من الثاني كان له بقدر الباب الأعظم » . وكذلك إذا قال أحدهم لمشتري بعتك داري الخارجة على أن تجعل لي طريقاً الى داري هذه الداخلية جاز ، وطريقة بعرض باب الدار الخارجة .(١٢٢) وعند بيع الطريق الخاصة يشترط ذكره بمرافقه وحقوقه .(١٢٣)

وفيما يتعلق بالسكة غير النافذة، ذكر أبو حنيفة أنه ليس لأصحابها أن يبيعوها ولو اجتمعوا على ذلك ، ولا أن يقسموها فيما بينهم لأن الطريق الأعظم إذا كثر الناس فيه ، كان لهم أن يدخلوا هذه السكة حتى يخف الزحام.(١٢٤) وهو أمر يبين النظرة الإنسانية الحضارية الإسلامية ، التي تحرص على المنفعة العامة . ومما يدل على الموازنة بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وضع الحدود التي تحكم ذلك ، فيما يتعلق بالطريق ما ذكر من أنه إذا كان هناك « دور بين خمسة ، وباع أحدهم نصيبه من الطريق ، فالبيع جائز وليس للمشتري المرور فيه إلا أن يشتري دار البائع ، وإذا أرادوا أن ينصبوا على سكتهم درباً ويسدوا رأس السكة ليس لهم ذلك لأنها إن كانت ملكاً لهم ظاهراً ، لكن للعامة فيه نوع من الحق»(١٢٥)

الشوارع والطرق وتخطيط المباني

يمتد تأثير الشوارع والطرقات أحياناً الى تخطيط المباني المطلة عليها ، ويختلف هذا التأثير باختلاف العوامل التي تدعو إلى ذلك ، كظروف المساحة التي تنشأ عليها المباني أو وظيفتها .

فأشكال المساحات المبنية في المدينة الإسلامية تتغير من فترة الى أخرى ، كما أن تغير نوعية المباني المقامة عليها قائم أيضاً ، ومسموح به في إطار المبدأ الإسلامي « لا ضرر ولا ضرار » ومع هذه الحالة المستمرة من التغير سواء في شكل المساحة أو وظيفة المبنى المنشأ عليها ، تتكيف المباني الجديدة على المساحات الجديدة مع الشوارع والطرق المطلة عليها تكيفاً يحافظ عن حق الطريق ، ويمكن المبنى من أداء وظيفته .

وتتمثل مظاهر هذا التكيف في مقارنة المباني والشوارع والطرقات في مدينة اقتصرت الحياة فيها على فترة محدودة من الزمن كمدينة سامراء ، وبين مدينة أخرى تتابعت مراحل الحياة فيها لقرون عديدة كمدينة القاهرة . وهي مقارنة يمكن تطبيقها أيضاً بين تخطيط مبان أثرية من فترة واحدة في مناطق المدينة الواحدة ، القديم منها ومناطق الامتداد العمراني في هذه الفترة ، كمباني المماليك في المنطقة التي كانت تشغلها القاهرة الفاطمية ، ومبانيهم في بولاق أو الدراسة .

وتكشف هذه المقارنة عن أن أقدم المباني في المدينة تمتاز مساحتها بالانتظام ، وتحددها خطوط خارجية مستقيمة نوعاً ، اذا ما قورنت بمساحات وحدود المباني في الفترات اللاحقة . فمثلاً كشفت التنقيبات عن بعض دور وقصور

(١٢٠) رمضان ابو السعود ، احكام الحقوق العينية ، (الاسكندرية ، ١٩٧٩م) ، ص ص ٣١ - ٣٨ ، محمد الفائز ، ص ص ٤٩٣ - ٤٩٧ .

(١٢١) محد الدين أبي البركات : المحرر في الفقه على مذهب الامام ابن حنبل ، جـ ١ ، (القاهرة مطبعة السنة المحمدية د. ت.) ، ص ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(١٢٢) ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(١٢٣) ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(١٢٤) ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(١٢٥) ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

سامراء ذات المساحات المنتظمة ، والخطوط الخارجية والداخلية المستقيمة ، نظراً لأن عوامل التغير لم تتح لها الفرصة الكافية لتقسيم المساحات ، وتفرع الطرقات تفرعاً دقيقاً لهجرة المدينة وقصر عمرها ، الذي امتد نحو خمسين عاماً . وتشبه ما كشف من بقايا قصور الفاطميين بمساحاتها المنتظمة ، وخطوطها المستقيمة ، باعتبارها المرحلة الأولى من مراحل بناء المدينة ، بينما تأثرت مساحات المباني في الفترات اللاحقة من العصر نفسه ، لما حدث من تغير . ويعد هذا التغير في شكل المساحات وعدم انتظامها ـ وبالتالي عدم استقامة حدودها الخارجية المرتبطة كذلك بالتفرعات الجديدة من الطرق . مؤشراً اثرياً معمارياً يساعد في التعرف على تاريخ عمارة الموضع المنشأ عليه المبنى .

ونسوق بعض الأمثلة التي توضح مظاهر تأثير الطريق على تخطيط المبنى في ضوء العوامل المؤثرة كالمساحة والوظيفة وغيرها . ففي القاهرة الفاطمية امتد تأثير المحافظة على الطريق ، الى تخطيط المنشأة ذاتها ، فنلاحظ أن تخطيط المباني الأثرية الباقية والتي أنشئت في مرحلة لاحقة لإنشاء القاهرة الفاطمية تأثر إلى حد كبير بتخطيط الشوارع باعتبارها من الثوابت ، فحاول المهندس قدر استطاعته التوفيق بين اتجاه الشارع وبين واجهة المبنى المطلة عليه ، وفي المباني الدينية تدخل عامل ثالث في هذه الموازنة حيث إنه روعي الموافقة بين اتجاه القبلة واتجاه الشارع وخلق مساحة منتظمة من الداخل . ونجح المهندس في ذلك أيما نجاح باستيعاب المساحات الزائدة في عمل حنايا أو حجرات تستغل في أغراض مختلفة ، أو بزيادة سمك الجدران في موضع عن الموضع الآخر ، واستغلال هذا السمك في اغراض إنشائية باتخاذه قاعدة لمئذنة أو غير ذلك . ويعتبر المسجد الأقمر من أوضح الأمثلة المبكرة التي اتبع فيها المعمار هذا التخطيط (انظر شكل رقم ١٦) ثم تكرر هذا الأمر في كثير من المباني المملوكية والعثمانية ، التي أنشئت في مرحلة لاحقة ، ومقارنة بسيطة بين مخططات المباني المملوكية في قاهرة الفواطم ، وبين مبانيهم في قرافة المماليك ، تؤكد هذا الأمر ، فقد تأثرت المباني داخل قاهرة الفواطم ، بعدم توافر المساحات المنتظمة التي اعيد بناؤها فاختلف سمك جدرانها وتأثر انتظام خطوطها بتلك المساحات ، عكس منشآت الصحراء التي توافرت لها المساحة وانتظمت ، فجاءت التخطيطات ومدرسة الخطوط منتظمة المساحات . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مدرسة برقوق ومدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش ومدرسة السلطان برسباي بالأشرفية وغيرها (انظر شكل رقم ١٧) .

ومن أمثلة المنشآت المملوكية الرائعة ، التي تدل على مدى التأثر في التخطيط بحق الطريق ، جامع قجماس الاسحاقي الذي يمكن أن نقول أن واجهاته الأربع حكمها إلى حد بعيد الشوارع المطلة عليها هذه الواجهات فانكسرت اكثر من مرة واخذ الجامع هذا التخطيط انعكاساً لهذا التأثر . هذا بالاضافة إلى أن هذا الموقع الذي شغله الجامع باطلاله على اكثر من شارع كان له تأثير في استغلال الطابق السفلي منه في عمل حوانيت ، فجاء الجامع معلقاً كمحاولة لاستغلال الشوارع التي يطل عليها الجامع ، وهو أمر نلاحظه في كثير من المنشآت الدينية المملوكية (انظر شكل رقم ١٨) .

ومن آثار تأثير الطريق على تخطيط المنشأة وتوزيع وحداتها المعمارية على مساحتها ، ما نراه في تلك الأضرحة والأسبلة التي الحقت بالمنشآت الدينية المملوكية بالقاهرة ، فالسبيل والضريح من الوحدات المعمارية التي دعت الضرورة ان تطل على الشارع . وكان حرص المعمار الملسلم على تحقيق ذلك واضحاً في المنشآت التي تتضمن مثل هذه الوحدات . فجعلها مطلة على الطريق الرئيسي الذي تطل عليه المنشأة . واتصل هذا ايضاً بظاهرة قراءة القرآن في أحد شبابيك الضريح المطلة على الشارع ، وهي ظاهرة انتشرت في هذا العصر ، ولشيوع هذه الظاهرة انسحبت تسمية « قارىء الشباك » على كل من يقرأ القرآن بشباك الضريح ليسمع العامة المارين بالشوارع . وكان هذا الشباك بمثابة عنصر اتصال يصل ما بين العامة في الطريق والقارىء الجالس فيه . لذا كان الحرص شديداً على عمل هذا الشباك بواجهة الضريح المطلة على الشارع ، حتى لو اقتضى الأمر الغاء المحراب الذي كان يقع بنفس الحائط المطل على الضريح ، والذي عادة ما ينشأ في جدار القبلة مثل ما حدث في مدرسة السلطان برسباي بالأشرفية بشارع المعز لدين الله « الشارع الأعظم » (انظر شكل رقم ١٧) وكان هذا الأمر وراء اتخاذ بعض المنشآت المطلة على الشارع بواجهة ضيقة ، تخطيطاً

معيناً ، يتيح استغلال هذه الواجهة للضريح ومدخل يؤدي إلى بقية وحدات المنشأة خلف الضريح كما حدث في خانقاة بيبرس الجاشنكير بالقاهرة (انظر شكل رقم ١٩) بل أن هذا الأمر ربما كان وراء اختيار السلاطين والأمراء مواضع لمنشآتهم مطلة على الطريق الأعظم ، ولا أدل على ذلك من تلك المنشآت الدينية المملوكية ، التي تصطف على جانبي الشارع الأعظم في قاهرة الفواطم ، في تجاوز واتصال مستمر مثلما نراه في خانقاة برقوق ، ومدرسة الناصر محمد ، ثم مجموعة قلاوون ، ومدرسة السلطان برسباي ، فمجموعة السلطان الغوري ثم جامع المؤيد شيخ الخ . . .

أما السبيل ـ تلك الوحدة المعمارية التي أنشئت خدمة للمارة بشوارع المدينة ـ فكان إنشاؤها مطلة على الطريق لضرورة وظيفية ، ولذلك كانت واجهة السبيل جزءاً من أجزاء الواجهة الرئيسة المطلة على الطريق . وكذلك نلاحظ حرص المعمار ، على أن يشغل السبيل الركن الذي تطل به المنشأة على شارعين ، إذا توفر ذلك ، كما هو الحال في مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش ومدرسة السلطان برسباي بالأشرفية بالقاهرة (انظر شكل رقم ١٧) . بل كلما سنحت الفرصة في التخطيط أن يكثر المعمار من واجهات السبيل المطلة على الشارع فعل ذلك ، كما هو الحال في السبيل الملحق بمجموعة السلطان الغوري ، الذي اشتمل على ثلاث واجهات . ولا شأن أن وقوع هذه الأسبلة مطلة على أكثر من شارع ساعد على سهولة تزويدها بالماء عن طريق الروايا المحمولة على الدواب . وتسهيلاً لمرور العامة في الطرق الضيقةالمتفرعة من طرق أوسع شطفت أركان المباني في نقطة الاتصال . (لوحة رقم ٦) .

وهناك علاقة تأثير واضحة بين الطريق وشكل واجهات المنشأة الدينية المطلة عليه من حيث توزيع النوافذ والمطلات والمداخل ومحاولة استغلال ذلك أقصى استغلال لصالح المنشأة . ومن أوضح الأمثلة التي يمكن أن نسوقها على ذلك بمدينة القاهرة جامع قجماس الإسحاقي ، الذي يطل بواجهات أربع على أربع شوارع من الجهات المختلفة، مما مكن المعمار من استغلال ذلك في عمل الحوانيت بالطابق السفلي ، واستغل المساحة الداخلية في عمل مخازن « حواصل » يتوصل اليها من مدخل متسع في الواجهة الشرقية ، وانكسرت استقامة الواجهات أكثر من مرة مما كان له تأثير على توزيع فتحات المدخل والنوافذ بها بطريقة تحقق الغرض الوظيفي ، والقيمة الجمالية في أحسن مستوى في عمائر القاهرة المملوكية (انظر شكل رقم ١٨) .

ومن المنظور الوظيفي كان الشارع في المدينة الإسلامية ـ في المقام الأول ـ عنصر اتصال وحركة ، سيما وأن الاعتماد عليه لم يكن أساسياً في التهوية والإضاءة ، فقد اعتمد تخطيط المباني في المدينة الإسلامية غالباً على الفناء المكشوف في وسط المبنى ليزوده بما يحتاج اليه من تهوية وإضاءة ومطلات . وقد ساعد على انخفاض درجة الحرارة في الفناء ، ما توفر له من نسبة ظل ناتجة عن تقابل أضلاعه ، مع اشتماله غالباً على فسقية ، وبعض المساحات الخضراء . وأثبتت التجربة أن الحرارة في الفناء تنخفض غالباً درجتين عن درجة الحرارة في المنطقة المجاورة ، مما ساعد بالتالي على ايجاد تهوية جيدة دون تلوث ، حيث إن الفناء بدرجة حرارته المنخفضة ، أصبح منطقة ضغط ، وأن الشارع أصبح منطقة تفريغ ، مما أوجد تيار هواء مستمر من الفناء الى الشارع .[(١٢٦)]

كما أن جعل المطلات الى الداخل مطلة على الفناء يوافق أكثر طبيعة المجتمع الإسلامي ، الذي يميل الى حجب النساء وكان لهذا أثره أيضاً في تصميم المطلات وتخطيطها ، واستخدم الطابق الأرضي غالباً في التخزين ، وما شابه ذلك ، وقلت عدد النوافذ به وصغر حجمها[(١٢٧)] ، ثم يعلو ذلك الطابق الرئيسي وغالباً ما يكون مستواه مرتفعاً نسبياً عن الأرض في وقاية من عيون المارة . وحتى يتمكن من بالداخل من رؤية الشارع من خلال المطلات دون أن يتعرض لرؤية المارة به ، كانت « المشربيات » والستائر الخشبية المصنوعة من خشب الخرط تحقق هذا الغرض بنجاح[(١٢٨)] وتحقق

---

(١٢٦) علي بسيوني «الفناء كعنصر هام في المدينة العربية » مقال بكتاب المدينة العربية ؛ خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي ، المعهد العربي لإنماء المدن ، ١٩٨٣م) ، ص ٨٧ .

(١٢٧) انظر لوحة (٥) و .King p. 119 .

(١٢٨) اسمهان صوفان « الحي السكني في المدينة العربية المعاصرة » مقال

بجانبه أهدافاً أخرى كتقليل نسبة الضوء[١٢٩] ونسبة اندفاع الهواء . ويؤكد ذلك تنويع أحجام الخرط والمساحات المتروكة بين وحداته في هذه المشربيات من الضيق والدقة الى الاتساع والحجم الكبير كلما ارتفعنا . وتعتبر مشربيات منازل رشيد ـ التي اعتمد في تهويتها وإضاءتها على الشوارع لظروف مناخ المدينة ، أروع مثل على ذلك ، وتكررت أمثلتها في العديد من المدن الإسلامية المطلة على البحر الأحمر كجدة وسواكن وغيرها .

وقد امتدت هذه التأثيرات الى نوعيات المباني المختلفة كالوكالات والقياسر والرِبَاع وغيرها من المنشآت التي تضم وحدات سكنية في طوابقها العليا .

وكان للرغبة في عدم اتصال المنازل مباشرة بالطريق العام ، أثر واضح في تخطيط مداخلها فكان الاتصال من خلال مداخل منكسرة غير مباشرة (انظر شكل رقم ٢٠) ، حتى تقي من بالداخل من أعين المارة بالشارع ، وتعطي فرصاً لمن بداخل الفناء من أن يتقي أعين الزائرين .[١٣٠] وقد انتشرت هذه الظاهرة في جميع المدن الاسلامية تقريباً، فنراها في منازل الفسطاط الباقية وقاعة الدردير وما بقي من منازل العصر العثماني في مدينة القاهرة ، وواضحة فيما تبقى من منازل وقصور في مدينة الدرعية[١٣١] ودومة الجندل[١٣٢] وكان يطلق على هذا الممر « الدهليز » ويطلق عليه في منازل البصرة المجاز .[١٣٣]

وفي بعض المدن الإسلامية كان للمنازل كوى متعددة ، تمكن السكان من التعرف على هوية الزائر قبل السماح له بالدخول[١٣٤] وهكذا كان تخطيط المداخل المنكسرة الذي اشتمل غالباً على « دركاه » تؤدي الى « دهليز » يوصل الى « فناء المنزل » أو « مرصة الدار » أو « باحتها » متأثراً في تخطيطه بالعلاقة المحددة بين الشارع والمنزل المطل عليه ، وتحكمها قيم المجتمع الإسلامي .

وربما تؤثر طبيعة العصر على اتصال المبنى بالشارع ، كما حدث في العصر المملوكي ، الذي انتشرت فيه الفتن والاضطرابات بين الأمراء ، وكان لهذا المناخ أثره في انتشار ما يسمى « بباب السر » ، الذي يصل المبنى بأحد الشوارع الجانبية[١٣٥] التي يطل عليها ، وكان القصد من إخفاء مظهر الباب واضحاً من وضعه في أحد الواجهات المطلة على أحد الشوارع الجانبية ، وفي بساطة تكوينه المعماري . فقد كان غالباً مدخلاً منزوياً يُمكن من بالمبنى ، من الهرب إذا ما تعرض للحصار والخطر . ومقارنة بين المدخل الرئيس للمبنى ، وبين باب السر فيه ، تظهر فوارق التكوين والتصميم المعماري ، وهي فروق تحكم فيها الى حد بعيد الوظيفة والغرض الذي أنشىء من أجله، ويرتبط تصميمه وتخطيطه المعماري الى حد ما بالشارع المؤدي اليه هذا المدخل أو ذاك .

وارتبطت تعلية المباني في المدينة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بحقوق « المار والجار » التي أكدتها وحددتها الشريعة الإسلامية في حدود المبدأ الإسلامي « لا ضرر ولا ضرار »[١٣٦] ما كانت هذه التعلية تسبب ضرراً لأي منهما منع ذلك ، وإن كان العكس فلا يوجد عندئذ ما يمنع التعلية . وكان ذلك يتم بمعرفة السلطات القضائية ، والجهات التنفيذية المختصة .[١٣٧] وتتضمن بعض الوثائق المملوكية أمثلة واضحة على ذلك ، فقد ورد بإحدى الوثائق ما يشير مثلاً الى أن كل من بيبرس الناصري ، وناصر الدين الصواف ، قدما طلباً أو التماساً للسلطات القضائية راغبين التعديل أو الزيادة في عمائرهما بالقاهرة ، وعرض الأمر على القضاة

= بكتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي ، ص ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(١٢٩) جاك . س . ريسلر ، **الحضارة العربية** ، ترجمة غنيم عبدون ، د. أحمد فؤاد الأصواني (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٧) ، ص ٦٣ .

(١٣٠) جرجيس ، ص ٧١ .

(١٣١) من أهم هذه القصور قصر سلوى وقصر سعيد .

(١٣٢) إدارة الآثار والمتاحف بالمملكة العربية السعودية ، مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، (الرياض ، ١٩٧٥م) ، ص ٢٨ .

(١٣٣) جرجيس ، ص ٥١ .

(١٣٤) لوتورنو ، ص ١٤٠ .

(١٣٥) من أمثلة المنشآت الدينية التي تضمنت مثل هذه الأبواب مدرسة برقوق (وثيقة وقف ٥١/٨ محكمة) ، ومدرسة برسباي بالاشرفية بالقاهرة . (وثيقة وقف ٨٨٠ أوقاف) .

(١٣٦) ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ٣٨٠ .

(١٣٧) ابن الرامي ، ص ١٢٢ .

الذين أبدوا موافقتهم ، بعد أخذ رأي المهندسين المختصين ويوضح نص الوثيقة ذلك بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه .

المملوك من بيبرس الناصري

يقبل الأرض بين يدي سيدنا ومولانا قاضي القضاة ، شيخ الإسلام ، ملك العلما الأعلام ، أمتع الله بوجوده الأنام ، وينهى أن من الجاري في ملكه بناكاين مجاور لحوش العرب بالقرب من جامع كزل بغا قريباً من شق الثعبان ، والبنا المذكور به واجهة دايرة بعضها على الطريق السالك وبعضها مطل على حوش العرب وبالواجهة المذكورة باب مقنطر، عليه فردة باب من الجهة الغربية على الطريق المسلوك . وقد قصد المملوك أن يعلى على الواجهة الدايرة المذكورة ، رواق كامل المرافق والحقوق من غير بروز الطريق المسلوك ، ولا بحوش العرب من غير ضرر لجار في جدار ولا ما بالطريق » .

وقام أحد نواب الحكم العزيز (نائب أحد قضاة القضاة من ذوي المذاهب الأربعة) بتحويل ذلك الطلب الى « المهندسين من أرباب الخبرة بالعقارات وعيوبها ـ المندوبين لذلك من مجلس الحكم العزيز بالديار المصرية . . . الى حيث البنا القائم . . . » وقام المهندسان بمعاينة ذلك في يوم الاثنين ٢٤ صفر سنة ٩٠٢ هـ وشهدا بذلك وهما محمد بن علي بن حسن المهندس المعروف بابن زقلمه وبابن الشيخ وعبد القادر بن علي المهندس » ، وأذن له القاضي في فعل ما قصد فعله من البنا والتعلية وفتح الطاقات والشبابيك . . . من غير ضرر للمار ولا بنا جار حكماً واذنا صحيحين شرعيين تامين معتبرين . . . »(١٣٨)

وكذلك ملتمس المملوك ناصر الدين الصواف بالاذن له « . . . بأن يبرز بثلاثة أضلاع خشب ويعلى على ذلك واجهة غرد وبروز كل واحد من الأضلاع (. . . . .) ذراع بذراع العمل من غير ضرر بمار ولا بناء جار . . . » وقام المهندسان بمعاينة ذلك في ١١ جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ هـ وكتبا بموافقتهما على ذلك للشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد عبد الكافي الشافعي ، الذي أذن بذلك في جلسة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ هـ ، اذنا شرعياً تاماً معتبراً مرضياً مستوفياً شرايطه الشرعية ، وشهد بذلك المعلم أحمد بن محمد بن عثمان بالخدمة الشريفة السلطانية المعروف بشهاب الدين ، والمعلم أحمد بن علي بن أحمد المهندس بالخدمة الشريفة السلطانية المعروف بابن الشريفة » .(١٣٩)

وهناك علاقة واضحة بين نوعية الطريق ، وبين توزيع أسواق الشوارع في المدينة الإسلامية ، فقد انتشرت هذه النوعية من الأسواق على جانبي الشوارع العامة لاتساعها وحرية المرور فيها ، وضمرت في الطرق الخاصة غير النافذة لطبيعة المرور فيها ، ولتجنيب المنازل أذى الكشف ، الذي يتسبب عن بناء حانوت في هذا الطريق أو ذاك ، لا سيما وأن ضرر الكشف من حانوت بيّن . وعندما كانت الظروف تدفع الى ضرورة استغلال بعض المساحات المطلة على هذه النوعية من الطرق ، في بناء المنشآت التجارية ، كانت تبني بالهيئة التي تحافظ على حرمات المنازل المطلة على هذا الطريق أو ذاك ، ومن ثم اتخذت هيئة الوكالات والقياس والخانات التي تطل حوانيتها على فناء وسطها ، فتكون بهذه الهيئة مغلقة على نفسها، ولا تؤذي الوحدات السكنية المجاورة .(١٤٠)

الشوارع والمناخ :

كان توجيه الشوارع من المحاولات البارزة في التخطيط لمقاومة العوامل الجوية ، فمن المدن ما وجهت شوارعها الرئيسة الكبيرة من الشمال الى الجنوب حتى تكون عمودية مع حركة الشمس الظاهرة ، وهذا يجعل الشوارع تكتسب ظلاً طوال النهار بالإضافة الى اكتسابها للرياح الشمالية ، التي تساعد على استمرار برودتها أطول فترة ممكنة نسبة التظليل العالية في هذه الشوارع . وقد تجلت هذه الظاهرة في أروع

---

(١٣٨) وثيقة انسباي من بيبرس الناصري ٢٢٠ محكمة ، د. عبد اللطيف إبراهيم علي ، الوثائق في خدمة الآثار « مقال بكتاب دراسات في الآثار الإسلامية (القاهرة : المنظمة العربية للثقافة والعلوم ، ١٩٧٩م).

(١٣٩) وثيقة ناصر الدين الصواف ٢٦٨ محكمة ، علي ، ص ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(١٤٠) عثمان ، المدينة الإسلامية « المدخل » ، الفصل الخامس المرافق العامة : « الأسواق »، تحت النشر .

أمثلتها في القاهرة (شكل رقم ٣) وسارت على هذا التخطيط مدن صعيد مصر وكذلك مدن المناطق الحارة من العالم الاسلامي ، ولعل اتجاهات شوارع مدينة الدرعية الباقية تؤكد هذه الحقيقة فمعظمها سيما الشوارع الرئيسة تتجه نحو الشمال . وفي المناطق الباردة تأخذ الشوارع شكلاً عكسياً فيتغلب على الاتجاهات الاتجاه الشرقي الغربي لاكتساب أكبر قدر من الشمس طوال النهار ، ولتجنب الرياح الشمالية والشمالية الغربية التي تهب عليها طوال العام(١٤١) وأمثلة ذلك واضحة في اتجاهات شوارع المدن الساحلية في المناطق التي تتعرض للرياح الشديدة الباردة شتاء حيث خططت الشوارع بها باتجاه يوازي البحر لتكون التكوينات المعمارة على جانبيها بمثابة حائط صد لهذه الرياح مثلما حدث في الإسكندرية . كما أن اتساع الشوارع النسبي في مدن أوربا في العصور الوسطى كان لتحقيق نسبة أفضل من الإضاءة في هذه البلاد التي تنخفض فيها نسبة سطوع الشمس الى حد كبير بالمقارنة بالمدن الإسلامية الواقعة في المنطقة الحارة وربما كان لعامل المناخ وتسهيل نقل البضائع الواردة والصادرة في المدن الساحلية الإسلامية أثره في اتساع شوارعها النسبي كالمرية والاسكندرية وتونس ومدينة رباط الفتح(١٤٢) ورشيد (انظر شكل رقم ٢١) ، مثلما كان له أثره بصفة عامة في تنوع اتجاه الشوارع الرئيسة المختلفة مما أدى الى تنوع تخطيطاتها .

وكما تأثرت التكوينات العمرانية في المدينة بعامل المناخ ، تأثرت أيضاً الشوارع ، التي هي بمثابة الشرايين التي تصل بين هذه التكوينات . وكذلك أدى صغر مساحة المدينة وحب التآلف والتقارب ويسر التوصل الى أي موضع مشياً على الأقدام ، الى ترتيب أوضاع التكوينات المعمارية بطريقة متجاورة ساعدت الى حد كبير في التغلب على حرارة الجو وشمسه الساطعة . فقد أدى ذلك الى « تحقيق ظل ذاتي نتج عن استغلال تظليل المباني المتجاورة ، كوسيلة طبيعية لعزل الواجهات الخارجية للمباني ، وكذلك كل الشوارع وممرات المشاة . وقد حتمت تلك الرغبة توجيه التكوينات المعمارية بالأوضاع التي تحقق ذلك وتهيئها بصورة طبيعية ، تحقق بعضها من السيطرة على مختلف الظروف المناخية العامة » .(١٤٣)

ظل معقولة لهذه الشوارع . فقد تراوحت نسبة ارتفاع المباني الى عرض الشارع بين ٢ : ١ وأحياناً ٣ : ١ أو ٤ : ١ ،(١٤٤) وقد زاد من نسبة التظليل تلك الراشن والأجنحة ، التي كانت تبرز الى عرض الشارع في الطوابق العليا من المباني ، وتلك العناصر المعمارية التي تعلو الشارع لتربط بين المباني على جانبيه كالساباط أو « القناطر » التي كانت تفتح ويبنى فوقها لاستغلال المساحة ـ وهذه الظاهرة واضحة فيما تبقى من « قناطر » مدينة الموصل . وما بقي في بعض الشوارع القديمة بمدن نجد(١٤٥) كالرياض وسدوس وشقراء وغيرها. وحماية لبعض الشوارع التي تتميز بنشاط تجاري خاص ، يتأثر بالعوامل المناخية بصورة مباشرة ، غطيت هذه الشوارع لحمايتها من هذه العوامل الجوية .(١٤٦)

الرحاب والميادين

تضمنت المدن الاسلامية المبكرة كالبصرة والكوفة والفسطاط في خططها مساحات خالية من البناء كان يطلق عليها « الرحاب » . تركت لتستخدم في أغراض مختلفة ، فقد أشارت المصادر الى أنها تركت لتكون « مرابط لخيلهم وقبور موتاهم » ، وكانت هذه الرحاب متسعة فسيحة فقد بلغ « طول ضلعها ستون ذراعاً » .(١٤٧)

وإذا كانت المساحات متوفرة في المدن غير المحصنة ، فإنها محدودة في المدن المحصنة ، مما أثر بالتالي على تضمين هذه المدن الميادين والرحاب وجعلت المقابر خارج

---

(١٤١) حمدي إبراهيم الديب ، مدينة قنا ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة القاهرة ـ قسم الجغرافيا ، ١٩٨٠م ، ص ٢٣٥.

(١٤٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٩م) ، ص ١٢١.

(١٤٣) معاذ أحمد محمد عبد الله ، المناخ والعمارة دراسة تحليلية للعوامل المناخية وآثارها على عمارة المناطق الحارة . رسالة ماجستير مقدمة لكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية ١٩٨٠م ، ص ٢١٧.

(١٤٤) صالح لمعي مصطفى ، النمو المعماري وخصائصه في المدينة المنورة ، مقال بكتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري ، ص ١٥٠.

(١٤٥) عبد الجبار جرجيس ، ص ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

(١٤٦) لمعي مصطفى ، ص ١٥٠.

(١٤٧) الماوردي ، ص ٢٠٣.

أسوارها . وتعتبر بغداد في عهد المنصور من أوضح الأمثلة على هذه النوعية من المدن ، فلم تشتمل على مثل هذه المرافق التي تحتاج الى مساحة كبيرة كالميادين والبساتين وغيرها ، وكان ذلك موضع انتقاد واضح لها .(١٤٨)

ولكن هناك من المدن المحصنة ما خطط على الرسم الملكي كمدينة القاهرة ومن ثم فقد تضمن تخطيطها ميادين ورحاب تتلاءم ومظاهر الحياة الملكية فيها ، فقد تضمنت القاهرة « ميدان بين القصرين » الذي هو من الترتيب السلطاني فقد اشتمل على ساحة للعسكر والمتفرجين ،(١٤٩) وقد ذكر المقريزي أن هذا الميدان كان يتسع لعشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، ومن أهم ميادين القصر أيضاً ميدان أو « رحبة باب العيد » التي كانت تبدأ منها مواكب الخروج لصلاة العيد في مصلى العيد خارج باب النصر ، وكانت رحبة عظيمة متسعة . وكذلك رحبة الجامع الأزهر وغيرها من الرحاب التي تغيرت بالبناء فيها ، فتذهب الرحبة ويبقى اسمها ، أو يبنى فيها ، ويذهب اسمها ويجهل ، وربما حدث العكس فينهدم البناء ويصبح موضعه رحبة وهكذا ، ولكن ما ذكره المؤرخون المهتمون بالخطط ، إحصاء لأهم هذه الرحاب ، يوضح لنا الأعداد الكبيرة منها والتي انتشرت في المدن الاسلامية ، فقد ذكر ابن دقماق أشهر أربع وثلاثين رحبة في الفسطاط ، وأحصى المقريزي خمسين رحبة من قاهرة المماليك » .(١٥٠)

وكانت هذه الرحاب نقطة التقاء لمجموعة من الشوارع أو السكك أو الأزقة أو قطاعا منها ، فكانت تيسر المرور لاتساع مقاييسها عن مقاييس الشوارع ، وكان اتساعها مشجعاً للباعة الجائلين على ممارسة نشاطهم بها ،(١٥١) مما أدى الى تسمية الرحبة باسم التجارة التي تمارس فيها « كرحبة البصل » أو « مربعة القزاز » في دمشق . وقد تشمل الرحبة على أحد المرافق العامة ، ومن أمثلة ذلك الرحبة التي كانت أمام مسجد الدرعي بالفسطاط ، فقد اشتملت على بئر سابلة »(١٥٢) ورحبة عقبة العداسين التي كان بها بئر سابلة كذلك ،(١٥٣) وقد انتشرت الصهاريج التي يستخدمها العامة في المناطق العقدية لقنوات الماء في شوارع مدريد(١٥٤) والتي غالباً ما تكون في مناطق متسعة تلتقي عندها الشوارع كهيئة هذه الرحاب. وكان يطلق على هذه الرحاب أحياناً مصطلح « العرصة » وهي الساحة الخالية من البناء ، والتي ربما كانت أقل اتساعاً من الرحبة أو انها رحبة صغيرة ، وأحياناً أخرى يطلق عليها « المربعة » .

ولم تكن بالمدن الإسلامية في العصور الوسطى ميادين عامة كالتي توجد بمواجهة الكنيسة في المدن الأوروبية في العصور الوسطى وإنما اشتملت على ميادين لاستعراض الجند والألعاب المختلفة من سباقات وغيرها أوالمصلى الذي يجتمع فيها المصلون لصلاة العيد .(١٥٥)

جمالية الشوارع :

ومن الناحية الجمالية فإن شوارع وطرق المدينة الإسلامية بمقاييسها وأشكالها ، واتجاهاتها المتنوعة ، وعلاقاتها بالتكوينات المعمارية الأساسية والثانوية ولدت قيماً جمالية أصيلة ، يمكن استقراؤها من تحليل نوعيات الجمال المختلفة سواء كان الجمال حسياً أو عاطفياً أو فكرياً تجريدياً أو وظيفياً .(١٥٦) ففي إطار نسبة المقاييس نجد أن علاقة الشارع بالإنسان علاقة انسانية منطقية تشعره بكيانه ، فهو يسيطر عليها سيطرة كاملة خلاف ما نجده مثلاً في شوارع المدينة المعاصرة ، حيث يسيطر الشارع على الإنسان وحركته(١٥٧) وكان لحرية التخطيط أثرها الواضح في اتخاذ الشوارع أشكالاً متنوعة ، فحرية المسقط الأفقي المتاحة للمخطط في المدينة الإسلامية، أعطته الحرية الكاملة في عملية الإبداع من ناحية أطر الشوارع وعرضها والساحات

---

(١٤٨) اليعقوبي ، ص ٣١١ ، سلمان وآخرون ، ص ٤٧ .

(١٤٩) ابن سعيد ، ص ٢٤ .

(١٥٠) المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن دقمان ، ص ص ١٥ ـ ٣٧ .

(١٥١) Nikita Eliseef, «Physical lay-put» in R. Serjand (ed) **Islamic City,** Selected papers form the Collagium held at Middle East Center, Faculty of Oriental Studies, Cambridge, United Kingdom, from 19 - 23, July 1976, Published by Unisco, p. 100.

(١٥٢) ابن دقماق ، ص ١٩ .

(١٥٣) ابن دقماق ، ص ٣٦ .

(١٥٤) محمود مكي ، ص ٦٠ .

(١٥٥) Eliseef, P. 100 .

(١٥٦) عرفان سامي ، ص ص ١٥ ـ ١٨ .

(١٥٧) اسمهان صوفي ، ص ٧٧ ، انظر لوحة رقم (٧) .

الصغيرة المتفرعة منها واليها . وعكست حرية المسقط بدورها عدم الرقابة فيه وفي المساقط الرأسية(١٥٨) للشوارع ، فالسائر في الشوارع لا يشعر بالملل ، لأنه باستمرار يشعر بالتغيير في الشارع والساحة من حيث الاتساع والضيق . كما أن عدم المبالغة في الرؤية المنظورية نظراً لعدم حتمية امتداد الشوارع الى مسافات طويلة ، سهل حركة المرور ويسر للمخطط إنهاء الشوارع وانعطافها ، وبذلك فإن الإنسان يحدد رؤيته المنظورية داخل إطار إنساني معقول وجميل ، وهذا بخلاف الرؤية المنظورية اللانهائية التي نلاحظها في المدن المعاصرة .(١٥٩) .

كما أن السير في شوارع المدينة الإسلامية باتجاهاتها المتنوعة ، أدى إلى إعطاء الفرصة للتجول البصري ، وتقسيط المسافات واتاحة الفرصة للتأمل الهادىء وعدم الملل ، هذا بالإضافة ، الى أن تدرج القطاع الخارجي للمباني أدى الى تنوع طرق التشكيل البصري للشوارع ، كما أن استعمال التشكيل الهندسي الذي ارتبط بوحدة متكررة في تصميم الرواشن والمشربيات(١٦٠) زاد من جمالية هذه الشوارع .

وتخلصت شوارع المدينة من جميع العناصر المعمارية والزخرفية ، التي اتصلت بحياة المجتمع في المدن السابقة على الإسلام ، سواء كانت هذه العناصر ذات دلالات طقسية ، أو أنها كانت في إطار الرسوم والتقاليد المتبعة في هذا العصر أو ذاك ، فلم توجد في شوارع المدن الإسلامية مثلاً صفوف الأعمدة على جانبي الشوارع ، أو أقواس النصر التي شاعت بالمدن الرومانية . وكان تجميل الشوارع محدوداً بمداخل وواجهات العمائر والمباني المطلة عليها .(١٦١) وقد تطورت زخرفة المداخل وأشكالها وواجهات العمائر ، وانعكس هذا التطور في جمالية شوارع المدن الإسلامية ، فشكلت المداخل المرتفعة والبارزة أحياناً ـ وما يكسوها من زخارف محفورة أو ما يكسوها من رخام أو بلاطات الخزف وما يتوجها من حطات المقرنصات البديعة ـ عناصر جمالية واضحة ، وكذلك الواجهات التي بنيت بأساليب معمارية زادتها جمالاً « كطراز الابلق » و « الهزرباف » وغيرها ، وما اشتملت عليه من صفوف النوافذ خاصة في المنشآت العامة ، وما تقدم مطلاتها من رواشن ومشربيات في المباني السكنية ، وما اشتملت عليه هذه الواجهات من أنواع وأساليب التجميل الزخرفي الشائعة في الفنون الإسلامية ، كالحنايا التي تتوجها المقرنصات ، وأشرطة الكتابات المحفورة ، والتكسيات بالرخام أو بلاط الخزف ، وتلك الشبابيك المصنوعة من النحاس المفرغ والمصبوب أو الخشب المنجور وغيرها من العناصر الزخرفية والمعمارية ، التي جملت واجهات المباني . هذا بالإضافة الى الاهتمام بواجهات المباني الدينية ، وتتويجها بالشرافات ، وإبراز مآذنها وقبابها بجعلها مطلة على الشارع . كل هذه العناصر الزخرفية أعطت الشوارع في المدن الإسلامية صيغة جمالية مميزة .

وتؤكد المقارنة بين الانتقال غير المنطقي في المدينة المعاصرة من شوارع متسعة الى بيوت ضيقة ، تشعر ساكنيها بالضيق لصغر عالمها ، وبين الانتقال المنطقي في شوارع المدينة الإسلامية ذات الاتساع المحدود الى منازل رحبة واسعة ، يشعر الإنسان فيها وكأنه يملك العالم بأسره ، قيمة جمالية إنسانية نفتقدها في مدننا المعاصرة ، ذات الشوارع المتسعة اللاإنسانية وبيوتها الضيقة، التي لا تتعدى مساحتها غالباً ٨٠ متراً .(١٦٢)

والى جانب هذه القيم الجمالية لشوارع المدن الإسلامية فإنها امتازت عن شوارع مدن العصور الوسطى المعاصرة لها بأنها كانت تتسم بالنظافة المستمرة التي كفلها نظام الحسبة المتبع في المدن الإسلامية . كما أنها مهدت تمهيداً جيداً، ومنها ما بلط في بعض المدن وأنشئت لبعضها الأرصفة الجانبية الجميلة ، كما اهام باضاءتها ليلاً لتأمين المارين بها بينما « لم تحظ شوارع لندن بمصباح واحد ولم تمهد شوارع

(١٥٨) تميزت المدينة الإسلامية عن المدينة اليونانية بحرية في التخطيط عكست الواقع الاجتماعي للموقع الإسلامي الذي يؤمن بحرية الفرد في اطار الصالح العام ، ويستدل بعض الباحثين على هذه الحرية بتخطيط الشوارع في المدينة الإسلامية ومقارنته بتخطيط شوارع المدينة اليونانية والرومانية (حماد ، ص ص ١٢٥ ـ ١٢٦) .

(١٥٩) اسمهان صوفي ، ص ٨٠ .

(١٦٠) لمعي مصطفى ، ص ١٥٠ ، انظر لوحة رقم (٨) .

(١٦١) Eliseef, p. 98 .

(١٦٢) اسمهان صوفي ، ص ٨٠ .

باريس الا بعد ذلك بعدة قرون » .(١٦٣)

وكان للتوجيهات الإسلامية من وجوب كف الأذى عن الطريق ، أثره في الاهتمام بهذه الطرق والمحافظة عليها ، وإزالة أي عوائق توجد بها ، وتأمين المارة بها . كما أن أحكام الشريعة حددت نظم وطرق الارتفاق بها مما سهل المرور فيها ، وجنب أي ضرر للمارة ، ولأصحاب المنازل المطلة عليها . ولا شك أن سلامة الأداء الناتجة عن تطبيق هذه الأحكام ، له في حد ذاته قيمة جمالية وظيفية واضحة .

كما أن قيام المحتسب ومعاونيه بواجباتهم كاملة في المحافظة على حق الطريق في إطار القيم الإسلامية ، أدى الى احتفاظ شوارع المدينة بهذه القيم الجمالية الأصيلة .

وهناك نوعية أخرى من الطرق التي اهتم بعمارتها وتجميلها لاعتبارات خاصة ، فقد اشتملت بعض الطرق المؤدية الى قصور الحكام على بوابات خاصة تحكم نقطة الاتصال بين الممرات الداخلية لهذه القصور ، وبين هذه الشوارع مثل تلك البوابة التي أُنشئت على الطريق المؤدي الى قصر أحمد بن طولون ،(١٦٤) وتلك البوابات التي كانت تربط بين شوارع سامراء الرئيسة وقصور الخلفاء بها(١٦٥) وغيرها من الأمثلة كثير . لكن هناك من الطرق ما أنشىء لغاية جمالية مقصودة كذلك الطريق الذي أُنشىء في أصفهان ، والذي أصدر أوامر إنشائه الشاه عباس . وهو طريق يمتد من ميدان نقش جيهان ويعبر نهر « زاينده » عبر قنطرة عرفت باسم « قنطرة الله وردى خان » ، ثم يمتد حتى أسفل الجبل الموجود جنوبي أصفهان . وغرست على جانبيه أربعة صفوف من شجر الدلبا ، ولهذا عرف بشارع الحدائق الأربع . وقد بلغ طول هذا الطريق أكثر من ثلاثة كيلو مترات ، وعلى مدخل هذا الطريق أقيمت عمارة صغيرة كانت عبارة عن ايوان ونوافذ، وقد بنيت على هذا الشكل حتى يستطيع الجالس فيها مشاهدة الطريق من مكان مرتفع ، ويكون في إمكانه رؤية أكبر قدر من هذا الطريق ، وقد عرفت هذه العمارة باسم « جهان نما » أي « الكاشفة للدنيا » . وقد عرف القسم الذي يربط بين جهان نما ونهر زاينده باسم « طريق جهاز باغ السفلى » .

وأُنشئت في نهاية الطريق حديقة عظيمة واسعة متدرجة بين مرتفع ومنخفض تصل الى تسع طبقات ، وأُطلق عليها حديقة عباس آباد ، وأُنشىء وسط الحديقة قصر عظيم عرف باسم « هزار جريب » (أي البالغ مساحته ألف ألف متر) وقد عرف هذا القسم من الطريق الذي يمتد من نهر زاينده وحتى هذا القصر باسم « جهار باغ العليا » .(١٦٦) .

ولا شك أن هذا الطريق بهذا الوصف يكشف عن رؤية وحس جمالي لدى الشاه عباس الذي أمر بإنشائه ، كما يدل على مدى الاهتمام بتجميل الطرق والمستوى الذي وصل اليه الذوق الإسلامي في تجميل الطرق ، والذي دهش له الرحالة الأجانب مثل شادرن الفرنسي الذي ذكر « أن طريق جهاز باغ أجمل طريق رأته عينه » .(١٦٧)

ومن طريف ما يذكر، أن العنصر البشري عد من المظاهر الجمالية التي ميزت شوارع بعض المدن الإسلامية ، فقد أطنب المؤرخون في وصف الزهراء ومواطن الجمال فيها ومنها ، « تشكيلات غلمان الصقالبة الذي يغدون ويروحون في شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخالصة الموشاة بالذهب والفضة » .(١٦٨)

وتميزت بعض الشوارع في المدينة الإسلامية بمميزات خاصة ، كالشارع الأعظم الذي تجوبه عادة المواكب في المناسبات المختلفة ، مما ينعكس على جماليته نتيجة تزيينه وتجميله مشاركة في هذه المناسبات المتتالية ، وكانت العامة تتوافد عليه وتتزاحم في المباني المطلة عليه للاستمتاع برؤية هذه المواكب ، وما تتضمنها من العاب واستعراضات مختلفة . كما أن هذا الشارع والشوارع الرئيسة الأخرى ، غالباً ما كانت تتركز على جانبيها الأسواق والحوانيت الزاخرة بأصناف البضائع الجميلة ، وكان الخروج لمشاهدة هذه المعروضات ، ضرباً من ضروب التسلية في تلك العصور لا

---

(١٦٣) زيادة ، ص ١٣٠ ـ ١٣٣ .

(١٦٤) المقريزي ، خطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(١٦٥) اليعقوبي ، ص ٢٦٦ .

(١٦٦) بديع جمعة وأحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، بيروت : دار الرائد العربي ، جـ ١ ، ص ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(١٦٧) جمعة والخولي ، ص ٣٠٣ .

(١٦٨) جودة هلال ومحمد محمود صبح ، « قرطبة في التاريخ الإسلامي » ، المكتبة الثقافية ، عدد ٧٢ القاهرة سنة ١٩٧٢م ، ص ٦٥ .

سيما تلك المواضع التي تأخذ مظهراً مميزاً في معروضات مبيعاتها(١٦٩) كما أن إضاءة مصابيح أمام هذه الحوانيت ليلاً بعد غلقها كثف من إضاءة هذه الشوارع ليلاً مما أكسبها، حتى في وقت الليل، نوعاً من الجاذبية والتميز الجمالي.

وتعددت في المدن التي تخللتها القنوات المائية والأنهار؛ القناطر والجسور التي تربط بين أجزائها فربط بين أحيائها ربطاً عضوياً، سهل الاتصال، ويسر واستفاد من جمالية الماء في هذه القنوات والأنهار بالمشاهدة، وزادت القيمة الجمالية بتلك التكوينات المعمارية الرائعة التخطيط؛ الفذة في التنفيذ فكانت هذه القناطر بمثابة عناصر ربط بين الطرق البرية في أرباض المدينة المتصل المدينة بمتجاوراتها، ومكنت من الاستمتاع بالمشاهدة الجمالية للقناة أو النهر أثناء المرور عليها، إلَّا أنها كانت أحياناً في حد ذاتها تحفة معمارية يتوق المرء إلى رؤيتها والمرور عليها. ومن أشهر المدن التي تضمنت أمثلة عديدة لهذه القناطر(١٧٠) بغداد و «مصر القاهرة». (١٧١) كما اهتم العرب بتلك القناطر التي كانت تربط بين بلاد الأندلس. وأعادوا ما تهدم منها كتلك القناطر التي كانت تربط بين قرطبة العتيقة والربض القبلي. والتي أعاد بناءها الوالي السمح بن ملك الخولاني سنة ١٠١هـ، وتعهدها من جاء بعده بالإصلاح كلما احتاجت إلى ذلك. (١٧٢)

ومن أشهر المدن التي وجدت لها أمثلة رائعة لمثل هذه القناطر مدينة أصفهان، ومن قناطرها قنطرة «اللهورديخان» التي كانت تربط بين قسمي طريق جهار باغ وقنطرة جلفا، التي كانت تربط مدينة أصفهان بضاحية جلفا الجديدة، التي بناها الشاه عباس. وذكر المؤرخون أن طول هذه القنطرة كان يوم بنائها ٢٠٥ متر في حين كان عرضها ١٣,٧٥ متر، وتضم هذه القنطرة ست طرق للعبور: أولها هو الطريق الأوسط وخصص لعبور الفرسان والعربات، والطريقان الثاني والثالث في طرف القنطرة في طابقها الأول وخصصا للمشاة، والطريقان الرابع والخامس يعلوان الطريقين الثاني والثالث، وكان الناس يصعدون إليهما للفرجة والمشاهدة، وذلك عن طريق سلالم جميلة موجودة في أول القنطرة وآخرها، أما الطريق السادس فيوجد أسفل القنطرة. وقد بهرت هذه القنطرة كل من رآها حتى بعد أن فقدت بعض أجزائها ومن هؤلاء شادرن وتارونية الفرنسيان وسايكس الانجليزي الذي قال: «إن هذه القنطرة على الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع، فإنها تعد واحدة من أعظم قناطر العالم». (١٧٣) وتبرز هذه القنطرة مرحلة ناضجة في تصميم، هذه القناطر التي أُنشئت كعناصر اتصال، فقد روعي في تصميمها تعدد الطرق واتساعها وتخصيص كل منها لنوعية معينة من المرور، كما خصص بعض طرقاتها للتنزه والاستمتاع بالمشهد الجميل. ومن المعروف أن مثل هذه القناطر عادة ما كانت موضع للتنزه وظلت أماكن للهو والطرب كما كان الحال في بعض قناطر القاهرة. (١٧٤)

وفي المدن التي اشتملت على العديد من القناطر لشدة الحاجة إليها كبغداد ومنها ما خصص لمرور السيدات، وخصص بعضها لأهل القصر وبعضها الآخر للعامة(١٧٥) لتسهيل المرور وتنظيمه وتأمينه عليها.

ومما ساعد في التخفيف عن حركة المرور المكثفة على هذه القناطر، استخدام «السميرات والمعبرانيات» والتي بلغ عددها في نهر دجلة «في أيام الناصر لدين الله وهو «أبو

---

(١٦٩) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)، ص ١٣٥.

(١٦٦) بديع جمعة وأحمد الخولي، تاريخ الصفويين وحضارتهم، بيروت، دار الرائد العربي، جـ١، ص ص ٣٠١، ٣٠٣.

(١٦٧) جمعة والخولي، جـ١، ص ٣٠٣.

(١٦٨) جودة هلال، ومحمد محمود صبح «قرطبة في التاريخ الاسلامي»، المكتبة الثقافية، عدد ٧٢، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٦٥.

(١٦٩) قاسم عبدة قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٩م، ص ١٣٥.

(١٧٠) اليعقوبي، ص ٢٦٣.

(١٧١) للاستزادة راجع، المقريزي، خطط، جـ٢، ص ١٤٦، ١٥١، عبد الرحمن زكي، القاهرة تاريخها وآثارها ١٩٦٩م - ١٨٣٥ (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦)، ص ١١٢، عبد الرحمن عبد التواب، منشآتنا المائية عبر التاريخ، (القاهرة ١٩٦٣).

(١٧٢) أحمد فكري، ص ١٧٥.

(١٧٣) جمعة، الخولي، جـ١، ص ص ٣٠٣-٣٠٥.

(١٧٤) عبد الرحمن عبد التواب، ص ٩.

(١٧٥) البغدادي: تاريخ بغداد، (القاهرة، ١٩٣١م)، جـ١، ص ١١٦.

أحمد » ثلاثين ألف ، تكسب تسعين ألف درهم »(١٧٦) وهو أمر يكشف عن أهمية مثل هذه الوسائل في النقل بين أرباض المدن التي تتخللها الأنهار من جهة ، وعن استخدام القنوات المائية والأنهار كطرق مائية تساعد على ربط أجزاء المدينة ببعضها أو ربطها بمتجاوراتها . ويحقق ركوب الماء متعة جمالية امتازت بها هذه المدن التي يتوافر فيها ذلك .

وأيضاً من الطرق المميزة جمالياً في تلك المدن تلك التي تكون بمحاذاة النهر أو مطلة على بحر . وتعددت نماذج المدن التي اشتملت على هذه النوعية من الطرق كبغداد وسامراء ومن أشهرها قرطبة « التي كان يمتد رصيفها على الجانب الأيمن من النهر في محاذاة السور الجنوبي للمدينة الوسطى ، وعلى جانب رأس القنطرة الشمالي ، وينتهي عند « المصارة » أو « المصلي » في الطرف الغربي بعد أن يمر « بالسوق العظمى » ، التي كانت تضرب من باب أشبيلية . . . وكانت هناك سوق عظمى أخرى تبدأ من الرصيف عند المسجد الجامع ، وتمتد إلى الجانب الشرقي من المدينة »(١٧٧) ويوضح هذا الوصف أهمية هذا الرصيف أو الشارع الذي يعج بمناشط الحياة التجارية ، فانتشرت الأسواق على جانبه وزاد من حيويته إنه مطل على النهر ، فيمكن المار به من رؤية السفن الجارية في النهر بمنظرها الرائع البديع . وامتد أثر هذا المنظر البديع إلى العمائر المطلة عليه ، فضمن المهندسون لهذه المباني مطلات وشرفات تمكن من الاستمتاع برؤية هذا المنظر الأخاذ. ومن أشهر هذه المباني قصر الخلافة الذي تضمن واجهته القبلية المطلة على هذا المنظر الجميل ، شرفات كان الأطلال منها يثير ابتهاج نزلاء القصر ، حتى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يطلب في علته أن يُحمل إلى شرفة من قصره تطل على الرصيف ، يتمتع فيها برؤية السفن الجارية في النهر ، ولذلك كان الربط بين الماء والعمارة ظاهرة واضحة في قصور الخلفاء فأروع الأمثلة على ذلك قصور الخلفاء العباسيين في بغداد وسامراء.(١٧٨) .

ويدخل في إطار المنفعة والجمال ، إضاءة شوارع المدينة وتبليطها وقد اهتم بذلك اهتماماً واضحاً في شوارع المدينة الإسلامية . وسبقت المدينة الإسلامية مدن أوروبا في هذا الاهتمام ، فقد كان المرء في قرطبة « يسير عشرة كيلومترات على ضوء المصابيح ، في الوقت الذي لم توجد فيه بعد ذلك بسبعمائة عام في شوارع لندن مصباح واحد ».(١٧٩) .

وتحقق الإضاءة ليلاً هدف تأمين المارة ، ومن ثم اهتم بإضاءة الشوارع والميادين ، فكان الميدان الذي يطل عليه القصر في بغداد يضاء ليلاً ، وكذلك جميع الطرقات(١٨٠) وعمت الإضاءة شوارع الفسطاط والقاهرة ، بل أن الحكام اهتموا بذلك حتى أن الخليفة العزيز سنة ٣٨٣هـ/ سنة ٩٩٣م أمر بإضاءة المصابيح على الدور وفي الأسواق في الفسطاط ، وفي سنة ٣٩١هـ/ سنة ١٠٠٠م أمر الحاكم بأمر اللّٰه أن توقد القناديل في سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك ، فنفذت أوامره ، وكان الحاكم ينزل كل ليلة إلى المدينة متفقداً شوارعها وأخطاطها وأزقتها ، فتبارى السكان في الإضاءة».(١٨١)

وإذا كانت هذه المصابيح بمثابة أدوات إضاءة ثابتة فإنه استخدم أيضاً اثناء التنقل في الشوارع ليلاً أدوات الإضاءة التي يحملها المارة(١٨٢) وشاع استخدام الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام وخلف ركب الملوك في الليل ، وكان محمد بن طنج الأخشيد ، من حكام مصر ممن حمل الشمع معهم على البغال في الليل ، فكانت الشمعة تحمل على مؤخرة البغل وفراش يركب أمامها يلتفت إليها من آونة إلى أخرى يصلحها أو يضيئها.(١٨٣)

(١٧٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ، (القاهرة ، ١٩٦٩) ، جـ١ ، ص ١١٦.

(١٧٧) فكري ، ص ١٧٤.

(١٧٨) اليعقوبي ، ص ٢٦٣.

(١٧٩) ريسلر ، ص ١٥٥.

(١٨٠) رمزية الاطرقجي ، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول ، (بغداد ، ١٩٨٢م) ، ص ٢١٧.

(١٨١) المقريزي ، خطط ، جـ٢ ، ص ١٠٨ ، عبد الرحمن زكي ، الفسطاط وصاحبتاها العسكر والقطائع ، (القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٤م) ، ص ٢١٧.

(١٨٢) لوتورنو ، ص ٤٧.

(١٨٣) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، (القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٩١٣) ، جـ١ ، ص ٤١٦ ، عبد الرحمن زكي ، ص ٢٧.

وفي مواسم الاحتفالات كانت تضاء الشوارع والمآذن والمساجد بصور مكثفة واعتبر ذلك من مظاهر الاحتفالات الدينية التي شهدتها المدن الإسلامية.(١٨٤)

ومن طريف ما يذكر أن الإضاءة لم تقتصر على فترات الليل حيث إنه أضيئت بعض الأزقة بالفسطاط نهاراً لعدم وصول الضوء بنسبة كافية إليها.(١٨٥)

وبلطت كثير من شوارع المدينة الإسلامية ، وعملت لها الأرصفة في بعض الأحيان كما كان الحال في بعض شوارع قرطبة(١٨٦) وفي بعض المدن التي تسقط عليها الأمطار بغزارة رصفت الشوارع لأجل تجنب الوحل مثل صنعاء التي اشتملت شوارعها كذلك على مجاري لتصريف مياه الأمطار.(١٨٧)

واحتاجت الطرق غير المبلطة إلى قطعها من فترة إلى أخرى نظراً لارتفاع منسوبها الناتج من تراكم كميات مضافة من الأتربة وغيرها ، كما أنها كانت تحتاج إلى الاصلاح لتأثر تسوية هذه الطرق بالعوامل المختلفة كالمطر ومخلفات الهدم والبناء وهو أمر اهتم به المشرفون على أمر شوارع المدينة الإسلامية ولعل ما فعله الأمير يشبك بن مهدي والي القاهرة على عهد قايتباي من أوضح الأمثلة على ذلك.(١٨٨)

وكان الحرص شديداً على نظافة هذه الطرق ومنع أي عوائق توضع لها ويتأذى منها المارة . فبدت شوارع المدينة جميلة نظيفة مضاءة ممهدة.(١٨٩)

ومما سبق يتضح أن هناك مؤثرات أثرت على تخطيط الشوارع والطرق في المدينة الإسلامية كالتحصين ووسطية الجامع وهيئة النمو المعماري للمدينة في اتجاهات معينة تحددها طبيعة الموضع .

وأوضحت الدراسة كذلك أن شوارع وطرق المدينة الإسلامية تنقسم إلى نوعيتين هي الطرق العامة ، والطرق الخاصة ، كما أوضحت أن الطرق العامة تتسم بأنها هي الطرق النافذة وهي تشكل التخطيط الرئيس لشبكة الطرق بالمدينة الإسلامية وتقوم بتخطيطها السلطة ، ويضاف إليها مع نمو المدينة بعض الطرق النافذة الأخرى التي تخطها العامة لتصل إلى تكويناتهم المعمارية . وهذه النوعية من الطرق لها أحكامها الخاصة بها تلك التي تحدد نظام الإشراف والمحافظة عليها ، وكذلك نظام بناء الأخرجة وفتح المطلات . وهذه النوعية تتسم بالاتساع غالباً ، وأحياناً تتعرض للاعتداء بالبناء فيها مما يؤثر على اتساعها لا سيما وأنه في بعض الحالات القضائية كان يسمح بمثل هذا البناء إذا لم يكن يضر بالمارة ، فأدى تراكب هذه الحالات على اتخاذها أحياناً الهيئة الملتوية ، لكن هذه الاعتداءات كانت تزال في حال تراكمها وإعاقتها للطريق .

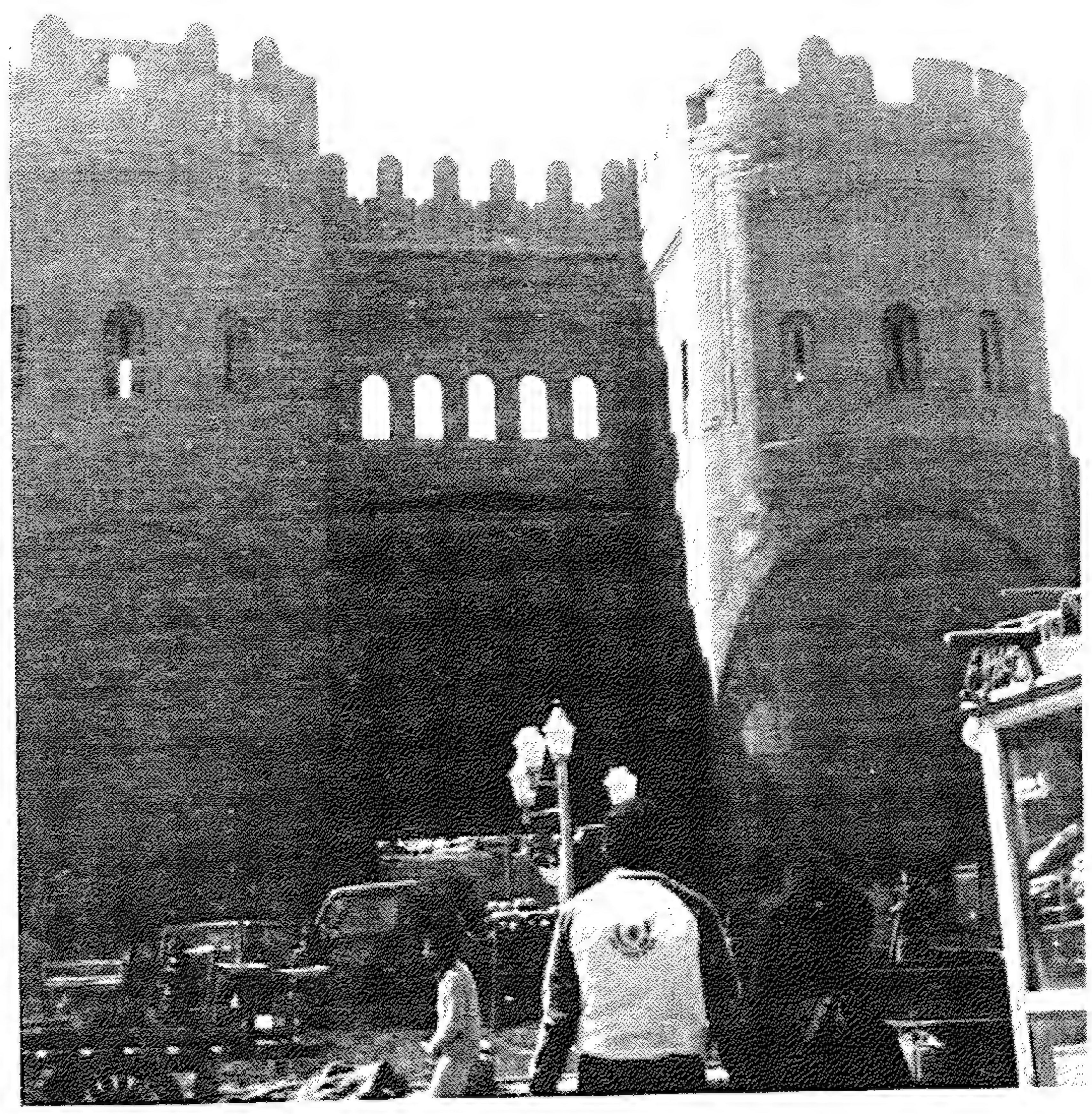
أما الطرق الخاصة فتنشأ عن تخطيط العامة لمحلاتهم السكنية ، وقد تركت لهم حرية تخطيطها بما يتناسب وارتفاقهم ، ومن هنا عكست هذه النوعية من الطرق هذه الحرية انعكاساً واضحاً تمثل في هيئة هذه الطرق التي أخذت مقاييس تناسب الارتفاق ، ومنها ما انعطف أحياناً لظروف الموضع . وأوضحت الدراسة العوامل المختلفة التي تؤدي إلى ذلك ، كما تعرضت لأحكام هذه الطرق من ناحية بناء الأخرجة وفتح المطلات ، ونظام التصرف فيها وخضوع الإشراف عليها لأصحابها . وفي ذلك ما يوضح كيفية نشأة هذا الطريق أو ذاك ومراحل تطوره العمراني . لا سيما وأن هذه النوعية من الطرق في نمو مستمر بفعل عوامل التغير التي تطرأ على التكوينات المعمارية . وهي العوامل التي تنشأ معها طرق فرعية أدق .

ومن خلال ذلك أوضحت الدراسة القوانين التي تحكم تخطيط هذه الطرق ونظام الارتفاق بها وفتح المطلات عليها وبناء الأخرجة التي تمثل بروزات التكوينات المعمارية على الطرق . والكشف عن تطبيق هذه القوانين إيجاباً أو سلباً يفسر لنا كثيراً من الظواهر المعمارية المتعلقة بمقاييس الشوارع والطرق والتكوينات المعمارية المطلة عليها، كما أوضحت

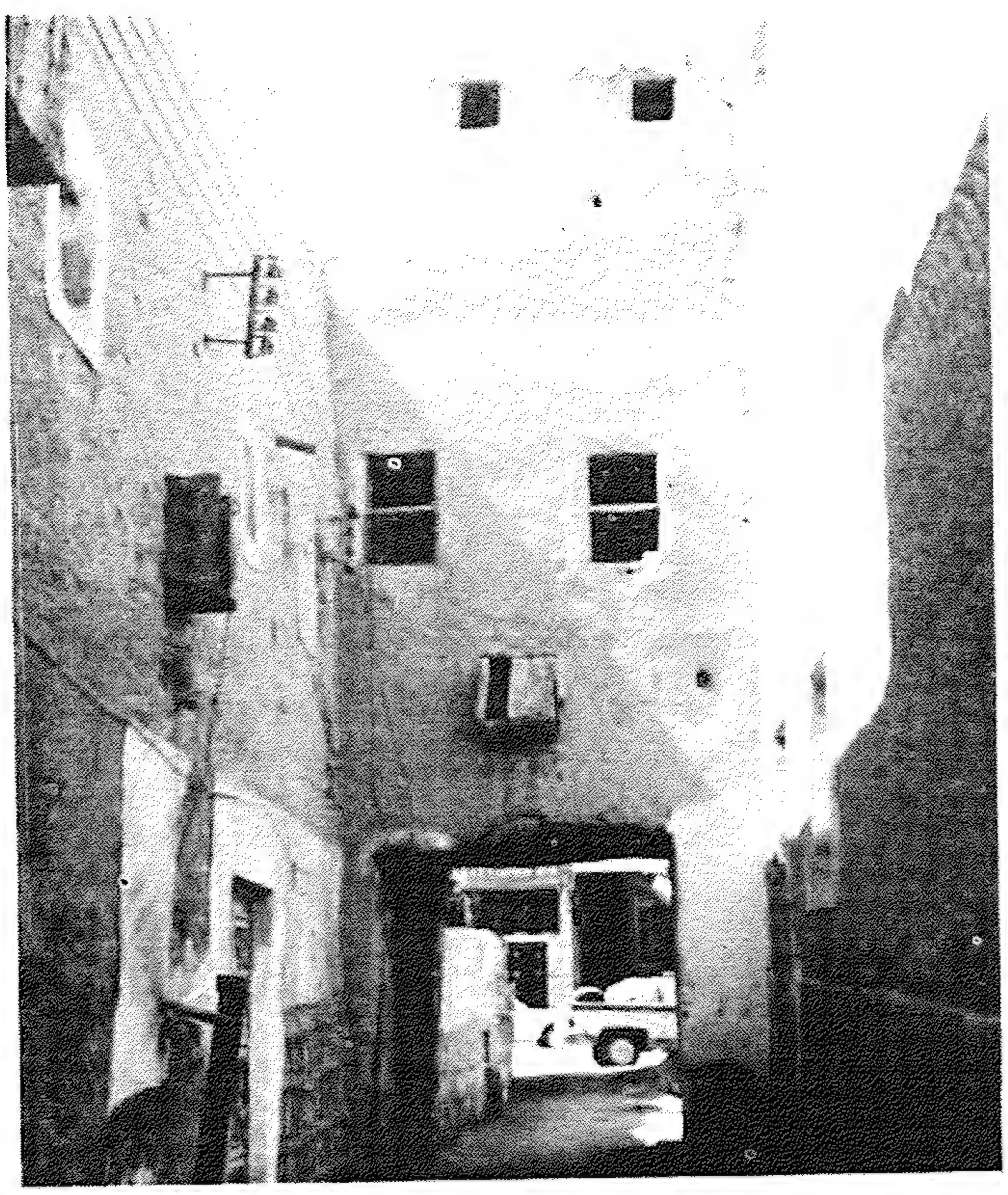
(١٨٤) المقريزي ، خطط ، ص ٤٩٠ .
(١٨٥) خسرو ، ص ١٠٥ .
(١٨٦) ريسلر ، ص ١٥٥ .
(١٨٧) نقولا زيادة ، ص ص ١٣٠ - ١٣٣ .
(١٨٨) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط ٣ ، (القاهرة ، ١٩٦٩م) ، ص ٨٢ و Eliseef, p. 98 .
(١٨٩) شلبي ، ص ٨٢ .

ذلك علاقة الطرق والشوارع بالتكوينات المعمارية . ومن جهة أخرى يبين لنا جانباً من العلاقات الاجتماعية التي تربط أصحاب التكوينات المعمارية المطلة على الشوارع والطرق من ناحية السماح أو الاعتراض على بناء بارز إلى عرض الطريق ، كما توضح لنا مدى اهتمام السلطة في المدينة بالمحافظة على شوارعها وطرقاتها العامة ، ومباشرة ما لعله يحدث من مشكلات بين أصحاب الطرق الخاصة . وفي ضوء فهم هذه القوانين وعلاقاتها بالشوارع والطرق والمباني المطلة عليها يمكن أن تتعمق الدراسة الأثرية في تناول جديد يكشف مدى الالتزام بتطبيق هذه الأحكام . ومن منظور أدق للكشف عن المذهب الذي طبقت أحكامه .

وأوضحت الدراسة المنظور الجمالي لشوارع وطرق المدينة الإسلامية ، بصفة عامة سواء كانت النظرة الجمالية ، حسبة أو وظيفة أو تجريدية ، كما أنها أعطت أمثلة لنوعيات من الشوارع التي أنشئت لتحقيق غاية جمالية بذاتها. بما يبرز تميز شوارع وطرق المدينة الإسلامية عن غيرها من المدن من ناحية الشكل الذي عكس وظيفتها .



لوحة (١) باب الفتوح أحد أبواب القاهرة .



لوحة رقم ٢ حجرة فوق الطريق بمدينة الرياض القديمة .



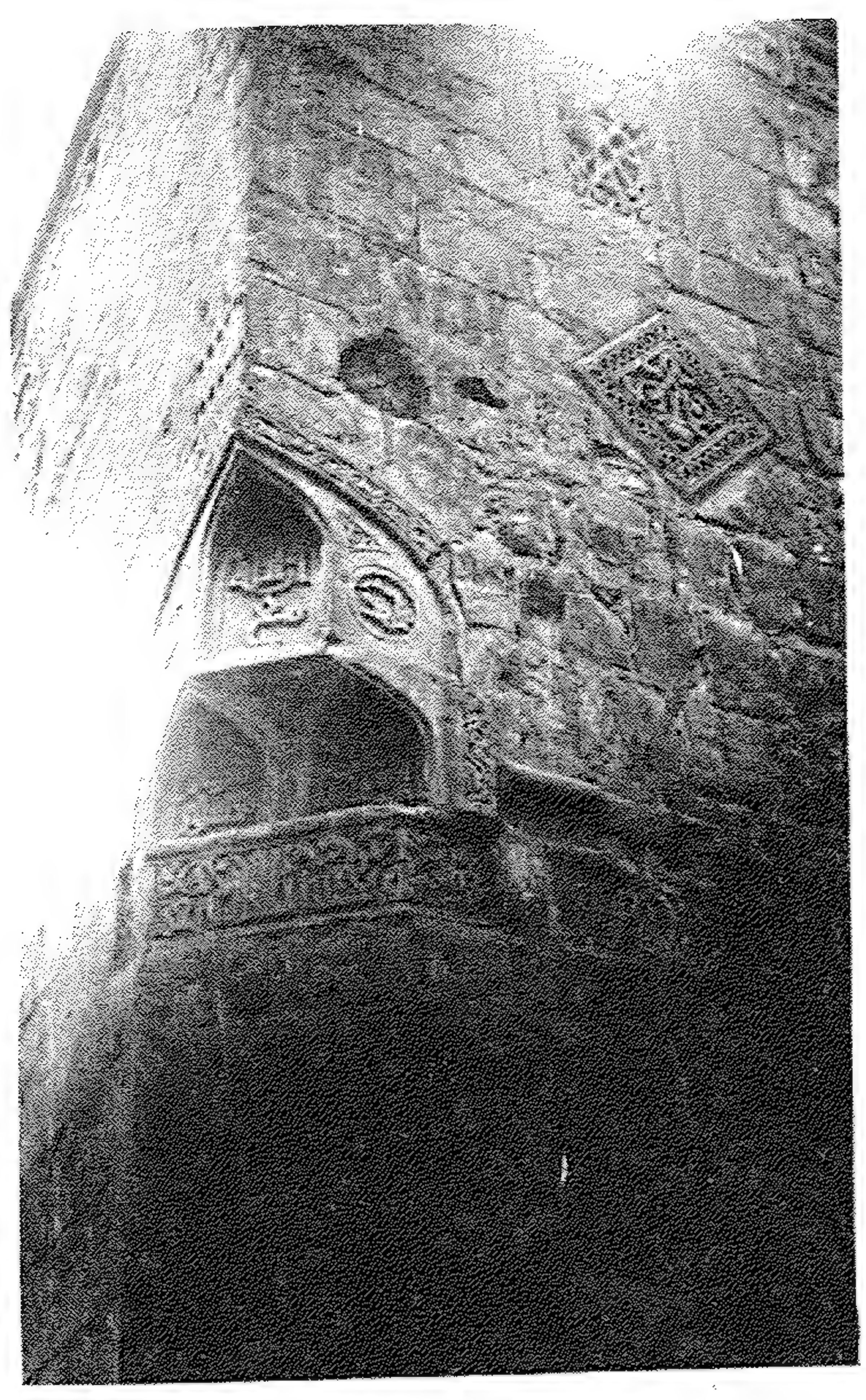
لوحة رقم (٣) أحد شوارع غدامس .
بليبيا عن ، علي مصطفى رمضان ،
تأملات في المعمار الاسلامي في ليبيا ،
تونس ليبيا ـ الدار العربية للكتاب .


THE TENTMAKERS' BAZAAR, CAIRO.

لوحة رقم ٤
تبين سوق الخيميين
بالقاهرة قبل سنة ١٩٢٠
عن أرشيف هيئة الاثار المصرية .



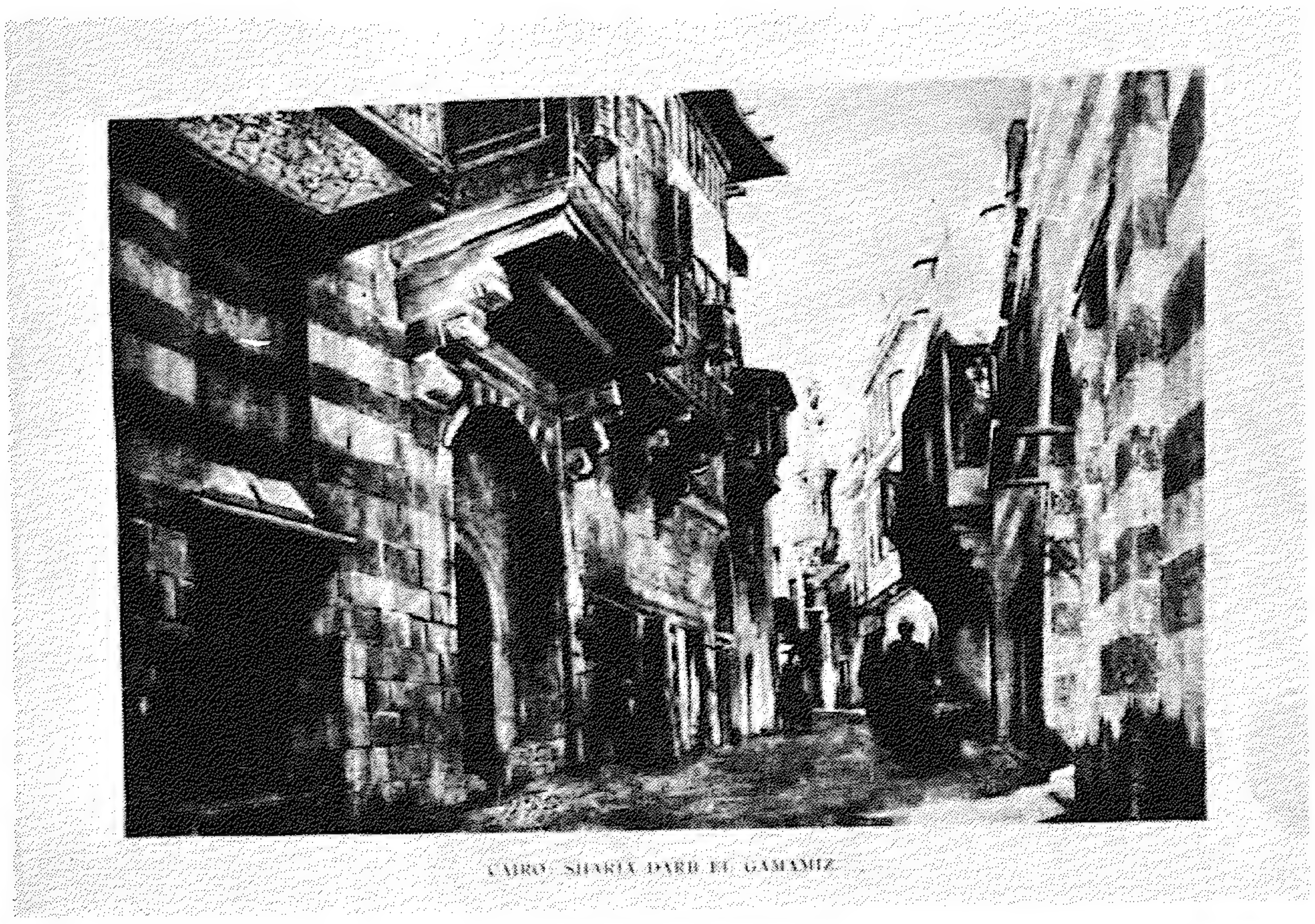
لوحة رقم (٥)
تبين الميازيب في
بيوت الرياض القديمة .



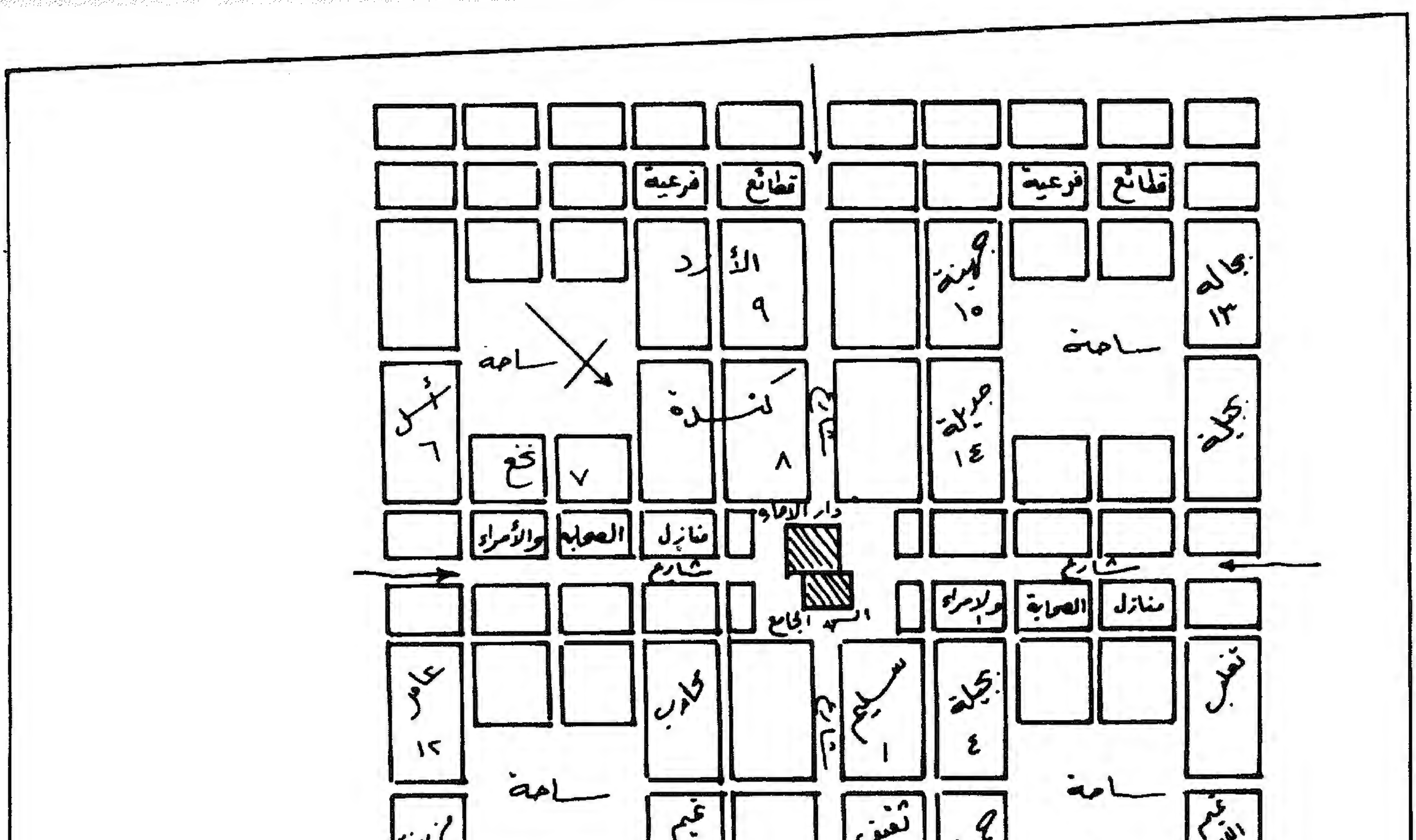
لوحة رقم (٦) تبين شطف الركن
بالمسجد الأقمر بالقاهرة لتسهيل المرور .



لوحة رقم ٧ تبين أحد شوارع صنعاء القديمة

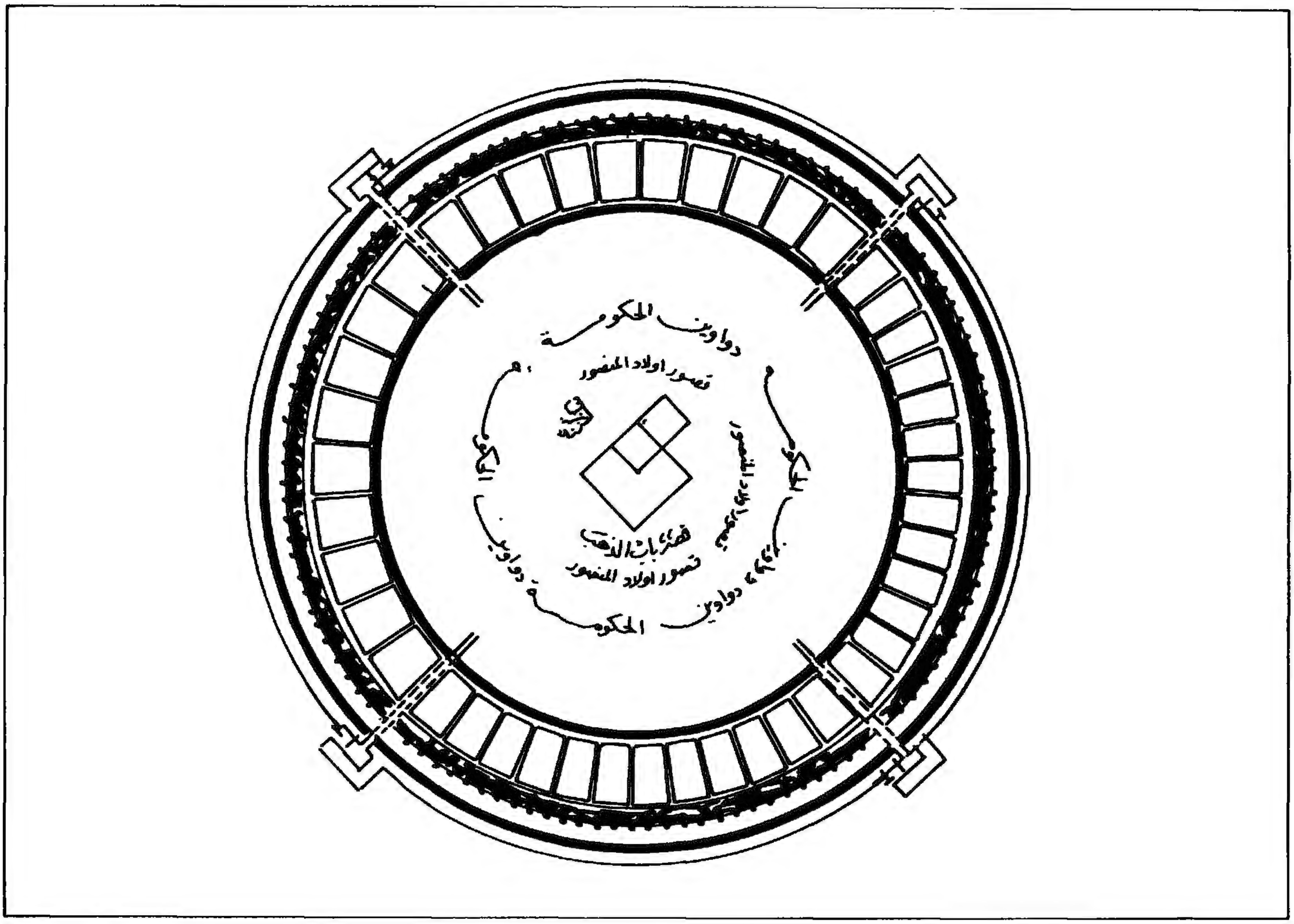


لوحة رقم ٨
تبين شارع درب الجماميز بالقاهرة
قبل سنة ١٩٢٠
أرشيف هيئة الآثار المصرية .



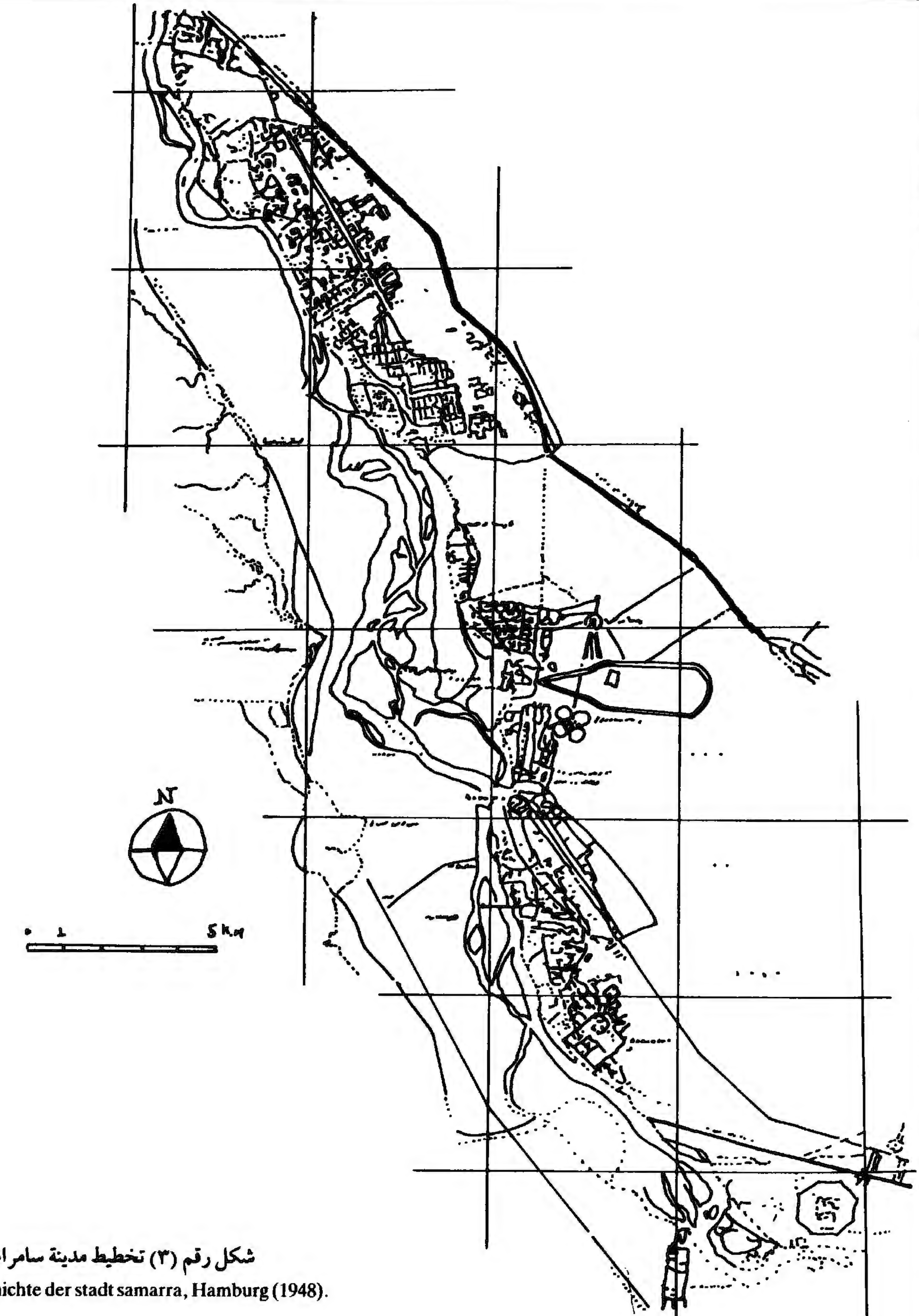
شكل رقم (١) مخطط افتراضي لمدينة الكوفة

عن كاظم الجنابي «تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والاثرية (بغداد ١٩٦٧) .

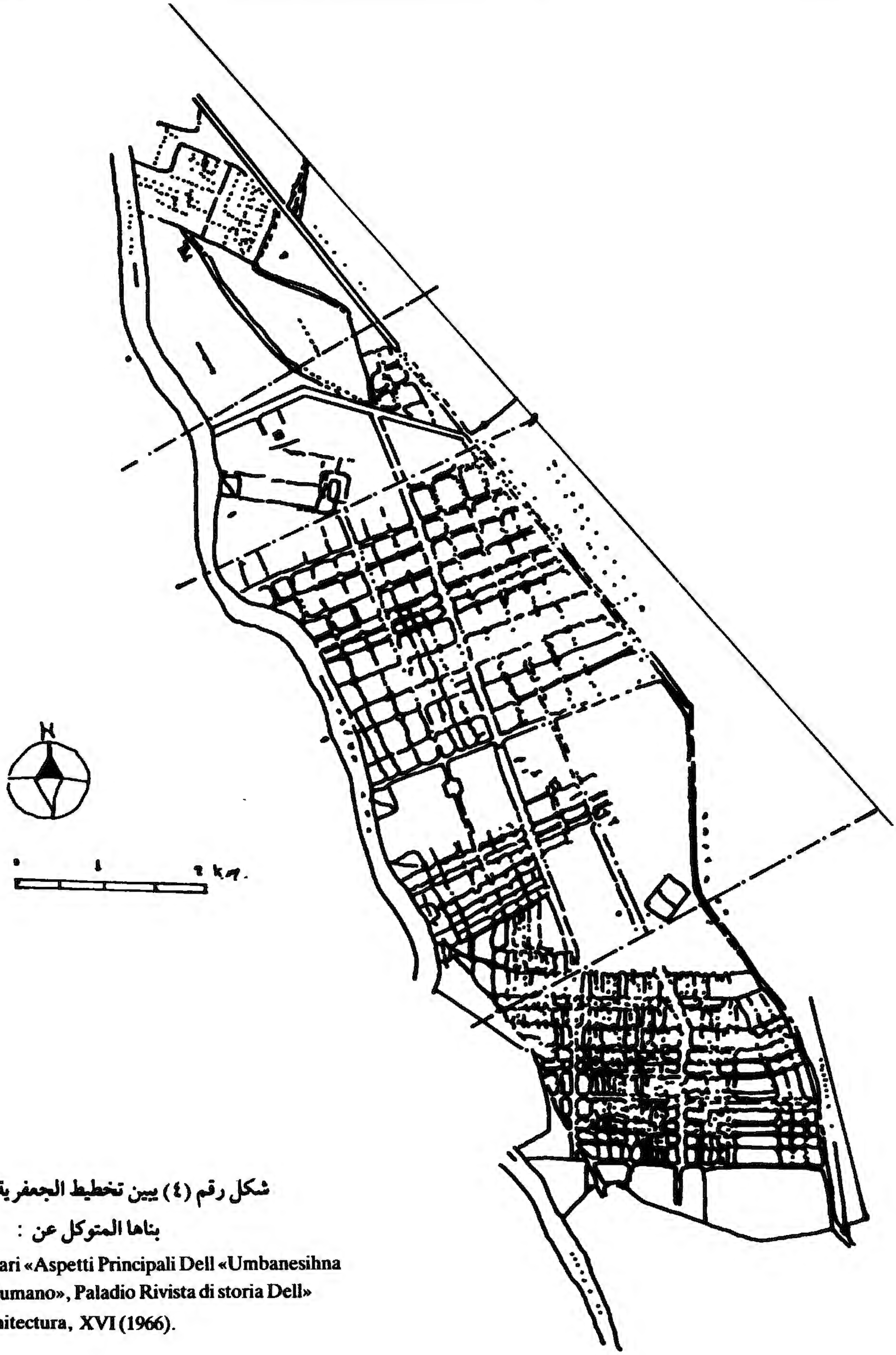


شكل رقم (٢) تخطيط بغداد

عن د. عيسى سلمان، العمارات العربية الاسلامية في العرق، بغداد، دار الرشيد سنة ١٩٨٢م

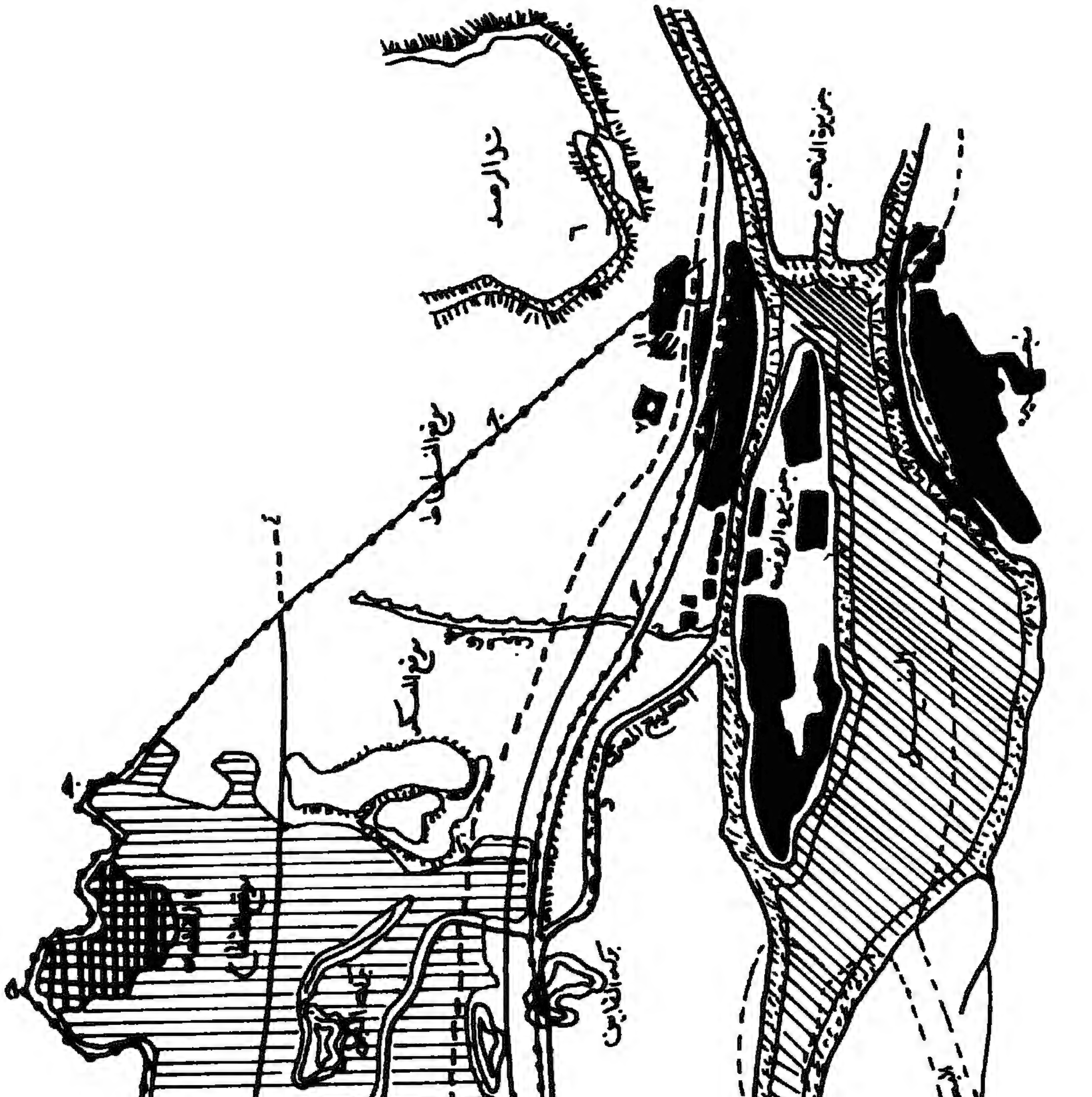


شكل رقم (٣) تخطيط مدينة سامراء عن :
Herzfeld, Geschichte der stadt samarra, Hamburg (1948).



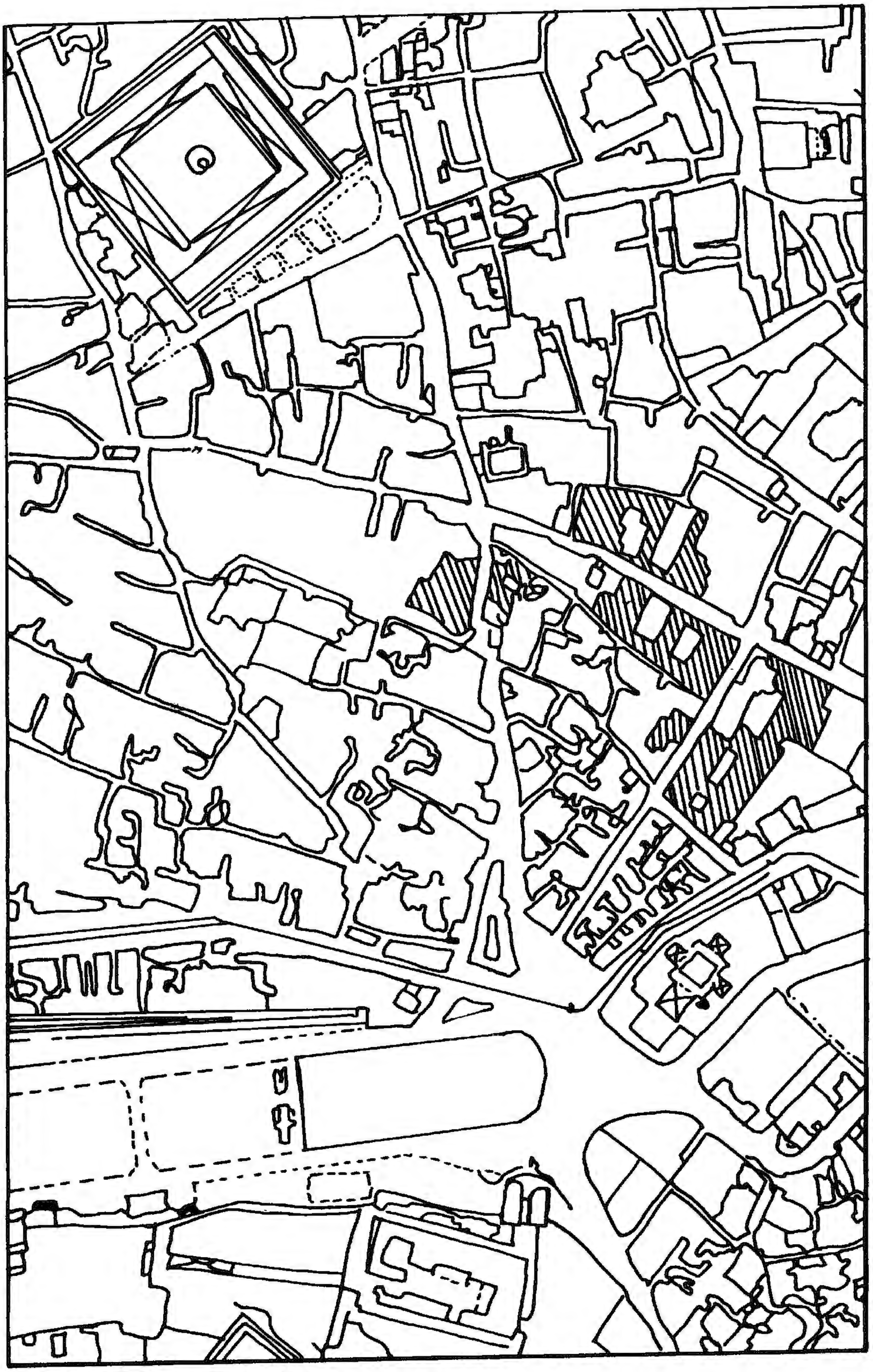
شكل رقم (٤) يبين تخطيط الجعفرية التي
بناها المتوكل عن :

Tamari «Aspetti Principali Dell «Umbanesihna Muslumano», Paladio Rivista di storia Dell» Architectura, XVI (1966).



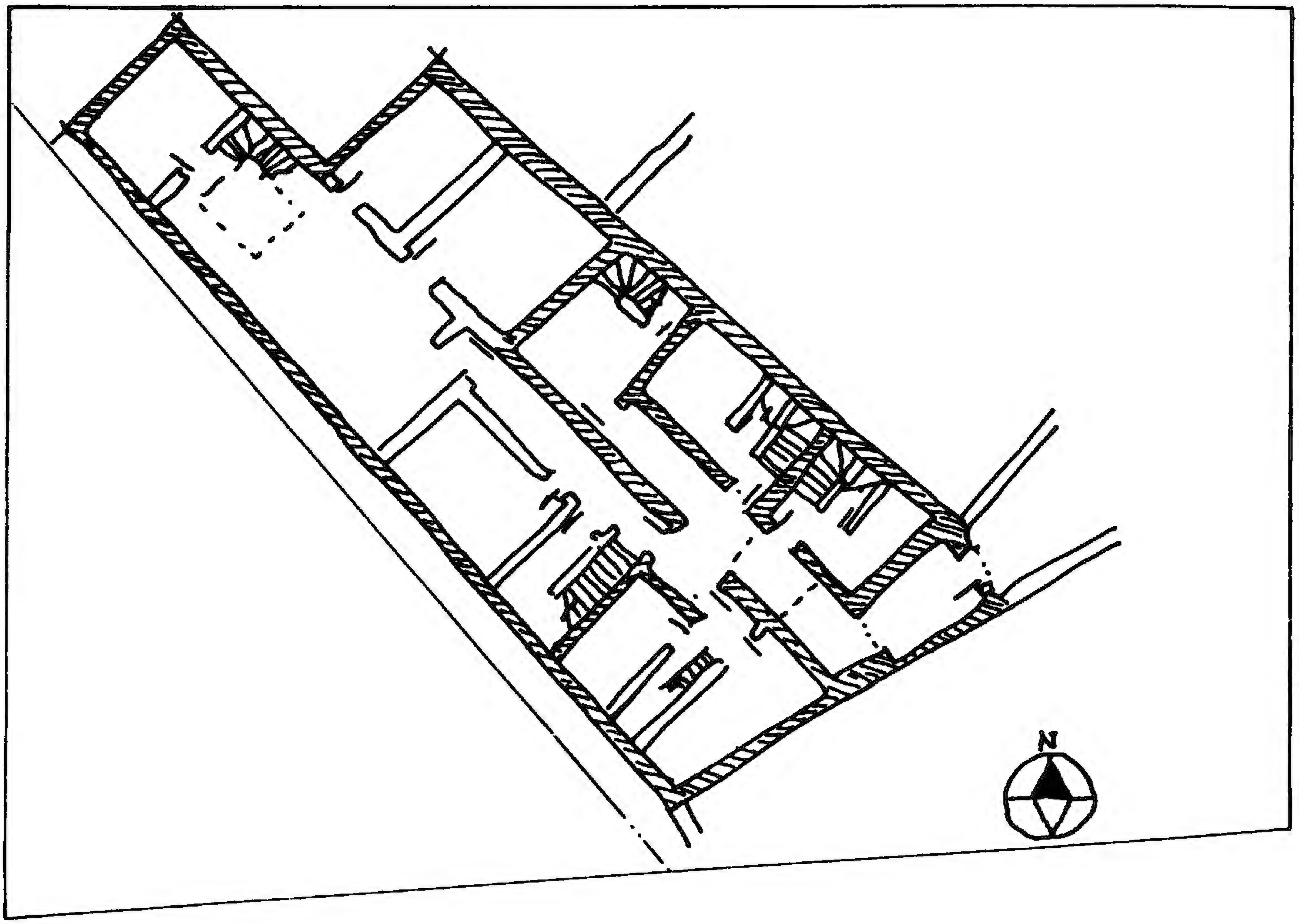
شكل رقم (٥) مخطط مدينة القاهرة

عن: « مصطفى نيازي » القاهرة دراسة تخطيطية في المرور ».



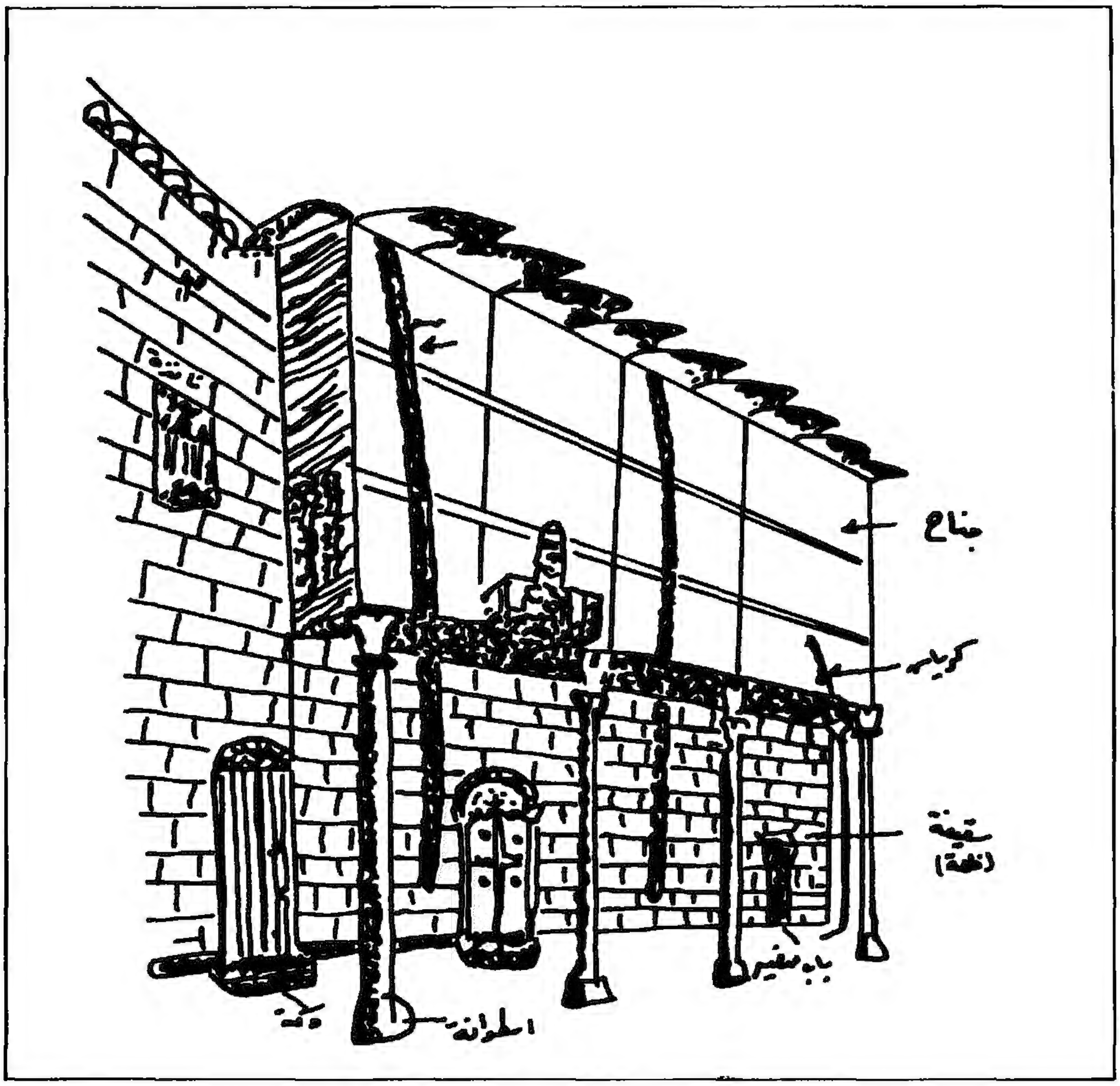
شكل رقم (٦) قطاع من القاهرة (منطقة الصليبية (عن مصلحة المساحة المصرية)

مباني أثرية

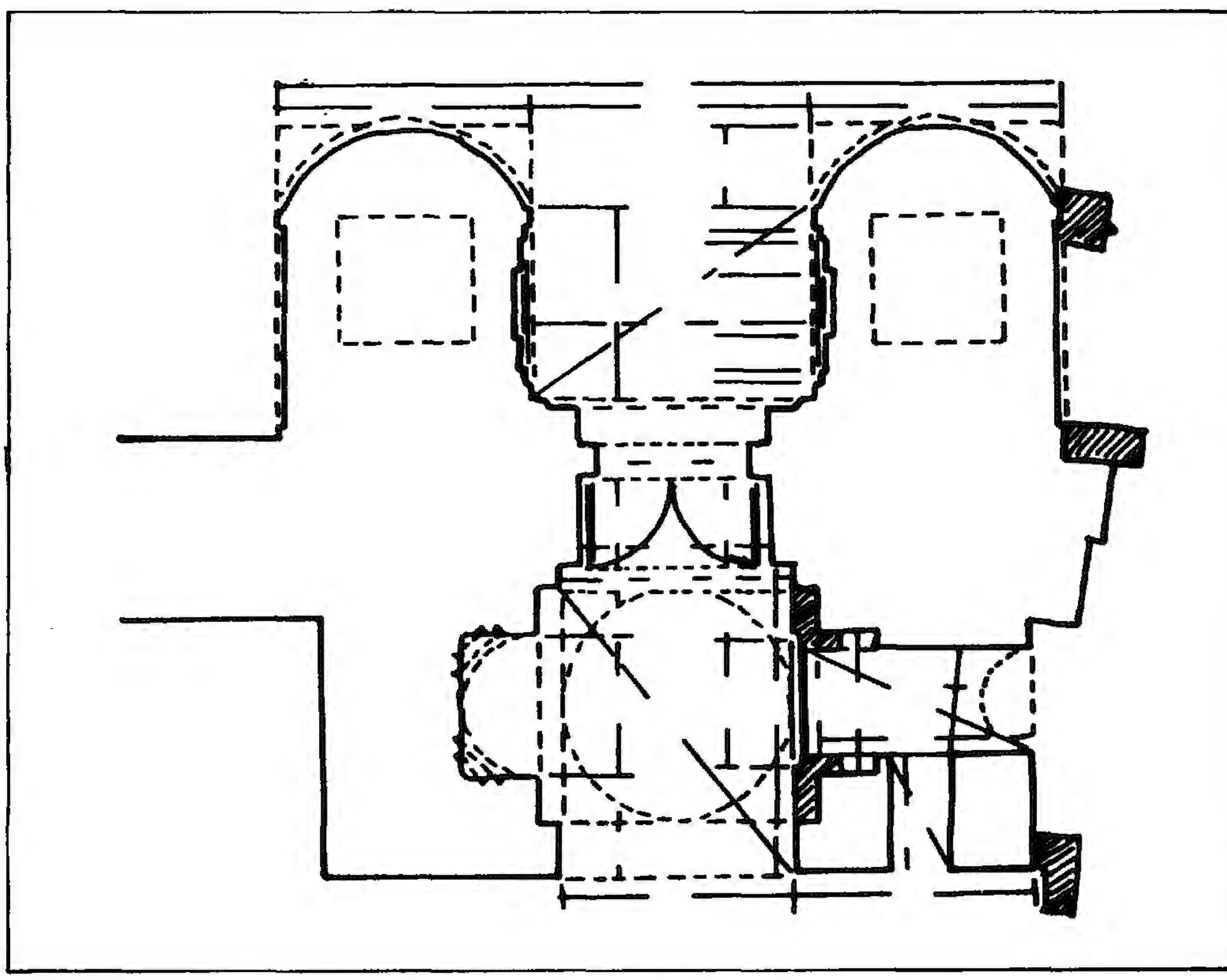


شكل رقم (٧) مسقط افقي لدار بالمدينة المنورة بحارة الاغوات قسمت الى خمس دور أنشيء لها طريق خاص .

عن : Saleh El Hathoul Tradition, Continuity and catinge in the Physical Envionment: The Arab Muslim city. aph.d. Thesis Submitted to M.I.T department of architecture 1981.

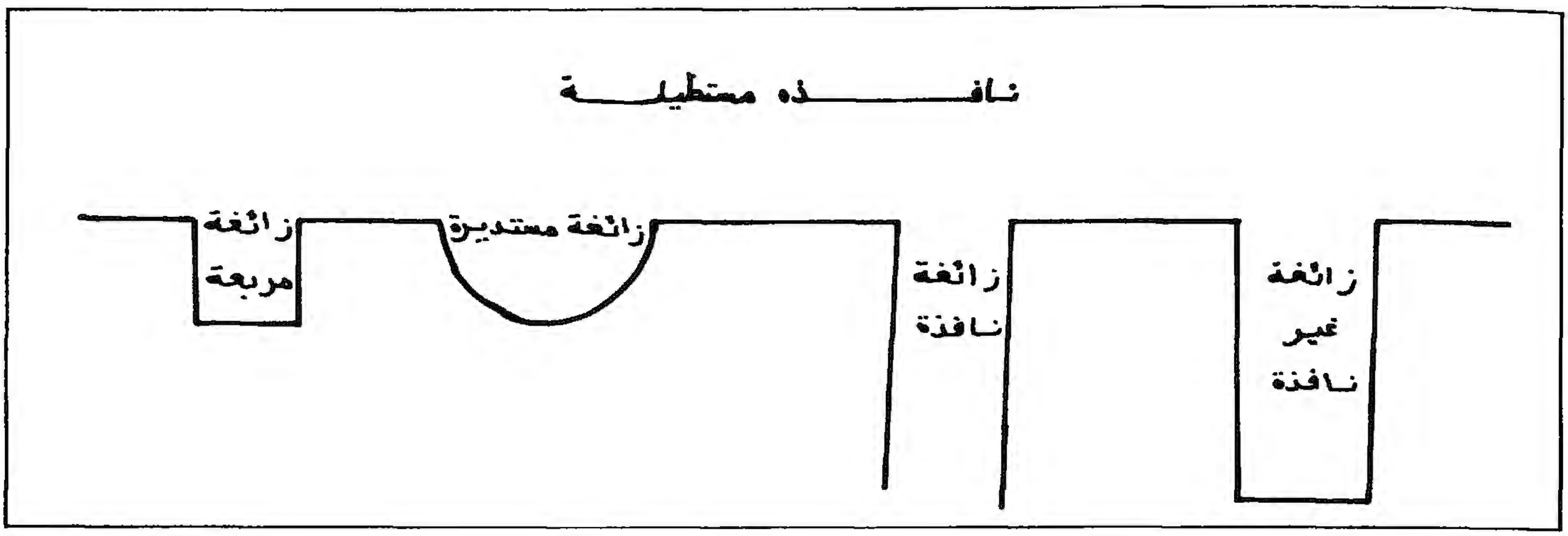


شكل رقم (٨) يبين الاخاريج عن : عبد الجبار محمد جريس، بعض مظاهر البناء في منطقة قاعدة الجزيرة، مجلة التراث الشعبي، بغداد عدد ٨ (١٩٧٨م).

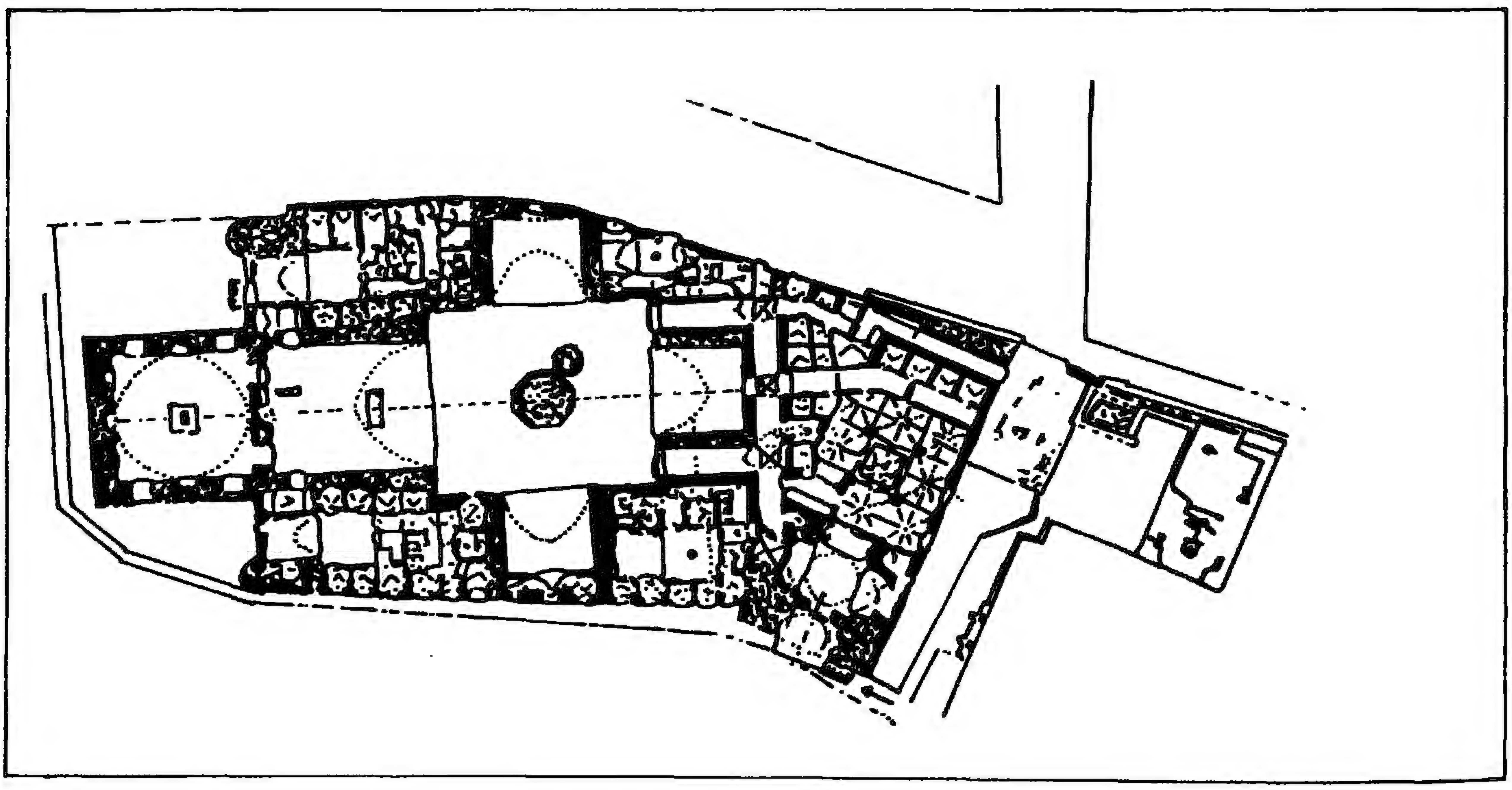


شكل رقم (٩) مسقط افقي لباب زويلة أحد أبواب مدينة القاهرة عن

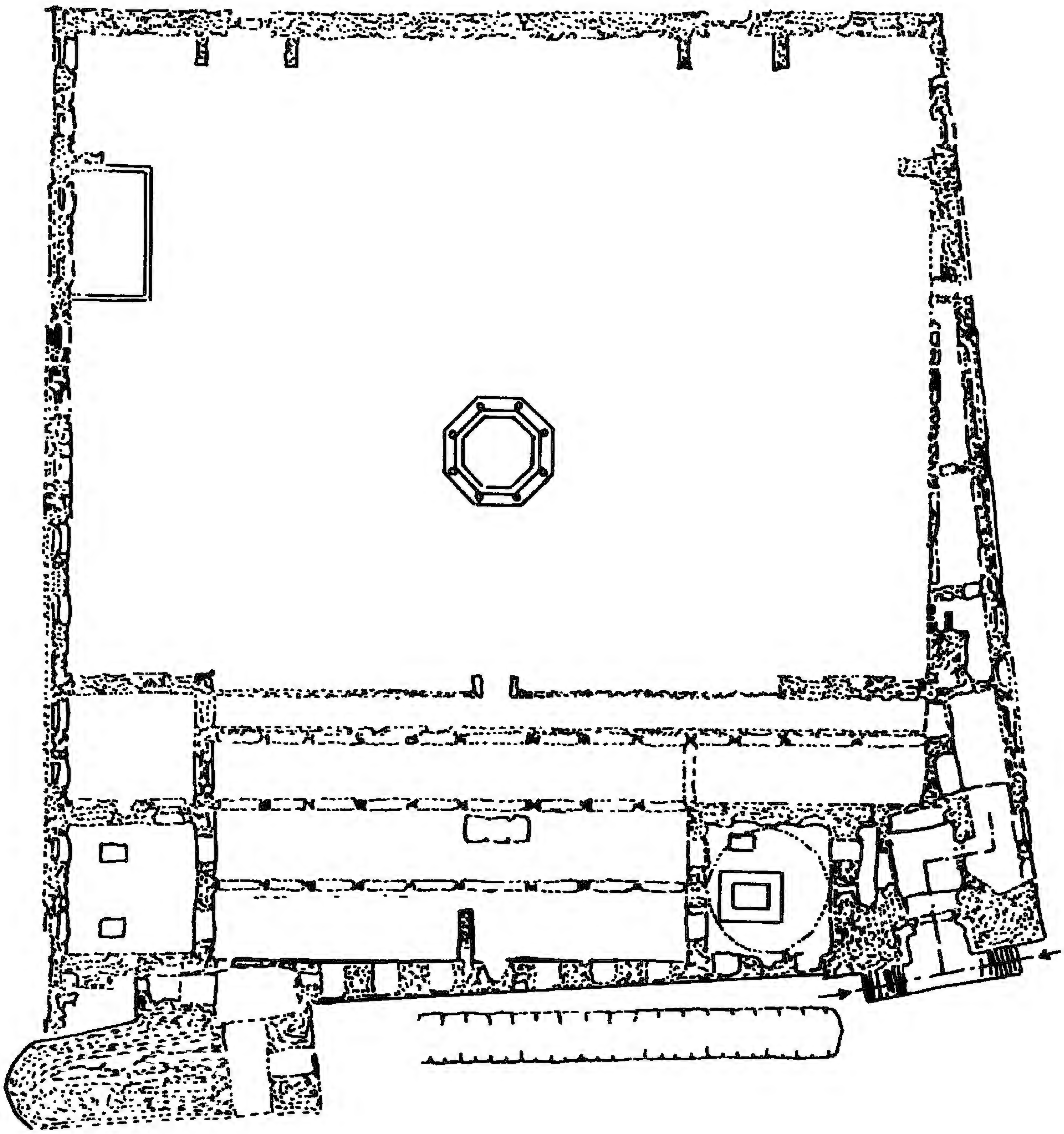
Creswell: Muslim architectue of Egypt, I Oxford, 1052



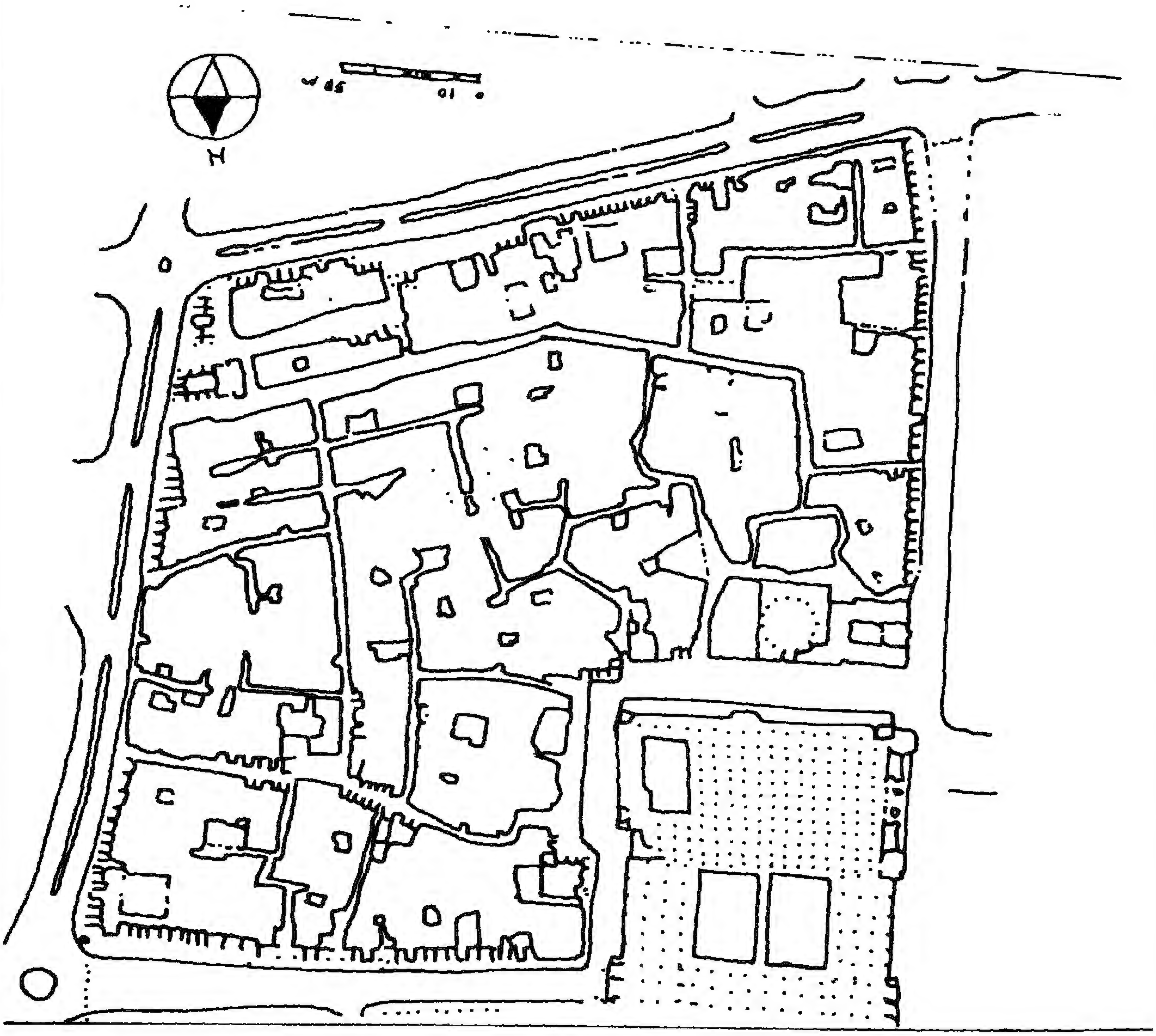
شكل رقم (١٠) يبين نوعيات الشوارع والطرق
عن (ابن عابدين) حاشية رد المختار على الدر المختار. القاهرة. (المطبعة الازهرية سنة ١٣٠٦هـ)



شكل رقم (١١) مسقط افقي لمدرسة السلطان حسن
عن : Creswell: Muslim archicture of Egypt; II, Oxford, 1959.

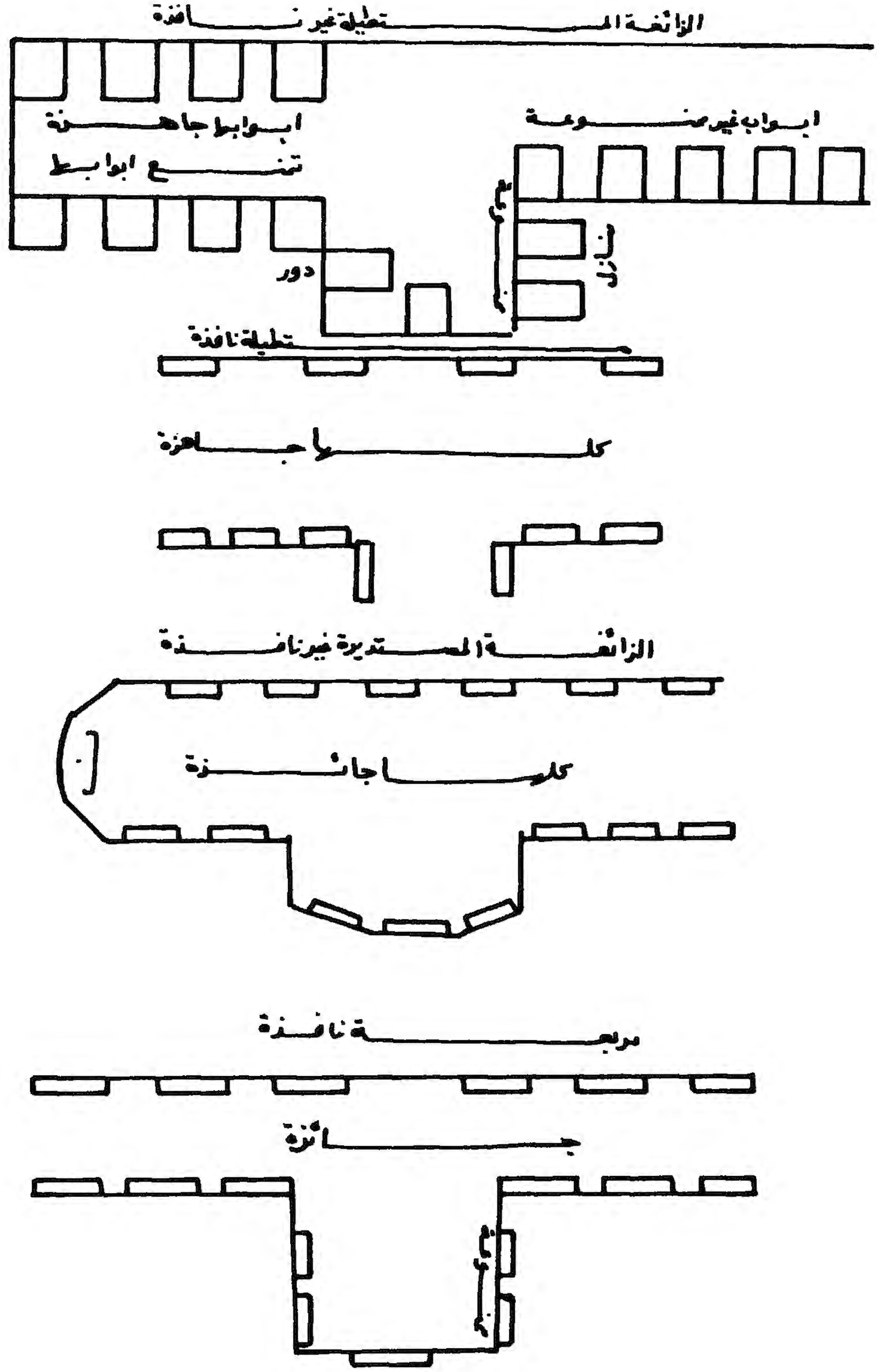


شكل رقم (١٢) مسقط افقي لجامع المؤيد شيخ
(عن مصلحة الآثار المصرية)



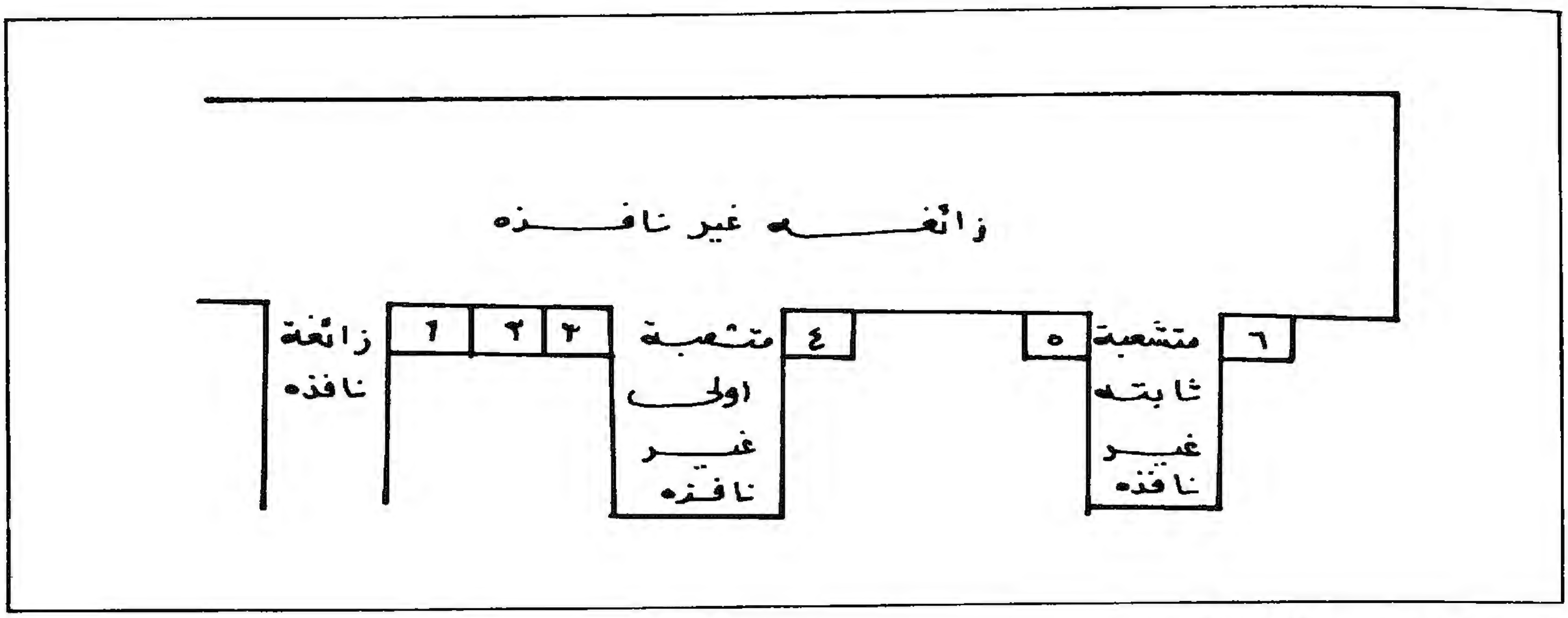
شكل رقم (١٣) يبين تنكيب الابواب بحارة الاغوات بالمدينة المنورة

عن : Saleh El-Hathoul. Op. Cit.

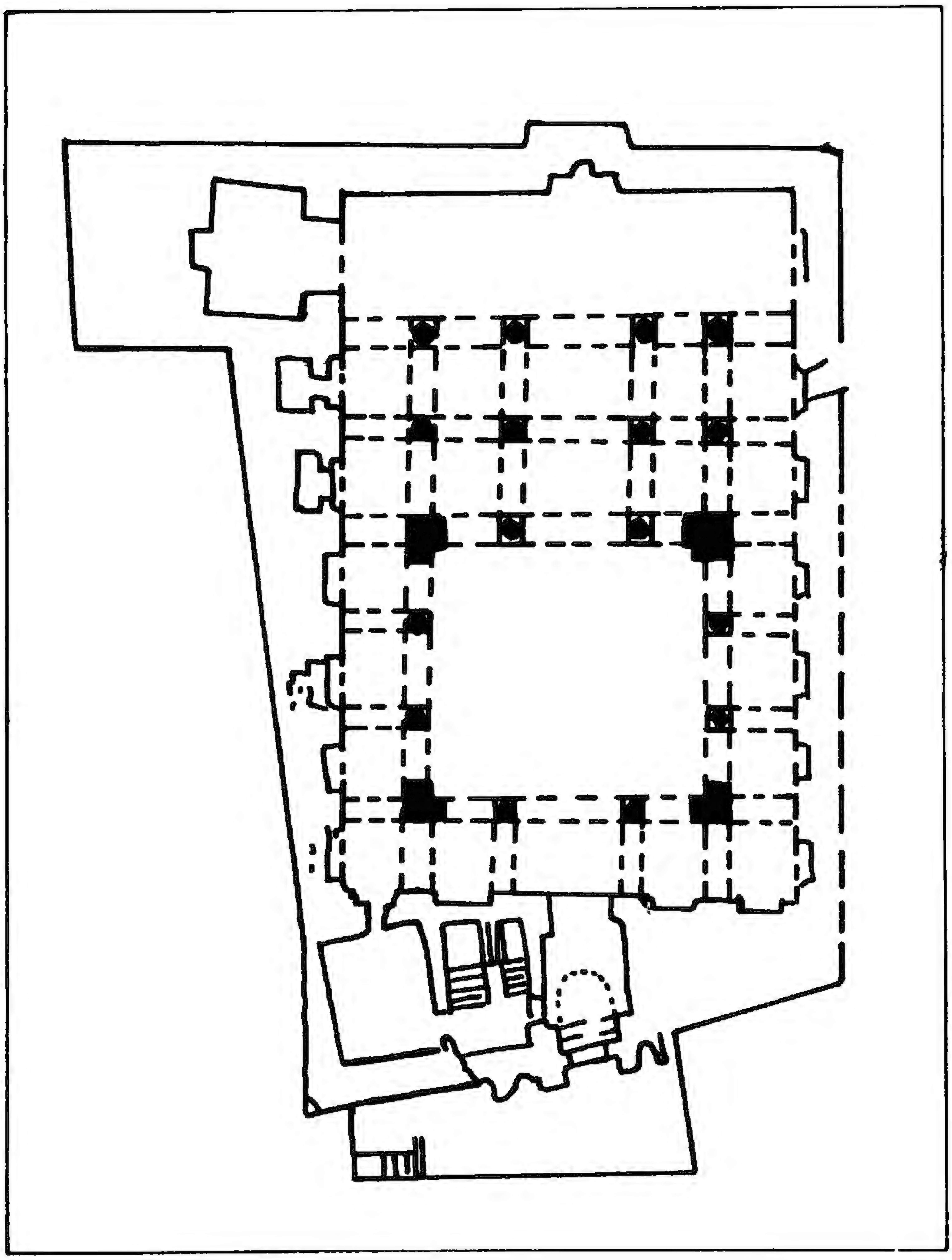


شكل رقم (١٤) يبين نظام فتح الابواب أو منعها حسب نوع الطريق

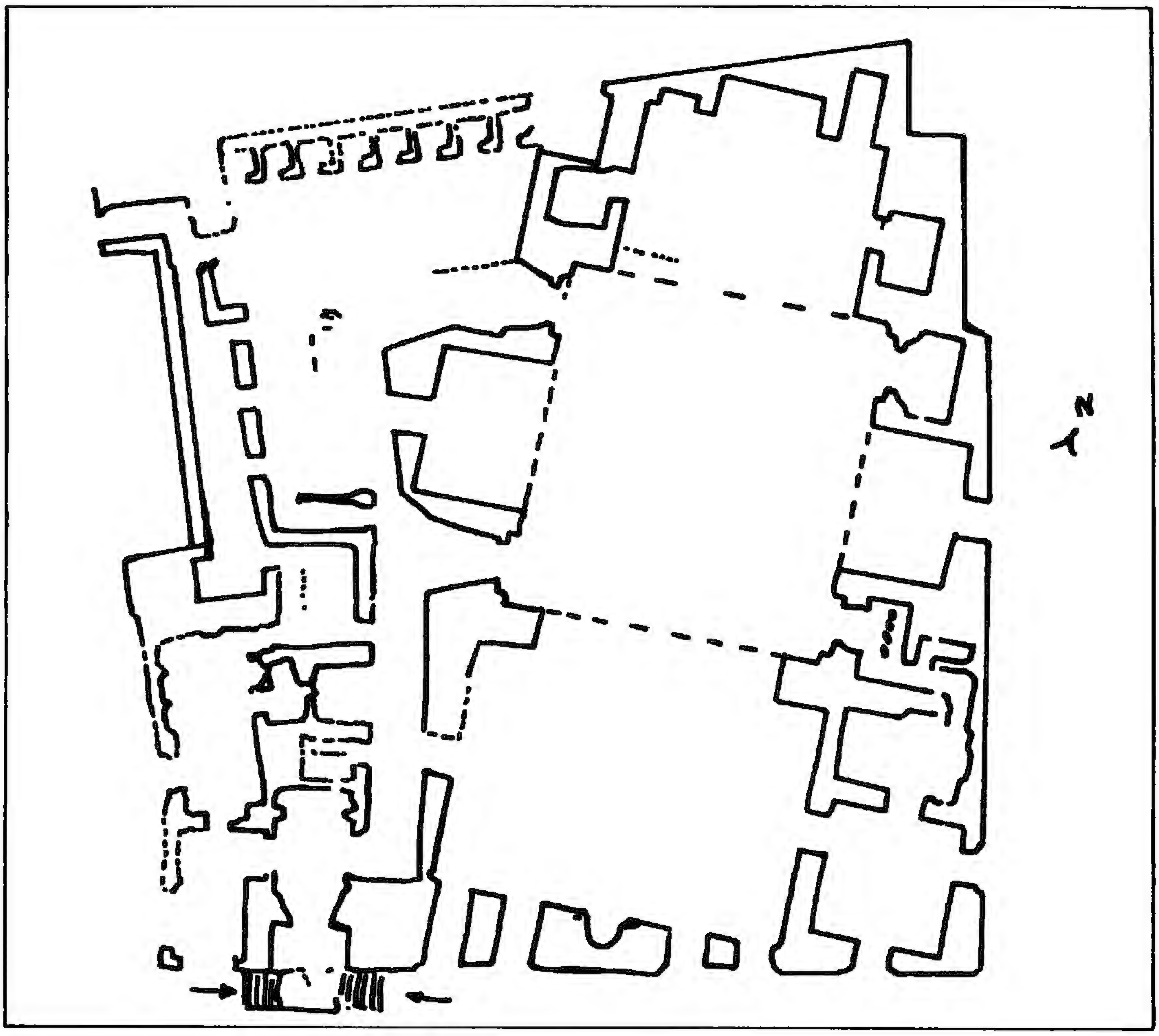
عن : سعيد عبد الغفار « العسيديات » القاهرة .



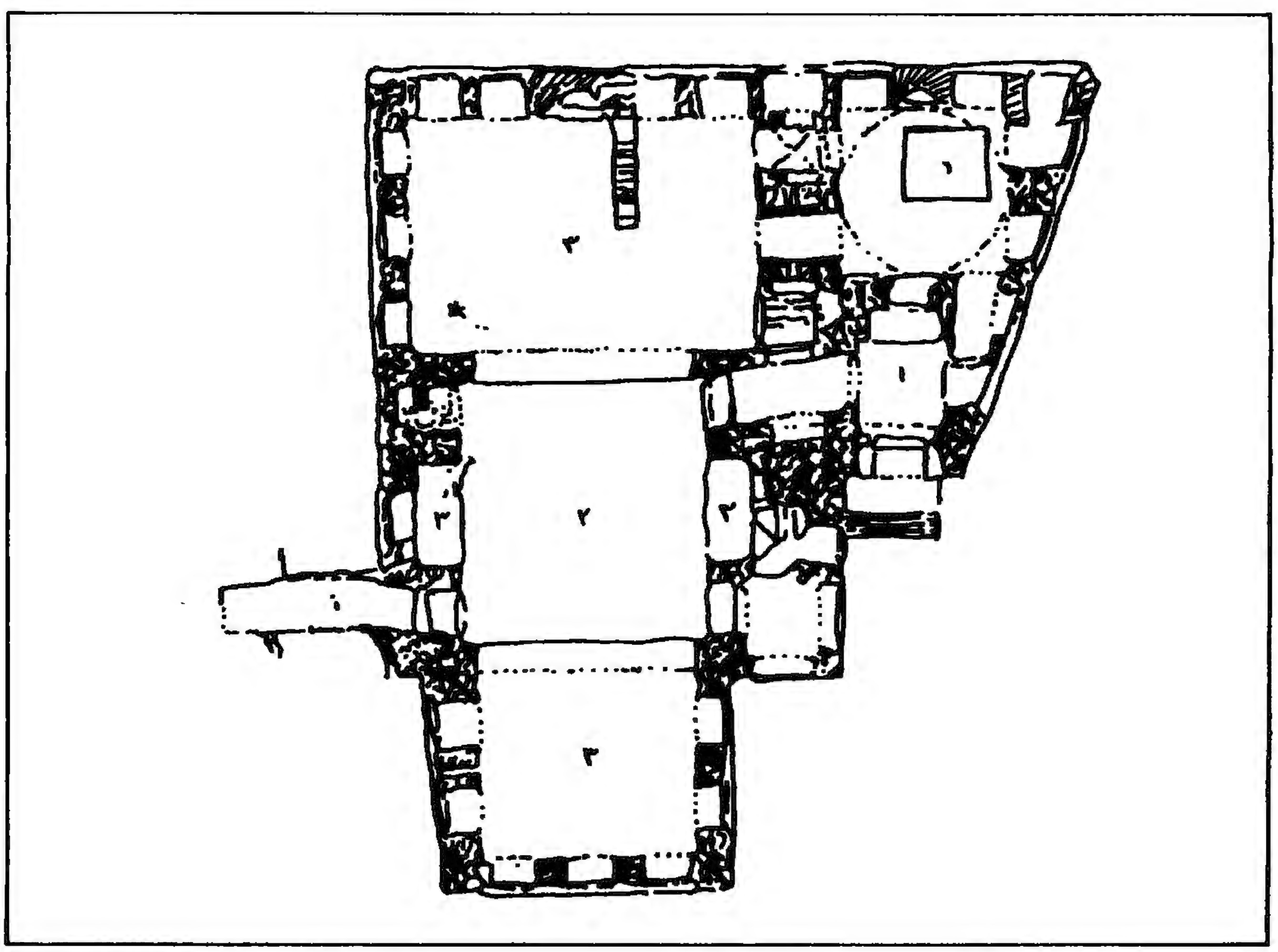
شكل رقم (١٥) يبين نظام فتح الابواب في
طريق خاصة « غير نافذة » تتشعب
منها طرق أخرى غير نافذة .
عن : ابن عابدين (المصدر السابق)



شكل رقم (١٦) المسقط الافقي
للمسجد الاقمر في القاهرة الفاطمية
عن : (مصلحة الاثار المصصرية)



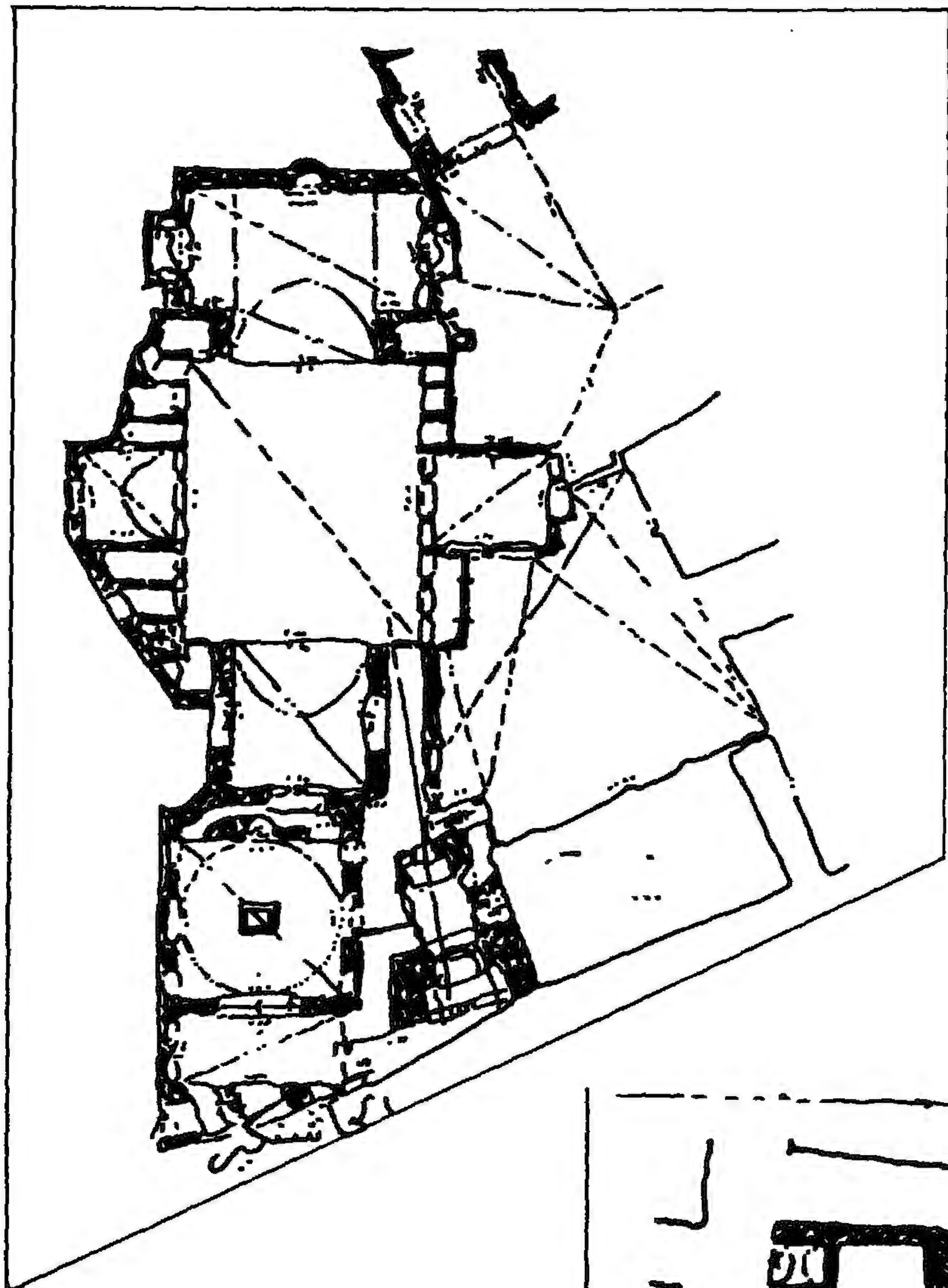
شكل رقم (١٧) مسقط أفقي لمدرسة برسباي - عمل الباحث .



شكل رقم (١٨)
مسقط افقي لجامع
قجماس الاسحاقي بالقاهرة .
عن : (مصلحة الاثار المصرية)

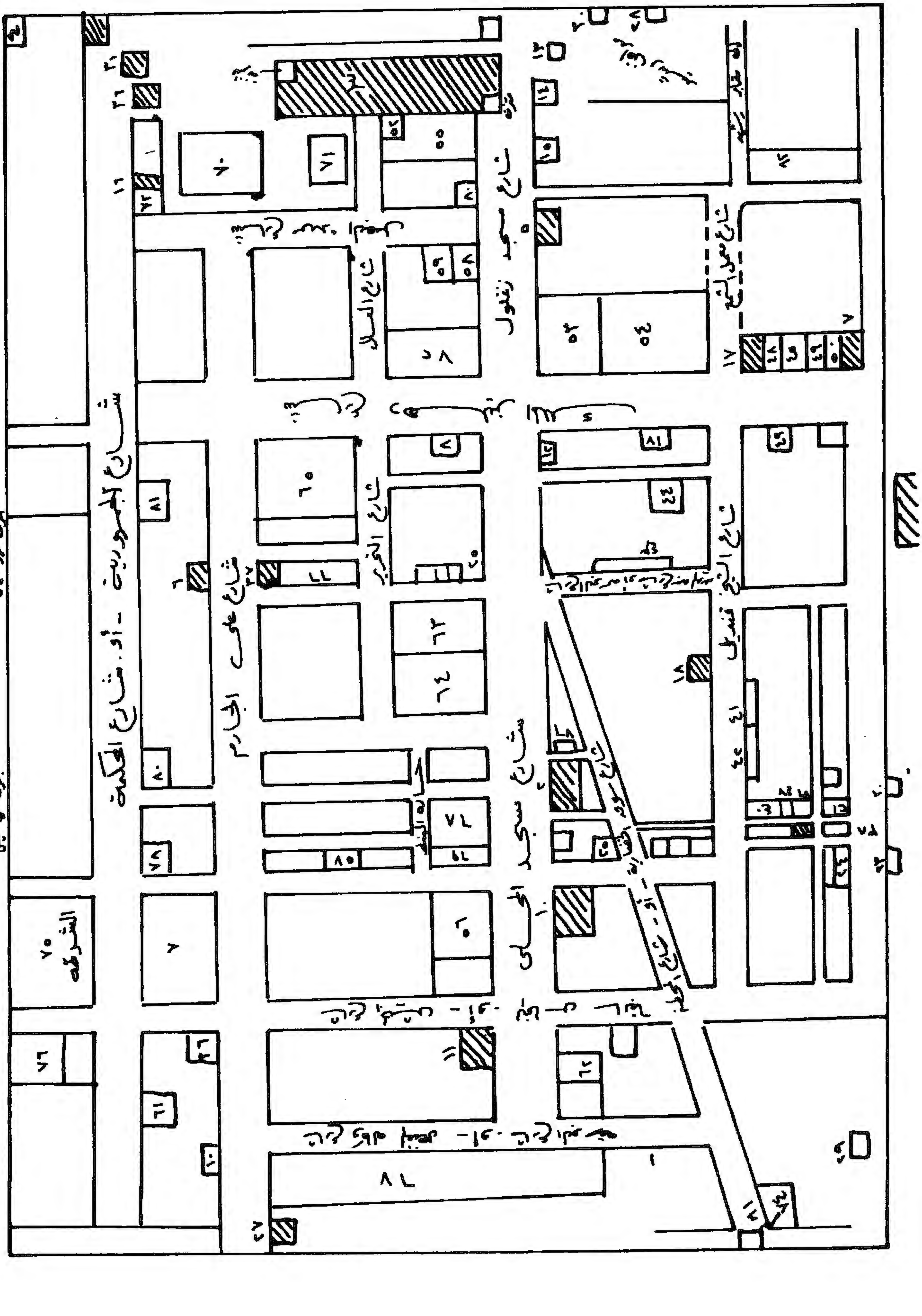
شكل رقم (١٩) مسقط أفقي لخانقاة بيبرس الجاشكنير

عن : .Creswell op.cit. VII





شكل رقم (٢٠)
مسقط افقي لمنزل جمال الدين الذهبي
(عن مصلحة الآثار المصرية)



مباني أثرية

شكل رقم (٢١) تخطيط مدينة رشيد عن : عباس السيسي، مدينة رشيد الباسلة، دار الدعوة، الاسكندرية (١٩٧٩م)

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ٢٤٣ - ٢٦٢ (١٩٨٧)

شواهد قبور إسلامية مبكرة من مصر في متحف الفنون الجميلة ، بوسطن

للأستاذ جورج سي . مايلز
ترجمة
الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي

ملخص البحث : يتناول هذا البحث الذي أعده ونشره باللغة الانجليزية عالم المسكوكات الأمريكي الأستاذ جورج مايلز ، مجموعة من شواهد القبور العربية المصرية التي نقلت الى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٠٧م ، وحفظت بمتحف الفنون الجميلة في مدينة بوسطن . ويتألف عدد شواهد هذه المجموعة من أربعة عشر شاهداً جنائزياً من الرخام المنقوش بالخط الكوفي اليابس ، بطريقته الغائرة والبارزة ، وزينت ، في نفس]الوقت ، بعض حروف هذه النقوش وحواشيها بعناصر زخرفية رائعة تشكل نماذج فريدة للزخارف الخطية التي شاعت في مصر في الفترة التي يعود اليها تاريخ كتابة هذه المجموعة في القرن الثالث الهجري/ التاسع وأوائل العاشر الميلادي ، تلك الفترة التي شهدت تجويد هذا النوع من الخطوط العربية في مصر وخارجها .

ويشمل هذا البحث قراءة النصوص التذكارية التي تعلو بلاطات هذه الشواهد ، وكذلك التعليق على أسماء الأشخاص المتوفين ، ونسبتهم إلى القبائل أو الأماكن التي كانوا ينتمون اليها في حياتهم . بالإضافة إلى التعليق على أشكال الحروف ، ونماذج الكتابة ، والزخرفة الخطية ، وشكل الإطارات التي تحيط بالشواهد مع مقارنة ذلك بالنماذج الخطية المشابهة والمنشورة في كثير من الدراسات التي تهتم بتوثيق وتطور الخط العربي الإسلامي ، ولا سيما تلك التي تتناول شواهد قبور مصرية مماثلة . ويعتبر هذا البحث دراسة رائدة في موضوعه ، حيث اجتهد مؤلفه في وضع أسس نشر النقوش الشاهدية وقواعدها التي يسير عليها اليوم معظم دارسي هذا الحقل من الآثار الإسلامية .

تعد الكتابات الإسلامية على شواهد القبور من الحقول المهمة في الدراسات التأريخية والأثرية ، فهي تحمل كثيراً من الحقائق المتعلقة بتأريخ الوفيات ، وألقاب المتوفين ، ونسبهم ، ومناصبهم ، فضلاً عن قيمتها الجمالية ، وأهميتها في دراسة تطور علم الكتابات العربية .

وكان العلماء الغربيون أول من اهتم بدراسة هذا الحقل منذ حوالي قرنين من الزمان ، حيث عملوا على استنساخ الكتابات العربية الإسلامية وتصويرها ، ومن ثم دراستها دراسة منهجية أوصلتهم إلى كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بأشكال الحروف ، وتطورها ، والأساليب الزخرفية التي استخدمت في تجميل الحرف العربي وتنميقه . ثم ظهرت بعد ذلك بعض المحاولات من قبل الكُتّاب العرب ، وأصبحت مادة الكتابات علماً يدرس في الجامعات ، ومع ذلك فلا تزال المكتبات العربية تفتقر إلى المزيد من الأعمال التي تعالج هذا الموضوع معالجة منهجية ، وتلبي بالتالي حاجة طلاب هذه المادة عند الرجوع إليها .

ويرتكز هذا البحث وهو واحد من عشرات الأعمال المنشورة بلغات أجنبية على مجموعة من شواهد القبور

العربية الإسلامية التي نقلت من مصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ حوالي ثمانين سنة ، ونشرت عام ١٩٥٧م في المجلد الثاني من مجلة **Ars Orientalis** . وهي مجلة عالمية معروفة تعني بالفنون الإسلامية والشرقية ، وتصدر عن جامعة ميتشيجان الأمريكية . وكاتب هذا البحث هو الأستاذ جورج مايلز ، أحد أبرز المهتمين الغربيين بعلم الكتابات العربية في القرن العشرين ، وهو أمريكي الجنسية ، ومختص في علم النميات ، وعضو الجمعية الأمريكية للمسكوكات ، وله باع طويل في هذا الحقل ، ولا سيما ما يتعلق منه بالنقود الإسلامية .

وتكمن أهمية هذا البحث في تناوله مجموعة من شواهد القبور العربية المصرية القيمة التي لم ترد في سجلات متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، وبالتالي فهي بعيدة عن متناول القارىء العربي، لِقِدَمِ نشرها، ولعدم توفر هذه المجلة في كثير من المكتبات العربية في الوقت الحاضر ، وحتى لو توفرت فلا يستفيد منها إلاّ من لديه إلمام باللغة الإنجليزية، هذا إلى جانب أن هذه المجموعة محفوظة أو معروضة في مكان بعيد عن الوطن العربي ، وهذا ما يفسر عدم الإشارة إلى هذه النقوش في كثير من الأعمال التي وصلت إلى يد المترجم. وتكمن أهمية البحث أيضاً في كونه واحداً من الأعمال القليلة التي تتناول دراسة الكتابة الكوفية دراسة منهجية تعتمد على وصف المادة المكتوبة وتحليلها ، والتعليق عليها بطريقة علمية سليمة مما يجعله دون شك عظيم الفائدة للمهتمين بدراسة ونشر الكتابات العربية ، ولا سيما من الناحية المنهجية .

وقد روعي في ترجمة هذا البحث ، المحافظة على خطة المؤلف وأسلوبه باستثناء تصرف محدود يتمثل في فك الأقواس التي تكتنف بعض الجمل ، وتحويل بعض الأرقام والحروف إلى عبارات مكتوبة ، ثم إضافات طفيفة وضعت بين خاصرتين [ ] ، فيما عدا عبارات الربط التي أضيفت كلما دعت إليها ضرورة تأدية المعنى ، واستقامة الأسلوب ؛ وكذلك دمج عنوان التعليق على أسلوب الكتابة والزخرفة في كل نقش مع التعليق على شخصية صاحب الشاهد ، وجعلهما تحت عنوان واحد تحاشياً لكثرة العناوين التي لا تزيد المعلومات في بعضها عن سطر واحد .

ويشمل هذا العمل غير الترجمة ، التحقق من صحة قراءة المؤلف للنصوص العربية التي تحويها هذه الشواهد ، حيث كانت بحق قراءة دقيقة باستثناء بعض الأخطاء الطفيفة التي تمت مقابلتها مع الأصول ومن ثم تصحيحها في المتن، وإثبات القراءة السابقة في الهوامش ، كما أن المؤلف استخدم الرمز [Sic] ، ووضعه أمام الكلمات التي تراءت له أنها كتبت بطريقة تخالف القاعدة الإملائية المستخدمة في الوقت الحاضر ، ولكنه لم يلتزم بهذا المنهج في جميع النصوص ، إذ نسي أن يضع هذه الإشارة أمام كلمات أخرى يختلف رسمها عن هذه القاعدة ، لذا تمت المحافظة على إشارة المؤلف كما هي بالأحرف اللاتينية ، وأضيفت كلمة [كذا] التي تقابلها في اللغة العربية ، أمام الكلمات التي فات على المؤلف أن ينبه إليها .

أما في نظام الإحالات ، فقد استخدم المؤلف عدداً من المصادر والمراجع بجانب بعض الشروحات التي أثبتها في الهوامش تحت أرقام تسلسلية يبلغ عددها أربعة وعشرين إحالة . وقد تمت المحافظة على هذه الإحالات حسب تسلسلها بعد ترجمة ما هو قابل للترجمة منها ، ثم أضيفت إليها أرقام أخرى اقتضاها التعليق على بعض النقاط وأثبتت في الهوامش بجانب حرف (م) ، للدلالة على أنها من وضع المترجم . وختاماً ، نسأل اللّه التوفيق في هذا العمل المتواضع ، وأن ينفع به القارىء العربي .

مقدمة المؤلف

في سنة ١٩٠٧م ، حصل متحف الفنون الجميلة في مدينة بوسطن الأمريكية بوساطة المرحوم يوسف لندن سميث على أربعة عشر شاهداً من الرخام لقبور عربية مصرية ؛ منها اثنا عشر شاهداً مؤرخة للفترة بين سنة ٢١٨ - ٢٩١هـ (٨٣٣ - ٩٠٤م) ، وواحد غير مؤرخ ، والآخر فقدت منه قطعة صغيرة بها عدد من الأسطر ، وهو يفتقر أيضاً إلى تأريخ . وحسب علم الكاتب[١] ، فإن أياً من هذه الشواهد لم يسبق له أن

(١) أسلوب المؤلف الذي لا يفضل استخدام ضمير المتكلم ، وهو أسلوب شائع بين الكتّاب الغربيين ، وسيلاحظ في مواضع أخرى من هذا البحث .

نشر ، سواء في مجموعة[٢] Répertoire Chronologique d'épigraphie Arab أو في أي مكان آخر ، في حين أن المادة التأريخية واللغوية التي تحويها هذه النقوش تعتبر، نوعاً ما على درجة من الأهمية . وهي أيضاً لا تخلو من القيمة في دراسة النقوش الكوفية ، ومن المحتمل أنها ستكون ذات فائدة لدارسي هذا الحقل من الآثار الإسلامية ، وذلك بإضافة هذا القدر الضئيل من الأدلة التوضيحية إلى المصادر الغنية المتاحة في تلك المجلدات المتعددة التي تصف نقوشاً شاهدية مماثلة في المتحف العربي بالقاهرة (متحف الفن الإسلامي حالياً) . ولقد كان الكاتب معجباً ، أثناء إعداد هذه القائمة المختصرة[٣] ، بذلك القدر من الأدلة المؤرخة القيمة التي تقدمها تلك النقوش. وهي ـ بالرغم من بساطتها وتواضعها ـ فإن الكثير منها قد هيء لدراسة تطور الخطوط العربية الزخرفية في مصر. ويأمل الكاتب في مقال قادم أن يأخذ على عاتقه القيام بدراسة منهجية لهذا التطور ترتكز بصورة أساسية على المادة المنشورة جميعها .

وقد تم ترتيب شواهد القبور هنا بحسب تسلسلها التأريخي ، ولكن سيلاحظ ، من حيث طريقة الكتابة ، أنها تندرج تحت مجموعتين رئيستين :

المجموعة الأولى : كتبت شواهدها بطريقة الحفر الغائر ، وهي رقم ١ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ونقشت شواهد المجموعة الثانية بالطريقة البارزة ، وهي رقم ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ . وأقدم نقش في هذه المجموعة الأخيرة هو رقم ٢ المؤرخ في سنة ٢٣١ هـ ، والذي عمل بعد أقل من ثلاثين سنة من تأريخ أقدم مثال لهذا النوع من الكتابة في مجموعة القاهرة الكبيرة .

رقم (١)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر ربيع الثاني سنة ٢١٨ هـ (ابريل ـ مايو ٨٢٣م) ، عشرة أسطر بالخط الكوفي الغائر ، المزخرف جزئياً . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده ٤٠,٥ × ٥٠,٥ سم ، (رقم السجل ٠٧,٢٧٤) ، شكل (١) .

النص

١ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ شهد الله انه لا اله الا هو والملا
٣ ئكة وأولو العلم [Sic] قائما بالقسط لا ا
٤ له الا هو العزيز الحكيم . هذا ما
٥ تشهد عليه زينة ابنت [كذا] عثمنت [كذا] بن شعيب
٦ بن نافع الجهني . تشهد الا اله الا الله وحد
٧ ه لا شريك له وان محمد [كذا] عبده ورسوله صلى الله
٨ عليه وسلم وان الجنة حق والنار والبعث حق و
٩ ان الله يبعث من في القبور توفيت في ربيع الأخر سنة
١٠ ثمان عشرة ومائتين .

التعليق

لا يقدم هذا النص ميزات غير عادية ، فهو يحتوي على صيغ من مألوف العصر الذي عمل فيه ،[٤] ومن هذه الصياغات آيتان من القرآن الكريم ، الأولى من سورة آل عمران ، آية ١٨ (سطر ٢ ـ ٤)[٥] ، والثانية مقطع من الآية (٧) من سورة الحج ، وهي تشكل الجزء الأول من السطر التاسع . أما كلمة « الجهني » فهي إما أن تكون نسبة إلى قبيلة من قبائل قضاعة اليمنية[٦] ، أو إلى قرية في مقاطعة الموصل.[٧]

(٢ م) هذه المجموعة عبارة عن ثبت أو سجل زمني للخطوط العربية تقع في عدة مجلدات ، قام بجمعها ، وتبويبها عدد من الكتّاب الغربيين ، هم :

G. Wiet, Combe and Sawraget.

وطبعت بالمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٣١م.

(٣) بديء في إعداده سنة ١٩٤٠م ، ولكن توقف العمل فيه بسبب الحرب العالمية الثانية .

(٤) عن مناقشة قيمة للصياغات الدينية على شواهد القبور المصرية ، انظر :

Gaston Wiet, «Stéles Coufiques d'Égypt et du Soudan» **Journal Asiatique**, Vol. 240 (1952), pp. 273 FF.

(٥ م) الإشارة هنا لأرقام الأسطر التي في النص ، وما يقابلها في الشاهد . في الأصل الإنجليزي الآية (١٦) ، وقد وردت بهذا الرقم في جميع النصوص التي ستأتي وصححتها الآية (١٨) .

(٦) انظر :

H. Lammens, « Kuda—ᶜ a», Encyclopaedia of Islam, Leyden- London, 1913-34, Vol. 2, pp. 1093-1094.

(٧) السمعاني ، كتاب الأنساب ، E. J. W. Memorial Services, Vol. 20, London - Lieden, 1913. Fol. 145b.

(المترجم) ، ويقصد الكاتب أن قبيلة جهنية هي فرع من قبيلة قضاعة اليمنية =

يحف بالنص إطار يتكون من خط بسيط ، وحاشية زخرفية على شكل سلسلة تحيط به من الخارج ، وهذه الحواشي الزخرفية التي تشبه السلاسل ، شائعة الاستعمال على شواهد القبور المصرية ، وأقدم ظهور لها كان في سنة ١٩١ هـ .(٨) وتتميز الكتابة الكوفية في هذا الشاهد بوضوحها ، وسهولة قراءتها ، وإذا استثنيت اللواحق الزخرفية والأشكال الوتدية التي يكثر شيوعها في جميع هذه النقوش ، فإن معظم أجزاء الكتابة هنا لا تلحقها عناصر تزيينية . ولكن هنالك بعض الحروف المزخرفة المتفرقة التي تتناثر في هذا النقش ، وبصورة خاصة في الأسطر القليلة الأولى . والعناصر الزخرفية الرئيسة لهذه الحروف ، هي نصف المراوح النخلية ، والأغصان التماثلية . ومن هذه الحروف المزخرفة : **الباء والميم** في الكلمة الأولى [بسم] وعدد من أحرف **الألف** ، **واللام** ، **والراء** ، **والدال** (مرتين) ، **والكاف** (مرة واحدة) ، وحرفا **النون والياء النهائيان** (مرة واحدة لكل منهما) .

وأول ظهور للزخارف الخطية التي تشبه المراوح النخلية على شواهد القبور المصرية ، كان في أواخر القرن الثاني الهجري (انظر على سبيل المثال) :

(سجلات المتحف العربي بالقاهرة) ، شواهد القبور ، الجزء الأول ، شاهد رقم ٤٦/١٥٠٦ ، لوحة ٧ ، مؤرخ في سنة ١٩٢هـ . أما الأغصان التماثلية ، فقد وجد ما يشابهها أيضاً على نقش مصري مؤرخ في السنة نفسها التي عمل فيها هذا الشاهد ، موضوع الدراسة (المصدر نفسه ، رقم ٦/٣٣٨٠ ، لوحة ٣٠) . واتخذت أحرف **اللام ألف** أشكالاً متنوعة منها في السطر الثاني ثلاثة أشكال مختلفة ومتباينة في قوائمها : فالأول قائماه على شكل مربع ، وقائما الثاني مقعران وملتويان إلى الداخل ، والثالث متعدد الأغصان . وثمة **لام ألف** آخر في السطر الثالث جاء قائماه متعددي الأغصان وفي الوقت نفسه مقوسان وملتويان إلى الخارج ، في حين أن الشكل البسيط لحرف **اللام ألف** لا يزال يلاحظ في السطر السابع من هذا النقش . وقد بدأت أمثلة هذه المعالجة الخيالية في تشكيل حرف **اللام ألف** منذ عهد مبكر في القرن الثالث الهجري (انظر : المصدر نفسه ، شاهد رقم ١٥٠٦/ ٥٨١ ، لوحة ١٥ ، ورقم ٣٠٠٣ ، لوحة ٢٥) ، المؤرخان على التوالي في سنتي ٢٠٥هـ ، ٢١٣هـ . بالإضافة إلى أن كلمة **الله** (سطر ١ ـ ٢) احتفظت مرتين بعنصر متوسط بين لاميها الأولى والثانية ، حيث جاء هذا العنصر مزخرفاً في إحدى الحالات ، في حين أنه في الحالة الأخرى لا يتعدى استمداداً قوسياً يرتفع قليلاً عن مستوى السطر.(٩) وقد ظهرت هذه الخاصية في شكل كتابة كلمة **الله** لأول مرة على شاهد قبر من مصر مؤرخ في سنة ١٩٠هـ (المصدر نفسه ، رقم ١٥٠٦/ ٧٤٧ ، لوحة ٥) .

رقم (٢)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر ذي القعدة سنة ٢٣١هـ (يونية ـ يولية ٨٤٦م) ، تسعة أسطر من الكتابة الكوفية البسيطة(١٠) ، المنقوشة بطريقة الخط البارز المسطح . وهو مستطيل الشكل [أبعاده] ٤٠ × ٦٩سم ، (رقم السجل ٠٧, ٢٧٩) ، شكل (٢) .

الكبيرة ، ولكن قضاعة مختلف في نسبتها إلى اليمن (أي إلى قحطان) : انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، بيروت دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م ، ص ٤٤٠ . ومن جهة أخرى ، لم يرد في كتاب الأنساب ، طبعة بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ما يشير إلى نسبة أي شخص إلى قرية جهينة بالموصل ، انظر : جـ٣ ، ص ٣٩٤ ـ ٦ . ولكن يفهم من ياقوت أن جهينة قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة ، وأنه ينتسب إليها كثيرون ، انظر : معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ م) ، ص ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٨) Hassan Hawary and Hussein Rached, «Stéles Funéraires», Vol. I (**Catalogue Général du musée Arabe du Cairo**), Cairo, 1932, No. 113.

عن تحليل ومناقشة الحواشي والعناصر الزخرفية الأخرى على شواهد القبور العربية في مصر ، انظر :

J. Strzygowski, «Ornamente alarabischer Grabsteinen in Kairo», **Der Islam**, Vol. 2 (1911), pp. 305-336.

(٩ م) الاستمداد : هو الإطالة والتمطيط ، انظر : إبراهيم جمعة ، دراسة في تطور الكتابات الكوفية ، (القاهرة ، ١٩٦٩) ، ص ١٠٦ .

(١٠) الكوفي البسيط : هو الذي لا يلحقه توريق أو تخميل أو تظفير ، ومادته كتابية بحتة ، انظر ، المرجع نفسه ، ص ٤٣- Grohmann, «The Origin and Early Development of Floriated Kufic,» **Ars Orientalis**, Michigan, 1957, Vol. 2, p. 184.

النـــص

١ بسم الله الرحمن الرحيم * شهد الله انه
٢ لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قا
٣ ئما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم
٤ هذا ما يشهد به عبدوس بن سعيد يشهد بما شهد
٥ الله به لنفسه وشهدت له به ملائكته واولوا ا
٦ لعلم من خلقه انه الله لا اله الا هو العزيز الحكيم
٧ ويشهد ان الموت والبعث حق والجنة والنار حق
٨ والساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور
٩ .... القعدة سنة احدى وثلثين ومائتين رحمه الله

التعليـــق

يحتوي هذا النص على الصيغ التقليدية ، ومنها آيات قرآنية من سورة آل عمران ، الآية (١٨) التي تبدأ من آخر السطر الأول إلى نهاية السطر الثالث ، ويتكيف معناها مع العبارات التي تكون الأسطر الرابع والخامس والسادس ، أما السطر الثامن ، فهو اقتباس من سورة الحج ، الآية (٧) .

يحف بالنقش من اليمين واليسار إطاران رأسيان على هيئة حبل مفتول[١١] ، ثم وريدة سداسية الفصوص تفصل البسملة عن الآية الأولى . وكتابته الكوفية واضحة وجلية ، وفيما عدا بعض الحروف القليلة جداً ، فإنها غير مزخرفة تماماً . ويشمل هذا الاستثناء اثنين من أحرف الألف ، أحدهما في السطر الأول ، والآخر في السطر الثاني وحرف الكاف (سطر ٣)، وحرفي اللام ألف (سطر ٢ ، ٣) ، وجميع هذه الأحرف المذكورة مزخرفة بما يعرف بنصف المراوح النخلية . وهذا الأسلوب في طريقة الكتابة البارزة التي نقشت بدون تأنق زخرفي ـ حسبما يعرضه هذا النقش ـ يبدو أنها بدأت في الظهور منذ مطلع القرن الثالث الهجري . وأول الأمثلة على هذا النوع من الكتابة في مجموعة شواهد القبور الكبيرة في المتحف العربي بالقاهرة ، نقش مؤرخ في سنة ٢٠٣ هـ .[١٢] أما بالنسبة للأحرف المزخرفة بأشكال المراوح النخلية المطورة ، فيبدو أن هذا النقش هو أول الأمثلة على استخدام هذا النوع من الزخرفة ، لأن أول مثال توضيحي في سجلات المتحف العربي بالقاهرة يوجد على شاهد قبر مؤرخ بعد ست سنوات من تأريخ هذا النقش ، أي في سنة ٢٣٧ هـ .[١٣]

رقــم (٣)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر ذي القعدة سنة ٢٣٧هـ (ابريل ـ مايو ٨٥٢م) ، تسعة أسطر من الكتابة الكوفية البسيطة المنقوشة بطريقة الخط البارز ، وهو غير منتظم الشكل ، [معدل أبعاده] ٣٨ × ٥٠سم ، (رقم تسجيل ٢٦٨, ٠٧) ، شكل (٣) .

النـــص :

١ بسم الله الرحمن الرحيم ان في
٢ الله عزاء من كل مصيبة وخلف من كل
٣ هالك ودركا [Sic] لما فات وان اعظم
٤ المصائب المصيبة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم
٥ واجد بن رجاء كان يشهد الا اله الا
٦ الله وحده لا شريك له وان محمد [كذا] عبده .
٧ ورسوله صلى الله عليه وسلم وأن[١٤] الجنة
٨ والنار والموت والبعث حق توفي في
٩ ذي القعدة سنة سبع وثلثين ومائتين

التعليـــق

يحتوي النص على صيغ مألوفة ، واسم المتوفي ربما يكون واجد [بالجيم المعجمة] ، ومن المحتمل أيضا أن يكون واحد [بالحاء المهملة] . والكتابة الكوفية في هذا

---

(١١) عن مثال مشابه لهذا النوع من الحواشي الزخرفية ، مؤرخ في سنة ٢٣٠هـ ، انظر : Stéles Funéraires, Vol. I, No. 2721/96 (pl. 47)

(١٢) المصدر نفسه ، جـ ١ ، شاهد رقم ٢٦٢١ / ٨٧ ، وليس هذا هو النوع الوحيد الذي يتم توضيحه في سجلات متحف القاهرة (لوحة ١٢) ، ولكن المؤلف يصرح ، وبصورة محددة ، بانه أول ظهور لهذا النوع من العلامات .

(١٣) المصدر نفسه ، رقم ٧٠١١ ، لوحة (٥٩) ، وانظر أيضاً :
Gaston Wiet, Stéles Funéraires, Vol. 2, (Cairo, 1936), Nos. 2721/70 (pl. 8) and 4288 (pl. 9).
وكلاهما مؤرخان في سنة ٢٤٣ .

(١٤م) (أن) سقطت من الأصل والتصحيح من الشكل رقم (٣) .

النقش غير مزخرفة تماماً ، وهي مزدحمة ، وليست مميزة ، وإلى حد ما غير متقنة . وقد أدى شكل الحجر غير المنتظم إلى ميلان السطر الأخير إلى أعلى ، وإلى رص الكلمات النهائية في مسافة محدودة جداً . ويظهر أن أسلوب هذه الكتابة التي جاءت أحرفها مضغوطة في الأسطر السفلية من هذا النقش (عن مزيد من الأمثلة لنماذج مشابهة ، انظر : رقم (٦) فيما سيأتي وقد بدأ في الظهور في حوالي هذا الوقت[١٥] . لأن أول الأمثلة التوضيحية التي تمثل هذا الأسلوب في سجلات متحف القاهرة ، هو شاهد قبر مؤرخ في سنة ٢٤٢هـ.[١٦]

رقم (٤)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في الثالث من شهر ذي الحجة سنة ٢٤٨هـ (الموافق السادس والعشرين من شهر مايو عام ٨٥٣هـ) ، خمسة عشر سطراً بالخط الكوفي الغائر ، المزخرف جزئياً ، مكسور (ثلاث قطع كبيرة وثلاث أخرى صغيرة) ، وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٨٦ × ٥٠سم ، (رقم السجل ٢٧٠ و ٠٧) ، شكل (٤) .

النص :

١ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله الذي كتب الرحمة على نفسه والموت على خلقه

٢ والبعث لقضائه والحساب لجزائه ولن جمعة ا [بنت] عمار لم تزل مقرة لله بالوحدانية معترفة

٣ الله [Sic] بالربوبية موقنة بوعد الله رجية [كذا] لعفو الله و [كان ؟] تشهد بما شهد الله لنفسه و

٤ شهدت له به ملائكته واولوا العلم من خلقه انه الله [لا] اله الا هو قائما بالقسط لا اله

٥ الا هو العزيز الحكيم وتشهد ان محمدا عبده ورسوله المصطفا [كذا] ونبيه المرتضا[١٧] [كذا] وخيرته .

٦ من خلقه وانتخبه لوحيه وارسله بدينه الذي ارتضاه لنفسه الى خلقه فبلغ رسالـ.....

٧ اظهر دين الله وجاهد في الله حق جهاده[١٧أ] حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وسلم و ...

٨ ان الموت حق والبعث حق والصراط والميزان والحساب والجنة والنار حق وان الساعة اتية

٩ لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور على هذه الشهادة حييت وعليه [كذا] ماتت وعليه [كذا] تبعث .

١٠ ان شاء الله اللهم اغفر لها ذنبها ونور لها قبرها ووسع عليها مداخلها واعطها كتابها[١٨]

١١ ..... لقنها حجتها[١٩] ... القول الثابت وبيض وجهها وانس وحشتها[٢٠] . وارحم وحدتها وثبت

١٢ عند المسائلة منطقها واجعل قبرها عليها روضة من رياض الجنة برحمتك يارحم [Sic] الراحمين

١٣ واجعلها رفيقة لمحمد صلى الله عليه وسلم والذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين وا

١٤ لشهداء والصالحين وحسن اوليك رفيقا توفيت رحمة الله [عـ] ليها ومغفرته يوم الخميس

١٥ الثالثة اعشر [Sic] ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

التعليق

يشكل هذا النقش الطويل عدداً من الصيغ الجنائزية ، بعضها شائع الاستعمال ، والبعض الآخر أقل استعمالاً ، وتتطابق فيه عبارات السطرين الأولين ، وربع ثالثهما تقريباً مع تلك التي توجد على شاهد قبر في المتحف العربي بالقاهرة ، مؤرخ في سنة ٢٤٧هـ[٢١] أما الأسطر من نهاية الثالث إلى أوائل الخامس فعباراتها مقتبسة من القرآن

(١٥م) يعني الوقت الذي يؤخر له هذا الشاهد ، موضوع الدراسة .

(١٦) «شواهد القبور» ، جـ ٢ ، رقم ١٥٠٦/ ٦٦٩ ، لوحة (٩) . وقد أعطي رقماً خاطئاً هو ١٥٠٦/ ٦٩٩ .

(١٧م) ت الأصل : المرتفها والتصحيح من الشكل رقم (٤) .

(١٧أ) في الأصل : حين والتصحيح من الشكل نفسه .

(١٨م) في الأصل : كيانها ، والقراءة الصحيحة كتابها .

(١٩م) في الأصل : مطموسة ، والتصحيح من الشكل السابق .

(٢٠م) في الأصل : حشتها ، والتصحيح من الشكل نفسه .

(٢١) Répertaire, Vol. 2, No. 468.

الكريم ، سورة آل عمران ، آية (١٨) ، وكذلك يمكن مقارنة اسم المتوفاة « جمعة » مع نظيريه الَّذين وردا في الجزء الأول من مجموعة شواهد القبور في المتحف العربي بالقاهرة تحت رقم ٢٧٢١/ ٦ ورقم ٧٢٨٥ . كما أن طريقة كتابة كلمتي المصطفى والمرتضى في السطر الخامس جاءتا في رسمهما على نحو مشابه لبعض كلمات شاهد آخر مؤرخ في سنة ٢٤٨ هـ .[٢٢] وقد فقدت من هذا النقش ثلاث قطع صغيرة بالإضافة إلى أجزاء أخرى أصغر ، ولكن بالإمكان إعادة تركيبها في الجزء الذي فقدت منه ، وهو نهاية السطر السادس والسابع وبداية السطر الحادي عشر .

وفي مجال الخط والزخرفة ، يتميز هذا النقش بوجود عنصر زخرفي يشبه خاتم سليمان مع كريات صغيرة بين الأطراف والمركز ، وهو يفصل البسملة (سطر ١) عن بداية عبارة التشهد التي تليها .[٢٣] ويمثل أسلوب الكتابة الكوفية هنا نفس الأسلوب الذي ورد في الشاهد رقم (١) من هذه المجموعة والذي سبق الحديث عنه فيما تقدم . كما يشبه أيضاً أسلوب كتابة الشاهدين رقم (٥) ، (١٣) ، اللذين سيأتي الحديث عنهما فيما بعد . وتوجد الحروف المزخرفة فقط في السطر الأول من هذا النقش ، ومنها ظهور نصف المراوح النخلية على أحد عشر حرفاً من حروف **الألف واللام**. أما آخر كلمة في هذا النقش، فقد مُدَّ في حروفها حتى تملأ الفراغ في السطر (مقارنة مع رقمي (٧) ، (٨) الآتيين) .

رقم (٥)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر شوال سنة ٢٤٤هـ (يناير ـ فبراير عام ٨٥٩م) ، ثلاثة عشر سطراً بالخط الكوفي الغائر ، المزخرف جزئياً ، مكسور (قطعتان) . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٥٥ × ٤٤سم ، (رقم السجل ٢٧٣, ٠٧) ، شكل (٥) .

النــص

١ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ شهدت مرام ابنت [كذا] عمرو
٣ بن هشام التجني الله بما شهد
٤ الله به لنفسه وشهدت له به
٥ ملائكته واولوا اعلم [Sic] من خلقه
٦ ... الله لا اله الا هو قائما با
٧ لقسط لا اله الا هو العزيز
٨ الحكيم وتشهد ان محمد [كذا]
٩ عبده ورسوله صلى الله عليه
١٠ وسلم وتشهد ان الموت والبعث
١١ والجنة والنار حق وان الله يبعث من
١٢ في القبور توفيت رضي الله عنها
١٣ في شوال سنة اربع واربعين ومئتين

التعليــق

يحتوي هذا النص على صيغ مألوفة ، تتلاءم في معناها مع الآية (١٨) من سورة آل عمران (سطر ٥ إلى بداية سطر ٨) ، وجزء من الآية (٧) من سورة الحج التي تشمل النصف الثاني من السطر الحادي عشر إلى بداية السطر الثاني عشر . أما نسبة جد المتوفاة « التجني » ، فيبدو أنها جاءت من اسم قبيلة استوطنت بمصر وعاشت فيها .[٢٤]

وفيما يتعلق بأسلوب الكتابة الكوفية في هذا النقش فإنه قريب الشبه بأسلوب كتابة الشاهد رقم (٤) المتقدم ذكره ، ويتطابق تقريباً مع رقم (١٣) الذي سيأتي . وتقتصر الأحرف المزخرفة فيه على حرفي **الألف واللام** (سطر ١) وكذلك عراقة **الميم النهائية** في السطر نفسه .[٢٥] وفوق السطر الأول ، وفي موضع منفصل تماماً عن الأحرف ، توجد ثلاثة

---

(٢٢) المصدر نفسه ، رقم ٤٩٠ .

(٢٣) هذا الرمز سواء بالنقط أو بدونها ، يتكرر ظهوره على شواهد القبور المصرية ، انظر : «Stéles Funéraires», Vol. I, Nos. 1506/687, 4522; 2721/25, 2721/56, 1506/32.
وهي مؤرخة على التوالي في سنة ١٨٥هـ ، وسنة ١٩٠هـ ، وأيضاً سنة ١٩٠هـ ، وسنة ٢٠٠هـ ، وسنة ٢٣٦هـ الخ . . وهناك مثال مشابه لهذا الرمز ، استخدم بالضبط في موضع مطابق لموضعه في هذا النقش ، انظر : المصدر نفسه ، رقم ١٥٠٦/ ٦٩ ، لوحة (٥٥) ، وتاريخ ٢٣٥هـ . وعن مناقشة هذه الزخرفة ، انظر أيضاً : Strzygowski, p. 319.

(٢٤) السمعاني : ورقة ١٠٣ ب .

(٢٥م) العراقة : هي الجزء المدور الذي يهبط عن خط استواء الكتابة أو مستوى تسطيحها ، انظر : جمعة ، ص ٩٦هـ٣ ، ١٠٥ .

زخارف هي : نصف مروحة نخلية ، ووريدة صغيرة وزهرة متصلة بنصف المروحة النخلية . وأول أمثلة توضيحية لزخارف مستقلة كهذه ، توجد على شواهد قبور من مصر ، مؤرخة في السنة التي تسبق تأريخ هذا النقش .[٢٦] واتخذ حرف اللام ألف هنا أشكالاً متنوعة ، كما اتخذتها عدة حروف أخرى نهائية ، مثل حرف الياء في وسط السطر الثاني عشر ، حيث مدت عراقته الى أعلى لتصبح متساوية في الطول مع رؤوس الأحرف القائمة .

رقم (٦)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر ربيع الآخر سنة ٢٥١هـ (مايو عام ٨٦٥م) ، إثنا عشر سطراً بالخط الكوفي البسيط ، المنقوش بالطريقة البارزة ، وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٥٩ × ٥٠سم ، (رقم السجل ٠٧,٢٧٨) ، شكل (٦) .

النـص

١ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ الحمد لله الذي كتب الرحمة
٣ على نفسه والموت على خلقه
٤ والبعث لقضائه والحساب
٥ لجزائه هذا ما يشهد عليه
٦ عبد الله بن محمد يشهد ا
٧ لا اله الا الله وحده لا شر
٨ يك له وان محمدا عبده و
٩ رسوله صلى الله عليه
١٠ وسلم توفي في شهر ر
١١ بيع الأخر سنة احدى و
١٢ و [Sic] خمسين ومائتين .

التعليـــق

يحتوي هذا النص على الصيغ المعتادة ، وليس فيه ميزات جديرة بالملاحظة ، وكتابته الكوفية غير مزخرفة تماماً ، وهو يشبه الشاهد رقم (٣) من حيث الكتابة المزدحمة (انظر التعليق على هذا النوع من الكتابة في رقم (٣) السالف الذكر) .

رقـــم (٧)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٥٢هـ (الموافق للثامن من شهر ابريل عام ٨٦٦م) ، اثنا عشر سطراً بالخط الكوفي البسيط ، أحرفه إلى حد ما عالية البروز . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٦٠ × ٤٠سم ، (رقم السجل ٠٧,٢٧٥) ، شكل (٧) .

النـص

١ بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما
٢ شهدت به ملكة ابنت زكير بن محيـي
٣ الا اله الا الله وحده لا شريك له
٤ وان محمدا عبده ورسوله صلى ا
٥ لله عليه وسلم وان البعث والجنة
٦ والنار حق وان الله هو الحق المبين ا
٧ للهم تفضل[٢٧] عليها برضوانك و
٨ عفوك وحسن تجاوزك يا رحيم
٩ فبلغها بمنك افضل درجات جنتك
١٠ وجوار نبيك يا كريم توفيت يوم الثلثا [كذا]
١١ لاثني عشر بقين من ربيع الاول من سنة
١٢ اثنتين وخمسين ومائتين

التعليـــق

يتكون هذا النص من الصيغ المعتادة مع بعض الاختلافات مثل « الحق المبين » في السطر التاسع ، وهي من القرآن الكريم ، سورة النور ، الآية (٢٥) ، وسورة النمل الآية (٧٩) .[٢٨] أما بالنسبة لاسم والد المتوفاة « زكير » فيمكن مقارنته بالنقش رقم ١/٣٩٧٤ الذي ورد في الجزء

(٢٦) انظر : شواهد القبور ، جـ٢ ، رقم ٢٧٢١/ ٢٠٩ ، لوحة (١٣) ، ورقم ١٢٦١ ، لوحة (١٤) وآخر مؤرخ في سنة ٢٤٤هـ ، ورقمة ١٥٠٦/ ٢٤ ، لوحة (١٧) ، هذه الأمثلة متطابقة فعلياً مع نقشنا هذا .

(٢٧م) في الأصل : تفصل ، والتصحيح من قبل المترجم .
(٢٨م) في الأصل : (الآية ٨١) .

الأول من مجموعة شواهد القبور بالمتحف العربي بالقاهرة .

النــص

١ بسم الله الرحمن الرحيم ان في الله عز
٢ ا، من كل مصيبة وخلف من كل هالك ودر
٣ كلما فات وان اعظم المصائب المصيبة
٤ بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم هذ
٥ ا ما تشهد به بانوار [؟] ابنت ابو [Sic] الحديد
٦ بن اسحق تشهد الا اله الا الله وحده
٧ [لا] شريك له وان محمدا عبده ورسو
٨ [لـ]ه صلى الله عليه وسلم وتشهد ان ا
٩ لموت والبعث والجنة والنار حق وان الله
١٠ هو الحق المبين على ذلك حييت وعليه
١١ ماتت وعليه تبعث حية ان شاء الله
١٢ وكانت وفاتها رحمت [كذا] الله عليها في
١٣ صفر سنة أربع وخمسين ومائتين

التعليــق

يشتمل النص على الصيغ المعتادة ، وعن عبارة « الحق المبين » ، انظر : الشاهد رقم (٧) السالف الذكر . أما اسم المتوفاة ، فلم أكن قادراً على قراءته إلاّ عن طريق التخمين فقط وذلك بسبب وجود سلسلة واسعة من الحروف الساكنة التي تحتمل القراءة على عدة وجوه . فإذا كان من الممكن إرجاع كلمة « بانوار » إلى اسم فارسي ، فربما يكون هذا الاسم « شاه بانوار » .(٣٢)

والكتابة الكوفية في هذا النقش متقنة ومقروءة ، وهي في معظم الأجزاء بسيطة نسبياً ، ولكن فيها عدداً من الخصائص الزخرفية الجديرة بالملاحظة والتي تتمثل في وجود استطالة على هيئة قوس ترتفع فوق مستوى قاعدة الكتابة بين لامي كلمة « اللّه » . وهذه الخاصية في كتابة كلمة « اللّه » تظهر مرتين في السطر الأول ومرة واحدة في السطر الثاني .(٣٣) كما احتفظت معظم حروف الدال ، والكاف بلواحق نباتية في أعلاها(٣٤) ، وكذلك حرف الذال في السطر الرابع الذي جاء شكله ملفتاً للنظر ، ومثله أيضاً حرف الزاي في السطر الثالث . أما الياء النهائية ، فقد ارجعت عدة مرات إلى الوراء في ذيل طويل تحت الكلمة ، وبصورة خاصة في السطر الرابع .(٣٥) واحتفظ حرف الهاء بصورة متكررة بقائم نباتي ، أما العين المتوسطة والنهائية ، فقد حملت فوق قنطرتها شكلاً بسيطاً يشبه القبعة (سطر ٩ ، ١١ ، ١٣) . ومدت كل من عراقتي الواو النهائية والنون المنفصلة إلى أعلى بحيث جاءت نهايتهما حاملة لواحق نباتية . وكذلك أطيلت كلمة « مائتين » في مكانين من السطر الأخير لكي تملأ فراغ السطر نفسه (انظر رقم (٤) ، (٧) المتقدمين) .

رقــم (٩)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في العشرين من شهر رمضان سنة ٢٦٩هـ (الموافق للثاني من شهر ابريل عام ٨٨٣م) . خمسة عشر سطراً بالخط الكوفي الغائر المزخرف جزئياً ، به صدوع في الوسط (أربع قطع) . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٩٠ × ٧١ سم ، (رقم السجل ٠٧,٢٧١) ، شكل (٩) .

---

(٢٩) جـ ١ ، رقم ٣٣٨٠/ ١٢ ، لوحة (١٤) . ويوجد في المصدر نفسه ، مثال آخر أقل رشاقة هو رقم ٢٧٢١/ ٩٨ ، لوحة ٤٧ . وقد حلل Strzygowski ، بشيء من التفصيل ، حواشي زخرفية من هذا النوع ، وقسمها إلى عدد من الأقسام ، انظر : المصدر السابق ، (ص ص ٣١٢ ـ ٣١٨)، قارن شكله رقم (١١) حول « التزيينات بالأشكال المحورة عن كرمة العنب » على شاهد قبر مؤرخ في سنة ٢٤٦هـ ، وشكله رقم (٣٠) ، ص (٣٢٥) ، من أجل الحصول على مثال مشابه لهذا النوع من الزخارف التي نقشت بالطريقة البارزة .

(٣٠م) تفصيل من المترجم معتمداً على شكل الشاهد .

(٣١م) في الأصل : وقتها ، والتصحيح من الشكل رقم (٨) .

(٣٢م) انظر : F. Justi, **Iranisches Namenbuck (Marburg, 1985)**, p. 274.

(٣٣) عن هذه الخاصية ، انظر : شاهد رقم (١) المتقدم ذكره .

(٣٤) انظر : **Stéles Funéraires**, Vol. I, No. 7011. وقد أورد هذا الاقتباس تحت شاهد رقم (٢) السالف الذكر .

(٣٥م) عرفت الياء الراجعة في الشواهد الحجازية المؤرخة قبل هذا النقش بحوالي قرن من الزمان ، انظر : محمد الفعر ، **تطور الكتابات والنقوش في الحجاز** ، الطبعة الأولى (جدة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) ، ص ١٩٥ .

النــص :

١ بسم الله الرحمن الرحيم ان في ا
٢ لله عزاء من كل مصيبة وخلف من كل هالك و
٣ دركا لما فات وان اعظم المصائب ا
٤ لمصيبة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم
٥ هذا ما تشهد به(٣٦) نايلة ابنت [كذا] بشر بن سيف
٦ بن عطية الديعني تشهد ان لا اله الا الله
٧ وحده لا شريك له وان محمدا عبد
٨ ه ورسوله صلى الله عليه وسلم وتشهد
٩ ان الموت والبعث حق وان الجنة والنار
١٠ حق وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله
١١ يبعث من في القبور على ذلك حييت و
١٢ عليه ماتت وعليه تبعث حية ان شاء الله توفيت
١٣ يوم الاثنين لعشر ليال بقين من شهر رمضان
١٤ سنة تسع وستين صلى الله ومائتين على محمد النبي واله
١٥ ....

التعليــق

وفضلاً عن الصيغ المألوفة [التي يحتويها هذا النص]، وجميعها مقتبسة من القرآن الكريم بما في ذلك الآية (٧) من سورة الحج في السطرين العاشر والحادي عشر ، فإن اسم المتوفاة « نائلة » من الأسماء المألوفة أيضاً ، والنسبة « الرّيعني » (سطر ٦) ، وربما تكون الرهاني ،(٣٧) لعلها ترجع إلى المسميات المحلية التي تتردد كثيراً في شعر الهذليين.(٣٨) ولم يكن في مقدوري حل رموز السطر القصير الذي جاء في آخر هذا النقش الجنائزي .

ومن حيث الخط والزخرفة ، فإن هذا النقش قد أطر من أعلى ومن الجانبين بحاشية زخرفية على هيئة سلسلة ، تشبه إلى حد ما تلك التي وردت على الشاهد رقم (١) السالف الذكر ، علاوة على وجود نقط تتخلل حاشية هذا النقش.(٣٩) كما أن الرشاقة التي يتصف بها أسلوب الخط في هذا النقش تشبه بالفعل نظيرتها في رقم (١) ، ولكن هنا ثمة ميزات بارزة ، منها حرفان لهما طرفان رشيقان موروقان هما : حرف الميم ، وأحد حروف الحاء في السطر الأول . واتخذ حرف اللام ألف أشكالاً متعددة ، فهو بسيط وموروق في السطر السادس ، ومورق بشكل متقن في السطر السابع ، وبسيط ذو طرفين ملتويين إلى الداخل في السطرين العاشر والثالث عشر(٤٠) وزخرف أحد حروف الراء ، في آخر السطر السادس ، بلاحقة على هيئة ذيل طويل يندفع برشاقة إلى أعلى ، واتخذ قائم حرف الزاي في السطر الثالث زخرفة مشابهة لتلك التي في حرف الراء . وكتبت ثلاثة من أحرف الياء النهائية بذيل راجعة إلى الوراء تحت الكلمات ، وأكثرها جدارة بالملاحظة تلك التي في السطر الرابع والتي ترجع إلى الوراء مارة من أسفل الكلمتين التي تليهما ثم ثنيت في أحد أجزائها مع نزول إلى أسفل الحروف التي تكتب تحت مستوى السطر .

رقم (١٠)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر شعبان سنة ٢٨٦هـ (أغسطس - سبتمبر ٨٩٩م) ، ستة عشر سطراً بالخط الكوفي البسيط ، المنقوش بالطريقة البارزة . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٧٦ × ٢٩ سم ، (رقم السجل ٠٧,٢٦٩) ، شكل (١٠) .

(٣٦م) في الأصل : شهد ، والتصحيح من الشكل رقم (٩) .

(٣٧م) نسبة إلى ريعان ، ومن المواقع التي عرفت بهذا الاسم خبت يقع إلى الشمال الشرقي من القنفذة بالقرب من وادي لومة ، ولعله هو الذي ورد في شعر الهذليين كما سيأتي .

(٣٨) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، (وستنفيلد ، ليبزج ، ١٨٦٦ - ٧٣) ، ص ٨٨٧ (المترجم) ، ريعان المذكور آنفاً ومواقع أخرى قريبة منه وردت في شعر الهذليين ، لقربها من أوطانهم ، انظر : أبو سعيد السكري ، كتاب شرح أشعار الهذليين (القاهرة ، ١٩٦٥م) في أماكن متفرقة .

(٣٩) عن هذا النوع ، من الحواشي الزخرفية . انظر : Strzygowski, p. 311 .

(٤٠) انظر : الشاهد رقم (١) السالف الذكر .

النــص :

١ بسم الله الرحمن الر
٢ حيم قل هو الله احد
٣ الله الصمد لم يلد
٤ ولم يولد ولم يكن
٥ له كفوا احد هذا
٦ قبر محمد بن ايوب بن
٧ عبد الله الصغدي [؟]
٨ العطا [Sic] توفي وهو
٩ يشهد ان لا اله
١٠ الا الله وحده
١١ لا شريك له وان
١٢ محمدا عبده ور
١٣ سوله صلى الله عليه
١٤ وسلم توفي في شعبان
١٥ سنة ست وثمنين [كذا] وما
١٦ ئتين

التعليــق :

تحتوي الأسطر من الأول إلى الخامس في هذا النص على سورة الإخلاص بتمامها ، وقد قرأت النسبة في آخر السطر السابع على أساس أنها « الصغدي » ونظراً لشدة صعوبة قراءة أحرف هذه الكلمة ، ولكونها مبهمة ، إلى حد ما ، فإنني أقدم هذه القراءة عن قلة ثقة فيها . وتبدو قراءة الكلمة الأولى « العطا » ، في السطر التالي [الثامن] من هذا النقش ، غير مقصودة ، ويمكن الاستدلال فقط على أن القراءة المقصودة لهذه الكلمة هي « العطار » (أي بائع العطر) ولكن حرف [الراء] الأخير سقط سهواً .(٤١)

وفيما يتعلق بالخط والزخرفة ، فإن الكتابة الكوفية في هذا النقش مزدحمة ، وغير مزخرفة ، وهي قريبة الشبه بتلك التي على الشاهد رقم (٦) المتقدم ذكره ، وليس فيها ميزات مهمة أو جديرة بالملاحظة .

رقــم (١١) :

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في شهر صفر سنة ٢٨٩هـ (يناير ـ فبراير ٩٠٢م) ، أحد عشر سطراً بالخط الكوفي البسيط ، المنقوش بطريقة الحفر الغائر ، به صدوع في الوسط (ثلاث قطع) . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٥٧,٥×٣٦سم ، (رقم السجل ٢٨٠,٠٧) ، شكل ١١

النــص

١ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ هذا ما يشهد به الحسن بن
٣ سليمن يشهد الا اله ا
٤ لا الله وحده لا شريك له و
٥ ان محمدا عبده ورسوله
٦ صلى الله عليه وسلم وان
٧ الموت والبعث والجنة و
٨ النار حق وان الله يبعث من
٩ في القبور وكانت وفا
١٠ ته في صفر سنة تسع
١١ وثمانين وماتتين

التعليــق

يحتوي النص على الصيغ المعتادة ، ومنها مقطع قرآني من سورة الحج الآية (٧) ، يبدأ من منتصف السطر الثامن ، وينتهي في بداية السطر التاسع .

وفيما عدا تحلية رؤوس الأحرف القائمة بوريقات تشبه شكل الوتد ، فإن الكتابة الكوفية هنا غير مزخرفة ، وليس فيها ميزات بارزة . كما أن أشكال الحروف ينقصها عنصر الرشاقة ، ونقشت بطريقة خشنة .

رقــم (١٢)

شاهد قبر من الرخام ، مؤرخ في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٢٩١هـ (الموافق للسابع عشر من شهر ابريل عام ٩٠٤م) . خمسة عشر سطراً بالخط الكوفي

(٤١ م) نسب الى بيع العطر والطيب كثيرون . انظر السمعاني ، جـ٨ ص ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ .

البسيط ، المنقوش بالطريقة البارزة ، به صدعان في نصفه الأسفل (ثلاث قطع) . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٧٨ × ٢٣,٥سم ، (رقم السجل ٠٧,٢٦٧) ، شكل (١٢) .

النص

١ بسم الله ا
٢ لرحمن الرحيم
٣ ان في الله عزاء من
٤ كل مصيبة وخلف
٥ من كل هالك هذ
٦ ا قبر بكر مولى محمد(٤٢)
٧ بن حريش الشراحي
٨ توفي ليلتين بقين من جماد
٩ ى الاول سنة احدى
١٠ وتسعين ومائتين و
١١ هو يشهد الا اله
١٢ الا الله وحده لا
١٣ شريك له وان محمدا [كذا]
١٤ عبده ورسوله [صلى]
١٥ الله عليه وسلم

التعليق

يحتوي النص على الصيغ التقليدية وبشكل مختصر ، والمتوفي كان عبداً محرراً أو مولى لرجل يدعى محمد بن حريش الشراحي .(٤٣) وهذه النسبة « الشراحي » وردت عند السمعاني .(٤٤) .

أما الكتابة الكوفية غير المزخرفة والمعرضة الحروف في هذا النقش ، فهي تشبه تلك التي وردت على الشاهدين رقم (٦) ، ورقم (١٠) المتقدمين .

رقم (١٣)

قطعة شاهد قبر من الرخام ، غير مؤرخ ، وربما يعود تأريخه إلى منتصف القرن الثالث الهجري (منتصف القرن التاسع الميلادي) ، تسعة أسطر بالخط الكوفي الغائر ، المزخرف جزئياً، مكسور من الأسفل . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٣٩ × ٢٤ سم (رقم السجل ٠٧,٢٧٧) ، شكل (١٣) .

النص :

١ بسم الله الرحمن الر
٢ حيم شهد الله انه
٣ لا اله الا هو والملا
٤ [ئـ]كة واولوا لعلم [Sic]
٥ قائما بالقسط لا اله ا
٦ لا هو العزيز الحكيم
٧ هذا ما تشهد به
٨ حسانة ابنت ابراهيم
٩ بن عمر الحرسي تشهد

....
....
....
....

التعليق

يحتوي النص على الصيغ التقليدية مع قرآن كريم من سورة آل عمران الآية (١٨) . وربما تكون أربعة أسطر على الأقل قد فقدت من النص ، وهي التي تحتوي على العبارة التقليدية المتعلقة بثبوت الموت والبعث . . . الخ . وكذلك تأريخ وفاة المتوفاة . أما نسبة المتوفاة « الحرسي » فتأتي من اسم قرية تقع في شرقي مصر .(٤٥)

(٤٢م) في الأصل : محد . والتصحيح من الشكل رقم (١٢) .

(٤٣) أنظر : الذهبي ، المشتبه ، نشرة ب . دي غونغ ، (ليدن ، ١٨٨١) ، ص ١٥٨ .

(٤٤) الذهبي ، ورقة ٣٣١ أ .

(٤٥) انظر : الذهبي، ص ١٠٢؛ ياقوت، جـ ٢ ، ص ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠، (المترجم) ويذكر الأخير عدداً من أسماء الأشخاص الذين يحملون هذه النسبة والذين توفوا في منتصف القرن الثالث الهجري .

وفيما يتعلق بالخط والزخرفة ، فإن أسلوب الكتابة الكوفية في هذا النقش قريبة الشبه بتلك التي يحملها الشاهد رقم (٥) المتقدم ذكره ، والمؤرخ في سنة ٢٢٤هـ . وفي الحقيقة فإن هذين الحجرين ربما يكون ناقشهما واحد . ولا يقتصر التشابه بينهما على زخرفة التوريق التي تظهر في عدد من أحرف الألف واللام (سطر ٤ ، ٦) فحسب ، ولكن يظهر في شكل الوريدة المنفصلة والزهرتين المتصلتين بنصف المروحة النخلية في أعلى السطر ، والتي تتطابق أيضاً مع زخارف الشاهد رقم (٥) ، وتقع بالضبط في مواضع متشابهة في كلا النقشين . ومن الشواهد التي لها صلة أيضاً بهذا الشاهد ، شاهد رقم (٤) المتقدم ذكره .

رقم (١٤)

شاهد قبر من الرخام ، غير مؤرخ ، وربما يعود إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين (التاسع الميلادي) ، خمسة عشر سطراً بالخط الكوفي البسيط المنقوش بطريقة الحفر الغائر . وهو مستطيل الشكل ، [أبعاده] ٧٢ × ٤٠سم ، (رقم السجل ٢٧٦, ٠٧) ، شكل (١٤) .

النص

١ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ شهد الله انه لا اله الا هو وا
٣ لملئكة[٤٦] واولوا العلم قائما
٤ بالقسط لا اله الا هو العزيز
٥ الحكيم هذ [Sic] ما تشهد به جعفر
٦ ام ولد حسان بن يوسف بن حسا
٧ ن الصيدلاني تشهد الا اله الا
٨ الله وحده لا شريك له وان محمد
٩ ا عبده ورسوله صلى الله عليه
١٠ وسلم وتشهد ان الموت و
١١ البعث والجنة والنار حق وان
١٢ الساعة اتية لا ريب فيها وان
١٣ الله يبعث من في القبور على ذ
١٤ لك حييت وعليه ملت [Sic] وعليه
١٥ تبعث حية ان شاء الله

التعليق

كانت المرأة المتوفاة دون شك جارية مملوكة ، ومن المحتمل أن اسمها أم جعفر بدلاً من جعفر ، ولكن الاسم الأخير ، على الصورة التي كتب بها ، محتمل أيضاً ، وكلمة « ولد » في السطر السادس غير واضحة ، وليس بوسعي أن اقترح أي قراءة أخرى. أما « الصيدلاني » فهو لقب شائع ويطلق على الصيدلي ، ولكن يتردد استعمال هذه الكلمة كنسبة دون إرجاعها بشكل محدد إلى المهنة.[٤٧]

ومما يبعث على الاستغراب أن هذا النقش لا يخرج عن النمط التقليدي (بما في ذلك الإستشهاد بالقرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية (١٨) في الأسطر من ٢ ـ ٥ ، وسورة الحج ، الآية (٧) في السطرين الثاني عشر والثالث عشر) ، باستثناء نقطة واحدة ، وهي أنه غير مؤرخ . ومن المحتمل أن ابن المتوفاة الذي رغب في تخليد ذكرى أمه ، نسي كتابة تاريخ وفاتها .

وفيما يتعلق بالخط والزخرفة ، فإن الكتابة الكوفية في هذا النقش بسيطة جداً ، وغير معقدة، والمحاولة الوحيدة في مجال الزخرفة الخطية هي وجود تفطيح على شكل وريقات صغيرة في رؤوس الأحرف القائمة في السطرين الأولين . وقد ظهر مثل هذا النوع من الوريقات المفطحة ، لأول مرة في سنة ١٩١هـ.[٤٨] لذا ، فإن من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ هذا النقش ولكن في جميع الاحتمالات يمكن أن ينسب إلى أواخر القرن الثاني ، أو أوائل القرن الثالث الهجريين .

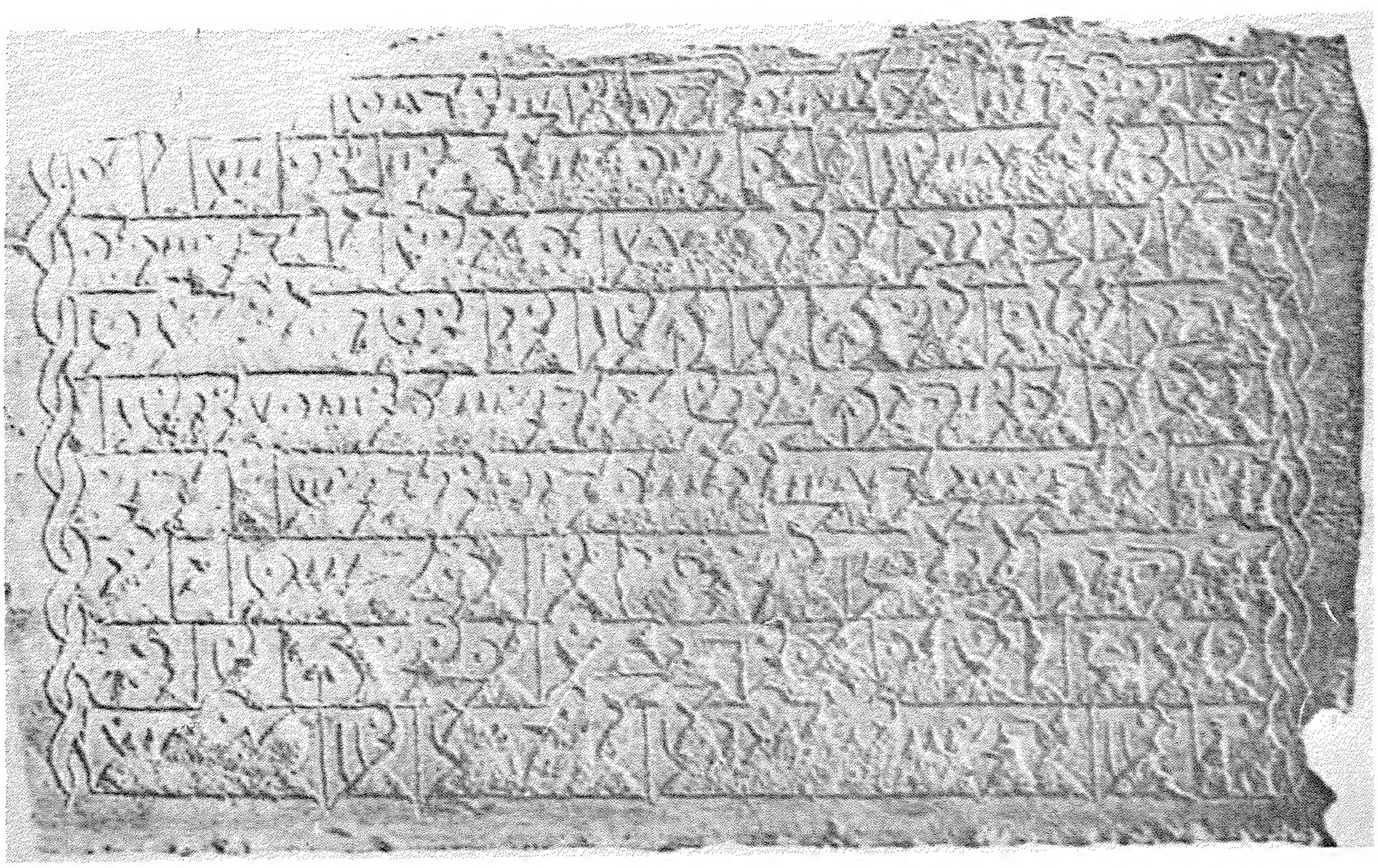
(٤٦م) في الأصل : وان ملائكة ، والتصحيح من قبل المترجم وهو مطابق لما في الشكل رقم (١٤) .

(٤٧) السمعاني ، لوحة ٣٥٨ ب .

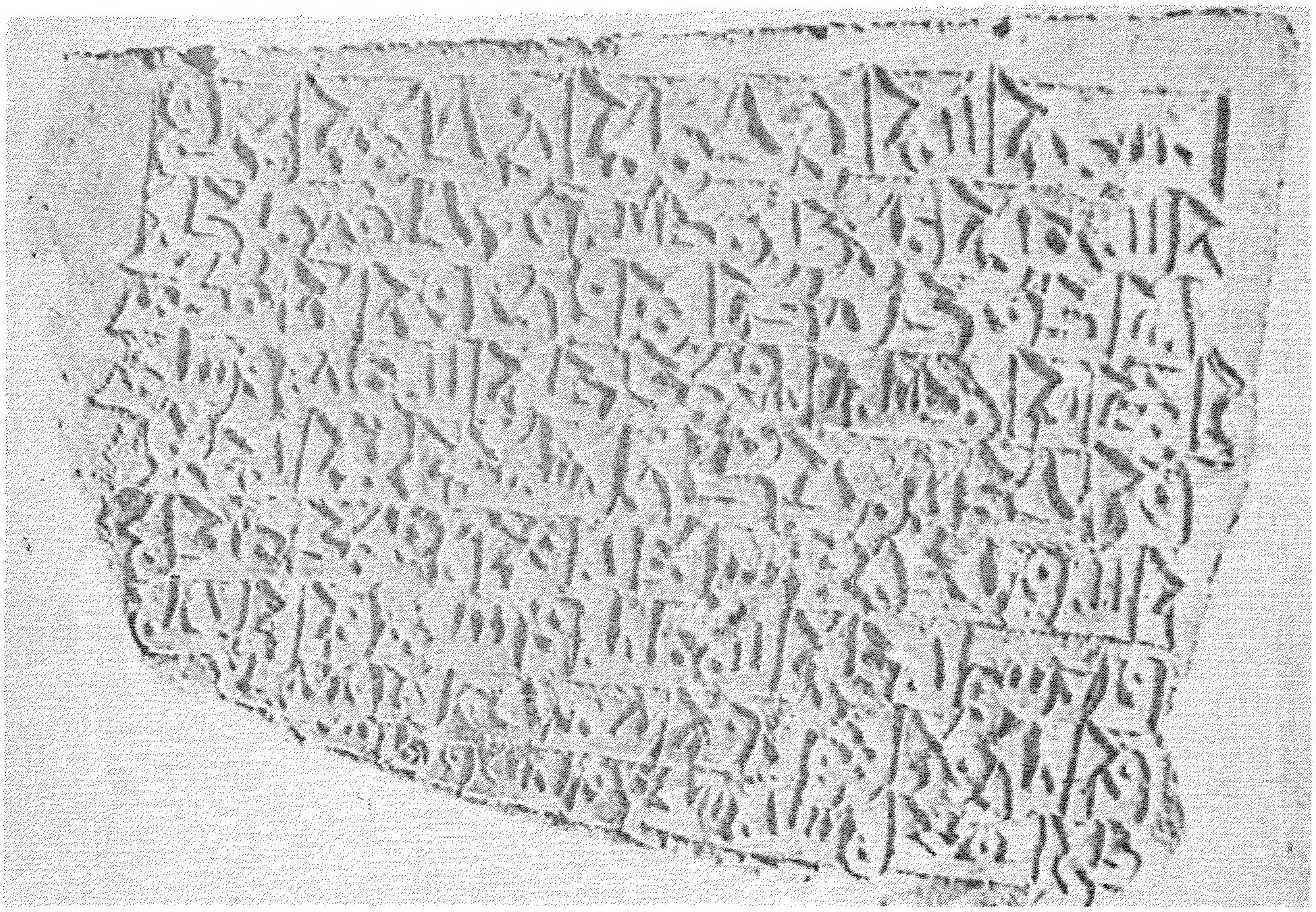
(٤٨) انظر : «Stéles Funéraires», Vol. I, No. 1193 (pl. 6). .



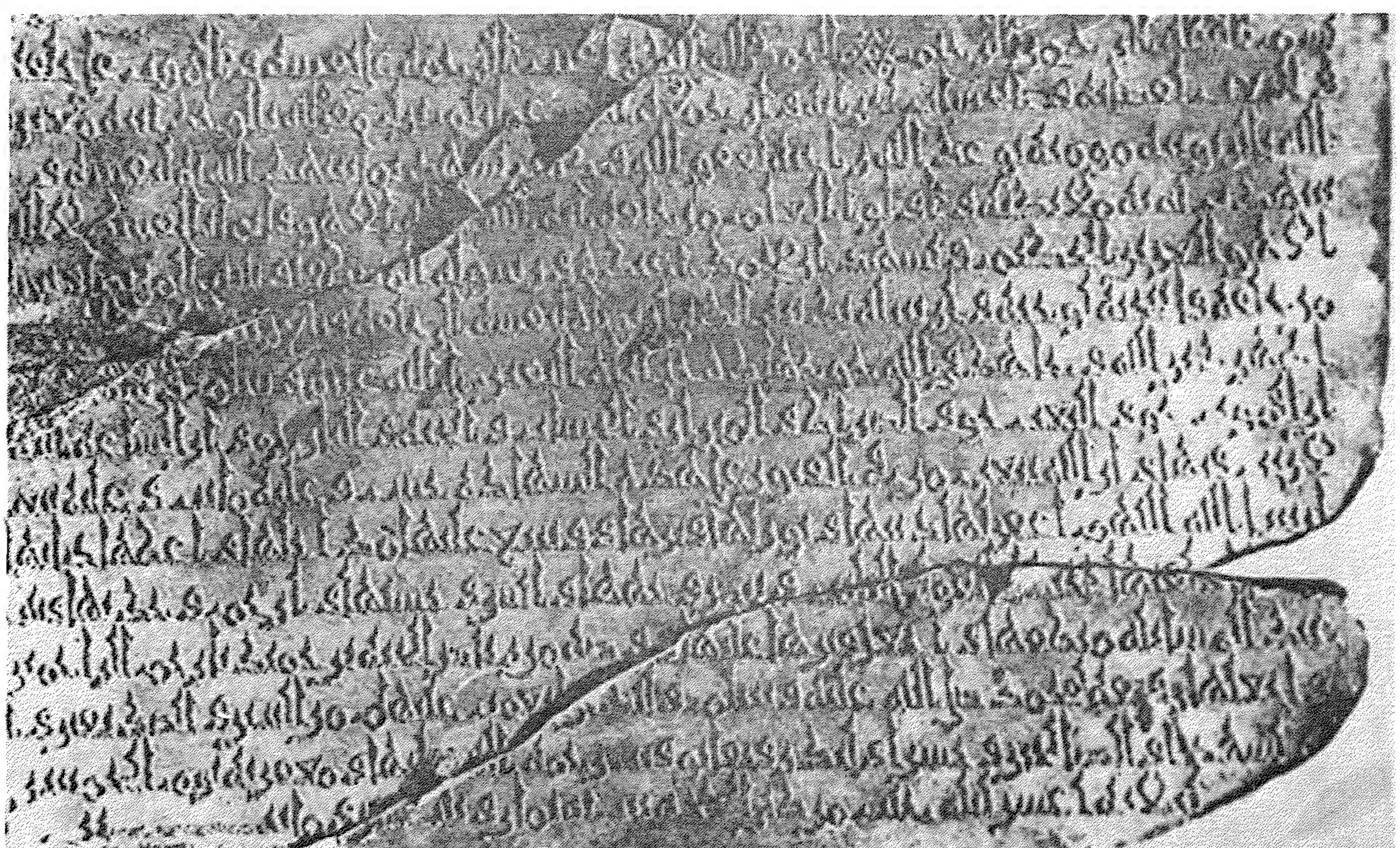
شكل (١) زينة بنت عثمان (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م)



شكل (٢) عبدوس بن سعيد (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٦م)



شكل (٣) واجد بن رجاء (ت ٢٣٧هـ/ ٨٥٢م)



شكل (٤) جمعة بنت عامر (ت ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م)



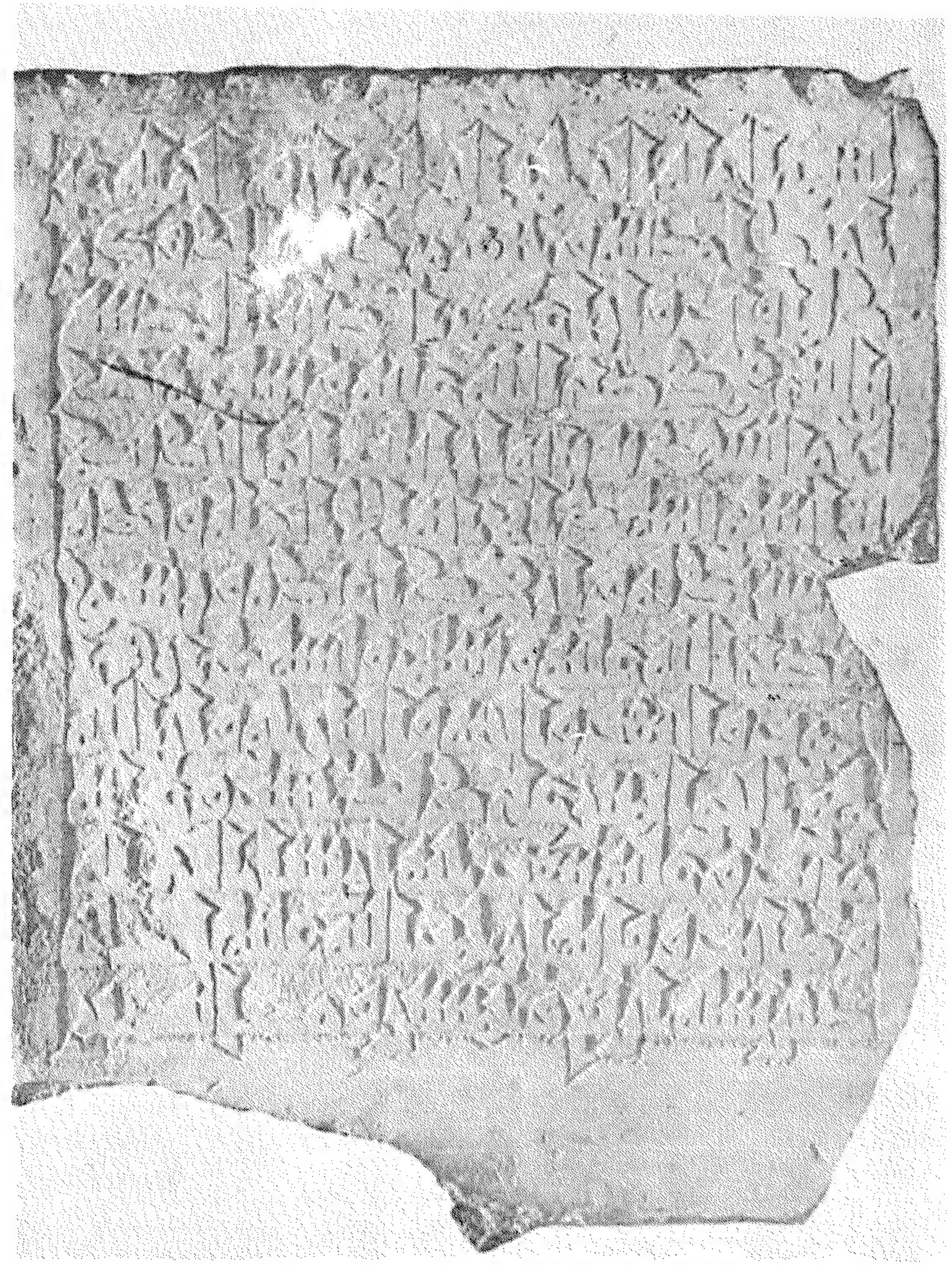
شكل (٥)
مرام بنت عمرو (ت٢٤٤هـ/ ٨٥٩م)



شكل (٦)
عبد الله بن محمد (ت ٢٥١هـ/ ٨٦٥م)



شكل (٧) مالكة بنت زكير (ت ٢٥٢هـ/٨٦٦م)



شكل (٨) بانوار (؟) بنت حديد (ت ٢٥٤هـ/٨٦٨م)



شكل (٩) نائلة بنت بشر (ت ٢٦٩هـ/ ٨٨٣م)



شكل (١٠) محمد بن أيوب (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)

شكل (١١) الحسن بن سليمان (ت ٢٨٩هـ/٩٠٢م)

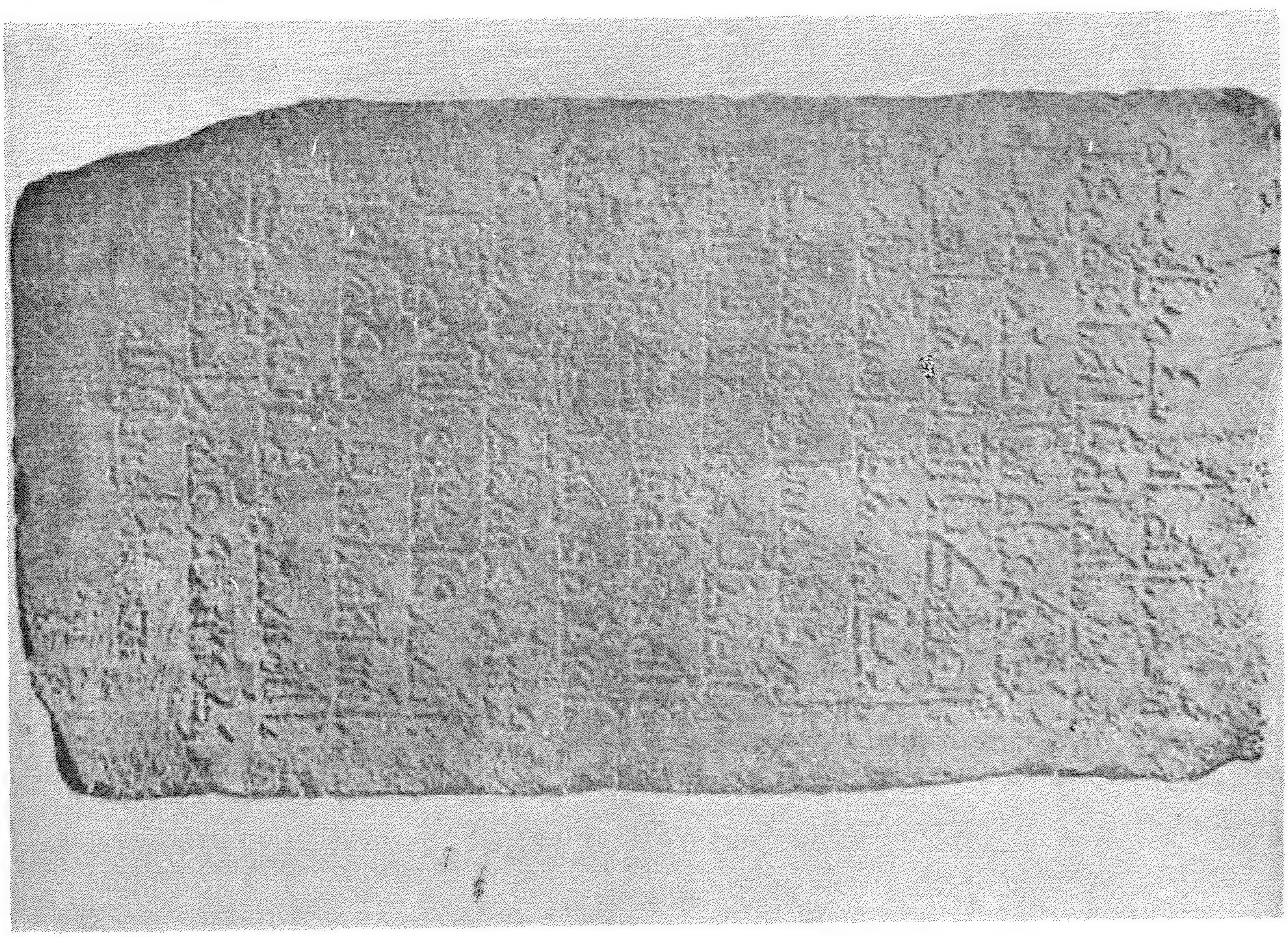




شكل (١٢)
بكر ، مولى محمد (ت ٢٩١هـ/ ٩٠٤م)



شكل (١٣) حسّانة بنت إبراهيم (توفيت في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري/ منتصف القرن التاسع الميلادي)



شكل (١٤) جعفر (من حوالي أواخر القرن الثاني إلى أوائل القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي)

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني، ٢٦٣ ـ ٢٧٠ (١٩٨٧)

قراءة جديدة في بعض نقوش المحراب بالمسجد الجامع بقرطبة

للدكتور محمد عبد العزيز محمود

ملخص البحث : عند قراءتي للنقوش الكتابية الكوفية في واجهة المحراب بالمسجد الجامع بقرطبة تبين لي أن بعض كلماتها يمكن أن تقرأ قراءة جديدة ، أوضحتها في هذا البحث ، ورجحت هذه القراءة بما ألحقته من أشكال تثبت صحة القراءة الجديدة بمقارنتها بالقراءة السابقة التي أثبتها الأستاذ ليفي بروفنسال في كتابه : « النقوش العربية في اسبانيا » مع مناقشتها .

وأرجو أن أكون قد وفقت في القراءة الجديدة التي رجحتها ، والتي لم يسبق لأحد ـ فيما أعلم ـ أن قام بمناقشتها في أي كتاب بالعربية ، آملاً لمن نقلوا قراءة نقوش وجه المحراب بقرطبة عن قراءة ليفي بروفنسال في كتبهم عند الحديث عن نقوش المحراب ـ أن يعيدوا النظر في هذه القراءة .

ذكر ابن عذارى في حوادث سنة ٣٥٣هـ أن المسجد الجامع لقرطبة لم يعد يتسع لجموع المصلين أيام الجمع ، وكانوا يتزاحمون بالمسجد « حتى كادت النفوس تتلف فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه . »[١]

ومن وصف الأدريسي للمسجد قوله : « ولهذا المسجد قبلة تعجز الواصفين وصفها ، وفيها اتقان يبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى الى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموي ، وعلى هذا الوجه ـ أعني وجه المحراب ـ سبع قسي قائمة على عمد ، وكل قوس منها أشف من قامة ، وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط ، قد أعيت الروم والمسلمين بغريب عمالها ، ودقيق تكوينها ووضعها ، وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في أرض اللازورد ، وكذلك تحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في أرض اللازورد ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش . »[٢] ؛ شكل رقم (١) .

وتبين من قول الأدريسي أنه رأى الزخارف والنقوش الكتابية ولكنه لم يذكر لنا نص هذه النقوش الكتابية .

وهدفي في هذا البحث هو الإشارة إلى القراءة الجديدة ـ كما أقترح ـ في بعض نقوش وجه المحراب ، ورأيت من المناسب هنا أن أثبت جميع النقوش الكتابية بوجه المحراب ، والتعريف بمواقعها حيث لم اعلم حتى الآن أن أحداً من أهل العربية قد ناقش هذه القراءات ، كما أردت أن

(١) ابن عذارى المراكشي، كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جزء ٢، تاريخ الأندلس من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، ط ٢، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، ا . ليفي بروفنسال، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٠م)، ص ٢٣٦ .

(٢) الأدريسي (الشريف) ، المغرب وأرض السودان والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٨م)، ص ٢١٠ .

اضع تلك النقوش بين أيدي المهتمين بالكتابات الإسلامية ، وهي تمثل حلقة من حلقات تطورها (أنظر شكل رقم ٢) .

وقد كانت التوريقات النباتية والعناصر الهندسية والكتابية قوام التكوينات الزخرفية التي كسى بها وجه المحراب ، وقد جذبت الأنظار كثرتها وأناقتها وحسن توزيعها.(٣)

وعقد المحراب منفوخ متجاوز يرتكز على عمودين ، ويغطي كلاً من منكبي عضادتي المحراب كتابة كوفية من ثلاثة أسطر مذهبة على أرضية حمراء ، ونقرأ على المنكب الأيمن النص التالي : ـ

(١) بسم الله الرحمن الرحيم « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا

(٢) لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جات (جاءت) رسل ربنا بالحق »(٤) أمر

(٣) الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ـ ونقرأ على المنكب الأيسر ما يلي : ـ

(٤) أصلحه الله ـ موليه (مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله .

(٥) عنه بنصب (بنصب) هذين المنكبين فيما أسه على تقوا (تقوى) من الله ورضو

(٦) ان فتم ذلك في شهر ذي الحجة سنة أربع وخمسين وثلث مئة (ثلثمائة).(٥)

ويتألف عقد المحراب من سنجات طويلة حتى منكبيه ، وتغمرها زخارف نباتية من الفسيفساء متعددة الألوان .

ويحدد دائرة العقد افريز بارز من الرخام يزدان بورقة نباتية متكررة تحف بها مسبحة ، ويدور هذا الإفريز حول دائرة العقد ، وفوق العقد إفريز من الفسيفساء يملؤه سطر من الكتابة الكوفية نصه : ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ».(٦)

(أنظر سطر الكتابة فوق العقد في شكل رقم ٢).

وبتربيعة المحراب سطران متوازيان من الكتابة يتوزع كل منهما على الجوانب الثلاثة لهذه التربيعة ، وفيما يلي نصهما بالقراءة الجديدة :

الأول : ويبدأ من جهة اليمين من أسفل إلى أعلى بلفظ « ذلك » الى لفظ « الحي » .

(١)... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم(٧) هو الحي.

ثم يبدأ الجزء الأفقي من الكتابة بألفاظ « **لا اله الا هو ..** » وينتهي بعبارة « **أصلحه الله** » .

(٢) لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين(٨) موفق الإمام المستنصر بالله عبد الحكم أمير المؤمنين ـ اصلحه الله ـ

ثم تهبط الكتابة في الجانب الأيسر مبتدئة بكلمة « **لهذه النية** » منتهية بلفظ « **لرعيته** » .

(٣) لهذه النية المكرمة ومعينه على نيته الخالصة في التوسع لرعيته .

والسطر الثاني الذي يوازي الأول يبدأ من اليمين أيضاً من أسفل إلى أعلى بعبارة « **ما ألهم واليه** » وينتهي بكلمة « **وسلم** » .

(٤) ما ألهم واليه الرغبة فيما ابتحا من فضله وتم وصلى الله على محمد وسلم.

ثم يتجه إلى الوضع الأفقي مبتدئاً بعبارة « **أمر الإمام** » منتهياً بعبارة « **فتمت بعون الله** » .

(٥) أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ـ وفقه الله ـ

موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ بتشييد هذه البنية فتمت بعون الله .

ثم يهبط إلى أسفل مبتدئاً بكلمة « **بنظر** » منتهياً باسم « **مطرف** » .

(٦) بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخلد بن هاشم أصحاب شرطته ومطر (ف).

---

(٣) السيد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، جزء ١ ، (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧١م) ، ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٤٣ .

(٥) Leci- Provensal, Inscriptions Arabes d'Espagne, (Paris, 1931), P.15 .

(٦) سورة الحشر ، الآية ٢٣ .

(٧) سورة السجدة ، الآية ٦ .

(٨) سورة غافر ، الآية ٦٥ .

عرضت فيما سبق نص جميع النقوش الكتابية التي في واجهة المحراب . ويلاحظ أن بتربيعة المحراب في بداية السطرين المتوازيين ونهايتهما تشويهات كانت نتيجة للترميمات التي قام بها الأسبان وهم لا يعرفون العربية فجاءت الكتابة على غير طبيعتها ، (انظر شكل رقم ٢).

وتنحصر القراءة الجديدة فيما يلي من الكلمات التي تحتها خط تبعاً لترقيمها السابق ، وطبقاً لقراءة بروفنسال (انظر شكل رقم ٥).

في السطر رقم ٣ « . . **لهذه البنية المكرمة ومعينة على بنه الخالدة في التوسع لرعيته** » .

في السطر رقم ٤ « **ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدأ من مثله فيهم** » .

في السطر رقم ٥ . . **بتشبيك هذه البنية** .

ونناقش الآن لفظ « **البنية** » في (**لهذه البنية المكرمة**) ، « **وبنه** » في (**ومعينه على بنه الخالدة**) كما قرأها ليفي بروفنسال .

إن المدقق في قراءة هذه الكلمة طبقاً لصورة النقش في واجهة المحراب يقرؤها « **لهذه النية** » من « **لهذه البنية** »(٩) وعلى هذا تكون القراءة الجديدة هكذا :

« **موفق الإمام ... لهذه النية المكرمة ومعينة على نيته الخالدة** » .

وأما « **ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم** » (انظر شكل رقم ٣) .

فأرى أن الألفاظ ، اليه ، واليهم ، فيهم لا تمثل القراءة الصحيحة ، وطبقاً لرسم حروف هذه الكلمات في النقش تقرأ كما يلي :

« **... ما ألهم واليه بدلا من إليه واليهم** .» .

أما لفظ « **فيهم** » فرسم حروفه واضح ويقرأ « **وتمم** » بدلاً من « **فيهم** » ذلك بالإضافة إلى أن لفظ « **وتمم** » يناسب لفظ « **ابتدا** » وعلى ذلك تقرأ العبارة تامة المعنى كما يلي :

« **ما الهم واليه الرغبة فيما ابتدا من فضله وتمم** » .

أما كلمة «**بتشبيك**» فأرجح قراءتها بلفظ «**بتشييد**» (انظر شكل رقم ٤) ، ذلك لأنه من المعروف أن هذا النقش قد كتب بأسلوب الخط الكوفي بدون إعجام ، ونلاحظ أن صورة حرف الدال المركب المتطرف يتشابه في الرسم مع الصورة المركبة المتطرفة لحرف الكاف . ويمكن أن نقارن بين حرف الكاف في كلمة «**الملك**» وبين حرف الدال في كلمة «**القدوس**» في سطر الكتابة الذي يعلو عقد المحراب مما يدعو إلى الوقوع في اللبس بين حرف الدال وحرف الكاف، ويحدد طبيعة كل حرف في كلمتي « **الملك** » و « **القدوس** » مع تشابههما رسماً كما هو في سياق الآية الكريمة .

كما أن حرف الكاف لا تختلف صورته عن صورة حرف الدال في كلمة « عبد الرحمن » وكلمة « هذه » في السطر الذي ذكرت فيه كلمة «**بتشبيك**». وأرجح قراءة حرف الكاف في كلمة «**بتشبيك**» على أنه حرف «دال» فتصبح قراءتها «**بتشييد**» حيث إن هذا اللفظ أكثر ملاءمة للفظ البنية ولأن كلمة «**بتشييد**» أكثر شمولاً لزيادة الحكم المستنصر بما في ذلك التشبيك الذي تقوم عليه القباب في حين أن كلمة « **بتشبيك** » تقتصر فقط على شبكة العقود المتداخلة والنحور المتراكبة .

ونقرأ في النص التالي : « **... رب العالمين موفق الإمام لهذه النية المكرمة ومعينة على نيته الخالدة في التوسع لرعيته ...** » ويشير لفظ التوسع إلى التوسعة البنائية ، وكما ذكر ابن عذارى عن توسعة المسجد والزيادة فيه .(١٠)

وعلى هذا يمكن ترجيح قراءتي لهذه الألفاظ التي ناقشتها كما توصلت اليها وأرجو أن أكون قد وفقت في القراءة التي رجحتها ، وأن أجد من يؤيدني فيما ذهبت اليه من قراءة جديدة .

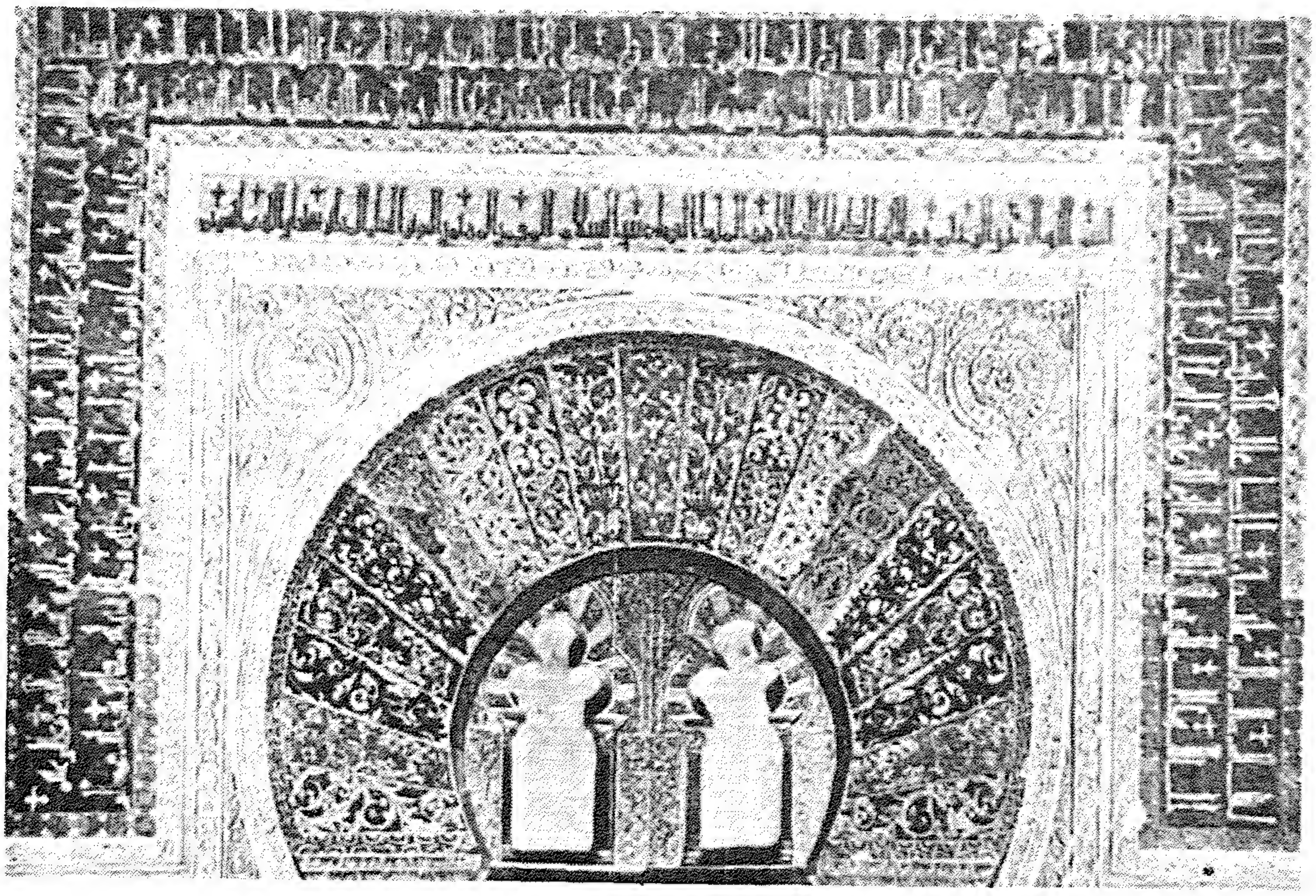
وآمل للذين نقلوا قراءة نقوش محراب المسجد الجامع بقرطبة عن قراءة ليفي بروفنسال أن يضعوا قراءتي في اعتبارهم .(١١)

---

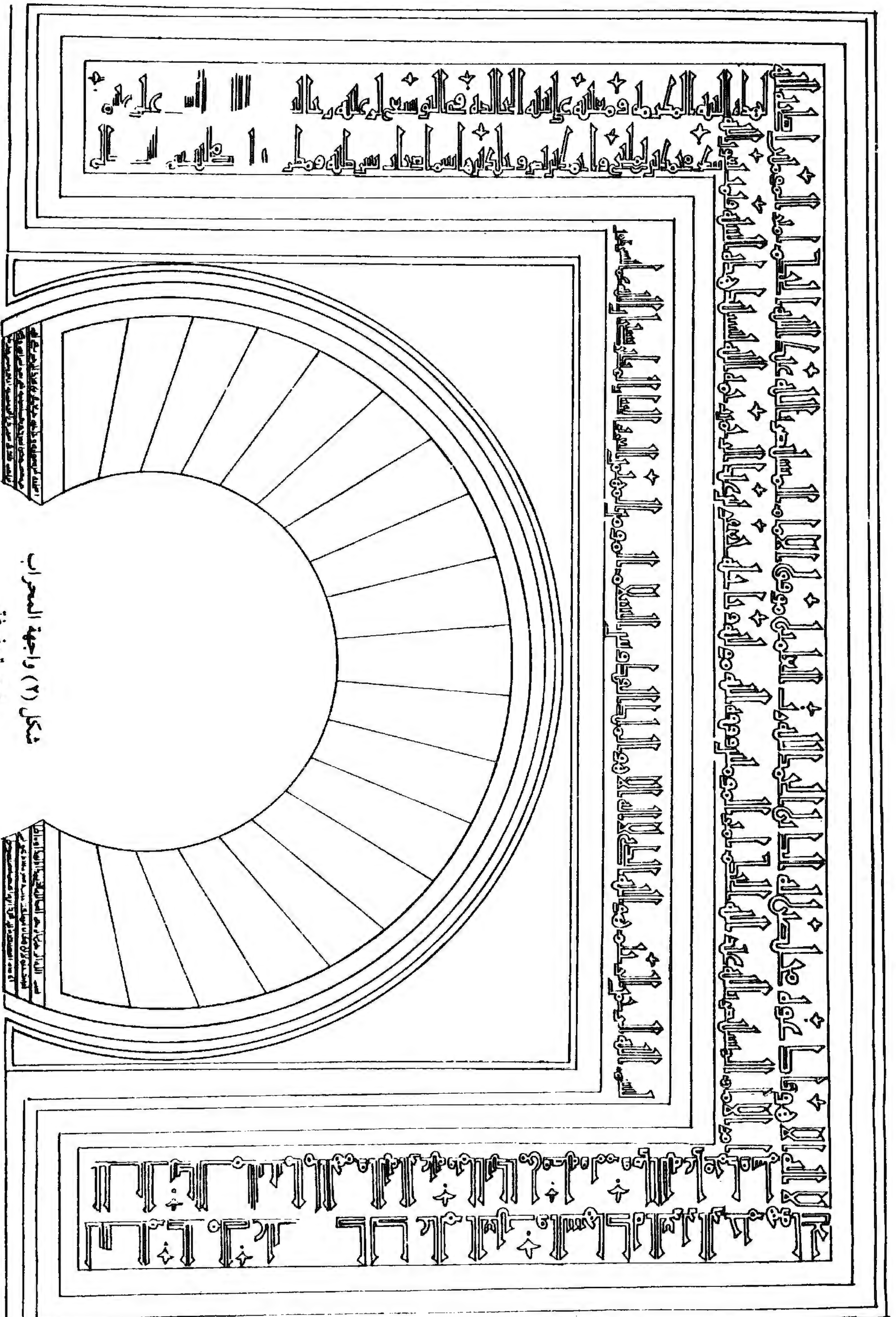
(٩) د. عبد العزيز الدولاتي : مسجد قرطبة وقصر الحمراء ، (تونس ، د.ت.) ، ص ٧٩ .

(١٠) انظر الحاشية رقم (١).

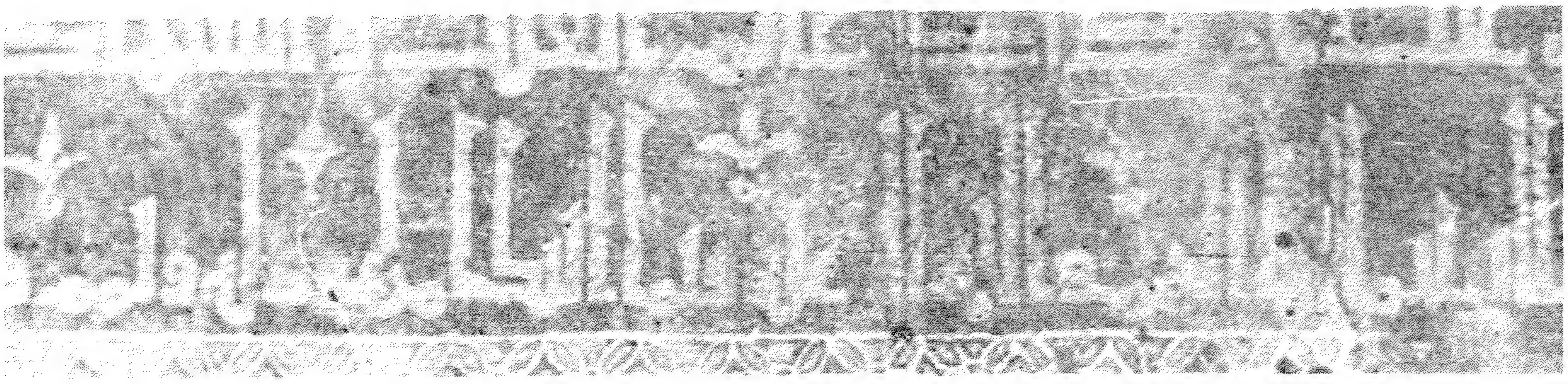
(١١) الحقت بنهاية المقال الأشكال من رقم ١ ـ ٥ لإيضاح المقارنة بين قراءة بروفنسال والقراءة الجديدة .



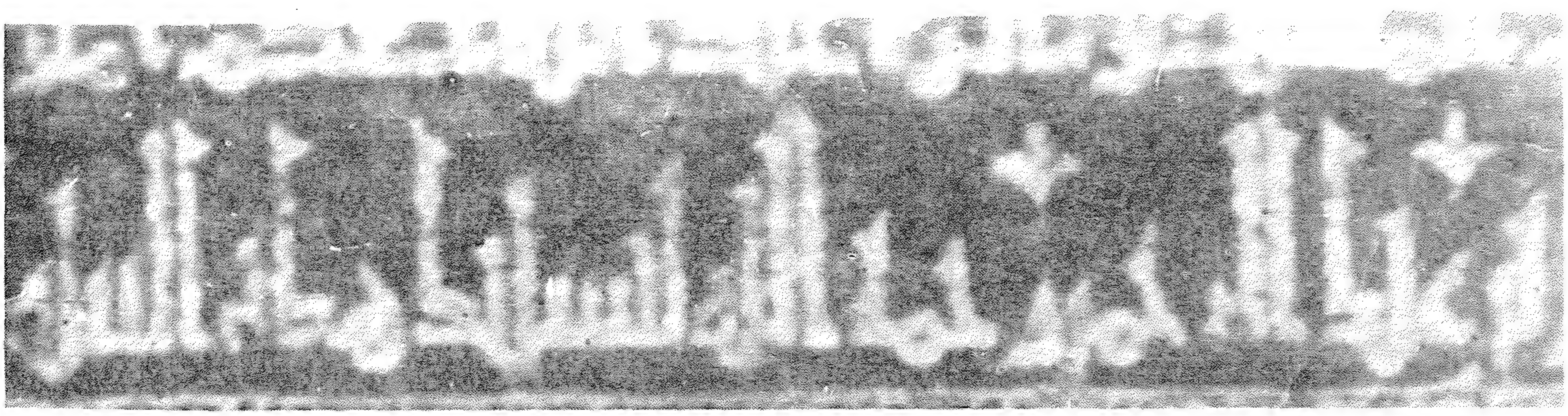
شكل (١) وجه المحراب



شكل (٢) واجهة المحراب
صورة مفرغة



شكل (٣)



شكل (٤)

12.

Cordoue. — Inscription au nom d'al-Ḥakam II dans l'encadrement du *miḥrāb* de la mosquée-cathédrale, 354 H. — Le rectangle dans lequel se trouve inscrit l'arc en fer à cheval du *miḥrāb* de la mosquée-cathédrale de Cordoue porte un large bandeau d'inscription sur deux lignes, en caractères coufiques de mosaïque d'or sur fond bleu. Si le côté horizontal supérieur est tout entier conservé, il n'en est malheureusement plus de même de la partie inférieure des côtés verticaux, qui formait le début et la fin du texte épigraphique : lors de la restauration malheureuse entreprise en 1816, on a remplacé ce début et cette fin, qui manquaient, par d'inélégantes graphies arabes, médiocrement imitées des parties intactes et placées sans le moindre souci du sens qu'elles pouvaient offrir et de l'incompatibilité de leur présence avec celle du contexte original. Cette importante inscription califienne a été publiée et traduite par Amador de los Rios([1]), avec d'assez graves erreurs de lecture et d'interprétation.

(1) .... ذَلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱلْحَىُّ (2) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَلَمِينَ (2) مُوَفِّقِ الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله (3) لهذه البنية المكرّمة ومُعِينِهِ على بنه (بِنَاهُ = sic) الخالدة فى التوسع لرعيته .... (4) ما إِلَيْه وإِلَيْهِم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم وصلّى الله على محمّد وسلّم

(5) أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين وفّقه الله موله وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية فتمّ بعون الله. (6) بنظر محمّد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخلد بن هاشم أصحاب شرطته ومطرّف [بن عبد الرحمن الكاتب] ....

..... *Coran*, XXXII, 5; XL, 67..... Louange à Allāh, Maître des mondes, qui a favorisé l'imam al-Mustanṣir bi ʾllah, l'esclave d'Allāh, al-Ḥakam, émir des croyants — qu'Allāh le rende toujours meilleur! — pour cette construction vénérable et qui l'a aidé dans ses constructions éternelles([2]), dans le but de rendre (la mosquée) plus spacieuse pour ses sujets......, ce dont ils avaient lui-même et eux-mêmes le plus grand désir, en ce qui concerne ce par quoi il a commencé (à manifester) ses bienfaits à leur égard. *Taṣliya*....

A ordonné l'imām al-Mustanṣir bi ʾllāh, l'esclave d'Allāh, al-Ḥakam, émir des croyants — qu'Allah le favorise! — à son affranchi et *ḥāǧib* Ǧaʿfar, fils de ʿAbd ar-Raḥman — qu'Allah ait pitié de lui! — le travail d'entrecroisement *(tašbīk)* de cette construction. Et (cela) fut terminé, avec l'aide d'Allāh, sous la surveillance de Muḥammad, fils de Tamlīḫ, d'Aḥmad, fils de Naṣr, de Ḫald, fils de Hāšim, ses préfets de police, et de Muṭarrif, (fils de ʿAbd ar-Raḥmān, le secrétaire) .....

شكل (٥)

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ٢٧١ ـ ٢٩٨ (١٩٨٧)

الجاليات الأوروبية في الإسكندرية في العهد العثماني

"دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية"

للدكتور صلاح أحمد هريدي علي

ملخص البحث : يعرض البحث للنشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية ، فيوضح السلع التي كانوا يتاجرون بها وأساليب التعامل المختلفة ، سواء كان التعامل للحساب الخاص أو لحساب وكيل ، أو عن طريق تكوين شركات للتجارة في سلع معينة . كما يعرض للمشكلات الناتجة عن حالات التعامل المختلفة ودور هذه الجاليات في عمليات الاستيراد والتصدير ، وما يتبع ذلك من نشاطات أخرى في مجال نقل البضائع والمسافرين ومشاركة السلطة الحاكمة في نقل قواتها بتأجير المراكب لها .

ومن أهم الظواهر التي أبرزتها الدراسة ؛ ظاهرة الاقتراض التي استخدمت في أغراض مختلفة ، ثم عرضت للمشكلات المصاحبة لتسديد هذه القروض وضماناتها ، كما أنها عرضت لظاهرة حفظ الأمانات بأنواعها من مجوهرات أو نقود أو أواني نحاسية .

وأوضحت هذه الدراسة جانباً آخر من جوانب هذا النشاط والذي تمثل في الصناعات والحرف التي عمل بها أبناء هذه الجاليات .

ومن ناحية أخرى عرضت الدراسة حياتهم الاجتماعية ومظاهر هذه الحياة ، وأهمها الزواج سواء كان هذا الزواج من بعضهم البعض أو من الأهالي أو من الجواري بعد اعتاقهن . وتعرضت لإجراءات الزواج المختلفة وتقاليده ، كالمقدم والمؤخر وشروط الزواج التي تدون بالعقد .

كما عرضت الدراسة لمظاهر العلاقات الاجتماعية الأخرى غير الأخلاقية ومشكلاتها والجوانب غير الأخلاقية فيها ، خاصة أن البحث محدود بإطار الوثائق التي تسجل مثل هذه العلاقات . وكلها مشكلات تتعرض في الغالب ، لاعتداءات بالضرب أو السب ، أو ممارسة الشذوذ الجنسي ، أو الدعارة ، أو الاغتصاب ، وموقف السلطات الحاكمة من كل ذلك .

كما عرضت الدراسة لجانب خير من جوانب الحياة الاجتماعية ، كظاهرة عتق العبيد ، والجواري ، موضحة الدوافع وراء ذلك ، وحالات العتق وشروطه إن وجدت . كما عرضت لظاهرة الأوقاف ، وتوجيهها للخير والبر ، كما أنه سجلت حالات اعتناق بعض أفراد هذه الجاليات للإسلام .

* * *

نشأة الجاليات الأوروبية بالإسكندرية :

قبل التعرض لنشأة الجاليات الأوربية بالاسكندرية،لا بد من التعرض لأهمية الاسكندرية خلال تلك الفترة، ويرجع إلى أنها تمتعت منذ نشأتها بمركز مرموق في العلاقات بين الشرق والغرب ، سواء أكانت هذه العلاقات سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية ، وذلك نتيجة لعوامل متعددة منها موقع الاسكندرية الاستراتيجي بين أوروبا والشرق الأقصى ، وسياسة حكام مصر القائمة على تشجيع حركة التجارة العالمية المارة بها ، وكذلك التطورات التاريخية التي مرت بها أوروبا ، ومن أهم مظاهر تاريخ الاسكندرية في العصور الوسطى ، وجود تلك الجاليات الأوروبية التي أقامت بها ، ولعبت دوراً له أهميته بالنسبة للمجتمع السكندري والمصري ، وله آثاره المهمة في المجتمع الأوروبي .(١)

ولذلك يرجع وجود الجاليات الأوروبية في الاسكندرية إلى ما قبل العصور الوسطى وبداية الفتح الإسلامي للمدينة ، وكانت الأمبراطورية الرومانية القديمة تعتبر البحر المتوسط بحيرة رومانية ، فكانت تنظر الى الاسكندرية ، التي تمتعت بموقع مهم في حوض هذا البحر ، نظرة خاصة وجعلتها مركزاً لإدارة ولايتها في مصر لسنوات طويلة ، وقد ورثت الأمبراطورية البيزنطية عن الأمبراطورية الرومانية هذه النظرة التقليدية تجاه الإسكندرية التي ظلت تحتفظ بالكثير من مظاهر نشاطها بما في ذلكالنشاط التجاري كمركز بين الشرق والغرب .(٢)

ووجدت جالية بيزنطية كبيرة في الإسكندرية عقب الفتح العربي لها ، وكانت تتكون من كبار موظفي الدولة البيزنطية في مصر ، ورجال الحامية والتجار وغيرهم ، وبقيت نسبة منهم بالمدينة،عقب الفتح العربي .(٣)

ودخلت المدينة في مرحلة تاريخية مختلفة ، حين فقدت أهميتها السابقة كمركز سياسي وتجاري ، ولم تعد تتمتع بذلك النشاط التجاري السابق ، وبالتالي لم يكن للجاليات الأوروبية أي نشاط يذكر ، ويرجع ذلك لعوامل عدة ، وأول هذه العوامل : الصراع الذي قام بين المسلمين والامبراطورية البيزنطية في الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط ، وثاني هذه العوامل أن المسلمين في تاريخهم الأول لم يهتموا بالاشتغال بالتجارة ، ويفسرون ذلك بأنهم كانوا حينئذ من الشعوب الحربية التي تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار ، وثالثهما أن الأيوبيين كانوا لا ينظرون إلى التاجر بعين التقدير لأنهم كانوا جيلاً من الفرسان ، وأنه لم يقم لطبقة التجار في عهدهم شأن يذكر .(٤)

ولكن تغير الحال بحكم المماليك لمصر ، وعلى ذلك عاشت الإسكندرية أيامهم عصراً مزدهراً نهضت اقتصادياً وعمرانياً .،وكانت حلقة الاتصال بين طرق التجارة العالمية في العصور الوسطى . ولذلك انتعش الاقتصاد السكندري انتعاشاً ملحوظاً بسبب الرسوم الباهظة التي كانت تفرضها حكومات مصر على السلع والمتاجر التي يأتي بها التجار الفرنج ، وتعرف هذه الرسوم بضريبة الثغور .(٥)

وعندما فتح الأتراك العثمانيون مصر عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، وقع ممثل البندقية في حيرة شديدة ، حين أراد أن يجمع حوله اثني عشر رجلاً من التجار بالثغر ، ليؤلف منهم مجلسه الذي سيقابل السلطان سليم الأول ، فلم يجد هذا العدد ، وهذا يدل على ما وصلت إليه التجارة في فترة وقوع مصر في أيدي العثمانيين ، وتمت المقابلة بالإسكندرية بين قنصليهما في مصر والشام والسلطان العثماني سليم الأول ، وقدما له فروض الطاعة والولاء ، مشفوعة بطلبات ومعاهدات جديدة لإقرار الامتيازات التي كانت للبنادقة في عهد

---

(١) عمر كمال توفيق ، الجاليات الأوروبية في الاسكندرية في العصور الوسطى ، ضمن ابحاث ندوة مجتمع الاسكندرية عبر العصور المختلفة ، مطبوعات جامعة الاسكندرية ، عام ١٩٧٣م ، ص ٢٧٤ .

(٢) توفيق ، ص ٢٧٥ .

(٣) توفيق ، ص ٢٧٥ .

(٤) توفيق ، ص ٢٧٧ .

(٥) عمر عبد العزيز عمر ، مجتمع الاسكندرية في العصر العثماني ، ضمن أبحاث ندوة مجتمع الاسكندرية عبر العصور المختلفة ، مطبوعات جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٣ ، ص ص ٣١١ - ٣١٢ . وللمزيد من التفصيلات ؛ انظر نعيم زكي وصفي ، طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٣م)، ص ص ١٣٠، ١٣١ ؛ ابن بطوطة ورحلاته ، تحقيق ودراسة وتحليل حسين مؤنس (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١م) ، ص ص ٣٨ ، ٣٩ .

المماليك . وخلال المقابلة أثار السلطان موضوع مساعدة البنادقة للمماليك ضده ، ووصول سفنهم خلال الحرب إلى الإسكندرية حاملة الفضة والذهب ثمناً للتوابل والسلع الشرقية ، زيادة عما كان مفروضاً عليهم طبقاً للمعاهدات . وكان على القنصليين أن يفندا هذه التهمة ، فأفهما السلطان بأنهما سيعملان دائماً على توسيع نطاق تجارتهم من السلع الشرقية للوقوف أمام فيض السلع الواردة عن طريق البرتغاليين ، ويبدو أن السلطان العثماني قد اقتنع بهذا الاعتذار ، فلم يعارض طلباتهم وأقر معاهداتهم السابقة ، وضمن ذلك في معاهدة جديدة الموافق ٨ سبتمبر عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م . وقد سلمت المعاهدة لمندوبهم « نيقولو موسيزو » الذي سافر إلى القسطنطينية على ظهر إحدى سفن الأسطول العثماني . حيث قصد القنصل كونت ريني قبرص لتنظيم دفع الجزية المفروضة بعد أن آلت إلى السلطان العثماني ، ونصت الاتفاقية بأن تدفع الجزية ذهباً ومقدماً لخمس سنوات ، وعدل النص بعد ذلك لتصير سنوياً ، وعيناً من السكر والحبوب .(٦)

ويذكر البعض أن المعاهدة قد وقعت بين السلطان سليم والبنادقة في عام ٩٢٣ هـ / الموافق ٨ سبتمبر عام ١٥١٧ م ، بينما يذكر البعض الآخر أنها وقعت في ١٤ فبراير عام ١٥١٧ م .(٧)

ونميل إلى الأخذ بالرأي الثاني لأن أغلبية المصادر تؤكد ذلك ، لأن السلطان سليم قد مكث في مصر حوالي ثمانية أشهر ، وأن فتح مصر قد تم في أواخر يناير عام ١٥١٧م . وكان هدف السلطان سليم من تجديد هذه المعاهدة هو إقراره للامتيازات والتسهيلات التي كانوا يتمتعون بها في عهد المماليك بشأن تجارتهم في الإسكندرية .

وأعلن السلطان في المعاهدة ضرورة معاملة البنادقة بالاحترام والعدالة ، وألا يضاروا في أنفسهم ، ولا في أموالهم أثناء إقامتهم بالإسكندرية ، أو دمياط ، أو غيرهما من ثغور مصر . كما نصت المعاهدة على ألا يؤدي البنادقة سوى الرسوم المفروضة ، ولا يلزموا ببيع أشياء لا يريدون بيعها .

ونصت كذلك على أن يكون لقنصل البندقية وحده حق محاكمة مواطنيه وليس للقاضي المسلم أن يتدخل في هذا الشأن(٨) ، ويبدو أن هذا القرار لم يظل معمولاً به طوال الحكم العثماني ، ويظهر ذلك في القضايا التي تم التعرض لها ، فكان يبت بالفصل فيها قضاة مسلمون ، سواء أكانت فيما بين بعضهم البعض أم بينهم وبين الأهالي .

وجدد السلطان سليم بعد ذلك الاتفاقية مع الفرنسيين ، ومنحهم حمايته ، وأصدر أوامره بمراعاتهم في مصر والشام .(٩) وقد وقّع السلطان سليمان القانوني معاهدة مع فرنسيس الأول ملك فرنسا في فبراير عام ١٥٢٥م . وهي في الأصل معاهدة للتعاون والصداقة موجهة ضد الهابسبرج . ولكن حصل الفرنسيون بمقتضاها على حقوق ومزايا عديدة سميت فيما بعد باسم امتيازات ، فمنح الرعايا الفرنسيون الحق في حرية الملاحة في المياه الإقليمية للدولة العثمانية ، وممارسة البيع والشراء ، وبحرية تامة ، وتحديد الرسوم الجمركية بنسبة موحدة ومقررة وهي خمسة في المائة ، وإعفاء الرعايا الفرنسيين من دفع أي ضريبة أخرى مهما كان اسمها ، وقيد هذا الإعفاء الضريبي بشرط إقامة الفرنسيين في أراضي الدولة العثمانية عشر سنوات متتالية .

كما تقرر إعفاء الرعايا الفرنسيين من الخضوع للقضاء الإقليمي ، وقصر خضوعهم للقضاء الفرنسي في القضايا المدنية والجنائية ، وتتم الحاكمات في دور القنصليات(١٠)، ويبدو أن هذا لم يستمر لفترة طويلة . إذ كانت المحاكمات تتم أمام القضاة المحليين فيما بعد ، كما سمح لهم ببناء خان يقيمون فيه دون سواهم ، ويودعون فيه بضائعهم . على أن تخصص بجوار الخان أرض لدفن موتاهم، إلى غير ذلك من

(٦) عبد لعزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ،١٩٧٨م) ، ص ٣٠٠ ؛ عمر ، ص ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٧) وصفي ، ص ص ١١٠ ، ١١١ .

(٨) عمر ، ص ٣٣٣ ؛ الشناوي ، جـ ٢ ، ص ٧٠٠ .

(٩) وصفي ، ص ١١١ .

(١٠) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧١م) ، ص ص ٥٧ ـ ٥٨ .

امتيازات تقررت في هذه المعاهدة لرعايا فرنسا ، واستمر تغلغل الفرنسيين بسرعة في داخل الدولة العثمانية ، وتمكنوا من إقامة مراكز تجارية وبعثات قنصلية خاصة بهم في سوريا ومصر .[١١]

ويلاحظ في هذه المعاهدة أنها نصت في مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك انجلترا وغيره إلى الانضمام إليها ، والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك انجلترا بإبلاغ السلطان العثماني ، خلال ثمانية أشهر من تاريخ التوقيع على المعاهدة ، بتصديق الحكومة الإنجليزية عليها ، ويطلب اعتماد هذا التصديق ، أي أن السلطان وفرانسوا الأول أرادا تحويلها من معاهدة ثنائية إلى معاهدة دولية .

ولكن لم تجد هذه الدعوة استجابة من ملك انجلترا . وظلت السفن الإنجليزية تتردد على الموانيء العثمانية تحت الأعلام الفرنسية ، طبقاً لأوامر الحكومة العثمانية . وظل الحال كما هو ، إلى أن استطاع أحد التجار الإنجليز ويدعى أنطوني جنكنس عام ١٥٥٣م ، مقابلة السلطان سليمان القانوني في حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس ، ونجح في الحصول على موافقة السلطان العثماني له على الاتجار داخل ممتلكات الدولة على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين ، وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة .

وعقدت معاهدة بين انجلترا والسلطان مراد الثالث عام ١٥٧٨ م . وتطورت الأمور بعد ذلك حتى أصبح للإنجليز شركات داخل الدولة العثمانية ، وأصبحوا ينالون امتيازات مثل امتيازات البنادقة والجنويين والفرنسيين .[١٢]

وكان يسمح للقناصل بتحصيل رسوم على البضائع الواردة والمشحونة الخاصة برعاياهم . وكان بعض القناصل يحصِّل الرسوم على رعايا بعض الدول الأخرى ، ولذلك تلزم المراكب برفع علم الدولة التي ترعى رعايا الغير .[١٣] وطالما أن المراكب ترفع علم دولة ما ، فيجب عليها دفع الرسوم ، وحدث أن رفعت بعض المراكب الإنجليزية والفرنسية أعلام البندقية ، وأدى ذلك إلى أن فرض قنصل البندقية الرسوم عليهم ، ولكنهم رفضوا الدفع بحجة أنهم تابعون لدولهم ، ولكنهم الزموا بالدفع طالما أنهم رافعون علم دولته[١٤] ، ولم تكن هذه هي الحالة الأولى ، فقد رفع بعض الجنويين أعلام الفلمنك ، وحصَّل قنصل الفلمنك الرسوم منهم[١٥] ، وعلى بعض مراكب الفرنسيين أيضاً .[١٦] كما كانت تحصل رسوماً أيضاً على المراكب المسافرة للخارج ، وقد امتنع أحدهم عن الدفع ، ولكنه اضطر إلى الدفع في النهاية ، وكانت هذه الرسوم تفرض أيضاً على المراكب المستأجرة .[١٧]

بالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت الجمارك تفرض عوائد أخرى على مراكب الأوروبيين ويحصِّلها ملتزم الجمارك[١٨] ويمنع وكيل الملتزم[١٩] الذي كان أحياناً من اليهود ، المراكب التي لم تسدد الرسوم ، بالرغم من وجود بعض البضائع المشحونة عليها ، ويلاحظ أن السلطات المسؤولة حرصت على عدم الإضرار بالبضائع المشحونة عليها .[٢٠]

وفرضت السلطات الحاكمة أيضاً رسوماً على الأوروبيين

(١١) عمر ، ص ص ٥٨ ، ٥٩ .

(١٢) الشناوي ، جـ٢ ، ص ص ٧١٤ ـ ٧١٦ .

(١٣) ارشيف الشهر العقاري ، سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية ، وسأشير إليها بعد ذلك برقم السجل ورقم المادة وتاريخها ، السجل رقم ٢٥ ، مادة ١٢٧٣ ، ص ٤١٧ ، بتاريخ ٢٦ ذي الحجة عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م . كان قنصل إنجلترا في هذا الوقت هو موسيليا كوستا وحصل عوائد على الإنجليز .

(١٤) سجل رقم ٤٧ ، مادة بدون رقم ، ص ٢٥٦ ، تاريخ أواسط صفر عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م .

(١٥) سجل رقم ٥١ ، مادة ١٣٦١ ، ص ٥٨٨ ، بتاريخ ٢٤ رجب عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م .

(١٦) سجل رقم ٥١ ، مادة ١٤٠٦ ، ص ٦٠٣ ، بتاريخ ٤ شوال عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م .

(١٧) سجل رقم ٥٧ ، مادة ٣٠ ، ص ١٢ ، بتاريخ ٢٧ رمضان عام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٦م .

(١٨) ملتزم الجمارك ، تذكر ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، (القاهرة : مطبوعات جامعة عين شمس ، ١٩٧٨م)، ص ٣٢٣ أن الجمارك اديرت في مصر العثمانية سواء أكانت في الموانيء البحرية أم غيرها بنظام الالتزام كالأرض .

(١٩) وكيل الملتزم ، هو الشخص الذي ينوب عن الملتزم في حالة غيابه .

(٢٠) سجل رقم ٥٨ ، مادة ١٨٠ ، ص ١٠١ ، بتاريخ ١٨ جمادى الثاني عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م .

ويحصّل « أغا »(٢١) الحوالة(٢٢) هذه الرسوم ، ويخصص الرسوم المتحصلة من الفرنسيين « لكتخدا »(٢٣) الثغر « الدزدار »(٢٤) بالقلعة ، وطائفة مستحفظان(٢٥) ربما كان ذلك هو ما يعرف برسوم الإقامة للأجانب .

وكانت سياسة العثمانيين الخارجية تستهدف استمرار العلاقات الخارجية مع الغرب . ومن ثم الاسترسال في التجارة البحرية مع البنادقة والجنويين ، ثم الهولنديين والإنجليز والفرنسيين ، واستعمال الطرق البرية التي تصل إلى شمالي أوروبا ، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تكون علاقات تجارية مع البلدان الواقعة على المحيط الهندي ، بالإضافة إلى بلدان غربي آسيا وأفريقيا وكان المجتمع العثماني قد بدأ ينتعش في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، نتيجة للرسوم الجمركية التي كان القصد منها حماية منتجات الدولة ، وظهور طبقة وسطى عريضة وقوية عمادها التجار والحرفيون المسلمون وغير المسلمين .(٢٦)

وعلى هذا فقد قسّمت البحث إلى نقطتين ، تتحدث الأولى عن الحياة الاقتصادية ، أما الثانية فعن الحياة الاجتماعية . ولقد اشتملت الحياة الاقتصادية التي شارك فيها الأوروبيون في مدينة الإسكندرية جميع أوجه الأنشطة المعروفة في ذلك الوقت سواء في التجارة أو الصناعة أو الحرف أو قطاع الأموال . فلقد تعامل الأوروبيون في مدينة الإسكندرية في الفلفل الأسود والزنجبيل ، وكان يتعاقد بعض التجار الفرنسيين مع أحد التجار المحليين ، على توريد كميات كبيرة منها ، وحدد الوزن ، والمبلغ الذى يدفع لها(٢٧) وجوزة الطيب التي يتعاقد فيها أحد البنادقة مع بعض المغاربة في المدينة ، على كميات كبيرة منها(٢٨) والقرفة(٢٩) والياميش(٣٠) والخروب(٣١) ، والزبيب الأسود والأحمر(٣٢) والبن(٣٣) ، وكان يفرض عليه رسوم مخصصة لطائفة «مستحفظان»(٣٤) ويقوم بتحصيلها كاتب بلوك الجوالي(٣٥)

---

(٢١) كلمة آغا تركية من المصدر أغمق ، ومعناها الكبير والمتقدم في السن ، وقيل أنها من الفارسية ، آقا وجرى العرب على إضافة تاء إليها إذا وقعت مضافاً . تطلق في التركية على الرئيس ، والقائد ، وشيخ القبيلة ، وعلى الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء ؛ انظر أحمد السعيد سليمان ، **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل** (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٨م) ، ص ١٧٠ .

(٢٢) الحوالة ، بمعنى تحويل قبض المبلغ ، وترد في الوثائق بمعنى الشخص المحول إليه تحصيل مبالغ أو ضرائب نقدية أو عينية . (انظر ليلى عبد اللطيف ، ص ٤٤٥) ، وتذكر الوثائق بأنه كان يشرف على تصدير البارود إلى الدولة العثمانية (انظر سجل رقم ٤٧ ، مادة ٢٢٩ ، ص ١٢٠ ، بتاريخ ٢١ رمضان عام ١٠٨٩هـ/ ١٦٨٦م .) .

(٢٣) كتخداء ، بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء ، وفي التركية كتخدا ، ومن الفارسية كتخدا ، والكلمة فارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت ، وخدا بمعنى الرب والصاحب ، فالكتخدا هو في الأصل رب البيت ، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ، ويطلقها الترك على الموظف المسؤول والوكيل المعتمد ، أي مدير مكاتب الوزراء وأمناؤهم ، وكان يقال خزينة كتخداس ، أي أمين الخزانة . (انظر سليمان ، ص ١٢٧) .

(٢٤) الدزدار ، كلمة فارسية مكونة من مقطعين ، دز بمعنى مستحفظ أو حاكم ، ودار بمعنى قلعة ، فالكلمة تعني مستحفظ قلعة أو قائد قلعة . (انظر ابراهيم يونس سلطح ، تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣ - ١١٣١هـ/ ١٥١٧ - ١٧١٩م ، من خلال تحقيق مخطوطة تحفة الأحباب بمن تولى مصر من الملوك والنواب ليوسف الملواني الشهير بابن الوكيل ، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الأداب ، جامعة الإسكندرية عام ١٩٨١م ، ص ١١٣ .

(٢٥) طائفة مستحفظان ، وهي كلمة مستحفظ في اللغة الفارسية ، والمستحفظ من يقوم بالمحافظة على حدود الدولة ، أو من يقوم بالدفاع عن القلاع والحدود من الانكشارية ، وكانت تخصص لهم العلوفات . (انظر Stanford Shaw, **Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution** (Princeton, 1964), p. 170.

(٢٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، **في أصول التاريخ العثماني** ، (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢م) ، ص ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٤ ، ص ٢٩ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٠م .

(٢٨) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٠ ، ص ٢٤٠ ، بتاريخ أول ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م .

(٢٩) سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٦٠ ، ص ٩٨١ ، بتاريخ ١٨ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٣٠) نفسه ، مادة ٣٦٢ ، ص ١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٣١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٥٩٨ ، ص ١٧٤ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

(٣٢) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٣٣٢ ، ص ١٧٩ ، بتاريخ ١٦ ذي الحجة عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م .

(٣٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص ١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٣٤) طائفة مستحفظان انظر في معناها .

(٣٥) بلوك الجوالي ، بلوك ، البلوك أو البلك من المصدر التركي يولمك ، أي أن يقسم ، وكلمة بلوك القسم أو الجزء ، وكان الأوجاق ينقسم إلى وحدات

والسكر(٣٦) وخيار الشنبر(٣٧) ، وكان يتعامل في هذه السلعة بعض التجار اليهود ، الذين يفضلون التعامل بالدينار الذهبي(٣٨) ، ويرجع ذلك إلى مهارتهم وخبرتهم في الصيارفة(٣٩) والأرز ، وكانت وحدة الوزن هي الكيلة الرشيدي(٤٠) والعملة المستخدمة أحياناً هي العثمانلي(٤١) والعدس والحمص(٤٢) والقمح(٤٣) والبقسماط(٤٤) والمشروبات المطبوخة(٤٥) (ويقصد بها عمل الشربات والمربيات) ، والبلح ، وأحياناً يباع بالمزاد ، مثال ذلك المحصول الخاص بوقف الحرمين الشريفين(٤٦) كما تاجروا في الفواكه مثل العنب والتين(٤٧) ، وأحياناً يباع المحصول وهو في الحدائق في الخارج مثل رودس(٤٨) وزيت الزيتون(٤٩) وتجارة السمك المملح(٥٠) والبطارخ(٥١) والخمور التي كانت قاصرة على المسيحيين فقط سواء أكانوا من الأهالي أم من الأوروبيين(٥٢) ، ويرجع ذلك لسبب ديني لأنه يحرم على المسلمين الاتجار فيها ، وتاجروا أيضاً في الماشية والأغنام(٥٣) والجلود(٥٤) والزرنيخ(٥٥) والبسط الرومي(٥٦) والأقمشة والمنسوجات(٥٧) والكتان(٥٨)

صغرى باسم البلوكات ، وكان رئيس كل وحدة يعرف باسم البلوك باشي . (انظر ، سليمان ، ص ١٤٤) . وكان كل أوجاق ينقسم إلى عدد من الوحدات تعرف باسم البلوكات ، ويحمل كل بلوك رقماً منسوباً إلى الأوجاق الذي ينتمي إليه ، مقروناً باسم الأوجاق . (انظر عفاف مسعد العبد ، دور **الحامية العثمانية في تاريخ مصر** ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٣م، ص ١٥٤) والجوالي ومفردها جالية تطلق على أهل الذمة ، وذلك لأن سيدنا عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية ، وان لم يجلوا عن أوطانهم، انظر قاسم عبده قاسم ، **أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى** (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١) ، ص ٦٨ .

(٣٦) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص ١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٣٧) سجل رقم ٧ ، مادة ٥٦٤ ، ص ٢٢٩ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م ـ انظر الملحق رقم ٦ .

(٣٨) الدينار الذهبي ، يساوي خمسة وعشرين بارة ، ولكن عقب انهيار النقد عام ١٥٨٤م أصبح كل خمس وثمانين بارة تساوي دينار شريفي ، (انظر عفاف العبد ، ص ٤٣) ولكن في عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م أصبح الدينار الذهبي يساوي نصف فضة (سجل رقم ٣٢ ، مادة ٥٥٤ ، ص ٢٠٤ ، بتاريخ ٢٤ محرم الحرام عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م) .

(٣٩) سجل رقم ٧ ، مادة ٥٦٤ ، ص ٢٢٢ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م .

(٤٠) الكيلة ، وهي تستخدم لكيل الحبوب ، وتتألف من ٢٠ أوقة (تساوي ٢٥ كجم) في استانبول ، وقد اختلف عدد الأوقات التي يتكون منها وزنها الحقيقي من مكان لآخر من أجزاء الامبراطورية (انظر .Shaw, 170) .

(٤١) العثمانلي ، اسم لعملة تركية فضية سكت في عهد السلطان عثمان الثاني ١٠٢٨ ـ ١٠٣٢هـ/ ١٦١٨ ـ ١٦٢٢م) (انظر ، سلطح ، ص ٢٠٣) .

(٤٢) سجل رقم ٥١ ، مادة ١٨٠٢ ، ص ٧٩٣ ، بتاريخ ١٢ رمضان عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م .

(٤٣) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥٠ ، ص ١٤ ، بتاريخ ١٨ ربيع الأول عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م .

(٤٤) سجل رقم ١٢ ، مادة ٤٨٠ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ١٤ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

والبقسماط بالمفاهيم العسكرية لذلك الزمان ، فإن تجهيزه يعني قيام حملة عسكرية للغزو ، وهو ذلك النوع من الخبز الذي يصلح لفترات طويلة لاستخدام الجنود ؛ انظر عبد الوهاب بكر ، **الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر** (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٢م) ، ص ١٣١ .

(٤٥) سجل رقم ٤١ ، مادة ١٦٦ ، ص ٩١ ، بتاريخ ٥ رجب عام ١٠٦٧ هـ/ ١٦٥٦م .

(٤٦) سجل رقم ٢٥ ، مادة ٥٤٤ ، ص ١٧٨ ، بتاريخ ١٦ شوال المبارك عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م .

(٤٧) سجل رقم ١٤ ، مادة بدون رقم ، ص ٢١٦ ، بتاريخ ٢٩ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م . (انظر الملحق رقم ١١).

(٤٨) نفسه ، تم فتح جزيرة رودس عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م في عهد السلطان سليمان القانوني ؛ انظر مصطفى الشافعي القلعاوي ، **صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان** ، ص ١٣ ، مخطوطة .

(٤٩) سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص ٧٢ ، بتاريخ ٨ ذي القعدة الحرام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م .

(٥٠) سجل رقم ٢١ ، مادة ٧٩٩ ، بتاريخ ٩ محرم الحرام عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م .

(٥١) سجل رقم ٧ ، مادة ٤٧ ، ص ١٧ ، بتاريخ ٩ محرم الحرام عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٥٢) سجل رقم ٩ ، مادة ٢٩٤ ، ص ٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م .

(٥٣) سجل رقم ٤٦ ، مادة ٢٥٤ ، ص ١١٧ ، بتاريخ غاية ذي الحجة عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م .

(٥٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٢٧٤ ، ص ٩٨ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٥٥) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٦م ، ص ٧٤ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٥٦) سجل رقم ٥٩ ، مادة ١٤٥ ، ص ٤٢ ، بتاريخ ١١ ربيع الثاني عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م .

(٥٧) سجل رقم ٥٦ ، مادة بدون رقم ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٥٨) سجل رقم ٤٧ ، مادة ٢٨٦ ، ص ١٠٣ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٣م .

والقطن[٥٩] والحرير[٦٠] والفوة[٦١] والنيلة الهندي[٦٢] والشمع الأصفر[٦٣] وتجارة الصمغ[٦٤] والصبر[٦٥] والنطرون[٦٦] والمسك[٦٧] وتاجروا أيضاً في الأواني الفخارية مثل القلل[٦٨] والفضة[٦٩] والصدف والمرجان[٧٠] والنحاس[٧١] والحديد[٧٢] والأسلحة[٧٣] والأخشاب[٧٤] والحطب[٧٥] كما تاجروا أيضاً في بيع وشراء المراكب[٧٦] . وقد لوحظ أنهم يذكرون نوعها مثل الشيطيلية[٧٧] والأكريب[٧٨] ، وامتد نشاط تعاملهم التجاري إلى العبيد والجواري .[٧٩]

أما عن طرق التعامل في ميدان التجارة فكانت متعددة ، ولا شك في أن بعض التجار كان يعمل لحسابه الخاص ، سواء على مستوى صغير أو في حجم تجارة كبير ، ونجد هنا أن أرشيفات المحكمة يسجل لنا ميادين تعاقده، وخلافاته مع الذين يتعامل معهم ، وكان هناك من يقوم بتكوين شركات ؛ وبخاصة تجارة الكتان التي يشارك فيها المغاربة في بعض الأحيان[٨٠] والخروب[٨١] والخمور والتي يكون المقر الرئيسي للشركة في قبرص[٨٢] والكتان والجلود ، والسمك ، والبطارخ ، والصابون[٨٣] ، ويتم تكوين شركة بين بعض الأوروبيين والتجار المحليين واليهود ، ويكون غرضها الأساس تجارة الصدف والمرجان[٨٤] وشراء المراكب وبيعها[٨٥]، ويلاحظ أنه يذكر في عقد الشركة نصيب كل شريك، واختصاص كلٍ منهم ، والمسؤول عن الإدارة

---

(٥٩) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٤٨٣ ، ص ١٨٧ ، بتاريخ ١٧ محرم عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٦٠) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٤٦٩ ، ص ١٨٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩م .

(٦١) سجل رقم ١٣ ، مادة ٨٩٨ ، ص ٢٦٦ ، بتاريخ ١٣ شعبان عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧٩م .

(٦٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٧ ، ص ٨٤ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٦٣) سجل رقم ٥ ، مادة ٣٧٠ ، ص ١٣١ ، بتاريخ غرة شعبان عام ٦٩٦هـ/ ١٥٥٨م .

(٦٤) سجل رقم ٤٠ ، مادة ٣١٧ ، ص ١٢١ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثاني عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٢م .

(٦٥) سجل رقم ٢٦ ، مادة ١١٤ ، ص ٤٢ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ١٠١٧هـ/ ١٦١٨م .

(٦٦) سجل رقم ٤٣ ، مادة ٥٣٤ ، ص ١٨١ ، بتاريخ ٨ شوال عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م .

(٦٧) سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٨١ ، ص ٩٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م .

(٦٨) سجل رقم ٢٥ ، مادة ١١٤٥ ، ص ٤٠٥ ، بتاريخ ١٥ محرم عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م .

(٦٩) سجل رقم ٣٩ ، مادة ٢٩٠ ، ص ٨٦ ، بتاريخ ٤ صفر الخير عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م .

(٧٠) سجل رقم ٥ ، مادة ٢٠٨ ، ص ١٣٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥ م .

(٧١) سجل رقم ٨ ، مادة ٥٠٢ ، ص ١٧٣ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٧٢) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٧ ، ص ٥٨ ، بتاريخ ٢٦ ذي الحجة عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م .

(٧٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٠٥ ، ص ٢٠٥ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٧٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨٧ ، ص ١٣٢ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٧٥) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٤٣٩ ، ص ٢٢٠ ، بتاريخ ١٢ صفر عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م .

(٧٦) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٣ ، ص ١٧٦ ، بتاريخ ١٥ ذي القعدة عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٤م .

(٧٧) الشيطيلية وصحتها شيطي ، وشيطية ، الجمع شياطي وشيطات ، نوع من المراكب الحربية الصغيرة التي تمتاز بالخفة والسرعة والتي كانت تستعمل في البحر المتوسط ؛ انظر درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم (الإسكندرية : مطبوعات جامعة الاسكندرية، ١٩٧٤م)، ص ٨٢ .

(٧٨) الأكريب ، والجمع أكاريب ، ذكر هذا اللفظ في فرمان سليم الأول ، وقد عرف بأنه سفينة حربية صغيرة تسير بالمجاديف سريعة الحركة ؛ (انظر النخيلي ، ص ١٣٠) .

(٧٩) سجل رقم ٦ ، مادة ٨٠ ، ص ٣٥ ، بدون تاريخ ، سجل رقم نفسه ، مادة ١١٨ ، ص ٤٧ ، بتاريخ ٢ جمادى الثانية عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م .

(٨٠) سجل رقم ١٢ ، مادة ٨٥٩ ، ص ٢٩٤ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثاني عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨ انظر ملحق رقم ١٢ .

(٨١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٥٩٨ ، ص ١٧٧ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

(٨٢) سجل رقم ٣٢ ، مادة ١٠٣١ ، ص ٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م .

(٨٣) سجل رقم ٢٥ ، مادة ١٢٢١ ، ص ٣٩٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م .

(٨٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٦٢ ، ص ٦٤ ، بتاريخ ٢ ربيع الثاني عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٨٥) سجل رقم ٢٩ ، مادة ١٨٢ ، ص ٧٤ ، بتاريخ مستهل جمادى الثاني عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م .

والصيانة ، وغير ذلك من الشروط الأخرى[٨٦] وكذلك كانوا يقومون بأعمال الوكالة لدى زملائهم الأوروبيين المتخصصين في تجارية الحرير[٨٧] ولوحظ أن اليهود كانوا أحياناً يعملون كوكلاء لهم ، وقد يشتري لحسابه الخاص[٨٨] الفلفل الأسود والزنجبيل[٨٩] وجوزة الطيب والمرجان[٩٠] والخروب[٩١] والبن[٩٢] والصمغ[٩٣] وزيت الزيتون[٩٤] والجلود .[٩٥]

ويشهد قطاع التجارة للأوروبيين في مدينة الإسكندرية كثيراً من المنازعات في هذا الميدان ، التي تعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة ، وطريقة التقاضي ، والأحكام التي تصدر ، أو الطرق التي كانت تتبع لتسوية الخلافات بطريقة ودية . وأرشيف المحكمة الشرعية بالإسكندرية مليء بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب هذا العهد العثماني .

وكان البيع بالأجل ، وعدم قدرة المدين على الوفاء بالتزاماته يتطور ، في بعض الأحيان ، إلى إعطاء بعض مملتكاته مثل مجوهراته[٩٦] أو مركبه[٩٧] وفي نفس الوقت نجد حالات كثيرة لا يصرّ البائع على أخذ رهن ، ويسلم السلع ، ويتفق مع المشتري على الدفع بعد فترة معينة وفي ثقة كاملة[٩٨] ، وأحياناً يحدث أن يتأخر البعض عن دفع بقية الأقساط ، وفي مثل هذه الحالة يلزم بدفع فائدة تأخير ، كما حدث في تجارة الجلود .[٩٩]

وكانت هناك خلافات تنشأ في قطاع الشراء بالأجل حول المبلغ المتبقي كما هو في تجارة الأرز ، حيث يدفع المشتري جزءاً من المبلغ ، ولكنه يتباطأ في دفع باقي الأقساط[١٠٠] ، ويتم البيع أحياناً بالأقساط الأسبوعية ، كما في تجارة الجلود[١٠١] أو ثمانية أيام في تجارة الياميش[١٠٢] ، ويدفع أحياناً نصف المبلغ ، ويقسط النصف الآخر على أقساط شهرية محددة بثلاثة أقساط ، كما هي في تجارة العبيد[١٠٣] والجواري[١٠٤] ، ويحدث أن يتوفى المشتري بعد دفع بعض الأقساط ، ففي مثل هذه الحالة يطالب البائع الوصي على أولاده وأمواله بدفع باقي الأقساط ، ويتم الاتفاق على دفع نصف المبلغ المتبقي مع التنازل عن النصف الآخر[١٠٥] ، وقد يحدث العكس ، بوفاة البائع بعد دفع المشتري عدة أقساط ، ويطالب ورثته ببقية الأقساط ، ولكنه ينكر ذلك ،

---

(٨٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ٤٩٦ ، ص ١٤٧ ، بتاريخ ٩ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

(٨٧) سجل رقم ٥٩، مادة بدون رقم، ص ٥٦ ، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

(٨٨) سجل رقم ١١، مادة ٢٩٧ ، ص ٨٤ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٨٩) سجل رقم ٨، مادة ٧٩٥ ، ص ٢٩٨ ، بتاريخ ١ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(٩٠) سجل رقم ١٨ ، مادة ٥٩٦ ، ص ٢٠١ ، بتاريخ ١٢ رمضان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

(٩١) سجل رقم ٣١، مادة ٤٤٢ ، ص ٤٤٢، بتاريخ ١٦ شوال عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م.

(٩٢) سجل رقم ٥٨ ، مادة ٢٥٩ ، ص ١٤٣ ، بتاريخ ٢٧ شوال عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م.

(٩٣) سجل رقم ٤٠ ، مادة ٣١٧ ، ص ١٢١ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٢م.

(٩٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٤ ، ص ٣٠٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٩٥) سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص ٧٢ ، بتاريخ ٨ ذي القعدة الحرام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م.

(٩٦) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨٣١ ، ص ٢٧٨ ، بتاريخ ٢٥ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(٩٧) نفسه ، مادة ٨٠٣ ، ص ٢٦٨ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٩٨) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨١٤ ، ص ٢٧٢ ، بتاريخ ١٠ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(٩٩) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٥١٧ ، ص ٢٠٢ ، بتاريخ ٢ رمضان عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(١٠٠) سجل رقم ٦١ ، مادة ٤٣، ص ٢١٩ ، بتاريخ ٤ رجب عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م.

(١٠١) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٤٠١ ، ص ١٥٣ ، بتاريخ ٤ صفر الخير عام ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م .

(١٠٢) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص ٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م .

(١٠٣) سجل رقم ٨ ، مادة ٢٣٠ ، ص ٨٤ ، بتاريخ ٣ جمادي الأولى عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م.

(١٠٤) سجل رقم ١٦ ، مادة ٧٩٥ ، ص ٢٩٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٤م.

(١٠٥) سجل رقم ٣١ ، مادة ٢٠٧ ، ص ٩٣ ، بتاريخ ٣ ذي الحجة عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م.

ويقسم اليمين[١٠٦] وأحياناً يماطل بعضهم في دفع بقية الأقساط ، فينتهي الأمر بالالتجاء الى المحكمة ، التي تلزمه بالدفع على أقساط محددة المدة ،[١٠٧] ، وتباطؤ البعض الآخر في دفع بقية الأقساط بحجة فحص السلعة ، فيقوم نزاع بين الطرفين ، ويتوسط البعض ، وينتهي الأمر بالدفع وتقر المحكمة ذلك .[١٠٨]

وتسجل سجلات المحكمة الشرعية نوعاً آخر من النزاعات ، مثال ذلك قيام المشتري بدفع مبلغ مقدم ، نظير توريد كمية كبيرة من الشمع الأصفر ، ولم يقم البائع بتوريد الكمية المتفق عليها ، بل وينكر إتمام مثل هذا الاتفاق ، فيستشهد المشتري بالبعض الذي يؤكد ذلك ، ويعترف البائع بذلك خشية تعرضه للسجن ، وتسوى مثل هذا المواقف بتوريد نصف الكمية ودفع باقي الثمن[١٠٩] ، ونرى حالة أخرى مثل التعاقد على توريد كمية من الفلفل الأسود والزنجبيل ، ولكنها لا تورد وينتهز المتعاقد وجود مركبه ، فيحجزها ، وفاء لدينه ، ويعترف البائع بأنه قد وردها لشخص آخر ويتعهد بإحضار كمية بديلة[١١٠] ، وهناك حالات أخرى مثل هذه الحالة عن المسك[١١١] ، اتفق أحياناً على توريد كمية من البطارخ ، ولكنها لا تورد بالكامل ، بل وينكر البائع إتمام مثل هذه الصفقة[١١٢] ، واتفق على توريد كمية من الجلود في ميعاد معين ، ولم يتم التوريد ، وعندما يطالب المشتري البائع بالتوريد يعتدي عليه بالضرب[١١٣] وبالنسبة لتجارة الخشب ، فقد اتفق أحد التجار ، بعد أن دفع مبلغاً مقدماً ، ولم ترد الكمية ، وعند المطالبة ، يدعي البائع أنه يعمل في السمسرة فقط[١١٤] وحدث ذلك مع بعض التجار من أهالي الصعيد الموجودين بالمدينة .[١١٥] .

وحدث نزاع من نوع آخر ، بخصوص الغش التجاري ، فقد اتفق على توريد كمية من الصمغ ، وبعد توريدها اتضح أنه يوجد بها مواد أخرى مثل الطين الأسود ، فيحدث نزاع بين الطرفين ، وينتهي الأمر بتشكيل لجنة متخصصة من أحد الثقات مثل جوربجي[١١٦] سردار[١١٧] مستحفظان المدينة والقباني ، وبعض أعيان المدينة ، فيقومون بفحص هذه الصفقة ، وعندما يتأكدون من وجود الغش ، يقومون بغربلة الكمية على نفقة البائع ، ويتم بعد ذلك وزن الكمية الصافية ، ويحدد السعر على هذا الأساس ، ويعاقب البائع[١١٨] وهناك نوع آخر في هذا المجال مثل دفع النقود المزيفة في ثمن صفقة قمح ، ومطالبة البائع بالتعويض المناسب لذلك .[١١٩] .

---

(١٠٦) سجل رقم ٨٢ ، مادة ١٤٧ ، ص ٥٨ ، بتاريخ ٢٦ ذي القعدة عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

(١٠٧) سجل رقم ٨، مادة ٨٢٤، ص ٣٠٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(١٠٨) سجل رقم ٣٣ ، مادة ٥٨٥ ، ص ١٦٧ ، بدون تاريخ .

(١٠٩) سجل رقم ٥ ، مادة ٣٧٠ ، ص ١٣١ ، بتاريخ غرة شعبان المبارك عام ٩٦٦هـ/ ١٥٥٦م.

(١١٠) سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٨١١ ، ص ٩٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

(١١١) سجل رقم ٧ ، مادة ٤٧ ، ص ١٧ ، بتاريخ ٩ محرم الحرام عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م الملحق ٥ .

(١١٢) سجل رقم ٣٧ ، مادة ٧٣٢ ، ص ٢٣٤ ، بتاريخ ٢ ربيع الآخر عام ١١٢٠هـ/ ١٦١١م.

(١١٣) سجل رقم ٨ ، مادة ١٠٧ ، ص ١٣٢ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(١١٤) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٨٨ ، ص ٨٥ ، بتاريخ ٧ رجب عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٣م.

(١١٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٨٨ ، ص ٨٥ ، بتاريخ ٧ رجب عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٣م.

(١١٦) جوربجي ، أو شوربجي حرفياً رجال الشوربة أو ممونوا الشربة ، وهو المسؤول عن طعام الأورطة لأن القوات الإقطاعية لم تكن فقط لا تقبض رواتب من الدولة ، بل أيضاً لا تلقي منها مؤونتها اليومية . ويبدو أن الألقاب المخلوعة على كثير من رتب سك الضباط توضح أن المهمة الرسمية لأصحابها هو مواجهة هذه المشكلة قبل كل شيء ؛ انظر هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، محمد الحسيني ، جـ ٢ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١م) ، ص ١٧٦ .

(١١٧) سردار ، والسر من الفارسية بمعنى الرأس ودار بمعنى صاحب ، والسردار القائد ، ولقد كان السلاطين العثمانيون يقودون الجيش بأنفسهم ، ثم صاروا يعهدون بذلك إلى الصدر الأعظم ، إذا خرج صحب معه طوائف من الإنشكارية ، والجبجية ، والطوابجية ، أي المدفعين والسواري (أي الفرسان) وطوائف من الدفتردارية ، ورجال الخزانة والقبودان . (انظر سليمان ، ص ٢٧) .

(١١٨) سجل رقم ٥٩ ، مادة ٤٧١ ، ص ٢٠٨ ، بتاريخ ١٩ محرم عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م.

(١١٩) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٥٠ ، ص ١٤ ، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

وهناك حالات يصر البائع على دفع ثمن الصفقة بالكامل مثلما حدث في بيع الكتان[١٢٠] ، وأحياناً يصر المشتري على دفع ثمن الحرير كاملاً ، بالرغم من كبر حجمها وثمنها[١٢١] ، وفي مجال بيع المراكب والتي عمل فيها بعض اليهود الأوروبيين ، فإنهم يذكرون في عقد البيع وصفاً تفصيلياً للمركب وثمنها وإقرار البائع بأنه قد استلم المبلغ كاملاً، ولم يقسط له أي قسط[١٢٢] وأحياناً يتم الاتفاق على الدفع عند تسليم المركب في ميناء الإسكندرية[١٢٣] ويشمل ذلك أيضاً بيع الجواري ، حيث يذكر مواصفاتها الجسدية. وأنها خالية من أي عيوب جسمانية ، وغير ذلك من الشروط الأخرى[١٢٤] ، وشملت هذه التجارة المسلمين والمسيحيين واليهود.[١٢٥]

ويصر البائع أحياناً على رهن البضاعة لديه ، حتى يتم تسديد ثمنها ، كما حدث في تجارة الفلفل الأسود وجوزة الطيب[١٢٦] وقد يكون الرهن بعض الأواني النحاسية ، وترد عند تسديد ثمن الخروب[١٢٧] ، أو أن يكون بعض المجوهرات[١٢٨] أو أن يكون مركباً.[١٢٩]

أما المقايضة فقد تمت على أنواع مختلفة ، كمقايضة المرجان بكمية من جوزة الطيب[١٣٠] والقرفة بالقسطل[١٣١] والبن بالبندق والقراصية ، ويقدر ثمن كل سلعة ، ثم يدفع الفرق بين السعرين[١٣٢] ، والجلود بالزرنيخ والجوخ ، - ولكن عند الاستلام اكتشف أن الزرنيخ كان مغشوشاً ، فيطالب بالتعويض[١٣٣] - والنحاس بالفلفل الأسود[١٣٤] وخيار الشنبر بالخروب.[١٣٥]

وهناك بعض الطرائف مثل اشتغال أحد أفراد الانكشارية بأعمال الوكالة لدى بعض الأمراء الذين كانوا يشتغلون في تجارة الحرير[١٣٦] وبائع الحديد الذي توجه لبعض القبانيين ليزن الكمية المباعة ، فيفاجأ بأن المشتري قد استولى عليها وادعى بأنه قد دفع ثمنها على حسب وزنها ، واستشهد - المشتري - ببعض القبانية الذين أكدوا ذلك[١٣٧] ، ومشاركة قابودان الثغر[١٣٨] السكندري مع أحد المغاربة بشراء مركب

(١٢٠) سجل رقم ١١٦ ، ص ٤٣ ، بتاريخ ٢٧ جمادى الآخر عام ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م.

(١٢١) سجل رقم ١٣ ، مادة ٨٩٨ ، ص ٢٦٦ ، بتاريخ ١٣ شعبان عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

(١٢٢) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٣ ، ص ١٧٦ ، بتاريخ ١٥ ذي القعدة عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م.

(١٢٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٢٩ ، ص ١١ ، بتاريخ ٢٩ ، جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(١٢٤) سجل رقم ١٦ ، مادة ٨٢١ ، ص ٢٠٦ ، بتاريخ ١٨ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(١٢٥) نفسه.

(١٢٦) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٧٠ ، ص ٢٤٧ ، بتاريخ ١ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م. انظر الملحق رقم ٢.

(١٢٧) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٦١ ، ص ٢٠ ، بتاريخ ١٢ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

(١٢٨) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨٣١ ، ص ٢٧٨ ، بتاريخ ٢٥ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(١٢٩) نفسه ، مادة ٨٠٢ ، ص ٢٦٨ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(١٣٠) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٧٩٩ ، ص ٢٤٦ ، بتاريخ ١٨ صفر الخير عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م.

(١٣١) سجل رقم ١٨ ، مادة ٥٩٦ ، ص ٢٠١ ، بتاريخ ١٣ رمضان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

(١٣٢) سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٦٦ ، ص ٩٨ ، بتاريخ ١٨ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٨٧م.

(١٣٣) سجل رقم ٣٥ ، مادة ٢٣٩ ، ص ١٠٣ ، بتاريخ ثاني جمادى الثانية عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٠٥م.

(١٣٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٦ ، ص ٧٤ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(١٣٥) سجل رقم ٨ مادة ٥٠٢ ، ص ١٧٣ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ٩٧٣ هـ/ ١٥٦٢ م.

(١٣٦) سجل رقم ٥٦ مادة ٦٨٦ ، ص ٢٣٣ ، بتاريخ ١٨ رجب عام ٩٨٥ هـ/ ١٥٧٧ م.

(١٣٧) سجل رقم ٢٢ ، مادة ٢٤٧ ، ص ١٠٤ ، بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

(١٣٨) قابودان الثغر ، وهم أهم القبودانات الثلاثة ، والآخران تابعين له ، فكان مسؤولاً عن الأمن والنظام في الإسكندرية وصيانة وملأ الصهاريج الخاصة بالماء العذب كما كان عليه أن يقوم بحماية الميناء والشواطىء المجاورة له. ويحصل على دخل سنوي ٨٠٠,٠٠٠ بارة من الرسوم التي يفرضها على البضائع الصادرة والواردة بالميناء وأسواق المدينة نفسها ، كما كان يحصل على ساليانة سنوية من خزينة مصر بلغت ٣٠٠,٠٠٠ بارة في القرن السابع عشر ، ثم هبطت تلك الساليانة إلى ٩٨,٣٣٦ بارة في السنة فقط أسوة بما حدث من تخفيض لساليانات جميع البكوات السناجق. كما كان لقبودان الاسكندرية أيضاً مرتباً عينياً وصل إلى ٥١٥ أردب من الغلال في السنة تصرف له من الأنبار الأميرية. (انظر محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، مقالة حسين أفندي الروزنامجي في ترتيب الديار المصرية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة مايو ١٩٣٦م ، ص ٥٨ ؛ ليلي ، ص ٣٨٦.

بعض الأوروبيين من نوع الشيطيلية .[١٣٩]

يأتي بعد ذلك قيام الأوروبيين بأعمال الاستيراد والتصدير ، إذ اتضح من الاطلاع على أرشيف المحكمة الشرعية أنهم قاموا بدور كبير في هذا المجال . ونجد أن العقود التي كانت تسجل بين الطرفين تتعرض لأدق التفصيلات ، مثل شروط الدفع ونوع البضاعة ، حتى نوع المراكب التي تشحن عليها البضاعة .

ففي مجال الاستيراد ، استوردوا الفوة من أضاليا ، وحدث في بعض الحالات عند وصول الكمية إلى الإسكندرية ، أن قام المتحدث باسم بيت المال[١٤٠] الحشري بالحجز عليها نتيجة لتشابه في الأسماء ، واتضح بعد ذلك إدراك هذا الخطأ ،[١٤١] والفلفل الأسود والزنجبيل[١٤٢] وجوزة الطيب والبهار[١٤٣] والخروب من قبرص[١٤٤] والزبيب بنوعيه الأسود والأحمر من اليونان[١٤٥] والبن من أنطاكية[١٤٦] والصمغ وكان يخصم منه نسبة تسمى نسبة التخزين،[١٤٧] والخمور من قبرص[١٤٨] وفي هذا المجال سمح لقناصلهم باستيراد كمية معينة ، مع إعفائهم من نسبة معينة من الرسوم الجمركية ، واستفاد من هذا كل من انجلترا[١٤٩] وفرنسا[١٥٠] والبندقية[١٥١] والفلمنك .[١٥٢]

أما في مجال التصدير ، فصدروا بعض الحاصلات إلى الدولة العثمانية مثل السكر[١٥٣] وخيار الشنبر[١٥٤] والأرز[١٥٥] ومن الجهات الأخرى التي تعاملوا معها راكوزا ، والبندقية ، وتصدر إليها الحنا[١٥٦] والأرز إلى سالونيك[١٥٧] وإلى استاتكو[١٥٨] وتعرضت بعض السلع أثناء شحنها لفقدان عبوتها ، وانتهى الأمر بالنزاع بين الطرفين ، وبين المسؤول عن ذلك[١٥٩] والخشب إلى البلاد العربية[١٦٠] والحطب إلى أضاليا .[١٦١]

أما نشاطهم في مجال المواصلات ، فقد أسهموا في ذلك بطرق عدة ، سواء أكان عن طريق السفر على مراكبهم أم عن طريق شحن البضائع ، وأحياناً أجروا مراكبهم للسلطات الحاكمة ، واتفق البعض على السفر ودفع الأجرة المقررة له ، ولكن حدث أنه لم يسافر ، وطلب منه رد

(١٣٩) الشيطيلية ، انظر في معناها .

(١٤٠) بيت المال ، التزام ما يعود للخزينة من رسوم وحقوق وميراث من لا وارث له من عامة الناس ، أو من رجال الدولة وجندها أو موظفيها ، (انظر ليلي ، ص ٤٤٥) .

(١٤١) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٤٦٩ ، ص ١٨٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

(١٤٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٤ ، ص ٢٩ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٠م .

(١٤٣) سجل رقم ٢٢ ، مادة ٢٥٧ ، ص ٩١ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(١٤٤) سجل رقم ١٤ ، مادة ٥٩٨ ، ص ١٧٧ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٠م .

(١٤٥) سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٢ ، ص ٢٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذي القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(١٤٦) سجل رقم ٣٥ ، مادة ٢٣٩ ، ص ١٠٣ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ١٠٠٤هـ/ ١٦٠٥م .

(١٤٧) سجل رقم ٤٠ ، مادة ٣١٧ ، ص ١٢١ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٢م .

(١٤٨) سجل رقم ٣٢ ، مادة ١٠٣١هـ ، ص ٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/ ١٥٦٣م .

(١٤٩) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٢٤٤ ، ص ٨١ ، بتاريخ أواخر جمادى الثانية عام ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م .

(١٥٠) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٨٠ ، ص ٨١ ، نفس التاريخ .

(١٥١) سجل رقم ٥٢ ، مادة ١٥١٨ ، ص ٦٤٢ ، بتاريخ ٢٠ ذي الحجة عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م .

(١٥٢) سجل رقم ٤١ ، مادة ١٦٩ ، ص ٩٢ ، بتاريخ ١٧ رجب عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م .

(١٥٣) سجل رقم ٥١ ، مادة ١٨٠٢ ، ص ٧٩٣ ، بتاريخ ١٢ رمضان عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م .

(١٥٤) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٥٦٤ ، ص ٢٢٢ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م .

(١٥٥) سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٨١ ، ص ٩٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م .

(١٥٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٩٤ ، ص ٦١ ، بتاريخ ٢١ جمادى الأولى عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٩م .

(١٥٧) سجل رقم ٢٦ ، مادة ١٢٢ ، ص ٤٢ ، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م .

(١٥٨) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٢٨٩ ، ص ١٥٨ ، بتاريخ ٨ ذي الحجة عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م .

(١٥٩) سجل رقم ٥١ ، مادة ٨١٠ ، ص ٣٧٥ ، بتاريخ ٢٢ ذي القعدة عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م .

(١٦٠) نفسه .

(١٦١) سجل رقم ٥١ ، مادة ٨١٠ ، ص ٣٧٥ ، بتاريخ ٢٢ ذي القعدة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م .

الأجرة ، ولم يردها إليهم ، وانتهى الأمر بسجنه(١٦٢) ، وآخر لا يدفع الأجرة المطلوبة(١٦٣) وحدث أن تعطل المركب أثناء إبحاره في موانيء البحر المتوسط ، واضطر لترك المسافرين ، وطالبوا بالتعويض(١٦٤) . أما بالنسبة لشحن البضائع على مراكبهم فقد تم شحن البضائع الخاصة بالدولة العثمانية ، وكتب القبطان تعهداً خطياً ، بمواصفات البضاعة المشحونة ، وخلوها من أي عيب ، والميناء المصدر إليه ، واقرار بأنه قد حصل على أجره كاملاً(١٦٥) واشترط عليه عدم التوجه إلى أي يمناء آخر.(١٦٦) ولم يقتصر استخدام مراكبهم في سفر المسافرين أو شحن البضائع، بل ساهموا أيضاً في نقل جنود الدولة العثمانية من الأوجاقات المختلفة، مثل أوجاق عزبان(١٦٧) ومستحفظان(١٦٨)، ومن المكلفين القيام ببعض العمليات الحربية .(١٦٩)

وقد لوحظ في عام ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م أنه قد تم حظر شحن بضائع المسلمين في السفن الأوروبية(١٧٠) وربما يرجع ذلك إلى الظروف الخاصة بالدولة خلال هذه الفترة .

وأخيراً علينا أن نذكر أن سجلات المحكمة الشرعية بالإسكندرية تشتمل على نوع جديد من النشاط المالي ، والخلافات التي حدثت فيه ، وهو ميدان الاقتراض ، ولقد شارك الأوروبيون في الإسكندرية في هذا المجال ، فكانوا يقترضون من بعضهم ، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض أبناء مدينة الإسكندرية ، وكذلك عدد من اليهود المغاربة ، فأقرضوا الغير دون تحديد ميعاد التسديد(١٧١) ، ولوحظ أن بعضهم قام بالإقراض بالوكالة عن شخص آخر ، وتعدى ذلك إلى خارج البلاد ، كالبندقية مثلاً ، ففي مثل هذه الحالة تعهد المقترض بتسديد قيمة القرض عند عودته فوراً ، مضافاً إليه فائدته(١٧٢) ، وأحياناً يوكِّل الدائن شخصاً آخر لاستلام قيمة قرضه عندما يحل ميعاد السداد .(١٧٣)

وشملت القروض أفراد الحرفة الواحدة والعمل الواحد مثل القصابين(١٧٤) أو الصباغين(١٧٥) وقناصل الدول الأوروبية السابقين مثل قنصل البندقية في رشيد(١٧٦) أو أن يكون القرض لتمويل صفقة تجارية مثل بيع المنسوجات وأغطية الرأس للسيدات(١٧٧) أو تجارة الخمور(١٧٨) أو افتداء النفس أو فك الأسر للرجال(١٧٩) أو السيدات(١٨٠) أو وفاء لأجرة سفر بالمركب ، وفي مثل هذه الحالة يتعهد المسافر

---

(١٦٢) سجل رقم ١٧، مادة ٢٥٦ ، ص ٢٨٤ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

(١٦٣) سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٠١ ، ص ١٠٣ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(١٦٤) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٢٦٢ ، ص ٢٣ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الثانية عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

(١٦٥) سجل رقم ٥٧ ، مادة ٢٢٩ ، ص ٢٥ ، بتاريخ ٢١ رمضان عام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٦م.

(١٦٦) سجل رقم ٦٢ ، مادة ١٦٧ ، ص ٧٣ ، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول عام ١١١٣هـ/ ١٧٠٢م.

(١٦٧) عزبان ، لغة من لا زوج له ، وهي في التركية اسم جمع وعلم وعلى طائفتين من الجند العثماني ، احداهما بحرية والأخرى برية ، وكانوا يؤخذون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من بين أشداء الشباب الترك بمعدل كل شاب من كل عشرين أو ثلاثين بيتاً (انظر ، سليمان ، ص ١٥١) .

(١٦٨) مستحفظان ، انظر في معنى مستحفظان .

(١٦٩) سجل رقم ٥٥ ، مادة ٥٦ ، ص ٢٥ بتاريخ أواخر شهر ربيع الأول عام ١٠٩٦هـ/ ١٤٨٤م.

(١٧٠) سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٣ ، ص ٣١ ، بتاريخ أواخر ذي القعدة عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م.

(١٧١) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٧٤٦ ، بدون رقم ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(١٧٢) سجل رقم ٦ ، مادة ٣٧٦ ، ص ١٥٣ ، بتاريخ ١٢ صفر عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥م.

(١٧٣) سجل رقم ١٧ ، مادة ٧٨٤ ، ص ٢٩٠ ، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول عام ١٠٨٢هـ/ ١٥٥٣م.

(١٧٤) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥٨٧ ، ص ١٦٨ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م.

(١٧٥) سجل رقم ١٦ ، مادة ٩٥٥ ، ص ٣٥٤ ، بتاريخ ٦ ذي الحجة عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

(١٧٦) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٥٩١ ، ص ١٨٤ ، بتاريخ ١٥ شعبان عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م.

(١٧٧) سجل رقم ٨ ، مادة ٨٩٣ ، ص ٣٣٢ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(١٧٨) سجل رقم ٤٠ ، مادة ١٩ ، ص ١١ ، بتاريخ سلخ شوال عام ١٠٣١هـ/ ١٦٥١م.

(١٧٩) سجل رقم ٣٢ ، مادة ٥٥٤ ، ص ٢٠٤ ، بتاريخ ٢٤ محرم الحرام عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م.

(١٨٠) نفسه مواد ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، بنفس التاريخ .

بالدفع فوراً عند ميناء الوصول .[١٨١]

وبالنسبة للمشكلات الناجمة عن تسديد القروض ، وجد الكثير من المشكلات التي نجمت عن ذلك ، إذ كانت تمنح وتسدد بالتقسيط ، وبالرغم من قيام المدين في بعض الحالات بتسديد بعض الأقساط ، إلا أن الدائن يلجأ للقضاء ، لإثبات حقه ، وهدفه من ذلك إثبات باقي قيمة القرض[١٨٢] وقد تكون الفائدة كبيرة ، مما يؤدي إلى عدم استطاعة المدين التسديد ، فينتهي الأمر بسجنه[١٨٣] وأحياناً يسدد المدين المبلغ ، ويفاجأ بالمطالبة بالتسديد مرة أخرى، ويستشهد المدين بالبعض الذين يؤكدون قيامه بالتسديد[١٨٤] ، كما ينكر المدين في حالة أخرى قيمة القرض ويضطر في النهاية الى التسديد على أقساط محددة[١٨٥] أو دفع المبلغ مرة واحدة[١٨٦] ، واقترض البعض وسافر لخارج البلاد دون تسديده ، ورفع الدائن أمره للقضاء ، وغالباً ما يصدر الحكم غيابياً[١٨٧] ، وأقحم البعض زوجته في الاقتراض ، ولكن عند مطالبتها بالسداد تنكر ذلك[١٨٨] ، وهناك من قام بتسديد القرض في ميعاده .[١٨٩]

وضَمِنَ بعض الأفراد آخر في الاقتراض ، وامتنع عن التسديد ، فسدد الضامن قيمة القرض[١٩٠] ، وفي بعض الحالات يصر الدائن على أخذ رهن مثل الملابس[١٩١] أو أواني نحاسية .[١٩٢]

ومن الطرائف أننا وجدنا في بعض الحالات أن الرهن كان بعض العبيد ، واشترط الدائن على ضرورة السداد في فترة معينة ، وأنه إذا مات ـ العبد ـ فلا يكون له الحق في الدين[١٩٣] ، وأن رجال الأوجاقات العثمانية قد دخلوا هذا الميدان[١٩٤] والنساء أيضاً[١٩٥] .

ويأتي بعد ذلك اشتغال الأوروبيين في مجال آخر من المجال الاقتصادي ألا وهو نظام إيداع الأمانات ، نظير تحصيل مبلغ معين ، واتخذ أشكالاً عديدة مثل النقود[١٩٦] أو المجوهرات[١٩٧] وأحياناً أموالاً ومجوهرات[١٩٨] أو منسوجات كتانية[١٩٩] أو أسلحة[٢٠٠] ولكنها أحياناً لا ترد ، ويستشهد ببعض الشهود وترد بعد ذلك[٢٠١] وقد ينكر البعض استلامها ويقسم على ذلك[٢٠٢] ونجد في

(١٨١) سجل رقم ٢٥ ، مادة ١٣٨ ، ص ١٤٦ ، بتاريخ ٢٦ جمادى الثانية عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م.

(١٨٢) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٥١ ، ص ٢٣٧ ، بتاريخ ٢٩ شوال عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(١٨٣) سجل رقم ٦ ، مادة ٣٧٦ ، ص ١٥٣ ، بتاريخ ١٢ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

(١٨٤) سجل رقم ١٦ ، مادة ٣٠٧ ، ص ١٣٦ ، بدون تاريخ .

(١٨٥) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥٨٧ ، ص ١٦٨ ، بتاريخ ١٨ شعبان عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م.

(١٨٦) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٢٢١ ، ص ٧٧ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م.

(١٨٧) سجل رقم ٢٧ ، مادة بدون رقم نفس الصفحة ونفس التاريخ .

(١٨٨) سجل رقم ٤٠ ، مادة ٢١٩ ، ص ١١ ، بتاريخ سلخ شوال عام ١٠٣١هـ/ ١٦٥١م.

(١٨٩) سجل رقم ٥٦ ، مادة ١٦٦ ، ص ٥٥ ، بتاريخ ٢٤ شعبان عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

(١٩٠) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٠٤ ، ص ٨٢ ، بتاريخ ٢٠ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

(١٩١) سجل رقم ١٢، مادة ٢٣٠، ص ٨٨، بتاريخ ١٣ محرم عام ٩٩٦ هـ / ١٥٨٧ م.

(١٩٢) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٧٢ ، ص ٢٢ ، بتاريخ ٤ ربيع الثاني عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م.

(١٩٣) سجل رقم ٨ ، مادة ١٢٩ ، ص ٤٥ ، بدون تاريخ .

(١٩٤) سجل رقم ٥٦ ، مادة ١١٣ ، ص ٣٦٤ ، بتاريخ ٢٠ ذي القعدة عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

(١٩٥) سجل رقم ١٧ ، مادة ٤٣ ، ص ١٤ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(١٩٦) سجل رقم ٩ ، مادة ٧٨٨ ، ص ٢٤٧ ، بتاريخ ٢٩ محرم عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

(١٩٧) سجل رقم ٩ ، مادة ٨١٠ ، ص ٢٥٢ ، بتاريخ ٦ صفر عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م .

(١٩٨) سجل رقم ٤٧ ، مادة ٦٣٦ ، ص ٢٥٥ ، بتاريخ ٦ صفر الخير عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٦٥م.

(١٩٩) سجل رقم ٣٢ ، مادة ٢٤ ، ص ١٢ ، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م.

(٢٠٠) سجل رقم ٦٦ ، مادة ٨٢ ، ص ٥٤ ، بتاريخ ٨ ربيع الثاني عام ١١٣١هـ/ ١٧٧٠م.

(٢٠١) سجل رقم ٩ ، مادة ٨١٠ ، ص ٢٥١ ، بتاريخ ٦ صفر الخير عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

(٢٠٢) سجل رقم ٢٥ ، مادة بدون رقم ، ص ١٠ ، بتاريخ ٤ ذي الحجة عام ٩٩٦ هـ / ١٥٨٧ م .

الجانب الآخر ، أن بعضهم عندما يعلم بوفاة صاحب الأمانة ، يتصل بالورثة يخبرهم بذلك .[٢٠٣]

أما الصناعات والحرف التي عملوا بها واحترفوها ، فقد عمل بعضهم في صناعة الأواني النحاسية ، وأحياناً تباطأ بعضهم في صناعتها وتوريدها[٢٠٤] أما الحرف التي احترفوها فهي الخياطة[٢٠٥] وقلفطة المراكب[٢٠٦] والجزارة[٢٠٧] والطب والصيدلة[٢٠٨] والسمسرة[٢٠٩] ومنهم كان الخبازون[٢١٠] والبحارة[٢١١] والقهوجية[٢١٢] والإسكافية[٢١٣] بل أن منهم من عمل في القرصنة البحرية[٢١٤] وغير ذلك من الحرف الأخرى .

واتفق بعضهم مع بعض الحرفيين على تعليم ابنه حرفته ، وفي هذه الحالة أقام عنده ، وتعهد بكسوته ، وجميع النفقات الأخرى ، ومعاملته معاملة الوالد لولده ، وغير ذلك من الشروط الخاصة بالحرفة[٢١٥] . أما أجورهم فإما أن تكون نقدية أو عينية مثل الملابس[٢١٦] . وأحياناً يتم العمل بموجب عقد بين الطرفين ، لمدة معينة مقابل أجر معين ، وبالنسبة للمشكلات ، فقد يمرض أحياناً أحد العاملين ، مثل حرفة البحارة مثلاً ، أثناء رحلة المركب ، فتخصم منه الإجازة المرضية ، وحالة أخرى مشابهة لذلك ، فإننا نجد أن بعض البحارة قد تعاقد للعمل على إحدى المراكب لمدة عام ، ولكن كانت مدة العمل الفعلية هي تسعة أشهر وطالب بأجرة سنة كاملة ، وأدى ذلك إلى حدوث نزاع بين الطرفين ، وانتهى الأمر بسجنه ، لأنه أخل بشروط العقد .[٢١٧]

وبالنسبة للطب ، فإنه يتم الاتفاق أحياناً بين الجراح والمريض ، بأنه إذا توفي المريض أثناء إجراء العملية فإنه - فالطبيب - غير مسؤول ، ولا يطالب أهله بالتعويض[٢١٨] ، كما يقوم بعض الصيادلة - العطارين - بصنع دواء لأحد المرضى ، وعندما لا يشفى من مرضه يطالب المريض باسترداد نقوده التي دفعها ، ولم يستطع استردادها[٢١٩] ، وتم العلاج بنظام التعاقد مع بعض الطوائف ، ففي مثل هذه الحالة ، فإن نظام العلاج يتم حسب المكانة الاجتماعية لكل فرد[٢٢٠] وقد تحدث مشكلات وخلافات بين الطبيب وبين احدى الطوائف ، بسبب أسعار العلاج ، وينصف القضاء الطبيب لأنه نفذ بنود العقد كاملة[٢٢١] ومن الطرائف ، أننا نجد بعض حالات الاتفاق

---

(٢٠٣) سجل رقم ٤٧ ، مادة ٦٣٦ ، ص ٢٥٥ ، بتاريخ ٦ صفر الخير عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٢م.

(٢٠٤) سجل رقم ٥٩ ، مادة ١٢٧ ، ص ٣٨ ، بتاريخ ٩ ربيع الثاني عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

(٢٠٥) سجل رقم ٤٣ ، مادة ٢٦٤ ، ص ٩٣ ، بتاريخ ٣ ذي الحجة الحرام عام ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨م.

(٢٠٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ٩٨٢ ، ص ٢٧٨ ، بتاريخ ١٢ ذي الحجة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(٢٠٧) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥٨٧ ، ص ١٦٨ ، بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م.

(٢٠٨) سجل رقم ١١ ، مادة ٤٣٨ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ٢٠ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٢٠٩) سجل رقم ١٢ ، مادة ٨٤٨ ، ص ٢٩١ ، بتاريخ ١٦ ربيع الثاني عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٥م.

(٢١٠) سجل رقم ١٦ ، مادة ١١٩٠ ، ص ٤٣٥ ، بتاريخ ١٢ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٦٠٥ك.

(٢١١) نفسه، مادة ٩٢٧ ، ص ٢٤٥ ، بتاريخ ٣ رجب عام ١٠٠٣هـ/ ١٦٠٤م.

(٢١٢) سجل رقم ٨ ، مادة ٤٩١ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١ جمادي الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٢١٣) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٣٩٢ ، ص ١٤٥ ، بتاريخ ٣ شعبان عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م.

(٢١٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨ ، ص ١٣٨ ، بتاريخ ٥ جمادي الثانية عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩١م.

(٢١٥) سجل رقم ٥١ ، مادة ٤٧ ، ص ٢١٠ ، بتاريخ ١١ محرم عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م.

(٢١٦) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨ ، ص ١٥ ، بتاريخ ٥ جمادى الثانية عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩١م الملحق ٨ .

(٢١٧) سجل رقم ٢١ ، مادة ٩٨٨ ، ص ٢٤٤ ، بتاريخ ٢٩ ذي القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٢١٨) سجل رقم ٨ ، مادة ٤٩١ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٦ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٢١٩) سجل رقم ٢٥ ، مادة ٤٨٩ ، ص ١٦٢ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م.

(٢٢٠) سجل رقم ٥٩ ، مادة ٩٤٥ ، ص ١٢٧ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م.

(٢٢١) سجل رقم ١٢ ، مادة ٨٤٨ ، ص ٢٩١ ، بتاريخ ١٦ ربيع الثاني عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

بين المريض والطبيب أنه إذا لم يشف ، فمن حقه أن يسترد النقود التي دفعها ، بالإضافة الى ثمن الأدوية .(٢٢٢)

هكذا أسهم الأوروبيون في الحياة الاقتصادية في كافة أنشطتها من حيث اشتغالهم بالتجارة والصناعة واحترافهم بعض الحرف ، وغير ذلك من المجالات الأخرى .

الحيــاة الاجتمـاعيــة

أما حياتهم الاجتماعية في مدينة الاسكندرية في العصر العثماني ، فقد تمثلت في المعاملات اليومية مع بعضهم البعض ، وبينهم وبين بعض الجنسيات الأخرى ، وظهر ذلك بشكل واضح في الزواج والطلاق ، والميراث ، والخلافات العامة ، واعتاق العبيد والجواري ، والأوقاف واعتناق بعضهم الاسلام ، وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية الأخرى .

وبالنسبة للزواج، فقد تم بين بعضهم البعض ، وبينهم وبين بعض الجنسيات الأخرى ، فتزوج أحد الأهالي من إحدى الأوروبيات المسلمات ، واتفق على المقدم ومؤخر الصداق، وقد لوحظ أن المؤخر يدفع على أقساط معينة، مع بداية كل شهر حتى الوفاء ، بالإضافة إلى كسوتها شتاء وصيفاً(٢٢٣) ، كما تزوج أحد الأوربيين المسلمين من إحدى بنات الأهالي المسلمات(٢٢٤) ، وقد تم عقد قران بعضهم في بلادهم ، وفقد منهم العقد ، فأعادوا عقد قرانهم مرة أخرى بالإسكندرية ، وأفادوا بأنهما سبق لهما الزواج قبل ذلك ، وتم عقد قرانهم في البندقية(٢٢٥) ، وشمل الزواج من احدى الجواري بعد اعتاقها(٢٢٦) ، وقد تشترط الزوجة أحياناً على زوجها، بأنها تكون طالقاً إذا تزوج من غيرها دون اللفظ به ، ففي مثل هذه الحالة تبرية من بقية مؤخر صداقها(٢٢٧) ، وأحياناً لا تطالب الزوجة بمؤخر صداقها إلاّ في حالة طلاقها منه(٢٢٨) أو الموت .(٢٢٩)

أما الزواج من مطلقات ـ وخاصة بعد انتهاء العدة ، فيشترط عليها الاستشهاد ببعض الشهود ولا يذكر المقدم ولا المؤخر(٢٣٠) ، ولا بد من أن يذكر في العقد بأنها خالية من الموانع الشرعية .(٢٣١)

وبالنسبة للطلاق ، فإن الاتفاق يتم على أساس اقتسام أثاث المنزل بينهما مع تحديد نصيب كل منهما ، ودفع المؤخر على دفعات(٢٣٢) أو تحصل المطلقة على مؤخر صداقها ، مع استلام ما يخصها من أثاث المنزل(٢٣٣) ، واتفق في بعض الحالات على تنازل الزوج عن بعض مستحقاته من المجوهرات والملابس نظير تعهد والد مطلقته بعدم مطالبته بأي شيء من مستحقاتها(٢٣٤) ، وأحياناً تبري المطلقة مطلقها من مؤخر الصداق بسبب فقر الزوج مثلاً ، وعدم مقدرته الإنفاق عليها وعلى بيت الزوجية ، أمام القاضي(٢٣٥) ، وحدث في بعض الحالات أن طلق البعض زوجته وهي حامل، وفي مثل هذه الحالة يتعهد بالإنفاق

---

(٢٢٢) سجل رقم ٥٩ ، مادة ٩٤٥ ، ص ٢٣٨ ، بتاريخ ٨ رجب عام ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م.

(٢٢٣) سجل رقم ٩ ، مادة ٧٥٧ ، ص ٢٣٩ ، بدون تاريخ .

(٢٢٤) سجل رقم ٢٣، مادة ٥٣ ، ص ١٥ ، بتاريخ ١٩ ربيع الثاني عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

(٢٢٥) سجل رقم ٢٢ ، مادة ٥٥٥ ، ص ٢٣٤ ، بتاريخ ١٦ ذي الحجة عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م ؛ انظر الملحق رقم ١٧ .

(٢٢٦) سجل رقم ٣٨ ، مادة ١٣٧ ، ص ٥٠ ، بتاريخ محرم الحرام عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م.

(٢٢٧) سجل رقم ٦٤ ، مادة ٢٧١ ، ص ١٥٠ ، بتاريخ أواخر جمادى الثانية عام ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م.

(٢٢٨) سجل رقم ٣٨ ، مادة ١٩٧ ، ص ٥٠ ، بتاريخ ١٠ محرم الحرام عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م.

(٢٢٩) سجل رقم ٢٧ ، مادة ١٨٦ ، ص ١١١ ، بتاريخ ١ ذي القعدة الحرام عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

(٢٣٠) سجل رقم ٣٠ ، مادة ٣٤٦ ، ص ١١٣ ، بتاريخ أول جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٢٣١) سجل رقم ٦ ، مادة ١٨٦ ، ص ٧٥ ، بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر عام ١٠٤٤هـ/ ١٥٩٥م. ملحق رقم ١٥ .

(٢٣٢) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٣٧٢ ، ص ١١٠ ، بتاريخ ١١ شوال عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م.

(٢٣٣) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٦٣٢ ، ص ١٩٦ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م.

(٢٣٤) سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٦٢ ، ص ٢٤٨ ، بتاريخ ٢٩ شوال عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(٢٣٥) سجل رقم ٧ ، مادة ٥١٧ ، ص ٢١٢ ، بتاريخ ١١ ذي القعدة عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

عليها وعلى مولودها(٢٣٦) ، وأحياناً يعيد أحدهم مطلقته الى عصمته وهنا لا يذكر قيمة المقدم ولا المؤخر عند العودة .(٢٣٧)

ومن الطرائف أن بعض الأهالي قد اشتكى أحدهم بأنه طلق زوجته ثلاث مرات ، وعاشرها معاشرة الأزواج ، وبمواجهتهما أنكرا حدوث ذلك.(٢٣٨)

أما تصفية التركات ، فقد أخذت أشكالاً وأنماطاً معينة ، فقد يكون صاحب التركة غائباً عن البلاد(٢٣٩) أو فقيراً معدماً أو كتب وصيته وهو على فراش الموت، أو كتب كل ما يمتلكه من ملابس وخلاف ذلك(٢٤٠) وآخر كتب وصيته ، مبيناً ما يمتلكه من عقارات وممتلكات أخرى ، وحدد المستفيدين من هذا الميراث مثل زوجته وابنته(٢٤١) ، وشملت التركة أحياناً بعض البضائع مثل الأحرمة والأرز(٢٤٢) ، وكتب أحدهم في وصيته أمواله وديونه وسببها ، واستشهد بالبعض(٢٤٣) ، وحدد الوصي على زوجته وابنه المقيمان خارج البلاد ، وفي اثناء ذلك يقوم الوصي بحصر التركة ، مع صرف مبلغ معين لهم حتى تتم تصفية التركة(٢٤٤) ولا يكتب أحدهم وصيته قبل وفاته ، ولذا قام الورثة الشرعيون باتخاذ الإجراءات القانونية لإثبات حقهم ، مع الأخذ بأن لشقيق المتوفي نصيباً في الميراث(٢٤٥) وأحياناً يكون الوريث الوحيد بعد وفاة والدته في ميراث أخيه المتوفي في تونس واستشهد بأحد المؤذنين(٢٤٦) وفي بعض الحالات يكون المتوفي لا وريث له ، فيطالب عبده بحقه في الميراث ، مع إثبات أن سيده قد اعتقه لوجه اللّه تعالى قبل وفاته ، وأنه اعتنق الإسلام ، واستشهد ببعض الجزائريين ، وفي مثل هذه الحالة كان لبيت مال القابي قول(٢٤٧) حق في هذا الميراث ، لأن المتوفي هو أغا الينكجري الجزائري من طائفة القابي قول ، وقد يكون المتوفي لا وريث له بالمرة ، وهنا تؤول مملتكاته الى قلم الجوالي(٢٤٨) الذي يقوم بتصفية تركته(٢٤٩)، واستولى البعض على ممتلكات أحد المتوفين وفاء لدين عليه .(٢٥٠)

يأتي بعد ذلك مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية الخاصة بهم ، والتي اتخذت أنماطاً عديدة مثل التعامل مع بعضهم البعض ، ومع الآخرين ، وتمثل ذلك في الاعتداء على بعضهم إما بالضرب ، أو التلفظ بألفاظ نابية ، وغير ذلك من الوسائل الأخرى ، فقد اعتدى بعض المسيحيين الأوروبيين

---

(٢٣٦) سجل رقم ٣٠ ، مادة ٤٦ ، ص ٢٣ ، بتاريخ أواخر المحرم الحرام عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م ، سجل رقم ٢٣ ، مادة ١٩٦ ، ص ١٤٢ ، بتاريخ ٢١ ذي القعدة عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

(٢٣٧) سجل رقم ٢٧ ، مادة ٢٤٨ ، ص ١٢٣ ، بتاريخ سلخ ربيع الأول عام ١٠٢٥هـ/ ١٦٢٥م.

(٢٣٨) سجل رقم ٣٩ ، مادة ٣٠٣ ، ص ١٢٣ ، بتاريخ سلخ ربيع الأول عام ١٠٢٥هـ/ ١٦٢٥م.

(٢٣٩) سجل رقم ٨ ، مادة ٩٠٠ ، ص ٢٣٥ ، بتاريخ مستهل شهر رجب عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م .

(٢٤٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٨٨٨ ، ص ٣٦٥ ، بتاريخ ٦ ربيع الأول عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(٢٤١) سجل رقم ٣٥ ، مادة ٥٤٦ ، ص ١٩٩ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م.

(٢٤٢) سجل رقم ٣٦ ، مادة ٦٧ ، ص ٢٧ ، بتاريخ ١٤ جمادى الثانية عام ١٠١٧هـ/ ١٦٠٦م.

(٢٤٣) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٥٧٣ ، ص ١٧٧ ، بتاريخ ١٠ رمضان عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٥م.

(٢٤٤) سجل رقم ٦٥ ، مادة ٤٩٥ ، ص ٢٧٣ ، بتاريخ غرة شهر محرم الحرام عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م.

(٢٤٥) سجل رقم ١٦ ، مادة ١١٩٠ ، ص ٤٣٥ ، بتاريخ ١٢ صفر الخير عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م.

(٢٤٦) سجل رقم ٥٤ ، مادة ٢٦ ، ص ١٥ ، بتاريخ ٢٦ جمادى الثانية عام ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦م .

(٢٤٧) القابي قول ، قبو أو قابي في التركية بمعنى بوابة أو باب ، وقول بمعنى عبد . واستعمال كلمة قبو ، بمعنى باب للإشارة إلى بلاط ملكي ، فارسي الأصل - وهذا راجع إلى العادة التي جرت بوجوب جلوس العاهل في البوابة الكبرى أمام قصره ، لكي يتلقى العرائض ، ويقيم العدالة . وإلى جانب الكلمة التركية قبو توجد أيضاً الكلمة العربية باب والفارسية در في مصطلحات عثمانية بهذا المعنى . ولم يحدث سوى في أوقات متأخرة أن استعمل اصطلاح « الباب العالي » للإشارة إلى مقر الحكومة كشيء منفصل عن بلاط السلطان . ورغم أن لفظ قبوة وللري كان يصح أن يشمل كل شخص في وضع العبيد ممن يقومون على خدمة السلطان ، فإنه استعمل بوجه خاص للإشارة إلى القوات التي تتقاضى أجوراً تمييزاً لها عن القوات الإقطاعية ، (انظر جب ، بوون ، جـ ١ ، ص ٦٤ ، هامش ٢) .

(٢٤٨) قلم الجوالي ، انظر في معناها .

(٢٤٩) سجل رقم ٥١ ، مادة ١٤٤٩ ، ص ٦١٨ ، بتاريخ ٩ ذي القعدة الحرام عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م.

(٢٥٠) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٤ ، ص ٢٠٨ ، بتاريخ ٧ ذي القعدة عام ١٠٩٨هـ/ ١٧٠٢م.

على منزل بعض اليهود ، لمجرد أنه علم أن لديه جارية مسيحية يريد تهويدها بالقوة ، وهجم على منزله ، واعتدى على زوجته بالضرب ، مما أدى إلى إحداث أضرار بها وبابنها الرضيع ، وطالب بالتعويض عن ذلك،(٢٥١) واعتدى البعض الآخر على يهودي بالضرب ، بدعوى أنه يمارس الدعارة لزوجاته الثلاث، واستشهد ببعض المسلمين وبعض الأوروبيين وطالبه عما أصابه من أضرار مادية وأدبية ، ولوحظ أن الشهود الأوروبيين انكروا عملية الاعتداء بالضرب ، أما الشهود المسلمون فقد شهدوا بحقيقة ما حدث من اعتداء بالضرب .(٢٥٢) واعتدى بعض الطباخين الأوروبيين على بعض الساقائين بالضرب بسبب بيع الماء ، ومن المدهش أن بعض المارة أراد أن ينهي ذلك الشجار ، فكان نصيبه الاعتداء عليه بالضرب من جانب الأوروبيين ، واستشهد على ذلك بالبعض ، وبالرغم من إنكارهم ، إلا أن المحكمة قد أصدرت حكمها بالتعويض عن ذلك ،(٢٥٣) واعتدى أحد البائعين المتجولين على تاجر قماش لأنه رفض إرجاع بعض القطع من القماش ، واستشهد ببعض الأفراد الذين أيدوا أقواله ، وحكم له بالتعويض المناسب .(٢٥٤)

وسجلت سجلات المحكمة الشرعية العديد من هذه القضايا ، ولم تقتصر عملية الاعتداء بالضرب على الرجال فقط ، بل شملت ضرب السيدات ، مثل اعتداء أحد الأهالي على مطلقته الأوروبية ، وسبب لها بعض العاهات ، فرفع زوجها الثاني دعوى أمام المحكمة ، وأثناء بحث القضية ، تدخل البعض لإنهاء هذا النزاع ، وانتهى بالتنازل عن الشكوى ، مع تعهده بعدم التعرض لها بعد ذلك،(٢٥٥) وحالة أخرى في اعتداء أحد أفراد الأوجاقات العثمانية على مطلقته الأوروبية بالضرب واستولى منها على بعض الأواني النحاسية ، وبررت ذلك بأنه قد اقترض منها مبلغاً من المال ولم يسدده ، ولكنه أثبت عدم استحقاقها لأي شيء طرفه.(٢٥٦) .

أما الاعتداء بالألفاظ النابية ، فقد سجلت سجلات المحكمة الشرعية العديد من هذه الاعتداءات ، مثل ذلك اعتداء بعض الأصاليين على بعض المغاربة بالضرب والتلفظ بألفاظ نابية مثل قوله : « يا فلاح يا حمار » وطالب المغربي بالتعويض المناسب في مثل هذه الحالات(٢٥٧) ، واعتدى آخر على أحدهم باللفظ بالقول بقوله : « تعريصك » ، وبمواجهته أنكر، بل انه اتهم الطرف الآخر بأنه هو الذي بدأ بالإهانة ، فما كان منه إلا أن رد هذه الإهانة ،(٢٥٨) وألفاظ نابية أخرى مثل « الذي نرميه للكلاب أحسن من قيمتك » ،(٢٥٩) ووصلت هذه الألفاظ إلى حد التجريح بأمهاتهم(٢٦٠) بالإضافة إلى التجريح في أصل لشخص نفسه ، أي أنه « لقيط » .(٢٦١)

وإذا كان البعض قد اعتدى على الآخرين بالضرب أو التلفظ بألفاظ نابية ، فقد حدثت اعتداءات أخرى لاأخلاقية، كالإعتداء على بعض الأوروبيين ، بغرض فعل الفاحشة معه أثناء نومه ، واستيقظ صارخاً طالباً نجدته ، ولكنه أنكر ذلك ، وبرر موقفه بأنه قد سمع صراخه ، وحضر لنجدته ولكنه أمسك به ، وادعي ما ادعي به ، واستشهد المعتدى عليه ببعض الشهود الذين أكدوا أن المعتدي حاول اغتصاب المعتدى عليه(٢٦٢) .

---

(٢٥١) سجل رقم ٦٠، مادة ٣٦٦ ، ص ٢٠٨ ، بتاريخ ٧ ذي القعدة عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م.

(٢٥٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٤٠ ، ص ١٤٧ ، بتاريخ ٣ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٢٥٣) سجل رقم ١٦ ، مادة ٩٤٧ ، ص ٣٤٤ ، بتاريخ ٣ رجب عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

(٢٥٤) سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص ٦٠ ، بتاريخ ١٤ شوال عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩ .

(٢٥٥) سجل رقم ٢١ ، مادة ٤٧٣ ، ص ١٦٩ ، بتاريخ ٢١ جمادى الأولى عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م.

(٢٥٦) سجل رقم ٢١ ، مادة بدون رقم ، ص ٢٢٧ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٩٣هـ/ ١٥٥٥م.

(٢٥٧) سجل رقم ١٤، مادة ٦٣٩ ، ص ١٨٩ ، بتاريخ ٦ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(٢٥٨) سجل رقم ١٦ ، مادة ٧٤٣ ، ص ٢٣٥ ، بتاريخ ٣٠ ذي الحجة عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

(٢٥٩) سجل رقم ١٨ ، مادة ٢١ ، ص ٧ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

(٢٦٠) سجل رقم ٣٧ ، مادة ٢٩٤ ، ص ٢٠٣ ، بتاريخ ١٣ محرم عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م.

(٢٦١) سجل رقم ٦٢ ، مادة ١٠٠ ، ص ٤٦ ، بدون تاريخ .

(٢٦٢) سجل رقم ٢٦ ، مادة ١٧١٢ ، ص ٦١٩ ، بتاريخ ٣ صفر الخير عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

وهناك صور أخرى للاعتداءات غير الأخلاقية ، مثل ممارسة أحد الأوروبيين الدعارة مع إحدى السيدات ، في إحدى الحدائق العامة الخاصة بشيخ طائفة المغاربة بالمدينة ، وثبت من أقوالهما ممارسة الدعارة بموافقتها ودون إكراه منها، نظير حصولها على مبلغ معين، وتم ضبطهم من قبل صوباشي المدينة(٢٦٣) وطبق عليهم ما أمر به الشرع الشريف وأقره في مثل هذه الحالة(٢٦٤) ، كما اتهم الأمراء الكتخدا بالمدينة باغتصاب إحدى الأوروبيات ، واشتكى شقيقها للسلطات الحاكمة ، ويبدو أن الشكوى كانت ذات أهمية ، بدرجة أن الذين حضروا التحقيق هو أغا الحوالة(٢٦٥) وجاويش مستحفظان(٢٦٦) وجاويش عزبان(٢٦٧) وجاويش المتفرقة(٢٦٨) ، وجاويش الكوميليان(٢٦٩) وجاويش تفكجيان(٢٧٠) وجاويش الجراكسة(٢٧١) ، أي مندوبين عن الأوجاق السبعة بالمدينة(٢٧٢) ، بالإضافة إلى حضور بعض العلماء ، والأكابر ، مثل مفتي الثغر(٢٧٣) ، وأغا دزدار الحصار الأشرفي(٢٧٤) ونقيب السادة الأشراف(٢٧٥) وغيرهم من أكابر القوم بالمدينة ، ولكنه أنكر حدوث ذلك منه ، وأقسم على ذلك واستشهد ببعض العلماء والأكابر الذين نفوا ذلك .(٢٧٦)

---

(٢٦٣) صوباشي ، وهو رئيس الشرطة .

(٢٦٤) سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦١ ، ص ١٢٥ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م .

(٢٦٥) أغا الحوالة انظر في معناها من هذا البحث .

(٢٦٦) مستحفظان ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٢٦٧) عزبان ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٢٦٨) المتفرقة ، وهم من أرباب الديوان العمومي وخدمتهم حفظ القلاع الخارجة عن مصر من جهة الشرق مثل العريش وغيره ، وفي الوجه البحري مثل الإسكندرية ودمياط وأبو قير ومن جهة الوجه القبلي مثل أسوان وأبريم وغيره ، وللقلاع المذكورة أنفار معلومة ولهم جمكية مرتبة على طرف الميري ، وجعل في الأوجاق المذكور معمار باشا يحكم على المهندسين والبنائين وسائر ما يتعلق بالعمارة وله عليهم عوائد معلومة . (انظر غربال ، ص ١٨) .

(٢٦٩) جاويش الكوميليان ، الرياسة في الأوجاقات ، اختيارية الأوجاق ، هم المسنون من رجاله وأقدمهم الباش الاختيار ، وفي كل اوجاق أغاوات وهم ضباطه ، وقد يكون له كتخدا أو ووكيل وكاتب وهكذا (انظر المرجع السابق ، ص ١٨) .

أما أوجاق جمليان ، أي المتطوعة الذين يستخدمون في تنقلاتهم الجمال ومن هنا جاءت التسمية التي أطلقت على هذا الأوجاق جمليان . وإن ذكر ابن أياس هذا الأوجاق باسم الكمولية ، وكانت المهمة المنوطة بأفراد هذه الأوجاقات في الريف توطيد الأمن في الأقاليم ومنع البدو من غزو المناطق الزراعية وتهديد طرق المواصلات ؛ انظر عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **الريف المصري في القرن الثامن عشر** (القاهرة : مطبوعات جامعة عين شمس ، ١٩٧٤م) ، ص ٥٤ .

(٢٧٠) تفكجيان ، وهو تحريف لتفكجيان ومفرد تفنكجي وهو الجندي المسلح بالبندقية والجراكسة معروفون انظر (غربال ، ص ١٨) ، وكانت مهمتهم اشتراكهم في إدارة الريف ، تقتصر على توطيد السلطة العثمانية وأجهزتها في الأقاليم ؛ انظر عبد الرحيم ، ص ٥٤ .

(٢٧١) الجراكسة ، عرف هذا الأوجاق في الوثائق والمراجع العربية ، باسم جماعة مستحفظان قلعة مصر ، كما أشارت بعض المصادر المعاصرة باسم وجاق الينكجرية ، انظر ، مرعي بن يوسف الحنبلي ، **نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين** ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٠ تاريخ ، ص ٤٨٢ ، وقد اشتركوا مع السلطان سليم بحراسة أسوار وأبواب القاهرة ، وحراسة قلعة مصر ، وعقب رحيل السلطان سليم حدث عدة مصادمات بينهم وبين فرق الاسباهية ، انظر محمد بن إياس الحنفي ، **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ، جـ ٥ ، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٦١م) ، ص ٢٣٤ ؛ غربال ، ص ٢١ .

(٢٧٢) سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦١ ، ص ١٢٥ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م .

(٢٧٣) مفتي الثغر ، وهو عالم يعطي رأيه في كثير من القضايا الشرعية المختلف حولها ، وهو في الواقع لم يكن يبتكر جديداً في الشريعة الإسلامية إذ أن باب الاجتهاد قد اقفل منذ تثبيت المذاهب السنية الأربعة في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، وإنما كان يعطي إجابات على أسئلة تطرح في قضايا عامة بالاستناد الى قواعد سابقة قائمة ، انظر ليلى ، ص ٢٩٠ .

(٢٧٤) الحصار الأشرفي ، أنشأه السلطان قايتباي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦) ؛ انظر محمد بن أبي السرور البكري «كشف الكربة برفع الطلبة» ، تقديم وتعريف وتحقيق ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٣ ، ص ٣٧٧ ، عام ١٩٧٦م .

(٢٧٥) نقيب الأشراف ، كلمة أشراف تعني أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سواء ، أكان ذلك عن طريق انحدارهم من الأم أم الأب ، ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين ، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الأشراف باحترام خاص بين جموع الناس ، وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة ، وكان يطلق على رئيس هذه الجماعة اسم نقيب الأشراف ، أو النقيب وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الأشراف ، وكانت وظيفته محترمة وكان لنقيب الأشراف في استانبول سلطة على نقباء الأشراف في الولايات وهو الذي يعينهم ، وكانت له سلطة قضائية عليهم ، وكان نقيب الأشراف في مصر يرسل من استانبول في بداية العهد العثماني ، واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ، ثم أصبح يتولاها في مصر شيخ السجادة البكرية من آل البكري في مصر ، وكان نقيب الأشراف يحضر الاجتماعات الإدارية مهمة التي كانت تعقدها الإدارة في مصر ، في شكل جمعيات لحل الأزمات العامة ، وذلك باعتباره شخصية مهمة لها وزنها في المجتمع ولها تأثير كبير على اتباعها ، وكان النقيب يتولى منصبه لمدى الحياة ، انظر سلطح ، ص ١٧٨ .

(٢٧٦) سجل رقم ٥٧ ، مادة ٢١ ، ص ١٠ ، بتاريخ ٣ رمضان عام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٦م .

وشهدت الاعتداءات نوعاً آخر ، مثل إحتساء بعضهم الخمر، وهجومه على مسكن أحد الأهالي، وسرقه بعض الأواني النحاسية ، وبمواجهته أنكر السرقة واعترف باحتسائه الخمر[٢٧٧] ، وسطا أحد الأهالي على منزل أحد الأوروبيين في وقت صلاة الجمعة عن طريق سطح المنزل ، وكسر القفل الخاص بمسكنه ، واقتحمه وسرق منه بعض الأشياء النفيسة ، وشاهده صاحب المسكن ، وعرفه لأنه جاره[٢٧٨] وانتهز أحدهم فرصة سفر صاحب المسكن إلى الخارج ، وقام بسرقة مجوهراته ، وبمواجهته أنكر ذلك أمام قسيس الكنيسة .[٢٧٩] .

كما شملت الاعتداءات ، الاعتداء على أملاك بعضهم وإتلافها أو سرقة بضائعهم ، واعتدائهم على مركب الآخرين وإتلافها ، وطالب صاحبها بالتعويض عما أصابه من أضرار[٢٨٠] ، واعتدى أحد أصحاب الخمارات على أحد محلات الخياطة، واستولى منها على بعض الأقمشة الخاصة ببعض الزبائن ، وسلمها إلى بعض أفراد الأوجاقات العثمانية ، كرهن لديه حتى يقوم بسداد ـ الخياط ـ دينه[٢٨١] واعتدى البعض الآخر على بعض المحلات المخصصة لبيع الأسلحة واستولى على بعضها ، وعند مواجهته أنكر ذلك .[٢٨٢]

ومن الطرائف قيام أحدهم بالإستيلاء على عبيد الآخرين، بحجة أنهم تابعون له ، واتضح بعد ذلك إفترائه وكذبه[٢٨٣]، كما اتهم أحد البائعين المتجولين العاملين في تجارة الأقمشة ، باستيلاء أحد الحراس على بعض القطع الخاصة به ، وعند المواجهة يذكر أن أحد الأفراد أحضرها إليه ولا يعلم مصدرها .[٢٨٤]

وشهدت الحياة الاجتماعية قيام بعضهم بإعتاق بعض عبيده وجواريه مثال ذلك قيام أحد المسلمين باعتاق عبيده من المسيحيين وتركهم على دينهم[٢٨٥] واعتاق أحد المسيحيين عبيد من المسيحيين ابتغاء وجه الله تعالى ، وابتغاء رحمته[٢٨٦] ، وشملت أيضاً إعتاق أحد المسلمين عبيده من المسلمين أيضاً ، ويذكر أنه فعل ذلك عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أعتق نسمة موفقة اعتقه الله تعالى بكل عضو منها بعضو من النار حتى الفرج بالفرج » .[٢٨٧]

أما بالنسبة لإعتاق الجواري ، فقد شمل ذلك العصر العديد من اعتاق بعضهن ، ولوحظ الاعتاق المشروط ، مثل عتقهن بشرط الولاء له،[٢٨٨] واعتق البعض جاريته لوجه الله تعالى وابتغاء رحمته دون أي شروط،[٢٨٩] وفي هذا المجال كان لليهود أيضاً نصيب في اعتاق عبيدهم،[٢٩٠] وقد اعتق أحدهم جاريته ثم تزوج بها .[٢٩١]

وبالنسبة للأوقاف، فأوقف أحدهم بعض أملاكه الخاصة للصرف على احدى الكنائس ، بالمدينة وعلى فقرائها ، وذكر

---

(٢٧٧) سجل رقم ١٢ ، مادة ١١٣٤ ، ص ٣٨٩ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م .

(٢٧٨) سجل رقم ٢٧ ، مادة ١٠٨٢ ، ص ٥٠٠ ، بتاريخ ٣ رجب عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م.

(٢٧٩) سجل رقم ٥٨ ، مادة ١٠٠ ، ص ٣١ ، بتاريخ ٢ ربيع الثاني عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

(٢٨٠) سجل رقم ٢٤ ، مادة بدون رقم ، ص ٩٣ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

(٢٨١) سجل رقم ٩ ، مادة ٢٩٤ ، ص ٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٢م.

(٢٨٢) سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٩٤ ،ص ٢٠٤ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(٢٨٣) سجل رقم ٢٦ ، مادة ٣٨١ ـ ٣٨٢ ، ص ١٢٤ ، بتاريخ ٧ شوال عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

(٢٨٤) سجل رقم ١٧ ، مادة ٤١٨ ، ص ١٤٣ ، بتاريخ ١٢ ذي القعدة عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

(٢٨٥) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٤ ، ص ١٣١ ، بتاريخ ١٦ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

(٢٨٦) سجل رقم ٤٩، مادة ١١٣ ، ص ٤٠ ، بتاريخ ٢٠ محرم عام ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م.

(٢٨٧) سجل رقم ١٨ ، مادة ٥٣٧ ، ص ١٨٣ ، بتاريخ ١٠ رمضان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

(٢٨٨) سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٥٨ ، ص ٣٧٧ ، بتاريخ ٢٤ صفر عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

(٢٨٩) سجل رقم ١١ ، مادة ١٩٠ ، ص ٥٥ ، بتاريخ ١١ محرم عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م.

(٢٣٩٠) سجل رقم ١١ ، مادة ١٩٢ ، ١٩٨ ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ، بتاريخ ٣ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٢٩١) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٥٣ ، ص ٦٠ ، بتاريخ ٢٧ ذي الحجة عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

في حجة الوقف عـدم البيع أو الرهن ولا أي وجه مـن الوجوه إلّا للصرف عليها، ونص على أنه فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى(٢٩٢) واستأجر البعض الوقف الخـاص ، ونص العقد على دفع الإيجار على ثلاثة أقساط متساوية . (٢٩٣)

يأتي بعد ذلك اعتناق بعضهم الإسلام ، ويقرر أنه اعتنق هذا الدين الجديد ، دون كره منه أي دون أي ضغط عليه ، وتلفظ بـالشهادة بقـوله : « أشهـد أن لا إله إلّا اللّه محمـد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم »(٢٩٤) وقرر البعض أنه بريء من نفسه ومن كل دين خالف الدين الإسلامي، كما أنه قد سمى نفسه محمداً(٢٩٥) ، ولم يقتصر اعتناق الإسلام على الأفراد الأحرار فقط، بل إننا نجد أن أحد العبيد أيضاً قد اعتنـق الإسـلام ، وخـشي إعـلانـه ، وعندمـا عـلم بـعض المسلمين ذلك أحضر سيده، وتم الاتفاق على بيعه في أسواق المدينة(٢٩٦)، بالإضافة إلى أن إحدى الجواري قد اعتنقت الإسلام ،(٢٩٧) وأحضر سيـدها وأعلن اسـلامها ، وسجل ذلك في نفس المحضر ، كما أنه قرر اعتاقها لوجه اللّه تعالى ، وأنها أصبحت حرة من حرائر المسلمات ، لها ما لهن وعليها ما عليهن ،(٢٩٨) وتحضر بعض الشخصيات المهمة في المدينة إعلان الإسلام مثل بلك باشي الينكجرية بالثغر ، ونقيب الأشراف ومفتي الإسلام ، وغيرهم من الشخصيات المهمة في المدينة .(٢٩٩)

وبالنسبة لاختيار قناصلهم بالمدينة ، فـكانت اختيارية بين رعايا الدول الأوروبية ، وكانوا يـطالبون أحيانـاً عزل قنصلهم بمجرد أنهم شكوا في نزاهته ، في تحصيل الرسوم المفروضة على تجارهم بالمدينة ، مثال ذلك ، عندما طالب التجار الإنجليز والجنويين والمسينين بعزل القنصل الفرنسي عـام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م . وأحيـانـاً طـالب البعض بتغيير جنسيته من الجنسية الجنوية إلى الإنجليزية ، واعتبر بعد ذلك إنجليزياً ، يـرفع العلم الإنجليـزي ، ويطبق عليـه القانـون الإنجليزي ، وقرر أنه فعل ذلك دون إكراه أو ضغط عليه ، وحضر القنصل الإنجليزي بالمدينة هذه الجلسة .(٣٠٠)

هكـذا سـاهم الأوروبيون في المجـالين الاقتصـادي والاجتماعي في مدينة الإسكندرية في العهد العثماني ، ففي المجال الاقتصادي تعرضت الدراسة لكافة أنواع السلع التي تعاملوا بهـا ، وتخصص كل فئة منهم في تجارة سلعة معينة ، وقيامهم في هذا المجـال إما لحسـابهم الخاص أو وكـلاء للآخرين ، أو تكـوين شركـات خاصـة بتجارة سلعـة معينة وشاركهم في ذلك بعض الأهالي ، أو بعض أفراد الجاليات الأخرى كالمغاربة مثلاً حتى أنهم قاموا بتوريـد البقسماط والأسلحة للقوات العثمانية ، وقد لوحظ في تعاملهم بتجارة المراكب ، تعرضهم لأنواع المراكب المستخدمة خلال هذه الفتـرة مثـل القـرة،(٣٠١) والأكـريب،(٣٠٢) والغليـون(٣٠٣) والشيطيلية(٣٠٤) ، وغير ذلك من الأنواع الأخرى ، بالإضافة إلى ذلك دورهم في تصدير بعض المنتجات التي تعاملوا معها

---

(٢٩٢) سجـل رقم ٨ ، مادة ٨٣٣ ، ص ٣١٠ ، بتـاريخ ٢٥ جمـادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٢٩٣) سجل رقم ٣٢ ، مادة ٣١٥ ، ص ٨٣ ، بتاريخ ٢٨ شعبان عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م.

(٢٩٤) سجل رقم ٤٧ ، مادة ٦٨ ، ص ٣٥ ، بتـاريخ ٥ شـوال عـام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م.

(٢٩٥) سجل رقم ١٦ ، مادة ٣٨٦ ، ص ١٦١ ، بتاريخ ١٣ جمـادى الأولى عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م. انظر الملحق رقم ٢٠ .

(٢٩٦) سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٨١ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ٩ شعبـان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢ م ، ملحق رقم ٢١ .

(٢٩٧) سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٨١ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ٩ رجب عام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م.

(٢٩٨) سجل رقم ٤٥ ، مادة ٣١٥ ، ص ١٣٦ ، بتاريخ ١٩ محرم عام ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٥م.

(٢٩٩) سجل رقم ٤٨ ، مادة بدون رقم ، ص ٢٧٩ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م ؛ ملحق رقم ٢٣ .

(٣٠٠) سجل رقم ٣٠ ، ٤٨ ، مادة ٢٦٠ ، ص ٢٢١ ، ٨٤ ، بتاريخ ٦ ربيع الثاني عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م ، ١٩ ربيع الثاني عام ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م.

(٣٠١) القرة ، وصحتها قول قرة قول والجمع قـولات ، أطلقت هذه التسمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على السفن الحربية الصغيرة الخفيفة في الأسطولين المصري والعثماني ، انظر النخيلي ، ص ١٢٥ .

(٣٠٢) الأكريب ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٣٠٣) الغليون، ويطلق عليهـا غاليـون ، وغالـون ، وقليون ويجمع على غلايين وغلاوين ، وقد برز هذا النوع كمركب حربي كبيرة في الفترة الممتدة من أواخر القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن السابع عشر فكان يشكل إحدى قطع الأساطيل العثمانية والأوروبية في البحر المتوسط ، انظر النخيلي ، ص ١١٣.

(٣٠٤) الشيطيلية ، انظر في معناها من هذا البحث .

تعاملوا معها في هذا المجال واستيرادها .

ومن جانب آخر سلطت الدراسة الأضواء على جوانب التعامل الاقتصادي بين الأفراد ، ومن أهم الظواهر التي أبرزتها الدراسة ظاهرة الاقتراض التي فصلت أغراضه سواء أكانت أغراضاً اقتصادية لتمويل صفقات تجارية أم لأغراض أخرى ، ثم عرضت للمشكلات المصاحبة لتسديد هذه القروض وضماناتها .

وقد ختم المجال الاقتصادي بالحرف والصناعات التي عملوا بها واحترفوها وتخصص كل فئة منهم في حرفة معينة وصناعة معينة ، وقد لوحظ أن نظام الحرف كان قائماً على التكوين الديني ، العرقي للطوائف ، فمع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلي الديني أو العرفي ، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة فإنهم يشكلون طوائف على حسب بلادهم ، ونوع تجارتهم وعبادتهم الدينية(٣٠٥) ، وقد لوحظ أن اليهود الأوروبيين احترفوا حرفاً معينة مثل السمسرة والترجمة والصيرفة ، وكان لهم عمل أيضاً بصفتهم سماسرة للمعادن النفيسة والسمكرة وصناع الزراير .(٣٠٦)

وتعرضت الدراسة من خلال الوثائق للوظائف والدواوين العثمانية التي كانت موجودة خلال هذه الفترة ، مثل أغا الحوالة(٣٠٧) وكان يشرف على بيتالمال (وتصدير الأرز) ، وبلوك الجوالي(٣٠٨) وقابودان الثغر(٣٠٩) وجوربجي(٣١٠) سرداد مستحفظان(٣١١) والقابي قول(٣١٢) والمتحدث على بيت المال الحشري . وغير ذلك من الوظائف الأخرى .

أما الجانب الثاني للدراسة ، فيتعرض لحياتهم الاجتماعية ، ومظاهر هذه الحياة وأهمها ظاهرة الزواج سواء أكان هذا الزواج من بعضهم البعض أم من الأهالي أو من الجواري بعد اعتاقهن ، وتعرضت لإجراءات الزواج المختلفة وتقاليده كالمقدم والمؤخر وشروط الزواج التي تدون بالعقد والطلاق والمشكلات المترتبة على ذلك .

كما عرضت الدراسة لمظاهر العلاقات الاجتماعية الأخرى التي أظهرت الدراسة مشكلاتها والجوانب غير الأخلاقية فيها خاصة وأن البحث محدد بإطار الوثائق التي تسجل مثل هذه العلاقات ، وكلها مشكلات تتعرض ـ في الغالب ـ لاعتداءات بالضرب أو السب أو ممارسة الشذوذ الجنسي أو الدعارة أو الاغتصاب ، وموقف السلطات الحاكمة من كل ذلك .

كما عرضت الدراسة لجانب خير من جوانب الحياة الاجتماعية كظاهرة عتق العبيد والجواري ، موضحة الدوافع وراء ذلك ، وحالات العتق وشروطه ، إن وجدت ولظاهرة الأوقاف وتوجيهها للخير والبر ، كما سجلت حالات اعتناق بعض أفراد هذه الجاليات للإسلام . ولجوء بعضهم لتغيير جنسياتهم والإجراءات التي تتخذ في مثل هذه الحالات .

الملاحق

ملحق رقم (١)

وثيقة تبين بيع شمع أصفر

مصدر الوثيقة : أرشيف الشهر العقاري بالإسكندرية ، سجل مبايعات ـ رقم ٥ ، مادة ٣٧٠ .

ادعى المعلم عبد القادر بن محمد محمد بن يوسف الصروجي علي بيرو بن يني القبرصي على أن المدعي اشترا منه ثلاثون شوالات مملوءة بالشمع الأصفر الخام وذكر له أن زنتهم أربعماية أقة ووصلها منه من كل أقة بعشرة أنصاف ويطالبه بذلك ويسأل سؤاله عنه فشهد فأجاب بالإنكار وطولب المدعي بالبيان كل من المعلم علي بن خطاب ابن شيفة

---

(٣٠٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام ابان العصر العثماني ، (القاهرة ، ١٩٧٨م) ، ص ١٢٢ .

(٣٠٦) جب وبوون ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣٠٧) أغا الحوالة ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٣٠٨) بلوك الجوالي ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٣٠٩) قابودان الثغر ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٣١٠) جوربجي ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٣١١) مستحفظان ، انظر في معناها من هذا البحث .

(٣١٢) قابي قول ، انظر في معناها من هذا البحث .

وشهاب الدين أحمد الفلاس وسالهما الإشهاد له بما يعلماه في الوفا وشهادتهما لدى مولانا الحاكم المشار إليه طبق دعواه ولزم بدفع ذلك وخرجا على ذلك ثم عادا واعترفا كل منهما أن زنة الشمع المذكور مايتا أقة وثمانون أقة وقبض عن ذلك من المدعي وقبض المدعي الشمع المذكور ونفسه كل منهما لا يستحق على الآخر .

غرة شعبان المبارك عام ٩٦٦هـ/ ٩ مايو عام ١٥٥٨م .

ملحق رقم (٢)

وثيقة تبين بيع فلفل أسمر

مصدر الوثيقة : أرشيف الشهر العقاري بالإسكندرية ، سجل مبايعات ـ رقم ٥ مادة ٥٧٠ ، ص ٢٤٧ .

ادعى الخواجا عبد العزيز ابن المرحوم الشرفي يحيى بن المرحوم السراجي عمر المغربي الشهير بالفهمي ادعى المعلم بنتيبتوا دالفين بن ايزب الفرنجي البندقي انه يستحق في ذمته من الفلفل الأسمر مايتا قنطار ثنتان وخمسة وستون قنطار من أصل ثلاثماية قنطار وعشرون قنطار من الفلفل المذكور بالوزن المصري على العادة بمقتضى حجة شرعية ثابتة محكومة بها من قبل مولانا شيخ الإسلام محيي الدين أفندي الحاكم الشرعي بالثغر مكتتبة صورتها بالسجل الحاكمي قبل تاريخه عند الحلو ويطالبه بذلك فسيل عن ذلك فأجاب بالاعتراف في ذلك وألزمه مولانا الحاكم المشار إليه بدفع ذلك لبنتيبتوا المدعي المذكور وإلزامه بطريقه الشرعي وعلى ذلك واعتقل عليه بطلب غريمه المذكور، في تاريخه .

١ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ٢٧ نوفمبر عام ١٥٨١م .

ملحق رقم (٣)

وثيقة تبين بيع جارية بيضا اللون قبرسية الجنس واعتاقها بعد ذلك .

مصدر الوثيقة : أرشيف الشهر العقاري بالإسكندرية ، سجل مبايعات ، رقم ٦ مادة ٤٢ ، ص ١١٨ .

وفيه لدى مولانا بأبي أفندي الحنفي أيده الله .

من يوسف بن عبد الله من جماعة الكوميليان القاطن بالجزيرة الخضرا بالقرب من مقام سيدي أبي العباس المرسي نفعنا الله به اشترى متولي رياني النصراني المالكي ترجمان طايفة النصارى البنادقة بالثغر السكندري فباعه جميع جارية بيضا اللون قبرسية الجنس نصرانية عربية الوجه مقرومة الحاجب غنمية العين رقيقة البشرة على يديها اليمنى من السابية والابهام ثلاث دقات أخضر تدعى نينا المرأة ابنة جرجي بن اسرة عناتة بثمن قدره من الذهب الجديد خمسة وثلثون دينار ثمناً حالاً مقبوضاً بيد البايع المذكور من المشتري المذكور القبض التام الشرعي باعترافه بذلك الاعتراف الشرعي واعترف المدعي بتسليمه نينا المذكورة التسلم الشرعي بعداليها والمعرفة والمعاقدة الشرعية على ذلك بإيجاب وقبول شرعية بتصادقهما على ذلك التصادق الشرعي ثم أشهد على متولي الميري المذكور الاشهاد ذلك وهو في صحة واختيار أنه اعتق مرقوقته نينا ابنة جرجي المذكورة أعلاه لوجه الله تعالى عتقاً شرعياً وبمقتضى ذلك صارت نينا المذكورة حراً فسرا لحدد دار النصارى لها ما لهم وعليها ما عليهم لير لاخذ عليها سبيل ذلك ولا اسماً الوالي الشرعي فإنها لمعتقها المذكور ولمن يستحقه من بعده بالطريق الشرعي وشمل ذلك ثبوت وحكم بالموجب من قبل سيدنا الحاكم المشار إليه في تاريخه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الثلاثا المبارك ثالث جمادي الثاني عام ٩٧١هـ/ ٢٧ نوفمبر عام ١٥٦٣م .

ملحق رقم (٤)

وثيقة تبين بيع جلود جاموس

سجل رقم ٦ ، مادة ٢٩٥ ، ص ١١٩ .

حضر النوري علي بن المرحوم الخواجلي الكبيري نور الدين علي ابراهيم ابن المرحوم الخواجا أبي جودا والجلاد وحضر مع أبيهم بن إبرايم اليهودي ترجمان طايفة نصارى الفرنج البنادقة بالثغر السكندري وذكر ابرايم الترجمان المذكور انه مندوب في خصوص ما يذكر فيه في جانب مينو بيرو الفرنجي البندقي وان المرحوم الخواجا علي الجلاد والد النوري عليه المذكور كان يستحق ما هو وشقيقة المرحوم

الخواجا أبو النصر خمسين دينار ذهب جديد اسوته بينهما قبلاً ما نهي فيه : مينو البندقي المذكور أعلاه ثمن جلود جاموس شنابر ذكوراً منه كان ابتاعها مينو المذكور منهما وسلمها سابقاً وان المرحوم الخواجا علي المذكور في ذلك الحق النصف وبقي خمسة وعشرون دينار اختصت بولديه علي شهاب الدين الغايب عن الثغر المذكور والنوري علي الحاضر بالمجلس وأن مينو المذكور وفى للنوري علي المذكور على جميع ما ذكره الترجمان المذكور واشهد المحكمة الشريفة الآن بسبب تسجيل الاشهاد بذلك تصدق النوري علي المذكور على جميع ما ذكره الترجمان واشهد على نفسه إشهاداً شرعياً وهو بحالتي صحة واختيار انه استوفي يوم تاريخه من مينوا الفرنجي البندقي المذكور اعلاه اثني عشر دينار ونصف دينار بالاستيفاء الشرعي بالطريق الشرعي وان القدر المذكور وحصته نحو النصف من الخمسة والعشرين دينار التي آلت إليه والي فيه شهاب الدين المذكور ارثاً من قبل والدهما المرحوم الخواجا علي المذكور من أصل الخمسين دينار الذهب الجديد الموصوف أعلاه ثمن الجلود والجاموس الشنابر المذكورة اعلاه وانه صار لا يستحق علي مينوا المذكور أعلاه بسبب حصته في ذلك مطالبته ولا غيابياً بذلك وثبت الإشهاد بذلك لدى سيدنا الحاكم الشرعي المالكي المشار إليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتاً شرعياً في سادس عشر ربيع الأول عام ١٠٠٤ هـ / ٩ نوفمبر عام ١٥٩٤ م .

ملحــق رقــم (٥)

وثيقة عن بيع بطارخ

سجل رقم ٧ ، مادة ٤٧ ، ص ١٧ .

ادعى جاكموا ابن استفان الريس النصراني من لوند علي ليمون بن ياني النصراني الاسطمبولي انه اشترى منه أمس تاريخه بطارخ هويار اثنان وخمسون أقة كل أقة أربعماية درهم سعر الأقة تسعة أنصاف وتلت نصف ودفع له عربون تحت ذلك دينار ذهب جديد ثم انه احضر له يوم تاريخه فامتنع من أول ذلك ويطالبه بذلك ويسيل سواله عنه فأجاب بالإنكار في ذلك وذكر انه باعه أربعة أقة ونصف بالدار فلم يصدقه علي ذلك والتمس يمينه على ذلك فسرها عليه فقدم على اليمين فرفع عنه وخرج يدفع ذلك بترجمة حسن الرسول ومصطفى محمد المعمار الأربعا المبارك التاسع من شهر المحرم الحرام عام ٩٧٣هـ/ ٧ سبتمبر عام ١٥٦٥م .

ملحــق رقــم (٦)

وثيقة عن التجارة في خيار الشنبر

سجل رقم ٧ ، مادة ٥٦٤ ، ص ٢٢٩ .

اشهد عليه فرنسيسكو ببالي جريد مو الفرنجي التاجر الركوزي القاطن بالثغر السكندري بفندق سكن النصارى الركوزة المعروف الاشهاد الشرعي وهو بحالتي صحة واختيار ان في ذمته بحق صحيح شرعي للمعلم شموال ابن كوهان عامل اسكندرية صراف ديوان مصر مبلغاً وقدره من الذهب السلطاني الجديد التام الوزن والعيار الف دينار واحد شطر ذلك حفظاً لاصلة خمسماية دينار مؤجل ذلك على ميليتان فيه فمن ذلك ما يحل بعد مضي ثلاثين يوماً من تاريخه وخمسماية دينار وما يحل بعد مضي سبعة أشهر من تاريخه باقي المبلغ المذكور وهو خمسماية دينار مقر علاته وقدرته عليه وما ذلك حكم وباق ذلك لزم ذمته للمعلم شموال كوهان اليهودي المذكور عن ثمن عشرين قنطار من الخيار الشنبر السالم من العيب بالوزن الجروي على العادة اتباع فرنسيسكو ببالي المذكور وتسلمه من المعلم يوسف بن يعقوب اليهودي الربان عربو بالريو وكيل شموال كوهان باسكندرية الابتياع والتسلم للشرعيين بوزن السعيد الشريف شمس الدين مبين للسيد الشريف بدر الدين شيخ القبانية بالثغر من قبل تاريخه بنحو شهرين واشحنه بمركب وسفره لبلاده بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية والاحاطة بذلك على وخبرة نافيين للجهالة له شرعاً بإيجاب وقبول شرعيين ولزوم العقد في ذلك بالطريق الشرعي وصدقه على ذلك المعلم يوسف المذكور تصادقاً شرعياً وثبت الإشهاد بذلك لسيدنا الحاكم المشار إليه بشهادة وصدوره لديه ثبوتاً شرعياً وحكم أيده اللّه بموجب ذلك حكماً شرعياً معتبراً مسؤولاً في ذلك مستوفياً شرايطة الشرعية وواجباته المحررة المرعية بعدم تقدم دعوى شرعية صدرت بذلك واعتبار ما وجب بشرايطه على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد في تاريخه .

٦ رجب عام ١٠٠٧ هـ / ٤ فبراير ١٥٩٩ م

ملحــق رقـم (٧)

وثيقة عن التجارة في بيع المراكب

سجل رقم ٧ مادة ٧٧ ، ص ٢٨ .

لدى مولانا قاضي الإسلام الواثق بالرحيم الصمد مولانا أحمد أفندي .

اشترى بترونكو ليفل وبن كوكور الفرنجي الركوزي بما لنفسه دون غيره في بايعة باكمو بن نقولة النصراني اللوندسي فباعه ما هو جار في ملكه بيده وتصرفه وحوزه واختصاصه ويجوز له بيع ذلك وقبض ثمنه بالطريق الشرعي وصدق على ذلك المشتري المذكور جميع المركب الشيطية المرساة الآن بمينا الثغر السكندري المشتملة على ستة قلوع ونبطتين لأربعة مراس حديد ياطر وخمسة حبال قنب قومنة وحبل واحد البارجية وقارب كامل العدة والآلة ودست نحاس للبياض ودست ثاني نحاس لطبخ الشوربة وجميع ما اشتملت عليه المركب المذكور من الحبال والآلات البعلة لاجرايها وإرسالها المعلوم ذلك عندهما العلم الشرعي النافي لدعوى إليها شرعاً اشترا شرعياً وبيعاً لازماً مرضياً بثمن قدر عن ذلك من الأكارسة الفضة الكبار تسعماية اكروسيا وخمسون اكروسيا ضربية كل اكروس من ذلك سبعة وعشرون نصف ثمناً حالاً مقبوضاً بيد البايع المذكور في المشتري المذكور واعترف بتسلم المركب البيع المذكور التسلم الشرعي بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية على ذلك بإيجاب وقبول شرعيين ولإحاطة بذلك علماً وخبرة نافيين للجهالة شرعاً وتصادقاً على ذلك وثبت لدى مولانا افندي المومي إليه بشهادة شهادة وصدوره لديه ثبوتاً شرعياً وحكم بموجب ذلك حكماً شرعياً سوى في ذلك مستوفياً شرايطه الشرعية في تقدم دعوى شرعية صدرت في ذلك لديه واشهد عليه بذلك في رابع شهور ربيع الأول سنة ثلاث بعد الألف/ ١٧ اكتوبر عام ١٥٩٤م .

ملحــق رقـم (٨)

وثيقة عن تعليم صبي عند اسكافي حرفي واشترط عليه بعض الشروط

سجل رقم ٨ مادة ٣٨ ، ص ١٥ .

حضر اندريا بن جورجي النصراني القبرسي وزوجته ليونتا بنت لويزو النصرانية القبرسية وولده يورجى الصبي المميز القاصر عن درجة البلوغ وحضر معهم المعلم فرنسيس بن نقولا النصراني الروسي الإسكافي وتوافقا اندريا المذكور أعلاه مع المعلم فرنسيس المذكور اعلاه على ان يسلم إليه ولده يورجي وتسلمه منه ليعلمه صنعة الاسكافي ويقوم بما يحتاج إليه الصبي المذكور من نفقة وكسوة وغير ذلك ويكون مقيماً عنده في محل سكنه لايق رقة ليلاً والإشهاد أو ينظر بغير الشفقة والاحسان ويفعل مع مثل ما يفعل الوالد مع ولده ما دام في قيد الحياة حسبما توافقا على ذلك وتراضيا على موافقة والده الصبي المذكور أعلاه جرى ذلك وحرر في تاريخه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ترجمة الفخري عثمان من موجب الحصار الكبير ، ترجمة مصطفى بن عبد الله بلوك قلعة الدلتا .

الثلاثا المبارك ٥ جمادى الثاني عام ١٠٠١هـ/ ١٣ فبراير عام ١٥٩٣م .

ملحــق رقـم (٩)

وثيقة عن التجارة في العبيد

سجل رقم ٨ ، مادة ٥٩ ، ص ٢٣ .

أشهد عليه الزيني محمد عبد الله الاسطنبولي شهوده الاشهاد الشرعي وهو في صحته وطواعية واختياره انه قبض وتسلم ومستوفي من المعلم جفرة ابن ازناد من قطانية الجنوى مبلغاً وقدره من الذهب الأكروني ماية دينار واحد وخمسون دينار ثمن مملوك قاصر فرنجي يدعا جنوين بن جاكمو الجنوي المبتاع له منه قبل تاريخه معلوم لهما شرعاً قبضاً واستيفاً شرعيين ولم يتأخر له قبله من ذلك شيئاً قل ولا جل وتصادقا على ذلك التصادق الشرعي وذلك بحضور الحاج محمد بن عطية بن راشد الشهير بابن عرايس الترجمان وترجمته بذلك

جرى في تاريخه السبت ثاني ربيع الثاني عام ٩٧٣هـ/ ٢٧ سبتمبر عام ١٥٦٥م .

ملحـــق رقــم (١٠)

وثيقة عن التجارة في الزيت الطيب

سجل رقم ٩ ، مادة ٧٧٤ ، ص ٢٤٤ .

ادعى الحاج محمد بن عبد الخالق المغربي المعروف بالأمين علي شموال بن اليا اليهودي الربان انه يستحق في ذمته عشرة دنانير اكارنة باقي ثمن زيت طيب ابتاعه من وتسلمه قبل تاريخه دفع له خمسة أكارنة وتأخر خمسة ويطالبه بذلك فسيل المدعي عليه المذكور في ذلك فأجاب بالاعتراف بأن الباقي له من ثمن الزيت وثمانية أكارنة دفع له خمسة وتأخر له ثلاثة فلم يصدقه عليه ذلك وخرجا على تاريخه .

بدون تاريخ .

ملحـــق رقــم (١١)

وثيقة عن بيع حدائق بفواكهها في رودس

سجل رقم ١٤ ، مادة بدون رقم ، ص ٢١٦ .

ادعى استفاني بن غبريال النصراني الرودسي على انطون بن ياني الرودسي انه يستحق عليه ألف ومايتي عثماني اجرة جنينة الكاينة برودس المشتملة على أشجار تين وعنب وتوت وغيره مدة عامين تقدمت على تاريخه ويطالبه بذلك فسيل المدعي عليه عن ذلك فأجاب بالإنكار لذلك بترجمة سليمان من جماعة قلعة الركن وخرجا على ذلك .

٢٩ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ٢٠ نوفمبر عام ١٥٧٩م .

ملحـــق رقــم (١٢) :

وثيقة عن التجارة في الكتان :

سجل رقم ١٢ ، مادة ٨٥٩ ، ص ٢٩٤

بحضور السيد الشريف أحمد بن السيد الشريف علي السيد الشريف محمد المغربي ادعى الحاج إبراهيم بن الحاج علي بن الحاج إبراهيم المغربي المنستيري الشهير بسباس على نقولة بن جريلمو الفرنجي البندقي انه يستحق في ذمته أحد وخمسين ديناراً ذهب جديداً من أصل أحد وثمانين دينار من الذهب الموصوف ثمن أربع خيشاة كتان كان ابتاعها منه وتسلمها قبل تاريخه الابتياع والتسلم الشرعيين ويطالبه بذلك فسيل عن ذلك فأجاب بالاعتراف بذلك وأقر المدعي المذكور أن المبلغ المدعي به المذكور للسيد الشريف أحمد المشار إليه يستحق دونه ودون كل أحد وليس للمدعي في ذلك شيء قل ولا جلّ وصدقه على ذلك السيد الشريف أحمد المشار إليه تصديقاً شرعياً وخرجوا على ذلك .

١٧ ربيع الثاني عام ٩٨٦هـ/ ١٧ يونيو عام ١٥٧٨م .

ملحـــق رقــم (١٣)

وثيقة عن تصدير الأرز والعدس للدولة العثمانية

سجل رقم ٥٥ مادة ١١٣ ، ص ٤٩ .

من قدوة الأغاوات المعطبرة عمدة الأكابر المفخمين حسين جرين فنهاب النصراني الفرنسي الحاضر بالمجلس المشار إليه شهوده الاشهاد الشرعي وهو بأتم الأحوال وأكمل الأوصاف المعتبرة شرعاً انه قبض وتسلم ووصل إليه من حسين أغا المشار إليه من مال الديوان المرقوم ألف نصف فضة أخبره ما جملته من العدس السلطاني والأرز الأبيض من الذخيرة الشريفة السلطانية لسفينته الغليون المرساة بمينا الثغر المرقوم من الثغر إلى محمية الإسلام إسلام بول المكتتب في شأن ذلك حجة شرعية يوم تاريخه وقبل مولانا أفندي المومي إليه أعلاه بعلم ذلك وتحريره فتصادقا وتسلما ووصول شرعيان بالتمام والكمال ولم يتأخر له وذلك شي قل ولا جل حسبما أشهد على نفسه بذلك وأقر به الاشهاد والاقرار الشرعيين مصدق على ذلك وقبله من الأمير حسين اغا المشار إليه التصديق والقبول الشرعي وبمقتضى ذلك صار الأمير حسين أغا المشار إليه المحاسبة بذلك مما يوفي عهدته من مال الديوان المرقوم وثبت الإشهاد بذلك أعلاه له مولانا افندي المومي إليه اعلاه شهادة شهود ، ومعروفة لديه ثبوتاً شرعياً وختم بموجب ذلك حكماً شرعياً مسيولاً فيه ان يسطر الحجة الشرعية وواجباته المحررة المرعية واعتبار ما وجب اعتباره شرعاً حرر ذلك في اليوم المبارك ١٧ جمادى الأولى عام ١٠٩٦هـ/ ٢٢ ابريل عام ١٦٨٤م .

ملحــق رقــم (١٤)

وثيقة عن صناعة بقسماط

سجل رقم ٥٧ ، مادة ١٤٨ ، ص ٦٧ .

لدى مولانا شيخ الإسلام محمد أفندي دام فضله .

أدعى الذمي فرانسيسكو ترجمان الفرنسيس بالثغر المرقوم على الذمي براسني النصراني بالبكسماطي بالثغر المرقوم الحاضر معه بالمجلس أن المدعي عليه يتعاطى صنع البكسماط على المراكب بالتصرف عليه عوايد لليقجية بالثغر وغيرهم كما هو معلوم عنده وقبل تاريخه باع جانباً من البكسماط المركبين من النصارى كانتا بأبي قير واذن للمدعي لدفع ما عليه من العوايد معه فدفع المدي لليسقجية وأباب العوايد المكرمين غيرهم خمسة وأربعين قرشاً من القروش الريال الحجري باقية لديه من المدعي عليه إلى تاريخه ويطالبه بذلك ويسأل جوابه عن ذلك فسيل من المدعي عليه المرقوم أعلاه عن ذلك فأجاب بأنه لم يأذن بدفع شيء من المبلغ المرقوم وانه هو دفع ذلك من يده لليسقجية وأرباب العوايد المذكورة فلم يصدق المرقوم ولم يعلم له قبول ذلك فطلب من المدعي المرقوم ثبوت دعواه الذكور فالتمس يمين المدعي عليه المرقوم على ذلك بأنه لم يأذنه بدفع المبلغ المرقوم ولم يعلم لوصول ذلك لهم منه عن ذمته فلم ينص المدعى عليه بالحلف في ذلك عن اليمين وسأل كل منهما مولانا افندي المومي إليه أجر الشرع الشريف بينهما فعرف المدعى عليه المزقور بأنه حيث نكل عن الحلف ولم يرض محكمة فهو ملزم بدفع المبلغ المرقوم للمدعي المرقوم تعريفاً شرعياً نفسه ان يثبت لديه مضمون ما شرع فيه شهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتاً شرعياً تاماً محرراً مرعياً وجرى ذلك في غرة محرم الحرام سنة ١٠٩٩هـ/ ٧ نوفمبر عام ١٦٨٧م .

ملحــق رقــم (١٥)

وثيقة عن زواج امرأة مطلقة

سجل رقم ٦ ، مادة ١٨٩ ، ص ٧٥ .

لدى الشيخ عبد الحق الحنبلي .

تزوج ياني بن جورجي النصراني اللوندسي بمخطوبته ريتا المرأة ابنة جورجي اللوندسي التي كانت زوجاً لريني بن قسطنطيني اللوندسي وبانت من عصمته وانقضت عدتها مسند بالطريق الشرعي بشهادة العلاي علي بن عبد الله من جماعة الجراكسة الذي يتجبن باسكندرية من يلوك سبعة وأربعيني والزيني مصطفى بن عبد الله الينكجري بمصر المحروسة المقبولة شهادتهما في ذلك على صداق عليه من الفضة أربعماية نصف على الحلول زوجها مسند بذلك سيدنا الحاكم الشرعي المشار إليه بأولها المدعي ذلك شهادة من ذلك أعلاه تزويجاً شرعياً وقبله لنفسه على ذلك قبولاً شرعياً وعلى ما جرى ذلك التحرير وجرى ذلك في تاريخه .

الأحد ٢٩ ربيع الآخر عام ١٠٠٤هـ/ ١ يناير عام ١٥٩٥م .

ملحــق رقــم (١٦)

وثيقة زواج وعدم مطالبتها بالمؤخر طالما انها على عصمته

سجل رقم ١٦ ، مادة ٢٩٠ ، ص ١٢٠ .

الزوج الزيني حمزة بن محمد من الحضار الكبير الاشرفي الزوجة تركية ابنة عبد الله البيضا القبرسية الجنس الصداق من الذهب الجديد عشرة دنانير الحال بها من ذلك خمسة دنانير مقبوصة بيدها القبض التام الشرعي باعترافها بذلك ست دنانير الاذن الابقي ذكرها فيه والباقي رضيت ان لا تطالبه بذلك ما دامت في العصمة الزوج معتقها محمد ريس تربو بذلك من جماعة الترسخانة بالاشهاد لديه لذلك رضاها بشهادة الريس مصلي عبد الله وجماعة الترسخانة شهدا علي الزواج تزويجاً شرعياً وقبله الزوج المذكور ليقع عليه قبولاً شرعياً عنها .

٣٠ رجب عام ١٠٠١هـ/ ٢ مايو عام ١٥٩٢م .

ملحــق رقــم (١٧)

وثيقة عن إعادة توثيق زواج مرة أخرى بعد فقدان عقد القران في بلدتهما

سجل رقم ٢٢ ، مادة ٥٥٥ ، ص ٢٣٤ .

توجه شهوده للإشهاد على من يذكر فيه وتصادق فرنسيسكو ابن بيرنوا الفرنجي البندقي وترتنيلا المرأة بنت

جوان الفرنجية البندقية التصادق الشرعي وهما بحال الصحة والسلامية والطواعية والاختيار على انهما زوجان متناكحان بنكاح شرعي وأن مبلغ صداقهما عليه ثلاثون ديناراً ذهبياً بندقياً اقبضه اليها ولذا تزويج بها ببلاد البندقة من مدة عامين سابقين على تاريخه وضاع فيها على ما شهده لها بذلك وعن الزواج المذكور وكل منهما وأصابها وهي باقية في عصمته على أحكام الزوجية لم تبن فيه طلاق ولا فسخ إلى تاريخه بتصادقهما على التصادق الشرعي بحضور الزيني علي بن محمد المعروف بابوذي ذلك وترجمته بذلك وجرى ذلك وحرر في تاريخه .

١٦ من ذي الحجة الحرام عام ٩٩٩هـ/ ١٧ اكتوبر عام ١٥٩٠م .

ملحق رقم (١٨)

وثيقة زواج وتنص على ضرورة كسوة زوجها شتاءً وصيفاً

سجل رقم ٤٤ ، مادة ٦٥٢ ، ص ٣١٣ .

لدى القاضي عطا الله المالكي .

تزوج اسيدون لورانو النصراني الفرانسي بامرأة سمت نفسها أورشا المرأة ابنة عبد الله النصرانية الكنديوتية الخلية من نكاح وعدة بذكرها وخلفت على صداق جملته خمسة عشر قرشاً من القروش الفضة الكبار الريال المتعامل بها الآن بالديار المصرية اعترفت بقبض ذلك جميعه الاعتراف الشرعي زوجها له بذلك وعقد نكاحها عليه يد مولانا الحاكم الشرعي المالكي المشار إليه علاه بإذنها له بذلك وبه حالها به بشهادة شهوده الواضعين اسمايهم فيه تزويجاً شرعياً وتحل لنفسه بذلك الزوج المذكور قبولاً شرعياً تم بعد ذلك ولزم به على الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة في كل سنة تمضي من تاريخه بفعلي كساوي شتاء وصيف اقمشة لايقة بحالها اسوة أمثالها لمثله القيام الشرعي وثبت جران ذلك لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه دام علاه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتاً تاماً مرعياً وبه شهد وجرى ذلك وورد في يوم الثلاثا المبارك سادس عشرين من شهر رجب الفرد سنة احدى وثلاثين وألف/ ٧ يونيو ١٦٢١م .

ملحق ورقم (١٩)

وثيقة طلاق والاتفاق على تقسيم أثاث المنزل

سجل رقم ٧ ، مادة ٥١٧ ، ص ٢١٢ .

سألت ترتكيلا بنت جوان البندقية زوجها فرنسيسكو بن ببراتو الفرنجي البندقي في أن يطلقها طلاقاً فأجاب سؤالها وطلقها طلاقاً وثباتاً من كل وفي كلا من ما عدا ستة شبوكات فيه وخاتم ذهب بفص زمرد وعقد لؤلؤ ذكراً . في ذلك لها عدا ملاية عقد كروني ذهب وثلاثة وعشرين نصف وتود انها تدفع ذلك القدر ويخلص لها الخاتم والشون والعقد وذلك بحضور عثمان بن جهنم الدالي ونقوله بن جريملوا الفرنجي البندقي وتاريخه في تاريخه .

الخميس ١١ شهر ذي القعدة عام ٩٩٨هـ/ ١٢ سبتمبر عام ١٥٨٩م .

ملحق رقم (٢٠)

وثيقة اعتناق أحد اليونانيين الإسلام

سجل رقم ١٦ ، مادة ٣٨٦ ، ص ١٦١ .

حضر اورني بن نكولة النصراني الأكريكي المعتدل القامة والبدن مدور الوجه مفروق الحاجبين بأعلاه رأسه أسر جراحه وتلفظ بالشهادتين طايعاً مختاراً من غير إكراه ولا إجبار شهادة ان لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضور محمد عبد الله الانكشاري بالثغر السكندري الحاضر بالمجلس من ذلك خمسة ثمانين جرى ذلك وحرر في يوم الخميس المبارك ثالث عشر جمادى الأولى عام ١٠٠٣هـ/ ٥ فبراير عام ١٥٩٣م .

ملحق رقم (٢١)

وثيقة اعتناق أحد الكريتين الإسلام وسمى نفسه محمد

سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٨١ ، ص ١٢٨ .

حضر جرجي بن نقوله النصراني من اكريت وتلفظ بالشهادتين طايعاً مختاراً شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال لبريت من كل دين يخالف دين الإسلام وسمى نفسه محمد وشهد عليه بذلك في تاريخه .

٩ شعبان عام ٩٩٠هـ/ ٣٠ أغسطس عام ١٥٨٠م .

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ٢٩٩ ـ ٣٠٧ (١٩٨٧)

صراع حسين باشا أفراسياب مع العثمانيين ونهاية حكم آل أفراسياب في البصرة ١٠٦٧ ـ ١٠٧٩هـ ١٦٥٦ ـ ١٦٦٨م

للدكتور طارق نافع الحمداني

ملخص البحث : نشأت في البصرة في نهاية القرن السادس عشر إمارة عربية ، سميت باسم إمارة ال افراسياب ، وقد قدّر لهذه الإمارة ان تستقل عن الحكم العثماني الموجود في العراق آنذاك حتى عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م . وكان آخر حكام هذه الأسرة البارزين هو حسين باشا افراسياب ، الذي حكم البصرة ما بين ١٠٦٠ ـ ١٠٧٩ هـ / ١٦٥٠ ـ ١٦٦٨ م .

على أن أهم مميزات حكم حسين باشا في البصرة هي رغبته في الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية ، فراح يعدّ العدّة لهذا الغرض فأنشأ قوات جديدة ، وحصن مدينة البصرة ، وفتح باب الاتصال مع القوىٰ الأوروبية في الخليج العربي ، وزاد في نشاطات البصرة التجارية .

لكن هذه السياسة كانت مثار خوف العثمانيين الذين بدأوا يتطلعون ـ منذ استعادة نفوذهم المباشر على العراق عام ١٦٣٨ ـ إلى إعادة البصرة إلى حظيرة الدولة العثمانية ، وكان هذا المنحىٰ بداية لتأزم العلاقات بين الدولة العثمانية وآل افراسياب ، الذين ظلوا لا يعترفون بالعثمانيين إلا من الناحية الاسمية ، وأوشك هذا الاعتراف أن يمحى تماماً على يد حكومة حسين باشا أفراسياب .

كما اتسمت سياسة حسين باشا افراسياب بالتعسف والظلم فكانت عرضة لنفور أهله والرعية منه ، بخاصة أقرباؤه الذين لقوا منه كثيراً من الظلم والنفي ، ولكن قسماً من هؤلاء ـ وفي أثناء نفيهم الى الهند ـ التجأوا إلى الباب العالي ، فاستغل هذه الفرصة للتدخل في شؤون ولاية البصرة ، حيث أمر بتشكيل قوة عسكرية للتوجه نحو البصرة ، فكان هذا بداية لثلاث حملات عثمانية عسكرية نحو المدينة .

ففي الحملة الأولى تمكنت القوات العثمانية من دخول البصرة، فهرب حسين باشا خارج المدينة . ولكن وضع العثمانيين لم يكن مستقرا فيها ، بسبب سوء سياسة القيادة العثمانية التي دخلت المدينة ،مما أفسح المجال أمام عودة حسين باشا مرة أخرى . وفي المرة الثانية جاءت الحملة العثمانية نتيجة لأن حسين باشا أراد الانتقام من محمد باشا، والي الاحساء، الذي قدم المساعدة لأقرباء حسين باشا اثناء لجوئهم اليه . لكن الحملة العثمانية لم تحقق نجاحاً كبيراً لصعوبة موقفها في المنطقة مما اضطر قادتها إلى عقد صلح مؤقت مع حسين باشا.

واخيراً جاءت الحملة العثمانية الثالثة عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م ، تأكيداً للسياسة العثمانية في استعادة البصرة لنفوذها المباشر ، وقد أعدّت العدّة لهذه الحملة التي شقت طريقها في البرّ والنهر متوجهة نحو البصرة ، حيث ضربت الحصار على المدينة ، وتمكنت هذه المرة من دخولها وتثبيت السلطة العثمانية هناك .

وهكذا انتهىٰ الدور السياسي الذي تمتعت به اسرة آل افراسياب في البصرة ، بعد أن حكمت هذه المدينة لأكثر من سبعين عاماً بصورة مستقلة عن اي تدخل عثماني في المنطقة ، ولكن روح التعسف والظلم الذي مارسه حسين باشا أفراسياب قد أحبط من قوته مما جعله فريسة سهلة للعثمانيين .

في نهاية القرن السادس عشر ، وبالذات في عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م ، انتقلت السلطة الفعلية في البصرة من العثمانيين لآل إفراسياب ، الذين هم من الأسر القديمة التي وردت إلى البصرة وسكنت المدينة لأجيال طويلة قبل أن تتولى الحكم فيها . إذ تشير الروايات المعاصرة إلى أن أب هذه الأسرة هو من أصل سلجوقي ، إلاَّ أن أم الأسرة عربية من منطقة « الدير » ـ أحد المناطق القبلية القريبة للبصرة ـ ومنها سمي افراسياب بالديري .(١) وقد استطاع افراسياب باشا ، أول أفراد هذه الأسرة ، من تأسيس إمارة مستقلة عرفت بـ« الامارة الافراسيابية » ، وهي التي حكمت البصرة بين ١٠٠٥ ـ ١٠٧٩هـ/ ١٥٩٦ ـ ١٦٦٨م . وكانت العلاقة القائمة بين هذه الإمارة والدولة العثمانية طوال الفترة المذكورة علاقة اسمية فقط ؛ حيث اعترف افراسياب باشا ومن بعده ابنه علي باشا بالسلطان العثماني من الناحية النظرية ، إلاَّ أن السلطة الفعلية ، وبخاصة في عهد علي باشا ، كانت بيد آل افراسياب الذين وطدوا حكمهم في البصرة بصورة قوية(٢) .

على أن الحالة في البصرة تمثل انعكاساً لحالة الضعف والفوضى التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في الفترة التي نحن بصددها . ذلك لأن قيام أسرة حاكمة مستقلة أو شبه مستقلة كانت ظاهرة سائدة واعتيادية لا على نطاق العراق فحسب بل سادت أغلب أقاليم الدولة العثمانية . ولعل خير من يعطينا مثل هذه النظرة على أوضاع الدولة العثمانية هو الرحلة الإيطالي المعاصر سبستياني الذي قال :

> « لقد ظهر لي أن الأمبراطورية العثمانية كلها في حالة من الفوضى لا تحسد عليها . . . فمن جهة كان حسن باشا والي حلب وآغا التركمان قد أعلنا العصيان واتفقا مع والي دمشق والقدس ، ومع رؤساء آخرين ، فجمعوا جيشاً عرمرماً مؤلفاً من جنود مدربين ، وزحفوا على اسطنبول مهددين قاعدة المملكة بالخراب ، عندئذ أصدر الباب العالي أمراً إلى جميع الولاة (الباشوات) ليجمعوا عساكرهم لمجابهة ذلك الجيش ، وأن يجتهدوا ليحلوا دون اتفاق أولئك مع الشاة الإيراني ، إذ كانوا يعتقدون (هناك في الباب العالي) بوجود اتفاق بين [الباشوات المذكورين] والعاهل الإيراني . . . »(٣)

لقد أدت هذه الحالة ـ من بين ما أدت إليه ـ إلى قيام أسرة آل افراسياب المستقلة في البصرة ، والتي وصلت إلى درجة كبيرة من القوة والهيمنة زمن حسين باشا افراسياب ، بعيداً عن متناول يد الدولة العثمانية . ولهذا فإن الشيء الذي سأحاول أن أسلط عليه الضوء في هذا البحث هو جهود حكومة حسين باشا من أجل المحافظة على استقلال مدينة البصرة من الحملات العثمانية المتعاقبة في الربع الثالث من القرن السابع عشر، والتي كانت ترمي أساساً إلى استعادة هذه المدينة للحكم العثماني المباشر .

وكما هو الحال زمن علي باشا إفراسياب ، فقد حكم حسين باشا البصرة حكماً مستقلاً عن الباب العالي ، إلاَّ أنه كسابقيه أيضاً كان يعترف اعترافاً ظاهرياً بالسيادة العثمانية التي كان من مظاهرها قيام السلطان العثماني بتثبيت حكومة البصرة بأفراد أسرة إفراسياب عند وفاة أحدهم وتولي الآخر ، وذلك مقابل جراية سنوية محدودة للسلطان .(٤) ولذلك أصبح آل إفراسياب يحكمون حكماً وراثياً طوال حياة الفرد منهم ، وكان ذلك الحكم يتجدد بأبنائهم ، وتجري عملية تثبيت له ما بين أونة وأخرى ، تبعاً لنوع العلاقة بين آل إفراسياب والعثمانيين ، ولمقدار المنح والهدايا التي يقدمونها للسلطات وكبار رجال السراي والوزراء(٥) ؛ وهذا ما حدث

---

(١) عبد علي بن ناصر الحويزي، السيرة المرضية في شرح الفرضية، تحقيق محمد الخال ، باسم « تاريخ الإمارة الافراسيابية » (بغداد ، ١٩٦١) ص ص ٣ ، ٤٧ .

(٢) Achronicle of the Carmelities in Persia and the Papal Mission of the XVIIth and X VIIIth Centuries Vol. 1, (London, 1939),p. 247 .

(٣) سبستياني ، رحلات سبستياني إلى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الأب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد التاسع ، العدد الثالث ، (١٩٨٠م) ، ص ١٨٨ .

(٤) **Achronicle of the Carmelities in Persia,** Vol. 11, p. 1172; See also P. Rycaut , **The Present State of the Ottoman Empire** (Reprinted in New York, 1971), pp. 55- 56.

(٥) Monsieur de Thévenot, **The Travels of Monsieur de Thévenot into the Levant (1664 - 6),** Part 11, book 111 (London, 1687, and republished in West Germany, 1971), p. 158.

بالنسبة لحسين باشا أيضاً . فقد تسلم حكومة البصرة في عام ١٦٥٠م ، وحصل على تأييد الباب العالي بذلك في الوقت نفسه .(٦)

غير أن لحسين باشا إفراسياب سياسته الخاصة في دعم مركزه وتقوية استقلاله . فهو بعد أن درس الأوضاع العامة ، وقدّر طبيعة علاقاته مع القوى المختلفة المحيطة به ، رأى أن يهادن الأطراف المختلفة ويقيم معها علاقات حسنة إلى الحد الذي يمكنه من توطيد حكومته ؛ فقد راسل الشاه الفارسي مظهراً الود دون الخضوع ، وبعث الهدايا الثمينة إلى السلطان العثماني والوزراء وكافة ذوي الكلمة النافذة في اسطنبول ؛ ليتجنب الدخول في حرب مع الدولة العثمانية ، وليحقق استقلاله المنشود .(٧)

على أن مثل هذه السياسة ، التي كانت السمة البارزة للسنوات الأولى من حكم حسين باشا إفراسياب ، لم تكن لتشعره بالطمأنينة الكاملة من جانب العثمانيين ، بخاصة بعد أن رأى أن نجم السلطان العثماني كان في تصاعد مستمر ، إذ أنه استعاد شيئاً من سابق مجده بعد أن استرجع بغداد من يد الفرس ، ولا يستبعد أن يقوم بمحاولة مماثلة لإنهاء حكم أسرته في البصرة ، عندما يجد الفرصة سانحة لذلك .(٨) ويعلق أحد المؤرخين المحدثين على هذه الناحية بقوله « حالما طُرد الفرس من بغداد ، بدأ العثمانيون يستعدون لإخضاع البصرة ، وقد تسبب ذلك في وقوع الخلاف بينهم وبين آل إفراسياب » .(٩) ولهذا السبب وغيره فقد انتهج حسين باشا سياسة جديدة تقوم على أساس الحذر من العثمانيين ، والاستمرار في تقوية مركز حكومته في البصرة ، بشكل لم نعهد مثله في السابق ، وأصبحت هذه السياسة تمثل نهج حكومة البصرة في الفترة التالية .

لقد اتضحت هذه السياسة برغبة حسين باشا إفراسياب الحقيقية في تدعيم استقلاله الكامل عن الدولة العثمانية ظاهرياً وعملياً .(١٠) ولسنا بحاجة لإيراد أقوال المؤرخين ، فيما يتعلق بهذه الناحية الحيوية لما فيه من تكرار ، ويكفي أن نشير ها هنا إلى ما ذكره نظمي زادة ، الذي كان معاصراً لتلك الأحداث حيث يقول : « ولكنه [أي حسين باشا] لم يقم بما يجب عليه بل تملكه الغرور ، واندفع يحيط نفسه بما كان يتمتع به ملوك الطوائف ويبذر بغير حساب للظهور بمظهر العظمة والفخفخة . »(١١) تلك هي حسب رأي نظمي زادة أهم مظاهر سياسة حسين باشا الاستقلالية في البصرة . يضاف إلى ذلك امتناع حسين باشا افراسياب عن دفع الجراية السنوية لخزينة الدولة العثمانية سنوياً(١٢) ، فيكون بذلك قد تخلى عن مظهر آخر من مظاهر التبعية الإسمية للدولة العثمانية ، قاطعاً خطوة أخرى في طريق الاستقلال الكامل .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنه على الرغم مما عرف عن حسين باشا من أحداث مليئة بالصراع ، إلّا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا البصرة في عهده أعطوا صوراً مختلفة . من ذلك ما نقله لونكريك عن سائح برتغالي اسمه جزويتي عن البصرة عام ١٦٦٣م بأنها « أعظم سوق تجارية في هذه البحار » . وقد أعجب « ببيوتها الجميلة خارج البلد ، وبجنائنها وبساتينها ، وبسهولها الزاهرة التي كانت تسقى بعدد كبير من الترع » .(١٣)

وفضلاً عن هذه السياسة التي اتبعها حسين باشا ، فقد مارس سياسة مليئة بالقسوة والعنف في الداخل ، إن لم نقل

---

(٦) William Foster (ed), **The English Factories in India**, 1651- 54 (Oxford, 1915), p. 62.

(٧) **رحلة فنشنو إلى العراق في القرن السابع عشر [١٦٥٦]**، ترجمها عن الإيطالية وعلق عليها الآب الدكتور بطرس حداد ،**المورد** ، م ٥ ع ٣ ، (بغداد ، ١٩٧٦م) ، ص ٨٤ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ص ٨٤ ـ ٨٥ ؛ انظر أيضاً Thevenot, p. 158 .

(٩) Kamal S. Salibi, «Middle Eastern parallels: Syria- Iraq- Arabia in Ottoman Times», **Middle Eastern Studies**, Vol. 15 (January, 1979), p.77.

(١٠) **Achronicle of the Carmelities in Persia**, Vol. 1, p. 426.

(١١) نظمي زادة ، **كلشن خلفا** ، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس (النجف ، ١٩٧١) ، ص ٢٦٩ ؛ انظر أيضاً ميرزا حسن خان ، **تاريخ ولاية البصرة** ، ترجمة وصفي أبو مغلي (البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ٢٠ .

(١٢) زادة ، ص ٢٦٩ .

(١٣) ستيفنس هيمسلي لونكريك ، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعفر خياط (بيروت ، ١٩٤٩) ، ص ١٠٧ .

بالظلم والتعسف .(١٤) ولم يكن من المستغرب أن يؤدي هذا الظلم والتعسف الذي اتخذه حسين باشا إلى نفور أهله واشمئزاز الرعية منه ، وأن يشجع عميه ـ أحمد أغا وفتحي بك أخوي والده علي باشا ـ ، على مناوأته والتآمر عليه . فقد أنكرا على حسين باشا سوء الأوضاع التي آلت إليها البصرة ؛ فما كان من حسين باشا إلا أن أظهر لهما التودد في بداية الأمر ثم أوعز إلى بعض رجاله بالقضاء عليهم . غير أنهما استطاعا التخلص من قبضة يده وراحا يجمعان حولهما الأتباع ويستعدان للدفاع عن نفسهما ، إلَّا أن حسين باشا تمكن من القبض عليهما بحجة التداول معهما في إصلاح الحالة ، ولكنه نفاهما على ظهر إحدى السفن إلى الهند ، ولما وصلا قرب الأحساء تمكنا من الإفلات من أيدي الحراس والتجأ إلى حاكم الأحساء في عام ١٠٦٤هـ / ١٦٥٣م .(١٥) ومن هناك بعثا بشكواهما ورسائلهما إلى الباب العالي ، يتذمران فيها من سوء أعمال حسين باشا ، وما أصابهما معه من سوء التصرف ؛ وقد أحال الباب العالي طلبهما إلى مرتضى باشا ، والي بغداد(١٦) ، فكانت هذه هي الفرصة الأولى لتدخل الدولة العثمانية المباشر في شؤون البصرة . ولما كان هذا الأمر يتطلب استخدام القوة ، فقد قرّر مرتضى باشا تجهيز حملة عسكرية ، تبعتها حملات أخرى ، للقضاء على الإمارة الإفراسيابية .(١٧)

وهكذا وجد العثمانيون الفرصة سانحة لاستعادة البصرة ، خاصة وأن الجيش العثماني في بغداد كان عاطلاً في السنوات القليلة الماضية عن أي فعالية عسكرية ، فاتخذوا من الشكوى المقدمة ضد حسين باشا إفراسياب ذريعة للحملة الموجهة إلى البصرة . وقد أرسل هذا الجيش بطريقين ، سلك قسم منه طريق البر ، وانحدر القسم الثاني في دجلة والفرات ،(١٨) ، حيث وصل إلى العرجاء (أو العرجة)(١٩) ، ومنها تقدم نحو البصرة .

عندما وصلت الجيوش العثمانية حدود ولاية البصرة دعى حسين باشا أمراءه واستشارهم في أمر الدفاع عن المدينة ، لكنه سرعان ما اكتشف أن معظمهم كانوا على خلاف معه في الرأي ، وأنهم كانوا يميلون إلى جانب عمّيه الناقمين عليه .(٢٠) فانهزم أفراد أسرته وتابعيه إلى الدورق في بلاد الأحواز ، ومن ثم إلى بهبهان .(٢١) . ولهذا لم يجد مرتضى باشا ، وفي معينه أحمد آغا وفتحي بك ، صعوبة في الدخول الى البصرة والاستيلاء عليها .(٢٢)

ولكن الوضع الجديد لم يخل من مفاجئات وظروف متشابكة ، ذلك لأن مرتضى باشا الذي دخل البصرة بسهولة ، أراد الاحتفاظ بها تحت سلطته ، والاستقلال عن الباب العالي .(٢٣) وقد دفعته هذه الرغبة إلى التخلص من أحمد آغا وفتحي بك ابني إفراسياب باعتبارهما يشكلان عقبة أمام تحقيق هدفه ، طالما انهما معيّنان لحكم البصرة . ويشير ثيفنوت Thévenot « إلى أن مرتضى باشا قد دعاهما للقيام بجولة

(١٤) Foster, **The English Factaries in India**, 1655- 60 (Oxford, 1921). p.30.

(١٥) ولـلاطلاع على روايـات مفصلة راجع الكتب التـاليـة : زادة ، ص ٢٤٧ ؛ **Achronicle of the Carmelities in Persia**, Vol. 11, p. 1140 ؛ ويشير تيفنو أن أحمد آغا وفتحي بك فرا إلى اسطنبول ، وقد التمسا السلطان لحكومتي البصرة والاحساء ، وقد لبى السلطان طلبهما . **Thevenot,p.** 159.

(١٦) زادة ، ص ٢٤٨ .

(١٧) زادة ، ص ٢٤٨ ؛ جعفر الخياط ، « حسين باشا » في كتابه **صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة** (بغداد ، ١٩٧١م) ، ص ٩٥ .

(١٨) **رحلة فنشنسو الى العراق** ، ص ٨٥ .

(١٩) العرجة : قلعة ومركز سنجق (لواء) يحمل نفس الاسم وتقع على نهر الفرات قرب مدينة الناصرية الحالية وتتبع لولاية بغداد وعندها تبدأ حدود ولاية البصرة من هذه الجهة ، فنشنسو ، ص ٨٦ .

(٢٠) فتح اللّه الكعبي ، **زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن افراسياب حاكم البصرة** (بغداد ، ١٩٢٤م) ، ص ٢٠ .

(٢١) انظر Thevenot, p. 159 . وبهبهان مدينة في ايران في اقليم كوة كيلوة ما بين شيراز والأهواز وتبعد عن ساحل الخليج العربي بمسافة تقرب من خمسين كم .

(٢٢) Foster, **The English Factories in India, 1651- 54,** p. 295.

(٢٣) **رحلة فنشنسو إلى العراق في القرن السابع عشر [١٦٥٦]** ، ص ٨٥ . ومن الجدير بالذكر أن مرتضى باشا بعد دخوله البصرة أصدر أمراً بمصادرة أموال حسين باشا وأموال أبيه علي باشا وأولادهما وأحفادهما وأودعها في مكان يقال له قبان ، فلما أحس أحمد آغا وفتحي بك بنوايا مرتضى باشا جمعا اتباعهما وهجما على المكان الذي حفظت فيه الأموال فتم استردادها ، زادة ، ص ٢٤٩ .

خارج مدينة البصرة ، الا أنه غدر بهما وادعى بانهما اغتيلا أثناء ذلك». (٢٤) ولم يكتف بذلك ، كما يضيف ثيفنوت « بل انه استدعى كل أغنياء البلد ، وصادر أموالهم وثرواتهم ، وأمر بإعدام ما يقرب من عشرين شخصاً علانية مما أثار شعور الجند ضده ، فثاروا جميعاً عليه » . (٢٥)

وعلى هذه الشاكلة صارت منطقة البصرة ميداناً للحرب ، فعندما رأى أهل البصرة خيانة مرتضى باشا ، تحالفوا مع سكان الجزائر وقبائلها وثاروا ضده . (٢٦) وعندئذ وجد مرتضى باشا نفسه غير قادر على الاحتفاظ بموقعه في البصرة ، فترك المدينة فجأة صفر اليدين ورجع إلى بغداد ، فانتهز حسين باشا إفراسياب هذه الفرصة وعاد إلى البصرة هو واتباعه وتسلّم حاكميتها ، ولكن بعد تضحية الكثير من جماعته . (٢٧) .

أما فيما يتعلق بموقف حسين باشا إفراسياب من السلطان العثماني ، فيبدو أنه استطاع أن يحسم الأمر مع الأخير ، وذلك بأن ألقى باللائمة ، فيما وقع ، على سوء تدبير مرتضى باشا ، والي بغداد . وقد عزز موقفه أيضاً بأن أظهر طاعته الاسمية للسلطان وأرسل له الهدايا المناسبة . (٢٨)

وفي هذا الصدد يجدر بنا ألا نحسب ما قام به حسين باشا من طاعة للسلطان العثماني دليلاً على خضوعه الدائم له . وإذا ما كان في مثل هذا الاستنتاج أثر للصواب ، فإن تفسير ذلك نجده في رغبة حسين باشا المستمرة بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، وتحينه الظروف المناسبة لرفض طاعته لها . وقد حدث ذلك أول ما حدث عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٥م ؛ إذ أشارت حوليات الأباء الكرمليين في البصرة إلى « أن حسين باشا رفض الاعتراف بسيادة السلطان العثماني . »(٢٩) وقد ساعده على هذا الموقف ، إلى جانب قوة مركزه في البصرة ، بعض الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية نفسها ، وقضية انشغالها في حرب مع أوروبا ، واعتقاد حسين باشا بطول فترة هذه الحرب . (٣٠) وعلى هذا أصبح باستطاعة حسين باشا أن يثأر من والي الاحساء محمد باشا ، والذي كان له دور كبير في تحريض عميّه أحمد آغا وفتحي بك في الخروج عليه عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣ م ، وذلك بالعمل على طرده من الاحساء ، (٣١) وضم المنطقة إليه بحملة عسكرية ، فاتخذت الدولة العثمانية من الحادث حجة لتجريد حملة ثانية على امارة آل إفراسياب .

أصغت الدولة العثمانية مرة أخرى للشكاوى المقدمة ضد حسين باشا من قبل محمد باشا والي الاحساء ، فأصدرت الأوامر إلى إبراهيم باشا ، والي بغداد ، بأن يسير مع جيوش بغداد وديار بكر والرقة وشهرزور والموصل والرها وحلب ، للقضاء عليه . (٣٢) وقبل تحرك إبراهيم باشا كتب رسالة إلى حسين باشا يطلب فيها الانقياد والطاعة له ، غير أن الأخير رفض ذلك بإصرار ، وعهد إلى تعزيز وسائل الدفاع عن المدينة ، فتحصّن في قلعة القرنة واحكمها ، وعزم على المقاومة بكل ما أوتي من قوة ودهاء . (٣٣) وكان من بين إجراءاته أن أمر بإخراج جميع السكان غير القادرين على القتال في البصرة ، واتخذ تدابير مشابهة بذلك في المناطق

(٢٤) Thevenot, p. 159.

(٢٥) Thevenot, p. 159.

(٢٦) الكعبي ، ص ٢٠ ؛ Foster, **The English Factories in India,** 1651- 54, p. 295.

(٢٧) **رحلة فنشنسو الى العراق** ، ص ٨٥ ، زادة ، ص ٢٤٩ . وتشير الكثير من المصادر العربية والأجنبية الى أن البصريين هم الذين راسلوا حسين باشا الذي كان يقيم في بهبان بالعودة اليهم ؛ وهذا أمر غير مستبعد بعدما قاسوا الأمرين من جشع مرتضى باشا وظلمه . انظر أحمد بن عبد الله الغرابي البغدادي ، **عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان** ، مخطوطات المتحف العراقي برقم ٩٣١١ ، ورقة ٢١٠ ؛ الكعبي ، ص ٢٠ ؛ .Thevenct,p.159 .

(٢٨) الكعبي ص ٢٠ حيث قال : « ثم انه رسل هدية الى السلطان واشترى تاج الدرزارة » ؛ انظر أيضاً زادة ، ص ٢٤٩ .

(٢٩) **Achvonicle of The Carmelities in Pevsia,** Vol. 1, p. 426; and Vol. 11, p. 1151.

(٣٠) Thévenot, p. 160.

(٣١) لقد استطاع حسين باشا أن يستميل براك رئيس عشيرة بني خالد إلى جانبه واتفق معه على طرد محمد باشا من الاحساء . غير أن براك بعد طرده محمد باشا تمرد على حسين باشا ورفض تبعيته له ، فما كان من الأخير إلاّ أن وجه حملة عسكرية إلى الاحساء وضمها إلى إمارته . انظر محمد بن عبد الله الاحسائي ، **تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد** (الرياض ، ١٩٦٠) ق ١ ؛ ص ١٢٣ ؛ Thevenot P. 160 ؛ عباس العزاوي ، **تاريخ العراق بين احتلالين** (بغداد ، ١٩٥٣) ، ج ٥ ص ٧٥ .

(٣٢) الغرابي ، ورقة ٢١٢ ؛ Thevenot, p. 160 .

(٣٣) Foster, **The English Factories in India,** 1665 - 65 (Oxford 1925), pp. 158 - 159 ; زادة ، ص ٢٦٥ .

المحيطة بالمدينة ، رغم امتعاض الأهلين منها .[٣٤]

تحركت الحملة العثمانية بقيادة إبراهيم باشا ، والي بغداد ، حتى وصلت قرب البصرة ، وخيمت في محل يسمى المنصورية (قرب القرنة) . وهناك جرت مناوشات بين القوات العثمانية وأتباع حسين باشا الذين صمدوا أمام هجمات الجيش العثماني الذي كان يحارب في أرض صعبة المسالك ذات شعاب كثيرة ، ولهذا لم يكن من السهل على الجيش العثماني أن يحرز انتصاراً حاسماً هناك.[٣٥] وعندئذ انعطف العثمانيون نحو القرنة وضربوا الحصار عليها ، فلم يتمكنوا من الإستيلاء عليها لمنعتها وقوة استحكاماتها.[٣٦] .

وفي أثناء غياب حسين باشا تعرضت البصرة لكثير من الأزمات والمحن . فمن ناحية بعث إبراهيم باشا الرسائل إلى أهل البصرة ووجهائها قاصداً إضعاف ولائهم لحسين باشا ، والقيام بعمل ما ضده . ومن ناحية أخرى ، صادر حسين باشا السفن المشحونة بالمؤن والأموال التجارية في شط العرب وجلبها إلى القرنة ، بدافع قلة الأرزاق ولمطامعه الأخرى . وقد أثار هذا العمل حفيظة التجار وأصحاب السفن فبعثوا بكتاب إلى إبراهيم باشا ، يخبرونه فيه باضطراب حكومة البصرة ويطلبون إليه بتعيين حاكم عليها لضبط الأمن والنظام ، ورشحوا في كتابهم أحد التجار البارزين المسمى صولاق حسين ، فوافق على ذلك.[٣٧] .

على أن تعيين صولاق حسين لحكومة البصرة « المؤقتة » لم ينه المشكلة ، بل جعلها في موقف أكثر صعوبة وتعقيداً . ذلك لأن هذه الحكومة الجديدة قد وقعت بين أمرين : إما تأييد السلطة العثمانية وقبولها أو الاحتفاظ بالسلطة لنفسها . وكان الأمر الأول قد أثار شكوك حكومة البصرة « المؤقتة » وترددها وذلك خوفاً من وصول الوضع إلى حالة شبيهة بتلك التي أصبح فيها التجار مع مرتضى باشا عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م ، حيث استدعى كل أغنياء البلد وصادر ثرواتهم وأعدم قسماً منهم .[٣٨] أو الاحتفاظ بالسلطة ، فقد جعلها في خلاف مع شيوخ القبائل الذين كانوا يميلون الى حسين باشا . وقد صور لنا نظمي زادة الحالة خير تصوير بقوله :

« ولما كان التجار لهم ارتباطات مع العدد الكثير من المشايخ الثائرين واتباعهم ولا يسعهم نقضها فقد أصبحوا بين نارين ، كما وان الشيوخ الموجودين هناك كتبوا إلى حسين باشا بهذا الصدد وطلبوا أن يمدهم ببعض القوات للطوارىء مع أن البصرة محصنة تحصيناً كاملاً ، وقد أرسل إليهم فعلاً عدداً غير قليل من قواته العربية لحمايتهم ولضرب الخارجين عليه . »[٣٩]

وعند وصول هذه القوات تمكنت من دخول البصرة ، فانحلت حكومة صولاق حسين ، وأظهر الناس ميلهم مرة أخرى إلى حسين باشا إفراسياب .[٤٠]

أما بالنسبة للقرنة فقد طال حصار العثمانيين لها لمدة ثلاثة أشهر ، ولم ينالوا منها شيئاً ؛ بالنظر لمناعتها من ناحية وازدياد اتباع حسين باشا بانضمام عدد غير قليل من أفراد القبائل العربية الناقمين على الحكم العثماني إليه من ناحية أخرى ، خاصة قبائل المنتفق التي كانت تسيطر على ضفتي الفرات حتى القرنة ، وعلى الجزء الأكبر من منطقة الجزائر (أو الجبايش الحالية) . وقد أصبح العثمانيون في موضع حرج ، لأنهم أصبحوا هم أنفسهم محاصرون محاصرة نصفية من قبل القبائل العربية المنتشرة في الأهواز ، ولم تعد خطوط تموينهم الحربية بمنجى من هجماتهم.[٤١] وقد ساعد هذا الوضع المزري للجيش العثماني على فتح باب المفاوضات بين الطرفين . إذ راسل إبراهيم باشا ، والي ديار بكر ، الذي كان أحد قواد الحملة العثمانية ؛ حسين باشا إفراسياب حول إنهاء الحرب فتم التوصل إلى تسوية مفادها : أن تبقى حكومة البصرة بيد الأسرة نفسها على أن تنتقل من حسين إلى ابنه

(٣٤) الكعبي ، ص ١٣ .

(٣٥) علي شاكر علي ، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٠٤٨ - ١١٦٤ هـ / ١٦٣٨ - ١٧٥٠ م ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ، ١٩٧٦م)، ص ١٥٢ .

(٣٦) زادة ، ص ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣٧) زادة ، ص ٢٦٦ .

(٣٨) انظر أعلاه حاشية رقم ١٦ من هذا البحث .

(٣٩) زادة ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤٠) زادة ، ص ٢٦٧ .

(٤١) ستيفنس هيمسلي لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط (بيروت ، ١٩٤٩) ، ص ١٠٩ .

إفراساب ، وأن يذهب حسين نفسه إلى مكة ، وأن يرفع إلى السلطان اعتذاراً رسمياً عما بدر منه ، وأن يعود محمد باشا إلى حكم الأحساء ، وتدفع الجراية السنوية المترتبة بذمته في الحال إلى الخزينة العثمانية، ويرجع ما أخذ من أموال التجار إلى أصحابها . وقد رضي حسين باشا بهذه الشروط ، فاعيد محمد باشا إلى الاحساء ، وتراجعت الجيوش العثمانية نحو بغداد.[٤٢] وقد أشارت وثائق شركة الهند الشرقية الانكليزية إلى نتائج المفاوضات هذه معتبراً إياها مسألة مالية بحتة بقوله : « وفي النهاية اثبتت قضية المفاوضات بأنها قضية نقود ، فحالما اتفق على مقدار المبلغ الذي يدفعه آل إفراسياب ، انسحبت الجيوش العثمانية ».[٤٣] والذي يظهر أن هذا الرأي تنقصه النظرة المتفحصة ، ذلك لأن الدوافع العثمانية لم تكن دوافع مالية صرفة ، بل كانت أعمق من ذلك بكثير ، إذ أنها ترجع إلى رغبة العثمانيين المستمرة في القضاء على نفوذ أسرة آل إفراسياب في البصرة كما سنرى أدناه .

لم يمضِ وقت طويل على عقد الصلح بين العثمانيين وحسين باشا إفراسياب حتى نُقضت شروطه ، وذلك لعدم اطمئنان الطرفين بعضهما للبعض الآخر . فالعثمانيون لم يقبلوا بشروط الصلح مع حسين باشا إلاّ لضعفهم وعجزهم عن دحره في حملاتهم السابقة ، إلاّ أنهم في حقيقة الأمر كانوا غير راضين عن بقائه في حكم البصرة خارجاً عن سلطانهم.[٤٤] ومن الناحية الأخرى ، فإن حقيقة إخلاص حسين باشا وطاعته لاسطنبول بقيت تحتمل الشك، ومما يؤكد ذلك إغفاله لشروط الصلح مع العثمانيين، وإهماله أو امتناعه عن دفع المبالغ التي اتفق على دفعها للخزينة العثمانية.[٤٥] وعلى هذا الأساس لم يكن من الغريب تغيير مواقف وسياسات الدولة العثمانية من امارة آل إفراسياب في البصرة ، وقد حدث هذا التغيير عند ذهاب يحيى آغا ـ وزير حسين باشا وقريبه ـ إلى أدرنة وهو يحمل اعتذار حسين باشا إلى السلطان العثماني . وصادف بوصوله إلى العاصمة العثمانية وفداً بصرياً من أسرة الكواوزة (أو أسرة آل باش أعيان) ذهب ليشكو للسلطان ظلم حسين باشا وجوره[٤٦] ويظهر بأن اتفاقاً قد تم بين العثمانيين والوفد البصري بشأن خلع حسين باشا إفراسياب من حكومة البصرة وتعيين يحيى آغا بدلاً منه ، وقد لقي هذا الأمر قبولاً واستحساناً من قبل السلطان العثماني ، الذي أمر بإعداد حملة جديدة لتنفيذه.[٤٧]

أصدر الباب العالي أمراً إلى الوزير قرة مصطفى ، والي بغداد ، لقيادة الحملة العثمانية الثالثة على البصرة ، كما أمر ولاة ديار بكر إبراهيم باشا ومحافظ شهرزور ومير ميران الموصل والرقة الالتحاق بقواتهم النظامية إلى الحملة المذكورة.[٤٨] وقد أرسل قائد الحملة العثمانية قرة مصطفى ، قسماً من قواته ومدافعه الثقيلة عن طريق دجلة إلى البصرة ، وتوجه هو مع بقية الجيش العثماني في الرابع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٦٦٧ م / السابع من جمادي الآخرة ١٠٧٨ هـ . وتخللت سيرة البطيء وقفة لزيارة الإمام الحسين في كربلاء ووقفة ثانية في النجف وأخرى في العرجة ، وبعدها توجه قرة مصطفى إلى كوت معمر (بين الناصرية وسوق الشيوخ) ، حيث جرت مناوشات طفيفة بين الجيش العثماني والشيخ عثمان رئيس عشائر المنتفق، الذي أراد وأتباعه عرقلة الجيش المتقدم، إلاّ أنه تشتت خلال فترة قصيرة ، ثم واصل الجيش العثماني زحفة حتى وصل الى المنصورية (قرب القرنة) .[٤٩] .

ولما كانت القرنة أول هدف للجيش باعتبارها مركزاً حصيناً لحسين باشا ، فقد عقد في المنصورية اجتماع بين قرة مصطفى وقواده تقرر فيه القيام بهجوم عام على اتباع حسين باشا إفراسياب ، على أن يقود دلاور باشا حاكم الرقة الجناح الأيمن ، ويقوم حاكم الموصل وقائد قوات الإنكشاريين

---

(٤٢) راجع نص هذه المفاوضات في المصادر التالية : زادة ، ص ٢٦٨ ؛ لونكريك ، ص ١٠٩ .

(٤٣) Foster, **The English Factories in India, 1665- 67**, P. 159.

(٤٤) Foster, P. 265.

(٤٥) زادة ، ص ٢٦٩ .

(٤٦) الكعبي ، ص ٢٩ ؛ الغرابي ، ورقة ٢١٢ . وتوحي رواية زادة ص ٢٦٩ بأن حكومة البصرة قد عهدت الى الكتخدا يحيى آغا منذ أن كان في البصرة ، إلاّ أن المرجح ما أثبتناه في النص استناداً الى الكعبي .

(٤٧) الكعبي ، ص ٢٩ ؛ زادة ، ص ٢٦٩ .

(٤٨) زادة، ص ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(٤٩) زادة، ص ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

بتأمين عبور الجيش بوساطة السفن إلى الجانب الآخر من شط العرب ، على أن تتبعهم بقية القوات ، التي كان عليها عبور ما لا يحصى من الأنهار العميقة والجداول الواسعة قبل وصول القرنة .[٥٠] وفي هذه المنطقة بالذات ، المسماة بديار بني أسد ، اصطدم الجيش العثماني بمجموعة من اتباع حسين باشا الذين هاجموا القوات العثمانية ، غير أن هذه المجموعة رُدت على أعقابها ، واستأنفت القوات العثمانية زحفها نحو القرنة .[٥١]

أما حسين باشا فقد أصبح في موقف صعب للغاية ، ولم يكن من الممكن أن تتكرر مقاومته الناجحة ، لأنه أراد أن يصب جام غضبه على رعاياه بسبب خيانة بعض اتباعه واتصالهم مع العثمانيين كما أوضحنا سابقاً . فأصدر أمراً بإخلاء البصرة من جميع سكانها في مدة أقصاها ثلاثة أيام والتوجه نحو الأحواز . ولم يكتف بذلك بل أمر جنوده بنهب البصرة وإحراقها.[٥٢] وفي الوقت نفسه ، اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لمواجهة العثمانيين فرمى بنفسه في قلعة القرنة المنيعة ، التي كان قد حصنها من قبل .

أما الجيوش العثمانية فقد اقتربت من القرنة وفرضت عليها حصاراً محكماً ، وبدأت بإمطار المدينة بوابل من قذائف المدفعية التي لم تكن في السابق قادرة على النيل من القلعة ، لعدم تقدمها لمثل هذا الحد ، كما عبر قسم من القوات العثمانية نهر دجلة واصطدموا بأتباع حسين باشا الذين تجمعوا خلف شط الزكية ، على الجبهة اليمنى من القرنة ، وتبعها عبور قوات إبراهيم باشا ، والي ديار بكر ، للنهر نفسه . وقد استطاع الجيش في هذه المرة أن يسحق المقاومة العنيفة التي أبداها حسين باشا وقواته ، فلم يجد حسين باشا وسيلة غير ترك المدينة واللجوء إلى الأحواز . وكذلك فعلت بقية قواته ورجال القبائل العربية الذين اشتركوا معه في القتال ، فمنهم من التجأ إلى الأهواز ومنهم من التحق بحسين باشا في مكان آخر .[٥٣] وعندئذ احتلت القوات العثمانية القرنة ، وتحركت نحو البصرة فاحتلتها أيضاً ، بعد أن وقعت مجزرة رهيبة راح ضحيتها ، على حد قول شاهد عيان ؛ حوالي أربعة آلاف من البصريين الآمنين .[٥٤]

نَصَّبَ العثمانيون يحيى باشا حاكماً على البصرة في يوليه / تموز ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م ، ورابطت هناك حامية عثمانية قدرت بخمسمائة جندي انكشاري إضافة الى ثلاثة آلاف من القوات المحلية .[٥٥] وبهذا زالت الإمارة الافراسيابية من الوجود ، فأصبحت البصرة تحت السيطرة العثمانية المباشرة .

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال عن مصير هذه الأسرة وعن أهميتها في تاريخ البصرة الحديث ؟ والجواب على ذلك أن حسين باشا الذي فرّ إلى شيراز من بلاد فارس ، حاول إقناع الشاة سليمان بن الشاه عباس (١٦٦٧ - ١٦٩٤ م) أن يشد أزره لإرجاع ما فقده . إلَّا أن الشاه سليمان رفض ذلك لمطالبة السلطان العثماني بتسليمه مكبلاً إلى الدولةومصادرة ملكيته ، فما كان من الشاه الفارسي إلا أن أمر بمغادرته البلاد ، خوفاً من تورطه في حرب مع الأتراك .[٥٦] وقد غادر حسين باشا وابنه إلى الهند ، وهناك لقي ترحيباً من ملكها ونُصب حاكماً على مقاطعة باجير ثم قتل في احدى حروب ملك الهند .[٥٧]

أما أهمية هذه الأسرة في تاريخ البصرة الحديث ، بخاصة

---

(٥٠) زادة ، ص ٢٧١ .

(٥١) زادة ، ص ٢٧١ .

(٥٢) للتفاصيل انظر :

Foster, **The English Factories in India** 1665- 67, p. 285- Hermann Gollancz (transs.), **Chronilcles of Events Between the Year 1623 and 1733 Relating to the Settlement of the Order of Carmelities in Mesopotamia** Bassora (Oxford, 1927), p. 332; **Achronicle of the Carmelities in Persia**, Vol. 11, p. 1153.

(٥٣) زادة ، ص ٢٧٢ ؛ الكعبي ، ص ص ٣٨ - ٣٩ ، **Achronicle of the Carmelities in Persia**, Vol. 11, p. 1153 .

(٥٤) الكعبي ، ص ٣٩ ؛ وتؤكد حوليات الأباء الكرمليين في فارس هذه الناحية أيضاً انظر : **Achronicle of the Carmelities in Persia**, Vol. 11, p. 1155.

(٥٥) نظمي زادة ، ص ٢٧٢ ؛ ويقدر أبي كير القوات المحلية في البصرة عام ١٦٧٢ بحوالي ٢٠,٠٠٠ مقاتل ، وهو أمر يظهر فيه طابع المبالغة واضحاً انظر : Abbe Carre, **The Travels of Abbe Cavre in India and The Near East 1672 to 1947,** (ed.) by Sir Charles Fawcett (London, 1947), p. 86.

(٥٦) للتفاصيل انظر : Foster, **The English Factories in India 1668-69,** (Oxford, 1927), 29 July, 1668, p. 42.

(٥٧) الكعبي ، ص ٤٢ ؛ انظر أيضاً الغرابي ، ورقة ٢١٢ ؛ Foster, p. 210 .

زمن حسين باشا إفراسياب ، فقد استطاعت تعزيز دعائم الحكم الاستقلالي لهذه المدينة ولفترة غير قصيرة ، بعيداً عن أي تدخل أو نفوذ أجنبي ، سواء أكان عثمانياً أو فارسياً . إلاَّ أن سياسة حسين باشا التعسفية وطيشه في الحكم قد أفقداه ثقة البصريين وإخلاصهم له . وإلى ذلك أشار ميرزا خان قائلاً : « ولما كان أهل البصرة قد ضاقوا ذرعاً بسوء سلوك حسين باشا فقد تقاعسوا عن مساعدته ولذلك لم يستطع أن يقاوم بمفرده ففر إلى الأحواز » .(٥٨)

وهكذا انتهى الدور السياسي الذي تمتعت به أسرة آل إفراسياب في البصرة ـ باستثناء حكم يحيى باشا الذي يعتبر امتداداً لذلك الدور ـ بعد أن حكمتها أكثر من سبعين عاماً ، وذلك على عهد ثلاثة من أشهر الحكام الذين عرفتهم المدينة ، ألا وهم إفراسياب باشا وعلي باشا وحسين باشا . إذ عُرف هؤلاء برغبتهم الحقيقية في بناء البصرة وازدهارها ، والمحافظة على قوتها واستقلالها ، حتى أظهر آخرهم حسين باشا سلوكاً جائراً ، مما أفقد هذه الأسرة مكانتها ومنزلتها في نفوس البصريين ، الذين انفضوا من حولها فأصبحت فريسة سهلة بيد العثمانيين .

وأخيراً لا بد من القول بأن أهل البصرة كانوا في طليعة القوات النظامية ، وغير النظامية التي وقفت بوجه الحملات العسكرية العثمانية على مدينتهم . وهناك إشارات إلى مساهمة الفين إلى ثلاثة آلاف مقاتل من اتباع حسين باشا ـ عدا خمسة آلاف مقاتل من الجزائر ـ ضد الحملة العثمانية الأولى التي أعدها إبراهيم باشا في ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م .(٥٩) وما يقرب من خمسة آلاف مقاتل من اتباعه بكامل اسلحتهم لمواجهة الحملة العثمانية الثانية التي اعدها مصطفى باشا في ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م .(٦٠) .

(٥٨) ميرزا حسن خان ، ص ٢٠ .

(٥٩) زادة ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٦٠) زادة ، ص ٢٧٠ .

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ٣٠٩ - ٣١٩ (١٩٨٧)

العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس

للدكتور عادل علي مصطفى

ملخص البحث : يتناول هذا البحث العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، وتطورها على فترات تاريخية متباينة . وقد قُسِّم البحث إلى قسمين رئيسين : تناول الأول العلاقة بين كلا العلمين من خلال استعراض دور الفكر التطوري ، وعَرَض الثاني لتلك العلاقة في ضوء التطورات اللاحقة .

وقد حاول الباحث أن يتلمس الظروف التاريخية التي أدت إلى قيام وشائج بين كلا العلمين ؛ مرة إيجابية ومرة أخرى سلبية . كما أنه عرض ـ أحياناً ـ لتراث السابقين فيما يتصل بموضع البحث ، وإن كان بحكم تخصص الباحث كان ذلك العرض ينصب في أغلبه على أعمال أقطاب الأنثورولوجيا أساساً .

ومهما يكن من شيء ، فإنَّ الباحث يميل منذ البداية إلى الدعوة إلى تضافر كافة العلوم الإنسانية معاً ، وليس فقط علم النفس والأنثروبولوجيا . وهي حقيقة أدكها التاريخ نفسه ووقائع الحياة ذاتها . . . فكل تلك العلوم نشأت معاً في وعاء واحد ، ثم بحكم التخصص الدقيق سارت في اتجاهات شتى وأخيراً عادت مرة أخرى لتنصهر معاً في بوتقة واحدة ، لأن مجالاتها والقضايا التي تعالجها تكاد تكون واحدة ، وإن كانت طرقها في تناولها مختلفة . أضف إلى ذلك أن الأزمات المتلاحقة التي يمر بها العالم الإنساني اليوم ، تؤكد ضرورة تضافر تلك العلوم ، مهما بدا فيما بينها أو بين بعضها من تناقضات أو اختلافات ، وإلاَّ فإن النتيجة الحتمية هي اندثار كل منجزات الإنسان الحضارية .

على الرغم من أن كثيراً من المتخصصين قد تناولوا العلاقة بين علم النفس والأنثروبولوجيا ، وعلى وجه الخصوص في العقود الأولى من القرن الحالي ، فإن أحداً حتى الآن لم يهتم بكتابة تاريخ تفصيلي حول التأثيرات المتبادلة التي كانت قائمة بين كلا العلمين ، أو حول المجالات التي حظيت منهما باهتمام مشترك .[1]

وربما تستثني من ذلك المحاولة الجادة التي قام بها ألفريد أرفينج هالويل (١٨٩٢ ـ ١٩٧٤م) وضمَّنها مقاله الذي نُشر في الكتاب الذي أشرف على تحريره جون جيلين[2] عام ١٩٥٤م، ثم أعادت جامعة شيكاغو طبعه في عام ١٩٧٦م ، ضمن مجموعة مقالاته التي حواها الكتاب المعنون : إسهامات في الأنثروبولوجيا[3] تخليداً لذكراه .

ونحن هنا بالمثل ، إيماناً بأهمية مثل هذا العمل في توثيق الصلة بين كلا العلمين ، نحاول أن نقدم إسهاماً متواضعاً

(١) ربما يرجع ذلك إلى أن التأريخ للعلوم ليس بالأمر الهين ولا بالعمل الذي يمكن تقديمه في مقال أو حتى في كتاب واحد. انظر حسين فهيم ، قصة **الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان** ، (الكويت : عالم المعرفة ، فبراير ١٩٨٦م) ، ص ٢١ .

(٢) A. I. Hallowell, «Psychology and Culture» in J. Gillen, (ed.); **For a Science of Social Man,** (NY: MacMillan, 1954), pp. 160- 226.

(٣) A. Irving Hallowell, **Contributions to Anthropology,** Selected Papers. (Chicago Univ. Chicago Press, 1976), pp. 163 - 229 .

يتناول تلك العلاقة وتطورها على فترات تاريخية متباينة ، على الأقل من وجهة النظر الأنثروبولوجية . وفي نفس الوقت نحاول أن نلقي بعض الضوء على الحقائق الوثيقة الصلة بهذا الموضوع ، من خلال محاولة إدراك الظروف التاريخية التي واكبت نشأة كلا العلمين .

ولتحقيق هذا الغرض قمنا بتقسيم البحث إلى قسمين رئيسين ؛ القسم الأول يتناول العلاقة المتبادلة بين كلا العلمين من خلال استعراض دور الفكر التطوري ، ويتناول القسم الثاني تلك العلاقة في ضوء التطورات اللاحقة (الحديثة) وإن كان هذا لا يعني الانفصال التام بين كلا القسمين أو عدم تداخلهما أحياناً .

نستطيع أن نقرر أنه كانت هناك منذ البداية وشائج علمية بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس « بمفهوميهما العامين » ، حتى وإن لم تكن تلك الوشائج قد أدت في يوم من الأيام إلى قيام تعاون مشترك في مجال البحث ، بل وحتى لو كان بعضها قد تسبب في قيام ردود فعل سالبة من جانب أحد الطرفين أو الآخر ، على نحو ما سنرى فيما بعد .

وربما كان السبب في قيام تلك العلاقات بين العلمين هو أنهما قد نميا معاً في وقت واحد تقريباً . ورغم أننا هنا لا نستطيع أن نحدد تواريخ بعينها ، لأن الفكر الإنساني عموماً متداخل ومترابط ولا تفصله أو تحدده تواريخ معينة(٤) ، فإنه يمكننا القول بأن الأنثروبولوجيا لم تظهر كفرع من فروع المعرفة « الأكاديمية » المنظمة إلا بعد انتصاف القرن الماضي ، وبالتحديد في الفترة ما بين عام ١٨٥٩م وعام ١٩٠٠م(٥) ، وفي نفس الوقت تقريباً استطاع علم النفس أن ينفصل عن الفلسفة العقلية التأملية ، وأن يحدد موضوعه وطريقته في البحث(٦) وفضلاً عن ذلك فإن كلا العلمين كانا يشتركان في اهتمامات واحدة ، ويركزان على قضايا مشتركة ، تتناول مشكلات السلوك الإنساني أساساً ، بيد أن المداخل لدراسة تلك المشكلات كانت متباينة إلى حد بعيد .

دور الفكر التطوري

وقد تأكدت تلك الاهتمامات المشتركة بظهور كتاب تشرلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٣م) : الانحدار السلالي للإنسان وكتابه : التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوانات إذ أكد داروين فيهما على التكوينات السيكولوجية والبيولوجية لدى الإنسان وغيره من الحيوانات ، معتقداً بأن التباين في الملكات والقدرات الذهنية والانفعالية لكل منهما إنما هو تباين في الدرجة وحسب وليس تبايناً نوعياً . ولذلك فقد أثار نشر هذين الكتابين ردود فعل عنيفة ، أكثر من تلك التي صادفها نشر كتابه الأول الشهير : أصل الأنواع الذي كان عبارة عن دراسة للتطور العضوي عن طريق الانتخاب الطبيعي .

وعلى العموم ، فقد بدأ الأنثروبولوجيون والسيكولوجيون يوسعون من دائرة اهتماماتهم ، متأثرين بفكرة « التطور » التي صبغت تفكير العلماء في شتى فروع المعرفة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وذلك على الرغم من أن الفكرة ذاتها - أي فكرة التطور - ترجع إلى فلاسفة القرن الثامن عشر ، أمثال : كوندرسيه ، وجان جاك روسو ، وغيرهما ، بل هي ترجع في واقع الأمر - إلى القرن الخامس عشر كنتيجة مباشرة لعصر الاكتشافات .(٧)

وفكرة التطور باختصار ، تعني أن العالِم كان يتصور أن المجتمع (أو الثقافة أو الكائن الحي) قد سار في تطوره في خط واحد بحكم التقدم المستمر من البسيط إلى المركب ومن البدائي إلى المتحضر ، وأنه لفهم أي منها لا بد من تتبع أصوله الأولى واسترجاع خطواته التاريخية ، وذلك بغية الوصول إلى أحكام أو قوانين عامة تحكم ذلك التطور .

---

(٤) فهيم ، ص ١١٧ .

(٥) قارن : T.K. Penniman, **A Hundred Years of Anthropology**, 4th ed., (London: Duckworth, 1970), p. 8 .

(٦) أحمد عزت راجح ، **أصول علم النفس** ، ط ٩ ، (الاسكندرية : المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٣) ، ص ٣٩.

(٧) قارن أحمد أبو زيد : « التطورية الإجتماعية » مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، ١٩٧٣ ، ص ٨ . وكذلك :
G.G. Simpson, The Meaning of Evolution, 2 nd ed., (New Haven: Yale Univ. Press, 1972), pp. 100 - 101 .

وكان العالِم يتصور وجود مقياس أو متصل تقع عند أحد طرفيه أشكال النظم أو الثقافات أو الأجناس البشرية ، كما كانت عليه في أوروبا في ذلك الوقت ، وتقع عند الطرف الآخر الأشكال المخالفة لها ؛ أي أشكالها في المجتمعات البدائية المعاصرة ، بافتراض أن تلك الأشكال في المجتمعات الأخيرة تمثل المراحل الأولى أو الدنيا التي تطورت عنها الأشكال الأوروبية الحديثة . وكان العلماء يتفقون جميعاً على أن أي مرحلة لاحقة على ذلك المتصل هي بالضرورة أعلى من سابقتها وأكثر منها رقياً وتقدماً ، كما أنها تهيىء الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها.(٨)

وفي تلك الفترة التي ساد فيها التفكير التطوري ، بل وقبل ظهور كتب داروين المشار إليها ، كان كثير من الأنثروبولوجيين ذائعي الصيت ، يهتمون بقضايا سيكولوجية مختلفة . فمثلاً أدولف باستيان (١٨٢٦ - ١٩٠٥م) أشهر علماء الإثنولوجيا الألمان في ذلك الوقت ، إلى جانب اهتمامه بدراسة الأفكار الأساسية ، وأفكار الشعب ، كان مهتماً أيضاً بعلم نفس الشواذ . ويبدو ذلك واضحاً من عناوين مقالاته(٩) ، ومن بينها المقال الذي نشرته الجريدة السيكولوجية بعنوان : « ملاحظات على ظاهرة التملك »(١٠) ، وربما يبدو على العكس مما نذهب إليه هنا ما قاله ريبوت(١١) عن باستيان من أن عناوين بعض ما كتبه مبكراً كانت مضللة ، فقد كانت تلك المقالات أنثروبولوجية أكثر منها سيكولوجية . ويعزز هذا القول ما كان يعتقده باستيان نفسه من أن « علم الحياة العقلية » ينبغي أن يعتمد على البيانات الإثنوجرافية أساساً ، لأن تفكير الفرد يتكون فقط عن طريق أدائه لوظيفته من خلال « جماعة اجتماعية » .

ويبدو بوضوح هنا أن باستيان كان متأثراً بعالم النفس « الإثنوجرافي » هربارت (١٧٧٦ - ١٨٤١م) الذي اعتقد - وكانت هذه تعتبر فكرة تقدمية في عصره - أن علم النفس سيبقى قاصراً ما دام ينظر إلى الإنسان كفرد منعزل فقط ، أي بانتزاعه - عند دراسته - من مجتمعه الذي يؤثر فيه ويتأثر به ، باعتبار أن المجتمع كائن عضوي حي ، تحكمه قوانين سيكولوجية خاصة به .

ومن الطريف أن عالم الفولكلور والأنثروبولوجيا الاسكتلندي أندرولانج (١٨٤٤ - ١٩١٢) كان يقف موقفاً مغايراً ، وإن كان يؤكد في نفس الوقت على عمق العلاقة بين علم النفس والأنثروبولوجيا . فقد ذهب إلى أن الأنثروبولوجيا لن تكتمل مقوماتها إن هي أهملت ميدان علم النفس ، وعلى الأخص علم نفس التخاطر(١٢) الذي كان مهتماً به اهتماماً خاصاً ، سواء بالنسبة للإنسان « المتوحش » أو المتحضر .

كذلك نجد أن تيودور ويتز (١٨٢١ - ١٨٦٤م) حين تناول « الشخصية القومية » بيّن ما كتبه في انثروبولوجية « طبيعة الشعب » ، كان متأثراً إلى حد بعيد بعلم النفس(١٣) وكان التساؤل الأكثر إلحاحاً لديه هو : فِيمَ تكمن عوامل الشخصية القومية لدى شعب من الشعوب ؟ وكان الاعتقاد السائد حينذاك هو أن تلك العوامل تكمن أساساً في « السلالة » . لكن ويتز ذهب إلى القول بأنه ليس صحيحاً رد تلك العوامل إلى الفروق السلالية ، فقد توجد قوميات متباينة داخل المجموعة السلالية الواحدة ، بينما قد توجد قوميات متماثلة داخل سلالات متمايزة . وقد قرر أن السمات العقلية المميزة للشعوب هي العلة الأساسية لعوامل الشخصية القومية ، فتلك السمات أكثر قدرة على المرونة وعلى قبول

---

(٨) قارن احمد أبو زيد ، تايلور - من مجموعة نوابغ الفكر الغربي ، (القاهرة : دار المعارف المصرية ، ١٩٥٧)، ص ٢٤ . ثم قارن جيرار لكرك ، **الأنثروبولوجيا والاستعمار** ، ترجمة جورج كتورة ، (بيروت : معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٢) ، ص ٢٥ .

(٩) ex. Bietrage zur Vergleichenden Psychologie, according to: T. Ribot, **German Psychology Today**, (NY: Scribner, 1963), p. 11.

(١٠) المقصود بظاهرة التملك Possession هو اعتقاد بعض الشعوب البدائية بحلول روح ما في جسد أحد الأشخاص ؛ فتوجه صاحبه وتتحكم فيما يصدر عنه من افعال ، بل وأيضاً في طريقة تفكيره . ولكي يساعد ذلك الشخص الروح على التعرف على طريقها الصحيح ، فإنه ينبغي أن يقوم بممارسات وأفعال « تشنجية » معينة ، فضلاً عن العبارات المبهمة والصيغ غير المفهومة التي تصدر عنه لاشعورياً . ويقال عن مثل ذلك الشخص إنه « ملبوس » أو بالتعبير المصر الدارج (عند العامة) : « راكبه عفريت » . وللمزيد حول تلك الظاهرة ، وعلى وجه الخصوص في أفريقيا انظر :

B. G., Sundkler. **Bantu Prophets in South Africa**, (London: Oxford Univ. Press, 1971), pp. 18 - ff.

(١١) Ribot, P. 113 .

(١٢) يعني التخاطر Telepathy مقدرة العقول على الاتصال فيما بينها عن بعد .

(١٣) قارن : Th. Waitz, **Introduction to Anthropology**, Trans. (London: Roberts and Green Press, 1974).

التغير ـ ولو بدرجة طفيفة وإنْ كانت مستطردة باستمرار ـ من السمات الفيزيقية المتعلقة بالسلالة .

ويبدو أن ما كتبه ويتز عن « الشخصية القومية » ، كان رداً ناقداً على الأفكار العنصرية التي سادت في الكتابات التي سبقته ، مثل كتاب جوستاف كليم (١٨٠٢ ـ ١٨٦٧م) عالِم الأنثروبولوجيا الألماني ، والمعنون : تاريخ الثقافة ، والذي أوضح فيه أن الجنس البشري ينقسم إلى فئتين سلاليتين كبيرتين إحداهما سلبية ، ليس لها القدرة على الخلق والإبداع ، وتتميز بالكسل والاستسلام والخضوع ، والأخرى إيجابية قادرة على الابتكار والتطوير ، وتتميز بالقدرة على

الاختبارات النفسية ، أياً كان نوعها ، وعلى وجه أخص اختبارات الذكاء التي كانت تعد ـ في نظرهم ـ وسائل غير موثوق فيها لتحديد التمايزات العقلية الفطرية التي يمكن أن تُعزَىٰ إلى السلالة . لكن بعد أن تم جمع كثير من البيانات ، وتحددت كثير من القضايا المتمايزة في مجالات علم النفس المختلفة ، انعكس ذلك ـ وبتزايد مستمر ـ على أهم بيانات الأنثروبولوجيين وعلى اهتماماتهم ونتائجهم الخاصة ، حتى إن المبادىء التي صاغها وليام ماكدوجال وغيره من العلماء النفسيين ، كانت وثيقة الصلة بالمعلومات والتقديرات الأنثروبولوجية ، وإنْ كان هذا لا يعني صراحة ، أن كثيراً من الأنثروبولوجيين لم يترددوا في تكوين آراء مستقلة بعيدة كل

يستطيع أن يفرق بين التنظيم الاجتماعي لسكان جزر التروبرياند البدائيين وبين مثيله لدى المجتمعات الأوروبية المتحضرة. لقد كان تفسير مالينوفسكي للمحرمات الجنسية في مجتمع التروبرياند تفسيراً أنثروبولوجياً وظيفياً ، فتلك المحرمات (في رأيه) هي وسيلة يلجأ إليها المجتمع لتنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء من الأقارب الأقربين والأبعدين (في العائلة الواحدة وفي خارجها) ، فتحريم مثل تلك العلاقات داخل الأسرة يمنع ما قد ينشأ من صراعات داخلية بسبب الغيرة والتنافس ، ومن ثم يمنع تهدم الأسرة فالمجتمع ككل . وهذا التفسير مغاير تماماً للتفسير السيكولوجي الذي لجأ إليه جونز ـ اعتماداً على فرويد ـ من أن مجتمع التروبرياند ـ وفقاً لتابو الجنس في الأسر ـ يعاني من عقدة أوديب بمعنى أن يغار الإبن من أبيه إزاء علاقتهما بالأم .(١٩)

ورغم ذلك ، فإن مالينوفسكي كان قد فحص أعمال فرويد واهتم بكتاباته عن المحرمات الجنسية ووافقه فيما يتعلق بالأحلام في إطار المادة الإثنوجرافية التي جمعها من جزر التروبرياند ، فقد ذهب إلى أن الأحلام تضطلع بوظيفة مهمة هي التخفيف من حدة التوترات المكبوتة .(٢٠)

وعلى العموم فإنّ دراسة مالينوفسكي لسكان جزر التروبرياند قد مهّدت الطريق لظهور الأنثروبولوجيا السيكولوجية فيما بعد ، والتي تجمع بين مفهومات علم النفس عن الشخصية من ناحية ، وبين مفهومات الأنثروبولوجيا عن الثقافة من الناحية الأخرى(٢١) وهو موضوع سنعود للحديث عنه فيما بعد .

ويهمنا هنا أن نعرض لواحد ممن يعتبرون في التاريخ الأنثروبولوجي مثالاً صادقاً وتجسيداً حياً للفكر التطوري ، وهو : سير جيمس فريزر (١٨٥٤ ـ ١٩٠١م) صاحب كتاب « الغصن الذهبي » ، الذي يعد ـ رغم كثرة ما وجه إليه من نقد ـ من أعظم الكتب الأنثروبولوجية الثقافية التي ظهرت في القرن الماضي (١٨٩٠م) ، وقد أعيد طبعه عدة مرات ، كما ترجم جزء منه إلى العربية .(٢٢)

وما يهمنا من هذا الكتاب هو أنه قد أظهر بوضوح سير جيمس فريزر وهو متأثر إلى حد بعيد بعلم النفس ، بل إنه بدا مولعاً بالتأويلات السيكولوجية لكل البيانات الإثنوجرافية التي كان يتعامل معها . فعند فحص أعماله عن « التابو » و « التوتمية » وتطور السحر والدين والعلم ، ومن خلال نظرياته التي أثرى بها الأنثروبولوجيا التطورية ، نجده مدركاً لقضايا علم النفس الاجتماعي ، كما أن نظريته في السحر كنتيجة مباشرة لترابط الأفكار أو لتداعي المعاني ، وفروضه الثلاثة المتعاقبة عن أصل ونشأة التوتمية والتي تدور حول الاعتقاد في « الروح الخارجية » ، وفي « الحافز السحري للإخصاب » ، وفي « التجسد الحيواني » ، كلها تدخل بالضرورة في مجال علم النفس الفردي .

وفضلاً عن كل ذلك فإن فريزر كان قد نشر مقالاً في عام ١٩٢٢م بعنوان : « مجال ومنهج العلم العقلي والأنثروبولوجي »(٢٣) ، يؤكد فيه على اهتمامه بقضية سيكولوجية مهمة هي قضية النمو العقلي . فقد كان فريزر إلى جانب اهتمامه بدراسة الأوضاع الاجتماعية والثقافية للشعوب البدائية ، شغوفاً بدراسة الأحوال العقلية للسلالات المختلفة من الجنس البشري ، وعلى وجه الخصوص مقارنة السلالات الأكثر تقدماً ورقياً بالسلالات الأكثر بدائية ، وذلك من خلال تتبعه للتطور العام للفكر الإنساني في مجمله ، خصوصاً في مراحله الأولى .

= قول جونز فإنّ المجتمعات التي تتبع قاعدة الانحدار Patrineality في خط الذكور (المجتمعات الأبوية) تعاني بالضرورة من عقدة إلكترا Electra complex ؛ قارن :

G. Lindzey, «Some remarks Concerning Incest, The incest taboo and psychoanalytic theory», **American Psychologist**, Vol. 22, 1967, pp. 151 - 159.

ثم قارن سيجموند فرويد ، **الذات والغرائز** ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١م) ، ص ٦٤ .

(١٩) انظر : Hallowell, **Contribution** p. 183.

(٢٠) Hallowell, **Contribution** p. 182 .

(٢١) F.L.K.: H SU, **Psychological Anthropology : Approaches to Culture and Personality**, 2 nd et., (Homewood : Dorsey Press, 1961), 1971) .

(٢٢) سير جيمس فريزر ، **الغصن الذهبي ـ دراسة في الدين والسحر** ، مترجم بإشراف أحمد أبو زيد ، الجزء الأول (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١م) .

(٢٣) «Scope and Method of Mental and Anthropological Science», **Science Progress**, Vol. 16, 1922, pp. 580 - 594 .

وربما يعود ذلك إلى أن فريزر كان ينظر إلى العلم الذي يتناول الإنسان نظرة خاصة باعتبار أن له إسهاماً سيكولوجياً محدداً . فالإنسان في نظره هو جسم وعقل ، فإذا كانت دراسته الجسمانية هي قاسم مشترك بين علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ، فإن دراسته العقلية هي بالمثل موضوع متبادل بين الأنثروبولوجيا العقلية والأنثربولوجيا الاجتماعية .

ويبدو واضحاً تأثر فريزر بعلم النفس حين قرر أن البيانات الإثنوجرافية وحدها لا تستطيع أن تسهم في حل قضية النمو العقلي(٢٤) ، وأنه لا بد من الاهتمام بدراسة « نمو الطفل » بل وأيضاً دراسة « نزلاء المصحات العقلية » إذا ما أريد حل لتلك القضية . ويضيف فريزر بأنه استدلال منطقي ، أن التطور الجسدي للأجنة في الرحم ، مثلما يعيد إلى حد ما صورة التطور الجسدي للأسلاف من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية ، فإن تطور عقول الأطفال منذ النشأة الأولى لمشاعرهم في المرحلة الجنينية وحتى الرشد الكامل في مرحلة البلوغ ، يعيد إلى حد ما صورة التطور العقلي للأسلاف ، في حقب تاريخية ضاربة في أعماق الزمن . ويعزز هذا الاستدلال « التناظر الوظيفي » الذي كان يعقد غالباً بين فكر وسلوك الأطفال من جهة ، ومثيليهما لدى « المتوحشين » من الجهة الأخرى . لذلك فإن هناك أرضاً صلبة تقف عليها الحقيقة القائلة بأن أشكال التفكير (أو العقل) لدى المتوحشين - في رأيه - تماثل تماماً أشكالها لدى الأسلاف البدائيين للسلالات المتحضرة المعاصرة . وعلى هذا ، فإن الدراسة الواعية لنمو الذكاء والمشاعر المعنوية لدى الأطفال - طبقاً لما ذهب إليه - تسمح بإلقاء مزيد من الضوء على تطور الذكاء والمشاعر لدى السلالة .(٢٥)

وعلى الرغم من اهتمامات فريزر السيكولوجية ، وبخاصة اتجاهه نحو علم النفس الترابطي ، فإنه كان ينفر نفوراً شديداً من « التحليل النفسي » ، إلى الحد الذي وصل فيه إلى تجاهله تماماً ، حتى إنه - كما قال - لم يقرأ لفرويد (أو لمدرسته) أيّاً من أعماله ، في حين أن إسهامات فرويد الأنثروبولوجية قد قامت أساساً على أعمال فريزر ؛ كمحاولة ربطه بين العصابي والمتوحش ، مثلاً ، وإن كان فرويد بالفعل لم يهتم بتأثير النظم الاجتماعية في الفرد ، على النحو الذي كان ينحوه فريزر(٢٦) وكذلك السيكولوجي كارل يونج ، الذي أدخل المفهومات الروحية والدينية عند دراسته للاشعور .(٢٧)

وعلى العموم ، فإن فريزر قد قدم إلى علم النفس إسهاماً قيِّماً ؛ فالنظير السيكولوجي للمدخل التطوري واسع المدى الذي قدمه ؛ هو علم النفس المقارن ، أو علم النفس التطوري ، أو علم نفس النمو ، مهما اختلفت المسميات .

ولعل فريزر كان صادقاً بالفعل مع نفسه حين ادَّعى أن البيانات الإثنوجرافية أحياناً تكون قاصرة ، ولَظَلّ محقاً لو إنه ذهب إلى أن تلك البيانات قد تكون مضللة أيضاً . فلقد كان يعتمد على الكتابات والتقارير التي قام بجمعها الرحالة والمبشرون - وجميعها في الأغلب غير دقيقة - ولم يقم هو بنفسه بجمع تلك البيانات . وهو في ذلك يماثل معظم العلماء في ذلك الحين أمثال ماكلينان وشميدت بل وأيضاً دوركايم . فجميعهم لم يزوروا قط أياً من القبائل البدائية التي كانوا يتحدثون عنها ، والقليل منهم - أمثال باستيان وتايلور - قاموا برحلات سريعة زاروا خلالها عدداً كبيراً من الشعوب والقبائل ، بيد أنهم لم يقوموا بدراسة منهجية مركزة، وهي التي تعتبر الآن شرطاً جوهرياً لكافة البحوث والدراسات الانثروبولوجية التي تعد لها قيمة علمية .(٢٨)

التطورات اللاحقة (الحديثة)

وفي الحقيقة يرجع الفضل في توجيه الأنظار إلى ضرورة

---

(٢٤) سنعود لمناقشة ذلك فيما بعد .

(٢٥) B. Malinowski, **A Scientific Theory of Culture and Other Essays,** (London: Oxford Uni . Press, 1960) .

(٢٦) قارن : Hollowell, **Contribution,** p. 167.

(٢٧) انظر مادة « علم النفس التحليلي » في محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتّاب ، ١٩٧٩) ، ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢٨) قارن أحمد أبو زيد : « الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع » ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر ، ١٩٥٦ ، ص ص ٨٥ - ٩٩ ، ص ص ٩٥ - ٩٦ . وكذلك انظر :

P. J. Pelto, and G. H. Pelto, **Anthropological Research; The Structure of Inquiry,** (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1978), pp. 177 - ff.

القيام بمثل تلك الدراسات الميدانية المركزة إلى بعثة جامعة كمبردج البريطانية برئاسة عالم الحيوان إدوارد هادون في أواخر القرن الماضي ، لدراسة جزر مضايق تورس الواقعة في المحيط الهادي بين غينيا الجديدة وشمالي استراليا(٢٩) ، ولا يهمنا من أمر تلك البعثة هنا أكثر من أنها كانت خير دليل على عمق العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس . ومن الظريف أن تلك البعثة لم تكن تضم أي انثروبولوجي ، وإنْ كان قد أضحى معظم أعضائها فيما بعد من أعلام الأنثروبولوجيا .

فمثلاً وليم ريفرز (١٨٦٤ - ١٩٢٢م) كان طبيباً وعالماً نفسانياً ؛ درس في ألمانيا ثم راح يحاضر في سيكولوجيا الحواس في كمبردج . وكان مهتماً اهتماماً خاصاً ببحث حاسة الإبصار لدى الوطنيين ؛ حدة الإبصار ، عمى الألوان ، مصطلحات الألوان المستخدمة ، القدرة على تفسير خداعات البصر . . . وقد استمر بعد عودته من البعثة يمارس عملاً سيكولوجياً مصبوغاً بصبغة إثنولوجية مقارنة(٣٠) ، ويبدو ذلك واضحاً في رحلاته إلى اسكتلندا ومصر ثم إلى التودا جنوبي الهند .

وقد كرس ريفرز وقته في بحث نظرية الانتشار التي قدمها إليوت سميث وبيري ، لكنه لم يكن مدركاً - على نحو ما ذهب هالويل(٣١) - لأنواع القضايا التي أصبحت أخيراً بؤرة اهتمام الدراسات التي تتناول الشخصية والثقافة ، وإنْ كان قد أحرز نجاحاً في نظرية التحليل النفسي .

والأهم من ذلك كله ، أن ريفرز كان مقتنعاً بأن أفضل تدريب لجامع البيانات الميداني ، هو ذلك الذي يحصل عليه من خلال معمل علم النفس حتى لو كان بعيداً تماماً عن بحث المشكلات النفسية في ذاتها . وقد تبع ريفرز في ذلك عالم النفس سير بارليت ، الذي كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالأنثروبولوجيا(٣٢) ، فقد كان يرى هو الآخر أن على الأنثروبولوجي - لكي يتمكن من تقديم إسهامات أصيلة من خلال عمله - أن يقضي ستة أشهر على الأقل في المعمل السيكولوجي ، ويفضل أن تكون تلك الفترة في المراحل الأخيرة من تدريبه .

أما سلجمان - وهو عضو آخر من أعضاء البعثة - فكان متخصصاً في الباثولوجيا والأمراض المتوطنة ، ثم أصبح فيما بعد من أشهر الشخصيات في عالم الأنثروبولوجيا . وكان مهتماً - إلى جانب عمله كطبيب بالبعثة - بالبحوث الإثنولوجية والسيكولوجية . كما كان يرى أهمية الدراسة السيكولوجية للشعوب البدائية . وقد أتاحت له عضويته الأكاديمية هو وزوجته برندا في مستشفى « ماجهول » خلال الحرب العالمية الأولى ، الفرصة للاستزادة من علم النفس وطرق العلاج النفسي الجديدة وخصوصاً عن طريق التحليل النفسي الذي كان وقتذاك يفتقر بشدة إلى الإحساس العلمي ، وأمكنه بذلك أن يحقق نجاحاً في تفسير البيانات الإثنولوجية في ضوء النظريات السيكولوجية .

وكان عالم النفس الشهير وليام مكدوجال عضواً أيضاً في بعثة جامعة كمبردج ، وقد نوهنا من قبل إلى أن المباديء التي صاغها مع غيره من علماء النفس كانت هادياً ومرشداً للكثيرين من الأنثروبولوجيين حينذاك . ومن ناحية أخرى ، فقد كان هو نفسه مقتنعاً بأن التقدم المهم الذي حققه علم النفس ، يرجع الفضل فيه إلى الإدراك المتزايد بأن العقل الإنساني الناضج هو نتاج التأثير المستمر الذي تمارسه البيئة الاجتماعية ، كما أن التكوين الأخلاقي للفرد لا يتم إلاّ من خلال المجتمع الذي ولد فيه .(٣٣)

وعلى العموم ، فهناك كثير من الأنثروبولوجيين الثقاة الذين تأثروا تأثراً بالغاً بالاتجاهات السيكولوجية لسابقيهم . ومن بين هؤلاء رادكليف براون . (١٨٨١ - ١٩٥٥م) - أحد مؤسسي

(٢٩) انظر أبو زيد ، الطريقة الأنثروبولوجية ، ص ٩٧ . وكذلك :

A. Issa, **Social Anthropology**, (Dar El-Maareef, 1964), p. 72.

(٣٠) مما له دلالته هنا تساؤله : كيف يمكن تفسير أعمال العقل البشري دون الرجوع إلى الوسط الاجتماعي الذي يلعب دوراً مهماً في تحديد العواطف والآراء ؟ قارن :

W.H.R. Rivers, « Sociology and psychology», **Social Rev.**, Vol. 9, 1916, pp. 1 - 13 .

(٣١) انظر : Hallowel, Contribution, p. 190 .

(٣٢) قدم بارليت مع ريفرز كتاباً سيكولوجياً انثروبولوجياً عام ١٩٢٣ بعنوان : علم النفس والثقافة البدائية (طبقاً لهالويل . Hallowell, **Contribution**, p. 189

(٣٣) قارن :

A. I. Hallowell, «Personality, culture and society in behaviour Evolution», in: **Contributions to Anthropobgy**, op. cit., pp. 230 - 310.

المدرسة الوظيفية البنائية ـ فقد كان تلميذاً لكل من هادون وريفرز ، لكن لأنه كان مستغرقاً في مشكلات التنظيم الاجتماعي ، والبنائية ، والوظيفية ، فإن ذلك قد حجب عنا حقيقة أن كتابه الأول : سكان جزر الأنداماني(٣٤) كانت له رؤية سيكولوجية خالصة ، وخصوصاً في فصليه الخامس والسادس . فالفصل الخامس تناول على سبيل المثال الدلالة السيكولوجية للطقوس مع الإشارة إلى دورها في التعبير الجمعي . والفصل السادس عالج الدور الذي تلعبه الأساطير والخرافات في الحياة العقلية لسكان تلك الجزر . وإجمالاً ، فإن رادكليف براون أراد أن يُظهِر من خلال ذلك الكتاب أن الوظيفة الاجتماعية للعادات الشعائرية لسكان جزر الأندامان هي تعزيز « الميول الانفعالية » التي يعتمد عليها المجتمع في وجوده عبر الزمان .

وقد نوّه رادكليف براون فيما بعد(٣٥) إلى أنه ينبغي حين ندرس الشعوب الأكثر تقدماً ، كالشعب الفرنسي أو الألماني أو الأمريكي ، أن نتعامل مع الهمات السيكولوجية (أي العقلية والسلوكية معاً) التي تنجم عن اشتراك كل منهم في نسق اجتماعي بعينه كأعضاء في جماعة اجتماعية محددة أو في مجتمع محلي أو طبقة اجتماعية داخل ذلك المجتمع ، وهو نفس المدخل الذي كان يتبعه علماء النفس الوظيفيون الذين ركزوا اهتمامهم على عمليات المواءمة السيكولوجية مع البيئة .(٣٦)

ومن ناحية أخرى ، كان ألفريد لويس كروبر (١٨٧٦ ـ ١٩٦٠م) قد درس علم النفس على يد كاتيل ، قبل أن يتلقى دراسته في الأنثروبولوجيا ، كما أنه خاض غمار التحليل النفسي لوقت قصير ثم سرعان ما ابتعد عنه ، وراح يهاجم البيانات التاريخية التي لجأ إليها فرويد في نظرياته ، باعتبارها بياناتٍ تخمينية أو تاريخاً ظنياً ، مدعياً بأنه ليس من اختصاص السيكولوجيين أن يدخلوا مجال التأريخ ، إلاّ إذا كان اهتمامهم هو التمييز بين النماذج الثقافية التي يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة للشعوب ، وبذا يفقدون هويتهم السيكولوجية ويصبحون إثنولوجيين .

ومع ذلك ، فإنّ كروبر قد ذكر أن فرويد قد أسدى خدمة جليلة للأنثروبولوجيا بمفهوماته عن الكبت والنكوص ورمزية الأحلام وغيرها من مفهومات مدرسة التحليل النفسي ، باستثناء مفهومي الأنا الأعلى ومركب الإخصاء . وقد حذر أخيراً من تجاهل الأنثروبولوجيين للتأويلات السيكولوجية ، على الرغم من أنه كان مهتماً أساساً بالأشكال والعمليات الثقافية وليس الفرد . ولعل من أهم إسهاماته الموزعة بين علم النفس والأنثروبولوجيا هو ربطه بين الثقافة والفرد فيما يعرف بالمفهوم « الثقافي السيكولوجي المشترك » .(٣٧)

ونفس الاتجاه نجده عند روبرت لوي الذي عارض محاولات الفصل بين الناحيتين التاريخية والسيكولوجية في دراسة الثقافة ، فهو يرى أنهما جانبان متكاملان سواء كان ذلك بالنسبة للثقافات « الراقية » أو « البدائية » .(٣٨)

ومهما يكن من شيء ، ففي أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من هذا القرن ، بدأ العلماء ـ وعلى وجه الخصوص الأمريكيون ـ من كلا الجانبين يتجهون اتجاهين مختلفين ، أحدهما يهتم بمسألة التباين في العمليات الادراكية العقلية (ثم بعد ذلك في الحالات الانفعالية والوجدانية) فيما بين الجماعات المختلفة ، معتمداً على نظريات علم النفس ، وأساساً التحليل النفسي ؛ والثاني اهتم بموضوع التباين في القيمة التي تفرضها الثقافات المختلفة على الأفراد معتمداً على ما وصلت اليه الأنثروبولوجيا من مبادىء وأطر نظرية ، وخصوصاً الإنثروبولوجيا الثقافية .

ثم سرعان ما انبثق عن هذين الاتجاهين اتجاه ثالث قوي ، اهتم بدراسة « الشخصية » في علاقتها « بالثقافة » ، عن طريق تحليل العلاقات بين الثقافة والفرد .(٣٩)

(٣٤) A.R. Radcliffe - Brown, **The Andaman Islanders**, (U.S.A. The Free Press, 1948).

(٣٥) A. R. Radcliffe- Brown, Method in Social Anthropology, (Chicago: Univ. Chicago Press, 1958).

(٣٦) قارن : Lwie, p. 142

(٣٧) Hallowell, Personality, p. 310 .

(٣٨) انظر أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعي ـ مدخل لدراسة المجتمع ـ الجزء الأول المفهومات ، ط ٣ ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠) ، ص ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٣٩) أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، ص ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

والحقيقة أن الفضل يرجع إلى عالم النفس الأمريكي الشهير جوردن ألبورت في إدخال موضوع الشخصية ضمن المجالات المتخصصة في علم النفس ، فقد كان لكتابه : الشخصية ، الذي نُشر عام ١٩٣٧ ، وأعيد طبعه منقحاً عام ١٩٦١م تحت عنوان : نمط ونمو الشخصية(٤٠) ، أصداء واسعة لدى السيكولوجيين ، لكن كان هناك على الجانب الآخر من أمثال « سابير » من نبه الى أهمية ربط الثقافة بالفرد ودعا الى ضرورة توجيه الإنثروبولوجيا اهتمامها الى الفرد وأفكاره ومشاعره ، وعدم تركهذا الموضوع لعلماء النفس وحدهم .(٤١)

وعلى العموم فإنه في باديء الأمر ، كان موضوع الثقافة والشخصية ـ حتى داخل كل فريق من الأنثروبولوجيين أو السيكولوجيين على حدة ـ يبدو وكأنه يقف عند طرفي نقيض ؛ فبعض وجهات النظر تعطي وزناً كبيراً للمعطيات البيولوجية ودورها في تشكيل الشخصية وتوافقها ، بينما وجهات النظر الأخرى كانت تغفل عن عمد دور القوى البيولوجية وتؤكد على الخبرة والتنشئة الاجتماعية والثقافة عموماً .(٤٢)

فمثلا نظر سيجموند فرويد إلى المراحل النفسية والجنسية باعتبارها أنماطاً عامة قد حُددت بيولوجياً ، بحيث إنها توجد بصرف النظر عن النظام الاجتماعي الذي تنمو من خلاله . وعلى سبيل المثال ، فإنه قد نظر إلى عقدة أوديب باعتبارها نتاجاً للقوى البيولوجية (وحدها) . ومن داخل المدرسة الفرويدية « المحدثة » نفسها ، كانت كارن هورني تقف موقفاً مضاداً ، فقد كانت ترى أن جذور العقدة الأوديبية تكمن في البناء الاجتماعي للأسرة . وكذلك كان موقف إريك فروم الذي رفض النظرية النفسية الجنسية ، ونظر إلى الشخصية باعتبارها نتاج القوى الثقافية .(٤٣)

لكننا هنا نود أن نؤكد على أن التباين في وجهات النظر ، لم يؤد في يوم ما إلى الانحياز التام إلى العوامل النفسية وحدها أو الثقافية وحدها ، أو بمعنى آخر لم يؤد إلى عزل بعض العوامل عن الأخرى تماماً . فالموضوع يبدو . وكأنه يقع على متصل أو ممتد ، وأن رأياً أو آخر يتدرج على هذا الممتد مقترباً من أو مبتعداً عن هذا القطب (عوامل معينة) أو ذاك (العوامل الأخرى) ، وهو الاتجاه الذي أبرز بحق عمق العلاقة الإيجابية بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس . وحسب التعبير الذي شاع أخيراً في كثير من الكتابات الأنثروبولوجية الأمريكية يطلق على هذا الاتجاه : الاتجاه السيكو ثقافي ، وهو ما يبدو بوضوح في بعض أعمال جولدنفايزر الذي ينعي على العلماء الذين ينهجون نهجاً تاريخياً خالصاً في تأويلهم للثقافة إغفالهم دراسة العناصر السيكولوجية .(٤٤)

وعلى العموم ، فإن روث بندكت وزميلتها مارجريت ميد تفرضان نفسيهما هنا ، إذ أنهما تعتبران خير مثال لتلك العلاقة الإيجابية .

فقد استطاعت بندكت (١٨٨٧ ـ ١٩٤٨م) من خلال كتابها الشهير : أنماط الثقافة(٤٥) أن تجمع بين مفهومات علم النفس الفردي عن الشخصية وبين مفهومات الأنثروبولوجيا عن الثقافة . وكان الموضوع الرئيس الذي يشغلها هو تأكيد أن لكل ثقافة سمات عامة معينة تميزها عن غيرها من الثقافات (مبدأ النسبية الثقافية) . وقد أظهرت بندكت بما لا يدع مجالاً للشك أهمية الثقافة كعامل محدد لشخصية حامليها ، وهو الاتجاه الذي يتبعه حتى الآن العلماء الغربيون ، والأمريكان على وجه الخصوص .

وربما ترجع أهمية هذا الكتاب أساساً إلى أنه يعتبر بحق رائد الكتب التي جمعت بين الدراسات التي تتناول الثقافة والشخصية معاً باعتبارها علماً بمعنى الكلمة ، فإلى جانب أن بندكت قد حددت فيه موضوع العلم ، حددت أيضاً منهجه ، فقد جمعت بين طرق التحليل النفسي للشخصية ، والدراسة

---

(٤٠) G. W. Allport, Pattern and Growth in Personality, (NY: Holt, Rinehart and Winston Press, 1961).

(٤١) قارن عاطف وصفي ، الأنثروبولوجيا الثقافية ـ دراسة ميدانية للجالية اللبنانية الإسلامية بمدينة ديربورن الأميركية ، (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧١) ، ص ٥٦ .

(٤٢) ريتشارد س . لازاروس ، الشخصية ، ترجمة سيد محمد غنيم ومراجعة محمد عثمان نجاتي ، ط ١ ، (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١) ، ص ٢٠٨ .

(٤٣) قارن لازاروس ، ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٤٤) أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، ص ٢٣١ .

(٤٥) R. Benedict, Patterns of Culture, 7th ed, (London: Routledge and Kegan, 1976).

الميدانية للثقافة . صحيح أنها لم تقم بنفسها بدراسات ميدانية لكل القبائل التي تحدثت عنها في كتابها ، لكنها مع ذلك قد اعتمدت على انثروبولوجيين ميدانيين في مدِّها بالمعلومات الإثنوجرافية عن بعض تلك القبائل . فهي مثلاً اعتمدت على دراسة روث بانزل عن قبائل الزوني (بويبلو) بجنوب غربي الولايات المتحدة (نيومكسيكو) ، وعلى ريوفورتشن لقبائل دوبو بميلانيزيا (غينيا الجديدة) ، وكذلك على أستاذها فرانز بواس في دراسة قبائل كوكيوتل (بجزيرة فانكوفر) بالقرب من الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة ، فضلاً عن دراستها التي كانت قد قامت بها ونشرتها من قبل .

وكذلك فعلت مارجريت ميد (١٩٠١ - ١٩٧٩م) في كتابها : من بحار الجنوب - دراسات عن المراهقة والجنس في مجتمعات بدائية(٤٦)، فقد جمعت في هذا الكتاب ثلاثة من أهم البحوث التي كانت قد سبق أن نشرتها ؛ الأول عن البلوغ في ساموا ، والثاني عن النمو في غينيا الجديدة ، والثالث عن الجنس والمزاج في ثلاثة مجتمعات بدائية (أرابتش - مندجوم - تشامبلي) ، وكلها بحوث اعتمدت على الجمع بين الطريقة الأنثروبولوجية في البحث ، ومناهج البحث السيكولوجية ، وعلى الأخص المنهج الجشتالتي الذي يرى الظواهر باعتبارها وحدات كلية منظمة وليست مجموعات من عناصر وأجزاء متراصة .

ولكن الأهم من ذلك كله ، هو أنه قد قام فيما بعد (خلال الأربعينيات) تعاون وثيق بين السيكولوجيين والأنثروبولوجيين ، وتمثل ذلك في إجراء دراسات وتحليلات مشتركة . فمثلاً اشترك العالم النفسي إبرام كاردنر مع الأنثروبولوجي رالف لينتون (١٨٩٣ - ١٩٥٣م) في طرح مفهوم بناء الشخصية الأساسي الذي يشير إلى مجموعة من الخصائص السيكولوجية والسلوكية التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التي تؤلف أي ثقافة . ويبدو التعاون هنا واضحاً عندما يقوم كاردنر بتحليل البيانات التي جمعها لينتون من عدد من الثقافات البدائية ويضع لها بعض المدلولات لتفسيرها سيكولوجياً .(٤٧)

وعلى العكس من ذلك كله ، كان يقف عالم الأنثروبولوجيا الانجليزي إيفانز بريتشارد محذراً من محاولة اللجوء إلى تفسير الحقائق الاجتماعية في ضوء علم النفس . فقد كان يرى أن علم النفس والأنثروبولوجيا يدرسان نوعين مختلفين من الظواهر ؛ فالأول يدرس الحياة الفردية أو الأنساق النفسية بينما الآخر يدرس الحياة الجماعية أو الأنساق الاجتماعية . وقد يلاحظ العالم النفسياني وعالم الأنثروبولوجيا نفس الأفعال في السلوك الواقعي ولكنهما - في نظره - يدرسان تلك الأفعال على مستويات مختلفة من التجريد . أي انه باختصار كان يرى أن ما يدرسه أحدهما لا يمكن أن يكون مفهوماً على أساس النتائج التي توصل إليها الآخر.(٤٨)

ومع ذلك ، فيبدو أن مثل تلك الدعوة لم تعد تجد لها صدى الآن بعد أن نجح الأنثروبولوجيون الأمريكيون في الاستفادة من نتائج علم النفس . ومع أن عدداً من العلماء يوافقون ايفانز بريتشارد ويقبلون وجهة نظره عن وجود فارق واضح بين الثقافة والسيكولوجيا ، وأن الربط بين الاثنين قد يؤدي إلى تغيير مستوى التفسير ورد الثقافة إلى العوامل السيكولوجية أو أحياناً رد النواحي السيكولوجية إلى الثقافة ، فإنّ هؤلاء العلماء أنفسهم يرون في الوقت نفسه أن محاولات التفسير أو التأويل التي تتجاهل العلاقة بين الثقافة والإنسان ، هي محاولات فاشلة وناقصة.(٤٩)

وعلى العموم ، فلقد توالى العديد من البحوث - على الأقل في الولايات المتحدة - في مجال الأنثروبولوجيا السيكولوجية ، وكلها تؤكد على ضرورة التعاون بين الأنثروبولوجيين والسيكولوجيين .

ومن بين هذه البحوث ، قامت دراسة استغرقت نحو خمسة عشر عاماً ، وجمعت بين اثنين من علماء النفس هما سيجال وكامبل ، وثالث أنثروبولوجي هو ميلفن

(٤٦) M. Mead, **From the South Seas; Studies of Adolescence and Sex in Primitive Societies**, (NY: Penguin Books, 1942).

(٤٧) قارن : فهيم ، ص ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤٨) قارن بريتشارد ، ص ص ٦٤ - ٦٥.

(٤٩) أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، ص ٢٢٦.

هيروسكوفيتس (١٨٩٥ - ١٩٦٣م) إلى جانب ٢٦ باحثاً ميدانياً ، وكانت تدور حول تأثير العوامل البيئية والثقافية في إحدى العمليات النفسية الأساسية . وعلى الرغم من أن نتائج تلك الدراسة - التي ظهرت عام ١٩٦٦م - كانت محدودة (التأثير الثقافي في الإدراك البصري)(٥٠) إلّا أنها تشير إلى أهمية العلاقة الإيجابية بين علم النفس والأنثروبولوجيا .

وقد برز في الآونة الأخيرة ، خاصة في الولايات المتحدة ، تحت تأثير الحركة النسائية التحررية ، مجال جديد في الأنثروبولوجيا ، هو مجال « الدراسات النسائية » ، وهو يركز على الموضوعات التي تتصل بمنشأ وتطور ظاهرة توزيع الأدوار والمكانات الاجتماعية بين الذكور والإناث عبر التاريخ ، وهو مجال يجمع بين الأنثروبولوجيين ونظرائهم السيكولوجيين .(٥١)

أضف إلى ذلك ، القضايا التي جمعت ، وتجمع الآن ، كلا الفريقين معاً ، كما رأينا مثلاً في موضوع الشخصية ونظرية واختبارات الشخصية ، أو كما هو حادث في مجال التربية ونظرية التعلم ، والدراسات الدائرة حول مظاهر السلوك والطبيعة الإنسانية على وجه العموم . . .

لقد مضى وقت طويل ، اكتفى فيه السيكولوجيون بالاهتمام بمشكلات السلوك الفردي في المقام الأول ، وقنع الأنثروبولوجيون بوضع تعميمات جماعية على أسس ثقافية بحتة ، وفي نفس الوقت أجروا مقارنات قوضت دعائم بعض النظريات التي كانت شائعة في علم النفس(٥٢) إلّا أن الاعتماد المتبادل والمتزايد بين الفريقين قد أصبح مطلباً أساسياً في عالم يشهد تغيرات متلاحقة ومكثفة ، لم يشهد مثلها الإنسان في أي عصر من العصور . صحيح أن المجتمع الإنساني في انتقاله من عصر إلى عصر خلال تاريخ البشرية قد مر بثورات وتقلبات وتغيرات جذرية ، لكن كل ذلك كان يتم في فسحة من الوقت وبطريقة تدريجية إلى حد كبير ، الأمر الذي ساعد الإنسان على تقبل تلك التغيرات ومعايشتها والاستفادة منها بطريقة إيجابية .(٥٣)

أما إنسان العصر الحالي ، وفي خضم الاختراعات التكنولوجية المتطورة وانهيار القيم التقليدية المتوارثة ، والأزمات المتراكمة والمتلاحقة التي يمر بها العالم اليوم ؛ كنضوب موارد الطاقة وتلوث البيئة والانفجار السكاني ونقص الغذاء والحروب الأهلية . . . فإنه قد فَقَدَ نفسه تماماً ، الأمر الذي قد يدفع به إلى الهاوية أو إلى كارثة الكوارث(٥٤) حتى إن الكثيرين اليوم راحوا يحلمون بالارتماء في أحضان الطبيعة والعودة إلى حياة البساطة « البدائية » باعتبارها الملاذ الأخير من داء عضال اسمه « المدنية الحديثة » .(٥٥)

وأياً ما كان الأمر ، فإن تضافر جهود العلماء على إطلاقهم ، وليس فقط الأنثروبولوجيين والسيكولوجيين ، قد أضحى ضرورة ملحة الآن عن أي وقت مضى ، لإنقاذ الحضارة البشرية من الاندثار ، على يد صانعها . . الإنسان .

---

(٥٠) قارن رالف بيلز وهاري هويجر ، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، ترجمة محمد الجوهري والسيد محمد الحسيني ، (القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٦) ، ص ص ١٢٣ ، ١٣٣ .

(٥١) قارن عادل عز الدين الأشول ، سيكولوجية الشخصية ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨) ، ص ص ٢٢٨ - ٢٣٠ . وكذلك فهيم ، ص ٢٣٧ .

(٥٢) بيلز وهويجز ، ص ٣٢ .

(٥٣) فهيم ، ص ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٥٤) فهيم ، ص ٢٧٥ .

(٥٥) G. G. Simpson, The Meaning of Evolution, 3rd Print (New Haven, US.: Yale Univ. Press, 1980), p. 101.

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ٣٢١ - ٣٣٤ (١٩٨٧)

التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي الشريف

للدكتور ناصر عبد الله سلطان البركاتي

ملخص البحث : كانت مكة المكرمة مركزاً دينياً وتجارياً مهماً في الجزيرة العربية ، ومنطلقاً للقوافل التجارية فيما عرف برحلتي الشتاء والصيف ، ومهدا لدعوة التوحيد التي أرسل بها خير البشرية محمد ﷺ . ثم أصبحت المدينة المنورة العاصمة الأولى للدولة الإسلامية ، ومنها انطلقت القوة الإسلامية لفتح مكة المكرمة . ومنذ ذلك الوقت أصبحت مكة والمدينة هما المركزان الأساسيان لمباديء هذه الدعوة ، بالإضافة إلى ما لمكة من قدسية إسلامية خاصة لدى العالم الإسلامي . فأخذت ، منذ ذلك الوقت ، تجتذب العلماء ، ومعهم انتاجهم الفكري ، ومنه ما كان يرسل هدية لمكة المكرمة ، بالإضافة إلى المصاحف الخطية الجميلة . وهذه الكتب التي كانت متناثرة في أنحاء متفرقة من الحرم المكي ، جمعت في مكان واحد عرف باسم دار الكتب المكية . ثم أخذت تنتقل من مكان إلى آخر حسب المشاريع التي كانت تحدث لها إلى أن استقرت نهائياً في مبناها الأخير بالقرب من الحرم ، وأصبحت تعرف باسم « مكتبة الحرم المكي الشريف » .

ويوضح هذا البحث ما مر بهذه المكتبة من أطوار تاريخية ، وما أصاب كتبها من تلف وضياع ، وخاصة من السيول الكبيرة التي دخلت الحرم الشريف ، وما صارت إليه المكتبة في العصر الحاضر .

لقد واكب الاستقرار الإنساني عملية حفظ الأشياء حيث كان الإنسان قبل آلاف السنين يدون ملاحظاته بالرسم على جدران الكهوف والمغارات وعلى رقائق الصخور ، وبهذا حفظ للأجيال تاريخ حياته والأشياء المعاصرة له ، وعندما تطور التدوين استطاع أن يستنبط وسائل أخرى أكثر ملاءمة لتسجيل تاريخه وأخذ يعين لها الأماكن لحفظها[1] ، وأخذت هذه الطريقة تتطور شيئاً فشيئاً إلى أن تكونت خزائن الكتب وهي النواة الأولى للمكتبات التي انتشرت في أرجاء البلدان المتحضرة .

ومكة قبل إشراق نور الرسالة المحمدية لم تكن بها مكتبة بما تعنيه هذه الكلمة من معنى وذلك لقلة التدوين وندرته ، وهذا لا يعني عدم وجود المعارف التي تستحق التدوين في صحف ورقية أو ما شابه ذلك من وسائل التدوين المعروفة في تلك الفترة ، فقد تأثروا بمن جاورهم من الأمم التي عرفت التدوين باحتكاكهم في رحلة الشتاء والصيف التجارية واستفادوا أيضاً من بعض النواحي المعرفية في مختلف الفنون.[2] .

ولبيئة مكة علوم لا يستهان بها حيث برز من أهلها أناس في

---

(١) عبد الله أنيس الطباع ، علم المكتبات (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٢م) ، ص ١١ .

(٢) أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، جـ ١ (مكة المكرمة : مطابع قريش ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ، ص ٢٩٥ .

مختلف العلوم المعروفة آنذاك الأمر الذي ترك أثره باقياً في معارف الأجيال وما زال أثرهم مع تبلوره عبر العصور الإسلامية باقياً في بعض العلوم على مختلف أنواعها ، فكانوا يعنون بالأنساب وأخبار العرب ويوردون من أحاديث الأمم التي سبقتهم أو عاصرتهم واحتكوا بهم عن طريق الجوار أو التجارة التي اشتهرت بها قريش حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ .(٣)

فالرسول عليه الصلاة والسلام في بداية دعوته السماوية كان يرسل خطاباته للملوك والأباطرة لدعوتهم للإسلام مستعملاً التدوين على الرق المصنوع من جلود الحيوانات وغيره من الأشياء السائدة في عصره والتي استخدمها العرب في تلك الفترة لحفظ تراثهم وتاريخهم حيث بقيت هذه المدونات كمخطوطات تحتوي على مختلف العلوم والمعارف يتناقلها الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا وتمكنا من الاستفادة منها .

المكتبات في مكة :

لقد أكرم الله الحجاز بانبعاث الرسالة السماوية التي بعث الله بها سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فبرزت المدينتان الكريمتان ؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة كمراكز للحضارة الإسلامية فكان وجود المكتبات بها مرتبطاً بوجود الكتب والمصاحف في الحرمين الشريفين ، وهذا قديم قدم الإسلام .

فالمصحف الشريف والكتب الإسلامية لا بد من وجودها في الحرم المكي الشريف لأن هذا المسجد الحرام هو ملتقى المسلمين لأداء المناسك التعبدية من ناحية والتعلم من ناحية أخرى كما يحصل التبادل العلمي بين علماء المسلمين سواء بعقد حلقات الدرس في المسجد الحرام أو بتبادل الكتب العلمية ، أو إهداء نتاجهم العلمي إلى هذه الأماكن المقدسة ولهذا تميزت هذه المدن الحجازية بالنشاط العلمي وبالعناية بالمأثور من أقوال النبي ﷺ وأيضاً شيوع المذاهب الإسلامية القائلة بالرأي والآخذة بالقياس على ضوء ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه .(٤)

وإن كان وجود مثل هذه الكتب والمصاحف لا يعني بالضرورة وجود مكتبة بمعناها الإصطلاحي في الحرم المكي وإنما كان وجودها يمثل النواة للمجموعات المكتبية لمكتبة الحرم المكي الشريف ، ولهذا فقد نشأت خزائن الكتب على مرّ العصور الإسلامية في أنحاء متفرقة من الحرم . ولقد تعرضت خزائن الكتب في الحرم المكي الشريف لكوارث عدة منها التلف والضياع وذلك لعدم وجود مكان مخصص لها يحميها من عبث العابثين ويحفظها من عوارض الزمان كالسُّيول وغيرها وخاصة الحرم المكي لوقوعه في وادي إبراهيم قال تعالى : ﴿ ربي إني اسكنت من ذرتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ .(٥)

كما أن هذه الكتب والمصاحف المنتشرة ليست لها أماكن مخصصة لحفظها أو فهارس تدون فيها ليسهل الرجوع إليها والاستفادة منها .

وهناك إشارات واضحة لوجود مثل هذه الخزائن وما أصابها من فساد ومن هذه الإشارات التاريخية التي تدل على وجود خزائن الكتب في الحرم المكي الشريف ما جاء في الملحق الثالث من ملاحق كتاب أخبار مكة للأزرقي ومؤداه أن سيلاً دخل الحرم عام ٤١٧هـ ووصل إلى خزائن الكتب فأتلف منها الشيء الكثير .(٦) فهذه إشارة واضحة لوجود مثل هذه الخزائن وما لحقها من أضرار ، وقد أكد ذلك أيضاً محمد لبيب البتنوني في رحلته المسماة بالرحلة الحجازية حيث أشار إلى وجود كتب كثيرة ومهمة كانت موضوعة في دواليب موجودة في دائر حائط الحرم(٧) كما أن هذه الإشارة لم تقتصر على وجود المصاحف بل شملت كتباً مختلفة وهذا ما أشار إليه الشيخ المعلمي في تقريره المقدم لمعهد الإدارة بأنه في عام ٣٦٧هـ شيد شخص يدعى الأمير شرف الدين مكتبة

(٣) سورة قريش ، الآية ١ ، ٢ .

(٤) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٧ .

(٦) محمد بن عبد الله الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جـ ٢ ط ٢ (مكة المكرمة ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) ، ص ٣١٢ .

(٧) محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ط ٣ ، (الطائف : مكتبة المعارف ، د . ت) ص ٥٨ .

ومدرسة في الحرم المكي بالقرب من باب السلام وقد كان بناؤها بديعاً وجلب لهذه المكتبة كتباً متنوعة لا تعد ولا تحصى.[٨] كما أشار أيضاً المؤرخ المكّيُّ ابن فهد في كتابه «إتحاف الورى» إلى وجود مثل هذه الكتب كنواة أولى لمكتبة الحرم المكيّ الشريف حيث ذكر أنه «في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ولي الجمال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن فتوح بن محمد المكناسي المالكي إمامة مقام المالكية بالمسجد الحرام وأوقف المكناسي المذكور كتاب المقرب في ست مجلدات لابن أبي زمنين المالكي على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة وجعله بخزانة المالكية بمكة[٩]» وهذا واحد من العلماء أوقف هذه الكتب فهناك غيره الكثير من العلماء المسلمين سواء كانوا من علماء الحرمين الشريفين أو من غيرهم من العلماء المسلمين في أنحاء المعمورة الذين يهدون خزائن الكتب للحرمين الشريفين للاستفادة منها ولينالوا ثوابها من الله عز وجل. هذا ولم يقتصر الأمر على العلماء وإنما هناك من السلاطين والأمراء من أوقف الأربطة والكتب على الحرمين الشريفين ليستفيد منها طلبة العلم وحرصاً منهم على استمرار الحركة العلمية في أقدس بقاع الأرض التي يهوي إليها آلاف المسلمين، وقد أشار ابن فهد في كتابه «إتحاف الورى» بأن ربيع بن عبد الله بن محمود المارواني في سنة ٥٩٤هـ أوقف الرباط الذي بأجياد والمعروف برباط ربيع عن الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبيّ صاحب دمشق[١٠]، الذي أوقف بعض الكتب بالرباط المذكور منها كتاب المجمل في اللغة لابن فارس وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر.[١١] وأيضاً قام خدام المستنصر بالله أحد ملوك بني العباس[١٢] وهو الأمير شرف الدين إقبال الشرابي المنتصري العباسي ببناء مدرسة بمكة على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام وأوقف فيها كتباً كثيرة وذلك في سنة ٦٤١هـ وقيل إنها ذهبت شذر مذر والمدرسة باقية إلى وقت النهروالي في القرن العاشر الهجري حيث حُوِّلَتْ إلى رباط فيه محل الدرس وبه كتب عبارة عن مكتبة أوقفها بعض أهل الخير من الفقهاء المعاصرين للنهروالي.[١٣]

وفي سنة ٨٨٢هـ أمر السلطان قايتباي المملوكي الجركسي أن تبنى له مدرسة مشرفة على الحرم يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة السنية ورباط يسكنه الفقراء ويعمر له ربوعاً ومسقفات يحصل منها على ريع كثير يصرف منه على المدرسين وأن يقرأ له ربعة في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة والمتصرفون[١٤] ويقرر لهم وظائف ودار للأيتام وغير ذلك كما أرسل السلطان قايتباي خزينة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة.[١٥] وهذه أدلة واضحة على اهتمام المسلمين بمختلف طبقاتهم بالحرمين الشريفين بهدف تنشيط الحركة العلمية وسعيهم في تكوين مكتبات تحوي مختلف الفنون العلمية لتشمل فائدتها جميع المسلمين لأن هذه الأماكن هي التي يرتادها المسلمون من مختلف المعمورة، ووجود مثل هذه الخزائن للكتب في الحرمين الشريفين ما هو إلَّا نواة للمكتبات التي ظهرت في العصر الحديث بكيانها المستقل ومن أهمِّها مكتبة الحرم المكِّيِّ الشريف.

أثر السيول على خزائن الكتب بالحرم المكي الشريف:

لا شك أنّ لموقع مكّة الجغرافيِّ أثر فيما أصابها من

---

(٨) الشيخ عبد الله المعلمي، تقرير عن مكتبة الحرم المكيّ الشريف، مقدم لمعهد الإدارة العامة، ١٣٨٨هـ)، ص ٢.

(٩) النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى، جـ٢، ط ١، (القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٤٨٧.

(١٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١٢ (بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ص ٤٢٨، خير الدين الزركلي: الأعلام، ج ٥، ط ٣، (بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٨٤م)، ص ١٨٦.

(١١) ابن فهد: ج ٢ ص ٥٦٤.

(١٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٤٥٨؛ الزركلي، الأعلام، جـ ٨، ص ٢٤٤.

(١٣) قطب الدين الحنفي النهروالي: الإعلام بأعلام البيت الحرام (مكة المكرمة: مطبعة السعادة، ١٣٧٠هـ)، ص ١٧٧.

عبد الغني النابلسي: الحقية والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز. مخطوط رقم ٩٠٠، في جامعة أم القرى، المكتبة المركزية ـ ورقة ٣٩٧.

(١٤) لقد درج بعض العلماء المتأخرين على جواز إيقاف الأوقاف على قراءة القرآن ونحو ذلك وهذه مسألة خلافية، والخلاف مبني على الاختلاف على جواز أخذ الأجرة على قراءة القرآن الكريم، وأغلب علماء السلف على عدم جواز ذلك.

(١٥) النهروالي، الاعلام، ص ص ١٧٧ ـ ١٧٩.

النابلسي، ورقة ٣٩٧.

حوادث طبيعية كسيول وغيرها ، فموقعها في وادي إبراهيم الذي يستمد مياهه من جبل ثَبِير غيناء وجبل ثَبِير النصع وأيضاً من جبلي الطارقي وحراء التي تدفع مياهها غرباً حيث تنحصر ويقوي بين الحجون كداء والخنادم ماراً بقوته الجارفة بالحرم المكي الشريف ثم بالمسفلة متَّجهاً غرباً إلى أنْ يصب في وادي عرنة من الشمال جنوب الحديبية وتتكانفه بيوت مكة وأحياؤها وتصب فيه أودية وشعاب عدة الأمر الّذي يجعل سيله عارماً ، وكثيراً ما دخل الحرم وخربه بمروره[١٦] وأتلف خزائن الكتب المتناثرة في كل جوانبه . والحرم المكي الشريف بحكم موقعه الذي يضيق به الوادي لانحصاره بين قيقعان وأبي قبيس تعرض لنكبات السيول المتتالية والتي دائماً ما تضر بموجوداته وفقدان الشيء الكثير منها ومنها خزائن الكتب المنتشرة في أماكن عدة حيث أوردت لنا بعض المصادر إشارات واضحة لهذه الحوادث التي منيت بها خزائن الكتب بالحرم المكيّ الشريف وراح ضحيتها أعداد كبيرة منها فقد ذكر محمد لبيب البتنوني في كتابه « الرحلة الحجازية » حوادث سيول وغيرها بليت بها خزائن الكتب المكية حيث أشار أيضاً إلى أن في الحرم المكي كتباً كثيرة مهمة وضعت في دواليب سرق بعضها والبعض أفسدته السيول التي أغرقت المسجد الحرام وشوارع المدينة المقدسة ومن أهمها سيل سنة ٤١٧هـ الذي صعِد إلى هذه الخزائن وأتلف منها الشيء الكثير وأشار إلى أن ذلك أكبر مصيبة على العلم والعلماء لما فقدوه من كتب التراث وأمهات الكتب ونوادرها[١٧] وأيضاً ورد في الملحق الثالث من أخبار مكّة للأزرقي أنه « في ليلة الخميس العاشر من شهر جمادي الآخرة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة جاء سيل وغيم ورعود مزعجة وبروق مخيفة ومطر وابل كأفواه القرب ثم دفعت السيول من كل جهة وكان وابل بمكة ، وكان معظم السيل من جهة البطحاء فدخل الحرم الشريف من جميع الأبواب وحفر فيها وجعل حول الأعمدة التي في طريقه جرفاً مقدار قامتين وأكثر ولو لم تكن أساسات الأعمدة محكمة لكان رماها وقلع من أبواب الحرم أماكن وطاف بها الماء وطاف بالمنابر كل واحدة إلى جهة وبلغ عند الكعبة المعظمة قامة وبسطة ودخلها من خلل الباب وعلا الماء فوق عتبتها أكثر من نصف ذراع بل شبرين ، ووصل إلى قناديل المطاف ، وعبر في بعضها من فوقها طفاها ، وأغرق بعض أهلها ، ومات نحو ستين نفراً تحت الردم ، بل جميع الكتب التي كانت في قبة الكتب.»[١٨]

كما أشار أيضاً المؤرّخ المكّيّ تقيّ الدّين الفاسيّ الحسنيّ « أنّه في ليلة الخميس العاشر من جمادي الآخرة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة دخل سَيْلٌ عظيم إلى المسجد الحرام وبلغ في الكعبة شبراً وأربع أصابع »[١٩] وقال الفاسيّ أيضاً : « وقد ذكر هذا السيل ابن محفوظ في تاريخه فقال : « وفي تلك السنة يعني سنة ثمان وثلاثين جاء سيل وادي إبراهيم حتى إنّه دخل المسجد الحرام ، فطلع في وسط الكعبة قدر ذراع وبلغ الماء إلى القناديل التي بالأروقة وبقيت المنابر منابر الخطبة ودرجة الكعبة كأنها السفن وكان ذلك ليلاً بلل جميع الكتب التي كانت في قبة الكتب . »[٢٠].

تأسيس المكتبة بالحرم المكي الشريف وتنظيم كتبها :

إن استمرار هذه الكوارث التي بليت بها خزائن الكتب بالحرم المكي الشريف والتي افقدت منها الشيء الكثير ، الأمر الذي جعل القائمين على الحرمين الشريفين في مكة يفكرون في جمع شتات ما بقي في تلك الخزائن من كتب ، ولا يستطيع الباحث تحديد تأريخ معيّن جمع فيه شتات هذه الكتب وإنما هناك إشارات واضحة نستطيع الاستفادة منها لمعرفة بعض اللمحات عن تطور هذه المكتبة ، فقد جاء في ذكر حوادث سيل سنة ٧٣٨هـ الذي أغرق الحرم ووصل إلى

(١٦) عاتق غيث البلادي ، معجم معالم الحجاز ، ج ١ ، ط ١ ، (مكة المكرمة - مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ، ص ٢٩ .

(١٧) البتنوني : ، ص ٥٩ .

(١٨) الأزرقي : أخبار مكة ، الملحق ص ٣١٣ ؛ تقي الدين الفاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ٢ ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) ص ٢٦٧ ؛ ابن كثير (عماد الدين الحافظ القرشي) ، البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، د . ت .) ، ص ١٨٠ .

(١٩) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢٠) الفاسي ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

قناديل المطاف وعبر من فوقها وأهلك كثيراً من النّاس غرقاً ومات بسببه نحو سِتّينَ شَخْصاً تحت الرَّدْمِ الَّذِي نتج من جراء هذا السيل . حيث ذكر الفاسي في شفاء الغرام أنّ هذا السيل بـل جميع الكتب في قبة الكتب التي كـانت تسمي بقبـة الفـراشين.[٢١] . ويفهم من هـذه الإشـارة أنّ الكتب قـد جمعت في مكان بعينه كقبة الفراشين المذكورة للاستفادة منها أكثر بعد تجميعها في مكان واحـد الأمر الـذي يؤدي إلى تنظيمها وقد حصل التجميع من قبل ذلك التاريخ فقد روى البتنوني في الرحلة الحجازية أنّ سيـل سنة ٤١٧هـ دخـل الحـرم المكّيّ وصعـد إلى خـزائن الكتب وأتلف منهـا الكثير.[٢٢] وأيضاً روي ابن فهـد في إتحاف الـورى وقفية المكنـاسّيّ إمام المقـام المالكي بـالحرم الشـريف لكتـاب المقرب لابن أبي زمنين المالكي ووضعه في خزانة المالكية بالحرم المكي.[٢٣] وهذا دليل واضح على ترتيب وتـنظيم الكتب في مكان معين مما يساعد على سهولة الإطلاع إلاّ أنّ تـنظيمها لا يكـون التنظيم بـالمعنى الَّذِي وصـل إليـه علم المكتبات الحديث وإنّما تطوُّرٌ بدائيّ ملائم للحال في ذلك العصر .

وكما يبدو من الإشارات السابقة أنّ هذه الكتب نقلت من الخزائن المنتشرة في أنحاء متفرقة من الحرم المكي الشريف إلى خزائن مخصصة مثل القبب التي كانت بالقرب من بئـر زمزم كقبة الفراشين الواقعة داخل المسجد الحرام قريبة من بئر زمزم أعـدت لمصالـح المسجد المكي الشـريف لحفظ الشمع والشماعدين وفرش المنبـر والمربعـات والمصاحف التي أوقفت على المسجد الحرام.[٢٤] وقد جددها الخليفة العباسي الناصر ٥٧٦هـ ١١٨٠م.[٢٥].

وفي سنـة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م قـامت دولـة الممـاليـك الجراكسة بعمل بعض الإصلاحات في القبة وذلك في عهد سلطانهم فـرج بن برقـوق الـذي حكم الـدولـة المملوكيـة الجـركسية من ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م - ٨١٥هـ/ ١٤١٢م.[٢٦] وقد ذكر المؤرخ المكي عبـد الملك العصامي في تـاريخه سمط النجـوم العوالي أنـه في سنـة ١٠٦٣هـ عمـرت قبـة الفراشين التي بالمسجد الحرام.[٢٧] هذا عن قبة الفراشين إحـدى القبب التي جمعت بهـا خـزائن الكتب التي كـانت منتشرة في الحرم المكي الشريف وأما القُبَّةُ الأخرى فهي التي تسمى بقبـة الشراب القـريبة من قبـة زمـزم المنسـوبـة إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وهي محل سقايتـه حين كان يسقي فيهـا الحجيج السـويق والسكر ثُمَّ أصبحت فيما بعد خلوة لعبد اللّه بن العباس رضي اللّه عنهما ، وقد أخذ حكام المسلمين في إصلاحها على مر السنين فبقيت عامرة زمناً طويلاً فقد أورد وصفها ابن جبير في رحلته عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م.[٢٨] الأمر الذي أصبحت بعده هذه القبة مكاناً لتجميع الكتب بالحرم المكي الشريف بهدف حفظها وتسهيل الاطّلاع عليها من قبل طلاب العلم خدمـة للعلم وطلابه ، فقد ذكرهـا ابن بطوطـة في رحلته بقـوله : « ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي اللّه عنه وبابها إلى جهة الشمال وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق ، وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها المـاء فيشربـه الناس ، وبهـا اختزان المصـاحـف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيـه مصحف كريم بخط زيـد بن ثابت رضي اللّه عنه منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تسليماً ».[٢٩] وهـذه الإشارة تـوضح تجميع الكتب والاهتمام بنوادرها في مثل هذه القبب حفاظاً على سلامتها وتعتبر النواة الأولى لتـوحيد هـذه الخزائن في مكـان موحـد نشأ عنهـا ما يسمى بـدار الكتب المكّيّة سنة

(٢١) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢٢) البتنوني ، ص ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢٣) ابن فهد ، جـ ٢ ، ص ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢٤) علي عبد القادر الطبري ، الأرج المسكي ، مخطوط ، مصورة بمكتبة جامعة أم القرى المركزية - رقم ١٩١١ ، ص ٧٩ .

(٢٥) محمـد بن أحمد بن جبيـر ، رحلة ابن جبيـر ، (بيـروت ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) ، ص ص ٥٧ - ٥٩ .

(٢٦) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ .
الزركلي ، الأعلام ، جـ ٥ ، ص ٣٤٠ .

(٢٧) عبد الملك العصامي : سمط النجوم العوالي ، جـ ٤ (القاهرة ، ١٣٨٠هـ) ، ص ٤٦٨ .

(٢٨) ابن جبير ، ص ص ٧١ - ٧٧ .

(٢٩) محمد بن عبد اللّه بن محمد بن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جـ ١ ، (القاهرة ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) ، ص ٩٤ .

١٢٥٦هـ.(٣٠) والتي حول اسمها فيما بعد إلى مكتبة الحرم المكّيّ الشّريف.

ومهما يكن من أمر فإن التأسيس لهذه المكتبة لم يكتف باعتماده على تجميع ما في القبب بداخل الحرم الشريف من كتب فقط وإنما جمع ما بالمدارس المنتشرة في جنبات الحرم المكّيّ الشريف كمدرسة الشرابية الّتي أسَّسَهَا الأمير العبَّاسِيُّ شرف الدين الشرابي سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م بإيعاز من الخليفة العبّاسيّ المستنصر بالله(٣١).

وكانت هذه المدرسة تقع شرق المسجد الحرام على يمين الداخل للحرم المكّيّ الشريف من باب السلام، وقد أوقف فيها كتباً كثيرة حيث استمرت هذه المدرسة تبذل العطاء العلمي لطلبته حتى القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي.(٣٢)

ومما تجدر ملاحظته أنّ هذه المدرسة ضعف مردودها العلمي الأمر الذي مهد لنقل ما بقي فيها من كتب إلى بقية الكتب بالقبب وهي التي تكونت منها مكتبة الحرم المكي حيث استمرت هذه القبب سالفة الذكر تؤدي دورها الكبير في حفظ أشياء كثيرة تخص الحرم المكّي الشريف وفي مقدمتها الكتب التي يبدو أنها العامود الفقري لهذه الخزائن التابعة لمخزونات الحرم المكّيّ.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الكتب التي في الخزائن جمعت على هيئة مكتبة صغيرة في غرفة قرب بئر زمزم كنواة لتكوين المكتبة الموحدة لجميع خزائن الكتب المنتشرة في داخل الحرم المكي وفي أماكن بخارجه وذلك في عام ١٢٥٦هـ،(٣٣) وقد أطلق عليها بعد ذلك المكتبة المجيدية نسبة إلى السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان الثاني الذي حكم من ١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ.(٣٤) وذلك بعد جلوسه على عرش السلطنة بسنة واحدة، على حين يذكر الأستاذ محمد خضر عريف في مقالته المنشورة (بعالم الكتب) تاريخاً مخالفاً للتاريخ الذي أورده العطار حيث أشار إلى أنّ خزائن الكتب جمعت بمكان واحد في سنة ١٢٦٢هـ.(٣٥) وقد أسند الأستاذ عريف ذلك التاريخ لمرآة الحرمين لرفعت باشا علماً أنني لم أتمكن من وجود هذا التاريخ في الكتاب المذكور مرآة الحرمين، ويبدو أنه اعتمد على التاريخ المنحوت باللوحة المحفوظة بمكتبة الحرم المكي وهي تشتمل على خمسة أبيات شعرية(٣٧) باللغة التركية وقد ذكر فيها اسم السلطان عبد المجيد ويرجع تاريخها إلى عام ١٢٦٢هـ في الوقت الذي يذكر أحمد عبد الغفور عطار في «قطرة من يراع» هطول أمطار غزيرة في سنة ١٢٦٢هـ سال على إثرها وادي إبراهيم بسيول عظيمة دخلت المسجد الحرام وأتلفت أشياء كثيرة من بينها أكثر محتويات المكتبة المجيدية(٣٨)، وفي هذا الصدد كتب في جريدة أم القرى بعددها ٢١٢ تاريخ ١٣٤٧/٨/٧هـ أن السلطان عبد المجيد أمر في سنة ١٢٦٢هـ بإصلاح القبتين اللتين بقرب بئر زمزم.(٣٩)

يبدو من هذه الروايات أنّ التاريخ الذي أورده العطار أقرب للواقع، أما التاريخ الذي اعتمد عليه الأستاذ محمد خضر عريف فهو تاريخ إصلاح القبتين بعد تعرضهما للسيل الذي أتلف أشياء كثيرة من محتويات المكتبة المجيدية، والظاهر أن تواريخ الحدثين أحدثت بعض الإلتباس والمزج بين تاريخ تجميع الكتب في القبب سنة ١٢٥٦هـ وتاريخ إصلاحها سنة ١٢٦٢هـ، وكلا الحدثين بأمر السلطان عبد المجيد خان نفسه.

ومهما يكن من أمر فإن المكتبة التي ضمتها هذه القبة

---

(٣٠) أحمد عبد الغفور عطار، **قطرة من يراع**، (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م)، ص ٥٧.

(٣١) ابن الأثير، **الكامل**، جـ ١٢ض، ص ٤٥٨؛ الزركلي، **الأعلام**، جـ ٨، ص ٢٤٤.

(٣٢) النابلسي، ورقة ٣٩٥؛ الصباغ، **تحصيل المرام في أخبار البلد الحرام**، مخطوطة، ورقة ١٥٦؛ عبد الرحمن صالح عبد الله، **تاريخ التعليم في مكة المكرمة**، ط ١، (جدة: دار الشروق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص ٦١.

(٣٣) عطار، ص ٥٧.

(٣٤) محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ط ٢، (بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٤٥٥.

يوسف آصاف، **تاريخ سلاطين آل عثمان**، تحقيق عبد الوهاب الجابي، ط ٢، (دمشق: دار البصائر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ١٤٩.

(٣٥) محمد خضر عريف، **عالم الكتب**، المجلد ٤، عدد ٤، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٥٤٦.

(٣٤) عطار، ص ٥٧.

(٣٧) المعلمي، ص ٢.

(٣٨) عطار، ص ٥٧.

(٣٩) انظر جريدة أم القرى ـ العدد ٢١٢ (سوانح تاريخية) ١٣٤٧/٨/٧هـ.

اشتملت على ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين كتاباً حفظت في القبة التي خلف زمزم(٤٠)، وقيل إن هذا العدد هو الذي أرسله السلطان عبد المجيد خان من الأستانة مضافاً إلى ما كان موجوداً سابقاً في القبة.(٤١)

والظّاهر أنّ تجميع هذه الكتب ووضعها في القبة المشار إليها لم يحفظها من التلف، بل تواردت إليها المياه التي أفسدت منها الشيء الكثير حيث ورد في **إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام** للشيخ محمد صالح الشيبي أن سيلاً دخل المسجد الحرام في ١٢٧٨/٥/٨هـ وأتلف كثيراً من الكتب الأمر الذي جعل ولاة الأمر يقومون بنقلها إلى القبة الواقعة على باب الدريبة(٤٢)، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا السيل الذي ألحق فساداً وتخريباً كثيراً للنواة الأولى لمكتبة الحرم المكي الشريف قد ذكره مؤرخو مكة ومنهم الشيخ أحمد السباعي في كتابه «تاريخ مكة» الذي جاء فيه «أنّ سيلاً عظيماً في سنة ١٢٧٨هـ اقتحم المسجد الحرام وارتفع مستواه إلى قفل باب الكعبة وأصيب المسجد بأضرار بالغة وغرق فيه خلق كثير داخل المسجد وخارجه حيث قامت السلطنة العثمانية بإصلاح تلك الأضرار وأشرف على ذلك حاكم الحجاز الشريف عبد الله بن محمد بن عون ١٢٧٤ - ١٢٩٤هـ،(٤٣) وشيخ الحرم أحمد عزت، وقد دامت عملية الإصلاح نحو ستة أشهر.(٤٤) وممّا تجدر ملاحظته من رواية السباعي أنّ السيل وصل إلى قفل باب الكعبة وهذا كفيل بتغطية معظم القبة التي فيها الكتب ودليل على إفسادها ويبدو أنّ هذه الكوارث التي حلّت بالكتب هي التي دفعت بولاة الأمر في ذلك العصر إلى أنْ يقوموا بنقل هذه المكتبة إلى مكان مرتفع بالحرم المكّيّ الشريف حماية للكتب من الإتلاف الذي قد تسببه السيول، وأن تكون في متناول يد المهتمين بالمعرفة من مرتادي الحرم المكي الشريف.

ويظهر أنّ الاختيار وقع على باب الدريبة قرب باب السلام في المدرسة السليمانية الواقعة في الناحية الشمالية من الحرم المكي الشريف، أمّا تاريخ نقلها فقد ذكر أحمد السباعي في تاريخه أنّه كان في عام ١٣٠١هـ عندما استأنفت الدولة العثمانية بعض إصلاحاتها، الأمر الذي جعلهم يقومون بهدم القبب الواقعة قرب بئر ماء زمزم.(٤٥) وهي قبة الشراب المنسوبة للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وقبة زمزم، وكان ذلك في بداية حكم الشريف عون الرفيق بن محمد الذي حكم من سنة ١٢٩٩هـ.(٤٦) وكان ذلك العمل بإشراف شيخ الحرم عثمان نوري باشا لهدف جعل موقعها رحبة توسعة للطائفين والمصلين. وهكذا يبدو أنهم شرعوا في نقل الكتب بعد سيل عام ١٢٧٨هـ خوفاً ممّا حصل لها من فساد وأمّا التّاريخ الّذي أورده السباعي وغيره فيبدو أنه للنقل النهائيّ الذي فيه هدمت القبب بعد نقل الكتب إلى باب الدريبة المكان المرتفع وقاية لها من خطر السيول وهي تطل على المسجد الحرام وتشرف عليه لا يفصل بينهما إلّا النوافذ(٤٧)، في الوقت الذي كانت هناك مكتبة أخرى تكونت في باب أُمّ هاني في الناحية الغربية من المسجد المكّيّ الشريف سميت بمكتبة الشرواني زادة نسبة إلى محمد رشدي باشا الشرواني وإلى الحجاز سابقاً، وأصبحت هاتان المكتبتان هما الشهيرتان في ذلك العصر دون غيرهما من المكتبات التي تضمها المدارس المنتشرة حول الحرم المكي الشريف وبانضمامها إلى المكتبتين آنفتي الذكر صارت تلك المكتبات مكتبةً واحدةً سميت بمكتبةِ الحرم المكّيّ الشريف. ومكتبة الشرواني زادة السالفة الذكر وصفها من عاصرها من الرحالة مثل محمد لبيب البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» عند زيارته للأماكن المقدّسة حيث قال: «وليس في مكة كتبخانات تذكر اللهم إلّا كتبخانة بسيطة في باب أم هاني تسمى كتبخانة شرواني زادة محمد رشدي باشا والي الحجاز سابقاً وأخرى في باب الدريبة قرب باب السلام تسمى

---

(٤٠) محمد صالح بن أحمد الشيبي، إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، ط١، (مكة المكرمة: مطابع الصفا، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ص ٥٦.

(٤١) محمد عثمان الكنوي، تقرير عن مكتبة الحرم مقدم لمعهد الادارة بالرياض، ١٣٨٩هـ، ص ٣.

(٤٢) الشيبي: ص ٥٦.

(٤٣) أحمد زيني دحلان: تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية، (مصر، د. ت.)، ص ١٦٤.

(٤٤) السباعي، تاريخ مكة، جـ٢، ص ٥٩٢.

(٤٥) السباعي، تاريخ مكة، جـ٢، ص ٥٩٣.

(٤٦) دحلان، ص ١٦٤.

(٤٧) الكنوي، ص ٣.

بالكتبخانة السليمانية ، أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من شتات كتب الحرم وغيرها مما أرسله إليها من الاستانة ». [٤٨] وأيضاً ذكرهما إبراهيم رفعت باشا في « مرآة الحرمين » ولكن يبدو أنه قد اعتمد في ذلك على ما كتبه البتنوني ورغم زياراته للأماكن المقدسة المتكررة فإنه لم يأتِ بجديد في وصفه. [٤٩].

ومهما يكن من أمر فإنَّ هاتين المكتبتين بعد جمعهما في المقر الجديد اتخذتا الأسلوب الحديث في تنظيمهما من عمل فهارس مصنفة حسب اللغات والفنون والمواضيع المختلفة ، وعين لكل منهما أمين مكتبة يقوم بشؤونها وإدارتها حيث ذكر ذلك البتنوني كشاهد عيان عندما قام بزيارتهما فأوضح في وصفه « إن لكل كتبخانة من هاتين المكتبتين فهرساً بخط اليد ومغيراً يقوم بشؤونهما والكتب التي بهما نحوية وفقهية وأدبية وتاريخية وغالبها باللغة العربية وفيها شيء بالفارسية والأردية (الهندية) والتركية والجاوية (لغة الملايو) . »[٥٠]

توحيد المكتبات في مكتبة واحدة

بعد استقرار المكتبة الكبرى في باب الدريبة قرب باب السلام ضمت إليها كتب عديدة منها ما أرسله السلطان عبد المجيد خان من عاصمة الدولة العثمانية استانبول .

كما ضُمَّتْ إليها أيضاً الكتب التي أوقفها حاكم الحجاز آنذاك الشريف عبد المطلب ابن غالب آل زيد المتوفي سنة ١٣٠٣هـ. [٥١] وكذلك مكتبات كل من الشيخ صالح عطرجي والشيخ عبد الحق الهندي. [٥٢]

وفي سنة ١٣٤٦هـ ضمت مكتبة الشرواني إلى المكتبة المجيدية الواقعة في باب الدريبة كما ضم إليهما مكتبات أخرى ومن أهمها مكتبة أحد مدرسي الحرم المكي الشريف المشاهير في فن الكتب وجمعها وهو الشيخ عبد الستار الدهلوي المتوفي عام ١٣٥٥هـ والتي أختلف في عدد ما تحتويه م من كتب ومخطوطات فذكر الشيبي في « إعلام الأنام » أنها : « تضم معظم التواريخ المخطوطة وعددها ١٧١٤ كتاباً »[٥٣] ، إلَّا أنَّ الشيخ عبد الله المعلمي أمين مكتبة الحرم المكي الشريف الآن يذكر أن عدد محتواها يبلغ نحو ألف وثمانمائة وواحد وخمسين كتاباً ورسالةً مخطوطةً ومطبوعةً في مختلف فروع المعرفة كان قد أوقفها قبل وفاته على طلّاب العلم والباحثين للاستفادة منها في دارة ، ثم نقلت بعد وفاته إلى مكتبة الحرم المكّيّ الشريف التي كانت تسمى بدار الكتب المكية قبل ذلك ، ووضعت مكتبة الدهلوي آنفة الذكر في جناح خاص بها يحمل اسمه ، ولها فهرس مستقل يطابق في محتواه العدد الذي أشار إليه الشيخ المعلمي[٥٤] وفيها بعض المخطوطات المهمة التي نقلها بخط يده ، مثل كتاب « **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم** » للشيخ السنجاري أحد علماء مكة والمتوفي عام ١١٢٥هـ. [٥٥] .

وكتاب « **إتحاف الورى** » لابن فهد عمر بن محمد الهاشمي المتوفي عام ٨٨٥هـ. [٥٦] وهو في أربعة أجزاء حقق منها الاستاذ فهيم شلتوت بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ثلاثة أجزاء[٥٧] أما الجزء الرابع فحققه الدكتور عبد الكريم الباز ونال به درجة الدكتوراه. [٥٨].

وأيضاً كتاب « **بلوغ القرى بإتحاف الورى** » لعبد

(٤٨) البتنوني ، ص ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٤٩) إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، جـ ١ ، (القاهرة : دار الكتب المصرية ، د. ت .) ، ص ١٨٣ .

Ibn Dohaish Abdullatif, History of Education in the Hijaz up to 1925 . (Cairo, Dar alFikr al Arabi, n. d.), pp 197 - 198.

(٥٠) البتنوني ، ص ص ٥٨ ـ ٥٩ .

باشا ، مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

(٥١) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ ٢ ، ص ٥٥٠ .

(٥٢) دحلان ص ١٦٣ ، المعلمي ص ٢ ـ ٣ .

(٥٣) الشيبي ، ص ٥٦ .

(٥٤) فهرس مخطوطات مكتبة الشيخ عبد الستار الدهلوي .

(٥٥) الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير ، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة في القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، جـ ٢ ، ط ٢ ، (مكة المكرمة : مكة للطباعة والاعلام ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ، ص ٣١٠ .

(٥٦) الزركلي ، الإعلام ، جـ ٥ ، ص ٢٢٥ .

(٥٧) قائمة مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .

(٥٨) دليل الرسائل الجامعية ـ المكتبة المركزية ـ جامعة أم القرى .

العزيز بن عمر بن فهد الهاشمي المتوفي عام ٩٢٢هـ.[٥٩] وكتاب « **العقد الثمين بتاريخ البلد الأمين** » للفاسي محمد بن أحمد المتوفي عام ٨٣٢هـ.[٦٠] وهو مطبوع وغيرها من الكتب الثمينة إضافة إلى مؤلفاته العديدة منها كتاب « فيض الملك المتعال بأبناء أوائل القرن الثالث عشر على التوال » وهو بخطه .

وكذلك ضمت أيضاً مكتبة كل من الشيخ علي الدغستاني ومكتبة حسن بن علي الإدريسي الحسني في عام ١٣٨٥هـ وفي عام ١٣٨٧هـ مكتبة الشيخ عبد الرحمن المعلمي التي أوصى بها قبل مماته وتحتوي على ٦٤٢ كتاباً منها مصورات لنوادر المخطوطات . وأيضاً مكتبة الشيخ عبد الغني الزمزمي التي ضمت عام ١٣٨٨هـ وغيرها من المكتبات الخاصّة التي تبرع بها علماء مكة المكرمة الأمر الّذي جعل مكتبة الحرم المكي من أعظم المكتبات التي تضم فهارسها مختلف الفنون الثقافية والعلمية من مخطوطاتٍ أصلية كتبت بخط مؤلفيها أو مستنسخة بوساطة علماء الحرم المكي الشريف الذين عاصروا المؤلفين أو تتلمذوا على من عاصرهم ، كما تحتوي على كثير من الكتب المطبوعة النادرة[٦١]، وهذا زاد في أهميتها في نظر طلاّب العلم الّذين أخذوا يفدون إليها من مختلف المناطق في داخل الجزيرة العربية وخارجها وعلى وجه الخصوص في مواسم الحج والعمرة حيث نجد المكتبة عامرة بزوارها من طلبة العلم والمعرفة القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

المدرسة القريبة من باب أم هاني المسماة بمكتبة الشرواني زادة المتوفي عام ١٢٩٢هـ.[٦٣] آنفة الذكر التي ضمت إلى بقية الخزائن التي جمعت في باب الدريبة وسميت بدار الكتب المكية أو بالمكتبة السليمانية عام ١٢٥٦هـ ، وأحياناً يطلق عليها المكتبة المجيدية نسبة إلى السلطان عبد المجيد خان الذي أمر بتجميعها على أثر أخطار السيول المتلاحقة وخاصة سيل عام ١٢٧٨هـ.[٦٤] وبقيت بهذا الاسم إلى عام ١٣٥٧هـ حيث أطلق عليها « مكتبة الحرم المكي الشريف. »[٦٥]

فكانت إدارة الأوقاف تشرف على المكتبة إلى عام ١٣٨١هـ عندما اندمجت إدارة الأوقاف مع إدارة الحج ، وأصبحت وزارة الحج والأوقاف ، حيث في عام ١٣٨٢هـ نقلت مكتبة الحرم المكي الشريف من مكانها بباب الدريبة القريب من باب السلام إلى حارة أجياد في أحد عمائر الأشراف القديمة الواقعة على يمين الخارج من الحرم المكي الشريف ذاهباً باتجاه المصافي وأمام مستشفى أجياد في الوقت الحاضر وذلك لتسليم مبناها الأساس بباب الدريبة لصالح توسعة الحرم المكي الشريف . وقد ذكر لي الأستاذ عبد الله المعلمي أمين مكتبة الحرم المكي الشريف أن المكتبة انتقلت في عام ١٣٨٣هـ من مبناها الكائن في أجياد الذي لم تبق فيه إلاّ مدة سنة واحدة ، وكان انتقالها إلى عمارة مشروع التوسعة بجوار دار الأرقم المطلة على الحرم من جهة المسعى قرب الصفا . فانتقالها إلى هذا المبنى يعتبر نقلة

والأوقاف إلى ملاك الرئاسة العامة للإشراف الديني بالحرم المكي الشريف ، والتي غير اسمها إلى الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .

أما نظام الإعارة فالمكتبة لا تتعامل بنظام الإعارة الخارجية

ولا شك أن هذه انطلاقة جديدة في تطور الخدمات المكتبية لهذه المكتبة الشهيرة لتمكين رواد العلم من الاستفادة بما تحتويه المكتبة من كنوز المعرفة في مختلف الفنون العلمية والثقافية حيث هيأت الجهات المسؤولة جهازاً

(٧) قسم القارئات : وتستخدم لقراءة الميكروفلم والميكروفيش .
(٨) قسم التزويد .
(٩) قسم الفهرسة والتصنيف .
(١٠) قسم الصحف اليومية والمجلات الجديدة .
(١١) قسم النساء .
(١٢) قسم الأطفال .
(١٣) قسم المطبعة والتجليد .[٦٩]

وقد هيأت هذه الأقسام آنفة الذكر لخدمة رواد المكتبة على مختلف جنسياتهم الإسلامية الذين يتزايد عددهم في مواسم الحج والعمرة حيث يرتادها العلماء وطلاب العلم القَادِمُونَ من الأقطار الإسلامية للتزوّد بما فيها من الكنوز المعرفية من نوادر الكتب والمخطوطات النادرة التي قد لا تتوافر لهم في أقطارهم ، هذا ولكون نظام المكتبة لا يسمح بالإعارة الخارجية فقد وَفّرت المكتبة لروادها خدمات التصوير المجاني وما على المستفيد إلّا تحديد الصفحات المتعلقة ببحثه ويحتاج لها خارج المكتبة . ولهذا يقوم مسؤول التصوير بعمل ذلك في أسرع وقت ممكن . وهذه الخدمات متوفرة لجميع الأقسام للرجال والنساء على حد سواء ، وأيضاً هناك بعض الموظفين المختصين لخدمة المصادر والمراجع وتوجيه الرواد إلى مصادر المعلومات التي يحتاجون إليها توفيراً للوقت ، وكذلك مختصون لإعداد قوائم بالموضوعات المختلفة .

التطور التاريخي لموظفي المكتبة ومواكبته لتزايد عدد روادها :

لا شك أنَّ تطور الخدمات التي تؤديها المكتبة صاحبت تطوراً في زيادة عدد الموظفين وتباين تخصصاتهم فعندما توفي الشيخ عبد اللّه فدا الذي كان يعمل مديراً للمكتبة عُيِّن الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع مديراً للمكتبة في عام ١٣٦٨هـ ، إضافة إلى عمله عضواً في مجلس الشورى، حيث بقي إلى عام ١٣٨٦هـ ولم يكن معه في باديء الأمر إلَّا أربعة موظفين وهم :
(١) أمين للمكتبة .
(٢) كاتب عام .
(٣) مناول .
(٤) فراش .

واستمرت المكتبة بهذا العدد من الموظفين إلى عام ١٣٧٩هـ عندما عين موظف خامس في وظيفة كاتب فهارس ، واستمرت المكتبة تؤدي خدماتها بهذا العدد القليل من الموظفين إلى شهر رجب من عام ١٣٨٣هـ حينما أدركت وزارة الحج والأوقاف الازدياد المضطرد للمستفيدين من رواد المكتبة ، فقررت تطوير المكتبة مراعاة لتطور الحركة العلمية في المملكة العربية السعودية ، فقامت بتعيين خمسة موظفين إضافة إلى الموظفين السابقين وهم :
(١) ناسخ آلة كاتبة .
(٢) مراقب .
(٣) مناول .
(٤) فراشان .

وبهذا أصبح على ملاك المكتبة إلى عام ١٣٨٥هـ أحد عشر موظفاً بما فيهم مدير المكتبة آنف الذكر .[٧٠]

غير أن المكتبة حينما انتقلت من ملاك وزارة الحج والأوقاف إلى ملاك الرئاسة العامة للإشراف الديني بالمسجد الحرام ، قامت الرئاسة بتزويد المكتبة بالموظفين مجاراة للتطور المستمر للمكتبة ، ففي ميزانية عام ١٣٨٧هـ - ١٣٨٨هـ أصبح عدد موظفي المكتبة واحداً وعشرين موظفاً موزعين كما يلي :
(١) مدير المكتبة .
(٢) وكيل للمكتبة .
(٣) ثلاثة مفهرسين أحدهم يعمل أميناً للمكتبة .
(٤) أربعة مناولين .
(٥) كاتب صادر ووارد لتسجيل ما يرد إلى المكتبة وما يرسل منها .
(٦) ناسخ آلة كاتبة .

---

(٦٩) دليل مكتبة الحرم المكي الشريف الذي عمله أمين المكتبة الشيخ عبد اللّه المعلمي بمناسبة افتتاحها في ١٤٠٦/٦/٩هـ.

(٧٠) الشيخ عبد اللّه المعلمي : تقرير عن مكتبة الحرم المكّي الشريف مقدم لمعهد الإدارة العامة عام ١٣٨٨هـ ، ص ١٢ .

(٧) مسجل كتب .
(٨) مجلد فني .
(٩) مساعد مجلد .
(١٠) مترجم لغات شرقية .
(١١) مراقب .
(١٢) أربعة فراشين .
(١٣) سائق. [(٧١)]

وهذا دعم من الرئاسة العامة للإشراف الديني لاحتياج المكتبة وخاصة بعد فتحها لفترتين صباحية ومسائية حتى أصبح عدد العاملين بها الآن سبعة وأربعين موظفاً في مختلف الاختصاصات يقدمون خدمات جليلةً لروّاد هذه المكتبة العامرة. [(٧٢)] إضافة إلى ثلاثة عشر مستخدم ومستخدمة . ولا شكَّ أنَّ هذه الزيادة السريعة دليل على ما تشهده هذه المكتبة من ترقٍ سريع لتغطية احتياجات روادها الذين تزايد عددهم بشكل سريعٍ حتى وصل إلى عدد يبشر بخير . ومما تجدر ملاحظته أنَّ هُناك إحصائية عملت لبيان عدد رواد المكتبة خلال الفترة من بداية شهر ربيع الثاني من عام ١٤٠٦هـ إلى نهاية يوم ١٧ شهر ذي الحجة من عام ١٤٠٦هـ فكان عدد رواد المكتبة المستفيدين منها ثمانيةً وثلاثين ألفاً ومائة وثمانية وستين مطالعاً ومطالعة وذلك حسب ما هو مبين في الجدول الآتي :

ـ من بداية شهر ربيع الثاني إلى نهاية جمادي الثانية	١٣١٦٨ مطالعاً
ـ من بداية شهر رجب إلى نهاية آخر يوم من الدوام الرسمي لشهر رمضان	١٦٤١١ مطالعاً
ـ من بداية أول يوم للدوام الرسمي من شهر شوال إلى ١٧ ذي الحجة من نفس العام	٩٤٥٥ مطالعاً
ـ إضافة إلى عدد النساء القليل لأن قسمهن حديثُ عهد ولم يتعودن عليه، ولم يكن معروفاً لدى الكثيرات منهن	١٦٤ مطالعة

ـ فالمجموع حسب هذا الجدول بلغ ٣٨١٦٨ مطالعاً ومطالعة

إضافة إلى رواد قسم الأطفال الّذين لم يحص عددهم ضمن الإحصائية لحداثة[(٧٣)] القسم ، ولأن الأطفال أيضاً لم يتعودوا على كتابة أسمائهم عند الزيارة .

رصيد المكتبة من الكتب والدوريات والمخطوطات إلى تاريخ ١٤٠٦/١٢/٢١هـ:

مما لا شك فيه أنَّ مكتبة الحرم المكّي الشريف تمتلك ثروة عظيمة من أُمّهات الكتب والكتب النادرة إضافة إلى الدوريات العلمية في مختلف الفنون العلمية والثقافية ، وأيضاً المخطوطات الأصلية والمصورات والميكروفلمية نورد أعدادها حسب الإحصائيّة التي وردت في دليل المكتبة الذي عمل بمناسبة افتتاح مبناها الجديد بتاريخ ١٤٠٦/٦/٩هـ إضافة إلى ما استقيناه من معلوماتٍ أفادنا بها المسؤولون ووافقت ما ورد في الدليل آنف الذكر وهي كما يلي :

٤٠٠٠٠	أربعون ألف كتاب وتشمل بعض الكتب النادرة.
١٠٠٠	ألف مجلد دورية ومنها دوريات نادرة.
٤٥٠٠	أربعة آلاف وخمس مائة مخطوطة أصلية منها مخطوطات بخط مؤلفيها ونادرة.
٥٠٠	خمس مائة مخطوطة مصورة.
٢٠٠٠	ألفان مخطوطة مصورة في ميكروفلم جمعت من مكتبات مختلفة في أنحاء العالم.
٦٠٠٠	ستة آلاف كتاب وصلت إلى المكتبة بتاريخ ١٤٠٦/١٢/٢٢هـ وهي التي أوقفها الشيخ ياسين العظم على طلاب العلم في مكتبة الحرم المكي الشريف. [(٧٤)]

---

(٧١) المعلمي ، ص ١٢ .
(٧٢) انظر البيان الاحصائي لموظَّفِي مكتبة الحرم الشريف المعمول به إلى تاريخ ١٤٠٦/١٢/٢١هـ.
(٧٣) انظر إلى سجل الرواد المستفيدين من مكتبة الحرم المكّي الشريف لنفس الفترة بيان أُعد لي بواسطة أمين مكتبة الحرم الشريف الشيخ عبد الله المعلمي في ١٤٠٦/١٢/٢١هـ.
(٧٤) هذه المعلومات أفادنا بها الشيخ عبد الله المعلمي أمين مكتبة الحرم المكّي الشريف . ومن دليل المكتبة الذي عمل بتاريخ ١٤٠٦/٦/٩هـ.

المخطوطات :

ومن أشهر مخطوطاتها النادرة التي قد لا تتوافر في غيرها من مكتبات العالم :

(١) الغيلانيات لمحمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان بن عبد الله البزاز المتوفي عام ٤٤٠هـ وهو من أقدم المخطوطات في مكتبة الحرم يرجع تاريخ نسخه إلى أوائل القرن الخامس الهجري وهو أحد عشر جزءاً في مجلّد واحد .

(٢) مسند الموطأ لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّٰه المتوفي عام ٣٨٥هـ ، وهو أربعة أجزاء في مجلّد واحد وتاريخ نسخه عام ٦٩٣هـ ، وهو من الكتب القديمة ذاتِ القيمة العلميّة في حقله .

(٣) قُرَّة العيون في أخبار اليمن الميمون لمؤلفه عبد الرحمن بن الربيع المتوفي عام ٩٤٤هـ ، وقد قام بتحقيقه الدكتور ركس سميث الّذي يعمل في جامعة درم ببريطانيا .

(٤) الفروسية والمناصب الحربية لنجم الدين حسن بن الرماح المتوفي عام ٨٨٠هـ ، وقد أبرز فيه المؤلف الفنون الحربية عند المسلمين في العصور السابقة لعصر المؤلف كالسيف والرمح ويتكون الكتاب من مجلّد واحد .

(٥) الدّرّة الثمينة في فضل المدينة لابن النجار المتوفي عام ٦٤٣هـ ، وهذا غيض من فيض ، فالمكتبة غنية بنوادر المخطوطات وخاصة الأصلية منها التي تعكس للمطلع ما وصلت إليه الأماكن المقدسة من حركة علمية برزت على أكتاف العلماء البارزين الذين برزوا وابدعوا في مختلف الفنون العلمية حتى أصبحوا قبلة لطلاب العلم الوافدين إليهم من مختلف أنحاء المعمورة .

الفهارس :

أمّا أنواع الفهارس الموجودة بالمكتبة فهي ثلاثة فهارس :

(١) فهرس المؤلف .

(٢) فهرس العنوان .

(٣) فهرس الموضوعات .

فهذه الفهارس للكتب المطبوعة . أمّا المخطوطات فيوجد لها فهرس للموضوعات فقط ولكن الجهود قائمة لعمل فهارس أخرى للدوريات والمصورات والمصغرات لتحسين الخدمات المكتبية إلى أحدث ما وصل إليه علم المكتبات . [٧٥]

أمّا نظام التصنيف المتبع في مكتبة الحرم المكّي الشريف فهو نظام التصنيف العشري لديوي[٧٦] وقد بدأت المكتبة في تطبيقه منذ عام ١٣٩٨هـ والجهود متواصلة لإعادة تنظيم المكتبة وفهرستها وإعادة تصنيف محتواها ، حيث التعاون قائم بين مكتبة الحرم المكّي الشريف وجامعة أم القرى بهدف إخراج المكتبة بالصفة اللائقة بها . [٧٧]

مكتبة الحرم المكي الشريف :

بيان بنوع المخطوطات وأرقامها حسب ترتيبها

مسلسل	الفن	الأرقام من	الأرقام إلى
١	القرآن الكريم	١	٣٨٩
٢	التجويد	٣٩٠	٤٤٦
٣	علوم القرآن	٤٤٧	٤٧٨
٤	التفسير	٤٧٩	٧٢٣
٥	مصطلح وأسانيد	٧٢٤	٨١٣
٦	الحديث	٨١٤	١٢٦٦
٧	التوحيد	١٢٦٧	١٤٦٥
٨	أصول فقه	١٤٦٦	١٥٣٤
٩	فقه عام	١٥٣٥	١٥٥٢
١٠	فقه مالكي	١٥٥٣	١٦٢٢
١١	فقه شافعي	١٦٢٣	١٧٢٧
١٢	فقه حنفي	١٧٢٨	٢٢٢١
١٣	فقه حنبلي	٢٢٢٢	٢٢٢٨
١٤	الفرائض	٢٢٢٩	٢٢٦٣

(٧٥) من المشاهدة الشخصية المتكررة للمكتبة .

(٧٦) محمود الشنيطي وأحمد كابش موجز نظام التصنيف العشري ، ط ٢ ، (القاهرة ، ١٩٧٠م) .

(٧٧) مقابلة أمين المكتبة الشيخ عبد اللّٰه بن عبد الرحمن المعلمي .

مسلسل	ألفن	الأرقام	
		من	إلى
١٥	الردود	٢٢٦٤	٢٢٨٣
١٦	التصوف	٢٢٨٤	٢٤٢٢
١٧	المواعظ	٢٤٢٣	٢٥٢٨
١٨	أذكار	٢٥٢٩	٢٦١٠
١٩	السيرة	٢٦١١	٢٧٥٢
٢٠	التراجم	٢٧٥٣	٢٩٠٠
٢١	اللغة	٢٩٠١	٢٩٤٣
٢٢	النحو	٢٩٤٤	٣١٣٦
٢٣	اللغة ـ صرف	٣١٣٧	٣١٨٠
٢٤	الأدب	٣١٨١	٣٣٣٤
٢٥	البلاغة	٣٣٣٥	٣٤٠٨
٢٦	التاريخ	٣٤٠٩	٣٥٥١
٢٧	الطب	٣٥٥٢	٣٦٠٠
٢٨	تعبير	٣٦٠١	٣٦١٠
٢٩	علم الرمل	٣٦١١	
٣٠	علم الفلك	٣٦١٢	٣٦٤٤
٣١	حساب ـ جبر ـ هندسة	٣٦٤٥	٣٦٧٤
٣٢	فلسفة	٣٦٧٥	٢٣٨٦
٣٣	منطق	٣٦٨٧	٣٧١٦
٣٤	تربية	٣٧٠٧	٣٧١٦
٣٥	منوعة	٣٧١٧	٣٧٣٦
٣٦	زراعة	٣٧٣٧	٣٧٣٨
٣٧	عروض وقوافي	٣٧٣٩	٣٧٤٠
٣٨	بحث ومناظرة	٣٧٤١	٣٧٥٥
٣٩	مجاميع	٣٧٥٦	٣٩٥٧
٤٠	فنون مختلفة	٣٩٥٨	٤١٠٨
٤١	مصاحف شريفة	٤١٠٩	٤١٢٤
٤٢	وصية الدهلوي	٤١٢٥	
٤٣	حجة أوقاف الحرمين	٤١٢٦	
٤٤	فهارس	٤١٢٧	٤١٣٠
٤٥	منوعات	٤١٣٠	٤٢٨٢

بالإضافة إلى ٣٤٠ مخطوطاً (تركي ـ وفارسي ـ وأوردو) .
وهذا البيان يشمل المخطوطات المسجلة فقط .

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني، ٣٣٥ ـ ٣٣٩ (١٩٨٧)

نقد الكتب

اللغة المروية ـ (الجزء الأول ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م)*

تأليف الدكتور عبد القادر محمود عبد الله

للدكتور يوسف مختار الأمين

ملخص البحث : اللغة المروية الجزء الأول ، كتاب هام يقدم فيه المؤلف تعريفاً تاريخياً باللغة المروية وشرحاً لأبجديتها وطبيعة كتابتها ثم قصة فك رموزها . والكتاب من دون شك يمثل خطوة مهمة في تعريف القاريء والباحث العربي بهذه اللغة السودانية القديمة التي سادت في أواسط السودان وشماله منذ القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي . ويعتقد المؤلف أن كونها لغة تخاطب فانها أقدم من ذلك بنحو ألف عام قبل الميلاد ، ويعتمد في ذلك على تحليله لأسماء الملوك والأعلام السودانيين الذين أقاموا مملكة نبتا في شمال السودان في حوالي القرن الثامن ق . م . إذ يجد أن هذه الأسماء تحتوي على مكونات نحوية معروفة في اللغة المروية . وهي أيضاً ، في رأيه ربما تكون أقدم لغة أفريقية مكتوبة ـ وتختلف عن اللغات السامية وكذلك عن اللغة المصرية القديمة حتى وإن أخذت عنها معظم رموزها ، والمؤلف يبني هذا الرأي على أربعة دعامات رئيسة . والكتابة المروية شبه أبجدية لها خطان أحدهما هيروغليفي وثانيهما مختزل وكلاهما منحدران من أصول مصرية ، وقد أخذ المرويون بعض الأبجدية المصرية وأكملوها ببعض الرموز متعددة الأصوات بعد تعديلها حتى صارت لغة مكتوبة أبجديتها من ثلاثة وعشرين حرفاً كلها مفردة الأصوات فيما عدا رمزين .

والكتاب في فصوله الثلاثة يعتبر جهداً أكاديمياً متعمقاً في مشكلة اللغة المروية ، اتبع فيه المؤلف اسلوباً ومنهجاً رائعاً وهو في نفس الوقت يطرح آراء جريئة جديرة بالمناقشة .

صدر للدكتور عبد القادر محمود عبد الله الجزء الأول من مؤلفه في اللغة المروية ، وهو فاتحة سلسلة جديدة اقترحها المؤلف وينوي الإشراف عليها مع آخرين وتعني بإصدار مجلدات تغطي تاريخ السودان القديم وآثاره . وهي محاولة ، إن تم لها النجاح فسوف تسد فراغاً واضحاً في المكتبة السودانية ، إذ من المعلوم أن جلّ ما كتب عن آثار السودان وتاريخه القديم كان باللغات الأجنبية ، وهكذا فإن الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه هو ، في واقع الأمر ، الأول من نوعه في مجال الدراسات المروية لكونه كتب بالعربية ولأنه يعالج موضوعاً محدداً وشائكاً ، توفرت لمؤلفه ، ولحسن الحظ ، الأسباب التي جعلته مؤهلاً للخوض في هذا المجال ، وكما سنرى في السطور التالية فإن الكتاب جهد أكاديمي متكامل ، وضع فيه المؤلف خلاصة تجربته وأبحاثه في فهم اللغة المروية وتطوير سبل دراستها .

يقع الكتاب في ٥٣٤ صفحة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة فصول رئيسة بهوامشها وثبت للوحات والأشكال والمراجع ،

(*) تحت اشراف مركز البحوث بكلية الآداب ـ جامعة الملك سعود، الرياض.

وأخيراً الفهارس الكشافة وشروحها . والأخيرة وحدها يقارب عدد صفحاتها من (١٣٢ صفحة) أي ثلث الصفحات المكتوبة في المؤلف . وبالنظر لمحتويات الكتاب يتضح من الوهلة الأولى أن الكاتب اتخذ أسلوباً غير مألوف تماماً في ترتيب مادته وتوزيعها ، فهو يطرح الفكرة أو الموضوع في شكل جزئية ثم يعود اليه بالتفصيل في موضع أو موضعين لاحقين . فالمقدمة تبدأ مباشرة بعرض لمسائل فنية وعلمية تقحمنا في إشكالية كتابة الحروف والأصوات المروية باللغة العربية قبل أن يجد القارىء الخلفية التاريخية المتوقعة في مثل هذه الحالات . كما أن تاريخ الأبحاث في اللغة المروية أفرد له المؤلف فصلاً كاملاً يأتي في نهاية الكتاب ، ويبدو أن لهذا ما يبرره كما سنرى ، وطريقة عرض محتويات الكتاب ، بصفة عامة تعكس منهجاً صارماً وسلساً في نفس الوقت ، دعمه الكاتب باثنين وستين شكلاً توضيحياً إضافة لتسع لوحات وجدولاً بالاختصارات والاصطلاحات التي استعان بها .

وفي تاريخ السودان القديم تعتبر المملكة المروية امتداداً سياسياً وحضارياً لمملكة نبتا التي نشأت في شمال البلاد حوالي القرن الثامن ق . م ، ولأسباب مختلفة انتقلت عاصمة الحكم جنوباً إلى مروى القديمة في أواسط السودان وذلك حوالي القرن الخامس ق . م ، حسب ما هو متفق عليه ، وتجدر الإشارة الى أن مدينة مروى نفسها أقدم من هذا التاريخ بكثير وربما أنها كانت مأهولة قبل نبتا كما تشير الأبحاث والتواريخ التي تم الحصول عليها مؤخراً .(١) ومن المتعارف عليه أيضاً أن مملكة مروى زالت في القرن الرابع الميلادي ، ونسبه للاتصال السياسي والثقافي بين مصر والسودان منذ أقدم العصور فإننا نلمس التأثير المصري الواضح على الحضارة السودانية القديمة والذي يحسبه السودانيون القدماء جزءاً من تراثهم (ص ٢١) فالتأثير المصري عنصر تم صهره في عناصر الثقافة المحلية .

واللغة المروية لم تعرف كتابةً إلا في القرن الثاني قبل الميلاد وهي فترة تميزت بالتغير والتحول في عناصر الحضارة السودانية ، وما ظهور الخط المروى إلا واحد من هذه التغيرات .

يذكر المؤلف في مقدمة الكتاب الصعوبة التي واجهته في كتابة الحروف والأصوات المروية باللغة العربية وبخاصة تلك التي ليس لها مقابل معروف ، وقد اهتدى ، بعد تجارب عدة ، إلى قواعد وأحكام عامة تمكن من خلالها إعطاء القيمة الصوتية في العربية لكل رمز من رموز اللغة المروية ، ودعم ذلك بأمثلة تطبيقية تثبت صواب الاصطلاحات التي ابتدعها وهو بذلك قدم تجربة « جديدة وفريدة » (ص ٨) وبنى عليها كثيراً مما توصل إليه حديثاً في دراسته للغة المروية . وكان مما سيسعد المرء أن يجد متخصصاً غيره في اللغة المروية من العرب حتى يتعرض لهذه التجربة بالتقويم أو التعقيب ، وهذا أمر يأخذنا مباشرة للنظر في المأزق الذي تقع فيه دراسة اللغة المروية حالياً ، وعلى الأقل بالنسبة للباحثين فيها من العرب . فالسنوات التي أعقبت حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩ ـ ١٩٦٦ م) شهدت تطوراً ونشاطاً ملموساً في دراسة اللغة المروية نتيجة لاكتشاف الكثير من المخطوطات ، وأصبحت تعقد لها المؤتمرات الدورية والندوات المتخصصة وأقيمت لها مراكز البحث في أوروبا خاصة المانيا وفرنسا وازداد عدد الباحثين فيها من الأجانب . إلا أن هذا النشاط لا نجدّ له مقابلاً في الجانب العربي ، فقد تم تدريس اللغة المروية في جامعة الخرطوم لسنوات معدودة خلال السبعينات وتوقف ، وواقع الحال أن هنالك عربياً واحداً ـ فيما أعلم ـ من السودان أعد رسالة الماجستير في اللغة المروية تحت إشراف المؤلف إبان وجوده بجامعة الخرطوم ، أذكر هذا الأمر لتأثيره المباشر على مستوى الاستجابة المتوقعة من جانب المتخصصين العرب لهذا الجهد العظيم الذي يعكسه هذا الكتاب .

يخصص الكاتب الفصل الأول للغة المروية من ناحية قدمها كلغة تخاطب ربما قبل قيام مملكة نبتا ، وكذلك إلى أصل المروية كلغة أفريقية خالصة . فمن ناحية قدم اللغة ينطلق المؤلف من تحليله اللغوي لأسماء بعض الملوك والأعلام النبتيين الذين كوّنوا الأسرة الخامسة والعشرين في مصر (القرن الثامن ق . م) وأيضاً الأعلام المرويين، فيجد

(١) Peter L. Shinnie and R. Bradley, **The Capital of Kush 1**, Meroitica 4,(Berlin), 1980, P. 16 .

أن الأسماء النبتية تحتوي على مكونات نحوية معروفة في اللغة المروية والأمر نفسه ينطبق على تركيب الأسماء من حيث تغير مواضع المكوّنات ، ويخلص الى أن المفردات والمكوّنات وقواعدها النحوية المعروفة في الفترة الأولى من مملكة كوش (نبتا) هي نفسها التي عُرفت في أسماء المرويين واللغة المروية نفسها . وبالتالي فإن أساس اللغة الذي بنيت عليه الأسماء النبتية هي نفس اللغة التي يطلق عليها اسم المروية . ويضيف الى ذلك أنه ليس من المعقول أن تكون هذه اللغة قد بدأت بالأسرة الخامسة والعشرين وإنما يجب أن نسمح بوقت كاف قبل هذا التاريخ لظهورها ، وإنها ربما كانت لغة تخاطب منذ ١٠٠٠ ق .م (ص ٣٥) . وانطلاقاً من هذه النقطة ، يطرح المؤلف وجهة نظره القائلة بأن اللغة المروية أفريقية النسب ، ويبني هذا الرأي على أربعة دعامات رئيسة . الأولى هي خلوّها من الصفات السامية أو الحامية ، والثانية مجافاتها للغات السامية والحامية في صفاتها وخصائصها وعدد من ذلك احدى عشرة صفة تبعدها عن اللغات السامية وعن اللغة المصرية القديمة كذلك ، وإن أخذت عنها معظم رموزها ، وهي بالتالي أقدم لغة أفريقية صافية تمت كتابتها ، إذ أن اللغة المصرية في رأيه ليست كاملة الأفريقية ، أما الدعامة الثالثة لهذا الرأي فهي أفريقية أصحاب اللغة المروية عرقاً ، وفي ذلك يعتمد الكاتب على تصاوير المصريين القدماء للسودانيين والتي تعكس صفاتاً زنجية بالإضافة إلى أشكال الزي والزينة ، وهو في هذا يطابق بين الكوشية والأفريقية الزنجية . كما يلاحظ نفس الشيء في تصاوير المرويين فيما بعد .

وكان المؤلف يود أن يجد معلومات من الدراسات الطبية التي تمت في عظام المرويين ليدعم بها رأيه هذا و « لكنها تعوزنا في الوقت الحاضر إما لعدم القيام بها اطلاقاً . . . . وإما لأن الدراسات الطبية لبعض الهياكل العظمية المروية لم يفرغ منها ولم تنشر بصورة نهائية بعد أو أنها تمت في مرحلة ما في بداية هذا القرن ولم تنشر » (ص ٥٧) .

وهنا لا بد من وقفة لتقويم هذه الدعامة ، فالاعتماد على الملامح الظاهرية وخصائص الزي والزينة التي تعكسها تصاوير الكوشيين القدماء أو المريويين من بعدهم حجة يصعب الأخذ بها في دراسات تعتيق الأعراق البشرية ، كما أن مطابقة الزنجية بالأفريقية أمر غير متفق عليه . أما فيما يختص بنشر الأبحاث المتعلقة بالهياكل العظمية المروية وغيرها من الفترات السابقة لمروي أو اللاحقة لها فلها في الواقع تاريخ قديم. فالحملتان الأثريتان اللتان تمتا خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن الميلادي في شمال السودان ، تم الكشف خلالهما عن بقايا عظمية كثيرة للمرويين ولغيرهم وقد نشرت الدراسات المتعلقة بها إما في كتب أو مجلات علمية ، يُذكر منها دائماً أعمال اليوت سمث ودوقلاس ديري وأحمد بطراوي[٢] ، ومن المعروف أن هذه الدراسات ساعدت كثيراً في قبول وانتشار نظرية التفسير العرقي لتاريخ السودان القديم ، إذ أن كل مرحلة تحول حضاري كانت تنسب الى ظهور عنصر بشري جديد في المنطقة ، ولم يتغير هذا الأمر إلا بعد حملة إنقاذ آثار النوبة الأخيرة ، إذ تمت دراسة الهياكل العظيمة هذه المرة على أسس علمية حديثة واضحة ، وقد نشر منذ العام ١٩٦٥ م مجلدان في هذه المادة إضافة إلى حوالي عشرين بحثاً أو مقالاً أصلياً فيها .[٣] والدراسات الحديثة تخلص في مجملها إلى تأكيد الاستمرارية في النوع البشري الذي كان سائداً في بلاد النوبة منذ فترات ما قبل التاريخ المتأخرة ، بل أن بعضها أوضح خلو العينات المروية من الخصائص الزنجية حسب مواصفاتها الأنثروبولوجية المتعارف عليها ، كما أن هذه الدراسات تتفق في أن العنصر الزنجي لم يظهر بصورة واضحة في المنطقة إلا في المجموعة الحضارية «س» وهي التي أعقبت المرويين. وهكذا يتضح أنه من الأسلم أن نتحدث عن عنصر محلي أكثر من عنصر زنجي في منطقة بلاد النوبة خلال الفترة المروية. والدعامة الرابعة في إثبات أفريقية اللغة المروية هو الشبه الظاهري بينها وبين بعض اللغات

---

(٢) لتفاصيل هذا الموضوع والمراجع المشار اليها ، انظر الفصل الثالث من :
W. Y. Adams, **Nubia : Corridor to Africa,** (London: Allen Lane, 1977), p. 65 .

(٣) James M. Calcagno, «Odontometrics and Biological Continuity in the Meroitic, X - Group and Christian Phases of Nubia», **Current Anthropology**, Vol. 27 (1), 1986, pp. 66- 68 .

الأفريقية الحية ، والمحاولات البسيطة التي تمت في مجال المقارنة لم تأخذ شكلاً جاداً بعد نظراً لأن اللغات الأفريقية الحية في المنطقة لم تصنف بصورة متكاملة كما أن أمهات هذه اللغات والتي ربما عاصرت المروية في زمانها لم تكن مدونة مما يجعل المقارنة أمراً في غاية الصعوبة . ومن المحاولات المعروفة في هذا المجال هو ربط اللغة المروية باللغة النوبية القديمة والتي انتشرت خلال فترة الممالك المسيحية في شمال السودان ، وبما أن اللغة النوبية يصنفها اللغويون تحت سلالة اللغات السودانية الشرقية فإن الأمر تعدَّى هذه المقارنة ليشمل لغات نيلية معاصرة . وبالرغم من أن « تيار أفريقية اللغة المروية يلقى قبولاً طيباً رحباً عندي » (ص ٦٦) إلا أن الكاتب يحذر من عقد مثل هذه المقارنات في الوقت الحاضر ويشكك في جدوى ما توصلت إليه ، ويميل إلى أن تُركّز الجهود في معرفة « اللغة المروية نفسها من الداخل » (ص ٢٨٢) ، وهكذا نرى أن هنالك صعوبة واضحة في قبول الحجة الرابعة كدعامة رئيسة لإثبات أفريقية اللغة المروية بالمعنى الذي قصده الكاتب .

يتناول الفصل الثاني موضوع الكتابة المروية ، من ناحية طبيعة تكوين حروفها وأشكال رموزها ، وهو فصل متخصص دمج فيه المؤلف معرفته المتعمقة باللغة المصرية واللغة المروية والكتابة المروية كما أبان المؤلف شبه أبجدية لها خطان أحدهما هيروغليفي وثانيهما مختزل وكلاهما منحدر من أصول مصرية . والمرويون لم يأخذوا كل الأبجدية المصرية بل اختاروا بعضاً منها وأكملوها من بعض الرموز متعددة الأصوات بعد تعديلها حتى صارت لغة مكتوبة ، أبجديتها من ثلاثة وعشرين حرفاً كلها مفردة الأصوات فيما عدا رمزين . ولتوضيح هذا التطور في الكتابة المروية بدأ المؤلف بتشريح للرموز الهيروغليفية المستعارة حيث قسّمها إلى خمس فئات هي رموز الأبجدية ، ورموز الأصوات ، وفئة ثالثة فيها رمز واحد والرابعة فيها رمزان ليسا من الحروف الأبجدية المصرية أو رموز الأصوات ، أما الفئة الخامسة فرموزها ليست أبجدية مصرية أو رموز معان أو أصوات وإنما هي من النوع الذي يرد في حالة خاصة في الكتابة المصرية . وقد فصل الكاتب في شرح هذه الفئات مستعيناً بالأشكال والشواهد المتعددة . وبالرغم من أن الكتابة المروية أخذت رموزها من اللغة المصرية القديمة إلا أن طريقة كتابتها تخالف المصرية تماماً ، ولتوضيح هذه النقطة يعرفنا الكاتب في أسلوب واضح وبسيط برموز الكتابة المصرية أولاً وكيفية الكتابة بها ثم يعدد نقاط الاختلاف الرئيسة ، وتتلخص هذه النقاط في الآتي :

(١) أن الكتابة المصرية الهيروغليفية تستخدم عشرات الرموز بما فيها أربعة وعشرون حرفاً هجائياً والأرقام بينما الكتابة المروية تستخدم ثلاثة وعشرين رمزاً فقط تكتب هجائياً تقريباً إضافة إلى فاصلة بين الكلمات والأرقام .

(٢) أن الكتابة المصرية تشتمل على عدد هائل من الرموز متعددة الأصوات بينما تشتمل المروية على رمزين فقط لكل واحد منهما صوتان .

(٣) أن الكتابة المصرية تخلو من الحروف المتحركة بينما يوجد منها ثلاثة حروف في المروية .

(٤) أن الكتابة المروية شبه أبجدية .

(٥) توجه الرموز في الكتابة المصرية التصويرية نحو بداية السطر وتقرأ من الجهة التي توجه نحوها الرموز أما اتجاهها في المروية التصويرية فهو عكسي ، نحو نهاية السطر ، وتكون القراءة من الجهة التي توليها الرموز ظهورها (ص ١٢٣ - ١٣٢) . ومن ناحية أخرى هنالك اختلاف بين الخطين المروي المختزل والمصري الديموطيقي إذ أن الخط المروي مكتوب كتابة هجائية باستثناء رمزين بينما احتفظ المصري الديموطيقي بعناصر الكتابة الهيروغليفية . ويرى الكاتب أن أبجدية اللغة المروية في خطيها الهيروغليفي والمختزل قد ساعدت على انتشار كتابتها وسط المرويين من خارج طبقة الكهان وموظفي الدولة، وهذا رأي مخالف لما هو شائع في الكتابات غير المتخصصة في اللغة المروية، ويبدو أن هذا الرأي يجد تأييداً من بعض الثقات في دراسة اللغة المروية .[٤] وفي نهاية هذا الفصل نجد ملخصاً قيّماً لكتابات الشرق الأدنى القديم حتى نرى موقع الكتابة المروية في إطار

(٤) B. G. Haycock, The Problem of the Meroitic Language, «in R. Thelweu (ed). **Occasional Papers in Linguistics and Language Learning,** No. 5; **Aspects of Language in the Sudan,** (The University of Ulster. 1978) . pp. 50 - 81 » .

التاريخ الكتابي المعروف في المنطقة .

الفصل الثالث ، وهو أطول فصول الكتاب (١١١ صفحة) يتناول قصة فك رموز اللغة المروية في سرد تاريخي شيق يقدم فيه المؤلف عرضاً لاجتهادات العلماء المبكرين بدءاً من القرن التاسع عشر بكثير من التفصيل وكذلك اجتهادات المعاصرين منهم في شيء من الإيجاز ، وبعد ذلك يطرح وجهة نظره في اجتهادات كل واحد منهم . والجزء الخاص بمساهمات القدماء يكتسب أهمية خاصة لأنه مفصل وتحرى فيه المؤلف الدقة والتوضيح وهو بهذا يفي باحتياج الباحث وربما يغنيه عناء الرجوع للمصادر الرئيسة ، وهو من جهة أخرى فيه رصد موضوعي لتطور المنهجية وفكر الباحثين على اختلاف مدارسهم ، ومن القدماء وجد العالم البريطاني قرفث وضعاً خاصاً ، إذ أن فك رموز اللغة المروية تم على يديه بصورة فعلية وهو الذي اكتشف الاتجاه الصحيح لكتابتها ، وبالنظر إلى منشوراته العديدة في ما بين ١٩٠٩ - ١٩٢٩ م يلاحظ أنه تمكن في هذه الفترة من قراءة الخطين الهيروغليفي والمختزل ، وتوصل الى معرفة رموز الكتابة الهجائية وهكذا « بقيت دراساته ونتائجها حجر الأساس لأي دراسة في اللغة المروية بعده ، وفيصلاً بين من كانوا قبله ومن جاءوا بعده » (ص ٢٤٩) . وقد دعم المؤلف هذه النظرة لأعمال قرفث بالأمثلة التوضيحية لإنجازاته ، شارحاً الخطوات التي اتبعها في فك رموز اللغة وكيف توصل إلى قواعدها النحوية ومفرداتها وتطور الخط فيها ، وهكذا فالقراءة المتأنية لهذا الجزء من الفصل تصبح ذات فائدة تعليمية للمبتدئين في دراسة هذه اللغة . أما المحدثون من الباحثين فيعرض المؤلف لمجهوداتهم وما توصلوا إليه عرضاً محايداً فيما عدا حالة واحدة . وقد أشار إلى أنه لا يريد أن يقوّم عملهم « ذلك لأنهم ربما يغيرون في المستقبل القريب بعض آرائهم حول بعض المسائل في اللغة المروية تغييراً جوهرياً ويكون قد صدر عليهم مني حكم لا يدرأ بعد طبعه ونشره . . . » (ص ٢٧٩) وليته فعل . فمما لا شك فيه أن دراسات اللغة المروية تمر الآن بمنعطف يتطلب طرح وجهات النظر بجرأة ووضوح ، وهو أمر مطلوب ، على كل حال ، في كل المسائل المتعلقة بتقدم العلوم . وفي نهاية الفصل يطرح الكاتب أسلوبه ومنهجه في دراسة اللغة المروية والذي يتمثل أولاً في تجزئة الكلمات المركبة إلى عناصرها أو جزئياتها الصغيرة لحصرها وعزل الجديد منها ، وهذا من حيث البناء اللفظي لا المعنوي . بعد ذلك تأتي مرحلة التعرف على الخصائص الظاهرية في تركيب الكلمات ثم الاستعانة بالكلمات المصرية الدخيلة للتعرف على معاني الكلمات المروية ، وكان من نتائج ذلك معرفة بعض معاني الأدعية الجنائزية وكشف معاني الأسماء مما ساعد في القاء الضوء على بعض جوانب المجتمع المروي .

والقارىء ، في النهاية ، يجد نفسه بدون شك أمام عمل كبير بذل فيه المؤلف جهداً فكرياً واضحاً ، وهو من ناحية يمثل خطوة مهمة في كسر حاجز « العزلة الأكاديمية » التي لازمت دراسات اللغة المروية لوقت طويل .

العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ٣٤١-٣٤٨ (١٩٨٧)

نظرية جديدة في تفسير وظيفة القصور الصحراوية ونشأتها

تأليف : H.Gaube

للدكتور محمود إبراهيم حسين

ملخص البحث : نتناول في هذا العرض نظرية جديدة في تفسير نشأة القصور والأبنية الصحراوية ووظيفتها في مناطق الأردن، وفي بعض أجزاء من صحراء سوريا ، وقد قام «H. Gaube» بهذه الدراسة ، وهو أستاذ للآثار الإسلامية في جامعة توبنجن بألمانيا الغربية ، وتعتمد هذه النظرية على الاقتصاد وعلى الأحداث السياسية التاريخية كعوامل أساسية في تفكير الأمويين عندما شرعوا في بناء هذه القصور .

وقد قسم جاوبه بحثه إلى أقسام عديدة تناول خلالها اكتشاف هذه القصور والأبنية الصحراوية ، ثم حاول جمع ما أمكنه من معلومات عن هذه القصور والأبنية ، ثم طبيعة منطقة الشام كوحدة جغرافية وكذلك التقسيمات الأخرى داخل هذه البيئة الجغرافية ، كما قام بتحليل فكرة المستعمرات الزراعية في بادية الشام ، وتحدث عن دور هذه المنطقة تاريخياً من خلال موقعها الجغرافي ، وأفرد كذلك فصلاً من بحثه عن الميراث الكلاسيكي والدولة الأموية ثم فصلاً عن علاقة السكان في تلك المناطق بالدولة الأموية ، ودور هؤلاء السكان في مرحلة ما قبل الإسلام ، ثم أفرد فصلاً عن هذه القصور الأموية مثل قصر عمرة ، وقصر الحرانة وقصر جبل أسيس وقصر المشتى ، والأخيضر .

ونظرية هذا الباحث الألماني الذي قضى فترة ليست بالقصيرة في منطقة الأردن وصحراء الشام بصفة عامة جديرة بالمناقشة ، فهي تحمل آراء قد نتفق معه فيها وقد نختلف ، وهذا الاتفاق والاختلاف يأتي من منطلق أن البحث العلمي سلسلة يكمل بعضها البعض ، وأن قضايا البحث العلمي ونظرياته يقبل عليها الإنسان بنفس الحماس حين يتفق معها أو حين يختلف معها . . وقد كان هذا دافعنا لهذا العرض وهذا التعليق . . ويلاحظ القارىء أننا عرضنا للنظرية في حياد تام دون المساس بالنصوص الأصلية . أما رأينا في مشكلة القصور الأموية فربما يعكسه بحث نتقدم به الى المجلة في عدد لاحق إن شاء الله نتناول فيه هذه المشكلة من وجهة نظر قد تختلف مع نظرية « جاوبه » وقد تختلف مع النظريات السابقة ، وقد اكتفينا هنا بإضافة بعض التعليقات كلما اقتضى الأمر ذلك .

موضوع هذا البحث كان في الأصل « موضوع رسالة الدكتوراه » التي أعدها المؤلف H. Guabe أستاذ الآثار الاسلامية في جامعة توبنجن بألمانيا الغربية ، وقد نشر هذا البحث في « مجلة الجمعية الألمانية الفلسطينية » والتي تصدرها الجمعية الألمانية لأبحاث فلسطين وذلك في الجزء ٩٥ ، الكراسة الثانية .[1]

---

(١) Zeitschrift des Deutschen Palaistina- Vereins Zugleich Organ des Deutschen Evangelischen Instituts fur Altertums Wissenschaft des Heiligen Landas, Band 95, Heft 2, (Weis baden, 1979) .
الرمز المختصر لهذه المجلة (.. Z D P V) .

وقد تضمن هذا البحث مدخلاً الى الموضوع ، واكتشاف القصور الصحراوية ومشكلات تأريخها ، والتفسيرات المختلفة لوظيفة هذه القصور ، ثم دراسة جغرافية للمنطقة ، وأعقب ذلك بدراسة علاقة الأمويين بالميراث الكلاسيكي ، ثم أحوال المنطقة في الفترة السابقة على الإسلام ، ثم عرض لعمارة الغساسنة ووصف لمنطقة الرصافة وخربة البيضا ، وبعد ذلك قام بتحليل سياسة عبد الملك تجاه بدو المنطقة ثم عرض لأعمال الوليد الأول المعمارية ، وعلاقة هذه العمارة بعمارة ما قبل الإسلام في المنطقة ، وتلي ذلك عرض لعمارة خلفاء الوليد الأول ، والوليد الثاني ، ثم وصف معماري لقصر المشتى والأخيضر ، وفي ختام البحث تأريخ لنهاية الأمويين وحكمهم .

وقد عرض H.Gaube(٢) تاريخ اكتشاف هذه القصور في صحراء الشام أو ما نطلق عليه اسم الصحراء السورية الأردنية وما جاورها من مناطق الى الغرب منها ، وأشار إلى أن اكتشاف هذه القصور كان في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأن هذه القصور اكتشفها مجموعة من الرحالة الأوروبيين ، وأن هؤلاء الرحالة وصفوا هذه القصور كما هي ، دون الدخول في دراسات تحليلية عن الغرض الأصلي من إنشائها ، وذكر أن أول هذه الاكتشافات كانت من قبل موزيل أثناء قيامه برحلته العلمية في نهاية القرن التاسع عشر ، فقد عثر الى الشرق من عمان على بناء من هذه المجموعة من « القصور الصحراوية » وكان هذا البناء مزخرفاً بالألوان والصور المائية . . وقام موزيل بنشر كتاب حول هذا القصر تحت عنوان « قصير عمرا Kuseir Amra »(٣) في سنة ١٩٠٧م (اللوحة رقم ١) ، لكن بظهور هذا العمل دارت مناقشات كثيرة ومتنوعة حول القصور الصحراوية وكرد فعل لكتاب Musil وخاصة فيما يتعلق بتفسير وجود هذا القصر أو تأريخه ، وكذلك القصور المعاصرة له ـ ظهر عملان كبيران لهرتزفيلد E.Herzfeld(٤) الأول بعنوان أصول الفن الإسلامي ، ومشكلة قصر المشتى ، والثاني بعنوان المشتى (اللوحتان رقما ٢ ، ٣) والحير والبادية « وذلك في الكتاب السنوي للأكاديمية البيروسية للفن وذلك سنة ١٩٢١م .(٥)

كما عاصر العمل السابق لهرتزفيلد عمل آخر للأب لامنس (H. Lammens) وحاول الأخير من خلال منظور تحليلي للحضارة والمجتمع المحيطين بهذه الأبنية الصحراوية أن يحدد تاريخ بنائها .(٦)

ولقد اتفقت الأعمال الثلاثة السابقة لكل من موزيل وهرتزفيلد لامنس على أن هذه الأبنية الصحراوية قد تمت في العصر الأموي ، وقام بعض العلماء بتحديد تاريخ لها فيما بين القرن الرابع والتاسع الميلادي .(٧)

وبعد أن انتهى جاوبة من هذا التحليل لتأريخ الاكتشافات

---

(٢) Prof,Dr. Heinz Gaube أحد القلائل المهتمين بآثار الشرق الأوسط وبصفة خاصة مناطق بلاد الشام ، وله حفائر في سوريا والأردن ، كما قام بعدة مسوحات أثرية أيضاً في غور الأردن ، وقد اشترك كاتب المقال والدكتور هاينز جاوبه في تدريس مقرر العمارة الاسلامية لطلاب الماجستير في جامعة اليرموك ، وكانت فرصة لكاتب المقال للمحاورة والمناقشة مع هاينز جاوبه في كثير من أمور العمارة الاسلامية ـ ويشغل هاينز جاوبه منصب أستاذ الآثار الاسلامية في جامعة توبنجن .

(٣) A. Musil, **Kunseir Amra** (Wien, 1907) .

(٤) Die Genesis der islamischen Kunst und das Mushatta Problem «**Der Islam**» 1910, pp. 27 - 63 .

(٥) Mshatta, Hira und Badiya jahrbuch der Ronglish preusischen Kunst - Sammlungen, (Berlin 1921) .

(٦) Ul. Lammens, La Badiya et La Hira Saus Les Omeiyades, **M.Fo.B.4** (1910), pp. 91 - 112.

(٧) ذكر جاوبه هؤلاء العلماء وهم حسب الترتيب الزمني لأبحاثهم :

J.V. Karbacek, A. Musil, J. Strzygawski, F. Altheim und Ruth Stiehl .

ولا شك أن الفترة التاريخية التي حددت من قبل هؤلاء العلماء كانت طويلة فهي تبدأ من قبل العصر الإسلامي وتنتهي بعد العصر الأموي ، وربما كان ذلك مقصوداً لرغبة هؤلاء العلماء في نسبة جزء من هذه القصور والأبنية الصحراوية إلى فترة ما قبل الإسلام أو حتى أجزاء منها ، وبالتالي جاء المسلمون من بني أمية ليعيدوا بناء بعضها على نفس الأسس القديمة ، أما بالنسبة لجاوبه فربما يخدم هذا الرأي نظريته التي يعرض لها في هذا البحث والتي يتبنى فيها فكرة إستمرارية الاستراتيجية السياسية تجاه القبائل العربية منذ فترات ما قبل الإسلام وحتى العصر الأموي خاصة في مناطق بادية الشام ، كما يحاول أن يوجد استمرارية معمارية بين فترات ما قبل الإسلام وبين الفترة الأموية أيضاً . وربما يكون هذا هو السبب الذي دفعه إلى عرض رأي هؤلاء العلماء ويضيف بأن الفن الإسلامي بصفة عامة في الفترة المبكرة قد اعتمد على الفن الهلينستي في سورية وما بين النهرين .

أنظر : **K. A. C. Creswel, Early Muslim Arcjitecture, I Umayyads A.D. 611- 750** (Oxford, 1969).

الأثرية لهذه القصور الصحراوية ، عاد مرة أخرى يتحدث عن تفسيرات لهذه القصور ، وذكر أن التفسيرات المبدئية التي ذكرها باحثون وعلماء أوروبيون حتى الثلاثينات من هذا القرن ، كانت في مجملها حول رأياً واحداً هو : أن هذه الأبنية عبارة عن استراحات بناها الأمويون للمتعة واللهو حيث كان هؤلاء الأمويون يخرجون في هدوء الى الصحراء وهوائها الطلق بعيداً عن المدن ورجال الدين ، واعتمد بعض هؤلاء المستشرقين على نصوص من كتاب « الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني عن حياة الوليد الثاني » ، ويذكر «H. Gaube» بعد ذلك أن كثيراً من هؤلاء المستشرقين قد غيروا نظريتهم هذه عن وظيفة القصور الصحراوية وتفسير سبب بنائها من قبل الأمويين ، وضرب «H. Gaube» مثالاً على ذلك بالمستشرق الفرنسي . . Jean Sauvaget(٨) الذي ذكر رأياً مشابهاً لما سبق في مرحلة مبكرة من حياته وعلى وجه التحديد سنة ١٩٣٩م ، ثم عاد في سنة ١٩٦٧م الى القول برأي جديد(٩) وهو أن هذه القصور الصحراوية كانت مركزاً للإشراف على المستعمرات الزراعية بمنطقة بلاد الشام واستشهد بنصوص من كتاب البلاذري « فتوح البلدان » والذي ذكر فيها أن هشام بن عبد الملك حفر قنوات وعمّر أراضي زراعية في تلك لمناطق .

وفي مقابل رأي « سوفاجيه » الجديد ذكر « جوبا » رأياً مضاداً للعالم الألماني « فيلهاوزن » وملخص هذا الرأي أن الأمويين في فترتهم المتأخرة فقدوا حماسهم السياسي وكانوا يعيشون في حالة من عدم الاكتراث بالأمور مما أدى في النهاية إلى انهيار دولتهم .(١٠)

وبعد أن انتهى جاوبه من عرض النظريات القديمة والسابقة عليه ، ذكر وجهة نظره وتتلخص في أن تفسير وجود هذه القصور الصحراوية يحتاج إلى تناول من منظور جديد ، وحدد ملامح هذا المنظور في النقاط التالية :

(١) أدلة تاريخية راسخة .

(٢) أدلة جغرافية .

(٣)) أدلة مستوحاة من تاريخ العمارة في المنطقة .

وتبعاً للمنهج الذي حدده «H. Gaube» لنفسه في هذا الموضوع تناول بالفعل جغرافية بلاد الشام وخاصة في الأجزاء الشرقية منها ، وكذلك دراسة التجمعات السكانية بها ، ثم تناول العلاقات السياسية والاقتصادية في هذه المنطقة وخاصة في العصور الكلاسيكية المتأخرة ثم عرض لتاريخ السياسة الأموية في المنطقة .

وفيما يتعلق بجغرافية المنطقة ذكر «H. Gaube» أن منطقة بلاد الشام تقع بين بلدين لهما حضارات مميزة هما مصر والعراق ، وأن بلاد الشام تتألف من مناطق متعددة من الشرق الى الغرب ، هي منطقة البحر ، ثم منطقة الجبال ثم منطقة زراعية داخلية ، ثم منطقة الصحراء .

ويقول أن منطقة شاطيء البحر وكذلك الجبال المواجهة للرياح كانت مغطاة بالنباتات الخضراء بينما المناطق الداخلية تتراوح الوانها بين البني والأخضر في درجات متعددة ، بالإضافة إلى وجود منطقة رمادية وسوداء تمثل مناطق بازلتية « بركانية » ، وفي هذه المناطق تقع المدن ، وعناصر السكان كانت أهالي المدن والفلاحين والبدو ، وتعكس العلاقة بين الفئات الثلاثة الطبيعة الحضارية للمنطقة .

وإذا كانت الحدود الغربية لبلاد الشام ثابتة نظراً لوجود سلاسل جبلية ، ففي المقابل نجد أن الحدود الشرقية متحركة ، فكان كل توسع في الحزام الحضاري باتجاه الشرق يمثل دخولاً إلى حياة البدو ، وكل تقارب بين السكان كان يؤثر في استقرار البدو أو جعل أهل المدن يتصفون بصفات بدوية وكانت هذه الأمور تتم في بلاد الشام بطريقة تشبه حركات الساعة ، ويقول أن الفترة الكلاسيكية المتأخرة قد شهدت توسعاً في الزراعة كما شهدت الفترة فيما بين القرن الرابع والقرن السادس الميلاديين زيادة للرقعة الزراعية في اتجاه الشرق ، وفي كل الأحوال كان الأمر يتعلق بقوة أو سلطة مركزية تستطيع أن تحمي الفلاحين من هجمات البدو ، وطبقة من رجال المدن تستطيع أن تدير وتنظم اقتصاديات هذه المناطق الجديدة وكان للفلاحين في تلك الفترات وزن

(٨) J. Sauvaget, Remarques Sur Les monuments Omeyyades 1 **Chateaux de Syrie**, j a 231 (1939) 1; 59.

(٩) J. Sauvaget, Chateaux Umayyades de Syria RET Umayyades des Syrie» **RET** 35 (1967), pp. 1 - 52 .

(١٠) J. Welhausen, Das arabishe Reish und sein sturz, (Berlin, 1960), p. 236 .

سياسي كبير ودرجة مميزة من الحضارة وأساس هذا التوسع في المرحلة الكلاسيكية المتأخرة هي الجهود التي بذلت من قبل إدارة الأقاليم الرومانية لشق طريق من خليج العقبة حتى نهر الفرات ، فعلى طول هذا الطريق أعدت خزانات لمياه الشرب وكذلك مواقع حصينة للحراسة . ويشير «H. Gaube» أيضاً إلى أن قيام الدولة الساسانية في ايران ، وقيام فلسفة هذه الدولة الجديدة على الهجوم وليس الدفاع فحسب جعلهم يقومون بإنشاء مجموعة مترابطة من الطرق المحصنة تحصيناً جيداً ومزودة بمصادر للمياه ـ ومستعمرات مسلحة لحماية الحدود السورية الشرقية ، وهذه الشبكة من الطرق والتحصينات التي أنشئت لم تكن بغرض مقاومة أي هجوم ساساني فحسب ، بل كانت أيضاً بغرض مراقبة البدو المنتشرين في المناطق الرعوية .

ويشير . . «H. Gaube» إلى أن العوامل الطبيعية ساعدت على إنشاء المستعمرات الزراعية ، وأن معظم سكان هذه المستعمرات كانوا من البدو ولم يكونوا من سكان المدن الداخلية ، وبمعنى آخر أن هذه المستعمرات الجديدة كانت مناطق لاستقرار البدو من العرب والذين استخدموا التخطيط الروماني في حفر الآبار ، كما أخذ سكان هذه المستعمرات الجديدة حضارتهم وأسلوب حياتهم من أهالي المدن الداخلية ـ بينما كانوا على علم بالعادات البدوية وطريقة معيشتهم ، نظراً لارتباطهم بصلات القرابة والعلاقات الاقتصادية .

كما أن الدولة البيزنطية ، عقدت كثيراً من الاتفاقات مع البدو من قبائل العرب ـ تدفع بموجبها الدولة البيزنطية أموالاً نظير حراسة الحدود من هجوم الفرس، وقد هاجم الفرس ومن معهم القبائل العربية في هذه المنطقة مرات عديدة وكانت النتيجة مزيداً من بناء المستعمرات والمدن الصغيرة والتحصينات العسكرية بالإضافة إلى العديد من الصوامع والأديرة ، وعن طريق المسح الأثري الذي قام به المؤلف توصل إلى نتيجة مفادها أن هناك ازدحام للمستعمرات في المناطق الجديدة ، واستطاع في مساحة مربعة طول ضلعها حوالي ٣٠كم أن يحدد معالم مدن وقرى صغيرة منتشرة على حافة الصحراء ، ويعدد المؤلف صفات المناطق الجديدة ، بأنها مناطق تتميز بالتمازج الحضاري البيزنطي السوري القديم والعربي ، وأن من نتائج هذا التمازج سرعة الفتوح الإسلامية ، وسهولة حكم الأمويين للمنطقة من ٦٦١ ـ ٧٥٠م وبدون مشكلات كبيرة ، ويقول إن المنطقة شهدت الإرهاصات الأولى للكتابات العربية الحالية والدليل على ذلك مجموعة النقوش ذات الكتابات الثلاثية اليونانية والسريانية والعربية مثل نقش «زبد» الذي يعود الى ٥١٢م[١١] ويشير « جاوبة » إلى أن زخارف الأبنية في هذه المنطقة كانت خليطاً من الطراز البيزنطي والسوري القديم محاطة بتصميمات بدوية عربية ، وأن اللغة الآرامية كانت بشكل واضح هي لغة أهالي المناطق الجديدة ، وأن العرب والسريان كانوا يفهمونها .

ويشير «جاوبه» واعتماداً على رأي لنلدكه أورده في كتابه عن أمراء الصحراء ، فحواه أن هذه المستعمرات تلقت ضربة في نهاية القرن السادس على أثر الخلاف بين البيزنطيين والغساسنة ، والذي ترتب عليه تصدع التحالف القبلي تحت زعامة الغساسنة ، وعلى أثر ذلك تفرقت القبائل العربية ، وتغير الميزان اللازم لدوام العملية الاقتصادية بشكل ناضج بين الفلاحين من جهة والبدو من جهة أخرى . . . وتناول جاوبه «H. Gaube» بعد ذلك علاقة الأمويين بالميراث الكلاسيكي والذي عرضناه في الفقرة السابقة ، فيذكر أن الدولة الأموية والتي مقرها الشام اعتمدت على البدو الموجودين في المنطقة عسكرياً ، وأن معظم هذه القبائل كانت في أماكن وجودها منذ فترة ما قبل الإسلام وذلك في منطقة ممتدة في الصحراء من الفرات حتى البحر الأحمر ، وأن سياسة التسامح الأموية نجحت في احتواء البدو ، وعجلت هذه السياسة بالتصالح بين فئات الشعب ومن بينها البدو ، وبدأ جاوبة بعد ذلك في التركيز على تأثير القبائل على سياسة كل من يحكم المنطقة سواء أكان الرومان أم البيزنطيون أم العرب ، وقال أن هذا التأثير القوي لم يمنع من استمرار هذه القبائل في معيشتها البدوية ، وأن مظهر هؤلاء

---

(١١) أبو الفرج العشي ، كتابات عربية ، مجلة الأبحاث ، العدد السابع عشر سنة ١٩٦٤ ، وكذلك E. Schau, Die dreisprachige Inschrift von Zebed, **Mitt. d. Konigl. Akd. d. Wissensh. Z. Berlin**, 1881, 169- 190. عن هذا النقش زبد وغيره من النقوش التي عثر عليها في المنطقة ومنها نقش حران ، ونقش أم الجمال ، وكذلك نقش جبل أسيس .

الأمراء كان مهيباً ، على الرغم من معيشتهم على حافة الصحراء ويعود جاوبه إلى التركيز على الغساسنة وتتبع أخبار مبانيهم في الصحراء أو أطراف الصحراء ، وأن هؤلاء الأمراء الغساسنة كانت لهم مبان أو قصور تشبه قصور حكام المقاطعات في أوروبا في العصور الوسطى ، تبرهن على ذلك مجموعات النقوش التي عثر عليها في مناطق الرعي ، وكذلك بعض أبنية الرصافة ، وقام المؤلف بتحليل عناصر عمارة هذه الأبنية في ضوء بعض الأخبار التاريخية عن مقابلات الأمراء الغساسنة لرسل الإمبراطور البيزنطي في الرصافة بأنه كان يشبه القلعة من الخارج ، ومن الداخل يشبه مسقطه إلى حد كبير . القصور الصحراوية ، ويتناول أيضاً في السياق نفسه مبني « خربة البيضا » ويذكر بأنه كان محاطاً من الخارج بالأبراج والدخول اليه لا يبدو سهلاً ، وينسب جاوبه هذا المبنى الى فترة الغساسنة في القرن السادس الميلادي ويضيف إلى أن هناك تشابه بين مباني خربة البيضا وبين أبنية بيزنطية من حيث تقسيم البناء الذي يبدو من الداخل وكأنه مخيم للبدو وتحول الى مبنى من الحجر ، ذلك أن مخيمات البدو في الصحراء كانت لها مكاناً كبيراً في منتصفها للاحتفالات ، وكذلك الأمر في أبنية خربة الرصافة وخربة البيضا ـ حيث انتظمت الغرف حول الصحن .(١٢)

وتحت عنوان « سياسة عبد الملك والوليد تجاه البدو » ينقلنا « جاوبه » إلى نقطة جديدة وهي أن فترة فتح المسلمين لسوريا (٦٣٣ ـ ٦٣٦م) كانت تتزامن مع انهيار واضح للعلاقة بين الغساسنة والبيزنطيين ، وأن الهيمنة الغسانية على بقية القبائل ضعف تأثيرها ، وأن العديد من أمراء الغساسنة هاجروا الى مناطق بيزنطية ، وبمرور الوقت بدأت تختفي قبيلة غسان ، وخلفاؤها ، لتحل محلهم قبائل أخرى تمهيداً لأن تلعب نفس الدور ولقد ربط معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي نفسه بهذه القبائل من خلال الزواج ، وذلك في فترة ولايته على الشام ، فقد كانت زوجته وأم ابنه وخليفته يزيد الأول (٦٨٠ ـ ٦٨٣م) من بني كلب ، وكان معاوية يعلم بدقة أسس ثبات أركان حكمه وسلطانه ، وكان بنو كلب وحلفاؤها من القبائل تعرف باليمنية . وفي المقابل مجموعة أخرى تعرف بالقيسية والتي جاء بعضها مع الفتوح الإسلامية اكتفت هذه القبائل بالغنائم التي كانت تعود عليها من قتالهم للبيزنطيين ، واستوطنت مناطق رعوية ، وبمرور الوقت ، وبعد مرحلة الفتوح وجدت القبائل القيسية أنها بدون مناطق كافية للرعي لأن الأراضي كانت مملوكة للعرب اليمنية ، وكان بين الأمويين واليمنية معاهدات بل كان حكمهم يرتكز عليهم وشعرت القيسية التي كانت قد تحملت عبء الفتوح الإسلامية أنها قد خدعت ، وأن عليها أن تطالب بحقوقها من اليمنية ومن الأمويين ، وجاءت هذه الفرصة عندما توفي معاوية وجاء للحكم بعده ابنه يزيد الأول سنة ٦٨٣م ، وعندما دعا عبد الله بن الزبير لنفسه خليفة في المدينة بايعته قبائل قيس في الشام ، وبدأت حروب واضطرابات لعدة سنوات عرفت في التاريخ باسم « حروب القيسية اليمنية » كما حدث اضطراب آخر بعد موت يزيد الأول وتولى معاوية الثاني الحكم ، ولكن ما لبث أن مات ، وبذلت القبائل المتاخمة للصحراء « بنو كلب » جهدها في سبيل أن يتولى الحكم شخص قريب منهم ، وهو مروان الأول أكبر أفراد الأمويين سناً ، كخليفة جديد ، وعقدت القبائل اليمنية والقبائل الأخرى اجتماعاً في الجابية حضره ممثلون للأسر الأموية وقاموا بتتويج مروان ودعمه بالعتاد والسلاح ، وكان زعماء بني كلب من اليمنية يعلمون أن ذهاب الأمويين يعني خسارة فادحة لهم ، ويشير « جاوبه » إلى أن « المسعودي» المتوفي في سنة ٩٥٦م عالج طبيعة علاقة زعيم القبائل

---

(١٢) يرى « جاوبه » أن مباني خربة البيضا وكذلك مباني الرصافة كانت من أعمال الغساسنة وأنها كانت تنقسم بصفة عامة الى قسمين رئيسين ، القسم الأول للاستقبالات والقسم الثاني كان سكناً محصناً ، ويعتقد جاوبه بأن فترة القرن السادس الميلادي ربما شهدت أبنية مشابهة في المناطق الواقعة بين خربة البيضا والرصافة ، أما فيما يتعلق برأيه بشأن مباني خربة البيضا وتشبيهها بمخيمات البدو فهو رأي قابل للنقاش من وجهة نظره ـ حيث أن هناك عوامل كثيرة في حياة العرب ، كذلك الطبيعة المناخية للمنطقة ربما كانت السبب في التشابه بين معسكرات البدو ـ وبين مبانيهم ـ وبالنسبة لمباني المنطقة والتي قال المؤلف أنها تشبه ـ إلى حد كبير ـ مباني البيزنطيين فربما يقصد المؤلف المباني التي تعود الى العصر البيزنطي في بادية الشام ، ولا شك أنها كانت تختلف عن مباني الدولة البيزنطية في أوروبا على سبيل المثال ، وفي رأي أن المباني في المنطقة سواء في العصور البيزنطية أو بعد ذلك إنما كانت تخضع لمفاهيم واحدة تتعلق بطبيعة السكان ، وهم القبائل العربية وطبيعة البيئة ، وهي البيئة العربية وربما كان هذا هو مصدر التشابه المعماري .

المعروفة « بنو كلب » والأمويون ، وقال : إن معاوية وعده في حالة اعترافه بخلافته ، أن يعطي الزعامة على القبائل في بلاد الشام ، وبمعنى آخر أن يعطيه ميراث الغساسنة ، وتولى مروان الخلافة وتبعه ابنه عبد الملك والذي تميز عصره بمحاولة جعل الدولة الإسلامية امبراطورية كبيرة مركزها الشام ، وحاول عبد الملك أن يتخطى الأزمات بين اليمنية والقيسية ، وهكذا أصبح عبد الملك مقبولاً كخليفة من كلا الفريقين ، ويعلل جاوبه هذه السياسة من قبل عبد الملك ، بأن عبد الملك كان لا يريد الهدوء على حافة عاصمة الخلافة ، بل كان يريد خلق قاعدة انطلاق قوية لامبراطورية عالمية ، وكان دور هذه القبائل النظام والهدوء في كل منطقة يظهر فيها اضطراب في أي موقع من الخلافة .

ومن هنا كان على عبد الملك كي يحقق سياسته السابقة أن يمارس نفوذه وسلطانه على القبائل البدوية ، وتفيد المصادر أن عبد الملك كان الخليفة الأموي الأول الذي استعمل استراحات ، فقد كان يقضي الشتاء على بحيرة طبرية ، وفي الصيف كان ينتقل إلى الجابية ، وفي فترة مارس إلى مايو في عاصمة الخلافة ، والشهور الحارة كان بعضها في بعلبك ، وهذا التنقل كان أمراً ضرورياً لنجاح سياسة عبد الملك الداخلية ، وليس أمراً فرضته طبيعة المناخ في هذه المناطق ، وكانت استراحات إقامة عبد الملك موزعة بين مناطق القبائل اليمنية والقيسية ، وتبعه ولده الوليد الأول في سياسته وكذلك في بناء استراحات في مناطق القيسية واليمنية ، فقد بني قصر الحرانة وهو عبارة عن مجموعة سكنية حصينة متصلة بغرف استقبال ، ويلاحظ « جاوبه » تشابهاً كبيراً في تصميم البناء والأبنية الغسانية في الرصافة وخربة البيضا ، بالإضافة إلى قصر عمره الذي بني في الفترة الثانية من حكم الوليد ، والذي أشار « جاوبه » إلى الصلة المعمارية بينه وبين المباني الرومانية من جهة ، وكذلك مع بعض قاعات الاستقبال عند المنذر في الرصافة ، وكان الحاكم يجلس في مقابل الباب ويستقبل ضيوفه ويتحدث معهم واقفاً على المشكلات الملحة .

وأشار « جاوبه » إلى جبل سيس الذي يقع عند حافة منطقة بركانية في الصحراء البازلتية والذي عثر فيه من قبل المستشرق الالماني K. Brisch على بعض النقوش الغسانية وعلى مسجد وحمام ومخازن وغرف نوم للاتباع والى جواره آثار ينابيع ماء ، وهو مكان مناسب ومثالي للقاء الخليفة مع القبائل البدوية التي تقع مراعيها[١٣] حول « جبل سيس » ، وتخطيط القصر «بجبل سيس » يمثل تخطيطاً لقصر من عهد الوليد الأول ، ويبدو المبنى وكأنه مؤلف من طابقين وهو أكبر من قصر الحرانة ، والمسقط الأفقي لجبل « سيس » هو نموذج فريد للعلاقة بين عادات ومطالب الحياة البدوية وبين العمارة الحجرية .

وهكذا يصل جاوبة إلى نظريته ، أن معظم هذه المباني الصحراوية يعود إلى فترة عبد الملك والوليد ، وأن الوظيفة الأساسية لهذه القصور كانت مقاراً لشيوخ القبائل وزعمائهم في مناطقهم والمناطق الخاضعة لهم وأن هذا النظام المعماري الذي نشأ عن رغبة في أن يحرس البدو الحدود الشرقية لبلاد الشام ، تطور على يد الغساسنة ، وبمساعدة البيزنطيين وخاصة جستنيان وأن هذه الطريقة نفسها استخدمت بمهارة شديدة من قبل عبد الملك والوليد الأول لتحقيق أهدافه السياسية .[١٤]

---

(١٣) يلاحظ القارىء استعمالنا لفظ « مستعمرات زراعية » وهي الترجمة لما استعمله المؤلف Agrarklolnissation وعلى الرغم من أن اللفظ بالعربية ثقيل على الأذن ، إلا أننا رأينا أنه من الأمانة استعمال لفظ المؤلف مع تعليقنا هذا .

(١٤) لا شك أن نظرية جاوبه تعتبر أحدث تفسير لوظيفة هذه القصور والأبنية الصحراوية وكذلك لسبب إنشائها ، وقد اعتمد هذا المؤلف فيها على عوامل جغرافية واقتصادية وكذلك سياسية تاريخية .

وربما تأثر جاوبه في نظريته هذه كثيراً بالعلاقة بين التفسير الجغرافي للتاريخ أو ما يعرف باسم جغرافية التاريخ . ولا شك أن النظرية جديرة بالقراءة لمن يتفقون معها أو من لا يقبلها ، فنحن أمام باحث لجأ إلى الأسلوب التحليلي في العرض ، وبحث عن الأسباب العميقة لموضوعه بينما كان الأمر يتعلق بالنسبة لمن سبقوه من الباحثين بمجموعة من الآراء دارت كلها حول حب الخلفاء للبادية ـ كما أشار إلى ذلك لانكستر هاردنج في كتابه عن آثار الأردن وهو رأي شبيه بما طرحه دانيال شلومبرجه في كتابه عن قصر الحير ، وأضاف اليه زكي محمد حسن « حب الصيد » في المناطق الصحراوية ، وكذلك ارنست كونل وفريد شافعي وعفيف بهنسي ، وكريزول وكمال الدين سامح ، وأخيراً فواز طوقان في كتابه القيم الحائر الذي ربط حب الارتحال والسفر في البراري كتقليد عربي قديم وبين مشكلة استصلاح أراضي زراعية جديدة ، ورأي بناء هذه القصور ربما لا يفسره سبب واحد وإنما الأمر يعود الى مجموعة من الأسباب مجتمعة . . . ولذا فإن هذه النظرية التي عرضها « جاوبه » كانت أقرب الى التفكير الأوروبي في تحليل أسباب وجود ذه الأبنية ولكنه مع ذلك التزم الدقة =

بسم الله الرحمن الرحيم

قسيمة اشتراك

السادة / دار المريخ للنشر

ص.ب.: ١٠٧٢٠ – الرياض: ١١٤٤٣

المملكة العربية السعودية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،،،

نأمل التكرم باعتماد اشتراكنا في مجلة العصور لمدّة .... سنة اعتباراً من ....
وحتى .... ، وذلك بواقع .... نسخة ، على أن ترسل من قبلكم إلى العنوان التالي :

....

....

....

....

ومرفق الشيك رقم .... بمبلغ .... قيمة الاشتراك .

التوقيع

تملأ هذه القسيمة وترسل على العنوان التالي :

دار المريخ للنشر – ص.ب. ١٠٧٢٠ – الرياض: ١١٤٤٣

تلكس ٢٠٣١٢٩ – تليفون: ٤٦٤٧٥٣١ – ٤٦٥٧٩٣٩

المملكة العربية السعودية

المراسلات والاشتراكات لجميع الدول العربية والعالم يتفق بشأنها مع:

- دار المريخ للنشر – ص.ب: ١٠٧٢٠
  الرياض: ١١٤٤٣ – المملكة العربية السعودية
- الدار العربية للنشر والتوزيع – ٤٩ جولد هوك
  Ty Derw, Dinas Mawddwy,
  South Gwynedd, Wales, SY 20 9 LR

الاشتراكات السنوية:

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
- الدول العربية (٣٥) دولار أمريكي أو ما يعادلها
- الدول الأوروبية (٤٠) دولار أمريكي
- أمريكا وكندا (٤٥) دولار أمريكي
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولار أمريكي

ORDER FORM

TO MARS PUBLISHING HOUSE
P.O. BOX 10720,
RIYADH - 11443,
KINGDOM OF SAUDI ARABIA.

Dear Sir,

Please provide us with .... copies from your journal the Ages for .... year effective from ....

Kindly send our issus to the following adress.

....

....

....

....

enclosed cheque no. .... amount .... U.S. Dollars.

Thank you

Signature.

Please fill this: order form and send it to:
Mars Publishing House
P.O. Box 10720,
Riyadh - 11443,
Tel: 4657939 - 4647531.
TLX: 203129 MARS SJ.

All MSS should be addressed to:

— Mars Publishing House,
P.O. Box 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.

— Ty Derw, Dinas Mawddwy,
South Gwynedd,
Wales, SY 20 9 LR

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE

— Saudi Arabia	S.R.	100
— All Arab Countries	U.S. $	35
— All European Countries	U.S. $	40
— U.S.A. & Canada.	U.S. $	45
— Australia & South Asia	U.S. $	50





Plate 6: ᶜAlayin or sun - clock

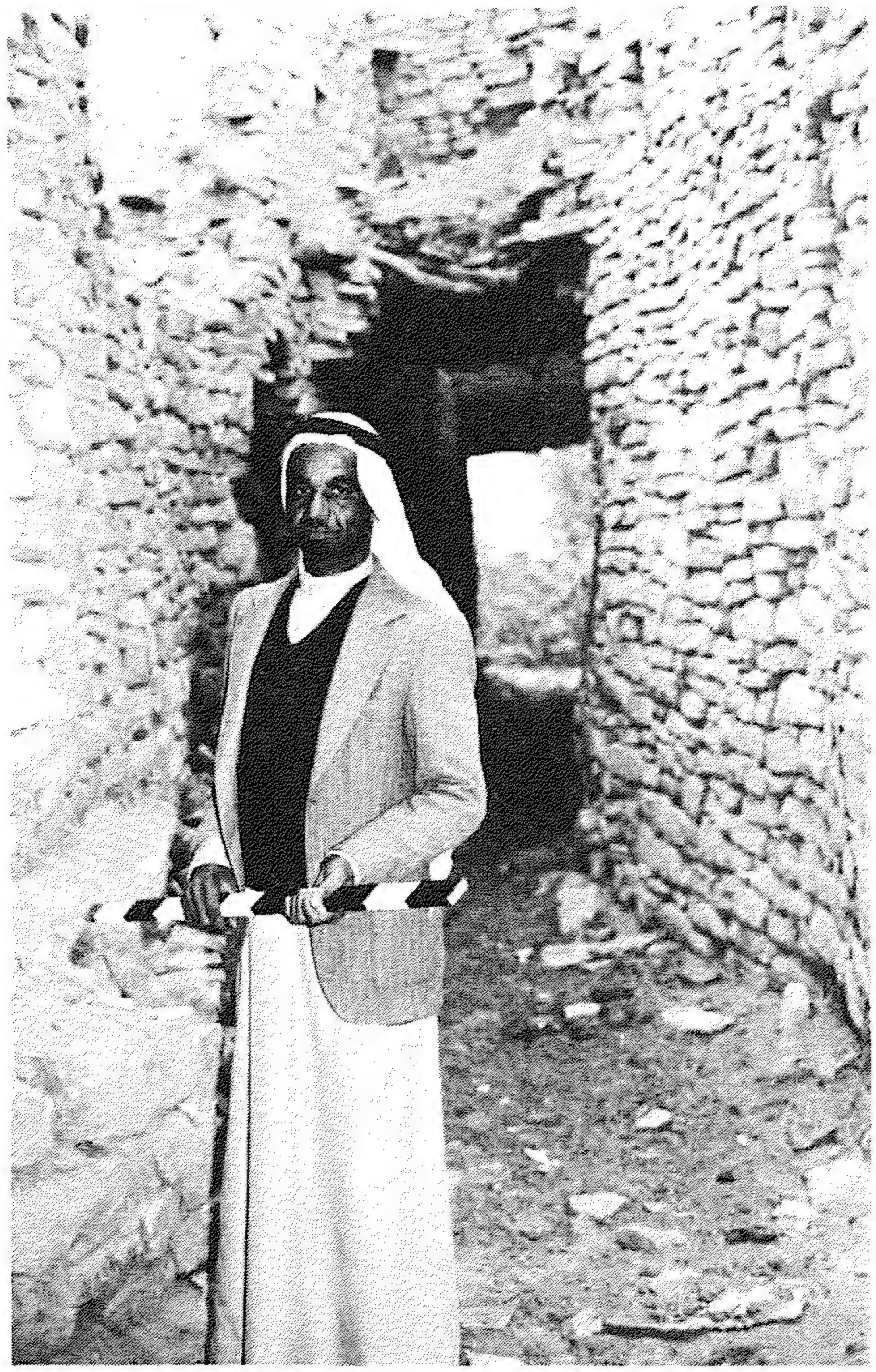


Plate 2: A street in the old town of Dūmat al-Jandal, Ḥārat ar-Ruhaiba', evidently narrow and roofed.



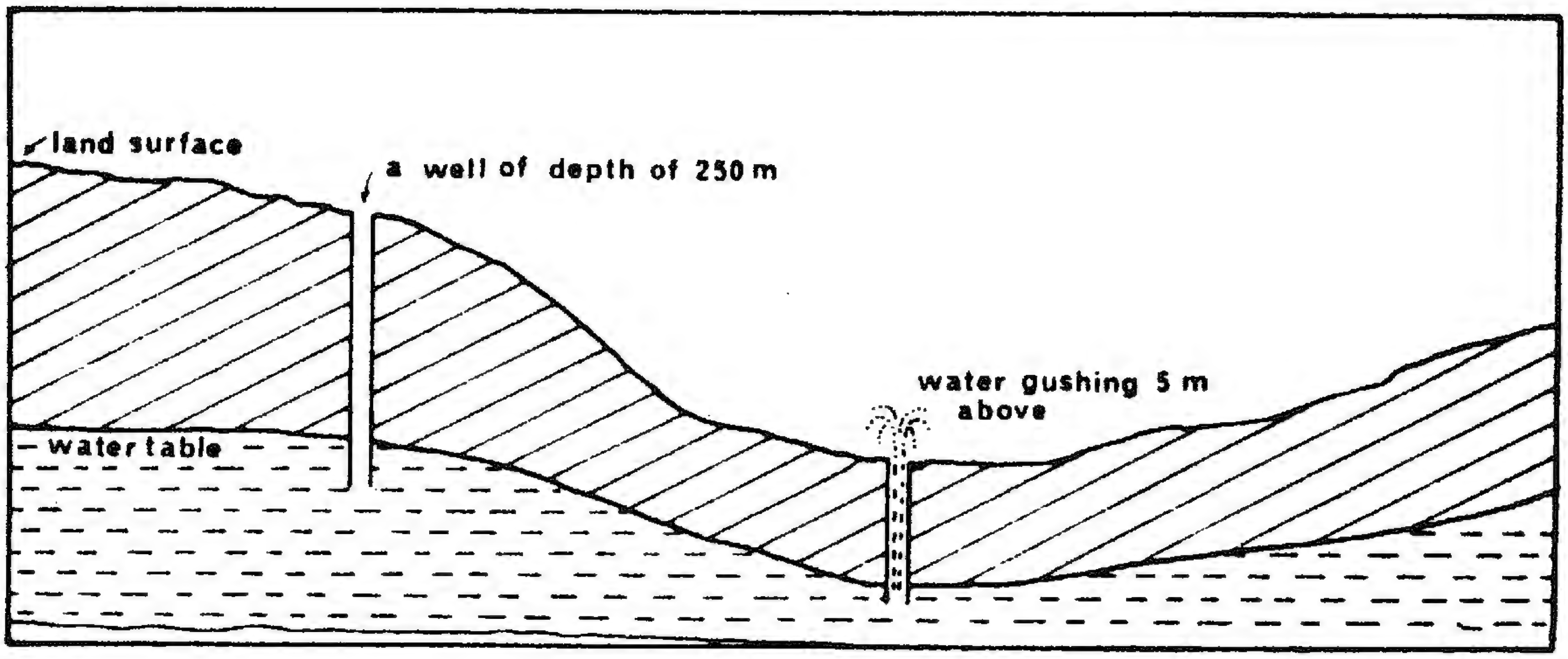
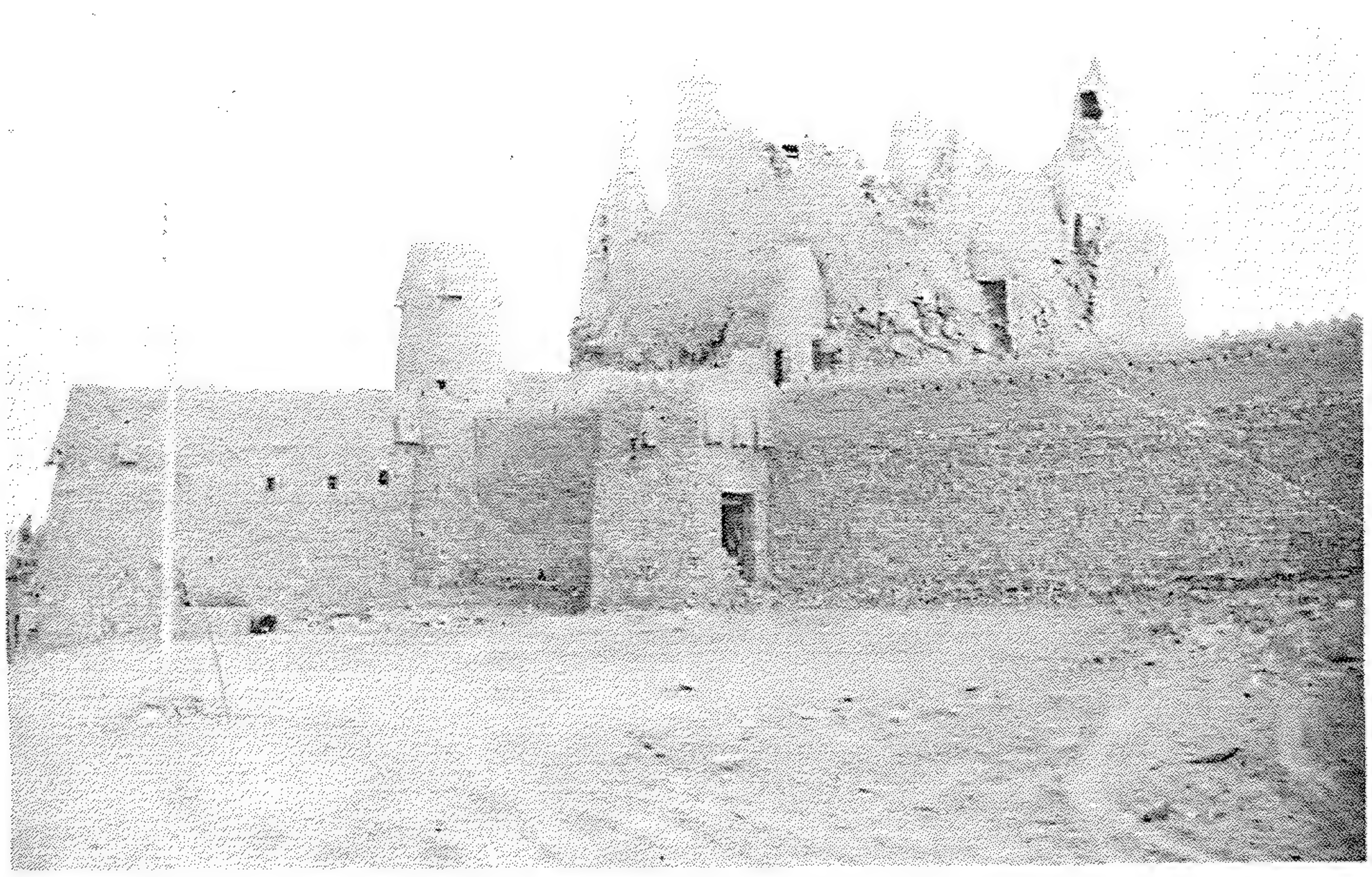


Fig. 1: An approximate cross-section showing the geological formations in Dūmat al-Jandal.



Plate 1: Qasr Mārid



the land surface. [21] The water capacity in this formation is good so is the permeability (1.5 meters/day), and it can be exploited in the designated area if water is wisely used. The quality of water in this area is also good for both drinking and agricultural purposes (Fig.1). According to an unpublished report on the well No. 1-NW-46, sunk by the Ministry of Agriculture and Waterworks for the purpose of providing Dūmat al-Jandal with a domestic water supply. This well was dug to a depth of 250m and its yield is 251 gal. per min. The static water level is 93 ft. (28.3m) and the dynamic water level is 107ft. (32.6m). The water temperatue is 30°C and 470 micro-mhos.[22]

Qanāt Water Distribution

The unit of water distribution in Dūmat al-Jandal is known as **mafrūq** or **wajbah,** the equivalent of 24 hours. This unit is divided into two parts: 'day' (**nahār**) and night'. The 'day' is further divided into either two parts, known as **zuhriyyah** and **ᶜAsriyyah** or four parts known as 'quarter days' (**rubᶜ nahār**). The 'night' is likewise divided. The task of water distribution is carried out by the shareholders, on an alternating basis. The length of the cycle of water distribution differs from season to season. During the winter, the cycle is of twelve days' duration. During spring and autumn it is eight days and in summer it is six days. The shareholder takes his share once for the number of days contained in the cycle of each season.

Method of Telling the Time

During the day the method used for telling the time in Dūmat al-Jandal is that of ᶜalālyim (or the shadow cast by a wall) and stone or bone markers are laid out on the ground (Plate 6). These markers are as follows:-

1. **Nis ar-rubᶜ** a stone or bone marker indicating a half quarter of the day from the time of sunrise.
2. **Ar-Rubᶜ**. First quarter of the day (an-nahār).
3. **Aẓ-ẓuhr.** (Noon)
4. **Al-ᶜAṣr** (After noon)
5. Ar-Rubᶜ **al-Akhir.** (Final quarter of the day before the onset of the night).

The day (an-nahār) begins with the sunrise. This time is known as **ᶜadlah.** Sunset is when the day ends, which is known as **maghrib.**

During the night the time is told by means of the movement of three stars: ath-Thurayyā (Pleiades) which is followed during the winter; ar-Raqīb, used during the spring and autumn; an-Nasr (lit. eagle), followed during the summer. ᶜAbdallah Muhannā, in a private communication to the writer, gives information which is different from the above.[23] He says that during the night water was distributed at a place similar to that used during the day: a wall was employed, with markers laid out on the ground, at intervals. But instead of observing the shadow of the wall on the marker (as during the day), the observer stood on the marker and observed the passage of the star over the edge of the wall. During the first part of the night the distributor would stand on a certain marker and observe the movement of the star known as an-Nasr al-Kātif, over the top of the wall. At midnight he would concentrate his attention on ath-Thurayyā, or ar-Raqīb if the former should disappear. During a cloudy, starless night, the task of gauging the time would be given to a trustworthy man.

A list of some of the technical terms used in the qanāt systems in Dūmah.

ᶜādī or sirī	: **Open water channel.**
ᶜain :Qanāt	: **A horizontal underground channel bearing water from a water-bearing formation to the land surface.**
ᶜalāyim	: **Sun-Clock**
bi'r	: **Mother well**
qanāh	: **Shaft**
sarab	: **Underground tunnel.**
sharīᶜah	: **Point where the water-flow emerges on the surface of the land.**
qassām	: **Distributor of qanāt water.**

(21) It is to be noted that when we approach the agricultural area, we find that the water gushes out to the surface. The Government has recently started an irrigation and drainage project in Dūmat al-Jandal in order to save the water gushing out, causing the well known salt swamps which are decreasing in size upon the completion of more than 80% of this project.

(22) The author is grateful to the geologists of the Ministry of Agriculture and Waterworks, Brs. Nāṣir al-Waṭbān and Saᶜīd Daif-Allāh al-Harbī, for this piece of information.

(23) Mr. Muhannā is an inhabitant of Dūmat al-Jandal, and the letter he sent me was dated, 7th Jan. 1978.

the Western visitors to the area, referred specifically to these underground water channels which he describes as follows:-

> **"From time to time there are discovered subterranean aqueducts, built of hewn square stones of a most careful and excellent workmanship, which in former times perhaps served the purpose of gathering the rain into the wells, or of carrying the water from springs and wells, which have now disappeared. During my sojourn here, an ancient aqueduct was laid open in Alsa'idān, which was so spacious that a man could stand in it almost erect, and which seemed to lead to the only well, existing in that plantation. As it was quite filled up with sand, there was only a small part of it opened as yet, and neither its source nor its termination had been ascertained. Others have been discovered in the town itself, leading to places where at persent no traces of cultivation are to be seen".(14)**

We do not know however, when these **qanāts,** were constructed, because of the dearth of inscriptions at Dūmat al-Jandal, however, one of these found is Minaean and the remainder are Nabataean but none of them throw light on the **qanāt** systems. (15) Winnett is correct in his observation that there are no rock in the area surrounding the site, on which inscriptions could be made, and suggests that the only way to obtain information on the ancient history of the site is by excavation. (16)

The treaty between the Prophet Muḥammad (Peace be upon him) and Ukaidir, the rular of Dūmat al-Jandal, in the 9th year of the Hijrah (630 A.D.), does however, refer to flowing water. From this we can reasonably hypothesize that certain of the qanāts, were in existence at that time.(17) From the Wallin's report and from what was related to the present writer during this visit to the area in 1980, it seems that all or most of the ancient **qanāt** in Dūmat al-Jandal had fallen into disuse and had been abandoned. Some of them have been rediscovered and renovated by the time of Wallin's visit during te 19th Century and thereafter. This is very similar to the process of rediscovery and restoration of the al-ᶜUlā **qanāts.**(18) The first **qanāt** to be restored in Dūmat al-Jandal was the Khadhmā' **Qanāt,** and below we give a list of the **qanāts** which wre renovated:-

(a) Qanāts still functioning. All the following qanāts, 1-13, are said to be to the east of Dūmah.

1. al-ᶜAbbās
2. bin ᶜĀmir
3. ad-Dalhamiyyah
4. Falhā'
5. al-Habbūb
6. Khadhmā'
7. al-Kubrā
8. al-Muhāribiyyah
9. al-Muṣairi ᶜiyyah
10. al-Qunayyah
11. ar-Ruḥaibīn
12. as-Salmān
13. as-Su ᶜaidān

Qanāts were restored but have fallen into disuse again.

1. Abū Al-Jibāl
2. Abū aṭ-Ṭīn
3. Ahl al-Buhairat
4. Ahl Ghuṭṭī
5. Ahl Saḥarah
6. Ahl al-Wādī
7. al - ᶜArjān
8. Baḥr ar-Rāshid
9. bin Ḥusainī
10. bin Huwaishil
11. Birkīn
12. Haddāj

These **qanāts** are situated in the western part of Dūmah, with the exception of **qanāts** nos. 1, 2, 4, 8, 10, 11 and 12.

All the qanāts are very short, none of them exceeding 150 meters in length. This is because Dūmat al-Jandal is situated in a depression, the floor of which, according to the British Admiralty, is about 500 ft. (152 meters) below the surrounding desert (see Plate 5). (19) Musil says of this depression: "This basin is about one hundred kilometers long, about ten kilometers wide, and forty or fifty meters deep. The run-off flows down the surrounding hights into it and remains throughout the year on the underlying rocks under a layer of coarse sand and gravel, emerging at many places in the form of springs and elsewhere filling wells from four to twenty meters deep." (20)

According to an unpublished report by the Ministry of Agriculture and Waterworks, the Jawf Formation comprises crystalline limestones with the approximate thickness of 170 meters. The sandy strata (sand beds) and fractures are the principal, source of water. It is well exploited in Dūmat al-Jandal and in the surrounding areas (a circle of 15 km radius). The water level is often artisian in Dūmat al-Jandal and may reach 5 meters above

(14) Wallin, p. 145.

(15) Winnett and Reed, p. 73.

(16) Winnett and Reed, p. 73.

(17) Ibn Saᶜd, **aṭ-Ṭabaqāt al-Kubrā,** vol I (Beirut: Dar Sādir, 1376/ 1957), pp. 288-9.

(18) *See* A.A. Nasif, "Qanats at al-ᶜUlā" **Proceedings of the Seminar for Arabian Studies,** vol. X (1980), pp. 75-80; *see also* A.A. Nasif, "al-Qanawāt wa al-Qawānīn az-Zirāᶜiyyah fī al-Madīnah" **Ages, Journal of Historical, Archaeological & Civilization Studies,** vol I Part 2 (1986), pp. 199-212.

(19) British Admiralty, **A Handbook of Arabia,** vol I (London, 1920), p. 387.

(20) Musil, p. 472.

(b) Ḥārat aṣ-Ṣirm.
(c) Ḥārat ad-Dirwāzah.
(d) Ḥārat ar-Ruḥaibā.

The first of these lies betwen Qasr Mārid and the Mosque which is attributed to the Caliph ᶜUmar B. al-Khaṭṭāb (634-44 A.D.). Ḥārat aṣ-Ṣirm lies to the west of the Mosque and is divided by a narrow road into an eastern and western section. The eastern group of houses are situated near the Mosque and the western group adjoins the **Sūq** area and the Sūq al-Masḥab.[8] Unfortunately the whole section of Hārat aṣ-Ṣirm, including Sūq al-Masḥab was demolished in 1978 to make way for a public garden. Luckly we have a general view of the old town taken from Qaṣr Mārid by Geoffry King three years before this demolition took place.[9] The other two sections of the old town Ḥārat ad-Dirwāzah and Ḥārat ar-Ruḥaibā', lie to the east and north of the Mosque. They are smaller than the Hārat aṣ-Ṣirm. Although the two sections of Hārat ad-Dirwāzah and Ḥārat ar-Ruḥaibā' are still in existence, their houses are in a very poor state. It seems that they were deserted much earlier than the first sections. Hamad al-Jāsir says that although the houses of the old town were in a poor state of repair, there were some people still living there at the time of his visit in April 1970.[10] Al-Jāsir may however, be referring to Ḥārat aṣ-Ṣirm and Ḥārat al Māridiyyah.

The streets of the old settlement are norrow and do not exceed two meters in width. At intervals, they have been roofed and there are stone arches (Plate 3, a, b) in one street through ar-Ṛuhaibā district, there are benches built of stones and known locally as marābīᶜ. There are similar to those found in the old town of alᶜUlā and which are known there as dakkah. The Ruḥaibā district of Dūmat al-Jandal was bordered on the east by a wall with a single gate known as Dirwāzat Ibn Dirᶜ. Outside the wall there is an area of ruins which is devided into two sections: Hārat al-ᶜAbbās and Kharāb (lit. ruin) al-Ḥaṭṭāb. Ḥārat al-ᶜAbbās is entirely in ruins and the land is covered with fragment of stones. The date of its occupation is unknown. To the east of al-ᶜAbbās area, there are remains of a few mud brick houses and a mosque known as Masjid as-Saᶜīdiyyīn. These ruined buildings all lie within the Ḥaṭṭāb area. We do not know the period of the initial settlement of the Ḥaṭṭāb area but the inhabitants say that it was deserted approximately forty-five years ago. Philby believes that the ruins of the central hamlets of Sūq and the Sūq al-Ḥaṭṭāb, were of the same period as Mārid itself. Philby considers however, that the Qasr Mārid belongs to the Medievel Arab period. [11] Al-Ḥaṭṭāb however, belongs to the Jarbā clan which is a branch of the Shammar tribe. Ḥaṭṭāb was a head man and one of the leaders of Dūmat al-Jandal at the time of 'Ubaid ar-Rashīd who was sent by his brother the Amīr of Hā'il to dominate al-Jawf in 1838. [12] There are traces of a castle called Qasr Ḥaṭṭāb, lying to the east of Qasr Mārid. It is said to have been built by Ḥaṭṭāb to counter the Qasr Mārid which itself was occupied at the time by two group of people, one of wich was called ad-Dirᶜāan, who belong to the Banī Khālid tribe, and other called al-ᶜIrjān who belong to the Shammar tribe.

The Qanāts

There are a number of underground water channels in Dūmat al-Jandal, which were built to provide for the domestic and agricultural requirements of the population of the town (see Plate 4, a, b, c). Although this qanāt system has always been so vital for the economy of the area, the case here is rather similar to that which prevails at al-ᶜUlā; in both instances scholars have neglected the study of the underground qanāt systems and thereby have missed a considerable source of information concerning earlier civilizations. The apparent reason for this neglect lies in the word **ᶜain** or spring, by which the **qanāt** is known by the inhabitants. This word has misled scholars who visited the area into concluding that the **qanāt** was a natural phenomena. [13] Only George A. Wallin amongst

(8) See ᶜAbdallah b. Muhannā Muhammad at-Tamīm, **Madinat al-Jawf, Dūmat al-Jandal, bain al-Madi wa al-hādir** (Riyad-Matābi' an-Nahdah, 1981), pp. 18-19.

(9) King, p. 111 and **The Historical Mosques of Saudi Arabia,** p. 117.

(10) Hamad Al-Jāsir, **fi Shamāl Gharab al-Jazirah,** 1st ed. (Riyadh, 1970), p. 102.

(11) H. St. J. Philby, "Jauf and the North Arabian Desert", **Geographical Journal,** vol LXII (1923), p. 252.

(12) See G.A. Wallin, "Narrative of a journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suce, Arabā, Tawilā, al-Jauf, Jubba, Hāil and Nejd, in 1845", **The Journal of the Royal Geographical Society,** vol XXIV (1845), p. 146; *see also* as-Sudairī, pp. 45-48.

(13) For instance, Philby (p. 252) may have referred to the **qanāts** in Dūmat al - Jandal for he mentions «copious well - springs which provide slender running streams for the irrigation of the oasis». *See also*, W.G. Palgrave, **Narrative of a Years Journey Through Central and Eastern Arabia** (London and Cambridge, 1865), p. 59; and A. Musil, **Arabia Deserta** (New York, 1927), p. 472 .

Ages, Vol. 2 Part 2, 61 - 70 (1987)

The Ancient Qanat System in Dumat al-Jandal, Al-Jawf, Saudi Arabia

Dr. Abdallah Adam Nasif

Abstract: *Based on the archaeological investigations, the ancient underground water channel system, the qanāt, in Dūmat al-Jandal, which was built to meet the domestic as well as agricultural needs, has been discussed with special reference to the ancient town planning. The ancient settlement close to the fortress of Marid seems to have flourished during the early centuries A.D. The ancient unit of water distribution and the method of telling the time are also discussed.*

Much has been written on the history of al-Jawf; the most recent study being that by the Governer of the region the Amīr ᶜAbd ar-Rahmān A. as-Sudairī.(1) The most important archaeological work in the view of this writer however, is that by F. Winnett and W. Reed, following their visit to the area in 1962.(2) There is also, an article by Geoffry King on the Mosque of ᶜUmar in Dūmat al-Jandal.(3) Herein the ancient **qanāt** systems in Dūmat al-Jandal have been discussed with brief reference to the old town-plan.

The most striking archaeological feature of the area is the Mārid fortress (Qasr Mārid), but up to the present time none of the visitors to the site has been able to ascertain the date of the fortress (Plate 1). A mission from the Department of Antiquities and Museums in Saudi Arabia, has undertaken a sounding dug near the Qasr, but there is nothing has been said about the date.(4) In a guide book published by the same Department, the original foundations of the fortress date from the 3rd Century B.C. has been mentioned, but no evidence was given in support of this view.(5) As a proof however, that the fortress was in existence during the 3rd Century A.D., we might consider the proverb attributed to az-Zbbā': '**tamarrad** Mārid **waᶜazz** al-Ablaq". Arabic sources explain that az-Zabbā' exclaimed this when she failed to take the Mārid fortress in Dūmat al-Jandal and al-Ablaq fortress in Taimā'.(6) Az-Zabbā' or Zanūbyā was the Queen of Tadmur (Palmyra), who reigned until the spring of 272 A.D. when the Roman entered Palmyra.(7)

To the north of Qasr Mārid, there are the remains of the old settlement of Dūmat al-Jandal (Plate 2). The old town was divided according to the local people into four small sections as follows:

(a) Hārat al-Māridiyyah.

---

(1) ᶜAbd ar-Rahmān b. Ahmad b. Muhammad As-Sudairī, **al-Jawf, Wādī an-Nifākh**, (Sakākā, al-Jawf and London, 1406/1986).

(2) F.V. Winnett, and W.L. Reed, **Ancient Records from North Arabia** (Toronto, 1970).

(3) Geoffy R. King, "A Mosue Attributed to ᶜUmar b . al-Khattāb in Dūmat al-Jandal in al-Jawf, Saudi Arabia", **Journal of the Royal Asiatic Society** of Great Britain & Ireland, No. 2 (1978), pp. 109-23; see also, **The Historical Mosques of Saudi Arabia** (London, 1986), pp. 117-20.

(4) R. Adams, and others, "The preliminary Report on the first phase of the comprehensive Archaeological survey program", **Atlal, The Journal of Saudi Arabian Archaeology**, vol. I (1397 AH/1977), p. 38.

(5) **An Introduction to the Saudi Arabian Antiquities**, issued by the Department of Antiquities and Museums, Ministry of Education, Saudi Arabia, vol. I (1975), p. 97.

(6) Abī al-Fadl Ahmad b. Muhammad an-Naisābūrī Al-Maidānī, **Majmaᶜ al-Amthāl**, vol I (Beirut: Dār Maktabat al-Hayāh, 1961), p. 173.

(7) Philip K. Hitti, **History of the Arabs from the Earliest Times to the Present**, 10th ed. (London, 1970), p. 76.

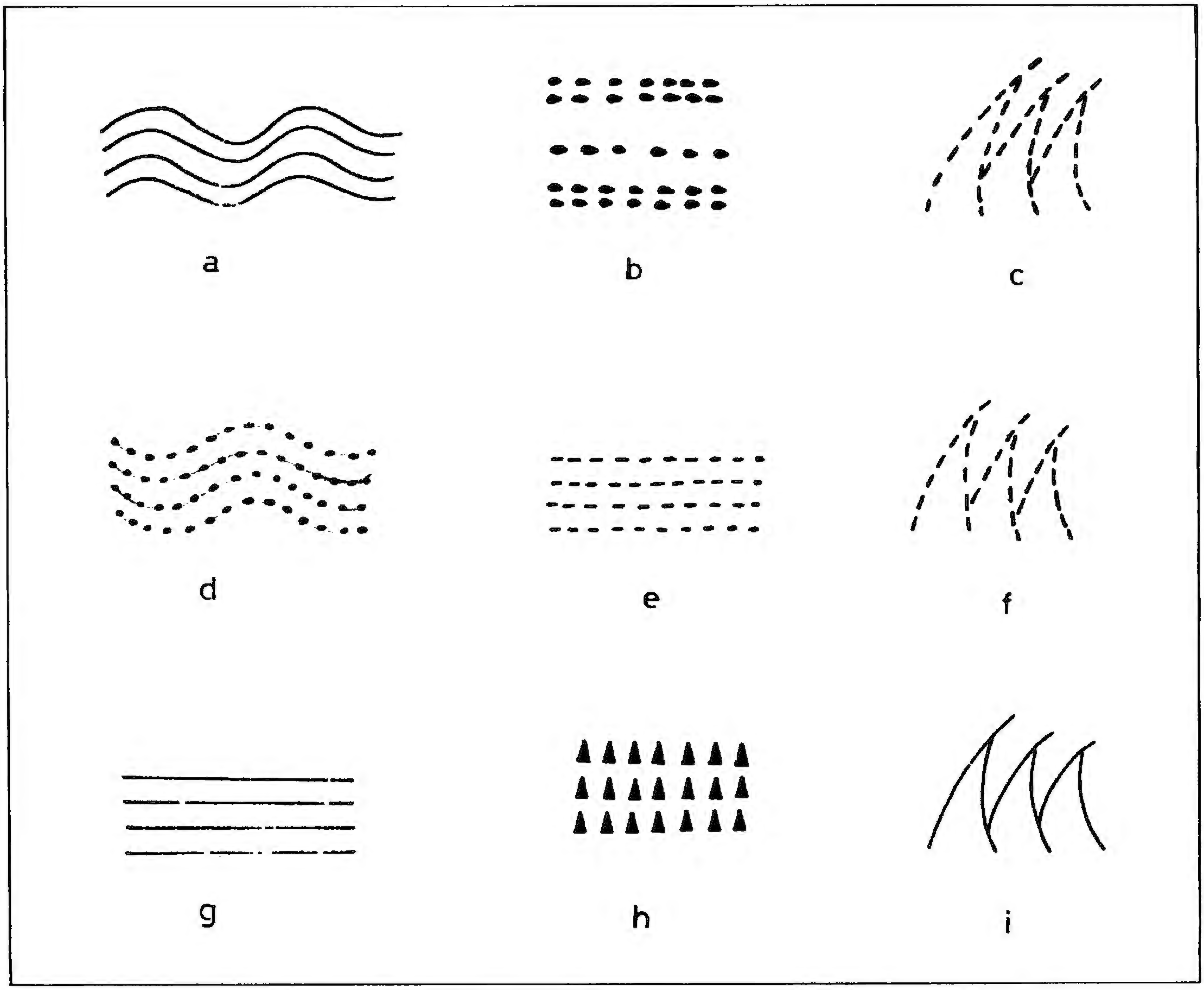


Fig. 2. The Khartoum Mesolithic – Neolithic ceramic motifs:

Top row : Khartoum Mesolithic; (a) wavy line, (b) banded, (c) dotted zigzag.

Middle row : Motifs common to both the Mesolithic (on unburnished surfaces) and the Neolithic (on burnished surfaces), (d) dotted wavy lin,e (e) dotted straight line and (f) dotted zigzag.

Bottom row : Khartoum Neolithic; (g) straight line, (h) triangles and (i) zigzag lines.

it spread only to the nearer hinterlands of the Nile as seen at Shaqadud midden[(22)] and the survey sites around it.[(23)] Otherwise it pertains on the Central Nile. Assemblages of the «Khartoum Related Group» of Old Dongola[(24)] and the Khartoum Veriant' of Wadi Halfa[(25)] exhibit no clear links to the Khartoum Neolithic of the Central Nile.

Thus, whatever the validity and utility of the «Khartoum Horizon Style» for the Central Nile and the western Sahel, it cannot be applied meaningfully to that area to the east of Nile. It is also expected that when regional variation in ceramic technologies and typologies for the area west of the Nile, are better examined, it might as well throw light on the validity of the term for that area. Together with this more radiocarbon dates for the early ceramic assemblages of the Eastern Sahel are definitely needed before the question on the spread of the Khartoum ceramic styles can be finally settled.

Acknowledgement: The authors are indebted to Mr. M.M. Mahmoud for drawing the figures for this paper.

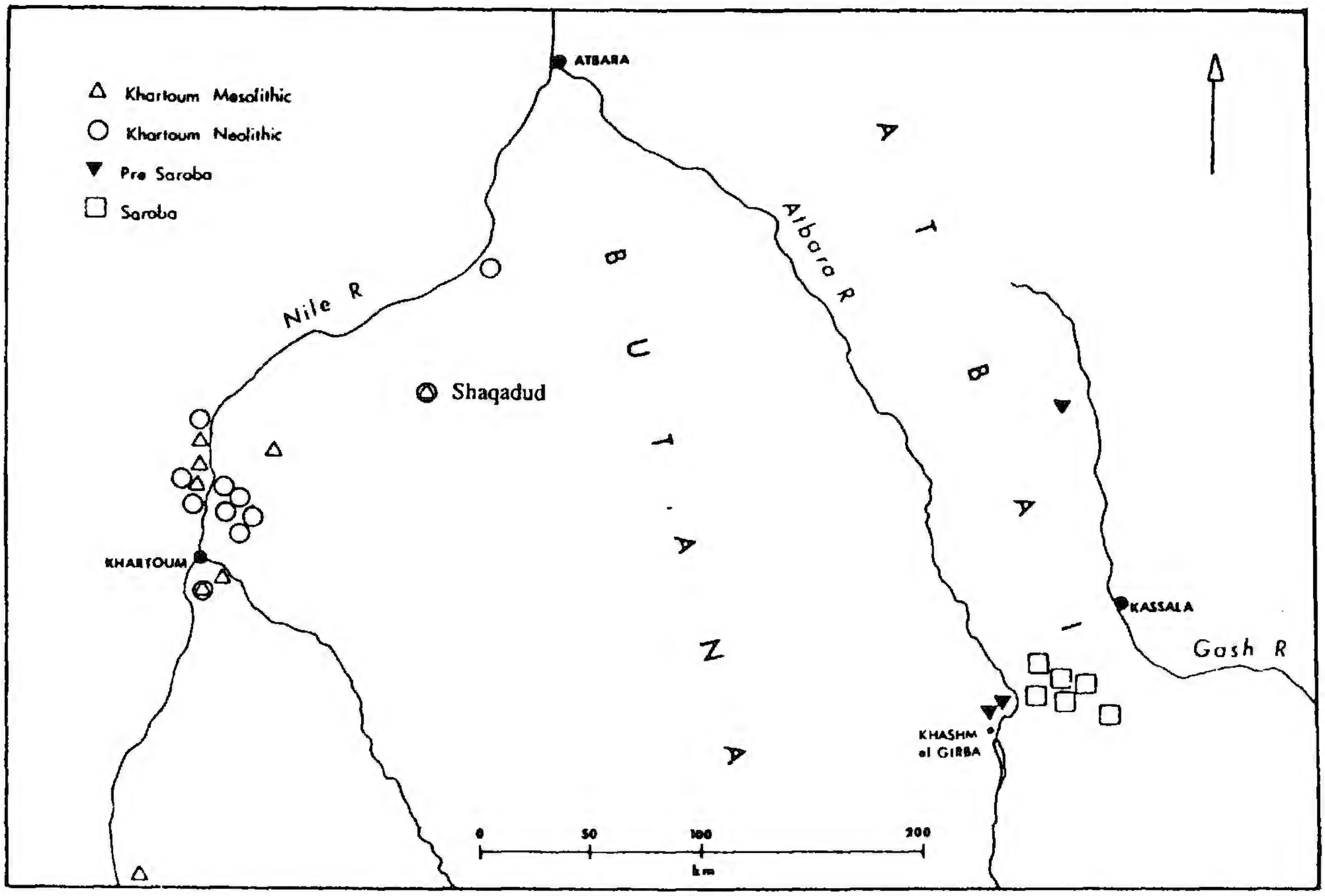


Fig. 1. Map of Central and Eastern Sudan, showing the location of assemblages mentioned in the text.

(22) Mohammed-Ali and Marks, p. 56.

(23) Y. El-Amin and A. Khabir, «Neolithic pottery from survey sites around Shaqadud, Western Butana, Sudan», A paper read in **6th Intern. Conf. Nubian Studies,** Uppsala (1986).

(24) A. Marks, J. Shiner, and T.R. Hays «Survey and excavations in the Dongola reach, Sudan», **Current Anthropology** 9 (1968), pp. 310-323.

(25) J. Shiner, «The Khartoum variant industry», in F. Wendorf (ed.) **The Prehistory of Nubia,** (Dallas): S.M.U. Press, 1968), pp. 768-790.

tral Nile. The apparent similarity between the Pre-Saroba and contemporary Khartoum Mesolithic assemblages, minimal though it is, breaks down between the Saroba and the Khartoum Neolithic assemblages of the Central Nile.

The Saroba Phase sites, so far, have only been found on the steppe well back from the Atbara River, while the Khartoum Neolithic sites continue to be located along the river bank. In addition, compared to the Khartoum Neolithic sites, the Saroba settlements are smaller and have very shallow occupational debris, suggesting a mobile economy and probably a different adaptive pattern from that of the Nile Valley. Both the Saroba and the Khartoum Neolithic tool inventory include poorly made scrapers and retouched and backed pieces, but stone rings, flaked adzes and polished gouges are not found in the latter two, suggesting, perhaps, less wood working. Among the ceramics, all the decorative features, diagnostic of the Khartoum Neolithic (such as straight lines (Fig. 2, g) triangle patterns (Fig. 2, h, burnishing and/or slipping, are absent in the Saroba assemblages. While the Saroba groups were still hunters-gatherers, those on the Central Nile had domestic cattle, sheep and goat. They also exploited fish to a large extent. The differences between these two groups seem to out number the similarities. Yet, these differences do not exclude the presence of a Horizon Style, since adaptation is a basic limiting criterion.

As shown above, the concept of a «Horizon Style» rests upon two fundamental criteria: 1. a resemblance of certain style groups, and 2. a rapid spread of this style over a wide geographical area. When the ceramic material from Eastern Sudan is examined in the light of these criteria, it becomes obvious that a re-evaluation is needed.

As for the spread of motifs, those of the Eastern Sudan and those of the Central Nile differ in many respects. For instance, in their format those of the Central Nile cover the entire surface of the pot, while these of the Eastern Sudan are confined only to the upper portion of the vessel. Also, the wavy line motif of the Central Nile is always placed horizontally while that of the Eastern Sudan is sometimes vertically oriented. The rest of the decorative motifs of the Central Nile such as the dotted wavy line are non-existent in Eastern Sudan. By the Khartoum Neolithic times, ceramic motifs on the Central Nile were dominated by straight-line, triangle patterns and zigzag lines. These decorative elements never reach the Eastern Sudan. In addition burnishing which is characteristic of the Khartoum Neolithic is unknown among the Saroba assemblages.

In regard to rapid spread, the wavy line motif has a long life span on the Central Nile, ranging from the 9th million B.P. to the 7th million B.P.[18]. This is also confirmed by dates from Saggai (at ca. 7300 B.P.).[19] Further east, the site complex of Shaqudud, 50 km east of the Nile, gave a date of ca. 7000 B.P. associated with wavy line pottery.[20] Although we do not have a date from KG55, it can only date shortly before KG14 (ca. 6215 B.P.).

Thus, at the present state of knowledge, the wavy line motif, not to mention pottery making itself, may have been present on the Nile for ca. 2000 years before it spread across the Butana to the Atbara River basin. At this time level, at least, the Eastern Sudan cannot be linked to the Nile Valley by a «rapid» spread of any ceramic tradition.

How then did the Nile Valley and the Eastern Sudan become linked to a «Khartoum Horizon Style»? It was based only upon the broadest cultural affinities. At the «Mesolithic» level, these included a riverine oriented adaptation, as well as the common presence of similar techniques (combing, impressing,... etc.) and ceramic decorations (dotted straight line, dotted zigzags) (Fig. 2, e,f). These, however, are not only to general to constitute a Horizon Style but their much later appearance in the Atbara River basin, as opposed to the Nile, indicate, if anything, a rather slow diffusion of traits. It should be emphasized as well, that the Khartoum Neolithic ceramic patterns (Fig. 2, g-i) reached neither the upper Atbara river basin nor the steppe to the east of it. The Khartoum Neolithic has a limited special distribution[21] and at most

(18) J.D. Clark «Recent archaeological and geomorphological field studies in the Sudan», **Nyame Akuma** 3 (1973), pp. 57-64, and A. Mohammed-Ali (1984), pp. 117-119.

(19) I. Caneva, **Pottery Using Gatherers and Hunters at Saggai, Sudan: Precondition for food Production** (Rome: Origini, 1983).

(20) A. Mohammed-Ali and A. Marks. «The prehistory of Shaqadud in the Western Butana, Central Sudan: A Preliminary Report», **Norwegian Archaeological Review** 17 (1984), pp. 52-59.

(21) A. Mohammed-Ali, «The Neolithic of the Eastern Sudan and its implications for the Central Nile», **Proc. 6th Intern. Conf. Nubian Studies,** Uppsala (1986).

The primary decorative motif in this collection is a vertical or horizontal pattern of wavy lines, with the majority of the sherds being rim sherds, while most of the undecorated sherds are body sherds. Thus, decoration is confined to the upper portion of the vessel. The total sample of sherds is limited but several large pieces were reconstructed, suggesting open vessels, with straight rims and pointed bases. These reconstructions have confirmed that the decoration occurred only on a wide band around the upper portion of the vessel.

KG14 revealed 35cm of cultural deposit. The faunal remains were well preserved and a wide range of mollusca, reptiles and large and small mammals were recovered. These include **Limicoloria, Pila** , crocodile, monkey, jackal, cat and **bovid,** indicating much wetter climatic conditions than those prevailing in the area today. A great number of grinding stones were recovered from KG14, but no macrobotanical remains, other than charcoal, were found. A charcoal sample provided a radiocarbon date of 6,215 B.P. ± 75 (SMU – 1139) making KG14 essentially contemporaneous with a late phase of the Khartoum Mesolithic.[17] The tool kit includes well made elongated lunates, backed bladelets, notched pieces and denticulates, as well as a small series of poorly made scrapers.

The pottery from this site differs from KG55. The fabric consists of grained clays lightly to heavily included with fine sand and mica. On a few sherds, inclusions of small grains of crushed iron stone and small clumps of fibrids were found. The majority of the sherds are undecorated and about half are highly smoothed, although not truly burnished. Impressing and rocker stamping were the main decorative techniques employed. The primary decorative motifs include dotted straight line and dotted zigzag line. For these, the decoration was limited to the upper portion of the vessels and it was made in wide zoned bands. There are vessels with zoned, rectangular areas of parallel rows of small knobs of clay also restricted to the upper part of the vessel. This decoration never occurs in combination with any other kind of motif.

Although distinct, the ceramic assemblages from the two sites share few attributes, i.e. smoothed exterior surfaces and decorations limited to the upper body of the vessel, but they differ in almost every other respect.

The Saroba Phase is currently defined by four sites, (KG10, KG13, KG94 and KG104), while another four sites are known but await further investigation. All the Saroba sites are located east of the Atbara, on the steppe between the Atbara River and the Gash Delta. KG10, KG13 and KG104 occupy areas on the average of about 5,000 sq.m. and have maximum depths of c. 10 cm KG94 is the largest Saroba site and occupies an area of about 12,000 sq.m. The faunal material from these sites consists of wild animals, including lizards warthog, large and small **bovids.** A high concentration of **Pila** shells indicates seasonal innundation. No botanical remains were recovered but many fragments of grinding equipment were found. The ceramics from these sites are quite uniform. The fabrics consist of fine to coarse grained clays moderately to heavily included with sand. The sand grains vary from fine to medium to coarse. The fabrics are friable, buff-coloured and unburnished. They are decorated in dotted straight lines and dotted zigzags. The tool types include well made elongated lunates, backed pieces, notches, denticulates and scrapers. A radiocarbon date of 5644 B.P. ± 70 (S.M.U. 1181) was obtained from KG10.

The question to be dealt with here is the relationship between these early ceramic groups of the eastern Butana and the Gash Delta has with their counterparts on the Central Nile, both of which are thought to fall within the Khartoum Horizon Style. Both groups were adapted to riverine environments during periods of wetter environmental conditions, with economics oriented towards hunting, gathering and fishing. The tool kits are similar in the abundance of grinding implements and backed elements, but the Pre-Saroba and the Saroba Phases lack the stone rings, net sinkers, and bone points of the Khartoum Mesolithic. In addition, the raw material utilized on the Nile was mainly quartz, while on the Atbara it was primarily chert and agate, clearly reflecting local availability.

Like the rest of the material culture, when the ceramics from these two areas are compared they exhibit similarities and differences. While wavy line (Fig. 2, a), dotted straight line (Fig. 2, e) and dotted zigzag line (Fig. 2, c) motifs are found in both, dotted wavy line (Fig. 2, d) and banded (Fig. 2, b) motifs are only confined to the Khartoum Mesolithic assemblages on the Central Nile. On the other hand, the knobbed decoration of the Pre-Saroba and the format of the decorative motifs of the Eastern Sudan in general have no parallels on the Cen-

(17) A. Mohammed-Ali «Sorourab-1, a Neolithic site in the Khartoum Province, Sudan», **Current Anthropology** 25 (1984), pp. 117-119.

the archaeological data from a variety of sites within this «Cultural Area» was examined, these concepts were reconsidered, though reconfirmed and a model of a «Khartoum Horizon Style» was proposed.(10)

The concept of the «Horizon Style» was first formalized by A.L. Kroeber(11) as «one showing definably distinct features some of which extend over a large area, so that its relationship with other more local styles, serve to place these in relative time». Willey and Phillips(12) characterize the concept as a specialized cultural continuum, represented by the wide distribution of a recognizable art style. Assuming the historical uniqueness of a stylistic pattern and assuming styles normally change with considerable rapidity, the element of time is reduced to the point where the style serves to equate phases on larger units of culture within that time which are otherwise widely separated in space. Willey and Phillips also note that the concept has a limited application, since it presupposes a certain level of aesthetic development. They have in mind highly specialized artifact types, widely traded objects, new technologies, unusual burial practices, or peculiar ritual assemblages. In other words, a Horizon Style is identified archaeologically by any kind of evidence indicating a rapid spread of new ideas over a wide geographic area.

The object of this paper is to examine the validity of the Horizon Style concept fo the Eastern Sudan in the light of some recent work in that area.

Based on an earlier reconnaissance survey(13) members of the Butana Archaeological Project, which is a joint University of Khartoum/Southern Methodist University mission, conducted systematic surveys and excavations along the Atbaera River, near the town of Khashm el-Girba, and to the east of the Atbara River towards the Ethiopia Plateau in the eastern Sahel, Sudan (Fig. 1).(14)

In the course of its two field seasons (1981-1983), the archaeology of a large area in the Butana was brought to light and a tentative cultural sequence based on radiocarbon dates and ceramic assemblages was established.(15) Our concern in this paper, lies with the earliest ceramic assemblages of the Eastern Sudan and their relationship to contemporary assemblages to the west across the Butana, along the River Nile.

The Butana and the area east of it are flat, basically featurless plains, extending from the River Nile to the Ethiopian Plateau. The topography is interrupted by two major drainage systems, the Atbara and the Gash (Fig. 1), which annually carry a considerable amount of water and silt from the Ethiopian highlands to the Butana Plains and the Gash Delta.

Work in the area has uncovered a number of early ceramic bearing sites along the Atbara River, across the steppe to the east of it, and in the Gash Delta. A number of the earliest ceramic assemblages in this region have tentatively been assigned to two phases: The Pre-Saroba and the Saroba. It is currently unclear whether the Pre-Saroba developed into the Saroba, but it is apparent that the Saroba Phase is part of a local long ceramic tradition, lasting almost to the historic period.(16)

The pre-Saroba Phase consists, so far, of two sites: KG55 and KG14, both of which are situated on the west bank of the Atbara River, about 2m above the present flood plain. KG55 covers an area of c. 3000 sq.m. and KG14 covers an area of c. 8000 sq.m.; both are deflated.

KG55 is a surface site. The faunal remains are of wild animals including fish, crocodile, hippopatomus and a variety of different sized bovids, indicating a rich savannah habitat. The lithic sample from this site is as yet too small to allow for any conclusions to be made, but it includes a few elongated backed pieces. The ceramic assemblage consists of two kinds of fabrics, one has a coarse textured paste, heavily included with medium sized sand, and the other has a slightly finer textured paste, lightly included with fine sand. No burnish or slip was applied to any vessel surface but about 15% of the sherds were well smoothed on their exterior surfaces.

(10) Hays; T.R. Hays, «Wavy Line Pottery: An element of Nilotic Diffusion», **South African Archaeological Bulletin**, 29, (1974), pp. 27-32.

(11) A.J. Kroeber, «Peruvian Archaeology in 1942» **Viking Fund Publications in Anthropology** 4 (1944), p. 108.

(12) G.R. Willey and P. Phillips, **Methods and Theory in Archaeology**, (Chicago: Chicago University Press, 1958), p. 32.

(13) J. Shiner, A. Marks, V. Chmielewiski, J. de Heinzelin, and T.R. Hays, **The Prehistory and Geology of Northern Sudan**, A report to the National Science Foundation, (Dallas: S.M.U. Press, 1971).

(14) A. Marks, A. Mohammed-Ali, T.R. Hays and Y. Elamin, «Butana Archaeological Project: 1981 field season», **Nyame Akuma** 20 (1982), pp. 47-50.

(15) R. Fattovich, A. Marks, and A. Mohammed-Ali, «The archaeology of the Eastern Sahel, Sudan», **African Archaeological Review** 2 (1984), pp. 173-88.

(16) Fattovich et al. pp. 173-188, and A. Mohammed-Ali «The later Prehistory of Eastern Sudan», in M. El-Badawi and D. Sconyers (eds) **Sudan Studies Association, Selected Conference Papers 1982-1984**, (Washington D.C., 1985), pp. 21-31.

Ages, Vol. 2 Part 2, 54 - 60 (1987)

The Early Ceramic Assemblages of the Eastern Sudan: A Re-evaluation of «the Khartoum Horizon Style»

Dr. Abbas S.A. Mohammed-Ali & Susan E. Jaeger

Abstract: *The pioneering work of A.J. Arkell in the field of prehistoric archaeology on the Central Nile in the 1940's has resulted in the discovery of early ceramic sites classified as the 'Khartoum Mesolithic' and 'Khartoum Neolithic'. These sites are characterized by certain decorative motifs that were later recovered at a number of localities along the African Sahel. A diffusion of these elements to and from the Central Nile was suggested. The Sahel belt from Mauretania to the Horn was viewed as 'Culture Area'. Recent work in the Eastern Sudan has threw light on this and other issues.*

The discovery of early ceramic key sites at Khartoum (Khartoum Mesolithic) and Shaheinab (Khartoum Neolithic) on the Central Nile (Fig. 1) by A.J. Arkell[1] has not only set a precedent for the study of Sudanese prehistory but also established a landmark for research on the later prehistoric cultural manifestations of the African Sahel. Ceramic decorative motifs considered diagnostic for these assemblages were later recovered from sites west of the Nile across the African Sahara and Sahel Belts, extending as far as Mauretania.[2] An eastern extension of this distribution was also assumed to have covered that part of the Sahel east of the Nile, known today as the Eastern Sudan[3], as well as the Horn of Africa.[4]

On the basis of some broad stylistic continuity of certain ceramic design motifs, an evolutionary sequence of a « Khartoum» Shaheinab, or a Khartoum Mesolithic - Khartoum Neolithic, development along the Central Nile was suggested.[5] A subsequent discovery of similar decorative motifs further west in the Sahel and the Sahara resulted in a theory of a westward diffusion of these Nilotic traits.[6] At a later date the theory was reversed.[7] These observed ceramic affinities have been broadly defined as the Neolithic of Sudanese Tradition[8] and the Saharan - Sudanese Complex. [9] At a later date when

(1) A.J. Arkell, **Early Khartoum** (Oxford: Oxford University Press, 1949), and A.J. Arkell, **Shaheinab** (Oxford: Oxford University Press, 1953).

(2) H.J. Hugo, «Recherches prehistorique dans L'Ahaggar nord occidental 1950-7» **Arts el Metiers Graphiques,** (1963); H. Camps-Fabrer, «Matiere et art mobilier dans la prehistorie nord-Africaine et saharienne». **CRAPE** 5 (1966); G. Camps, G. Delibrias and J. Thommenet, «Chronologie absolute et succession des civilizations prehistorique dans le Nord de L'Afrique» **Libyca** 16 (1968), pp. 9-28; and A. Smith «Preliminary report of excavations at Karkarichinkat, Mali», **West African Journal of Archaeology** 4 (1972), pp. 33-55.

(3) Arkell, **Early Khartoum,** p. 115.

(4) J.D. Clark «Comments on Predynastic developments in the Nile Valley», **Current Anthropology** 6 (1965), pp. 145-66.

(5) Arkell, **Early Khartoum,** p. 115. Arkell (Shaheinal),p. 102 .

(6) Arkell, **Early Khartoum;** Hugo (1963); R.A. Kennedy, «Comments on Origin of African Agriculture»,**Current Anthropology** 9, (1968), pp. 498-499 and Camps et al., (1968) .

(7) T.R. Hays, **The Sudanese Neolithic: A Critical Analysis,** Unpublished Ph.D. Thesis, Southern Methodest University, Dallas (1971); A. Mohammed-Ali, **The Neolithic Period in the Sudan, with Special Reference to the Eastern Sahara: 6000-2500 B.C.,** Unpublished Ph.D. Thesis, University of Cambridge, (1978); A. Mohammed-Ali, **The Neolithic Period in the Sudan: 6000-2500 B.C.** (Oxford British Archaeological Reports, 1982).

(8) Hugo; W.W. Bishop and J.D. Clark, **Background to Evolution in Africa** (Chicago: Chicago University Press, 1967).

(9) Camps-Fabrer .

Engish Section

القسم العربي

All MSS should be addressed to:

- Mars Publishing House,
  P.O.Box: 10720, Riyadh 11443,
  Saudi Arabia.

- Ty Derw, Dinas Mawddwy,
  South Gwyneldd,
  Wales, SY 20 9 LR

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE:

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S.$ 35
- All European Countries	U.S.$ 40
- U.S.A. & Canada	U.S.$ 45
- Australia & South Asia	U.S.$ 50

© 1987, **MARS PUBLISHING HOUSE, Riyadh, Saudi Arabia,**
P.O. Box 10720, Tel. 4757939-4647531
Telex 403129 MARS SJ.